تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن

تأليف الشيخ العلامة

محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي

المدرس بدار الحديث الخيرية في مكة المكرمة

إشراف ومراجعة

الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي

خبير الدراسات برابطة العالم الإسلامي

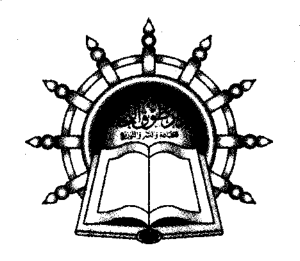
مكة المكرمة

المجلد الثالث والعشرون

دار طوق النجاة

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م



دار طوق النجاة

بيروت ـ لبنان

تفسير
حدائق الروح والريحان
في
روابي علوم القرآن


بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أجرى السحاب، وهزم الأحزاب، ونصر الأحباب بريح وجنود لم يروها، وعلَّم الإنسان ما لم يعلموها، وأنزل القرآن تنويراً للصدور، وتزييناً للنحور، وجعله معجزة باقية علىٰ ممر الدهور، والصلاة والسلام علىٰ من أوتي جوامع الكلم، سيدنا محمد وعلىٰ آله وأصحابه ذوي النجدة والكرم، وعلىٰ من تبعهم إلى يوم الجزاء من العرب والعجم.

أما بعد: فإني لما تفرغت من تفسير الجزء الحادي والعشرين من القرآن الكريم.. تصديت لتفسير الجزء الثاني والعشرين منه، مستمداً من فيض من إذا أراد شيئاً هيَّأ له أسبابه، وفتح بيد التسهيل، والتيسير بابه، فهو المرجو في كل دعاء، والمأمول في كل رجاء، فقلت وقولي هذا:

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ

﴿أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَـٰلَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر[1] زيادة عقابهن إذا أتين بفاحشة مبينة.. أتبعه بذكر ثوابهن إذا هن عملن صالح الأعمال، مع ما هيأه لهن من الرزق الكريم في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا يوفقن إلى إنفاق ما يرزقن على وجه يكون لهن فيه عظيم الأجر والثواب، ولا يخشين من أجله العقاب، وفي الآخرة يرزقن ما لا يحد ولا يوصف من غير نكد ولا كدرٍ.

وقوله تعالى: ﴿يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر ما اختصَّ به أمهات المؤمنين من مضاعفة العذاب والثواب.. أردف ذلك بيان أن لهن مكانة على بقية النساء، ثم نهاهن عن رخامة الصوت، ولين الكلام إذا هن استقبلن أحداً، حتى لا يطمع فيهن من في قلبه نفاق، ثم أمرهن بالقرار في بيوتهن، ونهاهن عن إظهار محاسنهن، كما يفعل ذلك أهل الجاهلية الأولى، ثم أمرهن بأهم أركان الدين، وهو إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الله ورسوله فيما يأمر وينهى؛ لأنه تعالى أذهب الآثام عن أهل البيت، وطهرهن تطهيراً، ثم أمرهن بتعليم غيرهن القرآن، وما يسمعنه من النبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما أمر نساء نبيه ﷺ بأشياء، ونهاهن عن أخرى.. ذكر هنا ما أعد

---

(١) المراغي.

للمسلمين والمسلمات من الأجر والكرامة عنده في الدار الآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله ـ سبحانه ـ لما أمر نبيه ﷺ أن يخيِّر زوجاته بين البقاء معه والتسريح سراحاً جميلاً، وفهم من هذا أن الرسول ﷺ لا يريد ضرراً لغيره، فمن كان ميله إلى شيء مكنه منه، وترك حظ نفسه لحظ غيره.. ذكر هنا أن زمام الاختيار ليس بيد الإنسان في كل شيء كما أعطي ذلك للزوجات، بل هناك أمور لا اختيار لمؤمن ولا مؤمنة فيها، وهي ما حكم الله فيه، فما أمر به فهو المتبع، وما أراد النبي ﷺ فهو الحق، ومن خالفهما.. فقد ضل ضلالاً مبيناً.

وعبارة أبي حيان هنا: ومناسبة هذه الآية لما قبلها: أنه تعالى لما ذكر تلك الأوصاف السابقة من الإسلام فما بعده.. عقب ذلك بما صدر من بعض المسلمين؛ إذ أشار الرسول بأمر وقع منهم الإباء له، فأنكر عليهم؛ إذ طاعته ﷺ من طاعة الله تعالى، وأمره من أمره انتهى.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر[1] ما ينبغي أن يكون عليه النبي ﷺ مع ربه من تقواه، وإخلاصه له في السر والعلن، وما ينبغي أن يكون عليه مع أهله وأقاربه من راحتهم، وإيثارهم على نفسه فيما يطلبون، كما يومىء إلى ذلك قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ...﴾ إلخ.. أرشد عباده إلى تعظيمه تعالى، وإجلاله بذكره، والتسبيح له بكرة وأصيلاً، فهو الذي يرحمهم، وملائكته يستغفرون لهم كي يخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، وكان بعباده المؤمنين رحيماً.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ...﴾ الآية، سبب نزولها[2]: ما أخرجه الترمذي ـ وحسنه من طريق عكرمة ـ عن أم عمارة الأنصارية: أنها أتت النبي ﷺ، فقالت: ما أرى كل شيء إلا للرجال، وما أرى النساء يذكرن بشيء، فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ...﴾ إلخ.

---

(١) المراغي.
(٢) لباب النقول

وأخرج أحمد عن عبد الرحمن بن شيبة، قال: سمعت أم سلمة زوج النبي ﷺ تقول: قلت للنبي ﷺ: ما لنا لا نذكر في القرآن، كما يذكر الرجال؟ قالت: فلم يرعني منه ذات يوم إلا نداؤه على المنبر، وأنا أسرح رأسي، فلففت شعري، ثم خرجت إلى حجرة من حجرهن، فجعلت سمعي عند الجريد، فإذا هو يقول على المنبر: «يا أيها الناس، إن الله يقول في كتابه: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾».

وأخرج الطبراني بسند لا بأس به عن ابن عباس، قال: قالت النساء: يا رسول الله، ما باله يذكر المؤمنين، ولا يذكر المؤمنات؟، فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ...﴾ إلخ.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرج الطبراني بسند صحيح عن قتادة قال: خطب النبي ﷺ زينب، وهو يريدها لزيد بن حارثة، فظنت أنه يريدها لنفسه، فلما علمت أنه يريدها لزيد.. أبت، فأنزل الله قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ...﴾ الآية، فرضيت وسلمت.

وأخرج ابن جرير من طريق عكرمة عن ابن عباس قال: خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش لزيد بن حارثة، فاستنكفت، وقالت: أنا خير منه حسباً، فأنزل الله قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ...﴾ الآية كلها.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه البخاري عن أنس أن هذه الآية: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ نزلت في زينب بنت جحش، وزيد بن حارثة.

وأخرج الحاكم عن أنس قال: جاء زيد بن حارثة يشكو إلى رسول الله ﷺ من زينب بنت جحش، فقال النبي ﷺ: «أمسك عليك أهلك»، فنزلت: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾.

وأخرج مسلم وأحمد والنسائي قال: لما انقضت عدة زينب.. قال رسول الله ﷺ لزيد: «اذهب فاذكرها عليّ»، فانطلق، فأخبرها فقالت: «ما أنا بصانعة شيئاً حتى أؤامر ربي، فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن، وجاء رسول الله ﷺ، فدخل عليها بغير إذن، ولقد رأيتنا حين دخلت على رسول الله ﷺ

أطعمنا عليها الخبز واللحم، فخرج الناس، وبقي رجال يتحدثون في البيت بعد الطعام، فخرج رسول الله ﷺ واتبعته، فجعل يتبع حجر نسائه، ثم أخبرته أن القوم قد خرجوا، فانطلق حتى دخل، فذهبت أدخل، فألقى الستر بيني وبينه، ونزل الحجاب، ووعظ القوم بما وعظوا به: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ...﴾ الآية، سبب نزولها[1]: ما أخرجه الترمذي عن عائشة قالت: لما تزوج النبي ﷺ زينب.. قالوا: تزوج حليلة ابنه، فأنزل الله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه عبد بن حميد عن مجاهد قال: لما نزلت ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾.. قال أبو بكر: يا رسول الله، ما أنزل الله عليك خيراً إلا أشركنا فيه، فنزلت: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ...﴾ الآية.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَمَن يَقْنُتْ﴾ ويخضع ﴿مِنكُنَّ﴾ يا نساء النبي ﷺ ﴿لِلَّهِ﴾ سبحانه بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، ﴿و﴾ يقنت لـ﴿رسوله﴾ ﷺ؛ بترك النشوز وسوء الخلق، وطلب ما ليس عنده من متاع الدنيا ﴿وَتَعْمَلْ﴾ عملاً ﴿صَالِحًا﴾؛ أي: مخلصاً لله سبحانه ﴿نُّؤْتِهَا﴾؛ أي: نعطها ﴿أَجْرَهَا﴾ وثوابها ﴿مَرَّتَيْنِ﴾؛ أي: ضعفين، فتجزى حسنتهن بعشرين حسنة.

ومعنى إيتائهن الأجر مرتين: أنه يكون لهن من الأجر على الطاعة مثلا ما يستحقه غيرهن من النساء إذا فعلت تلك الطاعة، وفي هذا[2] دليل قوي على أن معنى ﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ أنه يكون العذاب مرتين، لا ثلاثاً؛ لأن المراد إظهار شرفهن ومزيتهن في الطاعة والمعصية، تكون حسنتهن كحسنتين، وسيئتهن كسيئتين، ولو كانت سيئتهن كثلاث سيئات.. لم يناسب ذلك كون حسنتهن كحسنتين، فإن الله سبحانه أعدل من أن يضاعف العقوبة عليهن مضاعفة تزيد على

(١) لباب النقول (٢) الشوكاني.

مضاعفة أجرهن.

فائدة: فإن قلت: لِمَ خص الله سبحانه نساء النبي ﷺ بتضعيف العقوبة على الذنب، والمثوبة على الطاعة؟

قلت: أما الأول: فلأنهن يشاهدن من الزواجر الرادعة عن الذنوب ما لا يشاهده غيرهن، ولأن في معصيتهن أذى لرسول الله ﷺ، وذنب من آذى رسول الله أعظم من ذنب غيره، وأما الثاني: فلأنهن أشرف من سائر النساء؛ لقربهن من رسول الله ﷺ، فكانت الطاعة منهن أشرف، كما أن المعصية منهن أقبح. اهـ «فتح الرحمن».

وقيل: معنى ﴿نُؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾؛ أي: مرة[1] على الطاعة والتقوى لله سبحانه، وأخرى على طلبهن رضاء رسول الله ﷺ بالقناعة وحسن المعاشرة.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿وَمَن يَقْنُتْ﴾ بالياء التحتية حملاً على لفظ ﴿مَن﴾ ﴿وَتَعْمَلْ﴾ بالتاء الفوقية حملاً على المعنى، و﴿نُؤْتِهَآ﴾ بنون العظمة. وقرأ الجحدري والأسواري ويعقوب في رواية: ﴿ومن تقنت﴾ بتاء التأنيث حملاً على المعنى، وبها قرأ ابن عامر في رواية رواها أبو حاتم عن أبي جعفر وشيبة ونافع. وقرأ السلمي وابن وثاب وحمزة والكسائي بالتحتية في ثلاثتها ﴿يقنت﴾، ﴿يعمل﴾، ﴿يؤتها﴾.

﴿وَأَعْتَدْنَا﴾؛ أي: هيأنا. ﴿لَهَا﴾؛ أي: لمن يقنت منكن لله ورسوله في الجنة زيادة على أجرها المضاعف. ﴿رِزْقًا كَرِيمًا﴾؛ أي: رزقاً حسناً مرضياً، وفيه[3] إشارة إلى أنَّ الرزق الكريم في الحقيقة هو نعيم الجنة، فمن أراده يترك التنعم في الدنيا، وقال النبي عليه الصلاة والسلام لمعاذ: «إياك والتنعم، فإن عباد الله ليسوا بمتنعمين» يعني: أن عباد الله الخلص لا يرضون نعيم الدنيا بدل نعيم الآخرة، فإن نعيم الدنيا فانٍ.

والمعنى: أي ومن تطع منكن الله ورسوله، وتعمل صالح الأعمال.. نضاعف لها الأجر والمثوبة لكرامتها علينا بوجودها في بيت النبوة، ومنزل الوحي، ونور

---

(١) أبو السعود. (٢) البحر المحيط. (٣) روح البيان.

الحكمة، وعين الهداية، وهيأنا لها زيادةً على هذا الكرامة في الدنيا والآخرة.

أما في الدنيا: فلأنها تكون مرموقة بعين الغبطة لدى نساء العالمين، منظوراً إليها نظرة المهابةِ والإجلال، وأما في الآخرة: فلها رفيع الدرجات، وعظيم المنازل عنده تعالى في جنات النعيم.

ثم أظهر سبحانه فضيلتهن على سائر النساء تصريحاً، فقال: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾ ﷺ؛ أي: يا أزواج النبي ﴿لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾؛ أي: لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء في الفضل والشرف، بسبب صحبة النبي ﷺ، فإن المضاف إلى الشريف شريف. قال الزجاج: لم يقل كواحدة من النساء؛ لأن أحداً نفي عام للمذكر والمؤنث، والواحد والجماعة، وقد يقال على ما ليس بآدمي، كما يقال: ليس فيها أحد، لا شاة ولا بعير.

ثم قيد هذا الشرف العظيم بقيد فقال: ﴿إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ﴾ مخالفة حكم الله سبحانه، ورضى رسوله، فهو قيد خيريتهن، وبيان أن فضيلتهن إنما تكون بالتقوى، لا باتصالهن بالنبي ﷺ.

والمعنى[1]: أنه يوجد فيكن من التمييز ما لا يوجد في غيركن، وهو كونكن أمهات المؤمنين، وزوجات خير المرسلين، ونزول القرآن فيكن. فكما أنه ﷺ ليس كأحد من الرجال، كما قال عليه السلام: «لست كأحدكم»، كذلك زوجاته اللاتي تشرفن به.

قال ابن عباس: يريد ليس قدركن عندي مثل قدر غيركن من النساء الصالحات، بل أنتن أكرم عليَّ، وثوابكن أعظم لديَّ. انتهى. وقد وقعت منهن - ولله الحمد - التقوى البينة، والإيمان الخالص، والمشي على طريقة الرسول ﷺ في حياته، وبعد مماته. وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه؛ أي: إن اتقيتن.. فلستن كأحد من النساء. وقيل: إن جوابه: ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ﴾، والأول أولى؛ لدلالة الجواب المحذوف على نفي المساواة التي يفيدها التشبيه، وعلى هذا: فجملة ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ﴾ مستأنفة؛ أي: فلا تخضعن ولا تلنَّ ﴿بِٱلۡقَوۡلِ﴾ عند مخاطبة الناس؛ أي: لا

(١) البحر المحيط.

تجبن بقولكن قولاً خاضعاً ليناً، كما تفعله المريبات والمُطمعات من النساء المومسات، فإنه يتسبب عن ذلك مفسدة عظيمة.

والخضوع[1]: التطامن والتواضع والسكون واللين في الكلام، والمرأة مندوبة إلى الغلظة والخشونة في المقالة إذا خاطبت الأجانب؛ لقطع الأطماع، فإذا أتى الرجل باب إنسان وهو غائب، فلا يجوز للمرأة أن تلين بالقول معه، وترقق الكلام له، فإنه يهيج الشهوة، ويورث الطمع، كما قال: ﴿فَيَطْمَعَ﴾ بالنصب، لوقوعه في جواب النهي؛ أي: فيطمع فيكن، ويقصد الزنا بكن ﴿ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾؛ أي: نفاق، أو محبة فجور، أو شهوة.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿فَيَطْمَعَ﴾ بفتح الميم ونصب العين جواباً للنهي. وقرأ أبان بن عثمان وابن هرمز بالجزم عطفاً على محل فعل النهي، فكسرت العين للالتقاء الساكنين، نهين عن الخضوع بالقول، ونهي مريض القلب عن الطمع. كأنه قيل: لا تخضع فلا تطمع. وقراءة النصب أبلغ؛ لأنها تقتضي الخضوع بسبب الطمع، وقال أبو عمرو الداني: قرأ الأعرج وعيسى ﴿فَيطمِعَ﴾ بفتح الياء وكسر الميم، ونقلها ابن خالويه عن أبي السمال قال: وقد روي عن ابن محيصن وذكر أنَّ الأعرج ـ وهو ابن هرمز ـ قرأ: ﴿فيُطمِعَ﴾ بضم الياء وفتح العين وكسر الميم؛ أي: فيطمع هو؛ أي: الخضوع بالقول، و﴿ٱلَّذِى﴾: مفعول، أو ﴿ٱلَّذِى﴾ فاعل والمفعول محذوف؛ أي: فيطمع نفسه.

﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ عند الناس بعيداً من التهمة والريبة والإطماع بجد وخشونة، لا بتكسر وتغنج، كما يفعله المخنث على سنن الشرع، لا ينكر منه سامعه شيئاً، ولا يطمع فيهن أهل الفسق والفجور بسببه، فالزنا من أسباب الهلاك المعنوي، كالموت من أسباب الهلاك الحسي، وسببه الملاينة في الكلام والمطاوعة.

والمعنى: أي يا نساء النبي، إذا استُقصيت النساء جماعة. . لم يوجد منهن جماعة واحدة تساويكن في الفضل والكرامة.

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.

والخلاصة: أنه لا يشبهكن أحد من النساء، ولا يلحقكن في الفضيلة والمنزلة أحد إذا اتقيتن؛ أي: إذا استقبلتن أحداً من الرجال، فلا ترققن الكلام، فيطمع في الخيانة من في قلبه فساد وريبة من فسق ونفاق، وقلن قولاً بعيداً عن الريبة، غير مطمع لأحد. وتفسير الاتقاء بهذا المعنى ـ أعني الاستقبال ـ أبلغ في مدحهن؛ إذ لم يعلق فضلهن على التقوى، ولا علَّق نهيهن عن الخضوع بها؛ إذ هن متقيات لله في أنفسهن، والتعليق يقتضي بظاهره أنهن لسن متحليات بالتقوى، أمر[1] تعالى أن يكون الكلام خيراً، لا على وجه يظهر في القلب علاقة ما، كما كان الحال عليه في نساء العرب من مكالمة الرجال برخيم الصوت ولينه، مثل كلام المومسات. نهاهن عن ذلك، واتقى بمعنى: استقبل، معروف في اللغة، قال النابغة:

سَقَطَ ٱلنَّصِيْفُ وَلَمْ تُرِدْ إِسْقَاطَهُ   فَتَنَاوَلَتْهُ وٱتَّقَتْنا بِٱلْيَدِ

أي: استقبلتنا باليد. وقال في «الكشاف»: إن المعنى: إن أردتن التقوى، أو إن كنتن متقيات. اهـ.

وإجمال هذا[2]: خاطبن الأجانب بكلام لا ترخيم فيه للصوت، ولا تخاطبنهم كما تخاطبن الأزواج، ولما أمرهن بالقول المعروف.. أتبعه بذكر الفعل، فقال: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ أي[3]: والزمنَ يا نساء النبي بيوتكن، واثبتنَ في مساكنكن، فلا تخرجن لغير حاجة. وقيل: هو أمر من الوقار؛ أي: كنَّ أهل وقار وسكون، والخطاب وإن كان لنساء النبي ﷺ، فقد دخل فيه غيرهن. روي أن سودة بنت زمعة رضي الله عنها من الأزواج المطهرة: ما خطت باب حجرتها لصلاة ولا لحج ولا لعمرة، حتى أخرجت جنازتها من بيتها في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقيل لها: لم لا تحجين ولا تعتمرين؟ فقالت: قيل لنا: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾، وفي الحديث: «خير مساجد النساء قعر بيوتهن».

وأخرج الترمذي والبزار عن ابن مسعود: أنَّ النبي ﷺ قال: «إن المرأة عورة، فإذا خرجت من بيتها استشرفها الشيطان، وأقرب ما تكون من رحمة ربها، وهي في

---

(١) البحر المحيط.
(٢) المراغي.
(٣) روح البيان.

قعر بيتها».

وقرأ الجمهور[1]: ﴿وقِرن﴾ بكسر القاف من وقر يقر وقاراً إذا سكن، والأمر منه: قر بكسر القاف، وللنساء قرن مثل عدن وزن من وعد يعد، وأصله: أوقرن.

وقرأ نافع وعاصم وأبو جعفر: بفتح القاف، أمر من قر يقر بفتح القاف في المضارع من باب: علم، أصله: اقررن. وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿واقرِرن﴾ بألف الوصل وكسر الراء الأولى، وسيأتي البحث عن تصريف كل قراءة في مبحثه إن شاء الله تعالى.

﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾؛ أي: ولا تبدين زينتكن ومحاسنكن للرجال ﴿تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾؛ أي: تبرجاً مثل تبرج نساء أهل الجاهلية الأولى؛ أي: إظهاراً مثل إظهار نساء أهل الجاهلية الأولى زينتها ومحاسنها للرجال، أو المعنى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾؛ أي: ولا تتبخترن في[2] مشيكن تبرجاً وتبختراً مثل تبرج وتبختر نساء أهل الجاهلية الأولى في مشيتها.

والتبرج[3]: أن تبدي المرأة من زينتها ومحاسنها ما يجب عليها ستره، مما تستدعي به شهوة الرجل. قال المبرد: هو مأخوذ من البرج بمعنى: السعة، يقال: في أسنانه برج: إذا كانت متفرقة، وقيل: التبرج: هو التبختر في المشي، وهذا ضعيف جداً، وقد اختلف[4] في المراد بالجاهلية الأولى، فقيل: ما بين آدم ونوح، وقيل: ما بين نوح وإدريس، وقيل: ما بين نوح وإبراهيم، وقيل: ما بين موسى وعيسى، والجاهلية الأخرى: ما بين عيسى ومحمد ـ صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين ـ وقيل: الجاهلية الأولى: جاهلية الكفر قبل الإسلام، والجاهلية الأخرى: جاهلية الفسوق والفجور في الإسلام، وقال المبرد: الجاهلية الأولى، كما تقول: الجاهلية الجهلاء. قال: وكان نساء الجاهلية تظهر ما يقبح إظهاره، حتى كانت المرأة تجلس مع زوجها وخليلها، فينفرد خليلها بما فوق الإزار إلى أعلى، وينفرد زوجها بما دون الإزار إلى أسفل، وربما سأل أحدهما صاحبه البدل.

---

(١) البحر المحيط.
(٢) البيضاوي.
(٣) الشوكاني.
(٤) الشوكاني.

قال ابن عطية: والذي يظهر لي أنه أشار إلى الجاهلية التي لحقنها، فأمرن بالنقلة عن سيرتهن فيها، وهي ما كان قبل الشرع من سيرة الكفرة؛ لأنهم كانوا لا غيرة عندهم، وليس المعنى: أن ثم جاهلية أخرى، كذا قال، وهو قول حسن. ويمكن أن يراد بالجاهلية الأخرى: ما يقع في الإسلام من التشبه بأهل الجاهلية بقول أو فعل، فيكون المعنى: ولا تبرجن أيها المسلمات بعد إسلامكن تبرجاً مثل تبرج أهل الجاهلية التي كنتن عليها، وكان عليها من كان قبلكن؛ أي: لا تحدثن بأفعالكن وأقوالكن جاهلية تشابه الجاهلية التي كانت من قبل.

والحاصل: أن الله سبحانه أمرهن[1] بملازمة بيوتهن، ونهاهن عن التبرج. وأعلم تعالى أنه فعل الجاهلية الأولى، وكانت عائشة رضي الله عنها إذا قرأت هذه الآية بكت، حتى تبل خمارها، تتذكر خروجها أيام الجمل تطلب بدم عثمان. وقيل لسودة: لِمَ لا تحجين وتعتمرين، كما يفعل إخوانك؟ فقالت: قد حججت واعتمرت، وأمرني الله تعالى أن أقر في بيتي، فما خرجت من باب حجرتها، حتى أخرجت جنازتها، كما مرَّ.

وبعد أن نهاهن عن الشر.. أمرهن بالخير فقال: ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ التي هي أصل الطاعات البدنية ﴿وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ التي هي أشرف العبادات المالية؛ أي: إن كان لكن مال، كما في تفسير أبي الليث. ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ في سائر الأوامر والنواهي، فهو تعميم بعد تخصيص، وقال بعضهم: أطعن الله في الفرائض، ورسوله في السنن.

والمعنى[2]: أي وأدين الصلاة على الوجه القيم المعتبر شرعاً، وأعطين زكاة أموالكن، كما أمركن الله. وخَصَّ هاتين العبادتين بالذكر لما لهما من كبير الآثار في طهارة النفس، وطهارة المال، وأطعن الله ورسوله فيما تأتين، وما تذرين، واجعلن نصب أعينكن اتباع الأوامر، وترك النواهي.

ثم ذكر السبب في هذه الأوامر والنواهي على وجه عام، فقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى بتلك الأوامر والنواهي ﴿لِيُذْهِبَ﴾ ويزيل ﴿عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾؛

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

أي: الذنب المدنس للأعراض ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾؛ أي: يا أهل بيت الرسول الكريم، والمراد بهم: من حواه بيت النبوة رجالاً ونساءً، وهذا تعليل مستأنف لأمرهن ونهيهن، ولذلك عمم الحكم بتعميم الخطاب لغيرهن بقوله: ﴿عَنكُمُ﴾، وصرح بالمقصود حيث قال: ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾؛ أي: إنما أوصاكن الله ـ سبحانه ـ بما أوصاكن من التقوى، وأن لا تخضعن بالقول، ومن قول المعروف، والسكون في البيوت، وعدم التبرج، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الله ورسوله؛ ليذهب عنكم الرجس أهل البيت. والمراد بالرجس: الإثم والذنب المدنسان للأعراض، الحاصلان بسبب ترك ما أمر الله به، وفعل ما نهى عنه، فيدخل في ذلك كل ما ليس فيه لله رضاً، وانتصاب ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ على المدح، أو على حذف حرف النداء.

﴿وَيُطَهِّرَكُمْ﴾ من الأرجاس والأدران ﴿تَطْهِيرًا﴾ كاملاً، وفي استعارة الرجس للمعصية، والترشيح لها بالتطهير، تنفيرٌ عنها بليغ، وزجر لفاعلها شديد.

والمعنى: أي إنما يريد الله بذلك ليذهب عنكم السوء والفحشاء يا أهل بيت الرسول، ويطهركم من دنس الفسق والفجور الذي يعلق بأرباب الذنوب والمعاصي.

وقد اختلف أهل العلم في أهل البيت المذكورين في الآية[1]، فقال ابن عباس وعكرمة وعطاء والكلبي ومقاتل وسعيد بن جبير: إن أهل البيت المذكورين في الآية هن: زوجات النبي ﷺ خاصةً، قالوا: والمراد بالبيت: بيت النبي ﷺ، ومساكن زوجاته لقوله: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾، وأيضاً السياق في الزوجات من قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾، وسيأتي بيان أسماء زوجاته ﷺ، وبيان ترتيبها في الزواج في الفصل الآتي.

وقال أبو سعيد الخدري ومجاهد وقتادة، وروي عن الكلبي: أن أهل البيت المذكورين في الآية هم: علي وفاطمة والحسن والحسين خاصة، ومن حججهم: الخطاب في الآية بما يصلح للذكور لا للإناث، وهو قوله: ﴿عنكم وليطهركم﴾،

---

(١) الشوكاني.

ولو كان للنساء خاصة لقال: عنكن ويطهركن، وأجاب الأولون عن هذا: بأن التذكير باعتبار لفظ الأهل، كما قال سبحانه: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾، وكما يقول الرجل لصاحبه: كيف أهلك؟ يريد: زوجته أو زوجاته، فيقول: هم بخير.

وقد توسطت طائفة ثالثة بين الطائفتين، فجعلت هذه الآية شاملة للزوجات، ولعلي وفاطمة والحسن والحسين، أما الزوجات.. فلكونهن المرادات في سياق هذه الآيات كما قدمنا، ولكونهن الساكنات في بيوته ﷺ، النازلات في منازله، وأما دخول علي وفاطمة والحسن والحسين.. فلكونهم قرابته وأهل بيته في النسب، ويؤيد ذلك ما روي عن ابن عباس قال: شهدنا رسول الله ﷺ تسعة أشهر يأتي كل يوم باب علي بن أبي طالب عند وقت كل صلاة، فيقول: «السلام عليكم ورحمة الله، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم، الصلاة يرحمكم الله»، كلَّ يوم خمس مرات، وغير ذلك من الأحاديث المصرحة بأنهم سبب النزول.

وأهل البيت على هذا القول هم كل من كان ملازماً له ﷺ من الرجال والنساء والأزواج والإماء والأقارب، وكلما كان المرء منهم أقرب، وبالنبي ﷺ أخص وألزم.. كان بالإرادة أحق وأجدر، وقد رجح هذا القول جماعة من المحققين، منهم: القرطبي وابن كثير وغيرهما. وقيل: المراد بالبيت: بيت النسب، فيشمل جميع بني هاشم.

ثم بين ما أنعم به عليهن من أنَّ بيوتهن مهابط الوحي بقوله: ﴿وَاذْكُرْنَ﴾ للناس بطريق العظة والتذكير ﴿مَا يُتْلَى﴾ ويقرأ ﴿فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ ومنازلكن ﴿مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ سبحانه القرآنية الدالة على العقائد الصحيحية ﴿و﴾ الدالة على ﴿الحكمة﴾؛ أي: على الحكم والأحكام الشرعية؛ أي: من الكتاب الجامع بين كونه آيات الله البينة الدالة على صدق النبوة بنظمه المعجز، وبين كونه حكمة منطوية على فنون العلم والشرائع، وحمل قتادة الآيات على آيات القرآن، والحكمة على الحديث الذي هو محض حكمة، وقال مقاتل: المراد بالآيات والحكمة: أمره ونهيه في القرآن؛ أي[1]: واذكرن نعمة الله عليكن إذ جعلكن في بيوت تتلى فيها آيات الله،

---

(١) المراغي.

وما ينزل على الرسول من أحكام الدين، ولم ينزل به قرآن، فاحمدن الله على ذلك، واشكرنه على جزيل فضله عليكن، أو اذكرنها وتفكرن فيها لتتعظن بمواعظ الله، أو اذكرنها للناس ليتعظوا بها، ويهتدوا بهداها، أو اذكرنها بالتلاوة لها لتحفظنها، ولا تتركن الاستكثار من التلاوة.

ولا يخفى ما في هذا من الحث على الانتهاء والائتمار فيما كلفنه، كما لا يخفى ما في تسمية ما نزل عليه من الشرائع بالحكمة، إذ فيه الحكمة في صلاح المجتمع في معاشه ومعاده، فمن استمسك به رشد، ومن تركه ضل عن طريق الهدى، وسلك سبيل الردى، والتعرض[1] للتلاوة في البيوت دون النزول فيها مع أنه الأنسب؛ لكونها مهبط الوحي؛ لعمومها جميع الآيات، ووقوعها في كل البيوت، وتكررها الموجب لتمكنهن من الذكر والتذكير بخلاف النزول، وعدم تعيين التالي ليعم تلاوة جبريل، وتلاوة النبي، وتلاوتهن، وتلاوة غيرهن تعلماً وتعليماً. قال في «الوسيط»: وهذا حث لهن على حفظ القرآن، والأخبار، ومذاكرتهن بها للإحاطة بحدود الشريعة. والخطاب وإن اختص بهن.. فغيرهن داخل فيه؛ لأن مبنى الشريعة على هذين: القرآن والسنة، وبهما يوقف على حدود الله ومفترضاته. انتهى.

ومن سنة القارىء[2] أن يقرأ القرآن كل يوم وليلة، كيلا ينساه، ولا يخرج عن صدره، فإن النسيان، وهو أن لا يمكنه القراءة من المصحف من الكبائر. ومن السنة أن يجعل المؤمن لبيته حظاً من القرآن، فيقرأ فيه منه ما تيسر له من حزبه، ففي الحديث: «إن في بيوتات المسلمين لمصابيح إلى العرش يعرفها مقربو ملائكة السموات السبع والأرضين السبع، يقولون: هذا النور من بيوتات المؤمنين التي يتلى فيها القرآن». ومن السنة أن يستمع القرآن أحياناً من الغير، وكان النبي ﷺ يستمع قراءة أبي، وابن مسعود رضي الله عنهما. وكان عمر رضي الله عنه يستمع قراءة أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، وكان حسن الصوت، واستماع القرآن في الصلاة فرض، وفي خارجها مستحب عند الجمهور، فعليك بالتذكير والتحفظ والاستماع.

---

(١) روح البيان.
(٢) روح البيان.

وقرأ زيد بن علي: ﴿ما تتلى﴾ بتاء التأنيث، والجمهور: بالياء.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿كَانَ لَطِيفًا﴾؛ أي: ذا لطف بكن؛ إذ جعلكن في البيوت التي تتلى فيها آياته وشرائعه ﴿خَبِيرًا﴾ بكن؛ إذ اختاركن لرسوله أزواجاً أو لطيفاً بأوليائه، خبيراً بجميع خلقه، وجميع ما يصدر منهم من خير وشر، وطاعة ومعصية، فهو يجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، أو بليغ اللطف والبر بخلقه كلهم؛ خبيراً؛ أي: بليغ العلم بالأشياء كلها، فيعلم ويدبر ما يصلح في الدين، ولذلك أمر ونهى، أو: يعلم من يصلح لنبوته، ومن يستأهل أن يكون من أهل بيته.

روي: أن رجلاً تكلم في زين العابدين رضي الله عنه، وافترى عليه، فقال زين العابدين: إن كنت كما قلت: فأستغفر الله، وإن لم أكن نستغفر الله لك، فقام إليه الرجل، وقبل رأسه، وقال: جعلت فداءك، لست كما قلت، فاستغفر لي، قال: غفر الله لك، فقال الرجل: الله أعلم حيث يجعل رسالته.

ولما نزل في نساء النبي ﷺ ما نزل.. قال نساء المسلمين: فما نزل فينا شيء، ولو كان فينا خير لذكرنا، فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ...﴾ الخ. فذكر لهن عشر مراتب مع الرجال، فمدحهن بها معهم:

الأولى: الإسلام، وهو الانقياد لأمر الله تعالى، فذكرها بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾؛ أي: إن الداخلين في السلم بعد الحرب، المنقادين لحكم الله تعالى من الذكور والإناث. وفي «التأويلات النجمية»: المسلم: هو المستسلم للأحكام الأزلية بالطوع والرغبة، مسلماً نفسه إلى المجاهدة والمكابدة ومخالفة الهوى، وقد سلم المسلمون من لسانه ويده. وبدأ سبحانه بذكر الإسلام الذي هو مجرد الدخول في الدين، والانقياد له مع العمل، كما ثبت في الحديث الصحيح: أن النبي ﷺ، لما سأله جبريل عن الإسلام قال: «هو أن تشهد أن لا إله إلا الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتحج البيت، وتصوم رمضان».

ثم عطف على المسلمين ﴿وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ تشريفاً لهن بالذكر صريحاً، وهكذا فيما بعد، وإن كن داخلات في لفظ المسلمين والمؤمنين وغيرهما، والتذكير إنما هو لتغليب الذكور على الإناث، كما في جميع ما ورد في الكتاب العزيز من ذلك.

والثانية: الإيمان، وهو تصحيح الاعتقاد، وموافقة الباطن الظاهر، فذكرها بقوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾؛ أي: المصدقين بما يجب أن يصدق به من الفريقين، وهم من يؤمن بالله وملائكته و كتبه ورسوله والقدر خيره وشره، كما ثبت ذلك في الصحيح عن رسول الله ﷺ.

وفي «التأويلات النجمية» المؤمن[1]: من أمنه الناس، وقد أحيا الله قلبه أولاً بالعقل، ثم بالعلم، ثم بالفهم عن الله تعالى، ثم بنور الله تعالى، ثم بالتوحيد، ثم بالمعرفة، ثم أحياه بالله.

قال في «بحر العلوم»: ومراد أصحابنا باتحاد الإسلام والإيمان: أن الإسلام هو الخضوع والانقياد بمعنى: قبول ما جاء به النبي ﷺ من عند الله تعالى، والإذعان له، وذلك حقيقة التصديق. ولذلك لم يصح في الشرع أن يحكم على أحد أنه مسلم وليس بمؤمن، أو مؤمن وليس بمسلم، فلا يمتاز أحدهما عن الآخر، ولم يريدوا الاتحاد بحسب المفهوم؛ لأن الإيمان هو تصديق الله فيما أخبر من أوامره ونواهيه ومواعيده، والإسلام: هو الخضوع والانقياد لألوهيته، وهذا لا يحصل إلا بقبول الأمر والنهي، والوعد والوعيد، والإذعان لذلك، فمن لم يقبل شيئاً من هذه الأربعة.. فقد كفر وليس بمسلم. انتهى.

وعبارة «فتح الرحمن»: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ فإن قلت[2]: لِمَ عطف أحدهما على الآخر، مع أنهما متحدان شرعاً؟

قلت: ليسا بمتحدين مطلقاً، بل هما متحدان ماصدقاً لا مفهوماً أخذاً من الفرق بين الإسلام والإيمان الشرعيين؛ إذ الإسلام الشرعي: هو التلفظ بالشهادتين بشرط تصديق القلب بما جاء به النبي ﷺ، والإيمان الشرعي: عكس ذلك، ويكفي في العطف المقتضي للاختلاف اختلافهما مفهوماً، وإن اتحدا ماصدقاً. انتهت.

والثالثة: القنوت، وهو الطاعة، وذكرها بقوله: ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾؛ أي: المداومين على الطاعات، القائمين بها من الفريقين، والقانت: العبد المطيع، وكذا القانتة، وقيل: المداوم على الطاعة والعبادة.

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

وفي «التأويلات النجمية»: القنوت: استغراق الوجود في الطاعة والعبودية.

والرابعة: الصدق في الأقوال والأفعال، وذكرها بقوله: ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾ في القول والعمل والنية، والصادق والصادقة: هما من يتكلم بالصدق، ويتجنب الكذب، وبقي بما عوهد عليه. وفي «التأويلات النجمية»: في عقودهم، ورعاية حدودهم، والصدق: نور أهدي لقلوب الصديقين بحسب قربهم من ربهم.

والخامسة: الصبر على ما أمر الله به، وفيما ساء وسر، وذكرها بقوله: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ على الطاعات، وعن المعاصي، والصابر والصابرة: هما من يصبر عن الشهوات، وعلى مشاق التكليف. وفي «التأويلات»: على الخصال الحميدة، وعن الصفات الذميمة، وعند جريان القضاء، ونزول البلاء.

والسادسة: الخشوع في الصلاة، وهو أن لا يلتفت، وقيل: هو التواضع، وذكرها بقوله: ﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾؛ أي: المتواضعين لله بقلوبهم وجوارحهم. والخاشع والخاشعة: هما المتواضعان لله، الخائفان منه، الخاضعان في عباداتهم لله تعالى. وفي «التأويلات»: الخشوع: إطراق السريرة عند توارد الحقيقة. انتهى. قال بعضهم: الخشوع: انقياد الباطن للحق، والخضوع: انقياد الظاهر له، وفي «القاموس»: الخشوع: الخضوع، أو هو في البدن، والخشوع: في الصوت.

والسابعة: الصدقة مما رزق الله، وذكرها بقوله: ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾ بما وجب في ما لهم، والمعطين للصدقات فرضاً أو نفلاً والمتصدِّق والمتصدِّقة: هما من تصدق من ماله بما أوجبه الله عليه، وقيل: ذلك أعم من صدقة الفرض والنفل، يقال: تصدق على الفقراء: إذا أعطاهم الصدقة، وهي العطية التي بها تبتغى المثوبة من الله تعالى. وفي «التأويلات»: والمتصدقين والمتصدقات بأموالهم وأعراضهم، حتى لا يكون لهم مع أحد خصومة فيما ينال منهم.

والثامنة: المحافظة على الصوم، وذكرها بقوله: ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ الصوم المفروض، أو مطلق الصوم فرضاً أو نفلاً. وفي «المفردات»: الصوم في الأصل: الإمساك عن الفعل مطعماً كان أو كلاماً أو مشياً، وفي الشرع: إمساك المكلف بالنية من الخيط الأبيض إلى الخيط الأسود عن تناول الأطيبين، والاستمناء، والاستقاءة.

والتاسعة: العفة، وذكرها بقوله: ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ فروجهن عن الحرام بالتعفف والتنزه، والاقتصار على الحلال، وحذف مفعول الثاني لدلالة المذكور عليه.

والعاشرة: كثرة الذكر، وذكرها بقول: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ﴾ ذكراً ﴿كَثِيرًا﴾ بقلوبهم وألسنتهم ﴿وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ الله كثيراً، فحذف المفعول، كما في الحافظات؛ لعلمه من المذكور. والذاكر والذاكرة: هما من يذكر الله سبحانه على أحواله، وفي ذكر الكثرة دليل على مشروعية الاستكثار من ذكر الله سبحانه بالقلب واللسان، والمراد بكثرة الذكر: أن لا ينساه على كل حال، لا الذكر بكثرة اللغات. وفي «التأويلات»: بجميع أجزاء[1] وجودهم الجسمانية والروحانية، بل بجميع ذرَّات المكونات، بل بالله وبجميع صفاته. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد أدبار الصلوات، وغدواً وعشياً، وفي المضاجع، وكلما استيقظ من نومه، وكلما غدا وراح من منزله ذكر الله. انتهى.

والاشتغال بالعلم النافع وتلاوة القرآن والدعاء من الذكر. وفي الحديث: «من استيقظ من منامه، وأيقظ امرأته، فصليا جميعاً ركعتين.. كتبا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات». وعن مجاهد: لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيراً حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «سبق المفردون»، قالوا: يا رسول الله، وما المفردون؟ قال: «الذاكرون الله كثيراً والذاكرات».

وقال عطاء بن أبي رباح[2]: من فوض أمره إلى الله.. فهو داخل في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾، ومن أقر بأن الله ربه، ومحمداً رسوله، ولم يخالف قلبه لسانه، فهو داخل في قوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، ومن أطاع الله في الفرض، والرسول في السنة.. فهو داخل في قوله: ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾، ومن صان قوله عن الكذب.. فهو داخل في قوله: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾، ومن صلى، فلم يعرف من عن يمينه وعن شماله.. فهو داخل في قوله: ﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾، ومن تصدق في كل أسبوع بدرهم.. فهو داخل في قوله: ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾، ومن صام في كل شهر أيام البيض - وهي: الثالث عشر، والرابع عشر، والخامس عشر -.. فهو

---

(١) روح البيان. (٢) ذ الخازن.

داخل في قوله: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾، ومن حفظ فرجه عما لا يحل.. فهو داخل في قوله: ﴿وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ﴾، ومن صلى الصلوات الخمس بحقوقها.. فهو داخل في قوله: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾.

وخبر ﴿إِنَّ﴾ في الجميع هو قوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ﴾؛ أي: هيأ الله سبحانه في الآخرة ﴿لَهُم﴾ لهؤلاء المذكورين بسبب ما عملوا من الطاعات العشر المذكورة، وجمعوا بينها. والعطف[1] بالواو بين الذكور والإناث، كالمسلمين والمسلمات، كالعطف بين الضدين؛ لاختلاف الجنسين، وأما عطف الزوجين على الزوجين، كعطف المؤمنين والمؤمنات على المسلمين والمسلمات، فمن عطف الصفة على الصفة بحرف الجمع؛ أي: عطفهما لتغاير الوصفين. ﴿مَّغۡفِرَةٗ﴾ لما اقترفوا من الصغائر؛ لأنهن مكفرات بما عملوا من الأعمال الصالحة. وفي «التأويلات»: هي نور من أنوار جماله، جعل مغفر الرأس روحهم، يعصمهم مما يقطعهم عن الله. ﴿وَأَجۡرًا عَظِيمٗا﴾؛ أي: ثواباً جزيلاً على طاعاتهم التي فعلوها من: الإسلام والإيمان والقنوت والصدق والصبر والخشوع والتصدق والصوم والعفاف والذكر، وهو الجنة. وقيل: سهولة العبادة، ودوام المعرفة اليوم، وتحقيق المسؤول، ونيل ما فوق المأمول غداً.

ووصف الأجر بالعظم[2]: للدلالة على أنه بالغ غاية المبالغ، ولا شيء أعظم من أجرٍ هو الجنة ونعيمها الدائم الذي لا ينقطع ولا ينفد. اللهم اغفر ذنوبنا، وأعظم أجورنا.

والحاصل: أن الله سبحانه ذكر الأوصاف[3] التي يستحق بها عباده أن يمحو عنهم زلاتهم، ويثيبهم بالنعيم المقيم عنده، وهي عشرة:

١ - إسلام الظاهر بالانقياد لأحكام الدين في القول والعمل.

٢ - إسلام الباطن بالتصديق التام، والإذعان لما فرض الدين من الأحكام، وهذا هو الإيمان.

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

(٣) المراغي.

٣ ـ القنوت: وهو دوام العمل في هدوء وطمأنينة، كما قال: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾، وقال: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ فالإسلام والانقياد: مرتبة تعقبها مرتبة الإذعان والتصديق، وينشأ عن مجموعهما القنوت والخشوع.

٤ ـ الصدق في الأقوال والأعمال، وهو علامة الإيمان، كما أن الكذب أمارة النفاق، فمن صدق نجا، وفي الحديث: «عليكم بالصدق، فإنه يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار».

٥ ـ الصبر على المكاره، وتحمل المشاق في أداء العبادات، وترك الشهوات.

٦ ـ الخشوع والتواضع لله تعالى بالقلب والجوارح ابتغاء ثوابه، وخوفاً من عقابه، كما جاء في الحديث: «اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

٧ ـ التصدق بالمال، والإحسان إلى المحاويج الذين لا كسب لهم ولا كاسب، وقد ثبت في الصحيح: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: ورجل تصدق بصدقة فأخفاها، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه» وفي حديث آخر: «والصدقة تطفىء الخطيئة، كما يطفىء الماء النار».

٨ ـ الصوم، فإنه نعم العون على كسر الشهوة، كما روى ابن ماجه من قوله ﷺ: «والصوم زكاة البدن»؛ أي: إنه يزكيه ويطهره من الأخلاط الرديئة طبعاً وشرعاً.

٩ ـ حفظ الفروج عن المحارم والآثام، كما جاء في الآية الأخرى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾﴾.

١٠ ـ ذكر الله كثيراً بالألسنة والقلوب، كما سبقت أحاديثه:

فهؤلاء الذين جمعوا هذه الأوصاف يمحو عنهم ذنوبهم، ويؤتيهم الأجر العظيم في جنات النعيم.

قصة زينب بنت جحش رضي الله عنها

زواجها لزيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ، وطلاقها منه، وزواجها لرسول الله ﷺ لإبطال عادة جاهلية، وهي إعطاء المتبنَّى حكم الابن في حرمة زواج امرأته بعد طلاقها.

روي: أن رسول الله ﷺ خطب زينب بنت جحش بن رباب الأسدي بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب لمولاه زيد بن حارثة، وكانت زينب بيضاء جميلة، وزيد أسود أفطس، فأبت وقالت: أنا بنت عمتك يا رسول الله، وأرفع قريش، فلا أرضاه لنفسي، وكذلك أباه أخوها عبد الله بن جحش، فنزل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ الآية؛ أي: ما صحَّ واستقام لرجل ولا امرأة من المؤمنين، فدخل فيه عبد الله وأخته، ولفظ: ما كان، وما ينبغي، ونحوهما معناها: المنع والحظر من الشيء، والإخبار بأنه لا يحل أن يكون شرعاً، وقد يكون لما يمتنع عقلاً، كقوله: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾.

﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ وحكما ﴿أَمْرًا﴾ من أمور الدين والدنيا، مثل نكاح زينب؛ أي: إذا قضى رسول الله، وحكم حكماً من الأحكام. وذكر[1] الله لتعظيم أمره، والإشعار بأن قضاءه ﷺ قضاء الله تعالى، كما أنَّ طاعته طاعة الله تعالى. ﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾؛ أي: الاختيار ﴿مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ ما شاءوا. والخيرة ـ بالكسر ـ: اسم مصدر من اختار بمعنى: الاختيار، والمعنى: أنه لا يحل لكل مؤمن ومؤمنة إذا قضى الله ورسوله قضاء أن يمتنعوا من قضائه، ويختاروا من أمرهم ما شاءوا، بل يجب[2] عليهم أن يجعلوا اختيارهم تبعاً لاختياره ﷺ، ورأيهم تلواً لرأيه، فقالا: رضينا يا رسول الله، فأنكحها إياه، وساق عنه إليها مهرها، وإنما جمع الضمير في قوله: ﴿لَهُمُ﴾، و﴿مِنْ أَمْرِهِمْ﴾؛ لأن ﴿مؤمن﴾ و﴿مُؤْمِنَةٍ﴾ وقعا في سياق النفي، فهما يعمان كل مؤمن ومؤمنة. وقال بعضهم[3]: الضمير الثاني للرسول؛ أي: من أمره، والجمع للتعظيم.

---

(١) روح البيان.

(٢) النسفي.

(٣) روح البيان.

والخلاصة: أنه لا ينبغي لمؤمن ولا مؤمنة أن يختارا أمراً قضى الرسول بغيره، وقال أبو حيان: الخيرة: مصدر من تخير على غير قياس، كالطيرة من تطير. وقرىء بسكون الياء، ذكره عيسى بن سليمان، وقرأ الحرميان[1] - نافع وابن كثير - والعربيان - أبو عمرو وابن عامر - وأبو جعفر وشيبة والأعرج وعيسى: ﴿أن تكون﴾ بتاء التأنيث؛ لكونه مسنداً إلى الخيرة، وهي مؤنثة لفظاً، وقرأ الكوفيون والحسن والأعمش والسلمي: ﴿أَن يَكُونَ﴾ بالياء التحتية، واختار هذه القراءة أبو عبيد؛ لأنه قد فرق بين الفعل وفاعله المؤنث بقوله: ﴿لَهُمُ﴾، مع كون التأنيث غير حقيقي. وعبارة «الشوكاني»: والخيرة: مصدر بمعنى الاختيار، وقرأ ابن السميقع: ﴿الخيرة﴾ بسكون الياء، والباقون بفتحها. انتهت.

ثم توعد سبحانه من لم يذعن لقضاء الله وقدره، فقال: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في أمر من الأمور، ويعمل برأيه. وفي «كشف الأسرار»: ومن يعص الله، فخالف الكتاب ورسوله، فخالف السنة ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾ وأخطأ طريق الحق، وعدل عن الصراط المستقيم ﴿ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾؛ أي: بيّن الانحراف عن سنن الصواب؛ أي: ضلالاً ظاهراً واضحاً لا يخفى.

والمعنى[2]: أي ومن يعصِ الله ورسوله ويخالفهما فيما أمرا ونهيا.. فقد جار ومال عن قصد السبيل، وسلك غير طريق الهدى والرشاد، ونحو الآية قوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وفي «التأويلات النجمية»: يشير إلى أن العبد ينبغي أن لا يكون له اختيار بغير ما اختاره الله، بل تكون خيرته فيما اختاره الله له، ولا يعترض على أحكامه الأزلية عند ظهورها له، بل له الاحتراز عن شر ما قضى الله قبل وقوعه، فإذا وقع الأمر.. فلا يخلو إما أن يكون موافقاً للشرع، أو يكون مخالفاً للشرع، فإن يكن موافقاً للشرع.. فلا يخلو؛ إما أن يكون موافقاً لطبعه، أو مخالفاً لطبعه، فإن يكن موافقاً لطبعه.. فهو نعمة من الله يجب عليه شكرها، وإن يكن مخالفاً لطبعه.. فيستقبله

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

بالصبر والتسليم والرضا، وإن يكن مخالفاً للشرع.. يجب عليه التوبة والاستغفار، والإنابة إلى الله تعالى من غير اعتراض على الله فيما قدر وقضى وحكم به، فإنه حكيم يفعل ما يشاء بحكمته، ويحكم ما يريد بعزته. انتهى.

ثم ذكر الله سبحانه نبيه بما وقع منه؛ ليزيده تثبيتاً على الحق، وليدفع عنه ما حاك في صدور ضعاف العقول، ومرضى القلوب فقال: ﴿وَإِذْ تَقُولُ﴾. روي[1] أنه لما نزلت الآية المتقدمة.. قالت زينب وأخوها عبد الله: رضينا يا رسول الله؛ أي: بنكاح زيد، فأنكحها عليه الصلاة والسلام إياه، وساق إليها مهرها عشرة دنانير وستين درهماً، وخماراً، وملحفة، ودرعاً، وإزاراً، وخمسين مداً من طعام، وثلاثين صاعاً من تمر، وبقيت بالنكاح معه مدةً، فجاء النبي عليه الصلاة والسلام يوماً إلى بيت زيد لحاجة، فأبصر زينب، فأعجبه حسنها، فوقع في قلبه محبتها بلا اختيار منه، والعبد غير ملوم على مثله ما لم يقصد المأثم، ونظرة المفاجأة التي هي النظرة الأولى مباحة، فقال عليه الصلاة والسلام عند ذلك: «سبحان الله، يا مقلب القلوب ثبت قلبي» وانصرف، وذلك أن نفسه كانت تمتنع عنها قبل ذلك لا يريدها، ولو أرادها لخطبها، وسمعت زينب التسبيحة، فذكرتها لزيد بعد مجيئه، وكان غائباً ففطن، فأتى رسول الله ﷺ تلك الساعة، فقال: يا رسول الله، إني أريد أن أفارق صاحبتي، فقال: «ما لك، أرأيت منها شيئاً؟» قال: لا والله، ما رأيت منها إلا خيراً، ولكنها تتعظم علي لشرفها، وتؤذيني بلسانها، فمنعه عليه الصلاة والسلام، وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ﴾؛ أي: واذكر يا محمد قصة وقت قولك: ﴿لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ بالتوفيق للإسلام الذي هو أجل النعم، وللخدمة والصحبة، وهو زيد بن حارثة ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ يا محمد بحسن التربية والإعتاق والتبني له، وكان من سبي الجاهلية، اشتراه رسول الله ﷺ في الجاهلية، وأعتقه وتبناه، وهو أول من أسلم من الموالي، وكان ﷺ يحبه، ويحب ابنه أسامة، شهد بدراً والخندق والحديبية، واستخلفه النبي ﷺ على المدينة حين خرج إلى بني المصطلق، وخرج أميراً في سبع سرايا، وقتل يوم مؤتة ـ بضم الميم وبالهمزة ساكنة ـ: موضع معروف عند الكرك.

---

(١) روح البيان.

ومقول القول قوله: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ﴾؛ أي: أمسك على نكاحك ﴿زَوْجَكَ﴾ زينب، واتركها فيه ﴿وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ سبحانه في أمرها، ولا تطلقها ضراراً، أو تعللاً بتكبرها، ولا تعجل بطلاقها. ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾؛ أي: والحال أنك تضمر في قلبك وتستر الأمر الذي الله مظهره للناس، وهو نكاحها إن طلقها زيد. وقيل: حبها، وهو علم بأن زيداً سيطلقها وسينكحها، يعني: أنك تعلم بما أعلمتك أنها ستكون زوجتك، وأنت تخفي في نفسك هذا المعنى، والله يريد أن ينجز لك وعده، ويبدي أنها زوجتك بقوله: ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾، وكان من علامات أنها زوجته إلقاء محبتها في قلبه، وذلك بتحبيب الله تعالى، لا بمحبته بطبعه، وذلك ممدوح جداً، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «حبب إلي من دنياكم ثلاث: الطيب والنساء وقرة عيني في الصلاة»، وأنه لم يقل أحببت، ودواعي الأنبياء من قبيل الإذن الإلهي؛ إذ ليس للشيطان عليهم سبيل.

قال في «الأسئلة المقحمة»: قد أوحي إليه أن زيداً يطلقها، وأنت تزوج بها، فأخفى عن زيد سر ما أوحي إليه؛ لأن السر يتعلق بالمشيئة والإرادة، ولا يجب على الرسل الإخبار عن المشيئة والإرادة، وإنما يجب عليهم الإخبار والإعلام عن الأوامر والنواهي، لا عن المشيئة، كما أنه كان يقول لأبي لهب: آمن بالله، وقد علم أن الله أراد أن لا يؤمن أبو لهب، كما قال تعالى: ﴿سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣﴾؛ لأن ذلك الذي يتعلق بعذاب أبي لهب إنما هو من المشيئة والإرادة، فلا يجب على النبي إظهاره، ولا الإخبار عنه.

﴿وَتَخْشَى النَّاسَ﴾؛ أي: تستحييهم، أو[1] تخاف لومهم وتعييرهم لك به، بأن يقولوا: أمر مولاه بطلاق امرأته، ثم تزوجها. وفي «التأويلات النجمية»: أي: تخشى عليهم أن يقعوا في الفتنة بأن يخطر ببالهم نوع إنكار، أو اعتراض عليه، أو شك في نبوته، بأن النبي ﷺ من تنزه عن مثل هذا الميل، وتتبع الهوى، فيخرجهم عن الإيمان إلى الكفر، فكانت تلك الخشية إشفاقاً منه عليهم، ورحمة بهم أنهم لا يطيقون سماع هذه الحالة، ولا يقدرون على تحملها. ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ﴾؛ أي: والحال أن الله سبحانه أحق وأجدر وأولى ﴿أَن تَخْشَاهُ﴾ في كل حال، وتخاف منه،

---

(١) روح البيان.

وتستحييه.

وفي «كشف الأسرار»: إنما عوتب ﷺ على إخفاء ما أعلمه الله تعالى أنها ستكون زوجة له. قالت عائشة رضي الله عنها: لو كتم النبي ﷺ شيئاً من الوحي.. لكتم هذه الآية: ﴿إِذْ تَقُولُ﴾ الخ، وما نزل على رسول الله آية هي أشد عليه من هذه الآية.

وفي «التأويلات»: يشير إلى أن رعاية جانب الحق أحق من رعاية جانب الخلق؛ لأن لله تعالى في إبداء هذا الأمر، وإجراء هذا القضاء حكماً كثيرة، فالواجب على النبي ﷺ إذا عرض له أمران، في أحدهما رعاية جانب الحق، وفي الآخر رعاية جانب الخلق، أن يختار رعاية جانب الحق على الخلق، فإن للحق تعالى في إجراء حكم من أحكامه، وإصفاء أمر من أوامره حكماً كثيرة، كما قال تعالى في إجراء تزويج النبي ﷺ بزينب قوله: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

قال القرطبي: وقد اختلف في تأويل هذه الآية، فذهب قتادة وابن زيد وجماعة من المفسرين منهم ابن جرير الطبري وغيره إلى أن النبي ﷺ وقع منه استحسان لزينب بنت جحش، وهي في عصمة زيد بن حارثة، وكان حريصاً على أن يطلقها زيد، فيتزوجها هو، ثم إن زيداً لما أخبره بأنه يريد فراقها، ويشكو منها غلظة قول، وعصيان أمر، وأذىً باللسان، وتعظماً بالشرف قال له: «اتق الله فيما تقول عنها، وأمسك عليك زوجك»، وهو يخفي الحرص على طلاق زيد إياها، وهذا الذي كان يخفي في نفسه، ولكنه لزم ما يجب من الأمر بالمعروف. انتهى.

وحاصل معنى الآية: أي واذكر أيها الرسول حين قولك لمولاك الذي أنعم الله عليه فوفقه للإسلام، وأنعمته عليه بحسن تربيته وعتقه وتقريبه منك: أمسك عليك زوجك زينب، واتق الله في أمرها، ولا تطلّقها ضراراً، وتعللاً بتكبرها، وشموخاً بأنفها، فإن الطلاق يشنيها، وربما لا يجد بعدها خيراً منها، وأنت تعلم أن الطلاق لا بد منه، بما ألهمك الله أن تمتثل أمره بنفسك؛ لتكون أسوةً لمن معك، ولمن يأتي بعدك، وإنما غلبك في ذلك الحيرة، وخشية أن يقولوا: تزوج محمد مطلقة متبناه، فأنت تخفي في نفسك ما الله مبديه من الحكم الذي ألهمك، وتخاف من اعتراض الناس، والله الذي أمرك بهذا كله أحق وحده بأن تخشاه، فكان عليك أن

تمضي في الأمر قدماً؛ تعجيلاً لتنفيذ كلمته، وتقرير شرعه.

ثم زاد الأمر بياناً بقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾؛ أي: تخفي في نفسك ذلك الأمر مخافة من الناس، فلما قضى زيد من زوجته زينب وطراً، ولم يبق له فيها حاجة، والمراد: قضى وبلغ وأتم وطره منها بنكاحها، والدخول بها بحيث لم يبق له فيها حاجة، وتقاصرت همته عنها، وطلقها وانقضت عدتها.

وفي «التأويلات»[1]: أما وطر زيد منها في الصورة: استيفاء حظه منها بالنكاح، ووطره منها في المعنى: شهرته بين الخلق إلى قيام الساعة، بأن الله تعالى ذكره باسمه في القرآن، دون جميع الصحابة، وبأنه آثر النبي ﷺ على نفسه بإيثار زينب له.

وفي «الأسئلة المقحمة»: كيف طلق زيد زوجته بعد أن أمر الله ورسوله بإمساكه إياها؟

والجواب: ما هذا الأمر للوجوب واللزوم، وإنما هو للاستحسان.

﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ يا محمد؛ أي: جعلناها زوجة لك، هلال ذي القعدة سنة أربع من الهجرة على الصحيح، وهي بنت خمس وثلاثين سنة، والمراد: الأمر بتزويجها، أو جعلها زوجته بلا واسطة عقد، ولا تقدير صداق، ولا شيء مما يعتبر في النكاح في حق أمته؛ أي: زوجناكها، ولم نحوجك إلى وليٍّ يعقد لك عليها تشريفاً لك ولها.

ويؤيده ما روى أنس رضي الله عنه: أنها كانت تفخر على سائر أزواج النبي ﷺ، وتقول: زوجكن أهاليكن، وزوجني الله من فوق سبع سموات، وهو من خصائصه ﷺ.

وروي أنها لما اعتدت.. قال رسول الله لزيد: «ما أجد أحداً أوثق في نفسي منك، اخطب عليَّ زينب»، قال زيد: فانطلقت، فإذا هي تخمر عجينها، فقلت: يا زينب، أبشري، فإن رسول الله يخطبك، ففرحت وقالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أؤامر ربي، فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾، فزوجها رسول الله ﷺ

---

(١) المراغي.

ودخل، وما أَوْلَم على امرأة من نسائه ما أَوْلَم عليها، ذبح شاة، وأطعم الناس الخبز واللحم، حتى امتد النهار، وجعل زيدٍ سفيراً في خطبتها ابتلاء عظيم له، وشاهد على قوة إيمانه، ورسوخه فيه.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ بنون العظمة، وقرأ جعفر بن محمد وابن الحنفية وأخواه الحسن والحسين وأبوهم علي: ﴿زوجتكها﴾ بتاء الضمير للمتكلم، ثم علل سبحانه ذلك بقوله: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ﴾؛ أي: زوجناكها كيلا يكون فيما بعد ﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾؛ أي: ضيق ومشقة وذنب ﴿فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾؛ أي: في تزوج زوجات الذين دعوهم أبناء، والأدعياء: جمع دعي، وهو الذي يدعى ابناً من غير ولادة. ﴿إِذَا قَضَوْا۟﴾؛ أي: إذا قضى الأدعياء ﴿مِنْهُنَّ﴾؛ أي: من زوجاتهم ﴿وَطَرًا﴾؛ أي: حاجة؛ أي: إذا لم يبق لهم فيهن حاجة، وطلقوهن، وانقضت عدتهن، فإن لهم في رسول الله أسوة حسنة.

وفيه[2] دليل على أن حكمه ﷺ وحكم الأمة سواء إلا ما خصه الدليل. قال الحسن: كانت العرب تظن أن حرمة المتبنَّى كحرمة الابن، فبيَّن الله تعالى أن حلائل الأدعياء غير محرمة على المتبني، وإن أصابوهن؛ أي: وطؤوهن، بخلاف ابن الصلب، فإن امرأته تحرم على أبيه بنفس العقد عليها، وكان النبي ﷺ قد تبنى زيد بن حارثة، فكان يقال: زيد بن محمد، حتى نزل قوله سبحانه: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾.

والمعنى: أي فلما قضى زيد منها حاجته وملها، ثم طلقها.. جعلناها زوجاً لك لترتفع الوحشة من نفوس المؤمنين، ولا يجدوا في أنفسهم حرجاً من أن يتزوجوا نساءً كنَّ من قبلُ أزواجاً لأدعيائهم.

﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: ما يريد تكوينه من الأمور ﴿مَفْعُولًا﴾؛ أي: مكوناً موجوداً في الخارج لا محالة، لا يمكن دفعه لأحد، ولو كان نبياً، كما كان تزويج زينب، وكانت كالعارية عند زيد؛ أي: كان قضاء الله في زينب أن يتزوجها رسول الله ﷺ قضاءً ماضياً مفعولاً نافذاً لا محالة. قال بعضهم: في اعتقادنا أنَّ

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

زينب بكر، كعائشة رضي الله عنهما؛ لأن زيداً كان يعرف أنها حق النبي ﷺ، فلم يمسها، وذلك مثل آسية وزليخا، ويكفينا أنَّ ميله ﷺ إليها كان أكثر من غيرها، ولم تلد أيضاً، وكانت عائشة تقول في حق زينب: هي التي كانت تساويني في المنزلة عند رسول الله ﷺ، ما رأيت امرأة قط خيراً في الدين، وأتقى لله، وأصدق في حديث، وأوصل للرحم، وأعظم صدقة من زينب.

ماتت بالمدينة سنة عشرين، وصلى عليها عمر بن الخطاب رضي الله عنها، ودفنت بالبقيع، ولها من العمر ثلاث وخمسون سنة، وأبدل الله منها لزيد جارية في الجنة، كما قال النبي ﷺ: «استقبلتني جارية لعساء، وقد أعجبتني، فقلت لها: يا جارية أنت لمن؟ قالت: لزيد بن حارثة». قوله: «استقبلتني»؛ أي: خرجت من الجنة، واستقبلته ﷺ بعد مجاوزة السماء السابعة ليلة المعراج، واللعس: لون الشفة إذا كانت تضرب إلى السواد قليلاً، وذلك مستملح، قاله في «الصحاح».

وأبدى السهيلي حكمة لذكر زيد باسمه في القرآن، هي أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ﴾، وصار يقال له: زيد بن حارثة، ولا يقال له: زيد بن محمد، ونزع عنه هذا التشريف، وعلم الله وحشته من ذلك.. شرَّفه بذكر اسمه في القرآن دون غيره من الصحابة، فصار اسمه يتلى في المحاريب، وزاد في الآية أن قال: ﴿وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ﴾؛ أي: بالإيمان، فدلَّ على أنه من أهل الجنة، علم بذلك قبل أن يموت، وهذه فضيلة أخرى له رضي الله عنه.

ثم بيَّن الله سبحانه أنه لم يكن على رسول الله ﷺ حرج في هذا النكاح، فقال: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ ﷺ ﴿مِنۡ﴾ زائدة لوقوعها بعد النفي ﴿حَرَجٍ﴾ اسم كان الناقصة؛ أي: ما صح ولا استقام في الحكمة أن يكون على النبي ﷺ حرج وضيق ﴿فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ﴾ وقسم وقدر له في علمه، كتزوج زينب؛ أي: ليس على النبي حرج وذنب ومنع فيما أحل الله له من نكاح امرأة من تبناه، بعد فراقه إياها.

ثم بين أن الرسول ﷺ ليس بدعاً في الرسل فيما أباح له من الزوجات والسراري، فقال: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾: منصوب على المصدرية بفعل محذوف مؤكد لما قبله من نفي الحرج؛ أي: سن الله سبحانه نفي الحرج سنةً؛ أي: جعله طريقة مسلوكة ﴿فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ﴾؛ أي: مضوا ﴿مِن قَبۡلُ﴾؛ أي: من قبل النبي ﷺ من

الأنبياء؛ حيث وسع عليهم في باب النكاح وغيره، ولقد كان لداودِ عليه الصلاة والسلام مئة امرأة، وثلاث مئة سرية، ولابنه سليمان عليه السلام ثلاث مئة امرأة، وسبع مئة سرية، فلك التوسعة في أمر النكاح مثل الأنبياء الماضين؛ أي: إن هذا هو السنن الأقدم في الأنبياء والأمم الماضية، أن ينالوا ما أحله الله لهم من أمر النكاح وغيره. أي: إن الله سن بك أيها الرسول سنة أسلافك من الأنبياء الذين مضوا من قبل فيما أباح لهم من الزوجات والسراري، فقد كان لسليمان وداود وغيرهما عدد كثير منهن، وفي هذا رد على اليهود الذين عابوه ﷺ وحاشاه بكثرة الأزواج.

﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: مأموره الذي قدره وحكمه وقضاه ﴿قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾؛ أي: قضاء مقضياً، وحكماً مبتوتاً كائناً لا محالة، وواقعاً لا محيد عنه، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فهو كقولهم: ظلٌّ ظليل، وليل أليل، في قصد التأكيد. قال مقاتل: أخبر الله أن أمر زينب كان من حكم الله وقدره. اهـ.

وفيه إشارة إلى أن الله تعالى إذا قضى أمر نبي.. لم يجعل عليه في ذلك من حرج، ولا سبب نقصان، وإن كان في الظاهر سبب نقصان ما عند الخلق، والذي يجري على الأنبياء قضاء مبرم مبني على حكم كثيرة، وليس فيه خطأ، ولا غلط ولا عبث.

ثم وصف الذين خلوا بصفات الكمال والتقوى، وإخلاص العبادة له، وتبليغ رسالته، فقال: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، والموصول صفة للذين خلوا، أو في محل الرفع على إضمارهم، أو في محل النصب على تقدير: أمدح.

وقرأ عبد الله: ﴿الذين بلغوا﴾ جعله فعلاً ماضياً، وقرأ أبي ﴿رسالة الله﴾ على التوحيد، والجمهور: ﴿يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ﴾ جمعاً.

والمراد بالرسالة: ما يتعلق بالرسالة، وهي سفارة العبد بين الله، وبين ذوي الألباب من خلقه؛ أي: إيصال الخبر من الله إلى العباد؛ أي: الذين يوصلون ما أمروا بتبليغه إلى الخلق.

﴿وَيَخْشَوْنَهُ﴾؛ أي: يخافونه في كل ما يأتون ويذرون، لا سيما في أمر تبليغ الرسالة؛ حيث لا يقطعون منها حرفاً، ولا تأخذهم لومة لائم ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ﴾ في

تبليغ ما أمروا به ﴿أَحَدًا﴾ من خلقه؛ أي: تعيير أحدا، ولا لومه ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ سبحانه، وفي وصفهم بقصرهم الخشية على الله تعريض[1] بما صدر عنه ﷺ من الاحتراز من لائمة الخلق بعد التصريح في قوله: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ...﴾ الآية. مدحهم سبحانه بتبليغ ما أرسلهم به إلى عباده، وخشيته في كل فعل وقول، ولا يخشون سواه، ولا يبالون بقول الناس، ولا بتعييرهم، بل خشيتهم مقصورة على الله سبحانه.

والمعنى[2]: أي هؤلاء الذين جعل محمد متبعاً سنتهم، وسالكاً سبيلهم، هم الذين يبلِّغون رسالات ربهم إلى من أرسلوا إليهم، ويخافون الله في تركهم تبليغ ذلك، ولا يخافون سواه.

والخلاصة: كن من أولئك الرسل الكرام، ولا تخشَ أحداً غير ربك، فإنه يحميك ممن يريدك بسوءٍ، أو يمسك بأذى.

قال بعضهم: خشية الأنبياء من العتاب، وخشية الأولياء من الحجاب، وخشية عموم الخلق من العذاب. اهـ. وفي «الأسئلة المقحمة»: كيف قال سبحانه: ﴿وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾، ومعلوم أنهم خافوا غير الله، وقد خاف موسى عليه السلام حين قال: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، وكذلك قال يعقوب عليه السلام: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾، وكذلك خاف نبينا ﷺ حين قيل له: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾، وكذلك أخبر الكتاب عن جماعة من الأنبياء أنهم خافوا أشياء غير الله؟

والجواب: أن معنى الآية: لا يعتقدون أنَّ شيئاً من المخلوقات يستقل بإضرارهم، ويستبد بإيذائهم دون إرادة الله ومشيئته؛ لما يعلمون أن الأمور كلها بقضاء الله وقدره، فأراد بالخوف هنا خوف العقيدة والعلم واليقين، لا خوف البشرية الذي هو من الطباع الخلقية، وخواص البشرية، ونتائج الحيوانية.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ سبحانه ﴿حَسِيبًا﴾؛ أي: محاسباً لعباده على أعمالهم، فينبغي أن يحاسب العبد نفسه قبل محاسبة الله إياه، ولا يخاف غير الله، لا في أمر النكاح، ولا في غيره، إذا علم أن رضى الله وحكمه فيه.

---

(١) روح البيان.   (٢) المراغي.

واعلم: أن السواك والتعطر والنكاح ونحوها من سنن الأنبياء عليهم السلام، وليس لنا عبادة شرعت من عهد آدم إلى الآن، ثم تستمر تلك العبادة في الجنة إلا الإيمان والنكاح، وقيل: المعنى: وكفى الله ناصراً ومعيناً وحافظاً لأعمال عباده، ومحاسباً لهم عليها، أو المعنى: وكفى بالله حاضراً في كل مكان، . يكفي عباده كل ما يخافونه. ولما تزوج النبي ﷺ زينب. . قال الناس: تزوج محمد امرأة ابنه، فأنزل الله سبحانه: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ﴾ ﷺ بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم. والمختار: أنه لا يشترط في الإسلام معرفة أب النبي ﷺ واسم جده، بل يكفي فيه معرفة اسمه الشريف، كما في «هداية المريدين»، يقال: فلان محمود، إذا حمد، ومحمد: إذا كثرت خصاله المحمودة، كما في «المفردات». قال زكريا في «شرح المقدمة الجزرية»: هو البليغ في كونه محموداً، وهو الذي حمدت عقائده وأفعاله وأقواله وأخلاقه، سماه به جده عبد المطلب بإلهام من الله سبحانه في سابع ولادته، فقيل له: لِمَ سميت محمداً، وليس من أسماء آبائك ولا قومك؟ فقال: رجوت أن يحمد في السماء والأرض، وقد حقق الله رجاءه وتفاؤله.

﴿أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾؛ أي[1]: ليس بأب لزيد بن حارثة على الحقيقة حتى تحرم عليه زوجته، ولا هو أب لأحد لم يلده. قال الواحدي: قال المفسرون: لم يكن أبا أحد لم يلده، وقد ولد له من الذكور من خديجة ثلاثة: القاسم، والطيب، والطاهر، وماتوا صغاراً لم يبلغ أحد منهم الحلم، وولد له إبراهيم من مارية القبطية، ومات رضيعاً، وولد له من خديجة أربع بنات: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، والثلاث الأول متن في حياته ﷺ، وماتت فاطمة بعد أن قبض ﷺ إلى الرفيق الأعلى بستة أشهر. قال القرطبي: ولكن لم يعش له ابن حتى يصير رجلاً. قال: وأما الحسن والحسين، فكانا طفلين، ولم يكونا رجلين معاصرين له ﷺ.

ولا ينتقض عموم أحد في قوله: ﴿أَبَآ أَحَدٍ﴾ بكونه أباً للطاهر والقاسم وإبراهيم؛ لأنهم لم يبلغوا مبلغ الرجال؛ لأن الرجل هو الذكر البالغ من بني آدم، ولو بلغوا لكانوا رجاله لا رجالهم، وكذا الحسن والحسين، كما مر آنفاً.

﴿وَلَٰكِن﴾ كان محمد ﷺ ﴿رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: رسولاً من رب العالمين إلى

---

(١) روح البيان.

كافة الثقلين ﴿و﴾ كان ﴿خاتم النبيين﴾؛ أي: وكان آخرهم الذي ختموا به.

والمعنى[1]: أي ما كان لك أن تخشى أحداً من الناس بزواج امرأة متبناك، لا ابنك، فإنك لست أباً لأحد من الناس، ولكنك رسول الله في تبليغ رسالته إلى الخلق، فأنت أب لكل فرد من الأمة فيما يرجع إلى التوقير والتعظيم ووجوب الشفقة عليهم، كما هو دأب كل رسول مع أمته.

وخلاصة ذلك: ليس محمد بأب لأحد منكم أبوة شرعية، يترتب عليها حرمة المصاهرة ونحوها، ولكنه أب للمؤمنين جميعاً فيما يجب عليهم من توقيره وإجلاله وتعظيمه، كما أن عليه أن يشفق عليهم، ويحرص على ما فيه خيرهم وفائدتهم في المعاش والمعاد، وما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة.

وفي «فتح الرحمن»: قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ...﴾ إلخ. هو[2] جواب سؤال مقدر تقديره: أمحمد أبو زيد بن حارثة؟.

فأجيب: بنفي الأعم المستلزم لنفي الأخص؛ إذ لو اقتصر على قوله: ما كان محمد أبا زيد، لقيل: وماذا يلزم منه، فقد كان للأنبياء أبناء، فجيء بنفي الأعم تمهيداً للاستدراك بأنه رسول الله، وخاتم النبيين

وإن قلتَ: كيف صح نفي الأبوة عنه، وكان أباً للطيب والطاهر والقاسم وإبراهيم؟

قلت: قد قيد النفي بقوله: ﴿مِّن رِّجَالِكُمْ﴾؛ لأن إضافة الرجال إلى المخاطبين تخرج أبناءه؛ لأنهم رجاله لا رجالهم، ولأن المفهوم منهم بقرينة المقام الرجال البالغون، وأبناؤه ليسوا كذلك، إذ لو كان له ابن بالغ، لكان نبياً، فلا يكون هو خاتم النبيين.

فإن قلت: كيف قال تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، وعيسى عليه السلام ينزل بعده وهو نبي؟

قلتُ: معنى كونه خاتم النبيين: أنه لا ينبَّأ أحد بعده، وعيسى نبي قبله، وحين ينزل كان عاملاً بشريعة محمد ﷺ.

---

(١) المراغي. (٢) فتح الرحمن.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ بتخفيف ﴿لكن﴾ ﴿رَّسُولَ﴾ على إضمار كان لدلالة كان المتقدمة عليه. قيل: أو على العطف على ﴿أَبَآ أَحَدٍ﴾، وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو بالتشديد، والنصب على أنه اسم لكن، والخبر محذوف، تقديره: ولكن رسول الله وخاتم النبيين هو؛ أي: محمد ﷺ، وحذف خبر لكن وأخواتها جائز إذا دل عليه دليل، كقول الشاعر:

فَلَوْ كُنْتُ ظَبْياً مَا عَرَفْتَ قَرَابَتِيْ   وَلَكِنَّ زِنْجِيًّا عَظِيْمَ ٱلْمَشَافِرِ

أي: أنت لا تعرف قرابتي، وقرأ زيد بن علي وابن أبي عبلة بالتخفيف ورفع رسول الله وخاتم النبيين. أي: ولكن هو رسول الله. وقرأ الجمهور: ﴿وَخَاتِمَ﴾ بكسر التاء بمعنى أنه ختمهم؛ أي: جاء آخرهم، وقرأ الحسن والشعبي وزيد بن علي والأعرج بخلاف عنه، وعاصم: بفتح التاء، بمعنى أنهم به ختموا، فهو كالخاتم والطابع لهم الذي يتختمون به، ويتزينون بكونه منهم، وقيل: كسر التاء وفتحها لغتان، قال أبو عبيد: الوجه الكسر، لأن التأويل أنه ختمهم، فهو خاتمهم.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ من الموجودات ﴿عَلِيمًا﴾؛ أي: عالماً. ومن جملة معلوماته هذه: الأحكام المذكورة هنا، وأنه لا نبي بعده، فيعلم من يليق بأن يختم به النبوة، وكيف ينبغي لشأنه، ولا يعلم أحد سواه ذلك.

والخلاصة: أنه سبحانه يعلم من الأجدر بالبدء به من الأنبياء، ومن الأحق بأن يكون خاتمهم، ويعلم المصالح في ذلك، ونحو الآية قوله: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾.

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية[2]: هي نص على أنه لا نبي بعده، وإذا كان لا نبي بعده.. فلا رسول بطريق الأولى، والأحرى، لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة، فإن كل رسول نبي، ولا ينعكس. وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ، فمن رحمة الله بالعباد إرسال محمد إليهم، ثم من تشريفه له ختم الأنبياء والمرسلين به، وإكمال الدين الحنيف له. وقد أخبر الله في كتابه، ورسوله في السنة المتواترة، عن: أنه لا نبي بعده؛ ليعلموا أن كل من ادَّعى هذا

---

(١) البحر المحيط.   (٢) ابن كثير.

المقام بعده كذاب أفاك دجال ضال مضل، ولو تخرق وشعبذ وأتى بأنواع السحر والطلاسم والنيرنجيات، فكلها محال وضلال عند أولي الألباب، كما أجرى سبحانه على يدي الأسود العنسي باليمن، ومسيلمة الكذاب باليمامة من الأحوال الفاسدة، والأقوال الباردة.

ثم أمر سبحانه عباده بأن يستكثروا من ذكره بالتهليل والتحميد والتسبيح والتكبير، وبكل ما هو ذكر لله تعالى، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسوله، وصدَّقوهما ﴿ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ سبحانه بقلوبكم وألسنتكم وجوارحكم ﴿ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ في[1] جميع الأوقات ليلاً ونهاراً، صيفاً وشتاءً، وفي عموم الأمكنة براً وبحراً، سهلاً وجبلاً، وفي كل الأحوال حضراً وسفراً، صحة وسقماً، سراً وعلانيةً، قياماً وقعوداً، وعلى الجنوب، وفي الطاعة بالإخلاص، وسؤال القبول والتوفيق، وفي المعصية بالامتناع منها، وبالتوبة والاستغفار، وفي النعمة بالشكر، وفي الشدة بالصبر، فإنه ليس للذكر حد معلوم كسائر الفرائض، ولا لتركه عذر مقبول إلا أن يكون المرء مغلوباً على عقله.

ثم إن ذكر الله، وإن كان يشمل الصلاة والتلاوة والدراسة ونحوها، إلا أن أفضل الأذكار: لا إله إلا الله، فالاشتغال به منفرداً، ومع الجماعة محافظاً على الآداب الظاهرة والباطنة ليس كالاشتغال بغيره.

وقال بعضهم: الأمر بالذكر الكثير إشارة إلى محبة الله تعالى، يعني: أحبوا الله؛ لأن النبي ﷺ قال: «من أحب شيئاً أكثر من ذكره». وقال مجاهد: الذكر الكثير: أن لا ينساه أبداً، وقال الكلبي: الذكر الكثير بالصلوات الخمس.

وقال مقاتل: هو التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير على كل حال. ﴿وَسَبِّحُوهُ﴾؛ أي: نزهوه تعالى عما لا يليق به ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾؛ أي: أول النهار وآخره، وقد يذكر الطرفان، ويفهم منهما الوسط، فيكون المراد: سبحوه في جميع الأوقات خصوصاً في الوقتين المذكورين المفضلين على سائر الأوقات؛ لكونهما مشهودين على ما دل قوله عليه الصلاة والسلام: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل

---

(١) روح البيان.

وملائكة بالنهار»، وتخصيصهما بالذكر لمزيد ثواب التسبيح فيهما، وخص التسبيح بالذكر بعد دخوله تحت عموم قوله: ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ﴾ تنبيهاً على مزيد شرفه، وإنافة ثوابه على غيره من الأذكار، وقيل: أفرد التسبيح بالذكر من بين الأذكار؛ لكونه العمدة فيها من حيث إنه من باب التخلية.

وفي الحديث: «أربع لا يمسك عنهن جنب: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر» فإذا قالها الجنب.. فالمحدث أولى، فلا منع من التسبيح على جميع الأحوال إلا أن الذكر على الوضوء والطهارة من آداب الرجال. وقيل: المراد بالتسبيح بكرة: صلاة الفجر، وبالتسبيح أصيلاً: صلاة المغرب، وقال قتادة وابن جرير: المراد: صلاة الغداة وصلاة العصر، وقال الكلبي: أما بكرة: فصلاة الفجر، وأما أصيلاً: فصلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء.

وقيل[1]: خص البكرة والأصيل بالذكر: لأن وقت البكرة وقت القيام من النوم، وهو يُعَدُّ كأنه حياة جديدة بعد موت، ووقت الأصيل: وقت الانتهاء من العمل اليومي، فيكون الذكر شكراً له على توفيقه لأداء الأعمال، والقيام بالسعي على الأرزاق، فلم يبق إلا السعي إلى ما يقربه من ربه بالعمل للآخرة.

ثم ذكر السبب في هذا الذكر والتسبيح، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾؛ أي: إن ربكم الذي تذكرونه الذكر الكثير، وتسبحونه بكرةً وأصيلاً هو الإله الذي يصلي عليكم، ويرحمكم، ويثني عليكم في الملأ الأعلى، ويعتني بكم بالرحمة والمغفرة والتزكية ﴿و﴾ تصلي عليكم ﴿ملائكته﴾؛ أي: تستغفر لكم ملائكته؛ أي: هو الذي يصلي عليكم، ويأمر ملائكته بالدعاء والاستغفار لكم، و﴿هُوَ﴾[2] معطوف على المستكن في ﴿يُصَلِّي﴾ لمكان الفصل المغني عن التأكيد بالمنفصل.

فالمراد بالصلاة: المعنى المجازي الشامل للرحمة والاستغفار، وهو الاعتناء بما فيه خيرهم، وصلاح أمرهم، فلا يجوز أن يراد بالصلاة أولاً الرحمة، والاستغفار ثانياً، فإن استعمال اللفظ الواحد في معنيين متغايرين مما لا مساغ له، بل على أن يراد بها معنى مجازي عام يكون كلا المعنيين فرداً له حقيقياً، وهو

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

الاعتناء بما فيه خيرهم وصلاح أمرهم، فإن كلاً من الرحمة والاستغفار فرد حقيقي له. اهـ «أبو السعود».

فالله يهديكم برحمته، والملائكة يستغفرون لكم، وفي هذا من التحريض على ذكره، والتسبيح له ما لا يخفى. واللام في قوله: ﴿لِيُخْرِجَكُم﴾ متعلق بـ﴿يُصَلِّي﴾؛ أي: يصلي عليكم ليخرجكم الله سبحانه بتلك الصلاة والعناية، وإنما لم يقل: ليخرجاكم؛ لئلا يكون للملائكة منة عليهم بالإخراج، ولأنهم لا يقدرون على ذلك؛ لأن الله هو الهادي في الحقيقة لا غير؛ أي: يعتني هو وملائكته بأموركم ليخرجكم ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾؛ أي: من ظلمات المعاصي ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾؛ أي: إلى نور الطاعات، ومن ظلمة الضلالة إلى نور الهدى، جمع الظلمات لتعدد أنواع الكفر، وأفرد الثاني لأن الإيمان شيء واحد لا تعدد فيه. اهـ شيخنا». أي: ليخرجكم بسبب رحمته، ودعاء الملائكة من ظلمات الجهل والشرك والمعصية والشك والضلالة والبشرية وصفاتها، إلى نور العلم والتوحيد والطاعة واليقين والهدى والروحانية وصفاتها.

ومعنى الآية[1]: تثبيت المؤمنين على الهداية، ودوامهم عليها؛ لأنهم كانوا وقت الخطاب على الهداية، ثم أخبر سبحانه برحمته للمؤمنين تأنيساً لهم، وتثبيتاً فقال: ﴿وَكَانَ﴾ سبحانه في الأزل قبل إيجاد الملائكة المقربين ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: بكافتهم قبل وجدانهم العينية ﴿رَحِيمًا﴾، ولذلك فعل بهم ما فعل من الاعتناء بصلاحهم بالذات وبواسطة الملائكة، فلا تتغير رحمته بتغير أحوال من سعد في الأزل، وفي هذه الجملة تقرير لمضمون ما تقدمها.

والمعنى[2]: أي إنه برحمته وهدايته ودعاء الملائكة لكم أخرجكم من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان، وكان رحيماً بالمؤمنين في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا: فإنه هداهم إلى الحق الذي جهله غيرهم، وبصَّرهم الطريق الذي حاد عنه سواهم من الدعاة إلى الكفر، وأما الآخرة: فإنه آمنهم من الفزع الأكبر، وأمر الملائكة أن يتلقوهم بالبشارة بالفوز بالجنة، والنجاة من النار، وهذا ما أشار إليه بقوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾؛ أي: تحية المؤمنين من الله سبحانه يوم لقائهم له عند الموت، أو عند البعث، أو عند دخول الجنة هي: التسليم عليهم منه عز وجل.

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

وقيل: المراد: تحية بعضهم لبعض يوم يلقون ربهم: سلام، وذلك لأنه كان بالمؤمنين رحيماً، فلما شملتهم رحمته، وأمنوا من عقابه.. حيًّا بعضهم بعضاً سروراً واستبشاراً، والمعنى: سلامة لنا من عذاب النار.

قال الزجاج: المعنى: فيسلمهم الله من الآفات، ويبشرهم بالأمن من المخافات يوم يلقونه.

والإضافة[1] في ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ من إضافة المصدر إلى المفعول، والضمير عائد على المؤمنين، والضمير في ﴿يَلْقَوْنَهُۥ﴾ عائد على الله سبحانه؛ أي: ما يحيون به يوم يلقون الله سبحانه عند الموت، أو عند البعث من القبور، أو عند دخول الجنة: سلام؛ أي: تسليم من الله تعالى عليهم تعظيماً لهم، أو تسليم من الملائكة بشارة لهم بالجنة، أو تكرمة لهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾، أو إخباراً بالسلامة من كل مكروه وآفة وشدة.

وقيل: الضمير في يلقونه راجع إلى ملك الموت، وهو الذي يحييهم، كما ورد أنه لا يقبض روح كل مؤمن إلا سلم عليه، وعن أنس رضي الله عنه: «إذا جاء ملك الموت إلى وليِّ الله سلَّم عليه، وسلامه عليه أن يقول: السلام عليك يا وليَّ الله، قم فاخرج من دارك التي خربتها إلى دارك التي عمرتها، فإذا لم يكن ولياً لله قال له: قم فاخرج من دارك التي عمرتها إلى دارك التي خربتها»...

قال بعضهم: عمارة الدنيا: بزرع الحبوب، وتكثير القوت، وجري الأنهار، وغرس الأشجار، ورفع أبنية الدور، وتزيين القصور، وعمارة الآخرة: بالأذكار، والأعمال، والأخلاق، والأحوال. اهـ.

﴿وَأَعَدَّ﴾ الله سبحانه ﴿لَهُمْ﴾؛ أي: للمؤمنين في الجنة، وهيأ لهم ﴿أَجْرًا كَرِيمًا﴾؛ أي: ثواباً حسناً دائماً مما تشتهيه أنفسهم، وتلذه أعينهم، وهو نعيم الجنة، وهو بيان لآثار رحمته الفائضة عليهم عقيب بيان آثار رحمته الواصلة إليهم قبل ذلك. وإيثار الجملة الفعلية دون وأجرهم أجر كريم ونحوه؛ لمراعاة الفواصل، وفيه إشارة إلى سبق العناية الأزلية في حقهم؛ لأن في الإعداد تعريفاً بالإحسان السابق،

---

(١) روح البيان.

والأجر الكريم ما يكون سابقاً على العمل، بل يكون العمل من نتائج الكرم.

ثم هذه الآية من أكبر نعم الله على هذه الأمة، ومن أدل دليل على أفضليتها على سائر الأمم، والمعنى: أي[1]: وهيأ لهم ثواباً حسناً في الآخرة، يأتيهم بلا طلب بما يتمتعون به من لذات المآكل والمشارب والملابس والمساكن، في فسيح الجنات، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

الإعراب

﴿۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَمَن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿من﴾: اسم شرط في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما. ﴿يَقْنُتْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿مَن﴾ مجزوم بـ﴿مَن﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿مِنكُنَّ﴾ حال من فاعل ﴿يَقْنُتْ﴾. ﴿لِلَّهِ﴾: متعلق بـ﴿يَقْنُتْ﴾، ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾: معطوف على الجلالة، وذكر الضمير في ﴿مَن﴾ نظراً للفظ. ﴿وَتَعْمَلْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿مَن﴾، معطوف على ﴿يَقْنُتْ﴾ وأنث الضمير هنا نظراً إلى معنى ﴿مَن﴾. ﴿صَٰلِحًا﴾: مفعول به. ﴿نُّؤْتِهَآ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول أول مجزوم بـ﴿مَن﴾ الشرطية على كونه جواباً لها، وعلامة جزمه حذف حرف العلة. ﴿أَجْرَهَا﴾: مفعول ثانٍ لآتى؛ لأنه بمعنى: أعطى. ﴿مَرَّتَيْنِ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة؛ لنيابته عن المصدر؛ لأنه بمعنى: إتياءتين، أو منصوب على الظرفية الزمانية متعلق بـ﴿نُّؤْتِهَآ﴾، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية معطوفة على جملة قوله: ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ﴾. ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾: فعل وفاعل في محل الجزم، معطوف على ﴿نُّؤْتِهَآ﴾ على كونها جواب ﴿من﴾ الشرطية. ﴿لَهَا﴾: متعلق بـ﴿أعتدنا﴾. ﴿رِزْقًا﴾: مفعول به. ﴿كَرِيمًا﴾: صفة ﴿رِزْقًا﴾.

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾.

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾: منادى مضاف، معطوف بعاطف مقدَّر على المنادى السابق.

---

(١) المراغي.

﴿لَسۡتُنَّ﴾: فعل ناقص واسمه، مبني على السكون؛ لاتصاله بضمير رفع متحرك، والتاء ضمير لجماعة الإناث المخاطبات في محل الرفع اسمها، والنون علامة جمع الإناث. ﴿كَأَحَدٍ﴾: خبر ﴿لَسۡتُنَّ﴾. ﴿مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾: صفة لـ﴿أحد﴾. وجملة ليس جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿إِنِ﴾: حرف شرط. ﴿ٱتَّقَيۡتُنَّۚ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إِنِ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها مبني على السكون لاتصاله بضمير رفع، ومفعول التقوى محذوف، تقديره: إن اتقيتن الله، وجواب ﴿إِنِ﴾ الشرطية محذوف، تقديره: فإنكن أعظم أجراً من غيركن، وجملة ﴿إِنِ﴾ الشرطية مستأنفة مقررة لمضمون ما قبلها. ﴿فَلَا﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتن أنكن لستن كأحد من النساء، وأردتن بيان ما هو اللائق لمنصبكن.. فأقول لكن: لا تخضعن. ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَخۡضَعۡنَ﴾: فعل مضارع في محل الجزم بـ﴿لا﴾ الناهية، مبني على السكون لاتصاله بنون الإناث، ونون الإناث في محل الرفع فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ويجوز أن تكون الفاء رابطة الجواب، وجملة ﴿لا تخضعن﴾ في محل جزم بـ﴿إِنِ﴾ الشرطية على كونها جواباً لها ﴿بِٱلۡقَوۡلِ﴾، متعلق بـ﴿تَخۡضَعۡنَ﴾، أو حال من ضمير الفاعل؛ أي: لا تلن حال كونكن متلبسات بالقول.

﴿فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾.

﴿فَيَطۡمَعَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة سببية ﴿يطمع﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد الفاء السببية الواقعة في جواب النهي. ﴿ٱلَّذِي﴾: فاعل. ﴿فِي قَلۡبِهِۦ﴾: خبر مقدم. ﴿مَرَضٞ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية صلة الموصول، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر معطوف على مصدر متصيد من الجملة التي قبلها من غير سابك؛ لإصلاح المعنى تقديره: لا يكن منكن خضوع بالقول، فطمع الذي في قلبه مرض. ﴿وَقُلۡنَ﴾: الواو: عاطفة. ﴿قلن﴾: فعل أمر مبني على السكون، والنون: فاعل. ﴿قَوۡلٗا﴾: مفعول مطلق مبين للنوع. ﴿مَّعۡرُوفٗا﴾: صفة ﴿قَوۡلٗا﴾، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ﴾.

﴿وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ

ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَقَرۡنَ﴾: فعل أمر مبني على السكون، والنون: فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿قلن﴾. ﴿فِي بُيُوتِكُنَّ﴾: متعلق بـ﴿قرن﴾. ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَبَرَّجۡنَ﴾: فعل مضارع في محل الجزم بـ﴿لا﴾ الناهية، مبني على السكون لاتصاله بنون النسوة، ونون النسوة في محل الرفع فاعل. ﴿تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾: مفعول مطلق مبيِّن للنوع ﴿ٱلۡأُولَىٰ﴾: صفة للجاهلية، والجملة معطوفة على جملة ﴿قرن﴾. ﴿وَأَقِمۡنَ﴾: فعل أمر مبني على السكون، والنون: فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿قرن﴾. ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾: مفعول به. ﴿وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، معطوف على ما قبله. ﴿وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، معطوف على ما قبله عطف عام على خاص. ﴿وَرَسُولَهُۥٓ﴾: معطوف على الجلالة. ﴿إِنَّمَا﴾: كافة ومكفوفة. ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل جميع ما قبلها. ﴿لِيُذۡهِبَ﴾ ﴿اللام﴾: لام كي. ﴿يذهب﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي. ﴿عَنكُمُ﴾: متعلق بـ﴿يذهب﴾. ﴿ٱلرِّجۡسَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، والتقدير: إنما يريد الله لإذهاب الرجس عنكم، الجار والمجرور متعلق بـ﴿يُرِيدُ﴾، واللام زائدة في المعنى؛ أي: إنما يريد الله إذهاب الرجس عنكم ﴿أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾: منصوب على الاختصاص؛ أي: أخصَّ أهل البيت، أو منصوب على أنه منادى مضاف حذف منه حرف النداء. ﴿وَيُطَهِّرَكُمۡ﴾: فعل، وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول به معطوف على ﴿يذهب﴾. ﴿تَطۡهِيرٗا﴾: مفعول مطلق.

﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَٱذۡكُرۡنَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿اذكرن﴾: فعل أمر مبني على السكون، والنون: فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿قرن﴾. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به. ﴿يُتۡلَىٰ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ونائب فاعل يعود على ﴿مَا﴾. ﴿فِي بُيُوتِكُنَّ﴾: متعلق بـ﴿يُتۡلَىٰ﴾، والجملة الفعلية صلة الموصول. ﴿مِنۡ ءَايَٰتِ

﴿ٱللَّهِ﴾: حال من نائب فاعل ﴿يُتۡلَىٰ﴾. ﴿وَٱلۡحِكۡمَةِۚ﴾: معطوف على ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمه ضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾. ﴿لَطِيفًا﴾: خبر أول لـ﴿كَانَ﴾. ﴿خَبِيرًا﴾: خبر ثان لها، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٣٥﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾: ناصب واسمه، ﴿وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ﴾ معطوف على ﴿ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾، وكذا قوله: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ﴾: معطوفات على ﴿ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ على كونها اسماً لـ﴿إِنَّ﴾ المكسورة. ﴿فُرُوجَهُمۡ﴾: مفعول ﴿الحافظين﴾. ﴿وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ﴾: معطوفان على اسم ﴿إِنَّ﴾ المكسورة، ولفظ ﴿ٱللَّهَ﴾: مفعول ﴿الذاكرين﴾. ﴿كَثِيرٗا﴾: مفعول مطلق لـ﴿الذاكرين﴾؛ لأنه صفة مصدر محذوف، أي: ذكراً كثيراً. ﴿وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾: معطوف أيضاً على اسم ﴿إِنَّ﴾. ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل. ﴿لَهُم﴾: متعلق بـ﴿أَعَدَّ﴾. ﴿مَّغۡفِرَةٗ﴾: مفعول به لـ﴿أَعَدَّ﴾. ﴿وَأَجۡرًا﴾: معطوف على ﴿مَّغۡفِرَةٗ﴾. ﴿عَظِيمٗا﴾: صفة ﴿أَجۡرًا﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿ما﴾: نافية. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿لِمُؤۡمِنٖ﴾: خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم على اسمها. ﴿وَلَا مُؤۡمِنَةٍ﴾: معطوفة عليه. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد عن معنى الشرط متعلق بالاستقرار الذي تعلق به خبر ﴿كَانَ﴾. ﴿قَضَى ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل. ﴿وَرَسُولُهُۥٓ﴾: معطوف على الجلالة، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذَا﴾. ﴿أَمۡرًا﴾: مفعول به لقضى،

﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿يَكُونَ﴾: فعل مضارع ناقص منصوب بـ﴿أَن﴾. ﴿لَهُمُ﴾: خبر مقدم لـ﴿يَكُونَ﴾. ﴿ٱلْخِيَرَةُ﴾: اسم ﴿يَكُونَ﴾ مؤخر. ﴿مِنْ أَمْرِهِمْ﴾: حال من ﴿ٱلْخِيَرَةُ﴾، أو متعلق بـ﴿ٱلْخِيَرَةُ﴾، وتكون ﴿مِن﴾ بمعنى: في، وجملة ﴿يَكُونَ﴾ مع ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مرفوع على كونه اسم كان، والتقدير: ما كان كون الخيرة في أمرهم كائناً لمؤمن ولا مؤمنة وقت قضاء الله سبحانه، ورسوله ﷺ أمراً في شؤونهم، وجملة ﴿كان﴾ مستأنفة مسوقة لبيان قصة زينب بنت جحش، وزوجها زيد بن حارثة. ﴿وَمَن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿مَن﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما. ﴿يَعْصِ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿مَن﴾ الشرطية مجزوم بحذف حرف العلة. ﴿ٱللَّهَ﴾: مفعول به. ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾: معطوف عليه. ﴿فَقَدْ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿مَن﴾ الشرطية وجوباً؛ لاقترانه بـ﴿قد﴾. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿ضَلَّ﴾: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾ الشرطية. ﴿ضَلَٰلًا﴾: مفعول مطلق. ﴿مُّبِينًا﴾: صفته، والجملة الفعلية في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾.

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَإِذْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿إذ﴾: ظرف لما مضى من الزمان. ﴿تَقُولُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على محمد. ﴿لِلَّذِىٓ﴾: متعلق بـ﴿تَقُولُ﴾، والظرف متعلق بمحذوف، تقديره: واذكر، والجملة المحذوفة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾، أو مستأنفة. ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق به، والجملة صلة الموصول. ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾: معطوف على ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ﴾. ﴿أَمْسِكْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على زيد بن حارثة، والجملة في محل نصب مقول ﴿تَقُولُ﴾. ﴿عَلَيْكَ﴾: متعلق بـ﴿أَمْسِكْ﴾، ولكنه على تقدير مضاف؛ أي: على نفسك. ﴿زَوْجَكَ﴾: مفعول به، ﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾: فعل، وفاعل مستتر، ومفعول به، معطوف على ﴿أَمْسِكْ﴾. ﴿وَتُخْفِى﴾: ﴿الواو﴾: حالية أو عاطفة. ﴿تخفي﴾: فعل مضارع، وفاعل

مستتر يعود على محمد. ﴿فِي نَفْسِكَ﴾: متعلق بـ﴿تخفي﴾، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿تَقُولُ﴾، أو معطوفة على جملة ﴿تَقُولُ﴾. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿تخفي﴾. ﴿ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة صلة الموصول. ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾: فعل، وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿تخفي﴾، أو معطوفة عليه. ﴿وَٱللَّهُ﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿الله﴾: مبتدأ. ﴿أَحَقُّ﴾: خبره. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر ﴿تَخْشَىٰهُ﴾: فعل، وفاعل مستتر، ومفعول به، والجملة الفعلية مع ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مرفوع على كونه بدل اشتمال من لفظ الجلالة، والتقدير: والله خشيته أحق وأولى من خشية الناس، أو منصوب بنزع الخافض المتعلق بـ﴿أَحَقُّ﴾، تقديره: والله أحق بخشيته من خشية الناس، وجوز أبو البقاء أن يكون ﴿أَن تَخْشَىٰهُ﴾: مبتدأ، و﴿أَحَقُّ﴾: خبره مقدم عليه، والجملة خبر عن لفظ الجلالة، والجملة الاسمية على جميع التقادير حال من فاعل ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾. ﴿فَلَمَّا﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية. ﴿لمّا﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿قَضَىٰ زَيْدٌ﴾: فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿لمّا﴾ لا محل لها من الإعراب. ﴿مِّنْهَا﴾: متعلق بـ﴿قَضَىٰ﴾. ﴿وَطَرًا﴾: مفعول ﴿قَضَىٰ﴾. ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾: فعل وفاعل ومفعولان، والجملة جواب ﴿لمّا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لمّا﴾ مستأنفة. ﴿لكي﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل. ﴿كي﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَكُونَ﴾: فعل مضارع ناقص منصوب بـ﴿كي﴾. ﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: خبر ﴿يَكُونَ﴾ مقدم على اسمها. ﴿حَرَجٌ﴾: اسم ﴿يَكُونَ﴾ مؤخر. ﴿فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه صفة لـ﴿حَرَجٌ﴾، وجملة ﴿يَكُونَ﴾ مع ﴿كي﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور باللام، الجار والمجرور متعلق بـ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ على أنه تعليل للتزويج؛ أي: زوجناكها لرفع حرج كائن على المؤمنين في حرمة أزواج أدعيائهم عليهم. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان مجرد عن معنى الشرط. ﴿قَضَوْاْ﴾: فعل وفاعل. ﴿مِنْهُنَّ﴾: متعلق بـ﴿قَضَوْاْ﴾. ﴿وَطَرًا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذَا﴾. والظرف متعلق بـ﴿يَكُونَ﴾ ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾: فعل ناقص واسمه وخبره، والجملة معترضة، أو معطوفة على جملة ﴿لمّا﴾.

﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ وَكَانَ

﴿أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾.

﴿مَا﴾: نافية. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾: خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم. ﴿مِنْ﴾: زائدة. ﴿حَرَجٍ﴾: اسم ﴿كَانَ﴾ مؤخر. ﴿فِيمَا﴾: جار ومجرور صفة ﴿حَرَجٍ﴾، وجملة ﴿فَرَضَ ٱللَّهُ﴾ صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: فرضه الله. ﴿له﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿فَرَضَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ مستأنفة مسوقة لنفي الحرج في زواجه ﷺ بزينب. ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة بفعل محذوف، تقديره: سن الله له ذلك؛ أي: كثرة النساء سنة الذين خلوا من قبل، أو منصوب بنزع الخافض؛ أي: كسنة الله في الأنبياء الذين خلوا من قبل. ﴿فِي ٱلَّذِينَ﴾: متعلق بمحذوف حال من ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: حالة كونها متبعة في الذين خلوا، وجملة ﴿خَلَوْا﴾ صلة الموصول. ﴿مِن قَبْلُ﴾: متعلق بـ﴿خَلَوْا﴾. ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿قَدَرًا﴾: خبره. ﴿مَّقْدُورًا﴾: صفة لازمة له للتأكيد كيوم أيوم، وليل أليل، وظل ظليل. وجملة ﴿كَانَ﴾ مستأنفة.

﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدل من الموصول الأول، أو صفة له، أو في محل الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هم الذين ﴿يُبَلِّغُونَ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول ﴿رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ﴾: مفعول به. ﴿وَيَخْشَوْنَهُۥ﴾: فعل وفاعل ومفعول، معطوف على ﴿يُبَلِّغُونَ﴾. ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا﴾: فعل وفاعل ومفعول. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿ٱللَّهَ﴾: مستثنى من ﴿أَحَدًا﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿يخشون﴾. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾: فعل وفاعل، والباء زائدة. ﴿حَسِيبًا﴾: حال أو تمييز، والجملة مستأنفة.

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾.

﴿مَّا﴾: نافية. ﴿كَانَ مُحَمَّدٌ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿أَبَآ أَحَدٍ﴾: خبره منصوب بالألف. ﴿مِّن رِّجَالِكُمْ﴾: صفة لـ﴿أَحَدٍ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ مستأنفة، ﴿وَلَٰكِن﴾: الواو: عاطفة. ﴿لكن﴾: حرف استدراك مهمل لكونها مخففة. ﴿رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾: معطوف على ﴿أَبَآ أَحَدٍ﴾، ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ﴾: معطوف على ﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾، أو خبر

لكان المحذوفة لدلالة السابقة عليها؛ أي: ولكن كان رسول الله وخاتم النبيين. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾: متعلق بـ﴿عَلِيمًا﴾. ﴿عَلِيمًا﴾: خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ مستأنفة، أو معطوفة على جملة قوله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ﴾. ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾: حرف نداء. ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة، و﴿الهاء﴾: حرف تنبيه زائد. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لأي، وجملة النداء مستأنفة. ﴿ءَامَنُوا﴾: صلة الموصول. ﴿ٱذْكُرُوا ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿ذِكْرًا﴾: مفعول مطلق مؤكد لعامله. ﴿كَثِيرًا﴾: صفته. ﴿وَسَبِّحُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول، معطوف على ﴿ٱذْكُرُوا﴾. ﴿بُكْرَةً﴾: منصوب على الظرفية متعلق بـ﴿سبحوه﴾. ﴿وَأَصِيلًا﴾: معطوف على ﴿بُكْرَةً﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى﴾: مبتدأ وخبر. ﴿يُصَلِّى﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر صلة الموصول. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: متعلق بـ﴿يُصَلِّى﴾، والجملة الاسمية مستأنفة مسوقة لتعليل الأمر بالذكر والتسبيح. ﴿وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾: معطوف على الضمير المستكن في ﴿يُصَلِّى﴾. ﴿لِيُخْرِجَكُم﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل. ﴿يخرجكم﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي. ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: متعلق بـ﴿يخرج﴾، وكذا قوله: ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ متعلق به، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لإخراجه إياكم من الظلمات إلى النور، الجار والمجرور متعلق بـ﴿يُصَلِّى﴾. ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾: ﴿وَكَانَ﴾: فعل ناقص، واسمه ضمير مستتر يعود على الله. ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: متعلق بـ﴿رَحِيمًا﴾. ﴿رَحِيمًا﴾: خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ مستأنفة. ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾: مبتدأ، والهاء: مضاف إليه، وهو مصدر مضاف إلى مفعوله؛ أي: يحيون يوم لقائه بسلام. ﴿يَوْمَ﴾: منصوب على الظرفية الزمانية، وجملة ﴿يَلْقَوْنَهُۥ﴾ مضاف إليه للظرف، والظرف متعلق بمحذوف حال من ضمير الغائبين. ﴿سَلَٰمٌ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة مسوقة لبيان ما أعد لهم في الآخرة، ﴿وَأَعَدَّ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة مستأنفة. ﴿لَهُمْ﴾: متعلق بـ﴿أَعَدَّ﴾، ﴿أَجْرًا﴾: مفعول به. ﴿عَظِيمًا﴾: صفة ﴿أَجْرًا﴾. والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿وَمَن يَقْنُتْ﴾ قال الراغب: القنوت: لزوم الطاعة مع الخضوع.

﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ والإعتاد: التهيئة من العتاد، وهو العدة. قال الراغب: الإعتاد: ادِّخار الشيء قبل الحاجة إليه كالإعداد، وقيل: أصله أعددنا، فأبدلت الدال تاء فراراً من توالي مثلين.

﴿رِزْقًا كَرِيمًا﴾ قال الراغب في «المفردات»: كل شيء يشرف في بابه، فإنه كريم.

﴿كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ وأصل أحد: وحد بمعنى: الواحد، قلبت واوه همزةً على خلاف القياس، ثم وضع في النفي العام مستوياً فيه المذكر والمؤنث، والواحد والكثير، كما قاله الزمخشري. وفي «الإتقان»: قال أبو حاتم: أحد: اسم أكمل من الواحد، ألا ترى أنك إذا قلت: فلان لا يقوم له واحد جاز في المعنى أن يقوم له اثنان، بخلاف قولك: لا يقوم له أحد، وفي الأحد خصوصية ليست في الواحد، تقول: ليس في الدار أحد، فيكون قد شمل عموم المخلوقين من الدواب والطير الوحشي والأنسي، فيعم الناس وغيرهم، بخلاف قولك: ليس في الدار واحد، فإنه مخصوص بالآدميين دون غيرهم، قال: ويأتي الأحد في كلام العرب بمعنى الواحد، فيستعمل في الإثبات والنفي، نحو: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾؛ أي: واحد، و﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾﴾، و﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾، «ولا فضل لأحدٍ على أحد». وأحد: يستعمل في المذكر والمؤنث، قال تعالى: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ بخلاف الواحد، فلا يقال: كواحد من النساء، بل كواحدة. قلت: ولهذا وصف به في قوله تعالى: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ بخلاف الواحد، والأحد: له جمع من لفظه، وهو الأحدون والآحاد، وليس للواحد جمع من لفظه، فلا يقال: واحدون، بل اثنان وثلاثة، والأحد ممتنع الدخول في الضرب والعدد والقسمة وفي شيء من الحساب بخلاف الواحد.

﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ والخضوع: التطامن والتواضع والسكون، والمرأة مأمورة بالغلظة في المقالة إذا خاطبت الأجانب.

﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ قرأ نافع وعاصم وأبو جعفر بفتح القاف في المضارع بناء

على أنه من باب علم، وأصله: اقررن، نقلت حركة الراء الأولى إلى القاف، وحذفت لالتقاء الساكنين، ثم حذفت همزة الوصل استغناءً عنها بحركة القاف المنقولة من الراء، فصار: قرن، ووزنه الحالي: فَلْنَ، والأصل: افعلن، وقرأ الباقون ﴿قرن﴾ بكسر القاف لما أنه أمر من وقر يقر كوعد يعد وقاراً، إذا ثبت وسكن، وأصله: أوقرن، فحذفت الواو تخفيفاً، ثم الهمزة استغناءً عنها بحركة القاف، فصار: قرن، ووزنه الحالي: علن، أو من قر يقر بكسر القاف في المضارع؛ لأنه من باب ضرب، فأصله: اقررن، نقلت كسرة الراء إلى القاف، ثم حذفت لالتقاء الساكنين، فاستغني عن همزة الوصل، فصار: قرن، ووزنه الحالي: فلن.

﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾ بترك إحدى التاءين، وأصله: تتبرجن؛ أي: لا تتبخترن في مشيكن. وفي «القاموس»: تبرجت المرأة: أظهرت زينتها ومحاسنها للأجانب. انتهى.

قال الراغب: يقال: ثوب متبرج: صُوِّر عليه بروج، واعتبر حسنه، فقيل: تبرجت؛ أي: تشبهت به في إظهار الزينة والمحاسن للرجال؛ أي: مواضعها الحسنة، وأصل التبرج صعود البرج، وذلك أن من صعد البرج ظهر لمن نظر إليه، قاله أبو علي. انتهى. وقيل: تبرجت المرأة: ظهرت من برجها؛ أي: من قصرها، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾، كما في «المفردات».

﴿الْجَاهِلِيَّةِ﴾: هي حالة الجهل بالله، والوثنية في بلاد العرب قبل الإسلام، أو الزمن الذي تقدمه، وأصح ما قيل في الجاهلية: أنهما جاهليتان: أولى، وأخيرة. فالأولى: هي القديمة، ويقال لها: الجاهلية الجهلاء، وهي تمتد إلى أبعد الآماد، والجاهلية الأخيرة: تمتد من منتصف القرن الخامس الميلادي، وفي الجاهلية الأولى كانت المرأة تلبس الدرع من اللؤلؤ، فتمشي في منتصف الطريق تعرض نفسها على الرجال، فنهين عن ذلك.

﴿الرِّجْسَ﴾ الرجس في الأصل: الشيء القذر، والمراد به هنا: الذنب المدنس للعرض، وعرض الرجل: جانبه الذي يصونه.

﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ قال الراغب: أهل الرجل: من يجمعه وإياهم نسب أو دين، أو

ما يجري مجراهما من صناعة وبيت وبلد وضيعة، فأهل الرجل في الأصل: من يجمعه وإياهم مسكن واحد، ثم تجوز به فقيل: أهل بيت الرجل لمن يجمعه وإياهم نسب، وتعورف في أسرة النبي ﷺ مطلقاً إذا قيل: أهل البيت، يعني: أهل البيت متعارف في آل النبي ﷺ من بني هاشم.

فصل في إجمال أسماء زوجاته ﷺ

قال ابن الكلبي: إن النبي ﷺ تزوج خمس عشرة امرأةً، ودخل بثلاث عشرة، وجمع بين إحدى عشرة، وتوفي عن تسع، وقد جمع أحمد المرزوقي هذه التسعة بقوله:

عَائِشَةٌ وَحَفْصَةٌ وَسَوْدَهْ صَفِيَّةٌ مَيْمُونَةٌ وَرَمْلَهْ

هِنْدٌ وَزَيْنَبٌ كَذَا جُوَيْرِيَّهْ لِلْمُؤْمِنِيْنَ أُمَّهَاتٌ مَرْضِيَّهْ

١ ـ خديجة بنت خويلد، وكانت قبله تحت عتيق بن عابد بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، ومات عنها، وتزوجها بعده أبو هالة بن زرارة بن النباش التميمي، فولدت له هند، ثم مات عنها، وتزوجها بعده النبي ﷺ، فولدت له ثمانية: القاسم، والطيب، والطاهر، وعبد الله، وزينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة. فأما الذكور: فماتوا وهم صغار، وأمَّا الإناث فبلغن ونكحن وولدن، ولم يتزوج على خديجة أحداً، وكان موتها قبل الهجرة بثلاث سنين.

٢ و ٣ ـ سودة بنت زمعة، وقيل: عائشة، وكانت بنت ست سنين، فدخل بها في المدينة وهي ابنة تسع، ومات عنها وهي ابنة ثماني عشرة سنة، وماتت سنة ثمان وخمسين، وأما سودة: فكانت امرأة ثيباً، وكانت قبله عند السكران بن عمرو بن عبد شمس، ومات عنها، فخلف عليها رسول الله ﷺ، ودخل بها بمكة.

٤ ـ حفصة بنت عمر بن الخطاب، وكانت قبله تحت خميس بن حذافة السهمي، وكان بدرياً، وماتت بالمدينة في خلافة عثمان.

٥ ـ أم سلمة ابنة أبي أمية المخزومية، وكانت قبله تحت أبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي، شهد بدراً، وأصابته جراحة يوم أحد فمات عنها، فتزوجها

رسول الله ﷺ قبل الأحزاب.

٦ - زينب بنت خزيمة من بني عامر بن صعصعة، ويقال لها: أم المساكين، وتوفيت في حياته، ولم يمت غيرها وغير خديجة في حياته ﷺ، وكانت زينب قبله تحت الطفيل بن الحارث بن عبد المطلب.

٧ - جويرية ابنة الحارث بن أبي ضرار الخزاعية من بني المصطلق، وكانت تحت مالك بن صفوان.

٨ - أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب، وكانت قبله تحت عبيد الله بن جحش، وكانت من مهاجرة الحبشة، فتنصر ومات بها، فأرسل رسول الله ﷺ إلى النجاشي، فخطبها عليه وتزوجها، وهي بالحبشة، وساق النجاشي المهر لها عن رسول الله، وماتت في خلافة أخيها معاوية.

٩ - زينب بنت جحش، كما سبقت قصتها.

١٠ - صفية بنت حيي بن أخطب تزوجها الرسول ﷺ عام خيبر.

١١ - ميمونة ابنة الحارث الهلالية، وكانت قبله تحت عمير بن عمرو الثقفي، فمات عنها، وخلف عليها أبو زهير بن عبد العزى، ثم رسول الله ﷺ، وهي خالة ابن عباس وخالد بن الوليد.

١٢ - امرأة من بني كليب يقال لها: شاة بنت رفاعة، وقيل: سنا بنت الصلت، وقيل: ابنة الصلت بن حبيب، توفيت قبل أن يدخل بها، وقيل: الشنباء دخل بها، ومات ابنه إبراهيم فقالت: لو كان نبياً ما مات ولده فطلقها.

١٣ - غزية بنت جابر الكلابية، قال ابن الكلبي: غزية هي أم شريك، فلما قدمت على النبي، وأراد أن يخلو بها.. استعاذت منه، فردها.

١٤ - العالية ابنة ظبيان فجامعها، ثم فارقها.

١٥ - قتيلة بنت قيس، أخت الأشعث، فتوفي عنها قبل أن يدخل بها، فارتدت.

١٦ - فاطمة بنت الضحاك، وقيل: تزوج خولة ابنة الهذيل بن هبيرة، وليلى ابنة الحطيم عرضت نفسها عليه فتزوجها وفارقها.

قال ابن الكلبي: أما من خطب النبي ﷺ من النساء ولم ينكحها، فأم هانىء بنت أبي طالب، خطبها ولم يتزوجها. وضباعة ابنة عامر من بني قشير، وصفية بنت بشامة الأعور العنبري، وأم حبيبة ابنة عمه العباس، فوجد العباس أخاً له من الرضاعة فتركها، وجمرة بنت الحارث بن أبي حارثة خطبها، فقال أبوها: بها سوء، ولم يكن بها وجع، فرجع إليها فوجدها قد برصت.

وأما سراريه ﷺ فأربع:

الأولى: مارية ابنة شمعون القبطية، ولدت له إبراهيم.

والثانية: ريحانة ابنة زيد القرظية، وقيل: هي من بني النضير.

والثالثة: نفيسة، وهبتها له زينب بنت جحش.

والرابعة: أصابها في بعض السبي، ولم يعرف اسمها.

وفي «المواهب»: رواية أخرى يختلف فيها الأسماء بعض الاختلاف، ويطول بنا القول لو نقلناها، فليرجع إليها من شاء.

﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ﴾ قال بعضهم: الخشوع: انقياد الباطن للحق، والخضوع: انقياد الظاهر له. وفي «القاموس»: الخشوع: الخضوع، أو هو في البدن، والخشوع في الصوت.

﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ وفي «المفردات»: الصدقة: ما يخرجه الإنسان من ماله على وجه القربة كالزكاة، لكن الصدقة في الأصل تقال للمتطوع به، والزكاة للواجب. وقيل: يسمَّى الواجب صدقة إذا تحرى صاحبه الصدق في فعله.

﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ﴾ وفي «المفردات»: الفرج والفرجة: الشق بين الشيئين، كفرجة الحائط، والفرج: ما بين الرجلين، وكني به عن السوءة، وكثر حتى صار كالصريح فيه.

﴿ٱلْخِيَرَةُ﴾ - بالكسر -: اسم من الاختيار؛ أي: أن يختاروا.

﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ وإمساك الشيء: التعلق به وحفظه.

﴿مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ الإبداء: الإظهار. ﴿وَطَرًا﴾ قال في «القاموس»: الوطر محركة: الحاجة، أو حاجة لك فيها همٌّ وعناية، فإذا بلغتها.. فقد قضيت وطرك.

وفي «الوسيط»: معنى قضاء الوطر في اللغة: بلوغ منتهى ما في النفس من الشيء. يقال: قضى منها وطراً: إذا بلغ ما أراد من حاجة فيها، ثم صار عبارة عن الطلاق؛ لأن الرجل إنما يطلق امرأته إذا لم يبق له فيها حاجة. انتهى.

﴿حَرَجٌ﴾؛ أي: ضيق وشدة. قال في «المفردات»: أصل الحرج: مجتمع الشجر، وتصور منه ضيق بينها، فقيل للضيق: حرج، وللإثم حرج.

﴿فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ﴾ والأدعياء: جمع دعي، وهو الذي يُدَّعى ابناً من غير ولادة.

﴿فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: قسم الله له وقدر، من قولهم: فرض له في الديوان كذا، ومنه: فروض العساكر لأرزاقهم. ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾: اسم موضوع موضع المصدر مؤكد لما قبله من نفي الحرج؛ أي: سن الله نفي الحرج سنة؛ أي: جعله طريقة مسلوكة.

﴿فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ﴾؛ أي: مضوا، قال في «المفردات»: الخلو: يستعمل في الزمان والمكان، لكن لما تصور في الزمان المضي.. فسر أهل اللغة قولهم: خلا الزمان بقولهم: مضى وذهب. انتهى. وقال بعضهم: الخلو في الحقيقة حال الزمان والمكان؛ لأن المراد خلوهما عما فيهما بموت ما فيهما. فافهم.

﴿رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ﴾ جمع: رسالة، والمراد: ما يتعلق بالرسالة، وهي سفارة العبد بين الله وبين ذوي الألباب من خلقه؛ أي: إيصال الخبر من الله إلى العبد.

﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ الرسول والمرسل بمعنى واحد، من: أرسلت فلاناً في رسالة، فهو مرسل ورسول. قال القهستاني: الرسول: فعول، مبالغة: مفعول بضم الميم وفتح العين بمعنى: ذي رسالة، اسم من الإرسال، وفعول هذا لم يأت إلا نادراً. واصطلاحاً: هو من بعث لتبليغ الأحكام ملكاً كان، أو إنساناً، بخلاف النبي فإنه مختص بالإنسان، وهذا الفرق هو المعول عليه. انتهى.

﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ والخاتم ـ بفتح التاء ـ: آلة الختم بمعنى ما يختم به، كالطابع بمعنى: ما يطبع به، والمعنى عليه: وكان آخرهم الذي ختموا به، وبكسرها: آخر الشيء؛ أي: كان خاتمهم؛ أي: فاعل الختم.

﴿ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾ والذكر: إحضار الشيء في القلب، أو في القول، وهو

ذكر عن نسيان، وهو حال العامة، أو إدامة الحضور والحفظ، وهو حال الخاصة؛ إذ ليس لهم نسيان أصلاً، وهم عند مذكورهم مطلقاً.

﴿وَسَبِّحُوهُ﴾ قال في «المفردات»: السبح: المر السريع في الماء، أو في الهواء، والتسبيح: تنزيه الله، وأصله: المر السريع في عبادة الله، وجعل عاماً في العبادات قولاً كان أو فعلاً أو نية.

﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ الظلمة: عدم النور، ويعبَّر بها عن الجهل والشرك والفسق ونحوها، كما يعبر بالنور عن أضدادها.

﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ من إضافة المصدر إلى المفعول، كما مر؛ أي: ما يحيون به، والتحية: الدعاء بالتعمير بأن يقال: حياك الله؛ أي: جعل لك حياة، ثم جعل كل دعاء تحية لكون جميعه غير خارج عن حصول الحياة، أو سبب حياة، إما لدنيا، وإما لآخرة.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾؛ أي: كتبرج أهل الجاهلية، حذفت أداة التشبيه، ووجه الشبه، فصار بليغاً.

ومنها: عطف العام على الخاص في قوله: ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ بعد قوله: ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ إفادة للتعميم، فإن إطاعة الله ورسوله تشمل كل ما تقدم من الأوامر والنواهي.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ حيث استعار الرجس الذي هو القذر للذنب، بجامع التدنيس في كل؛ لأن الذنب يدنس العرض والقلب، كما أن الرجس يدنس الثوب والبدن، وذكر الطهارة ترشيح.

ومنها: جعل التطهير ترشيحاً لمزيد التنفير عن المعاصي.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

ومنها: ذكر التلاوة في البيوت في قوله: ﴿مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ دون النزول فيها، مع أنه الأنسب لكونها مهبط الوحي لعمومها جميع الآيات، ووقوعها في كل البيوت، وتكررها الموجب لتمكنهن من الذكر والتذكير، بخلاف النزول.

ومنها: عدم تعيين التالي ليعم تلاوة جبريل، وتلاوة النبي ﷺ، وتلاوتهن، وتلاوة غيرهن تعلماً وتعليماً.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿وَالْحَافِظَاتِ﴾ حذف المفعول لدلالة السابق عليه؛ أي: والحافظات فروجهن، وكذا يقال في: ﴿وَالذَّاكِرَاتِ﴾.

ومنها: التغليب في قوله: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم﴾؛ حيث أتى بضمير الغائبين تغليباً للذكور على الإناث.

ومنها: التنكير لإفادة العموم في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾؛ لأن النكرة في سياق النفي تفيد العموم؛ أي: ليس لواحد منهم أن يريد غير ما أراده الله ورسوله، فلما وقعا في سياق النفي.. كانا بمعنى كل مؤمن ومؤمنة. اهـ. «زاده».

ومنها: الطباق بين ﴿تخفي﴾، و﴿مُبْدِيهِ﴾، وبين ﴿الظُّلُمَاتِ﴾ و﴿النُّورِ﴾؛ فإنه من المحسنات البديعية.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾، وفيه التأكيد أيضاً؛ كظل ظليل، وليل أليل، ويوم أيوم، كما مر.

ومنها: جناس السلب في قوله: ﴿وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا﴾.

ومنها: الجناس المغاير في قوله: ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾.

ومنها: الطباق بين ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾، وفيه أيضاً المجاز المرسل من إطلاق الطرفين، وإرادة الكل؛ أي: في جميع الأوقات.

ومنها: عطف الخاص في قوله: ﴿وَسَبِّحُوهُ﴾ على العام في قوله: ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ﴾ إشعاراً بكون التسبيح هو العمدة في الأذكار من حيث إنه من باب التخلية.

ومنها: فن التلفيف في قوله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾، وهو أن يأتي بالجواب العام عن نوع من أنواع جنس تدعو الحاجة إلى بيانها كلها، فيعدل المجيب عن الجواب الخاص عما سئل عنه من تبيين ذلك النوع إلى جواب عام

يتضمن الإبانة عن الحكم المسؤول عنه، وعن غيره. مما تدعو الحاجة إلى بيانه، فإن قوله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ...﴾ إلخ. جواب عن سؤال مقدر، وهو قول قائل: أليس محمد أبا زيد بن حارثة؟ فأتى في الجواب بقول: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾، وكان مقتضى الجواب أن يقول: ما كان محمد أبا زيد، وكان يكفي أن يقول ذلك، ولكنه عدل عنه ترشيحاً للإخبار بأن محمداً ﷺ خاتم النبيين، ولا يتم هذا الترشيح إلا بنفي أبوته لأحد من الرجال، فإنه لا يكون خاتم النبيين إلا بشرط أن لا يكون له ولد قد بلغ، فلا يرد أن له الطاهر، والطيب، والقاسم؛ لأنهم لم يبلغوا مبلغ الرجال.

ثم احتاط لذلك بقوله: ﴿مِّن رِّجَالِكُمْ﴾، فأضاف الرجال إليهم، لا إليه فالتف المعنى الخاص في المعنى العام، وأفاد نفي الأبوة الكلية لأحد من رجالهم، وانطوى في ذلك نفي الأبوة لزيد، ثم إن هناك تلفيفاً آخر، وهو قوله: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾، فعدل عن لفظ نبي إلى لفظة رسول لزيادة المدح؛ لأن كل رسول نبي، ولا عكس، على أحد القولين، فهذا تلفيف بعد تلفيف.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلّ وعلا:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (٤٦) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا (٤٧) وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (٤٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٤٩) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥٠) تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (٥١) لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا (٥٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا (٥٣) إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٥٤) لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٥٥) إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٥٦)﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات

لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر[1] تأديبه لنبيه ﷺ في ابتداء السورة، وذكر ما ينبغي أن يكون عليه مع أهله.. ذكر هنا ما ينبغي أن يكون عليه مع الخلق كافة.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما أدب نبيه بمكارم الأخلاق بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾، وثنى بتذكيره بحسن معاملة أزواجه بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾، وثلث بذكر معاملته لأمته بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا...﴾ الآية، وكان كلما ذكر للنبي مكرمة، وعلَّمه أدباً.. ذكر للمؤمنين ما يناسبه، فأرشد المؤمنين فيما يتعلق بجانبه تعالى بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾.. أرشدهم فيما يتعلق بما تحت أيديهم من الزوجات بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، وفيما يتعلق بمعاملتهم لنبيهم بقوله: ﴿لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ...﴾ إلخ، وبقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أنه سبحانه لما ذكر أنه لم يوجب على نبيه القسم لنسائه، وأمره بتخييرهن، فاخترن الله ورسوله.. أردف ذلك بذكر ما جازاهن به من تحريم غيرهن عليه، ومنعه من طلاقهن بقوله: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر حال النبي ﷺ مع أمته بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا﴾.. أردف ذلك ببيان حال المؤمنين مع النبي ﷺ إرشاداً إلى ما يجب عليهم في حقه من الاحترام، والتعظيم في خلوته، وفي الملأ، فأبان أنه يجب عدم إزعاجه إذا كان في الخلوة بقوله: ﴿لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ...﴾ إلخ، وأنه يجب إجلاله إذا كان في الملأ بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ...﴾ إلخ.

قوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[2]: أن الله سبحانه لما ذكر أن نساء النبي لا يكلمن إلا من وراء حجاب..

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

أردف ذلك باستثناء بعض الأقارب، ونساء المؤمنين، والأرقاء لما في الاحتجاب عن هؤلاء من عظيم المشقة للحاجة إلى الاختلاط بهؤلاء كثيراً.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر وجوب احترام النبي ﷺ حال خلوته بقوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾.. أردف ذلك ببيان ما له من احترام في الملأ الأعلى بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ﴾، وفي الملأ الأدنى بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[1]: ما أخرجه الترمذي وحسنه، والحاكم وصححه من طريق السدي عن أبي صالح عن ابن عباس عن أم هانىء بنت أبي طالب، قالت: خطبني رسول الله ﷺ، فاعتذرت إليه، فعذرني، فأنزل الله ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلَّـٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ فلم أكن أحل له؛ لأني لم أهاجر.

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق إسماعيل بن أبي خالد عن أبي صالح عن أم هانىء قالت: نزلت فيَّ هذه الآية: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ أراد النبي ﷺ أن يتزوجني، فنهي عني؛ إذ لم أهاجر.

قوله: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه ابن سعد عن عكرمة قال: نزلت في أم شريك الدوسية.

وأخرج ابن سعد عن منير بن عبد الله الدؤلي أن أم شريك غزية بنت جابر بن حكيم الدوسية عرضت نفسها على النبي ﷺ، وكانت جميلة، فقبلها فقالت عائشة: ما في امرأةٍ حين تهب نفسها لرجل خير، قالت أم شريك: فأنا تلك، فسماها الله: مؤمنة، فقال: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ﴾، فلما نزلت.. قالت عائشة: إن الله يسارع لك في هواك.

قوله تعالى: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[2]: ما أخرجه

(١) المراغي. (٢) البخاري.

الشيخان بسندهما عن عائشة قالت: كنت أغار على اللائي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ، وأقول: أتهب المرأة نفسها؟ فلما أنزل الله تعالى: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ قلت: ما أرى ربك إلا يسارع في هواك.

وأخرج ابن سعد عن أبي رزين قال: همَّ رسول الله ﷺ أن يطلق من نسائه، فلما رأين ذلك.. جعلنه في حل من أنفسهم، يؤثر من يشاء على من يشاء، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ﴾ إلى قوله: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ...﴾ سبب نزوله[1]: ما أخرجه ابن سعد عن عكرمة قال: خيَّر رسول الله ﷺ أزواجه، فاخترن الله ورسوله، فأنزل الله: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه[2] البخاري ومسلم عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: أولم النبي ﷺ حين بنى بزينب ابنة جحش، فأشبع الناس خبزاً ولحماً، ثم خرج إلى حجر أمهات المؤمنين، كما كان يصنع صبيحة بنائه، فيسلم عليهن، ويدعو لهن، ويسلِّمن عليه، ويدعون له، فلما رجع إلى بيته.. رأى رجلين جرى بهما الحديث، فلما رآهما.. رجع عن بيته، فلما رأى الرجلان رسول الله ﷺ رجع عن بيته وثبا مسرعين، فما أدري أنا أخبرته بخروجهما، أم أُخبِر، فرجع حتى دخل البيت، وأرخى الستر بيني وبينه، وأنزلت آية الحجاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ...﴾ الآية.

وفي رواية عنهما عن أنس قال: لما تزوج النبي ﷺ زينب بنت جحش.. دعا القوم، فطعموا، ثم جلسوا يتحدثون، فأخذ كأنه يتهيأ للقيام، فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام، وقام من القوم من قام، وقعد ثلاثة، ثم انطلقوا، فجئت، فأخبرت النبي ﷺ: أنهم انطلقوا، فجاء حتى دخل، وذهبت أدخل، فألقى الحجاب بيني وبينه، وأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾.

---

(١) لباب النقول.

(٢) البخاري ج ١٠ ص ١٤٩

وأخرج الترمذي، وحسنه عن أنس قال: كنت مع رسول الله ﷺ، فأتى باب امرأة عرس بها، فإذا عندها قوم، فانطلق، ثم رجع وقد خرجوا، فدخل، فأرخىٰ بيني وبينه ستراً، فذكرته لأبي طلحة فقال: لئن كان كما تقول.. لينزِلنَّ في هذا شيء، فنزلت آية الحجاب.

وأخرج الطبراني بسند صحيح عن عائشة قالت: كنت آكل مع النبي ﷺ في قعب، فمر عمر، فدعاه، فأكل، فأصابت إصبعه إصبعي، فقال: أوه، لو أُطاع فيكن.. ما رأتكن عين، فنزلت آية الحجاب.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: دخل رجل على النبي ﷺ، فأطال الجلوس، فخرج النبي ﷺ ثلاث مرات ليخرج، فلم يفعل، فدخل عمر، فرأى الكراهية في وجهه، فقال للرجل: لعلك آذيت النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «لقد قمت ثلاثاً لكي يتبعني، فلم يفعل»، فقال له عمر: يا رسول الله، لو اتخذت حجاباً، فإن نساءك لسن كسائر النساء، وذلك أطهر لقلوبهن، فنزلت آية الحجاب.

قال الحافظ ابن حجر: يمكن الجمع بأن ذلك وقع قبل قصة زينب، فلقربه منها.. أطلق نزول آية الحجاب بهذا السبب، ولا مانع من تعدد الأسباب.

وأخرج البخاري[1] بسنده عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: كان عمر بن الخطاب يقول لرسول الله ﷺ: احجب نساءك، قالت: فلم يفعل، وكان أزواج النبي ﷺ يخرجن ليلاً إلى ليل قبل المناصع، فخرجت سودة بنت زمعة، وكانت امرأة طويلة، فرآها عمر بن الخطاب وهو في المجلس، فقال: عرفناك يا سودة حرصاً على أن ينزل الحجاب، فأنزل الله عز وجل آية الحجاب.

وأخرج ابن سعد عن محمد بن كعب قال: كان رسول الله ﷺ إذا نهض إلى بيته.. بادروه، فأخذوا المجالس، فلا يعرف ذلك في وجه رسول الله ﷺ، ولا يبسط يده إلى الطعام استحياءً منهم، فعوتبوا في ذلك فأنزل الله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ...﴾ الآية.

---

(١) البخاري.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ...﴾ الآية، سبب نزولها[1]: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال: بلغ النبي ﷺ أن رجلاً يقول: لو قد توفي النبي ﷺ.. تزوجت فلانة من بعده، فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ...﴾ الآية.

وأخرج عن ابن عباس قال: نزلت في رجل هم أن يتزوج بعض نساء النبي ﷺ بعده. قال سفيان: ذكروا أنها عائشة.

وأخرج عن السدي قال: بلغنا أن طلحة بن عبيد الله قال: أيحجبنا محمد عن بنات عمنا، ويتزوج نساءنا، لئن حدث به حدث.. لنتزوجن نساءه من بعده، فأُنزلت هذه الآية.

وأخرج ابن سعد عن أبي بكر بن عمرو بن حزم قال: نزلت في طلحة بن عبيد الله؛ لأنه قال: إذا توفي رسول الله ﷺ.. تزوجت عائشة.

قال الحافظ السيوطي: وقد كنت في وقفة شديدة من صحة هذا الخبر؛ لأن طلحة أحد العشرة المبشرين بالجنة، أجلُّ مقاماً من أن يصدر منه ذلك، حتى رأيتُ أنه رجل آخر شاركه في اسمه واسم أبيه ونسبته، كما في «إنسان العيون».

وأخرج جويبر عن ابن عباس: أن رجلاً أتى بعض أزواج النبي ﷺ، فكلمها وهو ابن عمها، فقال النبي ﷺ: «لا تقومن هذا المقام بعد يومك هذا»، فقال: يا رسول الله، إنها ابنة عمي، واللَّهِ ما قلت لها منكراً، ولا قالت لي. قال النبي ﷺ: «قد عرف ذلك، إنه ليس أحد أغير من الله، وإنه ليس أحد أغير مني»، ثم قال: يمنعني من كلام ابنة عمي، لأتزوجنها من بعده، فأنزل الله تعالى هذه الآية. قال ابن عباس: فأعتق ذلك الرجل رقبة، وحمل على عشرة أبعرة في سبيل الله، وحج ماشياً توبة من كلمته.

التفسير وأوجه القراءة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ نداء كرامة وتعظيم؛ لأن الشريف ينادى باللقب الشريف، لا

---

(١) لباب النقول.

نداء علامة، مثل: يا آدم ونحوه.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ﴾ وبعثناك بعظمتنا إلى كافة الناس، وقوله: ﴿شَـٰهِدًا﴾ حال من كاف ﴿أَرْسَلْنَـٰكَ﴾؛ أي: حالة كونك شاهداً على أمتك، تشهد لمن صدقك وآمن بك بالإيمان، وعلى من كذبك وكفر بك بالتكذيب، وهي[1] حال مقدَّرة، فالنبي ﷺ بعث متحملاً للشهادة في الدنيا، ويكون في الآخرة مؤدياً لما تحمله، ووقت الأداء متأخر عن وقت الإرسال، نحو: مررت برجل معه صقر صائداً به غداً، أي: مقدراً به الصيد غداً.

والمعنى: يا أيها النبي الكريم، إنا أرسلناك بعظمتنا مقدراً شهادتك على أمتك بتصديقهم وتكذيبهم، تؤديها يوم القيامة أداء مقبولاً قبول قول الشاهد العدل في الحكم. قال مجاهد: شاهداً على أمته بالتبليغ إليهم، وعلى سائر الأمم بتبليغ أنبيائهم إليهم.

﴿و﴾ حالة كونك ﴿مبشرا﴾ للمؤمنين بالجنة، وبما أعده لهم من جزيل الثواب وعظيم الأجر. ﴿و﴾ حالة كونك ﴿نذيرا﴾؛ أي: مخوفاً للكافرين والعصاة بالنار، وبما أعده لهم من عظيم العقاب. ﴿و﴾ حالة كونك ﴿داعيا إلى الله﴾؛ أي: داعياً لكافة الناس إلى توحيده سبحانه ودينه، وإلى الإيمان بكل ما جاء به، والعمل بما شرعه لهم. ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾؛ أي: بأمره له بذلك وتقديره، لا برأيك واجتهادك، وهذا راجع[2] إلى قوله: داعياً فقط، وذلك كما إذا قال شخص: من يطع الملك يسعد، ومن يعصه يشقى، فيكون مبشراً ونذيراً، ولا يحتاج في ذلك إلى إذن من الملك، وأما إذا قال: تعالوا إلى سماطه، وأحضروا إلى خوانه، فيحتاج في ذلك إلى إذنه.

وقيل: معنى[3] ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾؛ أي: بتيسيره وتسهيله، فأطلق الإذن، وأريد به التيسير مجازاً بعلاقة السببية، فإن التصرف في ملك الغير متعسر، فإذا أذن. تسهل وتيسر، وإنما لم يحمل الإذن على حقيقته، وهو الإعلام بإجازة الشيء، والرخصة فيه؛ لانفهامه من قوله: ﴿أَرْسَلْنَـٰكَ﴾، ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾، وقيد به الدعوة إيذاناً بأنها

---

(١) روح البيان.

(٢) المراح.

(٣) روح البيان.

أمر صعب لا يتأتى إلا بمعونة وإمداد من جانب قدسه، كيف لا، وهي صرف الوجوه عن سمت الخلق إلى الخلاق، وإدخال قلادة غير معهودة في الأعناق.

﴿و﴾ حالة كونك ﴿سراجا﴾؛ أي: مصباحاً ﴿مُّنِيرًا﴾؛ أي: مضيئاً في الظلام؛ أي: يستضاء به في ظلم الضلالة، كما يستضاء بالمصباح في الظلمة. ففي الكلام تشبيه بليغ، وقال الزجاج: ﴿وَسِرَاجًا﴾؛ أي: ذا سراج منير؛ أي: كتاب نير، وفي «الخازن»: سماه[1] سراجاً منيراً؛ لأنه جلا به ظلمات الشرك، واهتدى به الضالون، كما يجلى ظلام الليل بالسراج المنير. وقيل: معناه: أمد الله بنور نبوته نور البصائر، كما يمد بنور السراج نور الأبصار، ووصفه بالإنارة؛ لأن من السرج ما لا يضيء إذا قل سليطه، ودقَّتْ فتيلته.

فإن قلت: لم سماه سراجاً، ولم يسمه شمساً، والشمس أشد إضاءة من السراج وأنور؟.

قلتُ: نور الشمس لا يمكن أن يؤخذ منه شيء، بخلاف نور السراج، فإنه يؤخذ منه أنوار كثيرة.

وعبارة «فتح الرحمن» هنا: فإن قلت[2]: كيف شبه الله تعالى نبيه ﷺ بالسراج، دون الشمس، مع أنها أتم؟.

قلتُ: المراد بالسراج هنا: الشمس، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾، أو شبهه بالسراج؛ لأنه تفرع منه بهدايته جميع العلماء، كما يتفرع من السراج سرج لا تحصى، بخلاف الشمس.

واعلم: أن الله سبحانه وتعالى شبَّه نبينا محمداً ﷺ بالسراج لوجوه[3]:

منها: أنه يستضاء به في ظلمات الجهل والغواية، ويهتدى بأنواره إلى مناهج الرشد والهداية، كما يهتدى بالسراج المنير في الظلام إلى سمت المرام.

ومنها: أن السراج الواحد يوقد منه ألف سراج، ولا ينقص من نوره شيء.

---

(١) الخازن.

(٢) فتح الرحمن.

(٣) روح البيان.

ومنها: أنه ﷺ يضيء من جميع الجهات الكونية إلى جميع العوالم، كما أنَّ السراج يضيء من كل جانب، وأيضاً: يضيء لأمته كلهم، كالسراج لجميع الجهات إلا من عمي، مثل: أبي جهل، ومن تبعه على صفته، فإنه لا يستضيء بنوره، ولا يراه حقيقة، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

ومنها: أنه سماه سراجاً، ولم يسمه شمساً، ولا قمراً، ولا كوكباً؛ لأنه لا يوجد يوم القيامة شمس ولا قمر ولا كوكب، ولأن الشمس والقمر لا ينقلان من موضع إلى موضع بخلاف السراج، ألا ترى أنه تعالى نقله ـ عليه السلام ـ من مكة إلى المدينة.

ومعنى الآية[1]: أي يا أيها الرسول، إنا بعثناك شاهداً على من بُعثت إليهم، تراقب أحوالهم، وترى أعمالهم، وتتحمل الشهادة بما صدر منهم من تصديق وتكذيب، وسائر ما يفعلون من الهدى والضلال، وتؤدِّي ذلك يوم القيامة، وأرسلناك مبشراً لهم بالجنة إن صدقوك، وعملوا بما جئتهم به من عند ربك، ومنذراً لهم بالنار يدخلونها، فيعذَّبون فيها إن هم كذبوك، وخالفوا ما أمرتهم به، ونهيتهم عنه، وداعياً الخلق إلى الإقرار بوحدانيته تعالى، وسائر ما يجب له من صفات الكمال، وإلى عبادته ومراقبته في السر والعلن، وسراجاً منيراً يستضيء به الضالون في ظلمات الجهل والغواية، ويقتبس من نورك المهتدون، فيسلكون مناهج الرشد والسعادة.

وقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ معطوف على مقدر يقتضيه المقام، كأنه قال: فدبر أمور الناس، وراقب أحوالهم، وبشر المؤمنين بك، وبما جئت به بأن لهم من الله فضلاً كبيراً؛ أي: على مؤمني سائر الأمم في الرتبة والشرف، أو زيادة على أجور أعمالهم بطريق التفضل والإحسان. وروي أن الحسنة الواحدة في الأمم السالفة كانت بواحدة، وفي هذه الأمة بعشر أمثالها إلى ما لا نهاية له.

أو هو من عطف جملة على جملة، وهي المذكور سابقاً، ولا يمنع من ذلك الاختلاف بين الجملتين بالإخبار والإنشاء. أمره سبحانه بأن يبشِّرهم بأن لهم من الله

---

(١) المراغي.

فضلاً كبيراً على سائر الأمم، وقد بين ذلك سبحانه بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾.

وأخرج ابن جرير وعكرمة عن الحسن أنه قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ قالوا: يا رسول الله، قد علمنا ما يفعل بك، فماذا يفعل بنا، فأنزل الله سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾.

ثم نهاه سبحانه عن طاعة أعداء الدين فقال: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ من أهل مكة ﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ من أهل المدينة. ومعناه: الدوام على عدم طاعتهم، أي(١): دم واثبت على ما أنت عليه من مخالفتهم، وترك إطاعتهم، واتباعهم.

وفي «الإرشاد»: نُهي عن مداراتهم في أمر الدعوة، واستعمال لين الجانب في التبليغ، والمسامحة في الإنذار، كنى عن ذلك بالنهي عن طاعتهم مبالغةً في الزجر والتنفير عن المنهي عنه، بنظمه في سلكها، وتصويره بصورتها.

أي: لا تطعهم فيما يشيرون عليك به من المداهنة في الدين، وفي الآية تعريض لغيره من أمته؛ لأنه ﷺ معصوم عن طاعتهم في شيء مما يريدونه، ويشيرون به عليه، وقد تقدم تفسير هذه الآية في أول السورة ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾؛ أي: واترك المجازاة لهم على إيذائهم إياك، ومؤاخذتهم به؛ أي: دع أن تؤذيهم مجازاةً لهم على ما يفعلونه من الأذى لك، فهو مصدر مضاف إلى المفعول، أو المعنى: لا تبال بإيذائهم لك بسبب تصلبك في الدعوة والإنذار، فهو مصدر مضاف إلى الفاعل، وهي منسوخة بآية السيف بالنظر إلى الكافر.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: قسم رسول الله ﷺ قسمة، فقال رجل من الأنصار: إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله، فأخبر بذلك، فاحمر وجهه فقال: «رحم الله أخي موسى، لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر».

وفي «التأويلات»: ﴿وَلَا تُطِعِ ...﴾ إلخ؛ أي: لا تتخلق بخلق من أخلاقهم، ولا توافق من أعرضنا عنه، وأغفلنا قلبه عن ذكرنا، وأضللناه من أهل الكفر والنفاق وأهل البدع والشقاق. ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ بالبحث والمناظرة على إبطالهم، فإنهم عن

---

(١) روح البيان.

سمع كلمات الحق لمعزولون، فتضيع أوقاتك، ويزيد إنكارهم.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ في كل شؤونك، واعتمد عليه في أمورك خصوصاً في هذا الشأن، فإنه تعالى يكفيكهم، والعاقبة لك. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ سبحانه لمن استكفاه من جهة كونه ﴿وَكِيلًا﴾؛ أي: موكولاً إليه الأمور في كل الأحوال، فهو فعيل بمعنى: المفعول، تمييز من فاعل كفى، وهو الله؛ إذ الباء صلة، والتقدير: وكفى الله من جهة الوكالة، فإن أهل الدارين لا يكفي كفاية الله فيما يحتاج إليه، فمن عرف أنه تعالى هو المتكفل بمصالح عباده، والكافي لهم في كل أمر.. اكتفى به في كل أمره، فلم يدبر معه، ولم يعتمد إلا عليه.

روي: أن الحجاج بن يوسف سمع ملبياً يلبي حول البيت، رافعاً صوته بالتلبية، وكان إذ ذاك بمكة فقال: عليَّ بالرجل، فأتي به إليه، فقال: ممن الرجل؟ قال: من المسلمين، فقال: ليس عن الإسلام سألتك، قال: فعمَّ سألت؟ قال: سألتك عن البلد، قال: من أهل اليمن، قال: كيف تركت محمد بن يوسف؟ ـ يعني: أخاه ـ قال: تركته عظيماً جسيماً لباساً ركاباً خراجاً ولاجاً. قال: ليس عن هذا سألتك، قال: فعمَّ سألت؟ قال: سألتك عن سيرته، قال: تركته ظلوماً غشوماً، مطيعاً للمخلوق، عاصياً للخالق. فقال له الحجاج: ما حملك على هذا الكلام، وأنت تعلم مكانه مني؟ قال: أترى مكانه منك أعز مني بمكاني من الله، وأنا وافد بيته، مصدِّق نبيه، فسكت الحجاج، ولم يحسن جواباً، وانصرف الرجل من غير إذن، فتعلق بأستار الكعبة، وقال: اللهم بك أعوذ وبك ألوذ، اللهم فرجك القريب، ومعروفك القديم، وعادتك الحسنة، فخلص من يد الحجاج بسبب توكله على الله في قوله الخشن، وبعدم إطاعته وانقياده للمخلوق.

ومعنى الآية: أي ولا تطع[1] يا محمد قول كل كافر ولا منافق في أمر الدعوة، وألن الجانب في التبليغ، وارفق في الإنذار، واصفح عن آذاهم، واصبر على ما ينالك منهم، وفوِّض أمورك إلى الله، وثِقْ به، فإنه كافيك جميع من دونك حتى يأتيك أمره وقضاؤه، وهو حسبك في جميع أمورك، وكالؤك وراعيك.

---

(١) المراغي.

ولما ذكر سبحانه قصة زيد وطلاقه لزينب، وكان قد دخل بها، وخطبها النبي ﷺ بعد انقضاء عدتها، كما تقدم.. خاطب المؤمنين هنا مبيِّناً لهم حكم الزوجة إذا طلقها زوجها قبل الدخول، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بما جاء به محمد ﷺ ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ﴾ وتزوجتم ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ وعقدتم عليهن عقد النكاح. قال في «بحر العلوم»: أصل النكاح: الوطء، ثم قيل للعقد نكاح مجازاً تسمية للسبب باسم المسبب، فإن العقد سبب الوطء المباح، وعليه قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾؛ أي: لا يتزوج. ونظيره تسمية النبات غيثاً في قوله: رعينا الغيث؛ لأنه سبب للنبات، والخمر إثماً؛ لأنها سبب لاكتساب الإثم. انتهى.

وفي «القاموس»: النكاح: الوطء والعقد. انتهى.

وخص المؤمنات[1] بالذكر مع أن هذا الحكم الذي في الآية يستوي فيه المؤمنات والكتابيات، تنبيهاً على أن من شأن المؤمن أن لا ينكح إلا مؤمنة تخيّراً لنطفته، ويجتنب عن مصاحبة الفواسق، فما بال الكوافر. فالتي في سورة المائدة تعليم ما هو جائز غير محرم من نكاح المحصنات من الذين أوتوا الكتاب، وهذه فيها تعليم ما هو أولى بالمؤمنين من نكاح المؤمنات، وقد قيل: الجنس يميل إلى الجنس. وفي «فتح الرحمن»: التقييد بالمؤمنات خرج مخرج الغالب، وإلا فالكتابيات مثلهن فيما ذكر في الآية. انتهى.

﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾؛ أي: أطلقتموهن من عقال النكاح، وفككتموهن من حبله ﴿مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾؛ أي: من قبل أن تجامعوهن، فإن المس، أي: اللمس كنايةٌ عن الجماع.

وقرأ حمزة والكسائي[2]: ﴿تُماسوهن﴾ بضم التاء ومد الميم، وفائدة[3] الإتيان بـ﴿ثُمَّ﴾ إزاحة ما عسى يتوهم أن تراخي الطلاق ربما تمكن الإصابة معه، فيؤثر في العدة كما يؤثر في النسب، فلا تفاوت في الحكم بين أن يطلقها وهي قريبة العهد من النكاح، وبين أن يطلقها وهي بعيدة منه.

---

(١) روح البيان.
(٢) المراح.
(٣) روح البيان.

وفيه دليل على أن الطلاق قبل النكاح غير واقع؛ لأن الله تعالى رتب الطلاق على النكاح، كما قال بعضهم: إنما النكاح عقدة، والطلاق يحلها. فكيف تحل عقدة لم تعقد؟. فلو قال: متى تزوجت فلانة، أو كل امرأة أتزوجها.. فهي طالق، لم يقع عليه طلاق إذا تزوج. عند الشافعي وأحمد، وقال أبو حنيفة: يقع مطلقاً؛ لأنه تطليق عند وجود الشرط، إلا إذا زوجها فضولي، فإنها لم تطلق، كما في «المحيط». وقال مالك: إن عين امرأة بعينها، أو من قبيلة، أو من بلد، فتزوجها.. وقع الطلاق، وإن عمم فقال: كل امرأة أتزوجها من الناس كلهم لم يلزمه شيء.

والقول الصحيح الموافق لنص الكتاب والسنة: عدم وقوع الطلاق قبل النكاح، لحديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: «جعل الله الطلاق بعد النكاح» وأخرجه البخاري في ترجمة باب بغير إسناد. ولحديث جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا طلاق قبل النكاح».

ولحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أن رسول الله ﷺ قال: «لا طلاق فيما لا تملك، ولا عتق فيما لا تملك، ولا بيع فيما لا تملك». أخرجه أبو داود والترمذي بمعناه.

ثم إن[1] حكم الخلوة التي يمكن معها المساس في حكم المساس عند أبي حنيفة وأصحابه. والخلوة الصحيحة: غلق الرجل الباب على منكوحته بلا مانع وطءٍ من الطرفين، وهو ثلاثة:

حسي: كمرض يمنع الوطأ، ورتق وهو: انسداد موضع الجماع، بحيث لا يستطاع.

وشرعي: كصوم رمضان دون صوم التطوع، والقضاء والنذر والكفارة على الصحيح؛ لعدم وجوب الكفارة بالإفساد، وكإحرام فرض أو نفل، فإن الجماع مع الإحرام يفسد النسك، ويوجب دماً مع القضاء.

وطبعي: كالحيض والنفاس؛ إذ الطباع السليمة تنفر منها، فإذا خلا بها في

---

(١) روح البيان.

محل خال عن غيرهما حتى عن الأعمى والنائم، بحيث أمنا من إطلاع غيرهما عليهما بلا إذنهما.. لزمه تمام المهر؛ لأنه في حكم الوطء، ولو كان خصياً، وهو مقطوع الأنثيين، أو عنيناً، وهو الذي لا يقدر على الجماع، وكذا لو كان مجبوباً، وهو مقطوع الذكر. وفرض الصلاة مانع كفرض الصوم للوعيد على تركها، والعُدَّة تجب بالخلوة، ولو مع المانع احتياطاً لتوهم شغل الماء، ولأنها حق الشرع والولد.

واعلم: أن الحيض والنفاس والرتق من الأعذار المخصوصة بالمرأة، وأما المرض والإحرام والصوم.. فتعتبر في كل من الرجل والمرأة، وتعد مانعاً بالنسبة إلى كليهما، كما في تفسير «أبي الليث».

﴿فَمَا لَكُمْ﴾ أيها الأزواج ﴿عَلَيْهِنَّ﴾؛ أي: على المطلقات قبل الدخول ﴿مِنْ عِدَّةٍ﴾؛ أي: أيام معدودة بالأشهر، أو بالأقراء، ينتظرن انقضاءها في زواجها للغير. وعدة المرأة: هي الأيام التي بانقضائها تحل للزوج. وجملة ﴿تَعْتَدُّونَهَا﴾؛ أي: تحسبونها، في محل الجر على أنها صفة ﴿عِدَّةٍ﴾؛ أي: تستوفون عددها، أو تعدونها وتحصونها بالأقراء إن كانت من ذوات الحيض، أو بالأشهر إن كانت آيسةً، وفي الإسناد إلى[1] الرجال دلالة على أنَّ العدة حقهم، كما أشعر به ﴿فَمَا لَكُمْ﴾.

فدلت الآية على أنه لا عدة على غير المدخول بها، وهذا من الأمر المجمع عليه، كما حكاه القرطبي؛ لبراءة رحمها من نطفة الغير، فإن شاءت تزوجت من يومها، وكذا إذا تيقن بفراغ رحم الأمة من ماء البائع، لم يستبرىء عند أبي يوسف. وقالا أي: الشافعي وأحمد: إذا ملك جارية، ولو كانت بكراً، أو مشتراة ممن لا يطأ أصلاً، مثل المرأة والصبي والعنين والمجبوب، أو شرعاً كالمحرم رضاعاً أو مصاهرة، أو نحو ذلك.. حرم عليه وطؤها ودواعيه، كالقبلة والمعانقة والنظر إلى فرجها بشهوة، أو غيرها حتى يستبرىء بحيضة، أي: يطلب براءة رحمها من الحمل.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿تَعْتَدُّونَهَا﴾ بتشديد الدال، افتعل من: العد؛ أي: تستوفون

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط والشوكاني.

عددها، من قولهم: عدَّ الدراهم فاعتدها؛ أي: استوفى عددها.

وقرأ ابن كثير في رواية عنه، وأهل مكة: بتخفيفها، وفي هذه القراءة وجهان:

أحدهما: أن تكون بمعنى الأولى مأخوذة من الإعتداد؛ أي: تستوفون عددها، ولكنهم تركوا التضعيف لقصد التخفيف.

والوجه الثاني: أن يكون المعنى: تعتَدُون فيها، والمراد بالإعتداء هذا: هو ما في قوله: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟﴾، فيكون الآية على القراءة الأخيرة: فما لكم عليهن من عدة تعتدون عليهن فيها بالمضارة. وقد أنكر ابن عطية صحة هذه القراءة عن ابن كثير، وقال: إن البزي غلط عليه.

وهذه الآية مخصصة لعموم قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾، وبقوله: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾. وتخصص من هذه الآية المتوفى عنها زوجها، فإنه إذا مات بعد العقد عليها، وقبل الدخول بها.. كان الموت كالدخول، فتعتد أربعة أشهر وعشراً.

﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾؛ أي: فأعطوهن المتعة، وهي: درع وخمار وملحفة، كذا قيل. وهو محمول على إيجاب المتعة إن لم يسم لها مهر عند العقد، وعلى استحبابها إن سمي ذلك، فإنه إن سمي المهر عنده، وطلق قبل الدخول، فالواجب نصفه دون المتعة، كما قال تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾؛ أي: فالواجب عليكم نصف ما سميتم لهن من المهر.

﴿وَسَرِّحُوهُنَّ﴾؛ أي: أخرجوهن من منازلكم؛ إذ ليس لكم عليهن من عدة﴿سَرَاحًا جَمِيلًا﴾؛ أي: إخراجاً حسناً، أي: من غير ضرار ولا منع حق. وقيل: السراح الجميل: أن لا يطالبها بما كان قد أعطاها. وفي «كشف الأسرار»: معنى الجميل: أن لا يكون الطلاق جور الغضب، أو طاعة لغيره، وأن لا يكون ثلاثاً بتاً، أو لمنع صداق. انتهى. والمراد بالسراح هنا: الإخراج من المنازل كما سبق، ولا يصح تفسير السراح بالطلاق السني، لأنه إنما يتسنى في المدخول بها، والضمير لغير المدخول بها.

وفي «التأويلات النجمية»: وفي الآية إشارة إلى كرم الأخلاق، يعني: إذا نكحتم المؤمنات، ومالت قلوبهن إليكم، ثم آثرتم الفراق قبل الوصال، فكسرتم

قلوبهن، فما لكم عليهن من عدة تعتدونها، فمتعوهن ليكون لهن عليكم تذكرةً في أيام الفرقة، وأوائلها إلى أن تتوطن نفوسهن على الفرقة، وسرحوهن سراحاً جميلاً، بأن لا تذكروهن بعد الفراق إلا بخير، ولا تستردوا منهن شيئاً تفضلتم به معهن، فلا تجمعوا عليها الفراق بالحال، والإضرار من جهة المال. انتهى.

وينبغي للمؤمن[1]: أن لا يؤذي أحداً بغير حق، ولو كلباً أو خنزيراً، ولا يظلم، ولو بشق تمرة، ولو وقع شيء من الأذى والجور.. يجب الاستحلال والإرضاء، ورأينا كثيراً من الناس في هذا الزمان يطلقون ضراراً، ويقعون في الإثم مراراً، ويخالعون على المال بعد الخصومات، كأنهم غافلون عما بعد الممات.

ومعنى الآية[2]: أي يا أيها الذين آمنوا إذا عقدتم على المؤمنات، وتزوجتموهن، ثم طلقتموهن من قبل المسيس، فلا عدة لكم عليهن بأيام يتربصن بها تستوفون عددها، ولكن اكسوهن كسوة تليق بحالهن إذا خرجن وانتقلن من بيت إلى آخر. ويختلف ذلك باختلاف البيئة والبلد الذي تعيش فيه المرأة، وأخرجوهن إخراجاً جميلاً، فهيئوا لهن من المركب والزاد وجميل المعاملة ما تقرّ به أعينهن، ويسر به أهلوهن، ليكون في ذلك بعض السلوة مما لحقهن من أذى بقطع العشرة التي كن ينتظرن دوامها، ومن الخروج من بيوت كن يرجون أن تكون هي المقام إلى أن يلاقين ربهن، أو تموت عنهن بعولتهن.

روى البخاري عن سهل بن سعد، وأبي أسيد ـ رضي الله عنهما ـ قالا: إن رسول الله ﷺ تزوج أميمة بنت شراحيل، فلما أن دخلت عليه.. بسط يده إليها، فكأنها كرهت ذلك، فأمر أبا أسيد أن يجهزها، ويكسوها ثوبين رازقيين ـ ضَرْبٌ من الثياب مشهور في ذلك الحين ـ.

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ...﴾ الآية، ذكر الله سبحانه في هذه الآية أنواع الأنكحة التي أحلها لرسوله ﷺ، وبدأ بأزواجه اللاتي قد أعطاهن أجورهن؛ أي: مهورهن، فقال: يا أيها النبي الكريم ﴿إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ﴾؛ أي: أبحنا لك بعظمتنا ﴿أَزۡوَٰجَكَ﴾؛ أي: نساءك ﴿ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ﴾هن، وأعطيت ﴿أُجُورَهُنَّ﴾؛ أي: مهورهن، عبَّر عن

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

المهر بالأجر؛ لأن المهر أجر على البضع؛ أي: على المباشرة به، وإيتاؤها؛ إما إعطاؤها معجلة، أو تسميتها في العقد، وأياً ما كان أجزأ.

واختلف[1] في معنى ﴿أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ﴾ فقال ابن زيد والضحاك: إن الله أحل له أن يتزوج كل امرأة يؤتيها مهرها، فتكون الآية مبيحة له لجميع النساء ما عدا ذوات المحارم. وقال الجمهور: المراد: أحللنا لك أزواجك الكائنات عندك؛ لأنهن قد اخترنك على الدنيا وزينتها، وهذا هو الظاهر؛ لأن قوله: ﴿أَحۡلَلۡنَا﴾، و﴿ءَاتَيۡتَ﴾ ماضيان، وتقييد الإحلال بإيتاء الأجور ليس لتوقف الحل عليه؛ لأنه يصح العقد بلا تسمية، ويجب مهر المثل مع الوطء، والمتعة مع عدمه، فكأنه لقصد الإرشاد إلى ما هو الأفضل. ففي[2] وصفهن بـ﴿ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ﴾ تنبيه على أن الله سبحانه اختار لنبيه ﷺ الأفضل والأولى؛ لأن إيتاء المهر أولى وأفضل من تأخيره؛ ليتقصى الزوج عن عهدة الدين، وشغل ذمته به، ولأن تأخيره يقتضي أنه يستمتع بها مجاناً دون عوض تسلمته، والتعجيل كان سنة السلف، لا يعرف منهم غيره.

والمعنى[3]: أي يا أيها النبي إنا أحللنا لك الأزواج اللاتي أعطيتهن مهورهن، وقد كان مهره ﷺ لنسائه اثنتي عشرة أوقية ونصفاً؛ أي: خمس مئة درهم، إلا أم حبيبة بنت أبي سفيان، فإنه أمهرها عنه النجاشي رحمه الله، أربع مئة درهم.

﴿و﴾ أحللنا لك ﴿ما ملكت يمينك﴾ ويدك أي: السراري اللاتي دخلن في ملكك حالة كونها ﴿مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه، ورده ﴿عَلَيۡكَ﴾ من الكفار بالغنيمة لنسائهم المأخوذات على وجه القهر والغلبة. وليس المراد بهذا القيد إخراج ما ملكه بغير الغنيمة، فإنه تحل له السرية المشتراة والموهوبة والمهداة، ولكنه إشارة إلى ما هو الأفضل والأطيب؛ لأنها إذا كانت مسبية، فملكها مما غنمه الله من أهل دار الحرب.. كانت أحل وأطيب مما تشترى من الجلب، فما سبي من دار الحرب قيل فيه: سبي طيبة، وممن له عهد قيل فيه: سبي خبيثة، وفيء الله لا يطلق إلا على الطيِّب.

---

(١) الشوكاني.

(٢) البحر المحيط.

(٣) المراغي.

والمعنى: أي وأحللنا لك الإماء اللواتي سبيتهن فملكتهن بالسباء، وصرن لك من الفيء، بفتح الله عليك، وقد ملك صفية بنت حيي بن أخطب في سبي خيبر، ثم أعتقها، وجعل صداقها عتقها، وجويرية بنت الحارث من بني المصطلق أعتقها، ثم تزوجها، وملك ريحانة بنت شمعون النضرية، ومارية أم إبراهيم، وكانتا من السراري.

وقال في «إنسان العيون»: إن سراريه ﷺ أربع: مارية القبطية أم سيدنا إبراهيم رضي الله عنه، وريحانة، وجاريةٌ وهبتها له - ﷺ - زينب بنت جحش، وأخرى اسمها: زليخا القرظية. انتهى.

وكون ريحانة بنت يزيد من بني النضير سرية أضبط على ما قاله العراقي[1]، وزوجة أثبت عند أهل العلم على ما قاله الحافظ الدمياطي. وأما صفية بنت حيي الهارونية من غنائم خيبر، وجويرية بنت الحارث بن أبي صوار الخزاعية المصطلقية، وإن كانتا من المسبيات، لكنه ﷺ أعتقهما، فتزوجهما، فهما من الأزواج لا من السراري على ما بيِّن في كتب السير، فالوجه أنَّ المعنى: مما أفاء الله؛ أي: أعاده عليك بمعنى: صيره لك، ورده لك بأي جهة كانت هديةً أو سبية.

﴿و﴾ أحللنا لك ﴿بنات عمك﴾ والبنت: مؤنث الابن، والعم: أخو الأب؛ أي: وأحللنا لك نساء قريش من أولاد عبد المطلب وأعمامه ﷺ اثنا عشر:

الحارث، وأبو طالب، والزبير، وعبد الكعبة، وحمزة، والمقوم - بفتح الواو المشددة وكسرها - والمغيرة، والعباس، وضرار، وأبو لهب، وقثم، ومصعب، ولم يسلم من أعمامه الذين أدركوا البعثة إلا حمزة والعباس.

وبنات أعمامه ﷺ: ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب، وكانت تحت المقداد، وأم الحكيم بنت الزبير، وكانت تحت النضر بن الحارث، وأم هانيء بنت أبي طالب، اسمها: فاختة، وجمانة بنت أبي طالب، وأم حبيبة، وآمنة، وصفية بنات العباس بن عبد المطلب، وأروى بنت الحارث بن عبد المطلب.

﴿و﴾ أحللنا لك ﴿بنات عماتك﴾ جمع عمة، والعمة: أخت الأب.

---

(١) روح البيان.

وعماته ﷺ ست:

أم حكيم، واسمها: البيضاء، وعاتكة، وبرة، وأروى، وأميمة، وصفية، ولم تسلم من عماته اللاتي أدركن البعثة من غير خلاف إلا صفية أم الزبير بن العوام، أسلمت وهاجرت، وماتت في خلافة عمر رضي الله عنه.

واختلف في إسلام عاتكة، وأروى، ولم يتزوج رسول الله ﷺ من بنات أعمامه ديناً، وأما بنات عماته ديناً.. فكانت عنده منهن زينب بنت جحش بن رباب؛ لأن أمها أميمة بنت عبد المطلب، كما في «التكملة».

﴿و﴾ أحللنا لك ﴿بنات خالك﴾والخال: أخ الأم. ﴿وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ﴾ جمع: خالة، والخالة: أخت الأم، والمراد: نساء بني زهرة، يعني أولاد عبد مناف بن زهرة، لا إخوة أمه، ولا أخواتها؛ لأن آمنة بنت وهب أم رسول الله ﷺ لم يكن لها أخ ولا أخت، فإذا لم يكن له ﷺ خال ولا خالة.. فالمراد بذلك: الخال والخالة عشيرة أمه؛ لأن بني زهرة يقولون: نحن أخوال النبي ﷺ؛ لأن أمه منهم، ولهذا قال ﷺ لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: «هذا خالي».

وإنما خص هؤلاء بالذكر تشريفاً لهن، كما قال تعالى: ﴿فِيهِمَا فَـٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ۝٦٨﴾، وإنما[1] أفرد العم والخال، وجمع العمات والخالات في الآية، وإن كان معنى الكل الجمع؛ لأن لفظ العم والخال لما كان يعطي المفرد معنى الجنس.. استغني فيه عن لفظ الجمع تخفيفاً للفظ، ولفظ العمة والخالة، وإن كان يعطي معنى الجنس.. ففيه الهاء، وهي تؤذن بالتحديد والإفراد، فوجب الجمع لذلك. ألا ترى أن المصدر إذا كان بغير هاء لم يجمع، وإذا حدد بالهاء جمع، هكذا ذكره الشيخ أبو علي رحمه الله. كذا في «التكملة».

وعبارة «فتح الرحمن» هنا[2]: وإنما أفراد العم والخال، وجمع العمات والخالات؛ لأن العم والخال بوزن مصدرين، وهما: الضم، والمال، والمصدر يستوي فيه المفرد والجمع، بخلاف العمة والخالة، ولا يرد على ذلك جمع العم والخال في قوله في النور: ﴿أَوْ بُيُوتِ أَعْمَـٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّـٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ

---

(١) روح البيان.

(٢) فتح الرحمن.

﴿أَخْوَٰلِكُمْ﴾؛ لأنهما ليسا مصدرين حقيقة، فاعتبر هنا حقيقتهما، وثم شبههما.

وقوله: ﴿ٱلَّٰتِى﴾ صفة للبنات؛ أي: وأحللنا لك البنات المذكورة اللاتي ﴿هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾؛ أي: خرجن معك من مكة إلى المدينة، وفارقن أوطانهن، والمراد بالمعية[1]: المتابعة له ﷺ في المهاجرة، سواء وقعت قبله أو بعده أو معه، وتقييد البنات بكونها مهاجرات معه للإيذان بشرف الهجرة، وشرف من هاجر، وللتنبيه على الأليق والأفضل له ﷺ، فالهجرة وصفهن، لا بطريق التعليل كقوله تعالى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم﴾، ويحتمل تقييد الحل بذلك في حقه ﷺ خاصةً، وأن من هاجر معه منهن يحل له نكاحها، ومن لم تهاجر لم تحل، ويعضده قول أم هانيء بنت أبي طالب: خطبني رسول الله ﷺ، فاعتذرت إليه فعذرني، ثم أنزل الله هذه الآية، فلم أحل له؛ لأني لم أهاجر معه، كنت من الطلقاء. وهم الذين أسلموا بعد الفتح، أطلقهم رسول الله ﷺ حين أخذهم، ولفائدة التقييد بالهجرة أعاد هنا ذكر بنات العم والعمات والخال والخالات، وإن كنَّ داخلات تحت عموم قوله تعالى عند ذكر المحرمات من النساء: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾، وأول بعضهم الهجرة في هذه الآية على الإسلام؛ أي: أسلمن معك، فدل ذلك على أنه لا يحل له نكاح غير المسلمة.

وقوله: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً﴾ بالنصب معطوف على مفعول ﴿أَحْلَلْنَا﴾؛ إذ ليس معناه إنشاء الإحلال الناجز، بل إعلام مطلق الإحلال المنتظم لما سبق ولحق، والمعنى: وأحللنا لك امرأة مؤمنة بالله مصدِّقة بالتوحيد. ﴿إِن وَهَبَتْ﴾ تلك المرأة ﴿نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ﴾ ﷺ؛ أي: لك بغير صداق، والالتفات للإيذان بأن هذا الحكم مخصوص به لشرف نبوته، وأما من لم تكن مؤمنة.. فلا تحل لك بمجرد هبتها نفسها لك. والهبة: أن تجعل ملكك لغيرك بغير عوض. والحرة لا تقبل الهبة، ولا البيع، ولا الشراء؛ إذ ليست بمملوكة، فمعناه: إن ملَّكته بضعها بلا مهر، بأي عبارة كانت من: الهبة، والصدقة، والتمليك، والبيع، والشراء، والنكاح، والتزويج، وكان من خصائصه ﷺ أن النكاح ينعقد في حقه بلفظ الهبة وغيرها من غير ولي ولا شهود ولا مهر؛ لقوله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

---

(١) روح البيان.

ومعنى الشرط إن اتفق ذلك، أي: وجد اتفاقاً، ولكن ليس ذلك بواجب عليك بحيث يلزمك قبول ذلك، بل مقيَّد بإرادتك، ولهذا قال: ﴿إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ﴾ ﷺ ﴿أَن يَسۡتَنكِحَهَا﴾؛ أي: أن يجعلها منكوحة له، ويتملك بضعها بتلك الهبة لا بمهر ابتداءً وانتهاءً، وهذا شرط للشرط الأول في استيجاب الحل، فإن هبتها نفسها منه لا توجب له حلها إلا بإرادته نكاحها، فإنها جارية مجرى القبول.

وقيل[1]: إنه لم ينكح النبي ﷺ من الواهبات أنفسهن أحداً، ولم يكن عنده منهن شيء، وقيل: كان عنده منهن خولة بنت حكيم، كما في «صحيح البخاري» عن عائشة. وقال قتادة: هي ميمونة بنت الحارث، وقال الشعبي: هي زينب بنت خزيمة الأنصارية أم المساكين، وقيل غير ذلك.

ثم بين سبحانه أن هذا النوع من النكاح خاص برسول الله ﷺ، لا يحل لغيره من أمته فقال: ﴿خَالِصَةً لَّكَ﴾ إما حال من فاعل ﴿وَهَبَتۡ﴾، قاله الزجاج. أي: حالة كون تلك الواهبة خالصة لك، وخاصة بك. ﴿مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ﴾ فإن الإحلال للمؤمنين إنما يتحقق بالمهر، أو بمهر المثل إن لم يسم عند العقد، ولا يتحقق بلا مهر أصلاً، أو مصدر مؤكد لعامله المحذوف كالكاذبة؛ أي: خلص لك إحلال المرأة المؤمنة الواهبة خالصةً؛ أي: خلوصاً.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿وَٱمۡرَأَةً﴾ بالنصب ﴿إِن وَهَبَتۡ﴾ بكسر الهمزة؛ أي: أحللناها لك إن وهبت. وقرأ أبو حيوة: ﴿وامرأة مؤمنة﴾ بالرفع على الابتداء، والخبر محذوف؛ أي: أحللناها لك. وقرأ أبي والحسن والشعبي وعيسى وسلام: ﴿أن وهبت﴾ بفتح الهمزة على تقدير لام العلة؛ أي: لأن وهبت، أو على أنه بدل من امرأة بدل اشتمال، وذلك حكم في امرأة بعينها، فهو فعل ماض.

وقراءة الكسر استقبال في كل امرأة كانت تهب نفسها دون واحدة بعينها. وقرأ زيد بن علي: ﴿إذ وهبت﴾ ظرف لما مضى، فهو في امرأة بعينها. وقرأ الجمهور: ﴿خَالِصَةً﴾ بالنصب، فهو مصدر مؤكد كوعد الله، وصبغة الله؛ أي: أخلص لك إخلاصاً، فأحللنا لك خالصةً بمعنى خلوصاً، ويجيء المصدر على فاعل وفاعلة،

---

(١) الشوكاني.

(٢) البحر المحيط.

وقال الزمخشري: والفاعل والفاعلة في المصادر عليَّ غير عزيزين، كالخارج، والقاعد، والعاقبة، والكاذبة. انتهى.

وليس كما ذكر، بل هما عزيزان، وقد تتأول هذه الألفاظ على أنها ليست مصادر، وقرىء بالرفع على أنها صفة لامرأة على قراءة من قرأ: ﴿امرأة﴾ بالرفع.

وقد أجمع[1] العلماء على أن هذا خاص بالنبي ﷺ، وأنه لا يجوز ولا ينعقد النكاح بهبة المرأة نفسها، إلا ما روي عن أبي حنيفة وصاحبيه أنه يصح النكاح إذا وهبت، وأشهد هو على نفسه بمهر، وأما بدون مهر، فلا خلاف في أن ذلك خاص بالنبي، ولهذا قال: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: أوجبنا على المؤمنين ﴿فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾؛ أي: في حقهن من شرائط العقد وحقوقه، فإن ذلك حق عليهم مفروض، لا يحل لهم الإخلال به، ولا اقتداء برسول الله ﷺ فيما خصه الله به توسعة عليه، وتكريماً له، فلا يتزوجوا إلا أربعة بمهر وولي وشهود.

﴿و﴾ ما فرضنا عليهم في حق ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ وأيديهم من الأحكام؛ أي: وعلمنا ما فرضنا عليهم فيما ملكت أيمانهم من كونهن ممن يجوز سبيه وحربه، لا ممن لا يجوز سبيه كالمعاهدين، وأهل الذمة.

وقوله: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ قال المفسرون: هذا يرجع إلى أول الآية؛ أي: أحللنا لك أزواجك، وما ملكت يمينك، والواهبة نفسها لك لكيلا يكون عليك حرج. فتكون اللام متعلقةً بـ﴿أَحْلَلْنَا﴾، وقيل: متعلقة بـ﴿خَالِصَةً﴾، والأول أولى. ولام كي دخلت على كي للتوكيد؛ أي: لئلا يكون عليك ضيق في أمر النكاح، فقوله: قد علمنا.. الخ اعتراض بين قوله: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ﴾ وبين متعلَّقه، وهو ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، مقرر لما قبله من خلوص الإحلال المذكور لرسول الله ﷺ، وعدم تجاوزه للمؤمنين ببيان أنه قد فرض عليهم من شرائط العقد وحقوقه ما لم يفرض عليه ﷺ، تكرمة له، وتوسعة عليه.

أي: قد علمنا ما ينبغي أن يفرض عليهم في حق أزواجهن، ومملوكاتهم، وعلى أيّ حد، أو على أي صفة يحق أن يفرض عليهم، ففرضنا ما فرضنا على

---

(١) الشوكاني.

ذلك الوجه، وخصصناك ببعض الخصائص، كالنكاح بلا مهر وولي وشهود، ونحوها.

وفسروا المفروض في حق الأزواج بالمهر، والولي، والشهود، والنفقة، ووجوب القسم، والاقتصار على الحرائر الأربع، وفي حق المملوكات بكونهن ملكاً طيباً، بأن تكون من أهل الحرب، لا ملكاً خبيثاً، بأن تكون من أهل العهد.

وفي الحديث: «الصلاة وما ملكت أيمانكم»؛ أي: احفظوا الصلوات الخمس، والمماليك بحسن القيام بما يحتاجون إليه من الطعام والكسوة وغيرها، وبغير تكليف على ما لا يطيقون من العمل، وترك التعذيب، قرنه عليه الصلاة والسلام بأمر الصلاة إشارةً إلى أن حقوق المماليك واجبة على السادات وجوب الصلوات.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿غَفُورًا﴾؛ أي: فيما يعسر التحرز عنه ﴿رَّحِيمًا﴾؛ أي: منعماً على عباده بالتوسعة في مظان الحرج، ونحوه؛ أي: يغفر الذنوب ويرحم العباد، ولذلك وسع الأمر ولم يضيقه.

﴿تُرْجِى﴾ وتؤخر يا محمد ﴿مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾؛ أي: من أزواجك، وتترك مضاجعتها من غير نظر إلى نوبة وقسم وعدل. ﴿وَتُـْٔوِىٓ﴾ وتضم إليك ﴿مَن تَشَآءُ﴾ منهن، وتضاجعها من غير التفات إلى نوبة وقسمة أيضاً. فالاختيار بيديك في الصحبة بمن شئت، ولو أياماً زائدة على النوبة، وكذا في تركها، والمعنى: أي تؤخر وتترك مضاجعة من تشاء من أزواجك، وتضاجع من تشاء منهن، ولا يجب عليك قسم بينهن، بل الأمر في ذلك إليك، على أنه كان يقسم بينهن، وقد كان القسم واجباً عليه حتى نزلت هذه الآية، فارتفع الوجوب، وصار الخيار إليه، وذلك لأنه ﷺ بالنسبة إلى أمته نسبة السيد المطاع، أو المعنى: تطلّق من تشاء منهن، وتمسك من تشاء، أو المعنى: تترك تزوج من شئت من نساء أمتك، وتتزوج من شئت، كما في «بحر العلوم». وقد قيل: إن هذه الآية ناسخة لقوله: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾، وسيأتي بيان ذلك.

وقرأ نافع وحمزة والكسائي وحفص: ﴿تُرْجِى﴾ بياء ساكنة، والباقون: بهمزة مضمومة، وهما لغتان، يقال: أرجأت الأمر، وأرجيته، إذا أخرته.

و﴿مَنِ﴾ في قوله: ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ﴾ مبتدأ بمعنى الذي، أو شرط نصب بقوله: ﴿ٱبْتَغَيْتَ﴾، وخبر المبتدأ، أو جواب الشرط على كلا التقديرين ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾؛ أي: ومن ابتغيت وطلبت مضاجعتها حالة كونها ﴿مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ها، وتركتها، وطلقتها أولاً بالرجعة ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾؛ أي: فلا إثم ولا لوم ولا عتاب ولا ضيق ﴿عَلَيْكَ﴾ يا محمد في شيء مما ذكر من الأمور الثلاثة.

والحاصل: أن الله سبحانه فوض الأمر إلى رسوله يصنع في زوجاته ما شاء من تقديم وتأخير، وعزل وإمساك، وضم من أرجأ، وإرجاء من ضمَّ إليه، وما شاء في أمرهن فعل، توسعةً عليه، ونفياً للحرج عنه.

والمعنى[1]: أي ومن دعوت إلى فراشك، وطلبت صحبتها ممن عزلت عن نفسك بالطلاق، فلا ضيق عليك في ذلك.

والخلاصة: أنه لا ضير عليه إذا أراد إرجاع من طلَّقها من قبل، وهذه قسمة جامعة لما هو الغرض، وهو إما أن يطلِّق، وإما أن يمسك، وإذا أمسك ضاجع أو ترك، وقسم أو لم يقسم، وإذا طلَّق؛ فإما أن لا يبتغي المعزولة، أو يبتغيها.

والجمهور على أن الآية نزلت في القسم بينهن، فإن التسوية في القسم كانت واجبة عليه ﷺ، فلما نزلت هذه الآية سقط عنه، وصار الاختيار إليه فيهن، وكان ذلك من خصائصه ﷺ.

ويروى: أن أزواجه ـ عليه الصلاة والسلام ـ لما طلبن زيادة النفقة، ولباس الزينة.. هجرهن شهراً حتى نزلت آية التخيير، وروى ابن جرير عن أبي رزين قال: لما نزلت آية التخيير.. أشفقن أن يطلقهن، فقلن: يا رسول الله، اجعل لنا من مالك ومن نفسك ما شئت، ودعنا كما نحن، فنزلت هذه الآية، فأرجأ رسول الله ﷺ منهن خمساً أم حبيبة، وميمونة، وسودة، وصفية، وجويرية، فكان يقسم لهن ما شاء، وآوى إليه أربعاً: عائشة، وحفصة، وزينب، وأم سلمة، فكان يقسم بينهن سواء، ويروى أنه ﷺ لم يخرج أحداً منهن عن القسم، بل كان يسوي بينهن مع ما أطلق له وخيِّر فيه إلا سودة، فإنها رضيت بترك حقها من القسم، ووهبت ليلتها

---

(١) المراغي.

لعائشة، وقالت: لا تطلقني حتى أحشر في زمرة نسائك.

ثم بين السبب في الإيواء والإرجاء، وأنه كان ذلك في مصلحتهن، فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من تفويض الأمر إلى مشيئتك ﴿أَدْنَىٰٓ﴾ وأقرب إلى ﴿أَن تَقَرَّ﴾ وتبرد ﴿أَعْيُنُهُنَّ﴾ وتطيب أنفسهن ﴿وَ﴾ إلى أن ﴿لَا يَحْزَنَّ﴾، ولا يتأسفن بما فعلت بهن من إيثار بعض على بعض.

﴿و﴾ إلى أن ﴿يرضين بما آتيتهن كلهن﴾؛ أي: ويرضين كلهن بما آتيتهن، وقسمت لهن من العدل بينهن تفضلاً وتكرماً منك، وقوله: ﴿كُلُّهُنَّ﴾ بالرفع تأكيد لفاعل ﴿يرضين﴾، وهو النون؛ أي: ذلك المذكور أقرب[1] إلى قرة عيونهن، وقلة حزنهن، ورضاهن جميعاً؛ لأنه حكم كلهن فيه سواء، ثم إن سويت بينهن.. وجدت ذلك تفضلاً منك، وإن رجحت بعضهن.. علمن أنه بحكم الله، فتطمئن به نفوسهن، ويذهب التنافس والتغاير، فرضين بذلك، فاخترنه على الشرط، ولذا قصره الله عليهن، وحرم عليه طلاقهن، والتزوج بسواهن، وجعلهن أمهات المؤمنين.

والمعنى: أي إنهن إذا علمن أن الله قد وضع عنك الحرج في القسم، فإن شئت قسمت، وإن شئت لم تقسم، لا جناح عليك في أيِّ ذلك فعلت، وأنت مع هذا تقسم لهن اختياراً منك، لا وجوباً عليك.. فرحن بذلك، واستبشرن به، واعترفن بمنتك عليهن في قسمك لهن، وتسويتك بينهن، وإنصافك لهن وعدلك بينهن.

والخلاصة: ذلك التفويض إلى مشيئتك أقرب إلى قرة عيونهن، وانتفاء حزنهن، ووجود رضاهن إذا علمن أن ذلك التفويض من عند الله تعالى، فحالة كل منهن كحالة الأخرى في ذلك.

وقرأ الجمهور: ﴿أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ مبنياً للفاعل من: قرت العين، وقرأ ابن محيصن: ﴿تقر﴾ بضم التاء من: أقرر الرباعي، ونصب ﴿أعينهن﴾، وفاعله: ضمير المخاطب؛ أي: أنت. وقرىء: ﴿تقر﴾ مبنياً للمفعول، و﴿أعينهن﴾ بالرفع. وقرأ الجمهور: ﴿كُلُّهُنَّ﴾ بالرفع تأكيداً لفاعل ﴿يرضين﴾، وهو: النون. وقرأ أبو إياس

---

(١) روح البيان.

حوبة بن عائذ بالنصب تأكيداً لضمير النصب في ﴿ءَاتَيْتَهُنَّ﴾.

﴿وَٱللَّهُ﴾ وحده ﴿يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ من الضمائر والخواطر، فاجتهدوا في إحسانها، أو يعلم ما قلوبكم من الميل إلى بعضهن دون بعض، مما لا يمكن دفعه، ومن الرضا بما دبَّر له في حقهن من تفويض الأمر إليه ﷺ.

روى أحمد عن عبد الله بن يزيد عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل، ثم يقول: «اللهم هذا فعلي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك» يعني: القلب، وزيادة الحب لبعض دون بعض. وفي هذا[1] حث على تحسين ما في القلوب، ووعيد لمن لم يرضَ منهن بما دبر الله له من ذلك، وفوضه إلى مشيئته، وبعث على تواطىء قلوبهن، والتصافي بينهن، والتوافق على رضا رسول الله ﷺ.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلِيمًا﴾ بالسرائر كالظواهر، فيعلم ما تبدونه وما تخفونه ﴿حَلِيمًا﴾ على ذنب من أذنب، فلا يعاجل أهل الذنوب بالعقوبة، ليتوب منهم من شاء له أن يتوب، وينيب من ذنوبه من ينيب، فلا تغتروا بتأخيرها، فإنه إمهال لا إهمال.

﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ﴾ قرأ الجمهور: ﴿لَّا يَحِلُّ﴾ بالياء التحتية للفصل بين الفعل وفاعله المؤنث؛ ولأن تأنيث الجمع غير حقيقي، وإذا جاز التذكير بغير فصل في قوله: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾ كان معه أجوز. وقرأ ابن كثير بالفوقية نظراً إلى كون الفاعل جمعاً؛ أي[2]: لا تحل لك واحدة من النساء، مسلمةً كانت أو كتابية، لما تقرر عندهم أن حرف التعريف إذا دخل على الجمع.. يبطل الجمعية، ويراد الجنس، وهو كالنكرة يخص في الإثبات، ويعم في النفي، كما إذا حلف لا يتزوج النساء، ولا يكلم الناس، أو لا يشتري العبيد، فإنه يحنث بالواحد؛ لأن اسم الجنس حقيقة فيه.

أي: لا تحل لك يا محمد واحدة من النساء ﴿مِنۢ بَعْدُ﴾؛ أي: من بعد هؤلاء التسع اللاتي خيرتهن بين الدنيا والآخرة فاخترنك؛ لأنه نصابك من الأزواج، كما

---

(١) المراغي.   (٢) روح البيان.

أن الأربع نصاب أمتك منهن، أو لا يحل لك النساء بعد اليوم حتى لو ماتت واحدة منهن.. لم يحل له نكاح أخرى. ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ﴾ بحذف إحدى التاءين، والأصل: تتبدل. ﴿بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾ مفعول ﴿تَبَدَّلَ﴾، و﴿مِن﴾ مزيدة لتأكيد النفي تفيد استغراق جنس الأزواج بالتحريم؛ أي: ولا يحل لك أن تتبدل بهؤلاء التسع أزواجاً أخر بكلهن أو بعضهن، بأن تطلق واحدةً وتنكح مكانها أخرى.

أراد الله سبحانه وتعالى لهن كرامة وجزاء على ما اخترن رسول الله ﷺ والدار الآخرة، لا الدنيا وزينتها، ورضين بمراده، فقصر رسوله عليهن، ونهاه عن تطليقهن، والاستبدال بهن.

﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾؛ أي: حسن المبدلات وجمالهن؛ أي: لا يحل لك التبدل بأزواجك، ولو أعجبك حسن غيرهن ممن أردت أن تجعلها بدلاً من إحداهن، والواو[1] الداخلة على ﴿لو﴾ عاطفة لمدخولها على حال محذوفة قبلها، وكلمة ﴿لو﴾ في أمثال هذا الموقع لا يلاحظ لها جواب.

والمعنى: ولا يحل لك أن تستبدل بهن حال كونك لو لم يعجبك حسن الأزواج المستبدلة وجمالهن، ولو أعجبك حسنهن؛ أي: لا يحل لك الاستبدال حال عدم إعجاب حسنهن إياك، وحال إعجابه؛ أي: لا يحل لك على كل حال، ولو في هذه الحالة، فالمراد بـ﴿لو﴾ هنا: استقصاء الأحوال وتعميمها.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: المرأة التي أراد النبي ﷺ استبدالها هي: أسماء بنت عميس الخثعمية امرأة جعفر بن أبي طالب، لما استشهد.. أراد رسول الله ﷺ أن يخطبها، فنهاه الله عن ذلك، فتركها، فتزوجها أبو بكر بإذن رسول الله ﷺ، فهي ممن أعجبه حسنهن. وفي «التكملة»: قيل: يريد حبابة أخت الأشعث بن قيس. انتهى.

وفي الحديث: «شارطت ربي أن لا أتزوج إلا من تكون معي في الجنة» فأسماء أو حبابة لم تكن أهلاً لرسول الله في الدنيا، ولم تستأهل أن تكون معه في مقامه في الجنة، فلذا صرفها الله عنه، فإنه تعالى لا ينظر إلى الصورة، بل إلى

---

(١) الشوكاني.

المعنى. وفي الحديث: «من نكح امرأة لمالها وجمالها.. حرم مالها وجمالها، ومن نكحها لدينها.. رزقه الله مالها وجمالها».

وقوله: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ ويدك، استثناء من النساء؛ لأنه يتناول الأزواج والإماء، فإنه يحل له أن يتسرىٰ بهن. قال ابن عباس رضي الله عنهما: ملك بعد هؤلاء التسع: مارية القبطية، فولدت له ﷺ إبراهيم، ابنه ﷺ.

وقد اختلف أهل العلم في تفسير هذه الآية على أقوال[١]:

قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة الحسن وابن سيرين وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وابن زيد وابن جرير: إنها محكمة، وإنه حرم على رسول الله ﷺ أن يتزوج على نسائه، مكافأة لهن بما فعلن من اختيار الله ورسوله والدار الآخرة، لما خيرهن رسول الله ﷺ بأمر الله له بذلك.

وقال أبو أمامة بن سهل بن حنيف: لما حرم الله عليهن أن يتزوجن من بعده.. حرم عليه أن يتزوج غيرهن، وقال أبي بن كعب وعكرمة وأبو رزين: إن المعنى: لا يحل لك النساء من بعد الأصناف التي سماها الله تعالى. قال القرطبي: وهو اختيار ابن جرير، وقيل: لا يحل لك اليهوديات ولا النصرانيات؛ لأنهن لا يصح أن يتصفن بأنهن أمهات المؤمنين، وهذا القول فيه بعد؛ لأنه يكون التقدير: لا يحل لك النساء من بعد المسلمات، ولم يجر للمسلمات ذكر، وقيل: هذه الآية منسوخة بالسنّة، وبقوله سبحانه: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾، وبهذا قالت عائشة رضي الله عنها، وأم سلمة، وعلي بن أبي طالب، وعلي بن الحسين، وغيرهم رضوان الله عليهم أجمعين، وهذا هو الراجح.

ويدل لهذا القول ما أخرجه ابن سعد وابن أبي حاتم عن أم سلمة قالت: لم يمت رسول الله ﷺ حتى أحلَّ الله له أن يتزوج من النساء ما شاء إلا ذات محرم، وذلك قول الله سبحانه: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ ...﴾ الآية.

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن سعد وأحمد وعبد بن حميد وأبو داود في «ناسخه»، والترمذي وصححه، والنسائي وابن جرير وابن المنذر، والحاكم

---

(١) المراغي.

وصححه، وابن مردويه والبيهقي من طريق عطاء عن عائشة قالت: لم يمت النبي ﷺ حتى أحل الله له أن يتزوج من النساء ما شاء، إلا ذات محرم لقوله: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ الآية.

وقد اختلف العلماء أيضاً في تحليل الأمة الكافرة له ﷺ[1]:

القول الأول: أنها تحل للنبي ﷺ؛ لعموم هذه الآية، وبه قال مجاهد وسعيد بن جبير وعطاء والحكم.

والقول الثاني: أنها لا تحل له تنزيهاً لقدره عن مباشرة الكافرة، ويترجح القول الأول بعموم هذه الآية، وتعليل المنع بالتنزيه ضعيف، فلا تنزه عما أحله الله له، فإن ما أحله.. فهو طيب لا خبيث باعتبار ما يتعلق بأمور النكاح، لا باعتبار غير ذلك، فالمشركون نجس بنص القرآن، ويمكن ترجيح القول الثاني بقوله سبحانه: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ فإنه نهي عام.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾؛ أي: حافظاً مهيمناً مطلعاً عليه، لا يخفى عليه شيء، ولا يفوته شيء، فتحفظوا ما أمركم به، ولا تتخطوا ما حد لكم. والرقيب في أسمائه تعالى: هو الذي لا يغفل ولا يذهل، ولا يجوز عليه ذلك، فلا يحتاج إلى مذكر ولا منبه، كما في «شرح الأسماء» للزورقي. وقد بسطت الكلام فيه في كتابي «هدية الأذكياء على طيبة الأسماء» فراجعه.

وإجمال معنى الآية[2]: أي لا يحل لك النساء من بعد هؤلاء التسع اللاتي في عصمتك اليوم كفاء اختيارهن الله ورسوله، وحسن صنيعهن في ذلك. ولا يحل لك أن تستبدل بهن أزواجاً أخرى غيرهن، بأن تطلق واحدة منهن، وتنكح بدلها أخرى، مهما كانت بارعة في الحسب والجمال، إلا ما ملكت يمينك منهن، وقد ملك بعدهن مارية القبطية، أهداها له المقوقس القبطي، فتسراها، وأولدها إبراهيم، ومات رضيعاً، وكان الله سبحانه حافظاً ومطلعاً على كل شيء، عليماً بالسر والنجوى، فاحذروا تجاوز حدوده، وتخطي حلاله إلى حرامه.

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

وقد تضمنت الآية الكريمة حكمين[1]:

١ ـ أن لا يتزوج عليه السلام غيرهن.

٢ ـ أن لا يستبدل بهن غيرهن.

وفي الآية دليل على جواز النظر إلى من يريد زواجها، وقد روى أبو داود أن النبي ﷺ قال: «إذا خطب أحدكم المرأة، فإن استطاع أن ينظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل».

وعن المغيرة بن شعبة قال: خطبت امرأة، فقال لي النبي ﷺ: «هل نظرت إليها»؟ قلت: لا، قال: «انظر إليها، فإنه أحرى أن يؤدم بينكما». أخرجه الترمذي، وقال: حديث حسن.

ثم أدب الله سبحانه عباده بآداب ينبغي أن يتخلقوا بها لما فيها من الحكم الاجتماعية، والمزايا العمرانية، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بما جاء به محمد ﷺ ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ﴾؛ أي: حجرات النبي ﷺ في حال من الأحوال، وهذا[2] نهي عام لكل مؤمن أن يدخل بيوت رسول الله ﷺ إلا بإذن منه، وسبب النزول ما وقع من بعض الصحابة في وليمة زينب بنت جحش، كما سبق في أسباب النزول.

فإن قلت: إن الله أضاف البيوت هنا إلى النبي، وفيما سبق إلى الأزواج؛ حيث قال: ﴿مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ فبينهما معارضة؟

قلت: لا معارضة؛ لأن الإضافة فيما سبق إضافة سكن، وهنا إضافة ملك، كما يؤخذ من «الفتوحات».

وقوله: ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال، وهو في موضع نصب على الحال؛ أي: إلا مصحوبين بالإذن، أو بنزع الخافض؛ أي: إلا بأن يؤذن لكم، أو منصوب على الظرفية؛ أي: إلا وقت أن يؤذن لكم.

أي[3]: لا تدخلوا بيوت النبي في حال من الأحوال إلا حال كونكم مأذوناً

---

(١) المراغي.

(٢) الشوكاني.

(٣) روح البيان.

لكم ومدعوين ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ ومأكول، وهو متعلق بـ﴿يُؤْذَنَ﴾ على تضمينه معنى يدعى؛ للإشعار بأنه لا يحسن الدخول على الطعام من غير دعوة، وإن أذن في الدخول، كما أشعر به قوله: ﴿غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾، وهو حال من فاعل ﴿لَا تَدْخُلُوا﴾ على أن الاستثناء وقع على الظرف والحال، كأنه قيل: لا تدخلوا بيوت النبي ﷺ إلا حال الإذن، ولا تدخلوها إلا غير ناظرين إناه؛ أي: غير منتظرين إناه؛ أي: نضجه وإدراكه واستواءه وصلاحيته للأكل. والإناه - بكسر الهمزة وبالقصر -: مصدر سماعي، لأنى الطعام إذا أدرك من باب رمى، وفيه إشارة إلى حفظ الأدب في الاستئذان، ومراعاة الوقت، وإيجاب الاحترام.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿غَيْرَ نَاظِرِينَ﴾ بالنصب على الحال، وقرأ ابن أبي عبلة ﴿غير﴾ بالجر صفة لـ﴿طَعَامٍ﴾. وقال الزمخشري: وليس بالوجه؛ لأنه جرى على غير من هو له، فمن حق ضمير غير ما هو له أن يبرز فيقال: إلى طعام غير ناظرين إناه أنتم، كقوله: هند زيد ضاربته هي. انتهى. وحذف هذا الضمير جائز عند الكوفيين، وقرأ الجمهور: ﴿إِنَاهُ﴾ مفرداً، والأعمش: ﴿إناءه﴾ بمدة بعد النون.

والمعنى[2]: يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله لا تدخلوا بيوت نبيِّه ﷺ إلا أن تدعوا إلى طعام تطعمونه غير منتظرين إدراكه ونضجه.

وخلاصة ذلك: أنكم إذا دعيتم إلى وليمة في بيت النبي ﷺ.. فلا تدخلوا البيت إلا إذا علمتم أنَّ الطعام قد تم نضجه، وانتهى إعداده؛ إذ قبل ذلك يكون أهل البيت في شغل عنكم، وقد يلبسن ثياب البذلة، فلا يحسن أن تروهن وهن على هذه الحالة إلى أنه ربما بدا من إحداهن ما لا يحل النظر إليه.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا﴾ استدراك من النهي عن الدخول بغير إذن، وفيه[3] دلالة بيِّنة على أن المراد بالإذن إلى الطعام هو الدعوة إليه؛ أي: ولكن إذا أذن لكم في الدخول، ودعيتم إلى الطعام، فادخلوا بيوته على وجوب الأدب، وحفظ أحكام تلك الجلسة.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ﴾ الطعام وأكلتم وتناولتموه.. فإن الطعم تناول الغذاء ﴿فَٱنتَشِرُوا۟﴾؛ أي: فاخرجوا من منزله، وتفرقوا واذهبوا حيث شئتم في الحال، ولا تمكثوا بعد الأكل والشرب. أمرهم سبحانه بالانتشار بعد الطعام، وهو التفرق، والمراد: الإلزام بالخروج من المنزل الذي وقعت الدعوة إليه عند انقضاء المقصود من الأكل.

وفي قوله: ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟﴾ لطيفة، وهي[1]: أن في العادة إذا قيل لمن يعتاد دخول دار من غير إذن: لا تدخلها إلا بإذن.. يتأذى وينقطع بحيث لا يدخلها أصلاً، ولا بالدعاء، قال: لا تفعلوا مثل ما يفعله المستنكفون، بل كونوا طائعين، إذا قيل لكم: لا تدخلوا فلا تدخلوا، وإذا قيل لكم: ادخلوا فادخلوا، وقوله: ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ يفيد الجواز، وقوله: ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟﴾ يفيد الوجوب فليس تأكيداً، بل هو مفيد فائدة جديدة. اهـ «رازي».

والآية[2] خطاب لقوم كانوا يتحينون طعام رسول الله ﷺ، فيدخلون ويقعدون منتظرين لإدراكه مخصوصة بهم وبأمثالهم، وإلا لما جاز لأحد أن يدخل بيوته بالإذن لغير الطعام، ولا اللبث بعد الطعام لأمر مهم، وليس كذلك، كما سيأتي.

﴿وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ هو مجرور عطفاً على ناظرين؛ أي: غير مستأنسين، أو منصوب على الحالية بعامل مقدر؛ أي: ولا تدخلوا ولا تمكثوا مستأنسين بحديث بعضكم مع بعض، أو بحديث أهل البيت بالسمع له، نهوا أن يطيلوا الجلوس، ويستأنس بعضهم ببعض لأجل حديث يحدِّثه به، أو يستأنسوا بالحديث مع أزواج النبي ﷺ، واللام في قوله: ﴿لِحَدِيثٍ﴾ يحتمل أن تكون للعلة؛ أي: مستأنسين لأجل أن يحدث بعضكم بعضاً، وأن تكون المقوية للعامل؛ لأنه فرع؛ أي: لطلب اسم الفاعل للمفعول؛ أي: ولا مستأنسين حديث أهل البيت أو غيرهم، واستئناسه تسمعه. اهـ «سمين»، ويحتمل أن تكون بمعنى الباء، والأنس: ضد الوحشة والنفور، كما سيأتي.

---

(١) الفخر الرازي.

(٢) البيضاوي.

والمعنى[1]: أي ولكن إذا دعاكم الرسول ﷺ.. فادخلوا البيت الذي أذن لكم في دخوله، فإذا أكلتم الطعام الذي دعيتم إلى أكله.. فتفرقوا واخرجوا، ولا تمكثوا فيه لتتبادلوا ألوان الحديث وفنونه المختلفة.

وقال الرازي في قوله: ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ إما أن يكون فيه تقديم وتأخير، تقديره: ولا تدخلوا إلى طعام إلا أن يؤذن لكم، فلا يكون منعاً من الدخول في غير وقت الطعام بغير إذن، وإما أن لا يكون فيه تقديم وتأخير، فيكون معناه: ولا تدخلوا إلا أن يؤذن لكم إلى طعام، فيكون الإذن مشروطاً بكونه إلى طعام، فإن لم يؤذن إلى طعام.. فلا يجوز الدخول، فلو أذن لواحد في الدخول لاستماع كلام لا لأكل طعام، فلا يجوز. فنقول: المراد هو الثاني؛ ليعم النهي عن الدخول، وأما كونه لا يجوز إلا بإذن إلى طعام.. فلما هو مذكور في سبب النزول: أن الخطاب مع قوم كانوا يتحينون حين الطعام، ويدخلون من غير إذن، فمنعوا من الدخول في وقتهم بغير إذن.

وقال ابن عادل: الأولى أن يقال: المراد هو الثاني؛ لأن التقديم والتأخير خلاف الأصل، وقوله: ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ من باب التخصيص بالذكر، فلا يدل على نفي ما عداه، لا سيما إذا علم مثله، فإن من جاز دخول بيته بإذنه إلى طعامه.. جاز دخوله بإذنه إلى غير طعام. انتهى.

والأولى في التعبير عن هذا المعنى الذي أراده أن يقال: قد دلت الأدلة على جواز دخول بيوته ﷺ بإذنه لغير الطعام، وذلك معلوم لا شك فيه، فقد كان الصحابة وغيرهم يستأذنون عليه لغير الطعام، فيأذن لهم، وذلك يوجب قصر هذه الآية على السبب الذين نزلت فيه، وهو القوم الذين كانوا يتحينون طعام النبي ﷺ، فيدخلون ويقعدون منتظرين لإدراكه، وأمثالهم، فلا تدل على المنع من الدخول مع الإذن لغير ذلك، وإلا لما جاز لأحد أن يدخل بيوته بإذنه لغير الطعام، واللازم باطل، فالملزوم مثله.

قال ابن عطية: وكانت سيرة القوم إذا كان لهم طعام وليمة أو نحوه أن يبكِّر

---

(١) المراغي.

من شاء إلى الدعوة ينتظرون طبخ الطعام ونضجه، وكذلك إذا فرغوا منه.. جلسوا كذلك، فنهى الله المؤمنين عن ذلك في بيت النبي ﷺ، ودخل في النهي سائر المؤمنين، والتزم الناس أدب الله لهم في ذلك، فمنعهم من الدخول إلا بإذن عند الأكل، لا قبله لانتظار نضج الطعام.

وفي «التأويلات النجمية»: إذا انتهت حوائجكم فاخرجوا ولا تتغافلوا، ولا يمنعكم حسن خلقه من حسن الأدب، ولا يحملنكم فرط احتشامه على الإبرام عليه، وكان حسن خلقه جسرهم على المباسطة معه، حتى أنزل الله سبحانه هذه الآية.

ثم علل ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾ الاستئناس بعد الأكل الدال على اللبث، ﴿كَانَ﴾ في علم الله سبحانه ﴿يُؤْذِي النَّبِيَّ﴾ ﷺ؛ لتضييق المنزل عليه وعلى أهله، وشغله فيما لا يعنيه، والأذى: هو كل ما يصل إلى الإنسان من ضرر، كما سيأتي.

وقيل: إن[1] الإشارة بقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾ إلى الانتظار والاستئناس للحديث، وأشير إليهما بما يشار به إلى الواحد بتأويلهما بالمذكور، كما في قوله: ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: إن ذلك المذكور من الأمرين كان يؤذي النبي ﷺ، ويلحق به الضرر؛ لأنهم يضيقون عليه المنزل، وعلى أهله، ويتحدثون بما لا يريده. قال الزجاج: كان النبي ﷺ يحتمل إطالتهم كرماً منه، فيصبر على الأذى في ذلك، فعلم الله ـ سبحانه ـ من يحضره الأدب حتى صار أدباً لهم، ولمن بعدهم.

﴿فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ﴾؛ أي: يستحيي أن يقول لكم قوموا أو اخرجوا ﴿وَاللَّهُ﴾ سبحانه ﴿لَا يَسْتَحْيِي مِنَ﴾ بيان ﴿الْحَقِّ﴾ الذي هو الإخراج لكم؛ أي: لا يترك أن يبين لكم ما هو الحق، ولا يمتنع من بيانه وإظهاره، والتعبير عنه بعدم الاستحياء للمشاكلة، يعني: أن[2] إخراجكم حق، فينبغي أن لا يترك حياء، ولذلك لم يتركه الله ترك الحيي، وأمركم بالخروج، وكان ﷺ أشدَّ الناس حياءً، وأكثرهم عن العورات إغضاءً، وهو التغافل عما يكره الإنسان بطبيعته.

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

وهذا أدب أدَّب الله به الثقلاء، وعن عائشة رضي الله عنها: حسبك في الثقلاء أن الله تعالى لم يحتملهم، وقال: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾، فينبغي للضيف أن لا يجعل نفسه ثقيلاً، بل يخفف الجلوس، وكذا حال العائد، فإن عيادة المرضى لحظة. قيل للأعمش: ما الذي أعمش عينيك؟ قال: النظر إلى الثقلاء، وقد قيل:

إِذَا دَخَلَ ٱلثَّقِيلُ بِأَرْضِ قَوْمٍ ... فَمَا لِلسَّاكِنِينَ سِوَىٰ ٱلرَّحِيلُ

وقيل: مجالسة الثقيل حمى الروح، وقيل لأنوشروان: ما بال الرجل يحمل الحمل الثقيل، ولا يحمل مجالسة الثقيل؟ قال: يحمل الحمل بجميع الأعضاء، والثقيل تنفرد به الروح. قيل: من حق العاقل الداخل على الكرام قلة الكلام، وسرعة القيام.

ومن علامة الأحمق الجلوس فوق القدر، والمجيء في غير الوقت، وقد قالوا: إذا أتى باب أخيه المسلم.. يستأذن ثلاثاً، ويقول في كل مرة: السلام عليكم يا أهل البيت، ثم يقول: أيدخل فلان، ويمكث بعد كل مرة مقدار ما يفرغ الآكل من أكله، ومقدار ما يفرغ المتوضئ من وضوئه، والمصلي بأربع ركعات من صلاته، فإن أذن.. دخل، وخفف، وإلا رجع سالماً عن الحقد والعداوة، ولا يجب الاستئذان على من أرسل إليه صاحب البيت رسولاً، فيأتي بدعوته قال الحامي:

أَدِّبُوا ٱلنَّفْسَ أَيُّهَا ٱلأَحْبَابُ ... طُرُقَ ٱلْعِشْقِ فَإِنَّ لَهَا آدَابُ

وقرأ الجمهور[1]: ﴿فَيَسْتَحْيِي﴾ بيائين مع سكون الحاء، مضارع استحيا من باب استفعل، وقرأت فرقة: ﴿فيستحي﴾ بياء واحدة مع كسر الحاء مضارع استحا، وهي لغة تميم، وروي عن ابن كثير، واختلفوا في المحذوف منه، أعين الكلمة أم لامها؟ فإن كان العين.. فوزنها: يستفل، وإن كان اللام.. فوزنها: يستفع، والترجيح مذكور في كتب النحو.

والمعنى[2]: أي إن ذلك اللبث والاستئناس والدخول على هذا الوجه كان يؤذي النبي ﷺ؛ لأنه كان يمنعه من قضاء بعض حوائجه إلى ما فيه من تضييق

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

المنزل على أهله، لكنه كان يستحيي من إخراجكم، ومنعكم مما يؤذيه، والله لم يترك الحق، وأمركم بالخروج، وفي هذا إيماء إلى أن اللبث يحرم على المدعو إلى طعام بعد أن يطعم، إذا كان في ذلك أذى لرب البيت، ولو كان البيت غير بيت النبي ﷺ، فالتثقيل مذموم في كل مكان، محتقر صاحبه لدى كل إنسان، وعلى الجملة فللدعوة إلى المآدب نظم وآداب خاصة، أفردت بالتأليف، ولا سيما في العصر الحديث، وجعلوا التحلل منها، وترك اتباعها مما لا تسامح فيه.

ثم ذكر سبحانه أدباً آخر متعلقاً بنساء النبي ﷺ، فقال: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ﴾؛ أي: وإذا سألتم أيها المؤمنون أزواج النبي ﷺ، ونساء المؤمنين اللواتي لسن لكم بأزواج ﴿مَتَاعًا﴾؛ أي: شيئاً تتمتعون وتنتفعون به من ماعون وغيره ﴿فَسْئَلُوهُنَّ﴾؛ أي: فاطلبوا منهن ذلك المتاع ﴿مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾؛ أي: من وراء ستر بينكم وبينهن.

أخرج البخاري وابن جرير وابن مردويه عن أنس - رضي الله عنه - قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا رسول الله، يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله آية الحجاب في صبيحة عرس رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش في ذي القعدة، سنة خمس من الهجرة، وهي مما وافق تنزيلها قول عمر، كما في «الصحيحين» عنه قال: وافقت ربي عز وجل في ثلاث قلت: يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى فأنزل الله: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾، وقلت: يا رسول الله، إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر، فلو حجبتهن، فأنزل الله آية الحجاب، وقلت: لأزواج النبي ﷺ لما تمالأن عليه في الغيرة: عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن، فنزلت كذلك.

ثم بين سبب ما تقدم بقوله: ﴿ذَالِكُمْ﴾، والإشارة[1] فيه إلى سؤال المتاع من وراء حجاب، وقيل: الإشارة إلى جميع ما ذكر من عدم الدخول بغير إذن، وعدم الاستئناس للحديث عند الدخول، وسؤال المتاع من وراء حجاب، والأول أولى بقرينة السياق. واسم الإشارة مبتدأ، وخبره ﴿أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ﴾ أيها الرجال الأجانب، ﴿و﴾ أطهر لـ﴿قلوبهن﴾؛ أي: لقلوب النساء الأجنبيات؛ أي: أكثر تطهيراً لها من الخواطر النفسانية، والخيالات الشيطانية التي تعرض للرجال في أمر النساء،

---

(١) الشوكاني.

وللنساء في أمر الرجال، فإن كل واحد من الرجل والمرأة إذا لم يَرَ الآخر.. لم يقع في قلبه شيء.

قال في «كشف الأسرار»: نقلهم عن مألوف العادة إلى معروف الشريعة ومفروض العبادة، وكانت النساء قبل نزول هذه الآية يبرزن للرجال، وبين أن البشر بشر، وإن كانوا من الصحابة، وأزواج النبي ﷺ، فلا يأمن أحد على نفسه من الرجال والنساء، ولهذا شدد الأمر في الشريعة بأن لا يخلو رجل بامرأة ليس بينهما محرمية كما قال ﷺ: «لا يخلون رجل بامرأة، فإن ثالثهما الشيطان»، وفي هذا أدب لكل مؤمن، وتحذير له من أن يثق بنفسه في الخلوة مع من لا تحل له، والمكالمة من دون حجاب لمن تحرم عليه.

والمعنى[1]: ذلك السؤال من وراء حجاب أطهر لقلوبكم وقلوبهن من وساوس الشيطان ونزغاته؛ لأن العين رسول القلب، فإذا لم تر العين.. لم يشته القلب، فالقلب عند عدم الرؤية أطهر، وعدم الفتنة حينئذ أظهر. وجاء في الأثر: «النظر سهم مسموم من سهام إبليس» إذ الرؤية سبب للتعلق والفتنة، ألا ترى إلى قول الشاعر:

وَٱلْمَرْءُ مَا دَامَ ذَا عَيْنٍ يُقَلِّبُهَا ... فِيْ أَعْيُنِ ٱلْعِيْنِ مَوْقُوْفٌ عَلَى ٱلْخَطَرِ

يَسُرُّ مُقْلَتَهُ مَا سَاءَ مُهْجَتَهُ ... لاَ مَرْحَباً بِٱنْتِفَاعٍ جَاءَ بِٱلضَّرَرِ

ولما ذكر ما ينبغي من الآداب حين دخول بيت الرسول.. أكده بما يحملهم على ملاطفته وحسن معاملته بقوله: ﴿وَمَا كَانَ﴾ ينبغي ﴿لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ ﷺ أي أن تفعلوا في حياته ﷺ فعلاً يتأذى به بكرهه، كاللبث والاستئناس للحديث الذي كنتم تفعلونه، فإن الرسول يسعى لخيركم ومنفعتكم في دنياكم وآخرتكم فعليكم أن تقابلوا بالحسنى كفاء جليل أعماله.

أي: ما صح لكم[2]، ولا استقام أن تؤذوه بشيء من الأشياء كائناً ما كان، ومن جملة ذلك دخول بيوته بغير إذن منه، واللبث فيها على غير الوجه الذي يريده، وتكليم نسائه من دون حجاب، ولما كان رسول الله ﷺ قد قصر عليهن.. قصرهن

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

الله عليه بقوله: ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ﴾؛ أي: ولا كان لكم أن تتزوجوا أزواجه ﷺ ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾؛ أي: من بعد مفارقته إياهن بموت أو طلاق ﴿أَبَدًا﴾؛ أي: مدة حياتها زيادة في شرفه، وإظهاراً لعظمته وجلاله، ولأنهن أمهات المؤمنين، ولا يحل للأولاد نكاح الأمهات، ولأن في تزوجهن تركاً لمراعاة حرمته ﷺ، ويقال[1]: لأنهن أزواجه في الدنيا والآخرة، كما قال ﷺ: «شارطت ربي أن لا أتزوج إلا من يكون معي في الجنة»، ولو تزوجن.. لم يكنَّ معه في الجنة؛ لأن المرأة لآخر أزواجها.

والحاصل: أنه يجب على الأمَّة أن يعظِّموه ﷺ، ويوقروه في جميع الأحوال في حال حياته، وبعد وفاته، فإنه بقدر ازدياد تعظيمه وتوقيره في القلوب، يزداد نور الإيمان فيها.

ثم بين السبب فيما تقدم بقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾ المذكور من إيذائه ﷺ، ونكاح أزواجه من بعده ﴿كَانَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ - سبحانه وتعالى - ذنباً ﴿عَظِيمًا﴾، وخطباً جليلاً، وأمراً خطيراً، لا يقادر قدره إلا الله تعالى.

ثم بالغ في الوعيد، فقال: ﴿إِن تُبْدُواْ﴾ أيها المؤمنون وتظهروا على ألسنتكم ﴿شَيْـًٔا﴾ مما لا خير فيه كنكاحهن ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾؛ أي: تخفوا ذلك الشيء، وتكتموه في صدوركم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ - سبحانه وتعالى - ﴿كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾؛ أي: بليغ العلم بظاهر كل شيء وباطنه، فيجازيكم بما صدر منكم من المعاصي البادية والخافية لا محالة، وعمم[2] ذلك ليدخل فيه نكاحهن وغيره؛ أي: يعلم كل شيء من الأشياء، ومن جملة ذلك ما تظهرونه في شأن أزواج رسوله، وما تكتمونه في صدوركم، وفي هذا وعيد شديد؛ لأن إحاطته بالمعلومات تستلزم المجازاة على خيرها وشرها.

أي: إن ما تكنه ضمائركم، وتنطوي عليه سرائركم، فالله يعلمه؛ إذ لا تخفى عليه خافية ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾، ثم يجازيكم بما صدر منكم من المعاصي الظاهرة والباطنة، والكلام، وإن كان عاماً بظاهره، فالمقصود ما

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

يتعلق بزوجاته ﷺ.

وروي: أنه لما نزلت آية الحجاب.. قال الآباء والأبناء والأقارب: يا رسول الله، أو نكلمهنَّ أيضاً ـ أي: كالأباعد ـ من وراء حجاب، فنزلت ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ﴾، ورخص الدخول على نساء ذوات محارم بغير حجاب؛ أي: لا ذنب ولا إثم على أزواج النبي ﷺ ﴿فِي﴾ دخول ﴿ءَابَآئِهِنَّ﴾ عليهن، ونظرهم وكلامهم ورؤيتهم إياهن بلا حجاب، سواء كان الأب أباً من النسب، أم من الرضاع. ﴿وَلَآ﴾ في دخول ﴿أَبْنَآئِهِنَّ﴾ عليهن، ونظرهم وكلامهم بلا حجاب، سواء كان الابن من النسب، أو من الرضاع. ﴿وَلَآ﴾ في ﴿إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾؛ أي: لا إثم عليهن في ترك الحجاب عن هؤلاء الأصناف من الأقارب، فهؤلاء لا يجب على نساء رسول الله ﷺ، ولا على غيرهن من النساء الاحتجاب منهم، فهؤلاء ينظرون إلى الوجه والرأس والساقين والعضدين، ولا ينظرون إلى ظهرها، وبطنها، وفخذها، وأبيح النظر لهؤلاء لكثرة مداخلتهم عليهن، واحتياجهن إلى مداخلتهم، وإنما لم يذكر العم والخال؛ لأنهما بمنزلة الوالدين، ولذلك سمي العم أباً في قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾، أو لأنه يكره ترك الاحتجاب منهما مخافة أن يصفاهن لأبنائهما، وأبناؤهما غير محارم؛ لجواز النكاح بينهم، فكره لهما الرؤية. وهذا ضعيف جداً[1]، فإن تجويز وصف المرأة لمن تحل له ممكن من غيرهما ممن يجوز النظر إليهما، لا سيما أبناء الإخوة، وأبناء الأخوات، واللازم باطل، فالملزوم مثله.

وهكذا يستلزم أن لا يجوز للنساء الأجنبيات أن ينظرن إليها؛ لأنهن يصفنها لأزواجهن، واللازم باطل، فالملزوم مثله. وهكذا لا وجه لما قاله الشعبي وعكرمة: من أنه يكره للمرأة أن تضع خمارها عند عمها أو خالها، والأولى أن يقال: إنه سبحانه اقتصر ههنا على بعض ما ذكره من المحارم في سورة النور اكتفاءً بما تقدم، والمضاف إليه في قوله: ﴿وَلَآ﴾ جناح عليهن في عدم الاحتجاب عن ﴿نِسَآئِهِنَّ﴾ واقع على أزواج النبي ﷺ؛ أي[2]: ولا جناح على زوجات النبي ﷺ في عدم الاحتجاب عن نسائهن؛ أي: عن النساء المسلمات، وإضافتهن لهن من

---

(١) الشوكاني. (٢) الفتوحات.

حيث المشاركة في الوصف، وهو الإسلام، وأما النساء الكافرات فيجب على أزواج النبي ﷺ الاحتجاب عنهن، كما يجب على سائر المسلمات؛ أي: ما عدا ما يبدو عند المهنة، أما هو.. فلا يجب على المسلمات حجبه وستره عن الكافرات. اهـ. شيخنا، وقيل: هو عام في المسلمات والكتابيات، وإنما قال: ولا نسائهن بالإضافة؛ لأنهن من أجناسهن.

﴿وَلَا﴾ جناح عليهن في عدم الاحتجاب عن ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ وأيديهن من العبيد والإماء؛ لما في الاحتجاب عن العبيد من المشقة؛ لأنهم يقومون بالخدمة عليهن، فيكون عبد المرأة محرماً لها، فيجوز[1] له الدخول عليها إذا كان عفيفاً، وأن ينظر إليها كالمحارم، وقد أباحت عائشة النظر لعبدها، وقالت لذكوان: إنك إذا وضعتني في القبر، وخرجت فأنت حر، وقيل: من الإماء خاصة، فيكون العبد حكمه حكم الأجنبي معها.

قال في «بحر العلوم»: وهو أقرب إلى التقوى؛ لأن عبد المرأة كالأجنبي خصياً كان أو فحلاً، وأين مثل عائشة؟ وأين مثل عبدها في العبيد؟ لا سيما في زماننا هذا. وهو قول أبي حنيفة، وعليه الجمهور، فلا يجوز لها الحج ولا السفر معه، وقد أجاز نظره إلى وجهها وكفيها إذا وجد الأمن من الشهوة، ولكن جواز النظر لا يوجب المحرمية، وقد سبق بعض ما يتعلق بالمقام في سورة النور، فارجع لعلك تجد السرور.

قوله: ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾ يا أزواج النبي ﷺ، وكذا سائر النساء المسلمات، معطوف على محذوف، تقديره: امتثلن ما أمرتن به من الاحتجاب، واتقين الله حتى لا يراكن غير هؤلاء ممن ذكر، وعليكن الاحتياط ما قدرتن، واخشين الله في السر والعلن، فإنه شهيد على كل شيء، لا تخفى عليه خافية، وهو يجازي على العمل خيراً أو شراً.

والخلاصة: أنّ الله شاهد عليكم عند اختلاء بعضكم ببعض، فخلوتكم مثل ملئكم، فاتقوه فيما تأتون وما تذرون، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ

---

(١) روح البيان.

شَىْءٍ شَهِيدًا﴾؛ أي: مطلعاً لا تخفى عليه خافية من الأقوال والأفعال، ولا يتفاوت في علمه الأماكن والأوقات والأحوال.

وفي «التأويلات النجمية»: يشير بالآية إلى تسكين قلوبهن بعد فطامهن عن مألوفات العادة، ونقلهن إلى معروف الشريعة، ومفروض العبادة، فمن عليهن وعلى أقربائهن بإنزاله هذه الرخصة؛ لأنه ما أخرجهن، وما خلَّى سبيل الاحتياط لهن مع ذلك فقال: ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ﴾ فيهن، وفي غيرهن بحفظ الخواطر، وميل النفوس، وهمها. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من أعمال النفوس، وأحوال القلوب ﴿شَهِيدًا﴾ حاضراً وناظراً إليها. قال أبو العباس الفاسي: الشهيد: هو الحاضر الذي لا يغيب عنه معلوم، ولا مرئي، ولا مسموع.

فائدة: وجملة الأزواج التي مات عنهن رسول الله ﷺ، وهي المرادة في هذه الآية تسع: عائشة، وحفصة، وأم حبيبة، وسودة، وأم سلمة، وصفية، وميمونة، وزينب، وجويرية، وقد نظمهن بعضهم فقال:

تُوُفِّيْ رَسُوْلُ ٱللَّهِ عَنْ تِسْعِ نِسْوَةٍ ... إِلَيْهِنَّ تُعْزَىٰ ٱلْمَكْرُمَاتُ وَتُنْسَبُ

فَعَائِشَةٌ مَيْمُوْنَةٌ وَصَفِيَّةٌ ... وَحَفْصَةُ تَتْلُوْهُنَّ هِنْدٌ وَزَيْنَبُ

جُوَيْرِيَّةٌ مَعْ رَمْلَةٍ ثُمَّ سَوْدَةٌ ... ثَلَاثٌ وَسِتٌّ ذِكْرُهُنَّ لَيَعْذُبُ

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّۚ﴾ محمد ﷺ؛ أي: يعتنون بما فيه خيره وصلاح أمره، ويهتمون بإظهار شرفه، وتعظيم شأنه، وذلك من الله تعالى بالرحمة، ومن الملائكة بالدعاء والاستغفار، فقوله: ﴿يُصَلُّونَ﴾ محمول على عموم المجاز؛ إذ لا يجوز إرادة معنيي المشترك معاً، فإنه لا عموم للمشترك مطلقاً؛ أي: سواء كان بين المعاني تنافٍ أم لا.

قال القهستاني: الصلاة من الله: الرحمة، ومن الملائكة: الاستغفار، ومن الإنس والجن: القيام والركوع والسجود والدعاء ونحوها، ومن الطير والهوام: التسبيح، والصلاة: اسم مصدر من التصلية، وكلاهما مستعمل بخلاف الصلاة بمعنى أداء الأركان، فإن مصدرها لم يستعمل، فلا يقال: صليت تصليةً، بل يقال: صليت صلاة.

وقال بعضهم: الصلاة من الله تعالى بمعنى الرحمة لغير النبي ﷺ، وبمعنى

التشريف بمزيد الكرامة للنبي، والرحمة عامة، والصلاة خاصة، كما دل العطف على التغاير في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ﴾، وقال بعضهم: صلوات الله على غير النبي رحمة، وعلى النبي ﷺ ثناء ومدحة، قولاً وتوفيق وتأييد فعلاً، وصلاة الملائكة على غير النبي ﷺ: استغفار، وعلى النبي: إظهار للفضيلة، والمدح قولاً، والنصرة والمعاونة فعلاً. وصلاة المؤمنين على غير النبي ﷺ: دعاء، وعلى النبي: طلب الشفاعة قولاً، واتباع السنة فعلاً.

وقال بعضهم: صلوات الله على النبي ﷺ تبليغه إلى المقام المحمود، وهو مقام الشفاعة لأمته، وصلوات الملائكة: دعاؤهم له بزيادة مرتبته، واستغفارهم لأمته، وصلوات الأمة: متابعتهم له، ومحبتهم إياه، والثناء عليه بالذكر الجميل.

وهذا التشريف الذي شرف الله به نبينا ﷺ أتم من تشريف آدم عليه السلام بأمر الملائكة بالسجود له؛ لأنه لا يجوز أن يكون الله تعالى مع الملائكة في هذا التشريف لآدم، وقد أخبر تعالى عن نفسه بالصلاة على النبي، ثم عن الملائكة، وما أحسن قول بعضهم:

يُصَلِّيْ عَلَيْهِ ٱللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ   بِهَذَا بَدَا لِلْعَالَمِيْنَ كَمَالُهُ

وقرأ الجمهور: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ﴾ بنصب الملائكة عطفاً على لفظ اسم ﴿إِنَّ﴾، وقرأ ابن عباس وعبد الوارث عن أبي عمرو: ﴿وملائكتُه﴾ بالرفع عطفاً على محل اسم ﴿إِنَّ﴾، والضمير في قوله: ﴿يُصَلُّونَ﴾ راجع إلى الله، وإلى الملائكة، وفيه تشريف للملائكة عظيم، حيث جعل الضمير لله ولهم واحداً، فلا يرد الاعتراض بما ثبت عنه ﷺ لما سمع قول الخطيب يقول: من يطع الله ورسوله.. فقد رشد، ومن يعصهما.. فقد غوى، فقال: «بئس خطيب القوم أنت، قل: ومن يعص الله ورسوله». ووجه ذلك: أنه ليس لأحد أن يجمع ذكر الله سبحانه مع غيره في ضمير واحد، وهذا الحديث ثابت في «الصحيح». وثبت أيضاً في «الصحيح» أن رسول الله ﷺ أمر منادياً ينادي يوم خيبر: إن الله ورسوله ينهيانكم عن لحوم الحمر الأهلية. ولأهل العلم أبحاث في الجمع بين الحديثين ليس هذا موضع ذكرها، والآية مؤيدة للجواز لجعل الضمير فيها لله ولملائكته واحداً، والتعليل بالتشريف للملائكة يقال مثله في رسول الله ﷺ، ويجمع بينهما بحمل الذم لذلك الخطيب

الجامع بينهما على أنه ﷺ، فهم منه إرادة التسوية بين الله سبحانه وبين رسوله، فيختص المنع بمثل ذلك. وهذا أحسن ما قيل في الجمع، وقالت طائفة: في الآية حذف، والتقدير: إن الله يصلي، وملائكته يصلون، وعلى هذا القول فلا تكون الآية مما جمع فيه بين ذكر الله وذكر غيره في ضمير واحد.

ولا يرد أيضاً ما قيل: إن الصلاة من الله الرحمة، ومن ملائكته الدعاء، فكيف يجمع بين هذين المعنيين المختلفين في لفظ ﴿يُصَلُّونَ﴾. ويقال على القول الأول: إنه أريد بـ﴿يُصَلُّونَ﴾ معنى مجازي يعم المعنيين، كما مر، وذلك بأن يراد بقوله: ﴿يُصَلُّونَ﴾ يهتمون بإظهار شرفه، أو يعظمون شأنه، أو يعتنون بأمره.

فإن قيل: إذا صلى الله وملائكته عليه، فأي حاجة به إلى صلاتنا؟

أجيب: بأن الصلاة عليه ليس لحاجته إليها، وإلا فلا حاجة به إلى صلاة الملائكة أيضاً، وإنما القصد بها تعظيمه ﷺ، وعود فائدتها علينا بالثواب والقرب منه ﷺ. اهـ. «خطيب».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وصدقوا بما جاء به محمد ﷺ ﴿صَلُّوا۟﴾؛ أي: اعتنوا واهتموا أنتم أيضاً بالصلاة ﴿عَلَيْهِ﴾ ﷺ قولاً، واتباع سنته فعلاً، فإنكم أولى بذلك، وأحوج إليه؛ أي: صلوا عليه صلاة دائمة ﴿وَسَلِّمُوا۟﴾ عليه ﴿تَسْلِيمًا﴾ كاملاً بأن تقولوا: اللهم صل على محمد وسلم، أو ﷺ، أو تقولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد.

وقيل: معنى ﴿صَلُّوا۟ عَلَيْهِ﴾؛ أي: ادعوا له بالرحمة المقرونة بالتعظيم، ومعنى ﴿سلموا﴾ عليه؛ أي: حيوه بتحية الإسلام، وقيل: معنى ﴿صَلُّوا۟ عَلَيْهِ﴾؛ أي: قولوا: اللهم صلِّ على محمد، ومعنى ﴿سلموا﴾ عليه؛ أي: قولوا: اللهم سلم على محمد، أو انقادوا لأمره وحكمه.

والذي يحصل به الامتثال لمطلق الأمر في هذه الآية هو أن يقول القائل: اللهم صل وسلم على رسولك، أو على محمد، أو على النبي، أو اللهم صلِّ على محمد وسلم. ومن أراد أن يصلي عليه ويسلم عليه بصفة من الصفات التي ورد التعليم بها، والإرشاد إليها، فذلك أكمل، وهي صفات كثيرة قد اشتملت عليها كتب السنة المطهرة.

فمنها: حديث كعب بن عجرة قال: لما نزلت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ...﴾ الآية.. قلنا: يا رسول الله، قد علمنا السلام عليك، فكيف الصلاة عليك؟ قال: «قولوا: اللهم صلِّ على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، وبارك على محمد، وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد» متفق عليه.

ومنها: حديث طلحة بن عبيد الله قال: قلت: يا رسول الله، كيف الصلاة عليك؟ قال: «قل: اللهم صلِّ على محمد، وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم، وآل إبراهيم، إنك حميد مجيد، وبارك على محمد، وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم، وآل إبراهيم، إنك حميد مجيد». أخرجه ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وأحمد والنسائي.

ومنها: حديث أبي حميد الساعدي: أنهم قالوا: يا رسول الله، كيف نصلي عليك؟ فقال رسول الله ﷺ: «قولوا: اللهم صلِّ على محمد وأزواجه وذريته، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريته، كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد» أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما.

وفي الأحاديث اختلاف، ففي بعضها على إبراهيم فقط، وفي بعضها بالجمع بينهما، كحديث طلحة المذكور، والأحاديث في هذا الباب كثيرة جداً، وفي بعضها التقييد بالصلاة، كما في حديث أبي مسعود عند ابن خزيمة، والحاكم وصححه، والبيهقي في «سننه»: أن رجلاً قال يا رسول الله، أما السلام عليكم.. فقد عرفناه، فكيف نصلي عليك إذا نحن صلينا عليك في صلاتنا؟ الحديث.

وأخرج الشافعي في مسنده من حديث أبي هريرة مثله، وجميع التعليمات الواردة عنه ﷺ في الصلاة عليه مشتملة على الصلاة على آله معه إلا النادر اليسير من الأحاديث، فينبغي للمصلي عليه أن يضم آله إليه في صلاته عليه، وقال بذلك جماعة من العلماء، ونقله إمام الحرمين والغزالي قولاً عن الشافعي، كما رواه عنهما ابن كثير في «تفسيره».

والمراد بآله: الأتقياء من أمته، فدخل فيه بنو هاشم، والأزواج المطهرة، وغيرهم جميعاً.

فإن قلت: أكد السلام بقوله: ﴿تَسْلِيمًا﴾؛ لأنه مصدر مؤكد لعامله، ولم يؤكد الصلاة؟

قلتُ: لم تؤكد الصلاة بالمصدر؛ لأنها مؤكدة بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ. . .﴾ إلخ، وقيل: إنه من الاحتباك، فحذف عليه من أحدهما، والمصدر من الآخر.

فإن قلت: لِمَ خص السلام بالمؤمنين دون الله وملائكته، فخصهما بالصلاة؟

قلتُ: لما جاءت هذه الآية عقب ذكر ما يؤذي النبي، والأذية: إنما هي من البشر ناسب التخصيص بهم والتأكيد، وإليه الإشارة بما ذكر بعده؟

فإن قلت: لِمَ خص اللهم في الصلاة الواردة، ولم يقل: يا رب ويا رحمن صلِّ؟.

قلت: خص لفظ اللهم؛ لأنه اسم جامع دال على الألوهية وعلامة الإسلام في قوله: لا إله إلا الله، فناسب ذكره وقت الصلاة عليه ﷺ؛ لأنه ﷺ جامع لنعوت الكمال، مشتمل على أسرار الجمال والجلال.

فإن قلت: لم خص لفظ محمد فيها دون أحمد ومحمود؟

قلتُ: خص لفظ محمد من بين أسمائه؛ لأن معناه: المحمود مرة بعد أخرى، فناسب مقام المدح والثناء.

قال في «شرح الكشاف» وغيره: معنى قوله: اللهم صلِّ على محمد: اللهم عظمه في الدنيا بإعلاء دينه، وإعظام ذكره، وإظهار دعوته، وإبقاء شريعته، وفي الآخرة بتشفيعه في أمته، وتضعيف أجره ومثوبته، وإظهار فضله على الأولين والآخرين، وتقديمه على كافة الأنبياء والمرسلين، ومعنى سلم: اجعله يا رب سالماً من كل مكروه في الدنيا والآخرة.

ولما لم يكن حقيقة الثناء في وسعنا. . أمرنا أن نكل ذلك إليه تعالى، فالله يصلي ويسلم عليه بسؤالنا:

سَلاَمٌ مِنَ ٱلرَّحْمَنِ نَحْوَ جَنَابِهِ   لأَنَّ سَلاَمِيْ لاَ يَلِيْقُ بِبَابِهِ

فإن قلت: فما الفائدة في الأمر بالصلاة؟

قلتُ: إظهار المحبة للصلاة، كما استحمد فقال: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إظهاراً

لمحبة الحمد مع أنه هو الحامد لنفسه في الحقيقة.

وفي «الفتوحات المكية»: إنما شرع السلام من المؤمنين؛ لأن مقام الأنبياء يعطي الاعتراض عليهم لأمرهم الناس بما يخالف أهواءهم، فكأن المؤمن يقول: يا رسول الله، أنت في أمان من اعتراض عليك في نفسي، وكذلك السلام على عباد الله الصالحين، فإنهم كذلك يأمرون الناس بما يخالف أهواءهم بحكم الإرث للأنبياء، وأما تسليمنا على أنفسنا، فإن فينا ما يقتضي الاعتراض واللوم منا علينا، فنلزم نفوسنا التسليم فيه لنا، ولا نعترض كما يقول الإنسان: قلت لنفسي كذا، فقالت: لا. ولم نقف على رواية عن النبي ﷺ في تشهده الذي كان يقوله في الصلاة، هل كان يقول مثلنا: «السلام عليك أيها النبي ﷺ»، أو كان يقول: السلام عليَّ، أو كان لا يقول شيئاً من ذلك، ويكتفي بقوله: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين»، فإن كان يقول مثل ما أمرنا.. نقول في ذلك وجهان:

أحدهما: أن يكون المسلَّم عليه هو الحق سبحانه، وهو مترجم عنه، كما جاء في سمع الله لمن حمده.

والوجه الثاني: أنه كان يقام في صلاته في مقام الملائكة مثلاً، ثم يخاطب نفسه من حيث المقام الذي أقيم فيه أيضاً من كونه نبياً، فيقول: «السلام عليك أيها النبي» فعل الأجنبي، فكأنه جرد من نفسه شخصاً آخر. انتهى كلام «الفتوحات».

وإن قيل: ظاهر[1] هذا الأمر بالصلاة والتسليم في الآية أن يقول القائل: صليت على محمد، وسلمت على محمد، أو الصلاة عليه، والسلام عليه فإن الله سبحانه أمر بإيقاع الصلاة والسلام عليه منا، فالامتثال هو أن يكون ذلك على ما ذكرنا، فكيف كان الامتثال لأمر الله لنا بذلك أن نقول: اللهم صل عليه وسلم عليه، بمقابلة أمر الله لنا بأمرنا له بأن يصلّي عليه ويُسلِّم عليه.

أجيب عنه: بأن هذه الصلاة والتسليم لما كانت شعاراً عظيماً للنبي ﷺ، وتشريفاً وتكريماً له.. وكلنا ذلك إلى الله عز وجل، وأرجعناه إليه، وهذا الجواب كما مر آنفاً ضعيف جداً، وأحسن ما يجاب به أن يقال: إن الصلاة والتسليم

---

(١) الشوكاني.

المأمور بهما في الآية هما أن نقول: اللهم صلِّ عليه وسلم، أو نحو ذلك مما يؤدي معناه، كما بيَّنه رسول الله ﷺ لنا، فاقتضى ذلك البيان في الأحاديث الكثيرة أن هذه هي الصلاة الشرعية.

وإن قيل: السلام[1] مخصوص بالحي، والنبي عليه السلام ميت، فكيف يصح السلام عليه؟

أجيب عنه: بأن المؤمن لا يموت حقيقة، وإن فارق روحه جسده، فالنبي عليه السلام مصون بدنه الشريف من التفسخ والانحلال في التراب، حي بالحياة البرزخية، ويدل عليه قوله ﷺ: «إن لله ملائكة سياحين، يبلغونني عن أمتي السلام»، ويؤخذ من هذا الحديث: أنه حي على الدوام في البرزخ الدنيوي؛ لأنه محال عادة أن يخلو الوجود كله من واحد يسلِّم على النبي في ليل أو نهار.

فإن قلت: لم خص إبراهيم بالذكر في الصلاة، وشبه صلوات نبينا بصلاته؟

قلتُ: أمرنا بالصلاة على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم؛ لأنه حين تم بناء البيت.. دعوا للحجاج بالرحمة، فكافأناهم بذلك، وقال الإمام النيسابوري: لأنه سأل الله أن يبعث نبينا من ذرية إسماعيل فقال: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾، ولذا قال النبي ﷺ: «أنا دعوة أبي إبراهيم» فكافأه، وشكره، وأثنى عليه مع نفسه بالصلاة التي صلى الله عليه وملائكته. وأيضاً: أُمرنا بالصلاة على إبراهيم، لأن قبلتنا قبلته، ومناسكنا مناسكه، والكعبة بناؤه، وملته متبوعه للأمم، فأوجب الله على أمة محمد ثناءه، فلهذه المعاني خص إبراهيم بالذكر في الصلاة، وشبه صلاة نبينا بصلاته دون صلاة غيره، فاعرف.

فإن قلت: تشبيه الصلاة على محمد بالصلاة على إبراهيم يقتضي أفضلية إبراهيم على محمد عليهما الصلاة والسلام، فينافي قوله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»؟

قلت: التشبيه لم يقع بين الصلاة عليهما، بل بين الصلاة على آل محمد، والصلاة على إبراهيم وآله؛ لأن المعنى: اللهم صلِّ على محمد صلاة كاملة، وصلِّ

---

(١) روح البيان.

على آل محمد مثل الصلاة على إبراهيم وآله، فلا يشكل بكون المشبه به أقوى، كما هو المشهور ذكره «القهستاني، وقال في «الضياء المعنوي»: هذا تشبيه من حيث أصل الصلاة، لا من حيث المصلى عليه؛ لأن نبينا أفضل من إبراهيم، فمعناه: اللهم صلِّ على محمد بمقدار فضله وشرفه عندك، كما صليت على إبراهيم بقدر فضله وشرفه. وهذا كقوله تعالى: ﴿فاذكروا الله كذكركم آباءكم﴾؛ أي: اذكروا الله بقدر نعمه وآلائه عليكم، كما تذكرون آباءكم بقدر نعمهم عليكم، وتشبيه الشيء بالشيء يصح من وجه واحد، وإن كان لا يشبهه من كل وجه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ من وجه واحد، وهو تخليقه عيسى من غير أب. انتهى.

ثم إن الآية الكريمة دلت على وجوب الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، واتفق العلماء على وجوبها، كما دلت عليه الآية، ثم إنهم[1] اختلفوا فقال قوم: تجب في العمر مرة، واعتمده الكرخي، وعليه أكثر العلماء، وقيل: تجب في كل صلاة في التشهد الأخير، وهو مذهب الشافعي، وإحدى الروايتين عن أحمد، وقيل: تجب كلما جرى ذكره على لسانه، أو سمعه من غيره، فاختاره الطحاوي من الحنفية، والحليمي من الشافعية، وهو ضعيف، والواجب اللهم صلِّ على محمد، وما زاد سنة.

وأما الصلاة عليه في التشهد الأخير: فسنة عند أبي حنيفة ومالك، وشرط لجواز الصلاة عند الشافعي، وركن عند أحمد، فتبطل الصلاة عندهما بتركها عمداً كان أو سهواً؛ لقوله ﷺ: «لا صلاة لمن لم يُصل عليَّ في صلاته. قالت الحنفية والمالكية: ذلك محمول على نفي الكمال، ولو كانت فريضةً لعلَّمها النبي ﷺ الأعرابي حين علَّمه أركان الصلاة.

وأما الصلاة على غير الأنبياء[2]: فتجوز تبعاً بأن يقول: اللهم صلِّ على محمد وعلى آله، ويكره استقلالاً وابتداءً كراهة تنزيه، كما هو الصحيح الذي عليه الأكثرون، فلا يقال: اللهم صلِّ على أبي بكر؛ لأن في العرف شعار ذكر الرسل، ومنه كره أن يقال: محمد عز وجل مع كونه عزيزاً جليلاً، ولتأديته إلى الاتهام

(١) الخازن.
(٢) روح البيان.

بالرفض؛ لأنه شعار أهل البدع، وقد نهينا عن شعارهم.

وفي الحديث: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقف مواقف التهم»، وأما السلام فهو في معنى الصلاة، فلا يستعمل في الغائب، فلا يفرد به غير الأنبياء، فلا يقال: عليٌّ عليه السلام، كما تقول الروافض وتكتبه، وسواء في هذا الأحياء والأموات. وأما الحاضر فيخاطب به فيقال: السلام عليك أو عليكم، وسلامٌ عليك أو عليكم. وهذا مجمع عليه، والسلام على الأموات عند الحضور في القبور من قبيل السلام على الحاضر.

وأما إفراد الصلاة عن ذكر السلام وعكسه، فقد اختلفت الروايات فيه: منهم من ذهب إلى عدم كراهته، فإن الواو في ﴿وَسَلِّمُوا۟﴾ لمطلق الجمع من غير دلالة على المعية، وعن إبراهيم النخعي: إن السلام؛ أي: قول الرجل: عليه السلام، يجزيء عن الصلاة على النبي ﷺ، لقوله تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ﴾، ولكن لا يقتصر على الصلاة، فإذا صلى أو كتبها.. أتبعها التسليم، ويستحب الترضي والترحم على الصحابة والتابعين، فمن بعدهم من العلماء والعباد وسائر الأخيار، فيقال: أبو بكر رضي الله عنه، أبو حنيفة رحمه الله، أو نحو ذلك، فليس رضي الله مخصوصاً بالصحابة، بل يقال فيهم: رحمه الله أيضاً، والأرجح في مثل لقمان ومريم والخضر والإسكندر المختلف في نبوته أن يقال: رضي الله عنه، أو عنها، ولو قال: عليه السلام، أو عليها السلام، فلا بأس به، ويقال: تخصيص علي بن أبي طالب بكرَّم الله وجهه من شعار الروافض.

وقال الإمام اليافعي في «تاريخه»[1]: والذي أراه أن يفرَّق بين الصلاة، والسلام، والترضي، والترحم، والعفو، فالصلاة: مخصوصة على المذهب الصحيح بالأنبياء والملائكة، والترضي: مخصوص بالصحابة، والترحم: لمن دونهم، والعفو: للمذنبين، والسلام: مرتبة بين مرتبتي الصلاة والترضي، فحسن أن يكون لمن منزلته بين منزلتين، أعني: يقال لمن اختلف في نبوتهم، كلقمان، والخضر، وذي القرنين، لا لمن دونهم. ويكره أن يرمز للصلاة والسلام على النبي ﷺ في الخط بأن يقتصر من ذلك على الحرفين هكذا: عم، أو نحو ذلك كمن يكتب:

---

(١) روح البيان.

صلعم، يشير به إلى: ﷺ، ويكره حذف واحد من الصلاة والسلام، والاقتصار على أحدهما، وفي الحديث: «من صلى علي في كتاب.. لم تزل صلاته جاريةً له ما دام اسمي في ذلك الكتاب»، كما في «أنوار المشارق» لمفتي حلب.

وورد في فضائلها أحاديث كثيرة[1]:

منها: حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى علي واحدة.. صلى الله عليه بها عشراً». أخرجه مسلم.

ومنها: حديث أنس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «من صلى عليَّ صلاة واحدة.. صلى الله عليه بها عشراً، وحطت عنه عشر خطيئات، ورفعت له عشر درجات». أخرجه الترمذي.

ومنها: حديث أبي طلحة الأنصاري: أن رسول الله ﷺ جاء ذات يوم والبشر في وجهه، فقلت: إنا لنرى البِشْر في وجهك، قال: «أتاني الملك، فقال: يا محمد، إن ربك يقول: أما يرضيك أنه لا يصلي عليك أحد إلا صليت عليه عشراً، ولا يسلم عليك أحد إلا سلمت عليه عشراً». أخرجه الترمذي أيضاً.

ومنها: حديث ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملائكةً سياحين في الأرض، يبلغوني عن أمتي السلام». أخرجه الترمذي.

ومنها: حديث ابن مسعود: أن رسول الله ﷺ قال: «إن أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليَّ صلاة. أخرجه الترمذي، وقال: حديث حسن غريب.

ومنها: حديث علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «البخيل الذي ذكرت عنده فلم يصلِّ عليَّ» أخرجه الترمذي، وقال: حديث حسن غريب صحيح.

ومنها: حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى، إذا صلى علينا أهل البيت.. فليقل: اللهم صلِّ على محمد النبي الأمي، وأزواجه أمهات المؤمنين، وذريته، وأهل بيته، كما صليت على إبراهيم، إنك حميد مجيد». أخرجه أبو داود.

---

(١) الخازن.

قال بعضهم: وفي الصلاة عليه ﷺ شكر على كونه أفضل الرسل، وكونهم خير الأمم، وأيضاً فيها إيجاب الشفاعة على ذمة ذلك الجناب، فإن الصلاة عليه ثمن الشفاعة، فإذا أدّوا الثمن في هذا اليوم يرجى أن يحرزوا المثمن يوم القيامة:

أَلاَ أَيُّهَا ٱلإِخْوانُ صَلُّوا وَسَلِّمُوا　　عَلَىٰ ٱلْمُصْطَفَىٰ فِيْ كُلِّ وَقْتٍ وَسَاعَةِ
فَإِنَّ صَلاَةَ ٱلْهَاشِمِيِّ مُحَمَّدٍ　　تُنَجِّيْ مِنَ ٱلأَهْوَالِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ

وبقدر صلواتهم عليه تحصل المعارفة بينهم وبينه، وعلامة المصلي: يوم القيامة أن يكون لسانه أبيض، وعلامة التارك: أن يكون لسانه أسود، وبهما تعرف الأمة يومئذ، وأيضاً فيها إثبات المحبة، ومن أحب شيئاً أكثر ذكره.

قال سهل بن عبد الله التستري: الصلاة على محمد ﷺ أفضل العبادات؛ لأن الله تولاها هو وملائكته، ثم أمر بها المؤمنين، وسائر العبادات ليس كذلك، يعني أنَّ الله تعالى أمر بسائر العبادات، ولم يفعله بنفسه، وقال الواسطي: صلِّ عليه بالأوتار، ولا تجعل له في قلبك مقداراً؛ أي: لا تجعل لصلواتك عليه مقداراً تظن أنك تقضي به من حقه شيئاً، بل بصلواتك عليه استجلاب رحمةً على نفسك به:

يَا مَنْ يُجِيْبُ دُعَا ٱلْمُضْطَرِّ فِيْ ٱلظُّلَمِ　　يَا كَاشِفَ ٱلضُّرِّ وَٱلْبَلْوَىٰ مَعَ ٱلسَّقَمِ
شَفِّعْ نَبِيَّكَ فِيْ ذُلِّيْ وَمَسْكَنَتِيْ　　وَاسْتُرْ فَإِنَّكَ ذُوْ فَضْلٍ وَذُوْ كَرَمِ

ثم إن للصلوات والتسليمات مواطن:

فمنها: أن يصلِّي عند سماع اسمه الشريف في الأذان.

ومنها: أن يصلِّي بعد سماع الأذان بأن يقول: اللهم ربَّ هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته، فإنه عليه السلام وعد لقائله الشفاعة العظمى.

ومنها: أن يصلي عند ابتداء الوضوء، ثم يقول: بسم الله، وبعد الفراغ منه فإنه يفتح له أبواب الرحمة، وفي المرفوع: «لا وضوء لمن لم يصل على النبي ﷺ».

ومنها: أن يصلي عند دخول المسجد، ثم يقول: اللهم افتح لي أبواب رحمتك، وعند الخروج أيضاً، ثم يقول: اللهم افتح لي أبواب فضلك، واعصمني من الشيطان، وكذا عند المرور بالمساجد، ووقوع نظره عليها، ويصلي في التشهد

الأخير، وقبل: الدعاء وبعده، فإن الصلاة عليه مقبولة لا محالة، فيرجى أن يقبل الدعاء بين الصلاتين أيضاً.

ومنها: أن يصلي يوم الجمعة وليلته، فإن الجمعة سيد الأيام، ومخصوص بسيد الأنام، فللصلاة فيه مزية، وزيادة مثوبة وقربة ودرجة.

وفي الحديث: «إن أفضل أيامكم يوم الجمعة، خلق فيه آدم، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا عليَّ من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة علي». قيل: يا رسول الله، كيف تعرض عليك صلاتنا وقد رممت؛ أي: بليت؟ قال: «إن الله حرَّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء»، وفي الحديث: «من صلَّى عليَّ يوم الجمعة ثمانين مرة.. غفرت له ذنوب ثمانين سنة، ومن صلَّى عليَّ كل يوم خمس مئة مرة.. لم يفتقر أبداً».

وقال بعضهم: إنَّ من صلَّى على النبي ﷺ ليلة الجمعة ثلاثة آلاف.. رأى في منامه ذلك الجناب العالي. ذكره علي الصفي في «الرشحات» ويصلي عند الركوب، فيقول: بسم الله، والله أكبر، وصلِّ على محمد خير البشر، ثم يتلو قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾.

ويصلي في طريق مكة عند الذهاب إليها، وعند استلام الحجر يقول: اللهم إيماناً بك، وتصديقاً بكتابك، وسنة نبيك، ثم يصلي على النبي ﷺ، ويصلي على جبل الصفا والمروة، وبعد الفراغ من التلبية ووقت الوقوف عند المشعر الحرام، وفي طريق المدينة عند الذهاب إليها، وعند وقوع النظر عليها، وعند دخول الروضة المقدسة، وعند التوجه إلى القبر المقدس، ويصلي بين القبر والمنبر، ويكبر ويدعو ويصلِّي عند استماع ذكره عليه السلام، كما سبق، وكذا وقت ذكر اسمه الشريف، وكتابته، ويصلِّي عند ابتداء درس الحديث، والعلوم الدينية، وما يتعلق بها من الآلة، وعند تبليغ السنن فيقول: الحمد لله رب العالمين أكمل الحمد على كل حال، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيد المرسلين، كلما ذكره الذاكرون، وكلما غفل عن ذكره الغافلون، اللهم صلِّ عليه، وعلى آله، وسائر النبيين، وآل كلٍّ، وسائر الصالحين، نهاية ما ينبغي أن يسلكه السالكون.

ويصلِّي عند ابتداء التذكير والعظة؛ أي: بعد الحمد والثناء؛ لأنه موطن تبليغ

العلم المروي عنه ﷺ، ووقت كفاية المهم، ورفع الهم، ووقت طلب المغفرة والكفارة، فإن الصلاة عليه محاء الذنوب، ووقت النوم والقيام منه، وحين دخول السوق لتربح تجارة آخرته، وحين المصافحة لأهل الإسلام، وحين افتتاح الطعام فيقول: اللهم صلِّ على محمد، وعلى آل محمد، وطيِّب أرزاقنا، وحسِّن أخلاقنا، ويصلِّي عند اختتام الطعام، فيقول: الحمد لله الذي أطعمنا هذا، ورزقناه من غير حول منا ولا قوة، الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وتنزل البركات، اللهم صلِّ على محمد، وعلى آل محمد وسلم.

ويصلي عند قيامه من المجلس فيقول: صلى الله وملائكته على محمد، وعلى أنبيائه. فإنه كفارة اللهو واللغو الواقعين فيه. وفي خطبة النكاح فيقول: الحمد لله الذي أحل النكاح، وحرم السفاح، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الداعي إلى الله القادر الفتاح، وعلى آله وأصحابه ذوي الفلاح والنجاح.

ومن آداب المصلي أن يصلِّي على الطهارة، وأن يرفع صوته عند أداء الحديث، وأن يكون على المراقبة، وهو حضور القلب وطرد الغفلة، وأن يصحِّح نيَّته، وهو أن تكون صلاته امتثالاً لأمر الله تعالى، وطلباً لرضاه، وجلباً لشفاعة رسوله، وأن يستوي ظاهره وباطنه، فإن الذكر اللساني ترجمان الفكر الجناني، فلا بد من تطبيق أحدهما بالآخر، وإلا فمجرد الذكر اللساني من غير حضور القلب غير مفيد.

الإعراب

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَـذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾: حرف نداء. ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة. ﴿ها﴾: حرف تنبيه زائد. ﴿ٱلنَّبِىُّ﴾: صفة لأي، أو بدل منه، وجملة النداء مستأنفة. ﴿إِنَّآ﴾: ناصب واسمه. ﴿أَرْسَلْنَـٰكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إن﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة على كونها جواب النداء. ﴿شَـٰهِدًا﴾: حال مقدرة من ضمير المفعول. ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَـذِيرًا وَدَاعِيًا﴾: معطوفات على ﴿شَـٰهِدًا﴾.

﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿داعيا﴾. ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾: جار ومجرور حال من الضمير المستكن في ﴿داعيا﴾. ﴿وَسِرَاجًا﴾: معطوف على ﴿شَٰهِدًا﴾. ﴿مُّنِيرًا﴾: صفة لـ﴿سراجا﴾. ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فعل أمر، وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة معطوفة على مقدر، تقديره: فراقب أحوال الناس وبشر المؤمنين. ﴿بِأَنَّ﴾: ﴿الباء﴾: حرف جر، ﴿أَنَّ﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿لَهُم﴾: خبر ﴿أن﴾ مقدم على اسمها. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور حال من ﴿فَضْلًا﴾، و﴿فَضْلًا﴾: اسم ﴿أن﴾ مؤخر. ﴿كَبِيرًا﴾: صفة ﴿فَضْلًا﴾، وجملة ﴿أن﴾ في تأويل مصدر مجرور بالباء، تقديره: بكون فضل كبير كائن من الله كائناً لهم، الجار والمجرور متعلق بـ﴿بَشِّرْ﴾. ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿لا﴾: ناهية جازمة. ﴿تُطِعِ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على محمد، مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية. ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: مفعول به. ﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾: معطوف عليه، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿بَشِّرْ﴾. ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر ومفعول به، معطوف على جملة النهي قبله. ﴿وَتَوَكَّلْ﴾: فعل وفاعل مستتر. ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾: فعل وفاعل و﴿الباء﴾: زائدة. ﴿وَكِيلًا﴾: تمييز، أو حال من الجلالة، والجملة مستأنفة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: منادى نكرة مقصودة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لأي، والجملة مستأنفة. ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب. ﴿طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾: فعل وفاعل ومفعول معطوف على ﴿نَكَحْتُمُ﴾. ﴿مِن قَبْلِ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿طلقتم﴾. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿تَمَسُّوهُنَّ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، منصوب بـ﴿أن﴾ المصدرية، والجملة في تأويل مصدر مجرور بإضافة الظرف إليه، تقديره: من قبل مسكم إياهن. ﴿فَمَا﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إِذَا﴾ الشرطية. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿لَكُم﴾: خبر مقدم. ﴿عَلَيْهِنَّ﴾: حال من ﴿عِدَّةٍ﴾. ﴿مِن﴾: زائدة. ﴿عِدَّةٍ﴾: مبتدأ مؤخر، وجملة ﴿تَعْتَدُّونَهَا﴾ صفة لـ﴿عِدَّةٍ﴾، والجملة الاسمية جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من

الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ جواب النداء لا محل له من الإعراب. ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم أنها لا عدة لكم عليها، وأردتم بيان ما لهن عليكم.. فأقول لكم: متعوهن. ﴿متعوهن﴾: فعل أمر وفاعل ومفعول به، والجملة في محل النصب مقول لجواب ﴿إذا﴾ المقدرة، وجملة ﴿إذا﴾: المقدرة مستأنفة. ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿متعوهن﴾. ﴿سَرَاحًا﴾: مفعول مطلق. ﴿جَمِيلًا﴾: صفة ﴿سَرَاحًا﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾: منادى نكرة مقصودة. ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾: صفة لأي، وجملة النداء مستأنفة. ﴿إِنَّآ﴾: ناصب واسمه. ﴿أَحْلَلْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿لَكَ﴾: متعلق بـ﴿أَحْلَلْنَا﴾. ﴿أَزْوَٰجَكَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة على كونها جواب النداء. ﴿ٱلَّـٰتِيٓ﴾: صفة لـ﴿أَزْوَٰجَكَ﴾. ﴿ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾: فعل وفاعل ومفعول ثان، والأول محذوف، تقديره: آتيتهن أجورهن؛ لأن آتى هنا بمعنى: أعطى، والجملة صلة الموصول: ﴿وَمَا﴾: اسم موصول في محل النصب معطوف على ﴿أَزْوَٰجَكَ﴾. ﴿مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: وما ملكته يمينك. ﴿مِمَّآ﴾: جار ومجرور، حال من ﴿ما﴾ الموصولة، أو من العائد المحذوف. ﴿أَفَآءَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَيْكَ﴾ متعلق بـ﴿أَفَآءَ﴾، والجملة صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: مما أفاءه الله عليك.

﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ﴾: معطوفات على ﴿أَزْوَٰجَكَ﴾. ﴿ٱلَّـٰتِي﴾: صفة للمذكورات في محل نصب. ﴿هَاجَرْنَ﴾: فعل وفاعل، صلة الموصولة. ﴿مَعَكَ﴾: متعلق بـ﴿هَاجَرْنَ﴾، ﴿وَٱمْرَأَةً﴾: معطوف على مفعول ﴿أَحْلَلْنَا﴾ ﴿مُّؤْمِنَةً﴾: صفة لـ﴿امرأة﴾. ﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿وَهَبَتْ﴾: فعل ماض

وفاعل مستتر يعود على ﴿امرأة﴾ في محل الجزم بـ﴿إن﴾ على كونها فعل شرط لها. ﴿نَفْسَهَا﴾: مفعول به. ﴿لِلنَّبِيِّ﴾: متعلق بـ﴿وَهَبَتْ﴾، وجواب الشرط محذوف، تقديره: إنْ وهبت نفسها للنبي أحللناها له، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿إِنْ﴾: حرف شرط. ﴿أَرَادَ النَّبِيُّ﴾: فعل وفاعل، في محل الجزم بـ﴿إِنْ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿يَسْتَنكِحَهَا﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أَن﴾ المصدرية، وفاعله ضمير يعود على ﴿النَّبِيُّ﴾، والهاء: مفعول به، والسين والتاء فيه زائدتان، والجملة في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ﴿أَرَادَ﴾، تقديره: إن أراد النبي نكاحها، وجواب ﴿إِنْ﴾ الشرطية محذوف، تقديره: إن أراد النبي ﷺ نكاحها أحللناها له، وجملة ﴿إِنْ﴾ الشرطية في محل النصب حال من ﴿النَّبِيُّ﴾، إنْ وهبت نفسها للنبي.. أحللناها له حالة كون النبي مريداً نكاحها. ﴿خَالِصَةً﴾: مصدر معمول لمحذوف، تقديره: خلص خالصة، خلص: فعل ماض، وفاعله ضمير يعود على النكاح بلفظ الهبة؛ أي: خلص النكاح بلفظ الهبة لك خلوصاً، واختص بك، ومجيء المصدر على وزن فاعلة كثير، كالكاذبة والعاقبة، واختار الزجاج وأبو البقاء أن يكون حالاً من امرأة؛ لتخصصها بصفة. ﴿لَّكَ﴾: متعلق بـ﴿خَالِصَةً﴾. ﴿مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، حال من ضمير ﴿لَّكَ﴾.

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق. ﴿عَلِمْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول به، والجملة الفعلية جملة معترضة لا محل لها من الإعراب لاعتراضها بين الجار ﴿لِكَيْلَا﴾، ومتعلقه ﴿أَحْلَلْنَا﴾. ﴿فَرَضْنَا﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: ما فرضناه. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق بـ﴿فَرَضْنَا﴾. ﴿فِي أَزْوَاجِهِمْ﴾ متعلق بـ﴿فَرَضْنَا﴾ أيضاً. و﴿فِي﴾ بمعنى: الباء السببية. ﴿وَمَا﴾: اسم موصول في محل الجر معطوف على ﴿أَزْوَاجِهِمْ﴾. ﴿مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: وما ملكته أيمانهم. ﴿لِكَيْلَا﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل. ﴿كي﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿لا﴾: نافية. ﴿يَكُونَ﴾: فعل مضارع ناقص منصوب بـ﴿كي﴾. ﴿عَلَيْكَ﴾: خبر

﴿يَكُونَ﴾ مقدم. ﴿حَرَجٌ﴾: اسمها مؤخر، وجملة ﴿يَكُونَ﴾ مع كي المصدرية في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لعدم كون حرج عليك، الجار والمجرور متعلق بـ﴿أَحْلَلْنَا﴾. ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾: فعل ناقص واسمه وخبره. ﴿رَحِيمًا﴾: خبر ثانٍ لها، والجملة مستأنفة.

﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾.

﴿تُرْجِي﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿تُرْجِي﴾. ﴿تَشَاءُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: من تشاء إرجاءه. ﴿مِنْهُنَّ﴾: جار ومجرور حال من ﴿مَن﴾ الموصولة. ﴿وَتُؤْوِي﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على محمد، معطوف على ﴿تُرْجِي﴾. ﴿إِلَيْكَ﴾: متعلق بـ﴿تؤوي﴾. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿تؤوي﴾. ﴿تَشَاءُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، والجملة صلة ﴿مَن﴾ والعائد محذوف تقديره: من تشاء إيواءه. ﴿وَمَنِ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ، أو ﴿مَن﴾ شرطية في محل النصب مفعول مقدم. ﴿ابْتَغَيْتَ﴾: فعل وفاعل، صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، أو في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، والعائد محذوف. تقديره: ومن ابتغيته. ﴿مِمَّنْ﴾: جار ومجرور، حال من العائد المحذوف. ﴿عَزَلْتَ﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: ممن عزلته، أو لا. ﴿فَلَا﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة الخبر بالمبتدأ، أو رابطة الجواب بالشرط. ﴿لا﴾: نافية للجنس تعمل عمل إن. ﴿جُنَاحَ﴾: في محل النصب اسمها. ﴿عَلَيْكَ﴾: خبرها، وجملة ﴿لا﴾ النافية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجمل الاسمية مستأنفة، أو في محل الجزم جواب ﴿مَن﴾ الشرطية، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾.

﴿ذَلِكَ﴾: مبتدأ. ﴿أَدْنَى﴾: خبره، والجملة مستأنفة. ﴿أَن﴾: حرف نصب

ومصدر. ﴿تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾: فعل وفاعل منصوب بـ﴿أن﴾ المصدرية، والجملة الفعلية مع ﴿أن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، تقديره: إلى قرة أعينهن، الجار والمجرور متعلق بـ﴿أَدْنَىٰٓ﴾. ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: نافية. ﴿يَحْزَنَّ﴾: فعل مضارع في محل النصب، معطوف على ﴿تقرّ﴾ مبني بسكون على النون المدغمة في نون الإناث، لاتصاله بنون الإناث، ونون الإناث في محل الرفع فاعل؛ أي: وذلك أقرب إلى قلة حزنهن. ﴿وَيَرْضَيْنَ﴾: فعل وفاعل في محل النصب، معطوف على ﴿تَقَرَّ﴾؛ أي: وأقرب إلى رضائهن جميعاً. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿يرضين﴾. ﴿ءَاتَيْتَهُنَّ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: آتيتهن إياه، وهو المفعول الثاني لآتى؛ لأنه بمعنى: أعطىٰ. ﴿كُلُّهُنَّ﴾: تأكيد لفاعل ﴿يرضين﴾. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَعْلَمُ﴾ خبره، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿مَا﴾: مفعول ﴿يَعْلَمُ﴾. ﴿فِى قُلُوبِكُمْ﴾: جار ومجرور، متعلق بواجب الحذف لوقوعه صلة لـ﴿مَا﴾الموصولة؛ أي: ما استقر في قلوبكم. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾: فعل ناقص واسمه وخبره الأول. ﴿حَلِيمًا﴾: خبر ثانٍ له، وجملة ﴿كَانَ﴾ معطوفة على جملة قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾، مؤكدة لها.

﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾.

﴿لَّا﴾: نافية. ﴿يَحِلُّ﴾: فعل مضارع. ﴿لَكَ﴾: متعلق به. ﴿ٱلنِّسَآءُ﴾: فاعل، والجملة مستأنفة. ﴿مِنۢ بَعْدُ﴾: حال من ﴿ٱلنِّسَآءُ﴾، وبني الظرف على الضم لقطعه عن الإضافة لفظاً لا معنى؛ أي: من بعد هؤلاء التسع المجتمعات في عصمتك. ﴿وَلَآ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: نافية. ﴿أن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿تَبَدَّلَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أن﴾ المصدرية، أصله: تتبدل، وفاعله، ضمير مستتر يعود على محمد. ﴿بِهِنَّ﴾: متعلق بـ﴿تَبَدَّلَ﴾. ﴿مِن﴾: زائدة. ﴿أَزْوَٰجٍ﴾: مفعول ﴿تَبَدَّلَ﴾، وجملة ﴿تَبَدَّلَ﴾ مع ﴿أن﴾ المصدرية في تأويل مصدر معطوف على فاعل ﴿يَحِلُّ﴾ تقديره: لا يحل لك النساء من بعد، ولا تبدل أزواج أخر بهن. ﴿وَلَوْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة على جملة محذوفة وقعت حالاً. ﴿لو﴾: حرف شرط مجردة عن الجواب. ﴿أَعْجَبَكَ﴾: فعل ماضٍ ومفعول به. ﴿حُسْنُهُنَّ﴾: فاعل، وجملة ﴿لَوْ﴾

معطوفة على جملة محذوفة وقعت حالاً من فاعل ﴿تَبَدَّلَ﴾، والتقدير: ولا يحل لك أن تتبدل بهن حال كونك لو لم يعجبك حسن الأزواج المستبدلة، ولو أعجبك حسنهن؛ أي: لا يحل لك الاستبدال حال عدم إعجاب حسنهن إياك، وحال إعجابه إياك؛ أي: لا يحل لك الاستبدال على كل حال، و﴿لو﴾ هنا غائية، لا جواب لها، يراد بها استقصاء الأحوال وتعميمها، كما مر في مبحث التفسير. قال الزمخشري: قوله: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ في معنى الحال من الفاعل، وهو الضمير في ﴿تَبَدَّلَ﴾، لا من المفعول الذي هو ﴿مِنْ أَزْوَاجٍ﴾؛ لأنه متوغل في التنكير، وتقديره: مفروضاً إعجابك بهن. اهـ «كرخي». ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب على الاستثناء من ﴿النِّسَاءُ﴾، أو في محل الرفع على البدلية من ﴿كَفَرُوا﴾، أو في محل النصب على الاستثناء من ﴿أَزْوَاجٍ﴾. ﴿مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾: فعل وفاعل، صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: إلا ما ملكته يمينك. ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾: متعلق بـ﴿رَقِيبًا﴾، و﴿رَقِيبًا﴾: خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ مستأنفة مؤكدة لما قبلها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا﴾.

﴿يَا أَيُّهَا﴾: منادى نكرة مقصودة ﴿الَّذِينَ﴾: صفة لـ﴿أي﴾، أو بدل منه، وجملة النداء مستأنفة. ﴿آمَنُوا﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول. ﴿لَا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَدْخُلُوا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لَا﴾ الناهية ﴿بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾: مفعول به على التوسع، والجملة الفعلية جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ من أعم الأحوال. ﴿أَنْ﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿يُؤْذَنَ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة منصوب بـ﴿أَنْ﴾ المصدرية. ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور، في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿يُؤْذَنَ﴾. ﴿إِلَى طَعَامٍ﴾: متعلق بـ﴿يُؤْذَنَ﴾، والجملة الفعلية مع ﴿أَنْ﴾ المصدرية في تأويل مصدر منصوب على الاستثناء، ولكنه على تقدير مضاف، تقديره: لا تدخلوا بيوت النبي ﷺ في حال من الأحوال إلا حالة الإذن لكم؛ أي: إلا حالة كونكم مأذوناً لكم. واختار الزمخشري أن يكون استثناء مفرغاً من أعم الظروف؛ أي: لا تدخلوها في وقت من الأوقات إلا وقت أن يؤذن لكم. ﴿غَيْرَ

﴿نَٰظِرِينَ﴾: حال من فاعل ﴿لَا تَدۡخُلُواْ﴾، وقع الاستثناء على الظرف والحال معاً، كأنه قيل: لا تدخلوا بيوت النبي إلا وقت الإذن، ولا تدخلوها إلا غير ناظرين اهـ «سمين». ﴿إِنَىٰهُ﴾: مفعول ﴿نَٰظِرِينَ﴾ منصوب بفتحة مقدرة للتعذر؛ لأنه اسم مقصور. ﴿وَلَٰكِنۡ﴾: الواو: عاطفة. ﴿لكن﴾: حرف استدراك. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان في محل النصب على الظرفية. ﴿دُعِيتُمۡ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب. ﴿فَٱدۡخُلُواْ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إِذَا﴾ وجوباً. ﴿ادخلوا﴾: فعل أمر وفاعل، والجملة جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ جملة استدراكية معطوفة على جملة ﴿لَا تَدۡخُلُواْ﴾.

﴿فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ﴾.

﴿فَإِذَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿طَعِمۡتُمۡ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها. ﴿فَٱنتَشِرُواْ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إذا﴾. ﴿انتشروا﴾: فعل أمر وفاعل جواب ﴿إذا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ معطوفة على جملة ﴿إذا﴾ المذكورة قبلها. ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: نافية. ﴿مُسۡتَـٔۡنِسِينَ﴾: معطوف على ﴿غَيۡرَ نَٰظِرِينَ﴾، وقيل: هو معطوف على حال مقدرة؛ أي: لا تدخلوها هاجمين، ولا مستأنسين، واختار الزمخشري وغيره أنه مجرور عطفاً على ﴿نَٰظِرِينَ﴾. ﴿لِحَدِيثٍۚ﴾: متعلق بـ﴿مُسۡتَـٔۡنِسِينَ﴾. ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ﴾: ناصب واسمه. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على اسم الاشارة. ﴿يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل النهي المذكور قبله. ﴿فَيَسۡتَحۡيِۦ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على النبي، معطوف على ﴿يُؤۡذِي﴾. ﴿مِنكُمۡ﴾: متعلق بـ﴿يستحيي﴾، ولكنه على تقدير مضاف؛ أي: من إخراجكم. ﴿وَٱللَّهُ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿اللَّهُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا يَسۡتَحۡيِۦ﴾ خبر المبتدأ. ﴿مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾: متعلق بـ﴿لَا يَسۡتَحۡيِۦ﴾، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿وَإِذَا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل

من الزمان. ﴿سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا﴾: فعل وفاعل ومفعولان، والجملة في محل الخفض بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها. ﴿فَسْئَلُوهُنَّ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إِذَا﴾ وجوباً. ﴿اسألوهن﴾: فعل أمر وفاعل ومفعول أول، والثاني محذوف تقديره: إياه. ﴿مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾: حال من ضمير الإناث، أو من واو الفاعل، والجملة الفعلية جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إِذَا﴾ مستأنفة.

﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾: مبتدأ. ﴿أَطْهَرُ﴾: خبر. ﴿لِقُلُوبِكُمْ﴾: متعلق بـ﴿أَطْهَرُ﴾. ﴿وَقُلُوبِهِنَّ﴾: معطوف على ﴿قلوبكم﴾، والجملة مستأنفة. ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿لَكُمْ﴾: خبرها مقدم. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾: فعل وفاعل ومفعول به منصوب بـ﴿أَن﴾ المصدرية، والجملة الفعلية مع ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مرفوع على كونه اسم ﴿كَانَ﴾ مؤخراً، والتقدير: وما كان إذاية رسول الله كائناً لكم، والجملة مستأنفة. ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: نافية. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿تَنكِحُوا أَزْوَٰجَهُۥ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، منصوب بـ﴿أَن﴾ المصدرية. ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾: حال من ﴿أَزْوَٰجَهُۥ﴾، أو متعلق بـ﴿تَنكِحُوا﴾. ﴿أَبَدًا﴾: منصوب على الظرفية، متعلق بـ﴿تَنكِحُوا﴾، والجملة الفعلية مع ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر معطوف على مصدر منسبك من جملة ﴿أَن تُؤْذُوا﴾ تقديره: وما كان لكم إذاية رسول الله، ولا نكاح أزواجه من بعده أبداً. ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾: ناصب واسمه ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على اسم الإشارة. ﴿عِندَ اللَّهِ﴾: حال من ﴿عَظِيمًا﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿عَظِيمًا﴾: خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿إِن تُبْدُوا شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾.

﴿إن﴾: حرف شرط ﴿تُبْدُوا شَيْئًا﴾: فعل مضارع وفاعل ومفعول به، مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية، ﴿أَوْ﴾: حرف عطف. ﴿تُخْفُوهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول، معطوف على ﴿تُبْدُوا﴾. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿إن﴾ الشرطية. ﴿إن الله﴾: ناصب واسمه. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على ﴿اللَّهَ﴾. ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾: متعلق بـ﴿عَلِيمًا﴾. و﴿عَلِيمًا﴾: خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ المكسورة، وجملة ﴿إِنَّ﴾ من اسمها وخبرها في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿لَا﴾: نافية تعمل عمل إن المكسورة. ﴿جُنَاحَ﴾ في محل النصب اسمها. ﴿عَلَيْهِنَّ﴾: خبرها ﴿فِي ءَابَآئِهِنَّ﴾: جار ومجرور، متعلق بالاستقرار الذي تعلق به خبر ﴿لَا﴾، أو حال من الضمير المستكن في خبر ﴿لَا﴾، وجملة ﴿لَا﴾ مستأنفة. ﴿وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ﴾: معطوفان على ﴿ءَابَآئِهِنَّ﴾، وكذلك قوله: ﴿وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا﴾: معطوفات على ﴿ءَابَآئِهِنَّ﴾. ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾: فعل وفاعل صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: ولا ما ملكته أيمانهن.

﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾.

﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾: فعل أمر وفاعل ومفعول به، معطوف على محذوف تقديره: امتثلن ما أمرتن به، واتقين الله. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمه ضمير يعود على الله. ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾: متعلق بـ﴿شَهِيدًا﴾: خبر ﴿كَانَ﴾، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ﴾: معطوف على لفظ الجلالة، وجملة ﴿يُصَلُّونَ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾. ﴿عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾: متعلق بـ﴿يُصَلُّونَ﴾. وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة استئنافاً نحوياً. ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: منادى نكرة مقصودة، وجملة النداء مستأنفة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لـ﴿أي﴾. ﴿ءَامَنُوا﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول. ﴿صَلُّوا﴾: فعل وفاعل. ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿وَسَلِّمُوا﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿صَلُّوا﴾. ﴿تَسْلِيمًا﴾: مصدر مؤكد لعامله منصوب على المفعولية المطلقة.

التصريف ومفردات اللغة

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا﴾ الشهادة: قول صادر عن علم حصل بمشاهدة بصر أو بصيرة. ﴿سِرَاجٗا﴾ والسراج في الأصل: الشيء الزاهر بفتيلة. ﴿وَكِيلٗا﴾: فعيل بمعنى المفعول؛ أي: موكولاً إليه الأمور في كل الأحوال.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ قال في «بحر العلوم»: أصل النكاح: الوطء، ثم قيل للعقد: نكاح مجازاً تسمية للسبب باسم المسبب، فإن العقد سبب الوطء المباح، وعليه قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً﴾؛ أي: لا يتزوج، كما سبق في مبحث التفسير. وفي «القاموس»: النكاح: الوطء والعقد. انتهى.

﴿ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ﴾ أصل الطلاق: التخلية من وثاق، يقال: أطلقت الناقة من عقالها وطلقها، وهي طالق وطلق بلا قيد. ومنه استعير طلقت، نحو: خليتها فهي طالق؛ أي: مخلاة عن حبالة النكاح.

﴿مِنۡ عِدَّةٖ﴾ العدة لغة: اسم مصدر من اعتد، وشرعاً: اسم لمدة تتربص فيها المرأة لمعرفة براءة رحمها بطلاق أو وفاة. ﴿تَعۡتَدُّونَهَاۖ﴾ بوزن تفتعلونها؛ إما من العدد، فالتاء عوض من الدال الأولى، وإما من الإعتداد، فالتاء حينئذ تاء الافتعال.

﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾؛ أي: أعطوهن المتعة، وهي قميص وخمار [ما تغطي به المرأة رأسها]، وملحفة [ما تلتحف به من قرنها إلى قدمها: ملاية].

﴿وَسَرِّحُوهُنَّ﴾؛ أي: أخرجوهن من منازلكم. ﴿سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾؛ أي: إخراجاً مشتملاً على لين الكلام خالياً من الأذى.

﴿إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ﴾ وأصل الحل: حل العقدة، ومنه استعير قولهم: حل الشيء حلالاً، كما في «المفردات». والحلال: ضد الحرام. ﴿أُجُورَهُنَّ﴾ جمع: أجر، والأجر يقال فيما كان عن عقد وما يجري مجرى العقد، وهو ما يعود من ثواب العمل دنيوياً كان أو أخروياً، وهو ههنا كناية عن المهر؛ أي: مهورهن؛ لأن المهر أجر على البضع؛ أي: على المباشرة.

﴿مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ﴾ والفيء: مال راجع من الكفار إلى المسلمين بلا كلفة ولا مشقة ولا مقاتلة، كالجزية والخراج ومال المصالحة، سمي فيئاً تشبيهاً له

بالفيء، الذي هو الظل تنبيهاً على أن أشرف أعراض الدنيا يجري مجرى ظل زائل، والغنيمة: ما نيل من أهل الحرب والشرك عنوة.

﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ...﴾ إلخ. البنت والابنة: مؤنث الابن، والعم: أخ الأب، والعمة: أخته.

﴿ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ والمهاجرة في الأصل: مفارقة الغير، ومتاركته، استعملت في الخروج من دار الكفر إلى دار الإسلام.

﴿أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾؛ أي: ينكحها، يقال: نكح واستنكح مثل: عجل واستعجل، وعجب واستعجب. قال النابغة:

وَهُمْ قَتَلُواْ ٱلطَّائِيَّ بِٱلْحِجْرِ عَنْوَةً أَبَا جَابِرٍ وَٱسْتَنْكَحُوْا أُمَّ جَابِرِ

وهو في اللغة بمعنى: الضم والجمع، ومنه: تناكحت الأشجار: إذا تمايلت وانضم بعضها إلى بعض. قال عمر بن ربيعة:

وٱسْتَنْكَحَ ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِيْنَ نَخَافُهُمْ وَرَمَىٰ ٱلْكَرَىٰ بَوَّابَهُمْ فَتَجَدَّلاَ

ويجوز أن يراد بالاستنكاح معنى طلب النكاح والرغبة فيه، والمعنى: أراد النبي أن يتملك بضعها بلا مهر.

﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ﴾ قرىء: ﴿ترجيء﴾ مهموزاً وغير مهموز، كما سبق في مبحث القراءة، وهما لغتان بمعنى واحد؛ لأن الياء مبدل من الهمزة، والإرجاء التأخير، يقال: أرأجت الأمر، وأرجيته: إذا أخرته. وذكر في «القاموس»: في الهمزة: أرجأ الأمر: أخره، وترك الهمزة لغة، وفي الناقص: الإرجاء: التأخير.

﴿وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾؛ أي: تضم إليك، يقال: آواه إليه بالمد: ضمه إليه، وأوى مقصوراً؛ أي: ضمَّ إليه.

﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ﴾؛ أي: طلبت ردَّها إلى فراشك بعد أن عزلتها، وأسقطتها من القسمة. اهـ «خازن». وفي «القرطبي»: ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ ابتغيت: طلبت، والابتغاء: الطلب، وعزلت: أزلت، والعزلة: الإزالة، والعزل: الترك والتبعيد.

﴿أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ﴾ أصله من: القر بالضم، وهو: البرد، وللسرور دمعة قارة؛ أي: باردة، وللحزن دمعة حارة، أو من القرار؛ أي: تسكن أعينهن، ولا تطمح إلى

ما عاملتهن به. قال في «القاموس»: قرت عينه تقر بالكسر والفتح قرة ـ وتضم ـ وقروراً: بردت وانقطع بكاؤها، أو رأت ما كانت متشوقة إليه، وقر بالمكان يقر ـ بالكسر والفتح ـ قراراً: ثبت واستكن كاستقر.

﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ﴾ بالياء؛ لأن تأنيث الجمع غير حقيقي، ولوجود الفصل، وإذا جاز التذكير بغيره في قوله: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾.. كان معه أجوز، والنساء والنسوان والنسوة ـ بالكسر ـ: جموع المرأة من غير لفظها؛ أي: لا تحل لك واحدة من النساء، مسلمة كانت أو كتابية لما تقرر أن حرف التعريف إذا دخل على الجمع يبطل الجمعية، ويراد الجنس، وهو كالنكرة يخص في الإثبات، ويعم في النفي، كما مر.

﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ﴾ بحذف إحدى التاءين، والأصل: تتبدل من باب تفعل الخماسي، وبدل الشيء: الخلف عنه، وتبدَّله به وأبدله منه وبدَّله: اتخذه بدلاً، كما في «القاموس». قال الراغب: التبدل والإبدال والتبديل والاستبدال: جعل الشيء مكان آخر، وهو أعم من العوض، فإن العوض هو أن يصير لك الثاني بإعطاء الأول، والتبديل يقال للتغيير، وإن لم تأت ببدله. انتهى.

وقوله: ﴿مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾ مفعول ﴿تَبَدَّلَ﴾، و﴿مِن﴾ مزيدة لتأكيد النفي تفيد استغراق جنس الأزواج بالتحريم، والمعنى: ولا يحل لك أن تتبدل بهؤلاء التسع أزواجاً أخر بكلهن أو بعضهن، بأن تطلق واحدة، وتنكح مكانها أخرى.

﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾؛ أي: أوقعك في العجب. قال الراغب: العجب والتعجب: حالة تعرض للإنسان عند الجهل بسبب الشيء، وقد يستعار للروق، فيقال: أعجبني كذا؛ أي: راقني، والحسن كون الشيء ملائماً للطبع، وأكثر ما يقال: الحسن بفتحتين في تعارف العامة في المستحسن بالبصر.

﴿رَّقِيبًا﴾ يقال: رقبته حفظته، والرقيب: الحافظ، وذلك إما لمراعاة رقبة المحفوظ، وإما لرفعه رقبته.

﴿غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾؛ أي: نضجه وإدراكه، وهو بكسر الهمزة وبالقصر مصدر سماعي، لأنى الطعام يأني من باب رمى يرمي إنىً: إذا أدرك، وقياس مصدره: أني، كرمي، ولكنه لم يسمع، ولكن المسموع إناً بالكسر والقصر بوزن رضا. قال

في «المفردات: الإنا إذا كسر أوله قصر، وإذا فتح مد، وأنى الشيء يأني: قرب إناه، ومثله: آن يئين؛ أي: حان يحين. اهـ.

﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ﴾؛ أي: تناولتم الطعام، فإن الطعم تناول الغذاء. ﴿وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ﴾ من الاستئناس، وهو ضد الوحشة والنفور، كما مر. والاستئناس: طلب الأنس بالحديث، تقول: استؤنست بحديثه؛ أي: طلبت الأنس والسرور به، وما بالدار من أنيس؛ أي: ليس بها أحد يؤانسك أو يسليك.

﴿الحديث﴾ الحديث: يستعمل في قليل الكلام وكثيره؛ لأنه يحدث شيئاً فشيئاً ﴿كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ﴾ والأذى: ما يصل إلى الإنسان من ضرر؛ إما في نفسه، أو في جسمه، أو فتياته دنيوياً كان أو أخروياً.

﴿فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْ﴾ من الحياء، والحياء: رقة تعتري وجه الإنسان عند فعل ما يتوقع كراهته، أو ما يكون تركه خيراً من فعله. قال الراغب: الحياء: انقباض النفس عن القبائح، وتركه لذلك.

﴿مَتَٰعًا﴾ المتاع: الغرض والحاجة، كالماعون وغيره من أثاث البيت. ﴿مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾؛ أي: ستر.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: توافق الفواصل في قوله: ﴿مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾، ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ ﴿عَلِيمًا حَلِيمًا﴾، ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾؛ لأنه من المحسنات البديعية تزيد الكلام رونقاً وحسناً، وهو من خصائص القرآن الكريم.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾؛ أي: بتيسيره وتسهيله، فأطلق الإذن، وأريد به التيسير مجازاً مرسلاً بعلاقة السببية؛ فإن التصرف في ملك الغير متعسر، فإذا أذن تسهل وتيسير، وإنما لم يحمل على حقيقته، وهو الإعلام بإجازة الشيء، والرخصة فيه لانفهامه من قوله: ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾، ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾، كما سبق.

ومنها: التشبيه البليغ في قوله: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾؛ أي: كالسراج في الاستضاءة

به؛ لأنه يستضاء به في ظلمات الجهل والغواية، كما أن السراج الحسي، هو المصباح يستضاء به في ظلمات الليل، فحذف الأداة ووجه الشبه، وأصل هذا التشبيه: أنت يا محمد، كالسراج الوضاء في الهداية والإرشاد، حذفت منه أداة التشبيه ووجه الشبه، فأصبح بليغاً على حد قولهم: عليٌّ أسد، ومحمد قمر.

ومنها: الطباق بين قوله: ﴿مبشرا﴾ و﴿نذيرا﴾.

ومنها: أنه وصف النبي ﷺ في هذه الآيات بنعوت خمسة، وقوبل كل منها بخطاب يناسبه خلا أنه لم يذكر مقابل الشاهد صريحاً، وهو الأمر بالمراقبة؛ ثقةً بظهور دلالة مقابلة المبشّر عليه، وهو الأمر بالتبشير حسبما ذكر فيما سبق، وقوبل النذير بالنهي عن مداراة الكفار والمنافقين، والمسامحة في إنذارهم، وقوبل الداعي إليه تعالى بإذنه بالأمر بالتوكل عليه من حيث إنه عبارة عن الاستعداد منه تعالى، والاستعانة به، وقوبل السراج المنير بالاكتفاء به تعالى، فإن من أيده الله تعالى بالقوة القدسية، ورشحه بالنبوة، وجعله برهاناً نيراً يهدي الخلق من ظلمات الغي إلى نور الرشاد، حقيقٌ بأن يكتفى به عن كل ما سواه. اهـ «أبو السعود».

ومنها: الكناية في قوله: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ كنى بالنهي عن طاعتهم عن النهي عن مداراتهم في أمر الدعوة، وعن استعمال لين الجانب في التبليغ مبالغةً في الزجر والتنفير عن المنهي عنه. اهـ «أبو السعود».

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾؛ لأن أصل النكاح الوطء، فأطلقه على عقد النكاح مجازاً مرسلاً تسميةً للسبب باسم المسبب، فإن العقد سبب الوطء المباح.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾؛ لأن الطلاق أصل في إطلاق الناقة من عقالها، ثم استعير لتخلية المرأة من حبالة النكاح.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ كنى عن الجماع بالمس، وهي من الكنايات المشهورة، ومن الآداب القرآنية؛ لأن القرآن يتحاشى الألفاظ البذيئة.

ومنها: إسناد العدة إلى الرجال في قوله: ﴿تَعْتَدُّونَهَا﴾ دلالةً على أن العدة حقهم، كما أشعر به قوله: ﴿فَمَا لَكُمْ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ﴾؛ لأن السراح

حقيقة في تسريح الماشية، وفي قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ﴾؛ لأن الحل أصل في حل العقدة في نحو الحبال، ثم استعير لجعل الشيء حلالاً مأذوناً فيه.

ومنها: الإضافة للتشريف في قوله: ﴿أَزۡوَٰجَكَ﴾.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿أُجُورَهُنَّ﴾؛ لأنه كناية عن المهور.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾؛ لأن مقتضى السياق أن يقال: إن وهبت نفسها لك، والالتفات فيه للإيذان بأن هذا الحكم مخصوص به لشرف نبوته.

ومنها: الاعتراض بقوله: ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ﴾ فإنه اعتراض بين قوله: ﴿لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞ﴾، وبين متعلقه وهو قوله: ﴿خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ﴾، أو قوله: ﴿أَحۡلَلۡنَا لَكَ﴾ لتقرير ما قبله وتأكيده.

ومنها: الطباق بين ﴿تُرۡجِي﴾، ﴿وَتُـٔۡوِيٓ﴾، وبين: ﴿ٱبۡتَغَيۡتَ﴾ و﴿عَزَلۡتَ﴾، وبين ﴿ادخلوا﴾ و﴿انتشروا﴾، وبين: ﴿تُبۡدُواْ﴾، و﴿تخفوا﴾.

ومنها: طباق السلب في قوله: ﴿فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ﴾، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾.

ومنها: الالتفات من الغيبة في قوله: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡهِنَّ﴾ إلى الخطاب في قوله: ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ﴾ لغرض الاعتناء بشأن التقوى.

ومنها: الإضافة للتشريف في قوله: ﴿بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ﴾؛ لأنها لما أضيفت إليه تشرفت.

ومنها: الإتيان بالمصدر مع الفعل للتأكيد في قوله: ﴿وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾، وفيه أيضاً: جناس الاشتقاق.

ومنها: الاحتباك في قوله: ﴿صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾، وهو أن يحذف من كل من المتقابلين نظير ما أثبته في الآخر؛ لأنه حذف من صلوا المصدر، ومن ﴿سلموا﴾ المتعلق؛ لأن أصل الكلام: صلوا عليه صلاةً، وسلموا عليه تسليماً، وهو من المحسنات البديعية.

وفي هذه الجملة تأكيدات اهتماماً بشأن الرسول ﷺ، أكد بـ﴿إِنَّ﴾ في قوله:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ اهتماماً بشأنه، وجاء بالجملة الاسمية إفادة للدوام، وكانت الجملة اسمية في صدرها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ فعلية في عجزها ﴿يُصَلُّونَ﴾ للإشارة إلى أن هذا الثناء من الله تعالى على رسوله يتجدد وقتاً فوقتاً على الدوام، فتأمل.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما[1] أمر باحترام نبيه في بيته وفي الملأ.. نهى عن إيذاء الله بمخالفة أوامره، وارتكاب زواجره، وإيذاء رسوله بإلصاق عيب أو نقص به، ولما كان من أعظم أذى رسوله أذى من تابعه.. بين ذلك بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ...﴾ الآية.

---

(١) المراغي.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر أنَّ من يؤذي مؤمناً، فقد احتمل بهتاناً، وإثماً مبيناً زجراً لهم عن الإيذاء.. أمر النبي ﷺ بأن يأمر بعض المتأذِّين بفعل ما يدفع الإيذاء عنهم في الجملة، من التستر، والتميز بالزي، واللباس، حتى يبتعدوا عن الأذى بقدر المستطاع.

روي: أنه لما كانت الحرائر والإماء في المدينة يخرجن ليلاً لقضاء الحاجة في الغيطان، وبين النخيل بلا فارق بين الحرائر والإماء، وكان في المدينة فساق يتعرضون للإماء، وربما تعرضوا للحرائر، فإذا كلموا في ذلك.. قالوا: حسبناهن إماءً.. طلب من رسوله أن يأمر الحرائر أن يخالفن الإماء في الزي والتستر؛ ليتمايزن ويهبن، فلا يطمع فيهن طامع.

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر حال هذه الفئات الثلاثة ـ أعني: المنافقين ومرضى القلوب، والمرجفين في الدنيا ـ وأنهم يلعنون ويهانون ويقتلون.. عطف على ذلك ذكر حالهم في الآخرة، فذكرهم بيوم القيامة، وبين ما يكون لهم في هذا اليوم العظيم.

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر[1] فيما سلف أن من يؤذي الله ورسوله يلعنه الله في الدنيا والآخرة، ولا شك أن هذا في الإيذاء الذي يؤدي إلى الكفر، وقد حصره الله في النفاق، ومرض القلب، والإرجاف على المسلمين.. أعقب ذلك بإيذاء دون ذلك لا يورث الكفر، كعدم الرضا بقسمة النبي ﷺ للفيء، ونهى الناس عنه أيضاً، وذكر أن بني إسرائيل قد آذوا موسى، ونسبوا إليه ما ليس فيه، فبرأه الله منه؛ لأنه ذو كرامة ومنزلة لديه، فلا يلحق به ما هو نقص فيه.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما نهى عن إيذاء رسول الله ﷺ بقول أو

---

(١) المراغي.

فعل.. أرشدهم إلى ما ينبغي أن يصدر منهم من الأقوال والأفعال التي تكون سبباً في الفوز والنجاة في الدار الآخرة، والقرب من الله سبحانه، والحظوة إليه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما بين عظم شأن طاعة الله تعالى ورسوله، وأن من يراعيها.. فله الفوز العظيم، وأن من يتركها يستحق العذاب.. أردف عظم شأن ما تنال به تلك الطاعة من فعل التكاليف الشرعية، وأن حصولها عزيز شاق على النفوس، ثم بيان أن ما يصدر منهم من الطاعة، أو يكون منهم من إباء بعدم القبول والالتزام إنما يكون بلا جبر ولا إلزام.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[1]: ما أخرجه ابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الآية. قال نزلت في الذين طعنوا على النبي ﷺ حين اتخذ صفية بنت حيي، وقال جويبر عن الضحاك عن ابن عباس: نزل في عبد الله بن أبي وناسٍ معه حين قذفوا عائشة، فخطب النبي ﷺ، وقال: «من يعذرني من رجل يؤذيني، ويجمع في بيته من يؤذيني»، فنزلت الآية.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه البخاري عن عائشة قالت: خرجت سودة بعد ما ضرب الحجاب؛ لحاجتها، وكانت امرأةً جسيمة لا تخفى على من يعرفها، فرآها عمر فقال: يا سودة، أما والله ما تخفين علينا، فانظري كيف تخرجين، قالت: فانكفأت راجعة، ورسول الله ﷺ في بيتي، وإنه ليتعشى، وفي يده عرق، فدخلت فقالت: يا رسول الله، إني خرجت لبعض حاجتي، فقال لي عمر: كذا وكذا. قالت: فأوحى الله إليه، ثم رفع عنه، وإن العرق في يده ما وضعه، فقال: إنه قد أذن لكنَّ أن تخرجن لحاجتكن.

وأخرج ابن سعد في «الطبقات» عن أبي مالك قال: كان نساء النبي ﷺ

---

(١) لباب النقول.

يخرجن بالليل لحاجتهن، وكان ناس من المنافقين يتعرضون لهن، فيؤذين، فشكوا ذلك، فقيل ذلك للمنافقين، فقالوا: إنما نفعله بالإماء، فنزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ...﴾ الآية، ثم أخرج نحوه عن الحسن ومحمد بن كعب القرظي.

التفسير وأوجه القراءة

ولما ذكر الله سبحانه ما يجب لرسوله من التعظيم.. ذكر هنا الوعيد الشديد للذين يؤذونه، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى[1] بفعل ما يكرهه، وارتكاب ما لا يرضاه بترك الإيمان به، ومخالفة أمره، ومتابعة هواهم، ونسبة الولد والشريك إليه تعالى، والإلحاد في أسمائه وصفاته، ونفي قدرته على الإعادة، وسب الدهر، ونحت التصاوير تشبيهاً بخلق الله تعالى. وقال ابن عباس[2] رضي الله عنهما: هم اليهود والنصارى والمشركون، فأما اليهود فقالوا: عزير ابن الله، ويد الله مغلولة، وقالوا: إن الله فقير ونحن أغنياء، وأما النصارى فقالوا: المسيح ابن الله، وثالث ثلاثة، وأما المشركون فقالوا: الملائكة بنات الله، والأصنام شركاؤه.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: يقول الله عز وجل: «كذبني ابن آدم، ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته، وأما شتمه إياي.. فقوله: اتخذ الله ولداً، وأنا الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد» أخرجه البخاري.

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: قال الله عز وجل: «يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر، بيدي أقلب الليل والنهار». متفق عليه.

معنى هذا الحديث: أنه كان من عادة العرب في الجاهلية أن يذموا الدهر، ويسبوه عند النوازل؛ لاعتقادهم أن الذي يصيبهم من أفعال الدهر، فقال الله تعالى: أنا الدهر؛ أي: أنا الذي أحل بهم النوازل، وأنا فاعل لذلك الذي تنسبونه إلى الدهر في زعمكم.

---

(١) روح البيان.　　(٢) الخازن.

وقيل: هم أصحاب التصاوير. عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله عز وجل: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا حبة، أو شعيرة» متفق عليه.

وقيل: الكلام على حذف مضاف، والتقدير: إن الذين يؤذون أولياء الله، كما روي عن النبي ﷺ قال: «قال الله سبحانه وتعالى: من آذى لي ولياً.. فقد آذنته بالحرب»، وقال تعالى: «من أهان لي ولياً.. فقد بارزني بالمحاربة» فمعنى إذاية الله سبحانه: هو مخالفة أمر الله تعالى، وارتكاب معاصيه، ذكر ذلك على ما يتعارفه الناس بينهم؛ لأن الله تعالى منزه عن أن يلحقه أذى من أحد.

﴿و﴾ يؤذون ﴿رسوله﴾ محمداً ﷺ بقولهم: شاعر ساحر كاهن مجنون، وطعنهم في نكاح صفية الهارونية، وهو الأذى القولي، وكسر رباعيته، وشج وجهه الكريم يوم أحد، ورمي التراب عليه، ووضع القاذورات على ظهر النبوة، قاله ابن عباس رضي الله عنهما.

ويجوز أن يكون المراد بإيذاء الله ورسوله[1]: إيذاء رسول الله خاصة بطريق الحقيقة، وذكر الله لتعظيمه، والإيذان بجلالة مقداره عنده تعالى. وأن إيذاءه ﷺ إيذاء له تعالى لما قال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾؛ أي: فمن آذى رسوله.. فقد آذى الله.

﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: طردهم الله سبحانه وتعالى، وأبعدهم من رحمته ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ بحيث لا يكادون ينالون فيهما شيئاً من رحمة الله، جعل ذلك اللعن في الدنيا والآخرة، لتشملهم اللعنة فيهما، بحيث لا يبقى وقت من أوقات محياهم ومماتهم إلا واللعنة واقعة عليهم، ومصاحبة لهم.

﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ﴾؛ أي: هيأ لهم من ذلك ﴿عَذَابًا مُّهِينًا﴾ يصيبهم في الآخرة خاصةً؛ أي: نوعاً من العذاب يهانون فيه، فيذهب بعزهم وكبرهم.

قال في «التأويلات»: لما استحق المؤمنون بطاعة الرسول ﷺ، والصلاة عليه صلاة الله.. فكذلك الكافرون استحقوا بمخالفة الرسول وإيذائه لعنة الله، فلعنة

---

(١) روح البيان.

الدنيا هي الطرد عن جناب الله، والحرمان من الإيمان، ولعنة الآخرة: الخلود في النيران، والحرمان من الجنان، وهذا حقيقة قوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾.

قال في «فتح الرحمن»: يحرم أذى النبي ﷺ بالقول والفعل بالاتفاق، واختلفوا في حكم من سبَّه ـ والعياذ بالله ـ من المسلمين، فقال أبو حنيفة والشافعي: هو كفر كالردة، يقتل ما لم يتب. وقال مالك وأحمد: ويقتل ولا تقبل توبته؛ لأن قتله من جهة الحد لا من جهة الكفر. وأما الكافر إذا سبه صريحاً بغير ما كفر به، من تكذيبه ونحوه، فقال أبو حنيفة: لا يقتل؛ لأن ما هو عليه من الشرك أعظم، ولكن يؤدب ويعزر. وقال الشافعي: ينتقض عهده، فيخير الإمام فيه بين القتل والاسترقاق والمن والفداء، ولا يرد مأمنه؛ لأنه كافر لا أمان له، ولو لم يشترط عليه الكف عن ذلك، بخلاف ما إذا ذكره بسوء يعتقده ويتدين به، كتكذيب ونحوه، فإنه لا ينتقض عهده بذلك إلا باشتراط. وقال مالك وأحمد: يقتل ما لم يسلم. واختار جماعة من أئمة مذهب أحمد: أن سابَّه ﷺ يقتل بكل حال، منهم: الشيخ تقي الدين ابن تيمية، وقال: هو الصحيح من المذهب. وحكم من سب سائر أنبياء الله وملائكته حكمُ من سب نبينا ﷺ، وأما من سب الله سبحانه وتعالى ـ والعياذ بالله ـ من المسلمين بغير الارتداد عن الإسلام، ومن الكفار بغير ما كفروا به من معتقدهم في عزير والمسيح ونحو ذلك، فحكمه حكم من سبَّ النبي ﷺ. نسأل الله العصمة والهداية، ونعوذ به من السهو والزلل والغواية، إنه الحافظ الرقيب.

ومعنى الآية[1]: أن الذين يؤذون الله سبحانه، فيرتكبون ما حرمه من الكفر وسائر المعاصي، ومنهم اليهود الذين قالوا: يد الله مغلولة، والنصارى الذين قالوا: المسيح ابن الله، والمشركون الذين قالوا: الملائكة بنات الله، والأصنام شركاؤه. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، ويؤذون رسوله كالذين قالوا: هو شاعر، هو كاهن، هو مجنون، إلى نحو ذلك من مقالاتهم الشنيعة.. طردهم الله سبحانه في الدنيا والأخرة من رحمته، وأبعدهم من فضله في الدنيا، فجعلهم يتمادون في غيهم، ويدسون أنفسهم، ويستمرئون سبل الغواية والضلالة التي ترديهم في النار، وبئس

---

(١) المراغي.

القرار، وفي الآخرة، حيث يصلون ناراً تشوي الوجوه، وهيأ لهم في الآخرة عذاباً يؤلمهم، ويجعلهم في مقام الزراية والاحتقار والخزي والهوان.

ولما كان من أعظم أذى رسوله أذى من تابعه.. بيَّن ذلك بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ بوجه من وجوه الأذى؛ أي: يفعلون بهم ما يتأذون به من قول أو فعل ﴿بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾؛ أي: بغير جناية يستحقون بها الأذية، وتقييد أذاهم به بعد إطلاقه في الآية السابقة للإيذان بأن أذى الله ورسوله لا يكون إلا غير حق، وأما أذى هؤلاء.. فقد يكون حقاً، وقد يكون غير حق، أما إذا كان بحق، كما إذا وقع من المؤمنين والمؤمنات الابتداء بشتم لمؤمن أو مؤمنة، أو ضرب، فإن القصاص من الفاعل ليس من الأذية المحرمة على أيّ وجه كان، ما لم يجاوز ما شرعه الله، والآية عامة لكل أذى بغير حق في كل مؤمن ومؤمنة، فتشمل ما روي أن عمر رضي الله عنه خرج يوماً فرأى جارية مزينةً مائلة إلى الفجور، فضربها، فخرج أهلها، فآذوا عمر باللسان.

وما روي أن المنافقين كانوا يؤذون علياً رضي الله عنه، ويسمعونه ما لا خير فيه، وما سبق من قصة الإفك حيث اتهموا عائشة بصفوان السهمي رضي الله عنهما، وما روي أنَّ الزناة كانوا يتبعون النساء إذا برزن بالليل لطلب الماء، أو لقضاء حوائجهن، وكانوا لا يتعرضون إلا للإماء، ولكن ربما كان يقع منهم التعرض للحرائر أيضاً جهلاً، أو تجاهلاً لاتحاد الكل في الزي واللباس، حيث كانت تخرج الحرة والأمة في درع وخمار، وما سيأتي من أراجيف المرجفين، وغير ذلك مما يثقل على المؤمن.

ثم أخبر عما لهؤلاء الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا، فقال: ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟﴾ واقترفوا، والاحتمال: مثل الاكتساب وزناً ومعنى، كما في «بحر العلوم». وقال بعضهم: تحملوا. ﴿بُهْتَٰنًا﴾؛ أي: افتراء وكذباً عليهم. ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾؛ أي: ذنباً ظاهراً واضحاً لا شك في كونه من البهتان والإثم.

واعلم: أن أذى المؤمنين قرن بأذى الرسول ﷺ، كما أن أذى الرسول قرن بأذى الله، ففيه إشارة إلى أن من آذى المؤمنين.. كان كمن آذى الرسول، ومن آذى الرسول.. كان كمن آذى الله تعالى، فكما أنَّ المؤذي لله وللرسول مستحق الطرد

واللعن في الدنيا والآخرة، فكذا المؤذي للمؤمن.

روي: أن رجلاً شتم علقمة رضي الله عنه، فقرأ هذه الآية. وعن عبد الرحمن بن سمرة ـ رضي الله عنه ـ قال: خرج النبي ﷺ على أصحابه فقال: «رأيت الليلة عجباً، رأيتُ رجالاً يعلقون بألسنتهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ فقال: هؤلاء الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا».

وفي الحديث: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» بأن لا يتعرض لهم بما حرم من دمائهم وأموالهم وأعراضهم، قدَّم اللسان في الذكر؛ لأن التعرض به أسرع وقوعاً وأكثر، وخص اليد بالذكر؛ لأن معظم الأفعال يكون بها. واعلم أن المؤمن إذا أوذي يلزم عليه أن لا يتأذى، بل يصبر، فإن له فيه الأجر، فالمؤذي لا يسعى في الحقيقة إلا في إيصال الأجر إلى من آذاه، ولذا ورد: «وأحسن إلى من أساء إليك»، وذلك لأن المسيء وإن كان مسيئاً في الشريعة، لكنه محسن في الحقيقة.

وروي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: قال رسول الله ﷺ لأصحابه «أيُّ الربا أربى عند الله؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «أربى الربا عند الله استحلال عرض امرىءٍ مسلم، ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾».

والمعنى: أي إن الذين ينسبون إلى المؤمنين والمؤمنات ما لم يعملوه، وما هم منه براء قد اجترحوا كذباً فظيعاً، وأتوا أمراً إدًّا، وذنباً ظاهراً، ليس له ما يسوغه أو يقوم مقام العذر له.

ولما فرغ سبحانه من الزجر لمن يؤذي رسوله والمؤمنين والمؤمنات من عباده.. أمر رسوله ﷺ بأن يأمر بعض من ناله الأذى ببعض ما يدفع ما يقع عليه منه، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ الكريم ﴿قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾؛ أي: نسائك، وكانت تسعاً حين توفي ﷺ، وهن: عائشة، وحفصة، وأم حبيبة، وأم سلمة، وسودة، وزينب، وميمونة، وصفية، وجويرية، وقد سبق تفاصيلهن نسباً وأوصافاً وأحوالاً، وقد نظمها بعضهم بقوله:

تُوُفِّيْ رَسُوْلُ ٱللَّهِ عَنْ تِسْعِ نِسْوَةٍ ... إِلَيْهِنَّ تُعْزَىٰ ٱلْمَكْرُمَاتُ وَتُنْسَبُ

فَـعَـائِـشَـةٌ مَـيْـمُـونَـةٌ وَصَـفِـيَّـةٌ   وَحَـفْـصَـةُ تَـتْـلُـوهُـنَّ هِـنْـدٌ وَزَيْـنَـبُ
جُـوَيْـرِيَّـةٌ مَـعْ رَمْـلَـةٍ ثُـمَّ سَـوْدَةٌ   ثَـلاَثٌ وَسِـتٌّ ذِكْـرُهُـنَّ لَـيَـعْـذُبُ

﴿وَبَنَاتِكَ﴾ وكانت ثمانياً، أربع صلبيات ولدتها خديجة، وهي: زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة رضي الله عنهن، متن في حياته ﷺ إلا فاطمة، فإنها عاشت بعده ستة أشهر؛ وأربع ربائب ولدتها أم سلمة، وهي: برة، وسلمة، وعمرة، ودرة، رضي الله عنهن.

﴿وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ في المدينة ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ مقول القول.

والإدناء[1]: الإرخاء، من الدنو، وهو القرب. والجلباب: ثوب أوسع من الخمار دون الرداء تلويه المرأة على رأسها، وتبقي منه ما ترسله إلى صدرها، و﴿مِن﴾ للتبعيض؛ لأن المرأة ترخي بعض جلبابها، وتتلفع ببعض.

والمعنى: يرخين ويغطين بها وجوههن وأبدانهن وقت خروجهن من بيوتهن لحاجة، ولا يخرجن مكشوفات الوجوه والأبدان، كالإماء، حتى لا يتعرض لهن السفهاء ظناً بأنهن إماء. وعن السدي: تغطي إحدى عينيها، وشق وجهها، والشق الآخر إلا العين، وقال الحسن: تغطي نصف وجهها. وقال قتادة: تلويه فوق الجبين وتشده، ثم تعطفه على الأنف، وإن ظهرت عيناها، لكنها تستر الصدر ومعظم الوجه.

قال ابن عباس: أمر نساء المؤمنين أن يغطّين رؤوسهن ووجوههن بالجلابيب إلا عيناً واحدةً ليعلم أنهن حرائر. ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الإدناء والتغطية والإرخاء ﴿أَدْنَىٰٓ﴾ وأقرب إلى ﴿أَن يُعْرَفْنَ﴾ فيتميزن عن الإماء والقينات اللاتي هن مواقع تعرض الزناة وأذاهم، كما ذكر في الآية السابقة، ويظهر للناس أنهن حرائر ﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ من جهة أهل الفجور بالتعرض لهن، وليس المراد بقوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ﴾ أن تعرف الواحدة منهن من هي، بل المراد أن يعرفن أنهن حرائر لا إماء؛ لأنهن قد لبسن لبسة تختص بالحرائر.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿غَفُورًا﴾ لما سلف منهن من التقصير في الستر،

---

(١) روح البيان.

وترك إدناء الجلابيب. ﴿رَّحِيمًا﴾ بهن أو بعباده؛ حيث يراعي مصالحهم حتى الجزئيات منها، أو غفوراً للمذنبين، رحيماً بهم بقبول توبتهم، فيدخلن في ذلك دخولاً أولياً.

قال أنس رضي الله عنه: مرت لعمر بن الخطاب جارية متقنعة، فعلاها بالدرة وقال: يا لكاع، تتشبهين بالحرائر، ألقي القناع. وفي الآية تنبيه لهنّ على حفظ أنفسهن، ورعاية حقوقهن بالتصاون والتعفف، وفيها إثبات زينتهن، وعزة قدرهن.

وقيل المعنى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ التنبيه ﴿أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ﴾ أن لهن قدراً ومنزلة وعزة في الحضرة ﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ بالأطماع الفاسدة، والأقوال الكاذبة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ لهن بامتثال الأوامر ﴿رَّحِيمًا﴾ بهن بإعلاء درجاتهن، كما في «التأويلات النجمية».

واعلم: أنه فهم من الآية شيئان:

الأول: أن نساء ذلك الزمان كنَّ لا يخرجن لقضاء حوائجهن إلا ليلاً تستراً وتعففاً، وإذا خرجن نهاراً لضرورة.. يبالغن في التغطي، ورعاية الأدب والوقار، وغض البصر عن الرجال الأخيار والأشرار، ولا يخرجن إلا في ثياب دنيئة، فمن خرجت من بيتها متعطِّرة متبرِّجة؛ أي: مظهرة زينتها ومحاسنها للرجال.. فإن عليها ما على الزانية من الوزر، وعلامة المرأة الصالحة عند أهل الحقيقة أن يكون حسنها مخافة الله، وغناها القناعة، وحليها العفة؛ أي: التكفف عن الشرور والمفاسد، والاجتناب عن مواقع التهم.

والثاني: أن الدنيا لم تخل عن الفسق والفجور حتى في الصدر الأول، فرحم الله أمرأً غضَّ بصره عن أجنبية، فإن النظرة تزرع في القلب شهوة، وكفى بها فتنة. قال ابن سيرين رحمه الله: إني لأرى المرأة في منامي، فاعلم أنها لا تحل لي، فأصرف بصري عنها. فيجب على المرء أن لا يقرب امرأةً ذات عطر وطيب، ولا يمس يدها، ولا يكلمها، ولا يمازحها، ولا يلاطفها، ولا يخلو بها، فإن الشيطان يهيّج شهوته، ويوقعه في الفاحشة.

وفي الحديث: «من فاكه امرأةً لم تحل له، ولا يملكها.. حبس بكلِّ كلمةٍ ألف عام في النار، ومن التزم امرأةً حراماً ـ أي: اعتنقها ـ.. قرن مع الشيطان في سلسلة، ثم يؤمر به إلى النار» والعياذ بالله من دار البوار.

وعن رسول الله ﷺ: «لأن يطعن في رأس أحدكم بمخيط من حديد، خير له من أن يمس امرأة لا تحل له». رواه الطبراني والبيهقي، وهو حديث حسن.

وعن أسماء بنت أبي بكر الصديق قالت: كنَّا نغطي وجوهنا من الرجال. رواه الحاكم، وقال: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

ومن صور الاختلاط المحرم: اختلاط البنات مع ابن العم، وابن العمة.

ومنها: اختلاط البنات مع ابن الخال وابن الخالة.

ومنها: الاختلاط مع أخ الزوج بالنسبة للزوجة.

ومنها: اختلاط أخوات الزوجة مع زوجها.

ومنها: اختلاط أخ المرأة من الرضاع مع أخوات أخته من الرضاع.

ومنها: خلوة خطيب الفتاة بالفتاة، وخروجه معها إلى السوق، وحديثه معها قبل العقد، وإنما جاز له النظر إليها بحضور وليها إذا عزم على الزاوح فقط، إلى غير ذلك من الصور التي تساهل فيها كثير من أهل عصرنا الفاسد.

وحاصل معنى الآية: أن الله سبحانه طلب من نبيه ﷺ أن يأمر النساء المؤمنات المسلمات، وبخاصة أزواجه وبناته، بأن يسدلن عليهن الجلابيب إذ خرجن من بيوتهن؛ ليتميزن عن الإماء. وعن أم سلمة قالت: لما نزلت هذه الآية: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾.. خرج نساء الأنصار كأن رؤوسهن الغربان من السكينة، وعليهن أكسية سود يلبسنها.

وإجمال ذلك: أن على المسلمة إذا خرجت من بيتها لحاجة أن تسدل عليها ملابسها، بحيث تغطي الجسم والرأس، ولا تبدي شيئاً من مواضع الفتنة، كالرأس والصدر والذراعين، ونحوها، ثم علل ذلك بقوله: ذلك التستر أقرب إلى معرفتهن بالعفة، فلا يتعرض لهن، ولا يلقين مكروهاً من أهل الريبة احتراماً لهن منهم، فإن المتبرجة مطموع فيها، منظور إليها نظرة سخرية واستهزاء، كما هو مشاهد في كل عصر ومصر، لا سيما في هذا العصر الذي انتشرت فيه الخلاعة، وكثر فيه الفسق والفجور، وكان الله سبحانه غفوراً لما عسى أن يكون قد صدر من الإخلال بالستر، كثير الرحمة لمن امتثل أمره معهن، فيثبه عظيم الثواب، ويجزيه الجزاء الأوفى.

ولما كان الأذى إنما يحصل من أهل النفاق ومن على شاكلتهم.. حذرهم بقوله: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾، واللام: موطئة للقسم؛ أي: وعزتي وجلالي لئن لم ينزجر ويمتنع المنافقون عما هم عليه من النفاق، وأحكامه الموجبة للإيذاء ﴿و﴾ لم ينته ﴿الذين في قلوبهم مرض﴾؛ أي: ضعف إيمان، وقلة ثبات عليه، أو فجور من تزلزلهم في الدين، وما يستتبعه مما لا خير فيه، أو من فجورهم وميلهم إلى الزنا والفواحش ﴿و﴾ لم ينته ﴿المرجفون في المدينة﴾؛ أي: المخبرون في المدينة الأخبار الكاذبة المشوشة المضعفة لعزائم المسلمين في الجهاد، عما هم عليه من نشر أخبار السوء عن سرايا المسلمين، بأن يقولوا: انهزموا، وقتلوا، وأخذوا، وجرى عليهم كيت وكيت، وأتاكم العدو، وغير ذلك من الأراجيف المؤذية الموقعة لقلوب المسلمين في الاضطراب والإنكار والرعب ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ جواب القسم المحذوف؛ أي: لنحرضنك يا محمد بقتلهم، ولنأمرنك باستئصالهم؛ أي: لنسلطنك يا محمد على هؤلاء المنافقين الذين جمعوا بين النفاق ومرض القلوب وإرجاف المسليمن، فتستأصلهم بالقتل والتشريد والإجلاء بأمرنا لك بذلك.

قال القرطبي: أهل التفسير على أن الأوصاف الثلاثة لشيء واحد، والمعنى: إن المنافقين قد جمعوا بين النفاق ومرض القلوب والإرجاف على المسلمين، فهو على هذا من باب قوله:

إِلَى ٱلْمَلِكِ ٱلْقَرْمِ وَٱبْنِ ٱلْهُمَامْ ... وَلَيْثِ ٱلْكَتِيبَةِ فِيْ ٱلْمُزْدَحَمْ

أي: إلى الملك القرم ابن الهمام ليث الكتيبة. وقال عكرمة وشهر بن حوشب: الذين في قلوبهم مرض هم الزناة.

وقوله: ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ﴾؛ أي: في المدينة، معطوف على جواب القسم، و﴿ثُمَّ﴾ للدلالة على أن الجلاء ومفارقة جوار الرسول أعظم ما يصيبهم. وعبارة «الكشاف» هنا: إنما عطف بـ﴿ثُمَّ﴾؛ لأن الجلاء عن الأوطان كان أعظم عليهم من جميع ما أصيبوا به، فتراخت حاله عن الحال المعطوف عليه. اهـ يعني: أنها للتفاوت الرتبي، والدلالة على أن ما بعدها أبعد مما قبلها، وأعظم وأشد عندهن. اهـ «شهاب»؛ أي: لا يساكنونك في المدينة ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ أي: زماناً أو جواراً قليلاً ريثما - قدر ما - يتبين حالهم من الانتهاء وعدمه، فيهلكوا إن لم ينتهوا،

وفي «بحر العلوم» ريثما يرتحلون بأنفسهم وعيالهم.

ومعنى الآية: والله لئن لم يكف أهل النفاق الذين يستسرون الكفر، ويظهرون الايمان، وأهل الريب الذين غلبتهم شهواتهم، وركنوا إلى الخلاعة والفجور، وأهل الإرجاف في المدينة الذين ينشرون الأخبار الملفقة الكاذبة التي فيها إظهار عورات المسلمين، وإبراز ما استكن من خفاياهم، كضعف جنودهم، وقلة سلاحهم، وكراعهم، ونحو ذلك مما في إظهاره مصلحة للعدو، وحضد لشوكة المسلمين.. لنسلطنك عليهم، ولندعونك إلى قتالهم وإجلائهم عن البلاد، فلا يسكنون معك فيها إلا قليلاً، وتخلو المدينة منهم بالموت أو بالإخراج.

والخلاصة: أن الله سبحانه قد توعد أصنافاً ثلاثة من الناس بالقتال والقتل، أو النفي من البلاد، وهم:

١ ـ المنافقون الذين يؤذون الله سراً.

٢ ـ مَنْ في قلوبهم مرض، فيؤذون المؤمنين باتباع نسائهم.

٣ ـ المرجفون الذين يؤذون النبي ﷺ بنحو قولهم: غلب محمد، وسيخرج محمد من المدينة، وسيؤخذ أسيراً إلى نحو ذلك مما يراد به إظهار ضعف المؤمنين، وسخط الناس منهم.

وعبارة النسفي هنا: والمعنى: لئن لم ينته المنافقون عن عداوتهم وكيدهم، والفسقة عن فجورهم، والمرجفون عما يؤلِّفون من أخبار السوء.. لنأمرنك بأن تفعل الأفعال التي تسؤهم، ثم بأن نضطرهم إلى طلب الجلاء من المدينة، وإلى أن لا يساكنوك فيها إلا زماناً قليلاً ريثما يرتحلون، فسُمِّي إغراء، وهو التحريش على سبيل المجاز.

ثم بيَّن مآل أمرهم من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، فقال: ﴿مَّلْعُونِينَ﴾ حال من مقدر حذف هو وعامله، تقديره: يخرجون منها حال كونهم مطرودين عن الرحمة والمدينة، أو حال من فاعل ﴿لَا يُجَاوِرُونَكَ﴾ على أن حرف الاستثناء داخل على الظرف والحال معاً؛ أي: لا يجاورنك إلا حال كونهم ملعونين، ولا[1] يجوز أن

---

(١) البيضاوي.

ينتصب بـ﴿أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟﴾ الآتي؛ لأن ما بعد الشرط لا يعمل فيما قبلها.

أي: يخرجون منها حال كونهم ملعونين مطرودين ﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟﴾؛ أي: في أيِّ مكان وجدوا وأدركوا ﴿أُخِذُوا۟﴾؛ أي: مسكوا ﴿وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾ والتشديد يدل على التكثير، وبه قرأ الجمهور. وقرأت فرقة بالتخفيف، فيكون ﴿تَقْتِيلًا﴾ مصدراً على غير قياس المصدر، يعني: الحكم فيهم: الأخذ والقتل على جهة الأمر، فما انتهوا عن ذلك، كما في تفسير «أبي الليث».

وقال محمد بن سيرين: فلم ينتهوا، ولم يغر الله بهم، والعفو عن الوعيد جائز لا يدخل في الخلف، كما في «كشف الأسرار» وقيل[1]: هذا دعاء عليهم بأن يأخذوا ويقتلوا تقتيلاً، وهو أولى. وقيل: معنى الآية: إنهم إن أصروا على النفاق.. لم يكن لهم مقامٌ بالمدينة إلا وهم مطردون.

والمعنى[2]: أي في ذلك الوقت القليل الذي يجاورونك فيه يكونون مطرودين من باب الله تعالى وبابك، وإذا خرجوا لا ينفكون عن المذلة، ولا يجدون ملجأً، بل أينما يكونوا يطلبوا ويؤخذوا ويقتلوا تقتيلاً.

ثم بين أن هذا الحكم عليهم وعلى أمثالهم بنحو هذا هو شرعة الله تعالى في أشباههم من قبل، فهو ليس ببدع فيهم، كما قال: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ مصدر مؤكد حذف عامله وجوباً تقديره: سن الله سبحانه ذلك الحكم من لعن المنافقين، وأخْذِهم، وقتلهم أينما ثقفوا ﴿فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟﴾ ومضوا ﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبلكم أيها الأمة المحمدية؛ أي: سن الله ذلك في الأمم الماضية سنة، وجعله طريقة مسلوكةً من جهة الحكمة، وهي أن يقتل الذين نافقوا الأنبياء وسَعَوا في توهين أمرهم بالإرجاف ونحوه أينما ثقفوا.

﴿وَلَن تَجِدَ﴾ يا محمد ﴿لِسُنَّةِ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وعادته في خلقه ﴿تَبْدِيلًا﴾؛ أي: تغييراً أصلاً؛ أي: لا يبدِّلها لابتنائها على أساس الحكمة التي عليها يدور فلك التشريع، أو لا يقدر أحد على أن يبدلها؛ لأن ذلك مفعول له لا محالة، بل هي ثابتة دائمة في أمثال هؤلاء في الخلف والسلف.

---

(١) الشوكاني. (٢) المراغي.

والمعنى: أي إن سنته تعالى في المنافقين في كل زمان إذا استمروا في كفرهم وعنادهم، ولم يرجعوا عما هم عليه أن يسلط عليهم أهل الإيمان، فيذلوهم ويقهروهم، وهذه السنة لا تغير ولا تبدل؛ لابتنائها على الحكمة والمصلحة، ولا يقدر غيره على تغييرها. ﴿يَسْـَٔلُكَ﴾ يا محمد ﴿ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ﴾؛ أي: عن وقت قيامها وحصولها، والساعة[1]: جزء من أجزاء الزمان، ويعبَّر بها عن القيامة تشبيهاً بذلك لسرعة حسابها، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾.

كان المشركون يسألونه ﷺ عن ذلك استعجالاً بطريق الاستهزاء والتعنت والإنكار، واليهود امتحاناً لما أن الله تعالى عمّى وقتها؛ أي: أخفاه في التوراة وسائر الكتب، وقيل: السائلون عن الساعة هنا هم أولئك المنافقون والمرجفون لَمَّا توعدوا بالعذاب.. سألوا عن الساعة استبعاداً وتكذيباً.

﴿قُلْ﴾ يا محمد جواباً لهم ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا﴾؛ أي: علم وقت مجيئها ﴿عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ سبحانه وتعالى، لا يطلع عليه ملكاً مقرباً، ولا نبياً مرسلاً، كما قال في آية أخرى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾. ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾؛ أي: وأيُّ شيء يجعلك دارياً وعالماً بوقت قيامها، والاستفهام للإنكار المضمن معنى التعجب والنفي؛ أي: لا يعلمك بوقت مجيئها شيء أصلاً، فأنت لا تعرفه، وليس من شرط النبي أن يعلم الغيب بغير تعليم من الله تعالى.

﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ﴾؛ أي: قيامها ﴿تَكُونُ﴾ شيئاً ﴿قَرِيبًا﴾، وهو[2] خبر ﴿تَكُونُ﴾ على حذف موصوف؛ أي: شيئاً قريباً. وقيل: التقدير: قيام الساعة، فروعيت الساعة في تأنيث ﴿تَكُونُ﴾، وروعي المضاف المحذوف في تذكير ﴿قَرِيبًا﴾. وقيل: كثر استعمال قريباً استعمال الظروف، فهو ظرف في موضع الخبر. اهـ.

أو ﴿تَكُونُ﴾ تامة، والظاهر كما عليه الجماهير أن قوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ جملة مستقلة، وقوله: ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ﴾ جملة مستقلة أيضاً، فتأمل.

وفيه تهديد للمستعجلين، وإسكات للمتعنتين، والخطاب لرسول الله ﷺ لبيان أنها إذا كانت محجوبة عنه لا يعلم وقتها، وهو رسول الله.. فكيف بغيره من

---

(١) روح البيان. (٢) الفتوحات.

الناس؟!

قالوا: مِنْ أشراط الساعة أن يقول الرجل: أفعل غداً، فإذا جاء غد.. خالف قولُه فعلَه، وأن ترفع الأسرار، وتوضع الأخيار، ويرفع العلم، ويظهر الجهل، ويفشو الزنا والفجور، ورقص القينات، وشرب الخمور، ونحو ذلك من موت الفجأة، وعلو أصوات الفساق في المساجد.

والمعنى[1]: أي يكثر الناس هذا السؤال متى تقوم الساعة، فالمشركون يسألون عن ذلك استعجالاً لها على طريق التهكم والاستهزاء، والمنافقون يسألون سؤال المتعنت العالم بما يجيب به الرسول، واليهود يسألون سؤال امتحانٍ، واختبار ليعلموا أيجيب بمثل ما في التوراة من ردِّ أمرها إلى الله، أم يجيب بشيءٍ آخر؟ فلقنه الله الجواب عن هذا بجعل ردِّ ذلك إليه، فقال: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ الذي أحاط علمه بكل شيء، ولم يطلع عليها ملكاً مقرباً، ولا نبياً مرسلاً.

ثم أكد نفي علمها عن أحد غيره بقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾، وأيُّ شيءٍ يعلمك وقت مجيئها وقيامها؛ أي: لا يعلمك به أحد أبداً. ثم أخبر عن قرب وقوعها بقوله: ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾؛ أي: لعلها توجد وتحقق بعد وقت قريب، ونحو الآية قوله: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾، وقوله: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾، وقوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾.

ثم بين حال السائلين عنها المنكرين لها بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ به على الإطلاق، لا منكري الحشر، ولا معاندي الرسول فقط؛ أي: طردهم وأبعدهم من رحمته العاجلة والآجلة، ولذلك يستهزئون بالحق الذي لا بد لكل خلق من انتهائه إليه، والاهتمام بالاستعداد له. ﴿وَأَعَدَّ﴾؛ أي: هيأ ﴿لَهُمْ﴾؛ أي: للكافرين مع ذلك ﴿سَعِيرًا﴾؛ أي: ناراً مسعورةً موقودةً شديدة الاتقاد، يقاسونها في الآخرة حالة كونهم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾؛ أي: مقدراً خلودهم ومكثهم في السعير ﴿أَبَدًا﴾؛ أي: دائماً؛ أي: زمناً لا انقضاء، ولا نهاية، ولا آخر له. وأكَّد الخلود بالتأبيد والدوام مبالغةً في ذلك، وحالة كونهم ﴿لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يلي أمرهم،

---

(١) المراغي.

ويحفظهم من دخول العذاب من أول الأمر ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم ويخلصهم وينقذهم من العذاب بعد دخولها.

والمعنى[1]: أي إن الله أبعد الكافرين به من كل خير، وأقصاهم من كل رحمة، وأعد لهم في الآخرة ناراً تتقد وتتسعر ليصليهموها ماكثين فيها أبداً إلى غير نهاية.

ثم أيأسهم من وجود ما يدفع عنهم العذاب من الولي والنصير بقوله: ﴿لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾؛ أي: لا يجدون حينئذ من يستنقذهم من السعير، وينجيهم من عذاب الله تعالى بشفاعة أو نصرة، كما هي الحال في الدنيا لدى الظلمة؛ إذ ربما وجد النصير والشفيع الذي يخلِّص فيها من الورطات، ويدفع المصائب والنكبات.

وقوله: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾ ظرف لقوله: ﴿لَا يَجِدُونَ﴾، وقيل: لـ﴿خَالِدِينَ﴾، وقيل: لـ﴿نَصِيرًا﴾، وقيل: لفعل مقدر، وهو: اذكر؛ أي: لا يجدون ولياً ولا نصيراً حين تصرف وتحول وجوههم في النار من جهة إلى جهة أخرى، كاللحم يشوى في النار، أو يطبخ في القدر، فيدور به الغليان من جهة إلى جهة، ومن حال إلى حال، أو يطرحون فيها منكوسين مقلوبين، وتخصيص الوجوه بالذكر للتعبير عن الكل، وهي الجملة بأشرف الأجزاء وأكرمها، ويقال: تحول وجوههم من الحسن إلى القبح، ومن حال البياض إلى حال السواد.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿تُقَلَّبُ﴾ مبنياً للمفعول. وقرأ الحسن وعيسى وأبو جعفر الرؤاسي بفتح التاء؛ أي: ﴿تتقلب﴾، وحكاها ابن عطية عن أبي حيوة، وقال ابن خالويه عن أبي حيوة: ﴿نُقلِّب﴾ بالنون ﴿وجوههم﴾ بالنصب، وحكاها ابن عطية أيضاً عن أبي حيوة، وخارجة. زاد صاحب «اللوامح» أنها قراءة عيسى البصري. وقرأ عيسى الكوفي كذلك، إلا أن بدل النون تاء، وفاعل ﴿تقلب﴾ ضمير يعود على ﴿سعير﴾، أو على جهنم، أسند إليهما اتساعاً، وقراءة ابن أبي عبلة ﴿تتقلب﴾ بتائين.

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

وقوله: ﴿يَقُولُونَ﴾ استئناف[1] بياني واقع في جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: فماذا يصنعون عند ذلك؟ فقيل: يقولون متحسرين على ما فاتهم: ﴿يَٰلَيۡتَنَآ﴾؛ أي: يا هؤلاء ليتنا ﴿أَطَعۡنَا ٱللَّهَ﴾؛ أي: نتمنى أن نطيع الله في دار الدنيا فيما أمرنا به، ونهانا عنه، فالمنادى محذوف كما قدرنا، ويجوز أن تكون ﴿يا﴾ لمجرد التنبيه من غير قصد إلى تعيين المنبه ﴿وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ فيما دعانا إليه من الحق، فلن نبتلى بهذا العذاب، فتمنوا حين لا ينفعهم التمني؛ أي: ويقولون إذ ذاك على طريق التمني: ليتنا أطعنا الله في الدنيا، وأطعنا رسوله فيما جاءنا به من أمر ونهي، فما كنا نبتلى بهذا العذاب، بل كنا مع أهل الجنة في الجنة، فيا لها من حسرة وندامة ما أعظمها وأجلها:

نَـدِمَ ٱلْـبُـغَـاةُ وَلاَتَ سَـاعَـةُ مَـنْـدَمِ   وَٱلْـبَـغْـيُ مَـرْتَـعُ مُـبْـتَـغِـيْـهِ وَخِـيْـمُ

ونحو الآية قوله: ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ۝٢٧﴾، وقوله: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۝٢﴾.

وهذه الألف في[2] ﴿الرسولا﴾ والألف التي ستأتي في ﴿السبيلا﴾ هي الألف التي تقع في الفواصل، ويسميها النحاة: ألف الإطلاق؛ لمد الصوت بها؛ لأن أواخر آيات هذه السورة الألف، والعرب تحفظ هذا في خطبها وأشعارها.

ثم ذكر بعض معاذيرهم بإبقائهم التبعة على من أضلوهم من كبرائهم وسادتهم بقوله: ﴿وَقَالُواْ﴾؛ أي: وقال الأتباع من الكافرين، فهو معطوف على ﴿يَقُولُونَ﴾، والعدول[3] إلى صيغة الماضي للإشعار بأن قولهم هذا ليس مستمراً كقولهم السابق، ولا مسبباً عنه، بل هو ضرب اعتذار أرادوا به ضرباً من التشفِّي بمضاعفة عذاب الذين ألقوهم في تلك الورطة، وإن علموا عدم قبوله في حق خلاصهم منها.

أي: يقولون يومئذ وهم في جهنم: ﴿رَبَّنَآ﴾؛ أي: يا مالك أمرنا ﴿إِنَّآ أَطَعۡنَا﴾ وامتثلنا ﴿سَادَتَنَا﴾؛ أي: أئمتنا في الضلالة، يعنون: قادتهم ورؤساءهم الذين لقنوهم الكفر، وأمروهم به ﴿وَكُبَرَآءَنَا﴾؛ أي: عظماءنا منزلةً في الكفر والدنيا؛ أي:

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) أبو السعود.

وافقناهم فيما هم عليه من الكفر. والسادة: جمع سيد، وهو الإمام الذي يأمرهم بالكفر ويلقنهم، والكبراء: جمع كبير، وهو مقابل الصغير. والمراد: الكبير رتبةً وحالاً، والتعبير عنهم[1] بعنوان السيادة والكبر لتقوية الاعتذار، وإلا فهم في مقام التحقير والإهانة ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾؛ أي: صرفونا عن طريق الإسلام والتوحيد بما زينوا لنا الكفر والشرك.

والمعنى: وقال الأتباع من الكفرة - وهم في جهنم -: ربنا إنا أطعنا أئمتنا في الضلالة، وكبراءنا في الشرك، فأضلونا السبيل، وأزالونا عن محجة الحق، وطريق الهدى من الإيمان بك، والإقرار بوحدانيتك، والإخلاص لطاعتك في الدنيا، وفي هذا إحالة الذنب على غيرهم، كما هي عادة المذنب يفعل ذلك، وهو يعلم أنه لا يجد به نفعاً.

وفي هذا[2]: زجر عن التقليد شديد، وكم في الكتاب العزيز من التنبيه على هذا، والتحذير منه، والتنفير عنه، ولكن لمن يفهم معنى كلام الله تعالى، ويقتدي به، وينصف من نفسه، لا لمن هو من جنس الأنعام في سوء الفهم، ومزيد البلادة، وشدة التعصب.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿سَادَتَنَا﴾ جمعاً على وزن: فعلة، أصله: سودة، وهو شاذ في جمع فيعل، فإن جعلت جمع سائد قرب من القياس، وقرأ الحسن وأبو رجاء وقتادة والسلمي وابن عامر والعامة في الجامع بالبصرة: ﴿ساداتنا﴾ على الجمع بالألف والتاء، وهو لا ينقاس.

قال في «بحر العلوم»: قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وحفص والكسائي ﴿وأطعنا الرسول فأضلونا السبيل﴾ بغير ألف في الوصل، وقرأ حمزة وأبو عمرو ويعقوب في الوقف أيضاً. والباقون: بالألف في الحالين تشبيهاً للفواصل بالقوافي، فإن زيادة الألف لإطلاق الصوت، وفائدتها الوقف. والدلالة على أنَّ الكلام قد انقطع، وأن ما بعده مستأنف، وأما حذفها: فهو القياس؛ أي: في الوصل والوقف.

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) البحر المحيط.

ثم ذكر أنهم يدعون ربهم على طريق التشفي ممن أوردهم هذا المورد الوخيم أن يضاعف لهم العذاب؛ إذ كانوا سبب ضلالهم ووقوعهم في بلواهم، وإن كانوا يعلمون أن ذلك لا يخلصهم مما هم فيه، فقالوا: ﴿رَبَّنَآ﴾؛ أي: يا مالك أمرنا. تصدير الدعاء بالنداء المكرر للمبالغة في الجؤار، واستدعاء الإجابة ﴿ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾؛ أي: مثلي العذاب الذي أوتيناه؛ لأنهم ضلوا وأضلوا، فضعف لضلالهم في أنفسهم عن طريق الهداية، وضعف لإضلالهم غيرهم عنها ﴿وَٱلْعَنْهُمْ﴾؛ أي: واطردهم عن رحمتك ﴿لَعْنًا كَبِيرًا﴾؛ أي: طرداً شديداً عظيماً، وأصل الكبير والعظيم أن يستعملا في الأعيان، ثم استعير للمعاني، كما هنا.

أي: ربنا عذبهم مثلي عذابنا الذي تعذبنا به، مثلاً على ضلالهم، ومثلاً على إضلالهم إيانا، واخزهم خزياً عظيماً، واطردهم من رحمتك.

وقرأ الجمهور: ﴿كَثِيرًا﴾ بالثاء المثلثة؛ أي: لعناً كثير العدد، عظيم القدر، شديد الموقع؛ أي: العنهم اللعن على إثر اللعن؛ أي: مرة بعد مرة، ويشهد للكثرة قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، واختار هذه القراءة أبو حاتم وأبو عبيد والنحاس لمناسبتها للسياق، وقرأ ابن مسعود وأصحابه وحذيفة بن اليمان وابن عامر وعاصم ويحيى بن وثاب والأعرج بخلاف عنه: ﴿كَبِيرًا﴾ بالياء الموحدة؛ أي: كبيراً في نفسه، شديداً عليهم ثقيل الموقع.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله ورسوله ﴿لَا تَكُونُواْ﴾ في أن تؤذوا رسول الله ﷺ. قيل: نزلت في شأن زينب، وما سمع فيه من مقالة الناس، كما سبق. وعن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قسم النبي ﷺ قسماً، فقال رجل: إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله، فأتيت النبي ﷺ، فأخبرته، فغضب حتى رأيت الغضب في وجهه، ثم قال: «يرحم الله موسى، قد أوذي بأكثر من هذا فصبر».

﴿كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ﴾ عليه السلام، كقارون وأشياعه وغيرهم من سفهاء بني إسرائيل، هو قولهم: إنَّ به أدرة، أو برصاً، أو عيباً، وفيه تأديب للمؤمنين، وزجر لهم عن أن يدخلوا في شيء من الأمور التي تؤذي رسول الله ﷺ ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: فأظهر الله سبحانه براءة موسى عليه السلام: ﴿مِمَّا قَالُواْ﴾ في حقه؛ أي: من مضمون ما قالوا، ومؤدَّاه الذي هو الأمر المعيب، فإن البراءة تكون من العيب، لا

من القول، وإنما الكائن من القول التخلص. ﴿وَكَانَ﴾ موسى عليه السلام ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه ﴿وَجِيهًا﴾؛ أي: ذا جاهٍ ومنزلة ودرجة وقدر، فكيف يوصف بعيب ونقيصة. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: وجيهاً أي حَظِيًّا، لا يسأل الله شيئاً إلا أعطاه، وفيه إشارة إلى أن موسى عليه السلام كان في الأزل عند الله مقضيّاً له بالوجاهة، فلا يكون غير وجيه بتعيير بني إسرائيل إياه، كما قيل:

إِنْ كُنْتُ عِنْدَكَ يَا مَوْلَايَ مُطَّرَحاً ... فَعِنْدَ غَيْرِكَ مَحْمُوْلٌ عَلَىٰ ٱلْحِدَقِ

واختلفوا فيما أوذي به موسى[1]، فروى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «كانت بنو إسرائيل يغتسلون عراة، ينظر بعضهم إلى سوأ بعض، وكان موسى عليه السلام يغتسل وحده، فقالوا: والله ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلا أنه آدر. قال: فذهب مرة يغتسل، فوضع ثوبه على حجر، ففر الحجر بثوبه، قال: فجمح - أسرع - موسى بأثره يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتى نظرت بنو إسرائيل إلى سوأة موسى، فقالوا: واللّهِ ما بموسى من بأس، فقام الحجر حتى نظروا إليه. قال: فأخذ ثوبه، فطفق الحجر ضرباً». قال أبو هريرة: والله إن بالحجر ندباً - أثراً - ستة أو سبعة من ضرب موسى الحجر. أخرجه البخاري ومسلم.

قال في «إنسان العيون»: كان موسى عليه السلام إذا غضب يخرج شعر رأسه من قلنسوته، وربما اشتعلت قلنسوته ناراً لشدة غضبه، ولشدة غضبه لما فر الحجر بثوبه.. ضربه مع أنه لا إدراك له، ووُجِّه بأنه لما فرَّ.. صار كالدابة، والدابة إذا جمحت بصاحبها يؤدبها بالضرب. انتهى.

وقيل في إذاية موسى عليه السلام: إن قارون دفع إلى زانية مالاً عظيماً على أن تقول على رأس الملأ من بني إسرائيل: إني حامل من موسى بالزنا، فأظهر الله نزاهته عن ذلك، بأن أقرت الزانية بالمصانعة بينها وبين قارون، وفعل بقارون ما فعل من الخسف، كما فصِّل في سورة القصص.

ومعنى الآية[2]: يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله، لا تؤذوا الرسول بقولٍ يكرهه، ولا بفعلٍ لا يحبه، ولا تكونوا أمثال الذين آذوا موسى نبيَّ الله، فرموه

---

(١) الخازن.

(٢) المراغي.

بالعيب كذباً وباطلاً، فبرأه الله مما قالوه من الكذب والزور، بما أظهر من الأدلة على كذبهم، وكان موسى ذا وجاهة وكرامة عند ربه، لا يسأله شيئاً إلا أعطاه إياه.

ولم يعين[1] لنا الكتاب الكريم ما قالوا في موسى، ومن الخير أن لا نعينه حتى لا يكون رجماً بالغيب دون أن يكون عليه دليل. وقد اختلفوا فيه، أهو عيب في بدنه، كبرص وأدْره، أم هو عيب في خلقه؟ فقد روَوا أنَّ قارون حرَّض بغياً على قذفه بنفسها، فعصمه الله من كذبها، وقيل: إنهم اتهموه بقتل هارون لما خرج معه إلى الطور، ومات هناك، ثمَّ استبان لهم بعد أنه مات حتف أنفه.

روي عن عبد الله بن مسعود قال: قسم رسول الله ﷺ ذات يوم قسماً، فقال رجل من الأنصار: إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله، فاحمر وجهه، ثم قال: «رحمة الله على موسى، فقد أوذي بأكثر من هذا، فصبر».

وروى أحمد عنه أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «لا يبلِّغني أحد عن أحد من أصحابي شيئاً، فأني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر» ومن هذا يتبين أن إيذاءه كان بالقدح في أعماله وتصرفاته، لا بالعيب في بدنه كما روي.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ بالنون على الظرفية المجازية. وقرأ ابن مسعود والأعمش وأبو حيوة: ﴿وكان عبداً﴾ بالباء الموحدة من العبودية ﴿لله﴾: بلام الجر، و﴿عبداً﴾: خبر ﴿كَانَ﴾، و﴿وَجِيهًا﴾ صفته. قال ابن خالويه: صليت خلف ابن شنبوذ في شهر رمضان، فسمعته يقرأ: ﴿وكان عبداً لله﴾ على قراءة ابن مسعود.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسوله ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ أي: خافوا الله في رعاية حقوقه وحقوق عباده، فمن الأول: الامتثال لأمره، ومن الثاني: ترك الأذى، لا سيما في حق رسوله ﷺ وقولوا في أيِّ شأن من الشؤون ﴿قَوْلًا سَدِيدًا﴾؛ أي: قولاً مستقيماً عدلاً حقاً موافقاً للصواب. قال قتادة ومقاتل: يعني: قولوا قولاً سديداً في شأن زيد وزينب، ولا تنسبوا النبي ﷺ إلى ما لا يحل. وقال عكرمة: إن القول السديد لا إله إلا الله.

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

وقيل: هو الذي يوافق ظاهره باطنه. وقيل: هو ما أريد به وجه الله تعالى، دون غيره، وقيل: هو الإصلاح بين الناس.

والظاهر من الآية[1]: أنه أمرهم بأن يقولوا قولاً سديداً في جميع ما يأتونه ويذرونه، فلا يخص ذلك نوعاً دون نوع، وإن لم يكن في اللفظ ما يقتضي العموم، فالمقام يفيد هذا المعنى؛ لأنه أرشد سبحانه عباده إلى أن يقولوا قولاً يخالف قول أهل الأذى.

وقصةُ زينب، وبعثُهم على أن يسدِّدوا قولهم في كل باب؛ لأن حفظ اللسان وسداد القول رأس الخير كله.

حكي أن يعقوب بن إسحاق المعروف بابن السكيت ـ من أكابر علماء العربية ـ جلس يوماً مع المتوكل، فجاء المعتز والمؤيد ابنا المتوكل، فقال: أيما أحب إليك، ابناي أم الحسن والحسين؟ قال: واللّهِ إن قنبراً خادم علي رضي الله عنه خير منك ومن ابنيك، فقال: سلوا لسانه من قفاه، ففعلوا، فمات في تلك الليلة، ومن العجب أنه أنشد قبل ذلك للمعتز والمؤيد، وكان يعلِّمها فقال:

يُصَابُ ٱلْفَتَىٰ مِنْ عَثْرَةٍ بِلِسَانِهِ ... وَلَيْسَ يُصَابُ ٱلْمَرْءُ مِنْ عَثْرَةِ ٱلرِّجْلِ

فَعَثْرَتُهُ فِيْ ٱلْقَوْلِ تُذْهِبُ رَأْسَهُ ... وَعَثْرَتُهُ فِيْ ٱلرِّجْلِ تَبْرَا عَلَىٰ مَهْلِ

ثم ذكر ما لهؤلاء الذين امتثلوا الأمر بالتقوى والقول السديد من الأجر، فقال: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾؛ أي: يوفقكم للأعمال الصالحة، أو يصلحها بالقبول والإثابة عليها ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾؛ أي: يجعلها مغفورة مكفرة باستقامتكم في القول والفعل، وفيه إشارة إلى أن من وفقه الله لصالح الأعمال، فذلك دليل على أنه مغفور له ذنوبه.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿و﴾ يطع ﴿رسوله﴾ محمداً ﷺ في الأوامر والنواهي التي من جملتها هذه التكليفات، والطاعة: هي موافقة الأمر، والمعصية: هي مخالفته ﴿فَقَدْ فَازَ﴾ وظفر في الدارين، والفوز: الظفر بالمطلوب مع السلامة من المكروه ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾؛ أي: عاش في الدنيا محموداً، وفي الآخرة

---

(١) الشوكاني.

مسعوداً، أو نجا من كل ما يخاف، ووصل إلى كل ما يرجو، وهذه الجملة مستأنفة مقررة لما قبلها.

وإجمال معنى الآية: يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله أن تعصوه، فتستحقوا بذلك عقوبته، وقولوا في رسوله والمؤمنين قولاً قاصداً غير جائر، حقاً غير باطل، يوفقكم لصالح الأعمال، ويغفر لكم ذنوبكم، فلا يعاقبكم عليها، ومن يطع الله ورسوله، فيعمل بما أمره به، وينتهِ عما نهاه عنها، ويقل السديد من القول.. فقد ظفر بالمثوبة العظمى، والكرامة يوم العرض الأكبر.

والخلاصة: أنه سبحانه أمر المؤمنين بشيئين: الصدق في الأقوال، والخير في الأفعال. وبذلك يكونوا قد اتقوا الله وخافوا عقابه، ثم وعدهم على ذلك بأمرين:

١ - صلاح الأعمال؛ إذ بتقواه يصلح العمل، والعمل الصالح يرفع صاحبه إلى أعلى عليين، ويجعله يتمتع بالنعيم المقيم في الجنة خالداً فيها أبداً.

٢ - مغفرة الذنوب، وستر العيوب، والنجاة من العذاب العظيم.

ثم لما فرغ سبحانه من بيان ما لأهل الطاعة من الخير بعد بيان ما لأهل المعصية من العذاب.. بيَّن عظم شأن التكاليف الشرعية، وصعوبة أمرها فقال: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ...﴾ الآية. قال ابن عباس[1]: أراد بالأمانة: الطاعة والفرائض التي فرضها الله على عباده، عرضها على السموات والأرض والجبال على أنها إذا أدُّوها.. أثابهم، وإن ضيعوها.. عذبهم. وقال ابن مسعود: الأمانة: أداء الصلوات، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، وصدق الحديث، وقضاء الدين، والعدل في المكيال والميزان، وأشد من هذا كله: الودائع. وقيل: جميع ما أمروا به ونهوا عنه. وقيل: هي الصوم، وغسل الجنابة، وما يخفى من الشرائع، كالنية في الأعمال.

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: أول ما خلق الله من الإنسان الفرج، وقال: هذه الأمانة استودعكها، فالفرج أمانة، والأذن أمانة، والعين أمانة، واليد أمانة، والرجل أمانة، ولا إيمان لمن لا أمانة له.

---

(١) الخازن.

وفي رواية عن ابن عباس: هي أمانات الناس، والوفاء بالعهود، فحقٌّ على كل مؤمن أن لا يغش مؤمناً ولا معاهداً في شيء، لا في قليل ولا كثير، فعرض الله تعالى هذه الأمانة على أعيان السموات والأرض والجبال، وهذا قول جماعة من التابعين، وأكثر السلف. فقال لهن: أتحملن هذه الأمانة بما فيها؟ قلن: وما فيها؟ قال: إن أحسنتن.. جوزيتن، وإن عصيتن.. عوقبتن، قلن: لا يا رب، نحن مسخرات لأمرك، لا نريد ثواباً ولا عقاباً، وقلن ذلك خوفاً وخشيةً وتعظيماً لدين الله تعالى أن لا يقوموا بها لا معصية ولا مخالفة لأمره. وكان العرض عليهن تخييراً لا إلزاماً، لو ألزمهن لم يمتنعن من حملها. والجمادات كلها خاضعة لله عز وجل، مطيعة لأمره، ساجدة له.

قال بعض أهل العلم: ركب الله تعالى فيهن العقل والفهم حين عرض عليهن الأمانة، حتى عقلن وأجبن بما أجبن. وقيل: المراد من العرض على السموات والأرض والجبال: هو العرض على أهلها من الملائكة دون أعيانها. والقول الأول أصح. وهو قول أكثر العلماء.

وقوله: ﴿إِنَّآ﴾ هذه النون[1] نون العظمة والكبرياء عند العلماء، فإن الملوك والعظماء يعبِّرون عن أنفسهم بصيغة الجمع، ونون الأسماء والصفات عند العرفاء. فإنها متعددة ومتكثرة ﴿عَرَضْنَا﴾؛ أي: أظهرنا وأبرزنا ﴿ٱلْأَمَانَةَ﴾؛ أي: التكاليف الشرعية ﴿عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾ على أنَّ من أداها فله الثواب، ومن لم يؤدِّها.. فله العقاب. وكان هذا العرض عرض تخيير، لا عرض إلزام ﴿فَأَبَيْنَ﴾؛ أي: فامتنعت السموات والأرض والجبال عن قبولها على هذا الشرط المذكور. والإباء: شدة الامتناع، فكل إباء، امتناع، وليس كل امتناع إباءً.

وأتى بضمير هذه كضمير الإناث؛ لأن جمع التكسير غير العاقل يجوز فيه ذلك، وإن كان مذكراً، وإنما ذكرنا ذلك لئلا يتوهم أن قد غلَّب المؤنث، وهو السموات على المذكر، وهو الجبال.

واعلم: أنه لم يكن إباؤهن كإباء إبليس في قوله تعالى: ﴿أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ

---

(١) روح البيان.

﴿ٱلسَّـٰجِدِينَ﴾، لأن السجود كان هناك فرضاً، وههنا الأمانة كانت عرضاً، والإباء هناك كان استكباراً، وههنا كان استصغاراً لقوله تعالى: ﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾؛ أي: خفن من الأمانة أن لا يؤدينها. اهـ «فتوحات».

﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾؛ أي: وخفن من الأمانة وحملها، وقلن: يا رب، نحن مسخرات بأمرك، لا نريد ثواباً ولا عقاباً، ولم يكن هذا القول منهن من جهة المعصية والمخالفة، بل من جهة الخوف والخشية من أن لا يؤدين حقوقها، ويقعن في العذاب، ولو كان لهن استعداد ومعرفة بسعة الرحمة، واعتماد على الله تعالى لما أبين.

فإن قلت[1]: ما ذكر من السموات وغيرها جمادات، والجمادات لا إدراك لها، فما معنى عرض الأمانة عليها؟

قلت: للعلماء فيه قولان:

الأول: أنه محمول على الحقيقة، وهو الأنسب بمذهب أهل السنة؛ لأنهم لا يؤولون أمثال هذا، بل يحملونها على الحقيقة خلافاً للمعتزلة **وهو القول الثاني**. وعلى تقدير الحقيقة فيه وجهان: أحدهما أدق من الآخر:

الوجه الأول: أن للجمادات حياةً حقانيةً دلَّ عليها كثير من الآيات، نحو قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾، وقوله: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾، وقوله: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾، وقوله: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ إلى غير ذلك.

والوجه الثاني: أن الله تعالى ركَّب العقل والفهم في الجمادات المذكورة عند عرض الأمانة، كما ركب العقل، وقبول الخطاب في النملة السليمانية، والهدهد، وغيرهما من الطيور والوحوش والسباع، بل وفي الحجر والشجر والتراب، فهن بهذا العقل والإدراك سمعن الخطاب، وأنطقهن الله بالجواب، حيث قال لهن: أتحملن هذه على أن يكون لكُنَّ الثواب والنعيم في الحفظ والأداء، والعقاب في

---

(١) روح البيان.

الغدر والخيانة.

﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ﴾؛ أي: قبلها الإنسان عند عرض تلك الأمانة عليه، والمراد بالإنسان: الجنس، بدليل قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾؛ أي: تكلفها والتزمها مع ما فيه من ضعف البنية، ورخاوة القوة؛ لأن الحمل إنما يكون بالهمة، لا بالقوة.

وقال بعضهم: المراد بالإنسان: آدم عليه السلام. وقد روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: مثِّلت الأمانة كالصخرة الملقاة، ودعيت السموات والأرض والجبال إليها، فلم يقربوا منها، وقالوا: لا نطيق حملها، وجاء آدم من غير أن يدعىٰ، وحرك الصخرة، وقال: لو أمرت بحملها لحملتها، فقلنا له: احمل، فحملها إلى ركبتيه، ثم وضعها، وقال: لو أردت أن ازداد لزدت، فقلنا له: احمل، فحملها إلى حقوه، ثم وضعها وقال: لو أردت أن ازداد لزدت، فقلنا له: احمل، فحملها حتى وضعها على عاتقه، فأراد أن يضعها، فقال الله: مكانك، فإنها في عنقك، وعنق ذريتك إلى يوم القيامة.

﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: إن الإنسان ﴿كَانَ ظَلُومًا﴾ لنفسه بمعصية ربه؛ حيث لم يف، ولم يراع حقها. وقيل: المراد بظلمه لها: إتعابه إياها. ﴿جَهُولًا﴾ بكنه عاقبتها. وجملة ﴿إِنَّ﴾ اعتراض وُسِّط بين الحمل وغايته للإيذان من أول الأمر بعدم وفائه بما عهد تحمله؛ أي: إنه كان مفرطاً في الظلم، مبالغاً في الجهل؛ أي: بحسب غالب أفراده الذين لم يعملوا بموجب فطرتهم السليمة، أو عهودهم يوم الأرواح، دون من عداهم من الذين لم يبدِّلوا فطرة الله، وجروا على ما اعترفوا بقولهم: بلى.

واللام في قوله: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ﴾ ـ الذين ضيعوا الأمانة بعد ما قبلوها ﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ﴾ ـ الذين خانوا في الأمانة بعدم قبولها رأساً ـ لامُ العاقبة متعلقة بـ﴿حملها﴾، وجملة قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ معترضة؛ لأن التعذيب، وإن لم يكن غرضاً له من الحمل، لكان لما ترتب عليه بالنسبة إلى بعض أفراده ترتب الأغراض على الأفعال المعللة بها.. أبرز في معرض الغرض، وهذا إشارة إلى الفريق الأول؛ أي: كان عاقبة حمل الإنسان لها أن يعذِّب الله هؤلاء من أفراده لخيانتهم الأمانة، وخروجهم عن الطاعة بالكلية. قال في «بحر العلوم»: ويجوز أن تكون اللام علة لـ﴿عَرَضْنَا﴾؛ أي: عرضنا عليه ليظهر نفاق المنافقين، وإشراك

المشركين، فيعذبهما الله تعالى.

﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ الذين حفظوا الأمانة، وراعوا حقها. قال في «الإرشاد»: وهذا إشارة إلى الفريق الثاني؛ أي: كان عاقبة حمله لها أن يتوب الله على هؤلاء من أفراده؛ أي: يقبل توبتهم لعدم خلعهم ربقة الطاعة عن رقابهم بالمرة، وتلافيهم فرط منهم من فرطات، قلما يخلو الإنسان عنها بحكم جبليته، وتداركهم لها بالتوبة والإنابة، أو عرضنا عليه ليظهر إيمان المؤمن، فيتوب الله عليه؛ أي: يعود عليه بالمغفرة والرحمة إن حصل منهم تقصير في بعض الطاعات.

وقرأ الأعمش[1]: ﴿فيتوب﴾ بالرفع على جعل العلة قاصرة على ما قبله، وذهب صاحب «اللوامح» أن الحسن قرأ: ﴿ويتوب﴾: بالرفع، ذكره أبو حيان في «البحر».

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾؛ أي: كثير المغفرة والرحمة للمؤمنين من عباده إذا قصروا في شيء مما يجب عليهم، أو كان[2] غفوراً للظلوم، رحيماً على الجهول؛ لأن الله سبحانه وعد عباده بأنه يغفر الظلم جميعاً إلا الظلم العظيم الذي هو الشرك.

وإجمال الآية[3]: أي إنا لم نخلق السموات والأرض على عظم أجرامها، وقوة أسرها، مستعدةً لحمل التكاليف بتلقي الأوامر والنواهي، والتبصر في شؤون الدين والدنيا، ولكن خلقنا الإنسان على ضعف منَّته، وصغر جرمه مستعداً لتلقيها، والقيام بأعبائها، وهو مع ذلك قد غلبت عليه الانفعالات النفسية الداعية إلى الغضب، فكان ظلوماً لغيره، وركِّب فيه حب الشهوات، والميل إلى عدم التدبر في عواقب الأمور، ومن ثَمَّ كلفناه بتلك التكاليف لتكسر سورة تلك القوى، وتخفف من سلطانها عليه، ونكبت من جماحها حتى لا توقعه في مواقع الردى. ثم بين عاقبة تلك التكاليف، فقال: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ...﴾ الخ. أي: وكان عاقبة حمل الإنسان لهذه الأمانة أن يعذب من خانها وأبى الطاعة.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراح.

(٣) المراغي.

والانقياد لها من المنافقين والمنافقات، والمشركين والمشركات، ويقبل توبة المؤمنين والمؤمنات إذا رجعوا إليه وأنابوا، لتلافيهم ما فرط منهم من الجهل، وعدم التبصر في العواقب، وتداركهم ذلك بالتوبة.

ثم علل قبوله لتوبتهم فقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾؛ أي: وكان ستاراً لذنوب عباده، كثير الرحمة بهم، ومن ثَمَّ قبل توبة من أناب إليه، ورجع إلى حظيرة قدسه، وأخلص له العمل، وتلافى ما فرّط منه من الزلات، وأثابه على طاعته بالفوز العظيم. نسألك اللهم أن تتوب علينا، وتغفر لنا ما فرط منا من الزلات، وتثيبنا بالفوز العظيم في الجنات، إنك سميع قريب مجيب الدعوات.

الإعراب

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾: ناصب واسمه. ﴿يُؤْذُونَ ٱللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعوله. ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾: معطوف على الجلالة، والجملة صلة الموصول. ﴿لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾: متعلق بـ﴿لَعَنَهُمُ﴾. ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾: معطوف على ﴿ٱلدُّنْيَا﴾. ﴿وَأَعَدَّ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على الله. ﴿لَهُمْ﴾: متعلق بـ﴿أَعَدَّ﴾. ﴿عَذَابًا﴾: مفعول به. ﴿مُّهِينًا﴾: صفة ﴿عَذَابًا﴾، وجملة ﴿أَعَدَّ﴾ في محل الرفع معطوفة على جملة ﴿لَعَنَهُمُ﴾. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ. ﴿يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة صلة الموصول، ﴿وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾: معطوف على ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. ﴿بِغَيْرِ﴾: متعلق بـ﴿يُؤْذُونَ﴾ وهو مضاف، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل الجر مضاف إليه. ﴿ٱكْتَسَبُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: بغير الذنب الذي اكتسبوه، أو ﴿مَا﴾ مصدرية، والجملة الفعلية صلته، والمصدر المنسبك منها مضاف إليه لـ﴿غير﴾؛ أي: بغير اكتسابهم وجرمهم. ﴿فَقَدِ﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة الخبر بالمبتدأ لما في المبتدأ من العموم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿ٱحْتَمَلُوا۟﴾: فعل وفاعل. ﴿بُهْتَٰنًا﴾: مفعول به. ﴿وَإِثْمًا﴾: معطوف على ﴿بُهْتَٰنًا﴾. ﴿مُّبِينًا﴾: صفة. ﴿كَانَ﴾ والجملة الفعلية في محل الرفع خبر

المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: منادى نكرة مقصودة. ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾: صفة لأي، وجملة النداء مستأنفة ﴿قُل﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد ﷺ. ﴿لِّأَزْوَٰجِكَ﴾: متعلق بـ﴿قُل﴾، وجملة القول جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: معطوفان على ﴿أَزْوَٰجِكَ﴾. ﴿يُدْنِينَ﴾: فعل مضارع وفاعل؛ لأن النون ضمير النسوة. ﴿عَلَيْهِنَّ﴾: متعلق بـ﴿يُدْنِينَ﴾، أو حال مقدمة على صاحبها، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قُل﴾، وقيل: هو مجزوم بلام الأمر المحذوفة؛ أي: ليدنين. ﴿مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾: متعلق بـ﴿يُدْنِينَ﴾. ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر. ﴿يُعْرَفْنَ﴾: فعل مضارع مغيَّر الصيغة مبني على السكون لاتصاله بنون النسوة، ونون النسوة نائب فاعل، والمصدر المنسبك من الفعل مجرور بحرف جر محذوف تقديره: أي: ذلك أدنى وأقرب إلى معرفتهن. ﴿فَلَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿لا﴾: نافية. ﴿يُؤْذَيْنَ﴾: فعل مضارع مغيَّر الصيغة، ونائب فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿يُعْرَفْنَ﴾. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾: فعل ناقص واسمه وخبره. ﴿رَّحِيمًا﴾: خبر ثان له، والجملة مستأنفة.

﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾﴾.

﴿لَّئِن﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿إنْ﴾: حرف شرط. ﴿لَّمْ﴾: حرف جزم. ﴿يَنتَهِ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لَّمْ﴾، وعلامة جزمه حذف حرف العلة، وهي الياء. ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾: فاعل. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: معطوف على ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾، والجملة الفعلية في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها، وجواب ﴿إن﴾ الشرطية محذوف دل عليه جواب القسم، تقديره: إن لم ينتهوا نغرينك بهم، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معترضة لا محل لها من الإعراب؛ لاعتراضها بين القسم وجوابه. ﴿فِى قُلُوبِهِم﴾: خبر مقدم. ﴿مَّرَضٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة صلة الموصول. ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ﴾: معطوف على ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ ﴿فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾: متعلق بـ﴿مرجفون﴾. ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة

للقسم مؤكدة للأولى، وكُرِّرت لإفادة أن المذكور جواب القسم لتقدمه على الشرط، كما هو القاعدة عندهم. ﴿نغرينك﴾: فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، ونون التوكيد الثقيلة حرف لا محل لها من الإعراب، وفاعله ضمير مستتر وجوباً، تقديره: نحن، يعود على الله، والكاف: مفعول به. ﴿بِهِمْ﴾: متعلق بـ﴿نغرينك﴾، والجملة الفعلية جواب القسم، وجملة القسم مع جوابه مستأنفة لا محل لها من الإعراب. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب وتراخ. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يُجَاوِرُونَكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول، معطوف على ﴿نغرينك﴾. ﴿فِيهَآ﴾: متعلق بـ﴿يجاورون﴾، أو حال من فاعل ﴿يجاورون﴾ ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿قَلِيلًا﴾: ظرف زمان متعلق بـ﴿يجاورون﴾؛ لأنه صفة لزمان محذوف؛ أي: زماناً قليلاً، أو منصوب على المصدرية؛ لأنه صفة لمصدر محذوف. إلا جواراً قليلاً.

﴿مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾.

﴿مَّلْعُونِينَ﴾: حال من فاعل ﴿يُجَاوِرُونَكَ﴾، أو حال من مقدر حذف هو وعامله. تقديره: ثم يخرجون ملعونين. ﴿أَيْنَمَا﴾: اسم شرط جازم يجزم فعلين، في محل النصب على الظرفية المكانية، مبني على الفتح لشبهه بالحرف شبهاً معنوياً، والظرف متعلق بالجواب ﴿ما﴾ زائدة زيدت لتأكيد معنى الكلام. ﴿ثُقِفُوٓا۟﴾: فعل ماضٍ مغيَّر الصيغة، ونائب فاعل في محل الجزم بـ﴿أين﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿أُخِذُوا۟﴾: فعل ماض مغيَّر الصيغة، ونائب فاعل في محل الجزم بـ﴿أين﴾ على كونه جواب الشرط لها، وجملة الشرط مستأنفة. ﴿وَقُتِّلُوا۟﴾: فعل ماض مغيَّر الصيغة، ونائب فاعل معطوف على ﴿أُخِذُوا۟﴾. ﴿تَقْتِيلًا﴾: مفعول مطلق مؤكد لعامله. ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾: مفعول مطلق مؤكد لعاملة المحذوف، تقديره: سنَّ الله ذلك الأخذ والقتل في الذين نافقوا من قبل. ﴿فِى ٱلَّذِينَ﴾: متعلق بـ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾، أو بعامله المحذوف. ﴿خَلَوْا۟﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول. ﴿مِن قَبْلُ﴾: متعلق بـ﴿خَلَوْا۟﴾. ﴿وَلَن تَجِدَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لن تجد﴾: ناصب وفعل مضارع منصوب بـ﴿لَن﴾، وفاعله ضمير مستتر يعود على محمد. ﴿لِسُنَّةِ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿تَبْدِيلًا﴾. و﴿تَبْدِيلًا﴾: مفعول به لـ﴿تَجِدَ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿سن﴾ المحذوفة.

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾.

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ﴾: فعل ومفعول به وفاعل. ﴿عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾: متعلق بـ﴿يَسْـَٔلُكَ﴾، والجملة الفعلية مستأنفة مسوقة لحكاية حال المستهزئين من المشركين واليهود ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر. ﴿عِلْمُهَا﴾: مبتدأ. ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾: ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿وَمَا﴾: الواو: عاطفة، ﴿مَا﴾: اسم استفهام للإنكار مبتدأ، وجملة ﴿يُدْرِيكَ﴾ خبره، والجملة الاسمية مستأنفة؛ أي: أيُّ شيء مدر إياك وقت مجيئها؛ أي: لا تعلمه. ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ﴾: ناصب واسمه. ﴿تَكُونُ﴾: فعل مضارع ناقص، واسمها ضمير يعود على ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾ ﴿قَرِيبًا﴾: خبرها؛ أي: شيئاً قريباً، وجملة ﴿تَكُونُ﴾ في محل الرفع خبر ﴿لَعَلَّ﴾، وجملة ﴿لَعَلَّ﴾ في محل نصب مفعول ثانٍ لـ﴿يُدْرِيكَ﴾، والتقدير: وما يدريك قرب قيام الساعة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على الله. ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة. ﴿وَأَعَدَّ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر، معطوف على ﴿لَعَنَ﴾. ﴿لَهُمْ﴾: متعلق بـ﴿أَعَدَّ﴾. ﴿سَعِيرًا﴾: مفعول به. ﴿خَٰلِدِينَ﴾: حال من ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. ﴿فِيهَآ﴾ متعلق بـ﴿خَٰلِدِينَ﴾. ﴿أَبَدًا﴾ ظرف زمان متعلق بـ﴿خَٰلِدِينَ﴾ أيضاً. ﴿لَّا﴾: نافية. ﴿يَجِدُونَ﴾: فعل وفاعل. ﴿وَلِيًّا﴾: مفعول به. لـ﴿يَجِدُونَ﴾، ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾: معطوف على ﴿وَلِيًّا﴾، وجملة ﴿لَّا يَجِدُونَ﴾ حال ثانية من ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. ﴿يَوْمَ﴾: ظرف زمان متعلق بـ﴿يَقُولُونَ﴾، أو بمحذوف، تقديره: اذكر، أو متعلق بـ﴿لَّا يَجِدُونَ﴾. ﴿تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ﴾: فعل مضارع مغيَّر الصيغة ونائب فاعل، والجملة الفعلية في محل الجر بإضافة ﴿يَوْمَ﴾ إليه. ﴿فِى ٱلنَّارِ﴾: متعلق بـ﴿تُقَلَّبُ﴾. ﴿يَقُولُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، أو حال من ضمير ﴿وُجُوهُهُمْ﴾. ﴿يَٰلَيْتَنَآ﴾: ﴿يا﴾: حرف نداء، والمنادى محذوف، تقديره: يا قوم، أو يا هؤلاء. ﴿ليتنا﴾: ناصب واسمه،

وجملة ﴿أَطَعْنَا ٱللَّهَ﴾ خبر ﴿ليت﴾ جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿وَأَطَعْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿ٱلرَّسُولَا۠﴾: مفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَطَعْنَا ٱللَّهَ﴾.

﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾.

﴿وَقَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿رَبَّنَا﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾. ﴿إِنَّآ﴾: ناصب واسمه. ﴿أَطَعْنَا سَادَتَنَا﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾. ﴿وَكُبَرَآءَنَا﴾: معطوف على ﴿سَادَتَنَا﴾، ﴿فَأَضَلُّونَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿أضلونا﴾: فعل وفاعل ومفعول، معطوف على ﴿أَطَعْنَا﴾. ﴿ٱلسَّبِيلَا۠﴾: مفعول ثان لـ﴿أضلونا﴾، وزيادة الألف لإطلاق الصوت، جعلت فواصل الآي كقوافي الشعر، وفائدتها الوقف، والإشارة إلى أن الكلام قد انقطع. ﴿رَبَّنَآ﴾: منادى مضاف حذف منه حرف النداء للتخفيف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾. ﴿ءَاتِهِمْ﴾: فعل دعاء، وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول أول؛ لأنه بمعنى: أعطي. ﴿ضِعْفَيْنِ﴾: مفعول ثانٍ لـ﴿ءَاتِهِمْ﴾. ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾: صفة لـ﴿ضِعْفَيْنِ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾ على كونها جواب النداء. ﴿وَٱلْعَنْهُمْ﴾: فعل دعاء، وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول به، معطوف على ﴿ءَاتِهِمْ﴾. ﴿لَعْنًا﴾: مفعول مطلق. ﴿كَبِيرًا﴾: صفة ﴿لَعْنًا﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾: حرف نداء. ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة، وجملة النداء مستأنفة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: صفة لـ﴿أي﴾. ﴿ءَامَنُوا۟﴾: صلة الموصول. ﴿لَا﴾ ناهية جازمة. ﴿تَكُونُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه، مجزوم بـ﴿لَا﴾ الناهية. ﴿كَٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور خبر ﴿تَكُونُوا۟﴾، وجملة ﴿تَكُونُوا۟﴾ جواب النداء، لا محل لها من الإعراب. ﴿ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة صلة الموصول. ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿برأه الله﴾: فعل ماض ومفعول به وفاعل، معطوف على جملة ﴿ءَاذَوْا۟

مُوسَىٰ﴾. ﴿مِمَّا﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿برأ﴾، ويجوز أن تكون ﴿ما﴾ مصدرية، أو موصولة، ﴿قَالُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: مما قالوه فيه، أو من مضمون قولهم: إن قلنا: إنها مصدرية. ﴿وَكَانَ﴾: فعل ناقص، واسمه مستتر يعود على موسى. ﴿عِندَ اللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿وَجِيهًا﴾. و﴿وَجِيهًا﴾: خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ مستأنفة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١)﴾.

﴿يَا أَيُّهَا﴾: منادى نكرة مقصودة. ﴿الَّذِينَ﴾: صفة لأي، وجملة النداء مستأنفة. ﴿آمَنُوا﴾: صلة الموصول. ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿وَقُولُوا﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿اتَّقُوا﴾. ﴿قَوْلًا﴾: مفعول مطلق. ﴿سَدِيدًا﴾: صفة ﴿قَوْلًا﴾. ﴿يُصْلِحْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله مجزوم بالطلب السابق. ﴿لَكُمْ﴾: متعلق بـ﴿يُصْلِحْ﴾. ﴿أَعْمَالَكُمْ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية جملة جوابية لا محل لها من الإعراب. ﴿وَيَغْفِرْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله تعالى، معطوف على جملة ﴿يُصْلِحْ﴾ ﴿لَكُمْ﴾ متعلق بـ﴿اللَّهَ﴾. ﴿ذُنُوبَكُمْ﴾: مفعول به. ﴿وَمَن﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿مَن﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما. ﴿يُطِعِ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿مَن﴾ الشرطية، مجزوم بـ﴿مَن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها. ﴿اللَّهَ﴾: لفظ الجلالة مفعول به. ﴿وَرَسُولَهُ﴾: معطوف عليه. ﴿فَقَدْ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب وجوباً لاقترانه بـ﴿قد﴾. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿فَازَ﴾: فعل ماض، وفاعله مستتر في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها. ﴿فَوْزًا﴾: مفعول مطلق. ﴿عَظِيمًا﴾: صفة ﴿فَوْزًا﴾، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢)﴾.

﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه ﴿عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة

في محل الرفع خبر ﴿إِنَّآ﴾، وجملة ﴿إِنَّآ﴾ مستأنفة. ﴿عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: متعلق بـ﴿عَرَضۡنَا﴾. ﴿وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ﴾: معطوفان على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. ﴿فَأَبَيۡنَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿أبين﴾: فعل ماض مبني على السكون لاتصاله بضمير رفع متحرك، والنون فاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿عَرَضۡنَا﴾. ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر ﴿يَحۡمِلۡنَهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول به في محل النصب بـ﴿أَن﴾ المصدرية مبني على السكون لاتصاله بنون الإناث، والجملة الفعلية مع ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ﴿أبين﴾؛ أي: فأبين حملهن إياها. ﴿وَأَشۡفَقۡنَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿أشفقن﴾: فعل ماض وفاعل، مبني على السكون. ﴿مِنۡهَا﴾: متعلق بـ﴿أشفقن﴾، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿أبين﴾. ﴿وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ﴾: فعل ومفعول به وفاعل، والجملة معطوفة على محذوف، تقديره: فعرضناها على الإنسان، وحملها الإنسان. ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على الإنسان. ﴿ظَلُومٗا﴾: خبرها الأول. ﴿جَهُولٗا﴾: خبر ثانٍ لها، وجملة ﴿كَانَ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمَۢا ﴿٧٣﴾﴾.

﴿لِّيُعَذِّبَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل. ﴿يعذب﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعل. ﴿ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾: مفعول به ﴿وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ﴾: معطوفات على ﴿ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾، والجملة الفعلية صلة أن المضمرة، أن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لتعذيب الله المنافقين الخ، الجار والمجرور متعلق بـ﴿حملها﴾، وقيل: بـ﴿عَرَضۡنَا﴾، واللام لام التعليل، أو لام العاقبة على الخلاف المار فيه. ﴿وَيَتُوبَ﴾: معطوف على ﴿يعذب﴾. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعل. ﴿عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: متعلق بـ﴿يَتُوبَ﴾. ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾: معطوف على ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا﴾: فعل ناقص واسمه وخبره. ﴿رَّحِيمٗا﴾: خبر ثانٍ لها، وجملة ﴿كَانَ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. والله أعلم.

التصريف ومفردات اللغة

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ﴾ يقال: آذى يؤذي أذى وأذيّة وإذاية، ولا يقال: إيذاءً،

كما في «القاموس»، ولكن شاع بين أهل التصنيف استعماله، كما في «التنبيه» لابن كمال.

﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ من الإدناء من الدنو، وهو القرب. والجلابيب: جمع جلباب. وفي «القاموس» وغيره: الجلباب، والجلبَّاب ـ بتشديد الباء ـ الأولى: ثوب أوسع من الخمار دون الرداء، تلويه المرأة على رأسها، وتبقي منه ما ترسله إلى صدرها، كما في «الكشاف».

﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ الانتهاء: الانزجار عما نهي عنه. ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ﴾ قال في «الأساس»: وأرجفوا في المدينة بكذا: إذا أخبروا به على أن يوقعوا في الناس الاضطراب من غير أن يصح عندهم، وهذا من أراجيف الغواة، وتقول: إذا وقعت المخاويف كثرت الأراجيف. وجاء في غيره ما نصه: أرجف: خاض في الأخبار السيئة والفتن، قصد أن يهيج الناس، وأرجف القوم بالشيء وفيه: خاضوا فيه، وأرجفت الريح الشجر: حركته، وأرجفت الأرض بالبناء للمجهول: زلزلت، وأصل الإرجاف: التحريك، مأخوذ من الرجفة، وهي الزلزلة، ووصفت به الأخبار الكاذبة لكونها متزلزلة غير ثابتة، وسمي البحر رجافاً لاضطرابه، ومنه قول الشاعر:

الْمُطْعِمُوْنَ ٱللَّحْمَ كُلَّ عَشِيَّةٍ حَتَّىٰ تَغِيْبَ ٱلشَّمْسُ فِيْ ٱلرَّجَّافِ

﴿لَنُغْرِيَنَّكَ﴾ يقال: غرى بكذا؛ أي: لهج به ولصق، وأصل ذلك من الغراء، وهو ما يلصق به الشي، وقد أغريت فلاناً بكذا إغراءً ألهجته به.

﴿مَّلْعُونِينَ﴾ قال في «الأساس» و«اللسان»: لعنه أهله: طردوه وأبعدوه وهو لعين؛ أي: طريد، وقد لعن الله إبليس: طرده من الجنة، وأبعده من جوار الملائكة، ولعنت الكلب والذئب طردتهما، ويقال للذئب: اللعين، ولعنه وهو ملعَّن؛ أي: مكثر لعنه، وتلاعن القوم وتلعنوا والتعن فلان: لعن نفسه، ورجل لُعَنَةٌ ولُعْنَةٌ، كضُحَكَة وضُحْكَة، ولا تكن لعاناً طعاناً، ولاعن امرأته ولاعن القاضي بينهما: أوقع بينهما اللعان.

﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟﴾؛ أي: وجدوا وأدركوا. قال الراغب: الثقف الحذق في إدراك الشيء وفعله، يقال: ثقفت كذا: إذا أدركته ببصرك لحذق في النظر، ثم قد تجوَّز به، فاستعمل في الإدراك، وإن لم يكن معه ثقافة.

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ﴾؛ أي: القيامة؛ أي: عن وقت قيامها، والساعة في الأصل: جزء من أجزاء الزمان، ويعبَّر بها عن القيامة تشبيهاً بذلك لسرعة حسابها.

﴿سَعِيرًا﴾؛ أي: ناراً مسعورة شديدة الاتقاد، يقال: سعر النار وأسعرها وسعرها: أوقدها.

﴿سَادَتَنَا﴾ جمع تكسير على وزن فعلة بفتحتين؛ لأن أصله سودة، وهو شائع في وصف لمذكر عاقل صحيح اللام، نحو كامل وكملة، وساحر وسحرة، وسافر وسفرة، وبارٌّ وبررة، وقال تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾، ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۝١٦﴾ فخرج بالوصف الاسم، نحو: واد وباز، وبالتذكير نحو: حائض وطالق، وبالعقل نحو: سابق ولاحق صفتي فرسين وبصحة اللام نحو: قاضٍ وغازٍ، فلا يجمع شيء من ذلك على فعلة بفتحتين باطرادٍ، وشذ في غير فاعل نحو: سيد وسادة، فوزنها: فعلة، ويجوز أن يكون جمعاً لسائد، نحو: فاجر وفجرة، وكافر وكفرة، وهو أقرب إلى القياس، كما رأيت على أنَّ صاحب «القاموس» لم يلتزم بالقاعدة، فقال: والسائد: السيد أو دونه، والجمع: سادة وسيايد.

وقرأ ابن عامر: ﴿ساداتنا﴾، فجمعه ثانياً بالألف والتاء، وهو غير مقيس أيضاً.

﴿وَكُبَرَآءَنَا﴾ جمع: كبير، وهو مقابل الصغير، والمراد: الكبير رتبةً وحالاً.

﴿فَأَضَلُّونَا﴾ يقال: أضله الطريق، وأضله عن الطريق بمعنىً واحد؛ أي: أخطأ به عنه.

﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ﴾ أصل البراءة: التفصِّي مما تكره مجاورته؛ أي: فأظهر براءة موسى عليه مما قالوا في حقه.

﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ الوجيه: سيد القوم ذو الجاه والوجاهة. وفي «الوسيط»: وجه الرجل يوجه وجاهة فهو وجيه: إذا كان ذا جاه وقدر.

﴿قَوْلًا سَدِيدًا﴾ مستقيماً مائلاً إلى الحق، من سد يسد سداداً من باب ضرب: صار صواباً ومستقيماً، فإنَّ السداد الاستقامة، يقال: سدد السهم نحو الرمية: إذا لم يعدل به عن سمتها، وخص القول الصدق بالذكر، وهو ما أريد به وجه الله ليس فيه شائبة غيرٍ وكذب أصلاً؛ لأنَّ التقوى صيانة النفس عما تستحق به العقوبة من فعل

أو ترك، فلا يدخل فيها.

﴿عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ﴾ يقال: عرض لي أمر كذا؛ أي: ظهر. وعرضت له الشيء: أظهرته وأبرزته إليه، وعرضت الشيء على البيع، وعرض الجند: إذا أمرهم عليه، ونظر ما حالهم. والأمانة: ضد الخيانة، والمراد بها هنا: التكاليف الشرعية، والأمور الدينية المرعية.

﴿فَأَبَيۡنَ﴾؛ أي: امتنعن من حملها، والإباء: شدة الامتناع، كما مر في مبحث التفسير.

﴿وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا﴾؛ أي: خفن منها. قال في «المفردات»: الإشفاق: عناية مختلطة بخوف؛ لأن المشفق يحب المشفق عليه، ويخاف ما يلحقه، فإذا عدي بـ﴿من﴾ فمعنى الخوف فيه أظهر، وإذا عدِّي بـ﴿على﴾ فمعنى العناية فيه أظهر.

﴿ظَلُومٗا﴾ والظلم: وضع الشيء في غير موضعه المختص به؛ إما بنقصان أو بزيادة، وإما بعدول عن وقته أو مكانه، ومن هذا: ظلمت السقاء: إذا تناولته في غير وقته، ويسمى ذلك اللبن: الظلم، وظلمت الأرض: إذا حفرتها، ولم تكن موضعاً للحفر، وتلك الأرض يقال لها: المظلومة، والتراب الذي يخرج منها ظليم. والظلم يقال في مجاوزة الحد الذي يجري مجرى النقطة في الدائرة، ويقال فيما يكثر ويقل من التجاوز، ولذا تستعمل في الذنب الصغير والكبير، ولذا قيل لآدم في تقدمه: ظالم، وفي إبليس ظالم، وإن كان بين الظلمين بون بعيد.

قال بعض الحكماء: الظلم ثلاثة:

أحدها: بين الإنسان وبين الله سبحانه، وأعظمه الكفر والشرك والنفاق.

والثاني: ظلم بينه وبين الناس.

والثالث: ظلم بينه وبين نفسه، وهذه الثلاثة في الحقيقة للنفس، فإن الإنسان أول ما يهم بالظلم، فقد ظلم نفسه.

﴿جَهُولٗا﴾ والجهل: خلو النفس من العلم، وهو على قسمين: ضعيف: وهو الجهل البسيط، وقوي: وهو الجهل المركب الذي لا يدري صاحبه أنه لا يدري، فيكون محروماً من التعلم، وكذا كان قوياً. وقال بعضهم: الإنسان ظلوم وجهول؛

أي: من شأنه الظلم والجهل، كما يقال: الماء طهور؛ أي: من شأنه الطهارة. واعلم أنَّ الظلومية والجهولية صفتا ذم عند أهل الظاهر؛ لأنهما في حق الخائنين في الأمانة، فمن وضع الغدر والخيانة موضع الوفاء والأداء.. فقد ظلم وجهل. اهـ «روح».

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التأكيد بإن، وبفعلية الخبر في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ إلخ.

ومنها: ذكر الخاص بعد العام في قوله: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾، ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ﴾: هم من المنافقين، فعمم ثم خصص زيادة في التقبيح والتشنيع عليهم.

ومنها: التأكيد بالمصدر.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾؛ لأنه في الأصل إلصاق الشيء بالشيء، فاستعير هنا للتسليط.

ومنها: الإتيان بالمصدر مع الفعل للتأكيد في قوله: ﴿وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾، وفيه أيضاً: جناس الاشتقاق.

ومنها: الإتيان بعنوان السيادة والكبر في قوله: ﴿سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا﴾ لتقوية الاعتذار، وإلا فهم في مقام التحقير والإهانة.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿لَعْنًا كَبِيرًا﴾؛ لأن الأصل في الكبير أن يستعمل في الأجرام، ثم استعير هنا للمعاني.

ومنها: التحسر والتفجع بطريق التمني في قوله: ﴿يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ فأطلق الجزء وأراد الكل؛ أي: أجسامهم، وفيه أيضاً تخصيص الوجوه بالذكر؛ لأناقة الوجه على جميع الأعضاء، وهو مثابة المقابلة.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾، وفي قوله: ﴿فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ﴾ مثَّل للأمانة في ضخامتها وعظمها وتفخيم شأنها بأنها من الثقل، بحيث لو عرضت على السموات والأرض والجبال، وهي من القوة والشدة بأعلى المنازل.. لأبت عن حملها، وأشفقت منها، وهو تمثيل رائع لتهويل شأن الأمانة.

ومنها: المقابلة اللطيفة بين قوله: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ﴾، وبين قوله: ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، وفي ختم السورة بهذه الآية من البدائع ما يسميه علماء البديع: ردَّ العجز على الصدر؛ لأن بدء السورة كان في ذم المنافقين، وختامها كان في بيان سوء عاقبة المنافقين، فحسن الكلام.

ومنها: العدول إلى صيغة الماضي في قوله: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا﴾ مع كونه معطوفاً على يقولون قبله؛ للإشعار بأن قولهم ليس مستمراً، كقولهم السابق، بل هو ضرب اعتذار أرادوا به ضرباً من التشفي بمضاعفة عذاب الذين ألقوهم في تلك الورطة.

ومنها: الالتفات من التكلم إلى الغيبة الذي هو الاسم الجليل في قوله: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ﴾ لتهويل الخطب وتربية المهابة.

ومنها: الإظهار في موضع الإضمار ثانياً في قوله: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ﴾ لإبراز مزيد الاعتناء بأمر المؤمنين والمؤمنات توفية لكل من مقامي الوعيد والوعد حقه.

ومنها: الاعتراض بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ بين الحمل وغايته للإيذان من أول الأمر بعدم وفائه بما عهده وتحمله.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

تنبيه: ذكر سبحانه في هذه السورة الكثير من شؤون الزوجية، وكيف تعامل الزوجات، وقد رأينا أن نذكر هنا مسألتين كثر الخوض فيهما من أرباب الأديان

الأخرى، ومن نابتة المسلمين الذين تعلموا في مدارسهم، وسمعوا كلام المبشرين، ظناً منهم أنهم وجدوا مغمزاً في الإسلام، وأصابوا هدفاً يصمي الدين، ويجعل معتنقيه مضغة في أفواه السامعين، وأنى لهم ذلك، وليتهم فكروا وتأملوا قبل أن يتكلموا:

أَرَىٰ ٱلْـعَـنْـقَـاءَ تَـكْـبُـرُ أَنْ تُـصَـادَا   فَـعَـانِـدْ مَـنْ تُـطِـيْـقُ لَـهُ عِـنَـادَا

١ ـ تعدد زوجاته ﷺ وكثرتهن، بينما لم يبحْ مثل ذلك لأمته.

٢ ـ إباحة تعدد الزوجات لعامة المسلمين، ومن ثم وجب علينا أن نميط اللثام عن الأسباب التي دعت إلى كل منهما.

أسباب تعدد زوجاته ﷺ

قبل أن ندخل في تفاصيل البحث نذكر لك أنَّ النبي ﷺ عاش مع خديجة خمساً وعشرين سنة، لم يتزوج سواها، وكانت سنه إذ ذاك ناهزت الخمسين، وكان قد تزوجها في شرخ شبابه؛ إذ كانت سنه وقتئذ خمساً وعشرين سنة، وكانت سنها أربعين، وعاشا معاً عيشاً هنيئاً، شعاره الإخلاص والوفاء، وكانت من أكبر أنصاره على الكفار الذين سخروا منه، وألحقوا به ضروباً شتى من الأذى، ولم يشأ أن يتزوج غيرها مع ما كان يبيحه له عرف قومه، بل ظل وفياً لها حتى توفيت، فحزن عليها حزناً شديداً، وسمي عام وفاتها: عام الحزن، ولم ينقطع عن ذكراها طوال حياته.

والآن حق علينا أن نذكر لك الأسباب التي حدت النبي ﷺ إلى التعدد، وهي قسمان: أسباب عامة، وأسباب خاصة.

الأسباب العامة

١ ـ إن رسالة النبي ﷺ عامة للرجال والنساء، ومن التشريع ما هو مشترك بين الرجل والمرأة، وما هو خاص بأحدهما، وكل يحتاج في تلقينه إلىٰ عدد ليس بالقليل؛ لتفرق المرسل إليهم، وكثرتهم، وقصر زمن حياة الرسول، وكثرة الأحكام وإلا لم يحصل التبليغ على الوجه الأتم. ومن الأحكام المتعلقة بالنساء ما تستحي المرأة أن تعرفه من الرجل، ويستحي الرجل من تبليغه للمرأة، ألا ترى إلى ما روي

عن عائشة رضي الله عنها أن أسماء بنت يزيد الأنصاري قالت للنبي ﷺ: كيف أغتسل من الحيض؟ قال: «خذي فرصة ممسكة ـ قطعة قطن ـ فتوضئي» قالها ثلاثاً، وهو في كل ذلك يقول: «سبحان الله» عند إعادتها السؤال، ثم أعرض عنها بوجهه استحياء، فأخذتها عائشة، وأخبرتها بما يريد النبي ﷺ.

ومن ثمَّ وجب أن يتلقى الأحكام الخاصة بالنساء من الرسول ﷺ عدد كثير منهن، وهن يبلِّغن ذلك إلى النساء، ولا يصلح للتلقي عنه إلا أزواجه؛ لأنهن لهن خصائص تمكنهن من معرفة أغراض النبي ﷺ دون تأفُّف ولا استحياء، يرشد إلى ذلك قوله ﷺ: «خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء» يريد عائشة رضي الله عنها والعرب تقول: امرأة حمراء؛ أي: بيضاء.

٢ ـ إن المصاهرة من أقوى عوامل التآلف والتناصر، كما هو مشاهد معروف، والدعوة في أول أمرها كانت في حاجة ماسة، إلى الإكثار من ذلك؛ لاجتذاب القبائل إليه، ومؤازرتهم له لذود عوادي الضالين، وكفِّ أذاهم عنه، ومن ثَمَّ كان أكثر زوجاته من قريش سيدة العرب.

٣ ـ إن المؤمنين كانوا يرون أنَّ أعظم شرف، وأمتن قربة إلى الله تعالى مصاهرتهم لنبيه، وقربهم منه، فمن ظفر بالمصاهرة.. فقد أدرك ما يرجو، ألا ترى أن عمر رضي الله عنه أسف جد الأسف حين فارق رسول الله ﷺ ابنته، وقال: لا يعبأ بعدها بعمر، ولم ينكشف عنه الهم حتى روجعت، وأنَّ علياً كرم الله وجهه على اتصاله برسول الله ﷺ من طريق النسب، وشرف اقترانه بالزهراء، رغب في أن يزوجه أخته أم هانىء بنت أبي طالب؛ ليتضاعف شرفه ولم يمنعها من ذلك إلا خوفها أن تقصِّر في القيام بحقوق الرسول مع خدمة أبنائها.

الأسباب الخاصة

١ ـ تزوج النبي ﷺ بعد خديجة سودة بنت زمعة أرملة السكران بن عمرو الذي أسلم، واضطر إلى الهجرة إلى بلاد الحبشة هرباً من اضطهاد المشركين، ومات هناك، وأصبحت امرأته بلا معين، وهي أرمل رجل مات في سبيل الدفاع عن الحق، فتزوجها النبي ﷺ وفاء لرجل غادر الأهل والأوطان احتفاظاً بعقيدته، وقد شاركته هذه الزوجة في أهوال التغريب والنفي، وحماية لها من أهلها أن يفتنوها؛

لأنها مع زوجها على غير رغبتهم.

٢ ـ تزوج ميمونة بنت الحارث الهلالية، وعمرها زهاء خمسين عاماً، وكان زواجه منها سبباً في دخول خالد بن الوليد في دين الله، وهو المجاهد الكبير، والبطل العظيم، وهو الذي غلب الروم على أمرهم فيما بعد، وله في الإسلام أيام غر محجلة إلى أن زواجها بالنبي ﷺ يسر لذوي قرباها وسيلة للعيش، فطعموا من جوع، وأمنوا من مخوف، وأثروا بعد فاقة.

٣ ـ تزوج جويرية، وكان أبوها الحارث بن ضرار سيد بني المصطلق بن خزاعة، جمع قبل إسلامه جموعاً كثيرة لمحاربة النبي ﷺ، ولما التقى الجمعان عرض عليهم الرسول ﷺ الإسلام فأبوه، فحاربهم حتى هزموا، ووقعت جويرية في سهم ثابت بن قيس، فكاتبها على سبع أواق من الذهب، فلم تر معيناً لها غير النبي ﷺ، فجاءت إليه، وأدلت بنسبها، وطلبت حريتها، فتذكر النبي ﷺ ما كان لأهلها مع العز والسؤدد، وما صاروا إليه بسوء التدبير والعناد، فأحسن إليها وإلى قومها بأداء ما عليها من نجوم، ثم تزوجها، فقال المسلمون بعد أن اقتسموا بني المصطلق: إن أصهار رسول الله لا يسترقون، وأعتقوا من بأيديهم من سبيهم، وعلى إثر ذلك أسلم بنو المصطلق شكراً لله على الحرية بعد ذل الكفر والأسر.

٤ ـ تزوج السيدة عائشة مكافأة لأبي بكر الصديق؛ إذ كان شديد التمسك برسول الله ﷺ، مولعاً بالتقرب منه، فكان ذلك قرة عين لها ولأبويها، وفخراً لذوي قرباها، وكان عبد الله بن الزبير ـ ابن أختها ـ يفاخر بني هاشم بذلك.

٥ ـ تزوج أم المؤمنين حفصة بنت عمر مكافأة لزوجها الذي توفي مجروحاً في وقعة بدر، وفي تلك الحقبة كانت السيدة رقية بنت الرسول ﷺ وزوج عثمان قد توفيت، فعرض عمر ابنته على عثمان، فأعرض عنها رغبة في أم كلثوم بضعة الرسول ﷺ؛ ليستديم له بذلك الشرف، فعز هذا على عمر، وأنفت نفسه، فشكاه إلى أبي بكر، فقال له: لعلها تتزوج من هو خير منه، ويتزوج من هي خير منها له. [يريد زواج عثمان بأم كلثوم، وزواج حفصة بالنبي ﷺ].

٦ ـ تزوج صفية بنت حيي بن أخطب سيد بني النضير، وكانت قد وقعت في السبي مع عشيرتها، فأراد النبي ﷺ أن يتزوجها رأفة بها؛ إذ ذلت بعد عزة،

واسترقت، وهي السيدة الشريفة عند أهلها، وتأليفاً لقومها حتى يدخلوا في كنف الإسلام، وينضووا تحت لوائه.

٧ ـ تزوَّج زينب بنت جحش الأسدية لإبطال عادة جاهلية كانت متأصلة عند العرب، وهي التبني، بتنزيل الدعيِّ منزلة الابن الحقيقيِّ، وإذ أراد الله سبحانه إبطال هذه العادة.. جعل رسوله ﷺ أسوةً حسنةً في هذا، فسعىٰ في تزويج زيد مولاه بعد أن أعتقه بزينب ذات الحسب والمجد، فأنفت هي وأخوها عبد الله، وأبت أن تكون زوجاً لدعيٍّ غير كفء، فنزل الله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ فرضيا بقضاء الله ورسوله، غير أنها كانت نافرة من هذا القران، مترفعة عن زيد، ضائقة به ذرعاً، فآثر فراقها، فسأل الرسول ﷺ الإذن في ذلك، فقال له: «أمسك عليك زوجك واتق الله»، وأخفى في نفسه ما الله مبديه من تزوجه منها بعد زيد، وخشي أن يقول الناس: تزوج محمد من زوجة زيد ابنه، ولما لم يبق لزيد فيها شيء من الرغبة.. طلَّقها، فتزوجها النبي ﷺ إبطالاً لتلك العادة، وهي إعطاء المتبنىٰ حكم الابن، وقد تقدم تفصيل هذا في أثناء التفسير بشيء من البسط والإيضاح.

ومما سلف يستبين لك أن ما يتقوَّله غير المنصفين من الغربيين من أن النبي ﷺ خول لنفسه ميزة لم يعطها لأحد من أتباعه، لا وجه له من الصحة، فإن زواجه بأمهات المؤمنين كان لأغراضٍ اجتماعية اقتضتها الدعوة، ودعا إليها حب النصرة، ولا سيما إذا علم أنَّه لم يتزوج بكراً قط إلا عائشة، وأنه تزوج من أمهات من كن في سن الكهولة أو جاوزتها.

أسباب إباحة تعدد الزوجات في الإسلام

يجدر بذوي الحصافة في الرأي أن ينظروا إلى الأسباب التي دعت أن يبيح الإسلام تعدد الزوجات، دون أن ينقموا عليه ذلك، ويرموه بالقسوة، فإن في بعضها ما هو موجب للتعدد، لا مجيز له فحسب، وهاك أهم الأسباب:

١ ـ قد تصاب المرأة أحياناً بمرض مزمن، أو مرض معد يجعلها غير قادرة على القيام بواجبات الزوجية، فيضطر الرجل إلى أن يقترف ما ينافي الشرف والمروءة، ويغضب الله ورسوله إن لم يبح له أن يتزوج أخرىٰ.

٢ ـ دل الاستقراء على أن عدد النساء يربو على عدد الرجال، لما يعانيه هؤلاء من الأعمال الشاقة التي تنهك القوى، وتضوي الأجسام، ولا سيما الحروب الطاحنة، فإذا منع التعدد.. لا يجد بعض النساء أزواجاً يحصنونهن ويقومون بشؤونهن، فيكثر الفساد، ويلحق الأسر العار، وتعضهن الحياة بأنيابها.

٣ ـ حضت الشريعة الإسلامية على كثرة النسل؛ لتقوى شوكة الإسلام، وتعلو سطوته، وتنفذ كلمته، حتى ترهبه الأعداء، وتتقيه الأمم المناوئة له، ولا يمكن الوصول إلى ذلك إلا بإباحة تعدد الزوجات؛ لأن المنع مفض إلى تناقص النسل، ولا أدل على ذلك من أن عقلاء الأمم في الغرب أشفقوا على أممهم لما اعتراها من نقص في النسل بسبب منع التعدد من ناحية، وإحجام كثير من شبانهم عن الزواج، والاجتزاء بالسفاح فراراً من حقوق الزوجية، وأعباء الأولاد من ناحية أخرى، ومن ثَمَّ لجأ كثير من الدول الغربية إلى ارتباط بعضهم ببعض بالحلف والعهود والمواثيق، طلباً لنيل فائدة التكاثر، وبذلك تبقى لهم السيادة الدولية.

٤ ـ دل الإحصاء في كثير من البلاد الغربية على أنَّ حظر تعدد الزوجات أدى إلى كثرة الأولاد غير الشرعيين، مما حدا بعض المفكِّرين إلى النظر في توريثهم.

٥ ـ كان من نتائج منع التعدد انتشار كثير من الأمراض الفتاكة التي أصابت الرجال والنساء والأطفال، حتى عجز الطب عن مكافحتها، وتغلغل الداء، وعز الدواء، مما جعل بعض البلاد تسن القوانين التي تمنع عقد الزواج إلا بعد إحضار صك رسميٍّ بخلو الزوجين من الأمراض المعدية، والأمراض التي تجعل النسل ضعيفاً ضاوياً، لا يستطيع الكفاح في الحياة.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

خلاصة ما حوته هذه السورة الكريمة من أغراض ومقاصد

وجملة ما تضمنت هذه السورة:

١ ـ الأمر بتقوى الله سبحانه، وعدم طاعة الكافرين والمنافقين.

٢ ـ وجوب اتباع ما ينزل به الوحي مع ضرب المثل لذلك.

٣ ـ إبطال العادة الجاهلية، وهي إعطاء المتبنى حكم الابن، وبيان أن الدين منه براء.

٤ ـ إبطال التوريث بالحلف، والتوريث بالهجرة، وإرجاع التوريث إلى الرحم والقرابة.

٥ ـ ذكر النعمة التي أنعم بها عليهم في وقعة الخندق بعد أن اشتدَّ بهم الخطب.

٦ ـ تخيير النبي نساءه بين شيئين: الفراق إذا أردن زينة الحياة الدنيا، والبقاء معه إذا أحببن الله ورسوله والدار الآخرة.

٧ ـ التشديد عليهن بمضاعفة العذاب إذا ارتكبن الفواحش، ونهيهن عن الخضوع في القول، وأمرهن بالقرار في البيوت، وتعليمهن كتاب الله وسنة رسوله، ونهيهن عن التبرج.

٨ ـ قصة زينب بنت جحش وزيد مولى رسول الله ﷺ.

٩ ـ ما أحل الله سبحانه لنبيه من النساء، وتحريم الزواج عليه بعد ذلك.

١٠ ـ النهي عن إيذاء المؤمنين للنبي ﷺ إذا دخلوا بيته لطعام ونحوه.

١١ ـ الأمر بكلام أمهات المؤمنين من وراء حجاب إذا طلب منهن شيء، إلا الآباء والأبناء والأرقاء.

١٢ ـ أمرهن بإرخاء الجلباب إذا خرجن لقضاء حاجة.

١٣ ـ تهديد المنافقين وضعاف الإيمان والمرجفين في المدينة.

١٤ ـ سؤال المشركين عن الساعة متى هي؟

١٥ ـ النهي عن إيذاء النبي ﷺ، حتى لا يكونوا كبني إسرائيل الذين آذوا موسى.

١٦ ـ عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

سورة سبأ

سورة سبأ مكية، قال القرطبي: في قول الجميع إلا آية واحدة اختلف فيها، وهي قوله تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ...﴾ الآية، فقالت فرقة: هي مكية، وقالت فرقة: هي مدنية.

وآيها: أربع وخمسون. وكلماتها: ثمان مئة وثلاث وثلاثون كلمة. وحروفها: ألف وخمس مئة واثنا عشر حرفاً.

الناسخ والمنسوخ فيها: قال أبو عبد الله محمد بن حزم رحمه الله تعالى: سورة سبأ كلها محكمة إلا آية واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ الآية، نسخها الله تعالى بآية السيف، وسميت سورة سبأ؛ لذكر قصة سبأ فيها.

المناسبة: ووجه اتصالها بما قبلها[1]:

١ ـ أن الصفات التي أجريت على الله في مفتتحها تشاكل الصفات التي نسبت إليه في مختتم السورة السالفة.

٢ ـ أنه في السورة السابقة ذكر سؤال الكفار عن الساعة استهزاءً، وهنا حكى عنهم إنكارها صريحاً، وطعنهم على من يقول البعث، وقال هنا ما لم يقله هناك.

وقال أبو حيان: وسبب نزولها: أن[2] أبا سفيان قال لكفار مكة ـ لما سمعوا ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ﴾ ـ: إن محمداً يتوعدنا بالعذاب بعد أن نموت، ويخوِّفنا بالبعث، واللاتِ والعزى لا تأتينا الساعة أبداً، ولا نبعث، فقال الله: قل يا محمد ﴿بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾. قاله مقاتل.

وباقي السورة تهديد لهم وتخويف، ومن ذكر هذا السبب ظهرت المناسبة بين هذه السورة والتي قبلها.

---

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

فضلها: وروي في فضلها[1]: أنه ﷺ قال: «من قرأ سورة سبأ.. لم يبق رسول ولا نبي إلا كان له يوم القيامة رفيقاً ومصافحاً، ولكن لا أصل له صحيح، وسميت سورة سبأ لذكر قصة سبأ فيها.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) الخازن.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (٢) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٣) لِّيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) وَالَّذِينَ سَعَوْ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ (٥) وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٦) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧) أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ ۗ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ (٨) أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (٩) ۞ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ۖ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١) وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ۖ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ۚ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (١٣) فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (١٤)﴾.

المناسبة

تقدم لك بيان المناسبة بين أول هذه السورة وآخر السورة التي قبلها، فلا عود ولا إعادة.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ...﴾ الآيات، مناسبة هذه

الآيات لما قبلها: أن الله[1] سبحانه وتعالى لما بيَّن أنَّ له الحمد في الآخرة على ما أسدى إلى عباده من النعم.. أردف ذلك ببيان أنَّ كثيراً منهم ينكرها أشد الإنكار، ويستهزء بمن يثبتها ويعتقد أنها ستكون، وقد بلغ من تهكمهم أنهم يستعجلون مجيئها ظناً منهم أنَّ هذه خيالات، بل أضغاث أحلام. وقد ذكر أنَّ مجيئها ضربة لا زب، لتجزى كل نفس بما تسعى من خير أو شر، ثم أعقب هذا ببيان أنَّ الناس فريقان: مؤمن بآيات ربه، يرى أنها الحق، وأنها تهدي إلى الصراط المستقيم، ومعاند جاحد بها، يسعى في إبطالها، ومآل أمره العذاب الأليم على ما دسَّ به نفسه من قبيح الخلال.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لمَّا[2] بين أنهم أنكروا الساعة، ورد عليهم ما قالوا، وأكده كل التأكيد، ثم ذكر ما يكون إذ ذاك من جزاء المؤمن بالثواب العظيم على ما عمل من صالح الأعمال، وجزاء الساعي في تكذيب الآيات بالتعذيب في الجحيم على ما دسَّ به نفسه من اجتراح المعاصي، وفاسد المعتقدات.. أردف ذلك بذكر مقال للكافرين ذكروه تهكماً واستهزاءً، ثم ذكر الدليل على صحة البعث بخلق السموات والأرض، ثم توعدهم على تكذيبهم بأشد الوعيد لعلهم يرجعون عن عنادهم، ويثوبون إلى رشادهم.

قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا...﴾ الآيتين، مناسبتهما لما قبلهما: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر أنَّ في خلق السموات والأرض آية لكل من أناب إلى الله تعالى ورجع إليه.. أردف ذلك بذكر بعض من أنابوا إلى ربهم، فأنعم عليهم بما آتاهم من الفضل المبين، ومن جملتهم: داود عليه السلام، فقد جمع الله له النبوة والملك والجنود ذوي العَدد والعُدد، ومنحه الصوت الرخيم، فكان إذا سبح تسبح معه الجبال الراسيات، وتقف له الطيور الراسيات، وعلمه سرد الدروع؛ لتكون عدة للمقاتلين، درءاً للمجاهدين.

قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ...﴾ الآيتين، مناسبتهما لما قبلهما: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر ما منَّ به على داود من النبوة والملك..

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

أردف ذلك بذكر ما تفضل به على ابنه سليمان من تسخير الريح، فتجري من الغداة إلى منتصف النهار مسيرة شهر، ومن منتصف النهار إلى الليل مسيرة شهر، وإذابة النحاس على نحو ما كان لداود من إلانة الحديد، وتسخير الجن عملة بين يديه، يعملون له شتى المصنوعات، من قصور شامخات، وصور من نحاس، وجفان كبيرة كالأحواض، وقدور لا تتحرك لعظمها؛ إذ كل منهما أناب إلى ربه، وجال بفكره في ملكوت السموات والأرض، وكان من المؤمنين المخبتين الذين هم على ربهم يتوكلون.

وعبارة أبي حيان هنا[1]: مناسبة قصة داود وسليمان عليهما السلام لما قبلها: هي أن أولئك الكفار أنكروا البعث لاستحالته عندهم، فأخبروا بوقوع ما هو مستحيل في العادة مما لا يمكنهم إنكاره؛ إذ طفحت ببعضه أخبارهم وشعراؤهم على ما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى، من تأويب الجبال والطير مع داود، وإلانة الحديد، وهو الجرم المستعصي، وتسخير الريح لسليمان، وإسالة النحاس له، كما ألان الحديد لأبيه، وتسخير الجن فيما شاء من الأعمال الشاقة.

وقيل: لما ذكر من ينيب من عباده.. ذكر من جملتهم داود، كما قال: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ وبيَّن ما آتاه الله على إنابته، فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾، وقيل: ذكر نعمته على داود وسليمان عليهما السلام احتجاجاً على ما منح محمداً ﷺ؛ أي: لا تستبعدوا هذا، فقد تفضلنا على عبيدنا قديماً بكذا وكذا. فلما فرغ التمثيل لمحمد ﷺ.. رجع إلى التمثيل لهم بسبأ، وما كان من هلاكهم بالكفر والعتو انتهى.

التفسير وأوجه القراءة

﴿ٱلْحَمْدُ﴾ بأقسامه الأربعة مستحق ﴿لِلَّهِ﴾ فلا تكون لغيره سبحانه. واعلم[2] أنَّ الألف واللام في الحمد؛ إما للجنس، أو للاستغراق، أو للعهد، وعلى كلٍّ منها، فاللام في ﴿لِلَّهِ﴾ إما للملك، أو للاستحقاق، أو للاختصاص، فهذه ثلاثة في الثلاثة الأولى بتسع احتمالات: والأولى منها كون الألف واللام للجنس، واللام

---

(١) البحر المحيط.
(٢) سلم المعراج.

للاستحقاق؛ لأنه يلزم من استحقاق الجنس استحقاق الأفراد من باب الأولى، والمعنى حينئذ: جنس الحمد بجميع أفراده وأنواعه مستحق لله تعالى

فإن قلت: لِمَ اختيرت كلمة الحمد دون الشكر حيث لم يقل الشكر لله؟

قلت: اختيرت كلمة الحمد على الشكر؛ لأن الحمد يعم الفضائل والفواضل دون الشكر، فإنه يختص بالفواضل.

وإن قلتَ: لِمَ اختيرت كلمة الجلالة دون الرحمٰن وغيره من الأسماء، حيث لم يقل الحمد للرحمٰن مثلاً؟

قلتُ: اختيرت الجلالة دون سائر الأسماء والصفات لدلالتها على صفتي الجلال والجمال، وعلى استحقاقه الحمد لذاته؛ لئلا يتوهم اختصاصه بصفة دون أخرى؛ لأن تعليق الحكم بمشتق يؤذن بعلية ما منه الاشتقاق. وقد بسطت الكلام على الحمدلة، وعلى الصور الجارية فيها إلى أن وصلت بمئة وثمانين صورة في بعض مؤلفاتي كـ«سلم المعراج على خطبة المنهاج»، و «فتح الملك العلام على عقيدة العوام»، فراجعه إن أردت الخوض فيها.

أي: جميع[1] أفراد المدح والثناء والشكر من كل حامد وشاكر ملك لله تعالى، ومخصوص به، لا شركة لأحد فيه؛ لأنه الخالق والمالك، كما قال: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ﴾ خاصة خلقاً وملكاً وتصرفاً بالإيجاد والإعدام والإحياء والإماتة ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي[2]: جميع الموجودات، فإليه يرجع الحمد لا إلى غيره، وكل مخلوق أجرى عليه اسم المالك، فهو مملوك له تعالى في الحقيقة؛ لأن الزنجي لا يتغير عن لونه؛ لأن سمي كافوراً، والمراد: على نعمه الدنيوية، فإنَّ السموات والأرض وما فيهما خلقت لانتفاعنا، فكلها نعمة لنا ديناً ودنيا، فاكتفي بذكر كون المحمود عليه في الدنيا عن ذكر كون الحمد أيضاً فيها. وقد صرح في موضع آخر، كما قال: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ﴾، وهذا القول؛ أي: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ...﴾ إلخ، وإن كان حمداً لذاته بذاته، لكنه تعليم للعباد كيف يحمدونه، فكأنه قال: قولوا يا عبادي: الحمد لله... إلخ، إذا أردتم ثنائي وشكري.

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

والمعنى[1]: أي الحمد الكامل للمعبود المالك لجميع ما في السموات وما في الأرض، دون كل ما يعبدونه، ودون كل شيء سواه؛ إذ لا مالك لشيء من ذلك غيره.

والخلاصة: أن له عز وجل جميع ما في السموات وما في الأرض خلقاً وملكاً، وتصرفاً بالإيجاد والإعدام، والإحياء والإماتة.

وعبارة «الشوكاني» هنا: ومعنى[2]: ﴿لَهُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾: أي جميع ما هو فيها في ملكه، وتحت تصرفه، يفعل به ما يشاء، ويحكم فيه بما يريد، وكل نعمة واصلة إلى العبد، فهي مما خلقه له، ومنَّ به عليه، فحمده على ما في السموات والأرض هو حمد له على النعم التي أنعم بها على خلقه مما خلقه لهم.

ولما بيَّن أن الحمد الدنيوي من عباده الحامدين له مختص به.. بيَّن أن الحمد الأخروي مختص له كذلك، فقال: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْآخِرَةِ﴾، فهو بيان لاختصاص الحمد الأخروي به تعالى إثر بيان اختصاص الدنيوي به على أن الجار؛ إما متعلق بنفس الحمد، أو بما يتعلق به الخبر من الاستقرار، وإطلاقه عن ذكر ما يشعر المحمود عليه ليعم النعم الأخروية، كما في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾، وما يكون ذريعة إلى نيلها من النعم الدنيوية، كما في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾؛ أي: لما جزاؤه هذا من الإيمان والعمل الصالح.

والمعنى: أن له سبحانه على الاختصاص حمد عباده الذين يحمدونه في الدار الآخرة إذا دخلوا الجنة. وقد قيل[3]: يحمده أهل الجنة في ستة مواضع:

أحدها: حين نودي ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ فإذا ميِّز المؤمنون من الكافرين يقول المؤمنون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، كما قاله نوح عليه السلام حين أنجاه الله من قومه.

والثاني: حين جاوزوا الصراط قالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾.

---

(١) المراغي.

(٢) الشوكاني.

(٣) روح البيان.

والثالث: حين دنوا إلى باب الجنة، واغتسلوا بماء الحياة، ونظروا إلى الجنة قالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾.

والرابع: حين دخلوا الجنة، واستقبلتهم الملائكة بالتحية قالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ﴾.

والخامس: حين استقروا في منازلهم قالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾.

والسادس: كلما فرغوا من الطعام قالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾.

والفرق بين الحمدين مع كون نعمتي الدنيا والآخرة على طريق التفضل[1]: أن الأول: على نهج العبادة، والثاني: على وجه التلذذ، كما يتلذذ العطشان بالماء البارد لا على وجه الفرض والوجوب. وقد ورد في الخبر: «أنهم يلهمون التسبيح، كما يلهمون النفس» والمعنى: أنَّ الحمد في الدنيا عبادة، وفي الآخرة تلذذ وابتهاج؛ لأنه قد انقطع التكليف فيها.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي أحكم أمور الدين والدنيا والآخرة، ودبَّرها حسبما تقتضيه الحكمة، وتستدعيه المصلحة ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾؛ أي: بليغ الخبرة والعلم ببواطن الأشياء ومكنوناتها.

ثم بيَّن كونه خبيراً بقوله: ﴿يَعْلَمُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿مَا يَلِجُ﴾ ويدخل ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من البذور والغيث، ينفذ في موضع، وينبع من آخر، ومن الكنوز والدفائن، والأموات، والحشرات، والهوام، ونحوها. وأيضاً: يعلم ما يدخل في أرض البشرية بواسطة الحواس الخمس، والأغذية الصالحة والفاسدة من الحلال والحرام، ﴿و﴾ يعلم ﴿ما يخرج منها﴾؛ أي: من الأرض، كالحيوان من حجره، والزرع والنبات، وماء العيون، والغازات، والمعادن التي مضى عليها آلاف السنين، ومخلفات الأمم ومصنوعاتهم؛ كمخلفات المصريين القدماء، ونقوش آشور وبابل، وعجائب أهل سبأ وصناعاتهم، مما استخرجه علماء العاديات من الأوروبيين في القرن الماضي، والعصر الحاضر، ولا يزالون كل يوم يكشفون جديداً يدل على أن

---

(١) روح البيان.

الشرق كان ذا مدنيَّة وحضارة لا يدانيها أعظم ما يوجد في الغرب الآن في أرقى ممالكه، وكالأموات عند الحشر ونحوها، وأيضاً: يعلم ما يخرج من أرض البشرية من الصفات المتولدة منها، والأعمال الحسنة والقبيحة.

﴿و﴾ يعلم ﴿ما ينزل من السماء﴾ كالملائكة، والكتب، والمقادير، والأرزاق، والبركات، والأمطار، والثلوج، والبرد، والأنداء، والشهب، والصواعق ونحوها.

وأيضاً: يعلم ما ينزل من سماء القلب من الفيوض الروحانية، والإلهامات الربانية.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿يَنزِلُ﴾ بفتح الياء وتخفيف الزاي مسنداً إلى ﴿مَا﴾. وقرأ علي بن أبي طالب والسلمي بضم الياء وتشديد الزاي مسنداً إلى الله سبحانه.

﴿و﴾ يعلم ﴿ما يعرج﴾ ويصعد ﴿فِيهَاۚ﴾؛ أي: في السماء، كالملائكة والأرواح الطاهرة، والأبخرة والأدخنة، والدعوات، وأعمال العباد، والطائرات والمطاود الجوية، وأيضاً: يعلم ما يعرج في سماء القلب من آثار الفجور والتقوى، وظلمة الضلالة، ونور الهدى. ولم[2] يقل: إليها؛ لأن قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ﴾ يشير إلى أن الله سبحانه وتعالى هو المنتهى لا السماء، ففي ذكر ﴿في﴾ إعلام بنفوذ الأعمال فيها، وصعودها منها إليه تعالى.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ للحامدين، ولمن تولاه ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ للمقصِّرين، ولذنوب أهل ولايته؛ أي: وهو مع كثرة نعمه، وسبوغ فضله، رحيمٌ بعباده، فلا يعاجل بعقوبة، غفورٌ لذنوب التائبين إليه، المتوكلين عليه.

فإذا كان الله متصفاً بالخلق والملك[3]، والتصرف والحكمة، والعلم والرحمة، والمغفرة، ونحوها من الصفات الجليلة.. فله الحمد المطلق، والحمد: هو الثناء على الجميل الاختياري من جهة التعظيم من نعمة وغيرها، كالعلم والكرم، وأما قولهم: الحمد لله على دين الإسلام، فمعناه: على تعليم الدين

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) روح البيان.

وتوفيقه، والحمد القولي: هو حمد اللسان وثناؤه على الحق بما أثنى به نفسه على لسان أنبيائه، والحمد الفعلي هو الإتيان بالأعمال الصالحة البدنية ابتغاءً لوجه الله تعالى، والحمد الحاليُّ هو الاتصاف بالمعارف والأخلاق الإلهية، والحمد عند المحنة: الرضى عن الله فيما حكم به، وعند النعم: الشكر، فيقال في الضراء: الحمد لله على كل حال، نظراً إلى النعمة الباطنة دون الشكر لله خوفاً من زيادة المحنة؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾، والحمد على النعمة، كالروح للجسد، فلا بد من إحيائها، وأبلغ الكلمات في تعظيم صنع الله، وقضاء شكر نعمته: الحمد لله، ولذا جعلت زينةً لكل خطبة، وابتداءٍ لكل مدحة، وفاتحةً لكل ثناء، وفضيلةً لكل سورة، ابتدئت بها على غيرها. وفي الحديث: «كل كلام لا يبدأ فيه بالحمد لله، فهو أجذم»؛ أي: أقطع فله الحمد قبل كل كلام بصفات الجلال والإكرام.

قال في «فتوح الحرمين»:

أَحْسَنُ مَا اهْتَمَّ بِهِ ذَوُوْ الْهِمَمِ ذِكْرٌ جَمِيْلٌ لِوَلِيِّ النِّعَمِ

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ المراد بهؤلاء القائلين: جنس الكفرة على الإطلاق، أو كفار مكة على الخصوص، ومعنى قوله: ﴿لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾ أنها لا تأتي بحال من الأحوال إنكاراً منهم لوجودها، لا لمجرد إتيانها في حال تكلمهم، أو حال حياتهم، مع تحقق وجودها فيما بعد، وعبَّر عن القيامة بالساعة تشبيهاً لها بالساعة التي هي جزء من أجزاء الزمان؛ لسرعة حسابها. قال في «الإرشاد»: أرادوا بضمير المتكلم جنس البشر قاطبة، لا أنفسهم أو معاصرهم فقط، كما أرادوا بنفي إتيانها وجودها بالكلية، لا عدم حضورها مع تحققها في نفس الأمر، وإنما عبروا عنه بذلك؛ لأنهم كانوا يوعدون بإتيانها، ولأن وجود الأمور الزمانية المستقبلة لا سيما أجزاء الزمان لا تكون إلا بالإتيان والحضور، وردَّ الله سبحانه عليهم، وأمر رسوله أن يقول لهم: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿بَلَى﴾ ردٌّ لكلامهم، وإثبات لما نفوه من إتيان الساعة على معنى ليس الأمر إلا إتيانها ﴿وَرَبِّي﴾ الواو فيه للقسم، أتى به لتأكيد الإتيان؛ أي: أقسمت بربي، ومالك أمري ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ الساعة ألبتة، وهو تأكيد لما قبله.

قرأ الجمهور[1]: ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ بتاء التأنيث؛ أي: لتأتينكم الساعة التي أنكرتم مجيئها، وقرأ طلق المعلم عن أشياخه بياء الغيبة على معنى: ليأتينكم البعث؛ لأنه مقصودهم من نفي الساعة؛ أي: أنهم لا يبعثون، أو على معنى: ليأتينكم يوم القيامة، أو على إسناده إلى الله على معنى: ليأتينكم أمر عالم الغيب على حد قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾؛ أي: أمره، ويبعد أن يكون الضمير للساعة لأن إجراء المؤنث المجازي مجرى المذكر لا يكون إلا في الشعر نحو قوله:

وَلاَ أَرْضٌ أَبْـقَـلَ إِبْـقَـالَـهَـا

ثم بعد أن أكد الجواب بالقسم على البعث، أتبع القسم بقوله: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ وما بعده ليعلم أنَّ إتيانها من الغيب الذي تفرد به سبحانه وتعالى، وجاء القسم بقوله: ﴿وَرَبِّي﴾ مضافاً إلى الرسول ليدل على شدة القسم؛ إذ لم يأت به في الاسم المشترك بينه وبين من أنكر الساعة، وهو لفظ الله.

وقرأ نافع وابن عامر ورويس وسلام والجحدري وقعنب: ﴿عالم﴾ بالرفع على إضمار: هو، وجوز الحوفي وأبو البقاء أن يكون مبتدأ، والخبر ﴿لَا يَعْزُبُ﴾ وقال الحوفي: أو خبره محذوف؛ أي: عالم الغيب هو، وقرأ باقي السبعة: ﴿عَٰلِمِ﴾ بالجر على أنه بدل من ﴿رَبِّي﴾، أو نعت له. وقرأ ابن وثاب والأعمش وحمزة والكسائي ﴿علام﴾ على المبالغة والخفض، وقوله: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ تشديد للتأكيد بالقسم، كما مر، يريد[2] أن الساعة من الغيوب، والله عالم بكلها، والغيب: ما غاب عن الخلق على ما قال بعضهم: العلقة: غيب في النطفة، والمضغة: غيب في العلقة، والإنسان: غيب في هذا كله، والماء: غيب في الهواء، والنبات: غيب في الماء، والحيوان: غيب في النبات، والإنسان: غيب في هذا كله، والله سبحانه وتعالى قد أظهر من هذه الغيوب، وسيظهره بعد ما كان غيباً في التراب. وفائدة الأمر باليمين: أن لا يبقى للمعاندين عذرٌ أصلاً لما أنهم كانوا يعرفون أمانته ونزاهته عن وصمة الكذب، فضلاً عن اليمين الفاجرة، وإنما لم يصدقوه مكابرة، وهذا الكفر والتكذيب طبيعة النفوس الكاذبة المكذبة، فمن وكله الله بالخذلان إلى طبيعة نفسه.. لا يصدر منه إلا الإنكار، ومن نظره الله إلى قلبه بنظر العناية.. فلا يظهر

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

منه عند سماع قوله: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ﴾ إلا الإقرار والنطق بالحق.

ومعنى قوله: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾ تعالى؛ أي: لا يبعد عن علمه، ولا يغيب، ولا يستتر عليه ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾؛ أي: وزن نملة صغيرة، أو مقدار الهباء كائنة ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾، وفيه إشارة إلى علمه بالأرواح والأجسام ﴿وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ﴾ المثقال ﴿وَلَا أَكْبَرُ﴾ منه. ورفعهما على الابتداء، فلا وقف عند ﴿أَكْبَرُ﴾، والخبر: قوله تعالى: ﴿إِلَّا﴾ هو مسطور ومثبت ﴿فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ هو اللوح المحفوظ المظهر لكل شيء، وإنما كتب جرياً على عادة المخاطبين، لا مخافة نسيان، وليعلم أنه لم يقع خللٌ وإن أتى عليه الدهر، والجملة مؤكِّدة لنفي العزوب، والمعنى: إلا وهو مثبت في اللوح المحفوظ الذي اشتمل على معلومات الله تعالى.

فإن قيل: فأيُّ حاجة إلى ذكر الأكبر، فإن مَنْ علم الأصغر من الذرة لا بدَّ وأن يعلم الأكبر؟

فالجواب: أن المراد من هذا الكلام بيان إثبات الأمور في الكتاب، فلو اقتصر على الأصغر.. لتوهم متوهم أنه يثبت الصغائر؛ لكونها محل النسيان، وأمَّا الأكبر.. فلا ينسى، فلا حاجة إلى إثباته فقال: الإثبات في الكتاب ليس كذلك، فإن الأكبر مكتوب فيه أيضاً. اهـ «كرخي».

وقرأ الجمهور[1]: ﴿يَعْزُبُ﴾ بضم الزاي، وقرأ يحيى بن وثاب بكسرها، قال الفراء: والكسر أحبُّ إليَّ، وهما لغتان يقال: عزب يعزب بالضم، ويعزب بالكسر: إذا بعد وغاب. وقرأ الجمهور: ﴿وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ﴾ برفع الراءين بالرفع على الابتداء، والخبر ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾، كما مرَّ، أو على العطف على ﴿مِثْقَالُ﴾، ويكون ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ تأكيداً لما تضمن النفي في قوله: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾ تقديره: لكنه في كتاب مبين، وهو كناية عن ضبط الشيء والتحفظ به، فكأنه في كتاب وليس ثَمَّ كتاب حقيقة، وعلى التقدير الأول: الكتاب هو اللوح المحفوظ.

وقرأ قتادة والأعمش بفتح الراءين عطفاً على ﴿ذَرَّةٍ﴾ أو على أن ﴿لَا﴾ هي لا

---

(١) البحر المحيط.

التبرئة التي يبنى اسمها على الفتح. وقرأ زيد بن علي: ﴿ولا أصغرِ من ذلك ولا أكبرِ﴾ بخفض الراءين بالكسرة، كأنه نوى مضافاً إليه محذوفاً، التقدير: ولا أصغره، ولا أكبره، ومن ذلك ليس متعلقاً بأفعل، بل هو بتبيين؛ لأنه لما حذف المضاف إليه أبهم لفظاً، فبينه بقوله: ﴿مِن ذَٰلِكَ﴾.

قيل: قوله: ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ إشارة إلى علمه بالأرواح، ﴿وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إشارة إلى علمه بالأشباح، وكما أبرزهما من العدم إلى الوجود أولاً.. فكذلك يعيدهما ثانياً.

قيل: سبب نزول هذه الآية[1]: أن أبا سفيان قال لكفار مكة ـ لما سمعوا ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ ـ: إن محمداً يتوعدنا بالعذاب بعد أن نموت، ويخوفنا بالبعث، واللاتِ والعزى لا تأتينا الساعة أبداً، ولا نبعث، فقال الله: قل يا محمد: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾، قاله مقاتل. وباقي السورة تهديد لهم وتخويف، ومن ذكر هذا السبب ظهرت به المناسبة بين هذه السورة، والسورة التي قبلها.

ومعنى الآية: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ...﴾ الخ: أي[2]: وقال الذين ستروا ما أرشدتهم إليه عقولهم من البراهين الدالة على قيام الساعة: إنه لا رجعة بعد هذه الدنيا، ولا بعث ولا حساب، إن هي إلا أرحام تدفع، وأرض تبلع، وما نحن بمبعوثين، وقد أمر الله رسوله أن يرد عليهم مؤكداً لهم بطلان ما يدعون: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾؛ أي: قل لهم إنها وربي لآتية لا ريب فيها.

وهذه الآية إحدى آياتٍ ثلاث أمر الله فيها رسوله أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد حين أنكره من أنكر من أهل الشرك والعناد:

فإحداهن: في سورة يونس: ﴿۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

وثانيتها: في سورة التغابن: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾.

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

وثالثتها: ما هنا.

ثم وصف المولى نفسه بكامل العلم، وعظيم الإحاطة بالموجودات، مما يؤكِّد إمكان البعث، فقال: ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ﴾ الخ؛ أي: إن وقت مجيئها لا يعلمه سوى علام الغيوب الذي لا يغيب عن علمه شيء في السموات، ولا في الأرض، من ذرة فما دونها، ولا ما فوقها، أين كانت، وأين ذهبت، فكل ذلك محفوظ في كتاب مبين، فالعظام وإن تلاشت، واللحوم وإن تفرقت وتمزقت، فهو عالم أين ذهبت، وأين تفرقت، فيعيدها كما بدأها أول مرة، وهو بكل شيء عليم، ثم بيَّن الحكمة في إعادة الأجسام، وقيام الساعة بقوله:

﴿لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ﴾، واللام[1] فيه علة لقوله: ﴿لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾، وبيان لما يقتضي إتيانها، فاللام للعلة عقلاً، وللمصلحة والحكمة شرعاً؛ أي: إتيان الساعة فائدته ومصلحته وحكمته: جزاء المؤمنين بالثواب، والكافرين بالعقاب. والإشارة بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ للموصول؛ أي: أولئك الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ لذنوبهم؛ أي: لهم بسبب ذلك الإيمان والعمل الصالح مغفرة؛ أي: ستر ومحو لما صدر عنهم مما لا يخلو عنه البشر ﴿وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ لا تعب فيه، ولا منَّ عليه، وهو الجنة، بخلاف رزق الدنيا، فإنه لا يأتي إلا بتسبب وتعب.

والمعنى[2]: أي يبعثهم الله سبحانه من قبورهم يوم القيامة ليثيب الذين آمنوا بالله، وعملوا بما أمرهم به، وانتهوا عما نهاهم عنه، وأولئك لهم مغفرة لذنوبهم من لدنه، وعيش هنيء في الجنة، لا تعب فيه، ولا منَّ عليه.

والخلاصة: أنَّ الحكمة تقتضي وجودها، وليس هناك مانع منها، فالعلم المحيط بالغيب موجود، فقد وجد المقتضي لوجودها، وارتفع المانع من إتيانها.

ثم ذكر فريق الكافرين الذين يعاقبون عند إتيان الساعة، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ﴾ واجتهدوا ﴿فِيٓ﴾ إبطال ﴿ءَايَٰتِنَا﴾، وحججنا وأدلتنا التكوينية، أو التنزيلية المنزلة على الرسل بالرد والطعن فيها، وصدِّ الناس عن التصديق بها حالة كونهم ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾؛

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

أي: ظانين ومقدِّرين أنهم يعجزوننا، ويفوتوننا؛ لأنهم حسبوا أن لا بعث ولا نشور، فيكون لهم ثواب وعقاب.

قال في «البحر»: ظانين في زعمهم وتقديرهم أنهم يفوتوننا، وأن كيدهم للإسلام يتم لهم.

قرأ الجمهور[1]: ﴿مُعَاجِزِينَ﴾ مخففاً. وقرأ ابن كثير وابن محيصن وحميد ومجاهد وأبو عمرو والجحدري وأبو السمال: ﴿معجِّزين﴾ مثقلاً؛ أي: مثبطين للناس عن الإيمان بالآيات، مدخلين عليهم العجز في نشاطهم، وهذا هو معنى سعيهم في شأن الآيات، أو معجزين قدرة الله في زعمهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الساعون ﴿لَهُمْ﴾ بسبب ذلك ﴿عَذَابٌ﴾ عظيم ﴿مِّن رِّجْزٍ﴾؛ أي: من سيء العذاب، فـ﴿مِن﴾ للبيان، ﴿أَلِيمٌ﴾ بالرفع صفة ﴿عَذَابٌ﴾؛ أي: شديد الإيلام. وفي «المفردات»: أصل الرجز: الاضطراب، وهو في الآية كالزلزلة، والظاهر[2] أن قوله: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْ﴾ مبتدأ، والخبر في الجملة الثانية، وهي ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، وقيل: هو منصوب عطفاً على ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، والمعنى عليه: أي وليجزي الذين سعوا في إبطال أدلتنا وحججنا عناداً منهم، وكفراً، وظنوا أنهم يسبقوننا بأنفسهم، فلا نقدر عليهم بشديد العذاب في جهنم، وبئس المهاد؛ لما اجترحوا من السيئات، ودسوا به أنفسهم من قبيح الأعمال.

وإجمال ذلك: أن الساعة آتية لا ريب فيها؛ لينعم السعداء المؤمنون، ويعذَّب الأشقياء الكافرون.

قرأ الجمهور: ﴿أليم﴾ بالجر صفة لـ﴿رِّجْزٍ﴾. وقرأ ابن كثير، وحفص عن عاصم بالرفع صفة لـ﴿عَذَابٌ﴾، ونحو الآية قوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾، وقوله: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَٰبُ النَّارِ وَأَصْحَٰبُ الْجَنَّةِ أَصْحَٰبُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

ثم استشهد باعتراف أولي العلم ممن آمن من أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام، وكعب الأحبار وأضرابهما بصحة ما أنزل إليه؛ ليرد به على أولئك الجهلة

---

(١) البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط.

الساعين في الآيات الذين أنكروا الساعة، فقال: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ مستأنف[1] مسوق للاستشهاد بأولي العلم على الجهلة الساعين في الآيات؛ أي: ويعلم أولو العلم من أصحاب رسول الله ﷺ، ومن شايعهم من علماء الأمة، أو من آمن من علماء أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام، وكعب الأحبار، وغيرهما، والأول أظهر؛ لأن السورة مكية، كما في «التكملة».

﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿مِن رَّبِّكَ﴾؛ أي: النبوة والقرآن والحكمة، والموصول مع صلته مفعول أول لـ﴿يرى﴾. ﴿هو﴾ ضمير فصل يفيد التوكيد، كقوله تعالى: ﴿هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾. ﴿ٱلْحَقَّ﴾ بالنصب على أنه مفعول ثان لـ﴿يرى﴾، وبه قرأ الجمهور، وقرأ[2] ابن أبي عبلة بالرفع؛ جعل ﴿هُوَ﴾ مبتدأ، و﴿ٱلْحَقَّ﴾: خبره، والجملة في موضع المفعول الثاني لـ﴿يرى﴾، وهي لغة تميم، يجعلون ما هو فصل عند غيرهم مبتدأ، قاله أبو عمر الجرمي.

وقوله: ﴿وَيَهْدِىٓ﴾ عطف على ﴿ٱلْحَقَّ﴾، عطف فعل على اسم، كما في قوله تعالى: ﴿صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾؛ أي: وقابضات، فكأنه قيل: ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك الحق، وهادياً ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ﴾ الله ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ في ملكه ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ عند خلقه الذي هو التوحيد، والتوشح بلباس التقوى، وهذا يفيد رهبةً؛ لأن العزيز يكون ذا انتقام من المكذِّب، ورغبة؛ لأن الحميد يشكر على المصدِّق، والمراد: أنه يهدي إلى دين الله، وهو التوحيد.

ومعنى الآية[3]: أي وقال الجهلة المنكرون للبعث والحشر والحساب: إنه لا رجعة بعد هذه الدنيا، وقال العالمون من أهل الكتاب، ومن أصحاب رسول الله ﷺ، ومن يأتي من بعدهم من أمته: إن الذي أنزل إليك من ربك مثبتاً لقيام الساعة، ومجازاة كل عامل بما عمل من خير أو شر، هو الحق الذي لا شك فيه، وأنه هو الذي يرشد من اتبعه، وعمل به إلى سبيل الله الذي لا يغالب، ولا يمانع، وهو القاهر لكل شيء، والغالب له، وهو المحمود على جميع أفعاله وأقواله، وما أنزله

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

(٣) المراغي.

من شرع ودين.

وفي الآية: إيماء إلى أن دين الإسلام[1]، وتوحيد الملك العلام، هو الذي يتوصل به إلى عزة الدارين، وإلى القربة والوصلة والرؤية في مقام العين.

كما أن الكفر والتكذيب يتوصل به إلى المذمة والمذلة في الدنيا والآخرة، وإلى البعد والطرد والحجاب عما تعانيه القلوب الحاضرة، والوجوه الناظرة. قال بعض الكبار: يشير بالآية إلى الفلاسفة الذين يقولون: إن محمداً ﷺ كان حكيماً من حكماء العرب، وبالحكمة أخرج هذا الناموس الأكبر، يعنون: النبوة والشريعة، ويزعمون أن القرآن كلامه، أنشأه من تلقاء نفسه، يسعون في هذا المعنى مجاهدين جهداً تاماً في إبطال الحق، وإثبات الباطل، فلهم أسوأ الطرد والإبعاد؛ لأن القدح في النبوة ليس كالقدح في سائر الأمور، وأما الذين أوتوا العلم من عند الله تعالى موهبة منه، لا من عند الناس بالتكرار والبحث، فيعلمون أن النبوة والقرآن والحكمة هو الحق من ربهم، وإنما يرون هذه الحقيقة؛ لأنهم ينظرون بنور العلم الذي أوتوه من الحق تعالى، فإنَّ الحق لا يرى إلا بالحق، كما أن النور لا يرى إلا بالنور.

ولما كان يرى الحق بالحق.. كان الحق هادياً لأهل الحق وطالبيه إلى طريق الحق، وذلك قوله: ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾، فهو العزيز؛ لأنه لا يوجد إلا به، وبهدايته، والحميد؛ لأنه لا يرد الطالب بغير وجدان، كما قال: «ألا من طلبني وجدني». قال موسى عليه السلام: أين أجدك يا رب؟ قال: «يا موسى، إذا قصدت إليَّ فقد وصلت إليَّ» انتهى.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ منكري البعث، وهم كفار قريش، قالوا بطريق الاستهزاء مخاطباً بعضهم لبعض: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ يعنون به النبي ﷺ، وإنما قصدوا بالتنكير الهزء والسخرية؛ أي: هل نرشدكم إلى رجل ﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾؛ أي: يخبركم بأمر عجيب، ونبأ غريب، هو: ﴿أنكم إذا﴾ متم و﴿مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾؛ أي: وفرقت أجسادكم كل تفريق، وقطعتم كل تقطيع، وصرتم بعد موتكم رفاتاً وتراباً ﴿إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾؛ أي: تخلقون خلقاً جديداً وتبعثون من قبوركم أحياء،

---

(١) روح البيان.

وتعودون إلى الصور التي كنتم عليها أولاً، والخلق الجديد إشارة إلى النشأة الثانية.

والعامل في ﴿إِذَا﴾ محذوف دلَّ عليه ما بعده؛ أي: تنشأون خلقاً جديداً، ولا يعمل فيها مزقتم؛ لإضافتها إليه، والمضاف إليه لا يعمل في المضاف، ولا ينبئكم؛ لأن التنبئة لم تقع وقت التمزيق، بل تقدمت عليه،ولا جديد؛ لأن ما بعد إن لا يعمل فيما قبلها.

قال هذا القول بعضهم لبعض؛ استهزاءً بما وعدهم الله على لسان رسوله من البعث، وأخرجوا الكلام مخرج التلهي به، والتضاحك مما يقوله من ذلك، كما يقول الرجل لمن يريد أن يعجبه: هل أدلك على قصة غريبة نادرة؛ لما كان البعث عندهم من المحال.. جعلوا من يخبر عن وقوعه في حيز من يتعجب منه، وأتوا باسمه عليه السلام نكرةً في قوله: هل ندلكم على رجل، وكان اسمه أشهر علم في قريش، بل في الدنيا، وإخباره بالبعث أشهر خبر؛ لأنهم أخرجوا ذلك مخرج الاستهزاء، والتحلي ببعض الأحاجي المعمولة للتلهي والتعمية، فلذلك نكروا اسمه، كما سبق.

وقرأ الجمهور[١]: ﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾ بالهمز والتشديد، وزيد بن علي بإبدال الهمزة ياءً محضةً، وحكى عنه الزمخشري: ﴿ينبئكم﴾ بالهمز من ﴿أنبأ﴾ ومعنى الآية: أي: وقال قريش بعضهم لبعض تعجباً واستهزاءً وتهكماً وإنكاراً: هل سمعتم برجل يقول: إنا إذا تقطعت أوصالنا، وتفرقت أبداننا، وبليت عظامنا.. نرجع كرةً أخرى أحياءً كما كنا، ونحاسب على أعمالنا، ثم نثاب على الإحسان إحساناً، ونجزى على اجتراح الآثام آلاماً بنار تلظى، تشوي الوجوه والأجسام.

وخلاصة ذلك: أنه يقول: إذا أكلتكم الأرض، وصرتم رفاتاً وعظاماً، وقطعتكم السباع والطير.. ستحيون وتبعثون، ثم تحاسبون على ما فرِّط منكم من صالح العمل وسيِّئه.

ثم حكى سبحانه عن هؤلاء الكفار أنهم رددوا ما وعدهم به رسول الله ﷺ من البعث بين أمرين، فقالوا: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فيما قاله، وهذا أيضاً من كلام الكفار، وأصل[٢] ﴿افترى﴾: أافترى بهمزة الاستفهام المفتوحة الداخلة على همزة

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.

الوصل المكسورة للإنكار والتعجب، فحذفت همزة الوصل تخفيفاً مع عدم اللبس، والفرق بين الافتراء والكذب: أن الافتراء هو افتعال الكذب من قول نفسه، والكذب قد يكون على وجه التقليد للغير فيه؛ أي: هل اختلق محمد على الله كذباً ﴿أَم﴾ لم يفترِ، بل ﴿بِهِ جِنَّةٌ﴾؛ أي: جنون يوهمه ذلك، ويلقيه على لسانه من غير قصد، والجنون: حائل بين النفس والعقل، وهذا حصر للخبر الكاذب بزعمهم في نوعيه، وهما: الكذب على عمد، وهو المعني بالافتراء، والكذب لا عن عمد، وهو المعني بالجنون، فيكون معنى ﴿أَم بِهِ جِنَّةٌ﴾: أم لم يفترِ، فعبر عن عدم الافتراء بالجنة؛ لأن المجنون لا افتراء له؛ لأن الكذب عن عمد ولا عمد للمجنون، فالإخبار حال الجنة قسيم للافتراء الأخص، لا الكذب الأعم.

ثم رد عليهم سبحانه ما قالوه في رسوله، فقال: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾؛ أي: ليس محمد من الافتراء والجنون في شيء كما زعموا، وهو مبرَّأ منهما، بل هؤلاء القائلون الكافرون بالحشر والنشر واقعون ﴿فِي ٱلْعَذَابِ﴾ في الآخرة ﴿و﴾ واقعون في الدنيا في ﴿ٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ عن الصواب والهدى، بحيث لا يرجى الخلاص منه. ووصف الضلال بالبعد على الإسناد المجازي للمبالغة؛ إذ هو في الأصل وصف الضالِّ، لأنه الذي يتباعد عن المنهاج القويم، وكلما ازداد بعداً عنه.. كان أضل. وتقديم العذاب على ما يوجبه ويؤدي إليه، وهو الضلال للمسارعة إلى بيان ما يسوؤهم، وجعل العذاب والضلال محيطين بهم إحاطة الظرف بالمظروف؛ لأن أسباب العذاب معهم، فكأنهم في وسطه، ووضع الموصول موضع ضميرهم للتنبيه على أنَّ علة ما اجترؤوا عليه كفرهم بالآخرة، وما فيها من فنون العقاب، ولولاه لما فعلوا ذلك خوفاً من غائلته.

وحاصل الآية[1]: إثبات الجنون الحقيقي لهم، فإن الغفلة عن الوقوع في العذاب وعن الضلال الموجب لذلك جنون أي جنون، واختلال عقل أي اختلال؛ إذ لو كان فهمهم وإدراكهم تاماً وكاملاً.. لفهموا حقيقة الحال، ولما اجترؤوا على سوء المقال.

قال بعضهم: كما أن الطفل الصغير يسبى إلى بعض البلاد، فينسى وطنه

---

(١) روح البيان.

الأصلي بحيث لو ذكر به لم يتذكر، كذلك نفس الإنسان القاسي قلبه، إن ذكر بالآخرة، وهو وطنه الأصلي لم يتذكر، ويكفر به، ويقول مستهزئاً ما يقول، ولا يتفكر أن أجزاءه كانت متفرقة حين كان هو ذرة أخرجت من صلب آدم، كيف جمع الله ذرات شخصه المتفرقة، وجعلها خلقاً جديداً، كذلك يجمع الله أجزاءه المتفرقة للبعث.

والمعنى[1]: أي ليس الأمر كما زعموا، ولا كما ذهبوا إليه، بل إنَّ محمداً هو البر الرشيد الذي جاء بالحق، وإنهم هم الكذبة الجهلة الأغبياء، الذين بلغوا الغاية في اختلال العقل، وأوغلوا في الضلال، وبعدوا عن الإدراك والفهم، وليس هذا إلا الجنون بعينه، وسيؤدي ذلك بهم إلى العذاب؛ إذ هم قد أنكروا حكمة الله في خلق العالم، وكذبوه في وعده ووعيده، وتعرضوا لسخطه.

ثم ذكرهم بما يعاينون مما يدلّ على كمال قدرته، وفيه تنبيه لهم إلى ما يحتمل أن يقع لهم من القوارع التي تهلكهم، وتهديد على ما اجترحوا من السيئات، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا﴾ الهمزة فيه للاستفهام التوبيخي المضمن للإنكار، داخلة على محذوف[2]، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أفعلوا ما فعلوا من المنكر المستتبع للعقوبة، فلم يروا ولم ينظروا ﴿إِلَىٰ مَا﴾ أحاط بهم من ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾، وقدامهم ﴿وَ﴾ إلى ﴿ما﴾ أحاط بهم من ﴿خَلْفَهُم﴾ وورائهم حالة كون ما أحاط بهم ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فإنهما أحاطا بهم من جميع جوانبهم، من أمامهم وخلفهم، ويمينهم وشمالهم، حيثما كانوا وساروا، بحيث لا مفر ولا مهرب لهم.

والمعنى: أنهم إذا نظروا.. رأوا السماء خلفهم وقدامهم، وكذلك إذا نظروا في الأرض.. رأوها خلفهم وقدامهم، فالسماء والأرض محيطتان بهم، فهو القادر على أن ينزل بهم ما شاء من العذاب بسبب كفرهم وتكذيبهم لرسوله، وإنكارهم للبعث، فهذه الآية اشتملت على أمرين:

أحدهما: أن هذا الخلق الذي خلقه الله تعالى من السماء والأرض يدل على كمال القدرة على ما هو دونه من البعث، كما في قوله: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(١) المراغي.　　　(٢) روح البيان.

﴿وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾.

والأمر الآخر: التهديد لهم، بأن من خلق السماء والأرض على هذه الهيئة التي قد أحاطت بجميع المخلوقات فيهما.. قادرٌ على تعجيل العذاب لهم.

ومن المعلوم[1]: أن ما بين يدي الإنسان هو كل ما يقع نظره عليه من غير أن يحوِّل وجهه إليه، وما خلفه هو كل ما لا يقع نظره عليه، حتى يحوِّل وجهه إليه، فيعم الجهات كلها.

فإن قلت: هلا ذكر الأيمان والشمائل، كما ذكرهما في قوله في الأعراف: ﴿لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾؟

فالجواب: أنه وجد هنا ما يغني عن ذكرهما من لفظ العموم، والسماء والأرض، بخلاف ما هناك. اهـ «كرخي».

ثم بيَّن المحذور المتوقع من جهة السماء والأرض، فقال: ﴿إِن نَّشَأْ﴾ جرياً على موجب جناياتهم ﴿نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: نغيبها من تحتهم، كما خسفناها بقارون وأشياعه ﴿أَوْ﴾ إن نشأ ﴿نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا﴾ وقطعاً ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، كما أسقطناها على أصحاب الأيكة؛ لأن ذلك بما ارتكبوه من الجرائم.

ومعنى إسقاط الكسف من السماء[2]: إسقاط قطع من النار، كما وقع لأصحاب الأيكة، وهم قوم شعيب، كانوا أصحاب غياض ورياض وأشجار ملتفة؛ حيث أرسل الله تعالى عليهم حراً شديداً، فرأوا سحابةً، فجاؤا ليستظلوا تحتها، فأمطرت عليهم النار، فاحترقوا.

والمعنى[3]: أي أفلم ينظر هؤلاء المكذبون بالمعاد، الجاحدون للبعث بعد الممات، فيعلموا أنهم حيث كانوا فإن أرضي وسمائي محيطة بهم من بين أيديهم ومن خلفهم، وعن أيمانهم وعن شمائلهم، فيرتدعوا عن جهلهم، ويزدجروا عن تكذيبهم، حذر أن نأمر الأرض فتخسف بهم، أو نأمر السماء فتسقط عليهم كسفاً، فإنا إن نشأ أن نفعل ذلك بهم.. فعلنا، لكنا نؤخِّره لحلمنا وعفونا؛ أي: حيثما

---

(١) الفتوحات.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

كانوا.. فالسماء والأرض قد أحاطتا بهم، ولا يقدرون أن ينفذوا من أقطارهما، ولا يخرجوا من ملكوت الله فيهما.

وإجمال ذلك: أنه تعالى ذكرهم بأظهر شيء لديهم يعاينونه حيثما وجدوا، ولا يغيب عن أبصارهم حيثما ذهبوا، وفيه الدليل على قدرته على البعث والإحياء، فإن من قدر على خلق تلك الأجرام العظام.. لا تعجزه إعادة الأجسام، فهي إذا قيست بها.. كانت كأنها لا شيء، كما قال: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾، وفي هذا ما لا يخفي من التنبيه إلى مزيد جهلهم المشار إليه بالضلال البعيد.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ﴾، و﴿نُسْقِطْ﴾ بنون العظمة في الثلاثة، وقرأ حمزة والكسائي وابن وثاب وعيسى والأعمش وابن مطرف: بالياء التحتية في الأفعال الثلاثة؛ أي: إن يشأ الله. وقرأ الكسائي وحده بإدغام الفاء في الباء في: ﴿نَخْسِف بِهِمُ﴾. قال أبو علي: وذلك لا يجوز؛ لأن الباء أضعف في الصوت من الفاء، فلا تدغم فيها، وإن كانت الباء تدغم في الفاء، نحو: اضرب فلاناً. وقال الزمخشري: وقرأ الكسائي: ﴿نَخْسِف بِهِمُ﴾ بالإدغام، وليست بقوية. انتهى.

قلت: والقراءة سنة متبعة، ويوجد فيها الفصيح والأفصح، وكل ذلك من تيسير الله تعالى القرآن للذكر، فلا التفات لقول أبي علي، ولا الزمخشري.

ثم ذكر ما هو كالعلة في الحثِّ على الاستدلال بذلك ليزيح إنكارهم بالبعث، فقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ إن فيما ذكر من السماء والأرض من حيث إحاطتهما بالناظر من جميع الجوانب، أو فيما تلي من الوحي الناطق بما ذكر ﴿لَأَيَةً﴾؛ أي: لدلالة واضحة تدل على قدرتنا على البعث بعد الموت ﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾؛ أي: راجع إلى ربه، مطيع له في أمره ونهيه، فإن من شأنه الإنابة، والرجوع إلى الله، إذا تأمل فيهما، أو في الوحي المذكور.. ينزجر عن تعاطي القبيح، وينيب إليه تعالى.

والمعنى[2]: أي إن في النظر إلى خلق السموات والأرض لدلالة لكل عبد فطن منيب إلى ربه على كمال قدرتنا على بعث الأجساد، ووقوع المعاد؛ لأن من

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

قدر على خلق هذه السموات على ارتفاعها واتساعها، وعلى هذه الأرض على انخفاضها وطولها وعرضها.. قادر على إعادة الأجسام، ونشر الرميم من العظام، كما قال: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

فإن قلت: لم قال هنا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ بإفراد الآية، وقال فيما بعد: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ بجمعها، فما الفرق بين المقامين؟

قلت: إن ما هنا إشارة إلى إحياء الموتى، فناسبه الإفراد، وما بعد إشارة إلى سبأ قبيلة في البلاد، فصاروا فرقاً، فناسبه الجمع. اهـ «كرخي».

وفي الآية[1]: حثٌّ بليغ على التوبة والإنابة، وزجر عن الجرم والجناية، وأن العبد الخائف لا يأمن قهر الله طرفة عين، فإن الله قادر على كل شيء، يوصل اللطف والقهر من كل ذرة من ذرات العالم. قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: إذا صدق العبد في توبته.. صار منيباً؛ لأن الإنابة ثاني درجة التوبة. وقال أبو سعيد القرشي: المنيب: الراجع عن كل شيء يشغله عن الله إلى الله. وقال بعضهم: الإنابة: الرجوع منه إليه، لا من شيء غيره، فمن رجع من غيره إليه.. ضيع أحد طرفي الإنابة، والمنيب على الحقيقة: من لم يكن له مرجع سواه، ويرجع إليه من رجوعه، ثم يرجع من رجوع رجوعه، فيبقى شبحاً لا وصف له، قائماً بين يدي الحق، مستغرقاً في عين الجمع:

هَجَرْتُ ٱلْخَلْقَ كُلاً فِيْ هَوَاكَا ... وَأَيْتَمْتُ ٱلْعِيَالَ لِكَيْ أَرَاكَا
فَلَوْ قَطَّعْتَنِيْ فِيْ ٱلْحُبِّ إِرْباً ... لَمَا سَكَنَ ٱلْفُؤَادُ إِلَىٰ سِوَاكَا

وقال بعضهم: هجر النفس: مواصلة الحق، ومواصلة النفس: هجر الحق، ومن الله: الإيصال إلى مقام الوصال.

ثم ذكر سبحانه وتعالى من عباده المنيبين إليه: داود وسليمان، فقال ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لقد أعطينا داود عليه السلام ﴿مِنَّا﴾؛ أي: من

---

(١) روح البيان.

جهتنا بلا واسطة ﴿فَضْلًا﴾؛ أي: زيادة ودرجة؛ أي: نوعاً من الفضل على سائر الأنبياء مطلقاً، سواء كانوا أنبياء بني إسرائيل، أو غيرهم، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، والفاضل من وجه، لا ينافي كونه مفضولاً من وجه آخر. وهذا الفضل الذي أعطي داود عليه السلام هو ما ذكر بعد من تأويب الجبال، وتسخير الطير، وإلانة الحديد، فإنه معجزة خاصة به، وهذا لا يقتضي انحصار فضله فيها، فإنه تعالى أعطاه الزبور، كما قال في مقام الامتنان والتفضل: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾.

قال في «التأويلات النجمية»: والفرق بين داود، وبين نبينا محمد ﷺ: أنه ذكر فضله في حق داود على صفة النكرة، وهي تدل على نوع من الفضل، وشيء منه، وهو الفيض الإلهي بلا واسطة، كما يدل عليه كلمة ﴿مِنَّا﴾، وقال في حق نبينا ﷺ: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ والفضل الموصوف بالعظمة يدل على كمال الفضل، وكذا قوله: ﴿فَضْلُ اللَّهِ﴾ لما أضاف الفضل إلى الله.. اشتمل على جميع أنواع الفضل. انتهى.

ويجوز أن يكون التنكير للتفخيم، و﴿مِنَّا﴾ لتأكيد فخامته الذاتية لفخامته الإضافية على أن يكون المفضل عليه غير الأنبياء، فالمعنى إذاً: ولقد آتينا داود بلا واسطة فضلاً عظيماً على سائر الناس، كالنبوة والعلم والقوة والملك والصوت الحسن، وغير ذلك.

وقوله: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ مقول لقول محذوف هو بدل من آتينا؛ أي: ولقد آتينا داود منا فضلاً، وقلنا للجبال: يا جبال أوبي وسبحي مع داود إذا سبح، أو هو مقول لمصدر قول محذوف بدل من ﴿فَضْلًا﴾؛ أي: ولقد آتينا داود منا فضلاً، وقَوْلنا: يا جبال أوبي معه. والتأويب على معنيين:

أحدهما: الترجيع؛ لأنه من الأوب، وهو الرجوع.

والثاني: السير بالنهار كله. فالمعنى على الأول: رجِّعي معه التسبيح، وسبِّحي مرةً بعد مرة، وذلك بأن يخلق الله تعالى فيها صوتاً مثل صوته، كما خلق الكلام في شجرة موسى عليه السلام، فكان كلما سبَّح سمع من الجبال ما يسمع من المسبح، ويعقل معنى معجزةً له. قالوا: فمن ذلك الوقت يسمع الصدى من

الجبال، وهو ما يرده الجبال على المصوت فيه. والمعنى على الثاني: سيري معه حيث سار، ولعل[1] حكمة تخصيص الجبال بالتسبيح أو السير؛ لإنها على صور الرجال، كما دل عليه ثباتها، وقيل: معناه: كان إذا لحقه ملل أو فتور.. أسمعه الله تسبيح الجبال، فينشط له.

وقرأ الجمهور: ﴿أَوِّبِي﴾ بفتح الهمزة وتشديد الواو على صيغة الأمر من التأويب، وهو: الترجيع، أو التسبيح، أو السير، أو النوح. وقرأ ابن عباس والحسن وقتادة وابن أبي إسحاق: بضم الهمزة، أمراً من: آب يؤوب: إذا رجع؛ أي: ارجعي معه. ﴿وَالطَّيْرَ﴾ قرأه الجمهور بالنصب عطفاً على ﴿فَضْلًا﴾ على معنى: وسخرنا له الطير؛ لأن إيتاءَها إياه: تسخيرها له، فلا حاجة إلى إضماره، ولا إلى تقدير المضاف؛ أي: تسبيح الطير، كما في «الإرشاد»، أو عطفاً على محل: ﴿يَا جِبَالُ﴾؛ لأنه منصوب تقديراً؛ إذ المعنى: نادينا الجبال والطير. وقال سيبويه وأبو عمرو بن العلاء: انتصابه بفعل مضمر على معنى: وسخرنا له الطير. وقال الزجاج والنحاس: يجوز أن يكون مفعولاً معه، كما تقول: استوى الماء والخشبة. وقال الكسائي: إنه معطوف على ﴿فَضْلًا﴾ لكن على تقدير مضاف محذوف؛ أي: آتيناه فضلاً، وتسبيح الطير.

وقرأ السلمي والأعرج ويعقوب وأبو نوفل وابن أبي إسحاق ونصر بن عاصم ومسلمة بن عبد الملك[2]: بالرفع، عطفاً على لفظ «الجبال»، أو على المضمر في ﴿أَوِّبِي﴾ لوقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه.

نزَّل الجبال والطير منزلة العقلاء[3]؛ حيث نوديت نداءهم؛ إذ ما من حيوان وجماد إلا وهو منقاد لمشيئته، ومطيع لأمره، فانظر؛ إذ من طبع الصخور الجمود، ومن طبع الطير النفور، ومع هذا قد وافقته عليه السلام، فأشد منها القاسية قلوبهم، الذين لا يوافقون ذكراً، ولا يطاوعون تسبيحاً، وينفرون من مجالس أهل الحق نفور الوحوش، بل يهجمون عليها بأقدام الإنكار، كأنهم الأعداء من الجيوش.

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.
(٣) روح البيان.

قال المولى الجامي: وإنما كان تسبيح الجبال والطير لتسبيحه؛ لأنه لما قوي توجهه عليه السلام بروحه إلى معنى التسبيح والتحميد.. سرى ذلك إلى أعضائه وقواه، فإنها مظاهر روحه، ومنها إلى الجبال والطير فإنها صور أعضائه وقواه في الخارج، فلا جرم يسبحن لتسبيحه، وتعود فائدة تسبيحها إليه، يعني: لما كان تسبيحها ينشأ عن تسبيحه، لا جرم يكون ثوابه عائداً إليه، لا إليها؛ لعدم استحقاقها لذلك. انتهى.

وقوله: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ معطوف على ﴿ءَاتَيْنَا﴾؛ أي: ولقد جعلنا الحديد لداود ليناً في نفسه، كالشمع والعجين والمبلول، يصرفه في يده كيف يشاء، من غير إحماءٍ بنار، ولا ضربٍ بمطرقة، أو جعلنا الحديد بالنسبة إلى قوته التي آتيناها إياه ليناً، كالشمع بالنسبة إلى سائر قوى البشرية، وكان داود أوتي شدة قوة في الجسد، وإن لم يكن جسيماً، وهو أحد الوجهين لقوله: ﴿ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ في سورة ص، وأمرناه بـ﴿أَنِ ٱعْمَلْ﴾ واصنع من الحديد لك، ولغيرك دروعاً ﴿سَٰبِغَٰتٍ﴾؛ أي: واسعات طويلات تامات، تغطي لابسها حتى تفضل عنه، فيجرها على الأرض، وتقيه شر الحرب. والأولى جعل ﴿أَنِ﴾ هنا مصدرية، حذف منها باء الجر، لا مفسرة، وهو عليه السلام أول من اتخذها، وكانت قبل ذلك صفائح حديد مضروبة ثقالاً على لابسها.

وقرىء: ﴿صابغات﴾ بالصاد بدلاً من السين، وتقدم أنها لغة في قوله: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ﴾. قال المفسرون: كان[1] داود عليه السلام حين ملك على بني إسرائيل يخرج متنكِّراً، فيسأل الناس: ما تقولون في داود؟ فيثنون عليه، فقيَّض الله له ملكاً في صورة آدميّ، فسأله على عادته، فقال له الملك: نعم الرجل لولا خصلة فيه، فسأله عنها، فقال: إنه يأكل ويطعم عياله من بيت المال، ولو أكل من عمل يده. لتمت فضائله، فعند ذلك سأل ربه أن يسبّب له ما يستغني به عن بيت المال، فعلَّمه تعالى صنعة الدروع، فكان يعمل كل يوم درعاً ويبيعها بأربعة آلاف درهم، أو بستة آلاف، ينفق عليه وعلى عياله ألفين، ويتصدق بالباقي على فقراء بني إسرائيل.

وفي الحديث: «كان داود لا يأكل إلا من كسب يده»، وفي الآية دليل على

---

(١) روح البيان.

تعلم أهل الفضل الصنائع، فإن العمل بها لا ينقص بمرتبتهم، بل ذلك زيادة في فضلهم؛ إذ يحصل لهم التواضع في أنفسهم، والاستغناء عن غيرهم، وفي الحديث: «إن خير ما أكل المرء من عمل يده».

﴿وَقَدِّرْ﴾؛ أي: واقتصد وتوسَّطْ ﴿فِي ٱلسَّرْدِ﴾؛ أي: في نسج الدروع بحيث تناسب مساميرها لحلقاتها؛ أي: لا تجعل مسمار الدرع دقيقاً فيقلقل، ولا غليظاً فيفصم الحلق، أو المعنى: توسط عند نسج الدروع في حلقاتها؛ أي: لا تعملها صغيرة، فتضعف، ولا يقوى الدرع على الدفاع، ولا تعملها كبيرة، فتثقل على لابسها، أو المعنى: اجعل[1] كل حلقة مساوية لأختها، ضيقة، لا ينفذ منها السهم لغلظها، ولا تثقل حاملها، واجعل كلها بنسبة واحدة، وقدر واحد. أو المعنى: قدر وتوسط في سرد الدروع ونسجها، ولا تصرف جميع أوقاتك إلى نسج الدروع، بل اشتغل به مقدار ما تحصل به قوتك وحوائجك، وأما باقي الأوقات.. فاصرفه إلى عبادة ربك.

قال الرازي: أي إنك غير مأمور به أمر إيجاب، وإنما هو اكتساب، والكسب يكون بقدر الحاجة، وباقي الأيام والليالي للعبادة، فقدر في ذلك العمل، ولا تشغل جميع أوقاتك بالكسب، بل حصِّل فيه القوت فحسب. انتهى.

وهذا المعنى هو المناسب لما بعده، وهو قوله: ﴿وَٱعْمَلُواْ﴾ يا آل داود، خطاب له ولأهله لعموم التكليف، ويجوز أن يكون أمراً لداود فقط؛ شرفه الله بأن خاطبه خطاب الجمع. ﴿صَٰلِحًا﴾؛ أي: عملاً صالحاً خالصاً من الأغراض ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لا أضيع عمل عامل منكم، فأجازيكم عليه، وهو تعليل للأمر، أو لوجوب الامتثال به، والبصير: هو المدرك لكل موجود برؤيته، ومن عرف أنه البصير.. راقبه في الحركات والسكنات، حتى لا يراه حيث نهاه، أو يفقده حيث أمره. وخاصية هذا الاسم وجود التوفيق، فمن قرأه قبل صلاة الجمعة مئة مرة.. فتح الله بصيرته، ووفَّقه لصالح القول والعمل، وإن كان الإنسان لا يخلو عن الخطأ.

---

(١) الصاوي.

وإجمال معنى الآية: وعزتي وجلالي لقد[1] أعطينا داود عليه السلام منَّا نعماً ومنناً فقلنا للجبال وللطير: رجعي معه التسبيح، ورددیه إذا سبح ذلك بأن نحمله عليه إذا تأمل عجائبها، فهي له مذكرات، كما يذكر المسبِّح مسبِّحاً آخر، وجعلنا الحديد في يده ليناً، يسهل تصويره وتصريفه كما يشاء، فيعمل منه الدروع وآلات الحرب على أتم النظم، وأحكم الأوضاع، فيجعل حلقاتها على قدر الحاجة، فلا هي بالضيقة فتضعف، ولا تؤدي وظيفتها لدى الكر والفر، والشد والجذب، ولا هي بالواسعة التي ربما ينال صاحبها من خلالها الأذى. وهذا تعليم من الله تعالى له في إجادة نسج الدروع.

قال قتادة: إن داود أول من عملها حلقاً، وكانت قبل ذلك صفائح، فكانت ثقالاً. واعمل يا داوود أنت وآلك بطاعة الله تعالى، فأجازيكم كفاء ما عملتم، ثم علل هذا الأمر بقوله: ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾؛ أي: إني مراقب لكم، مطلع عليكم، بصير بأعمالكم وأقوالكم، لا يخفى عليَّ شيء منها، وفي هذا ما لا يخفي من التنبيه والإغراء بإصلاح العمل، والإخلاص فيه.

ثم ذكر سبحانه ما أنعم به على ولده سليمان من النبوة والملك والجاه العظيم فقال: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾؛ أي: وسخرنا لسليمان عليه السلام الريح، وهي ريح الصبا.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿ٱلرِّيحَ﴾ بالنصب على تقدير: وسخرنا لسليمان الريح، كما قاله الزجاج. وقرأ عاصم في رواية أبي بكر عنه بالرفع على الابتداء والخبر، أي: والريح مسخرة لسليمان، وقرأ الجمهور: ﴿ٱلرِّيحَ﴾ بالإفراد، وقرأ الحسن وأبو حيوة وخالد بن إلياس: ﴿الرياح﴾ بالجمع.

﴿غُدُوُّهَا﴾؛ أي: جريها وسيرها بالغداة؛ أي: من لدن طلوع الشمس إلى زوالها، وهو وقت انتصاف النهار ﴿شَهْرٌ﴾؛ أي: مسيرة شهر؛ أي: مسير دواب الناس في شهر. ﴿وَرَوَاحُهَا﴾؛ أي: جريها وسيرها بالعشي؛ أي: من انتصاف النهار إلى الليل ﴿شَهْرٌ﴾؛ أي: مسيرة شهر، ومسافته، يعني: كانت تسير في يوم واحد

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.

مسيرة شهرين للراكب المسرع، والجملة إما مستأنفة، أو حال من الريح. وعن الحسن: كان يغدو من دمشق مع جنوده على البساط، فيقيل باصطخر، وبينهما مسيرة شهر للراكب المسرع، واصطخر: بزنة فردوس بلدة من بلاد فارس بناها لسليمان صخر الجني المراد بقوله: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ ثم يروح من اصطخر، ويبيت بكابل، وبينهما مسيرة شهر للراكب المسرع، وكابل بضم الباء الموحدة: ناحية معروفة من بلاد الهند، وكان عليه السلام يتغدى بالري، ويتعشى بالسمرقند، والري: من مشاهير ديار الديلم بين قومس والجبال، والسمرقند: أعظم مدينة بما وراء النهر؛ أي: نهر جيحون.

قال مقاتل: كان ملك سليمان ما بين مصر وكابل. وقال بعضهم: جميع الأرض، وهو الموافق لما اشتهر عندهم من أنه ملك الدنيا كلها أربعة: اثنان من أهل الإسلام، وهما: الاسكندر وسليمان، واثنان من أهل الكفر، وهما: نمرود وبختنصر.

﴿وَأَسَلْنَا﴾؛ أي: أذبنا وأجرينا ﴿لَهُۥ﴾؛ أي: لسليمان ﴿عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾؛ أي: عين النحاس المذاب أساله من معدنه، كما ألان الحديد لأبيه داود، فنبع منه نبوع الماء من الينبوع، ولذلك سمي عيناً. وكان ذلك باليمن بقرب صنعاء. وقال القرطبي: والظاهر أن الله جعل النحاس لسليمان في معدنه عيناً تسيل كعيون المياه دلالة على نبوته. اهـ. واصطناع الناس في النحاس بعد لينه وإذابته - ولو كانت بالنار - من آثار الكرامة التي أعطيها سليمان، ولولاها ما لان النحاس أصلاً؛ لأنه قبل سليمان لم يكن يلين أصلاً بنار ولا بغيرها اهـ «شيخنا».

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ﴾: خبر مقدم ﴿مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: مبتدأ مؤخر؛ أي: ومن يعمل بين يدي سليمان كائن من الجن. ويجوز أن يكون ﴿مَن يَعْمَلُ﴾ منصوباً بفعل مقدر، و﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ متعلق بهذا المقدر، أو حال من ﴿مَن﴾ الموصولة، ويؤيد هذا الاحتمال ما في سورة صۤ من قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾﴾ فإنه منصوب بـ﴿سَخَّرْنَا﴾ المصرح به. والتقدير: وسخرنا له من يعمل بين يديه وقدامه حال كونه من الجن، وقوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ متعلق بـ﴿يَعْمَلُ﴾؛ أي: يعمل له بإذن ربه؛ أي: بأمره كما ينبيء عنه قوله: ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾؛ أي: ومن يعدل من الجن ويميل عما أمرناه به من طاعة سليمان ويعصه ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ

﴿ٱلسَّعِيرِ﴾؛ أي: ندخله في الآخرة عذاب النار المسعرة. وهذا ما عليه جمهور المفسرين. وقيل: نذقه في الدنيا من عذاب النار، وقال السدي: وكل الله تعالى بالجن ملكاً بيده سوط من نار، فمن زاغ عن أمر سليمان.. ضربه بذلك السوط من حيث لا يراه ضربة أحرقته بالنار.

والمعنى: أي وسخرنا له من الجن من يبني له الأبنية وغيرها بقدرة ربه وتسخيره، ومن يخرج منهم عن طاعته.. نذقه عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة، وإنا لنوقن بصدق ما جاء به القرآن من استخدام سليمان للجن، ولا نعلم كيف كان يستخدمهم في أعماله، ولكن نشاهد آثار استخدامه لهم من المباني الشاهقة، والقصور العظيمة، والتماثيل البديعة.

ثم بيَّن سبحانه ما يعمله الجن لسليمان فقال: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ﴾؛ أي: يعمل الجن لسليمان ﴿مَا يَشَآءُ﴾ سليمان ويريد ﴿مِن مَّحَٰرِيبَ﴾ بيان لما يشاء، جمع: محراب، وهو البناء المرتفع الذي يرقى إليه بدرج، والقصر العالي. سمي محراباً؛ لأنه يذب عنه، ويحارب عليه تشبيهاً بمحراب المسجد؛ لأنه يحارب فيه الشيطان، كما سيأتي البحث عنه في مبحث مفردات اللغة.

والمعنى: يبنون له ما يشاء من قصور حصينة، ومساكن شريفة، سميت بذلك؛ لأنها يذب عنها، ويحارب عليها. قال المفسرون: فبنتِ الشياطين لسليمان تدمر على زنة تنصر، وهي بلدة بالشام، والأبنية العجيبة باليمن، وهي صرواح ومرواح وبينون وسلحين وهيذة وهنيذة وفلتوم وغمدان، ونحوها. وكلها خراب الآن، وعملوا له بيت المقدس في غاية الحسن والبهاء.

قصة بناء سليمان لبيت المقدس

وروي[1]: أنه أراد داود عليه السلام بنيان بيت المقدس، فبناه مراراً، فلما فرغ منه تهدم، فشكا ذلك إلى الله تعالى، فأوحى الله إليه أن بيتي هذا لا يقوم على يدي من سفك الدماء، فقال داود: يا رب، ألم يكن ذلك في سبيلك؟ قال: بلى، ولكنهم أليسوا عبادي، فقال: يا رب، اجعل بنيانه على يدي من هو مني، فأوحى

---

(١) روح البيان.

الله تعالى إليه أن ابنك سليمان يبنيه، فإني أملِّكه بعدك، وأسلِّمه من سفك الدماء، وأقضي إتمامه على يده. وسبب هذا: أن الشفقة على خلق الله أحق بالرعاية من الغيرة في الله بإجراء الحدود المفضية إلى هلاكهم، ولكون إقامة هذه النشأة أولى من هدمها فرض الله في حق الكفار الجزية والصلح إبقاءً عليهم، ألا ترى من وجب عليه القصاص كيف شرع لولي الدم أخذ الفدية أو العفو، فإن أبى فحينئذ يقتل. ألا ترى سبحانه إذا كان أولياء الدم جماعة، فرضي واحد بالدية، أو عفا عن حقه، وباقي الأولياء لا يرون إلا القتل كيف يراعي من عفا، ويرجَّح على من لم يعفُ، فلا يقتل قصاصاً.

ثم نرجع إلى القصة: فصلوا فيه زماناً، وكان مولد سليمان بغزة، وملك بعد أبيه، وله اثنتا عشرة سنة، ولما كان في السنة الرابعة من ملكه في شهر أيار سنة تسع وثلاثين وخمس مئة لوفاة موسى عليه السلام.. ابتدأ سليمان في عمارة بيت المقدس وإتمامه حسبما تقدم وصية أبيه إليه، وجمع حكماء الإنس والجن، وعفاريت الأرض، وعظماء الشياطين، وجعل منهم فريقاً يبنون، وفريقاً يقطعون الصخور والعمد من معادن الرخام، وفريقاً يغوصون في البحر فيخرجون منه الدر والمرجان، وكان في الدر ما هو مثل بيضة النعامة والدجاجة، وبنى مدينة بيت المقدس، وجعلها اثني عشر ربضاً، وأنزل كل ربض منها سبطاً من أسباط بني إسرائيل، وكانوا اثني عشر سبطاً، ثم بنى المسجد الأقصى بالرخام الملون، وسقفه بألواح الجواهر الثمينة، ورصع سقوفه وحيطانه باللآلىء واليواقيت، وأنبت الله شجرتين عند باب الرحمة إحداهما: تنبت الذهب، والأخرى: تنبت الفضة، فكان كل يوم ينزع من كل واحدة مئتي رطل ذهباً وفضة، وفرش المسجد بلاطة من ذهب، وبلاطة من فضة، وبألواح الفيروزج، فلم يكن يومئذ بيتٌ أبهى ولا أنور من ذلك المسجد، كان يضيء في الظلمة كالقمر ليلة البدر. وفرغ منه في السنة الحادية عشرة من ملكه، وكان ذلك بعد هبوط آدم من الجنة بأربعة آلاف سنة وأربع مئة وأربع عشرة سنة، وبين عمارة سليمان لمسجد بيت المقدس، والهجرة النبوية المحمدية على صاحبها أفضل الصلوات وأزكى التسليمات ألفُ سنة وثمان مئة سنة، وقريب من سنتين.

ولما فرغ من بناء المسجد.. سأل الله تعالى ثلاثاً: حكماً يوافق حكمه،

وسأله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، وسأله أن لا يأتي إلى هذا المسجد أحد لا يريد إلا الصلاة فيه إلا خرج من خطيئته كيوم ولدته أمه. قال النبي ﷺ: «نرجو أن يكون قد أعطاه إياه»، ولما رفع سليمان يده من البناء.. جمع الناس، فأخبرهم أنه مسجد لله تعالى، وهو سبحانه أمره ببناءه، وأن كل شيء فيه لله، ومن انتقص شيئاً منه فقد خان الله.

قال سعيد بن المسيب[1]: لما فرغ سليمان من بناء بيت المقدس.. تغلقت أبوابه، فعالجها سليمان، فلم تنفتح حتى قال في دعائه: بصلوات أبي داود، وافتح الأبواب، فتفتحت فوزع له سليمان عشر آلاف من قراء بني إسرائيل، خمسة آلاف بالليل، وخمسة آلاف بالنهار، فلا تأتي ساعة من ليل ولا نهار إلا والله يُعبد فيها، واستمر بيت المقدس على ما بناه سليمان أربع مئة سنة وثلاثاً وخمسين سنة، حتى قصده بختنصر، فخرب المدينة وهدمها، ونقض المسجد، وأخذ جميع ما كان فيه من الذهب والفضة والجواهر، وحمله إلى دار مملكته من أرض العراق، واستمر بيت المقدس خراباً سبعين سنة، ثم أهلك بختنصر ببعوضة دخلت دماغه، وذلك أنه من كبر الدماغ وانتفاخه.. فعل ما فعل من التخريب والقتل، فجازاه الله تعالى بتسليط أضعف الحيوان على دماغه.

﴿و﴾ يعملون له ما يشاء من ﴿تماثيل﴾ وصور الملائكة والأنبياء على صورة القائمين والراكعين والساجدين على ما اعتادوه، فإنها كانت تعمل حينئذ في المساجد من زجاج ونحاس ورخام ونحوها؛ ليراها الناس، ويعبدوا مثل عباداتهم. ويقال[2]: إن هذه التماثيل رجال من نحاس، وسأل ربه أن ينفخ فيه فيها الروح، ليقاتلوا في سبيل الله، ولا يعمل فيهم السلاح، وكان إسنفديار منهم، كما في تفسير «القرطبي».

وروي: أنهم عملوا أسدين في أسفل كرسيه، ونسرين فوقه، فإذا أراد أن يصعد بسط الأسدان ذراعيهما، فارتقى عليهما، وإذا قعد أظلهما النسران بأجنحتهما. اهـ. «قرطبي».

---

(١) روح البيان.
(٢) القرطبي.

فلما مات سليمان.. جاء إفريدون ليصعد الكرسي، ولم يدر كيف يصعد، فلما دنا منه ضربه الأسد على ساقه فكسر ساقه، ولم يجسر أحد بعده أن يدنو من ذلك الكرسي.

واعلم[1]: أن حرمة التصاوير شرع جديد، وكان اتخاذ الصور قبل هذه الأمة مباحاً، كما يدل عليه قوله ﷺ: «إن أولئك كان إذا مات فيهم الرجل الصالح بنو على قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك الصور»؛ أي: ليذكروا عبادتهم، فيجتهدوا في العبادة، وإنما حرِّم على هذه الأمة؛ لأن قوم رسولنا ﷺ كانوا يعبدون التماثيل؛ أي: الأصنام، فنهي عن الاشتغال بالتصوير، وأبغض الأشياء إلى الخواص ما عصي الله به.

وفي الحديث: «من صور صورة فإن الله معذبه حتى ينفخ فيها الروح، وليس بنافخ فيها أبداً»، وهذا يدل على أن تصوير ذي الروح حرام. قال بعضهم: هل هو كبيرة أو لا؟ فيه خلاف: فعند من جعل الكبيرة عبارة عما ورد الوعيد عليه من الشرع.. فهو كبيرة، وأما من جعل الكبيرة منحصرة في عدد محصور: فهذا ليس من جملته، فيكون الحديث محمولاً على المستحل، أو على استحقاق العذاب المؤبد، وأما تصوير ما لا روح له: فرخص فيه، وإن كان مكروهاً من حيث إنه اشتغال بما لا يعني.

﴿و﴾ يعملون له ما يشاء من ﴿جفان﴾ وقصاع عظيمة كائنة ﴿كَٱلْجَوَابِ﴾ والحياض الكبار، جمع: جفنة، وهي القصعة الكبيرة التي تشبع عدداً كثيراً. قيل: يجتمع على جفنة واحدة ألف رجل، فيأكلون منها، وكان لمطبخه كل يوم اثنا عشر ألف شاة، وألف بقرة، وكان له اثنا عشر ألف خبَّاز، واثنا عشر ألف طبَّاخ، يصلحون الطعان في تلك الجفان لكثرة القوم. قال في «الشرعة»: ولا بركة في القصاع الصغار، ولتكن قصعة الطعام من خزف أو خشب، فإنهما أقرب إلى التواضع، ويحرم الأكل في الذهب والفضة، وكذا الشرب منهما. والجوابي: جمع جابية، وهو الحوض الكبير الذي يجبى؛ أي: يجمع فيه الماء للإبل.

---

(١) روح البيان.

وقرأ ورش وأبو عمرو[1]: بإثبات الياء في الوصل دون الوقف، وابن كثير: بإثباتها وقفاً ووصلاً، والباقون: بالحذف وقفاً ووصلاً، وهو[2] الأصل اجتزاءً بالكسرة عن الياء، وإجراء الألف واللام مجرى ما عاقبها، وهو التنوين، وكما تحذف الياء مع التنوين.. تحذف مع ما عاقبه، وهو الألف واللام.

﴿و﴾ يعملون له ما يشاء من ﴿قدور راسيات﴾ جمع قدر، وهو اسم لما يُطبخ فيه اللحم، والراسيات: جمع راسية، من: رسا الشيء إذا ثبت؛ أي: وقدور ثابتات على الأثافي، لا تنزل عنها لعظمها، ولا تحرك عن أماكنها، وكان يصعد إليها بالسلالم، وكانت باليمن.

ثم أمرهم سبحانه بالعمل الصالح على العموم؛ أي: سليمان وأهله فقال: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًاۚ﴾، وهو مقول لقول محذوف. و﴿ءَالَ﴾: منصوب على النداء، والمراد به: سليمان؛ لأن هذا الكلام قد ورد في خلال قصته، وخطاب الجمع للتعظيم، أو أولاده، أو كل من ينفق عليه، أو كل من يتأتى منه الشكر من أمته، كما في «بحر العلوم».

والمعنى: أي وقلنا له، أولهم: اعملوا يا آل داود بطاعتي كالصلاة ونحوها، واعبدوني شكراً لما أعطيتكم من الفضل وسائر النعماء، فإنه لا بد من إظهار الشكر كظهور النعمة. وسميت الصلاة ونحوها شكراً؛ لسدها مسده. ف﴿شُكْرًاۚ﴾: منصوب على العلة، أو منصوب على المصدرية ل﴿ٱعْمَلُوٓاْ﴾؛ لأن العمل للمنعم شكر له، فيكون مصدراً من غير لفظه، أو لفعل محذوف؛ أي: اشكروا شكراً، أو حال؛ أي: شاكرين أو مفعول به؛ أي: اعملوا شكراً، ومعناه: إنا سخرنا لكم الجن يعملون لكم ما شئتم، فاعملوا أنتم شكراً على طريق المشاكلة، وسميت الطاعة شكراً؛ لأنها من جملة أنواعه.

ثم بيَّن بعد أمرهم بالشكر أن الشاكرين له من عباده قليل، فقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾؛ أي: العامل بطاعتي، الشاكر لنعمتي قليل، وارتفاع القليل على أنه خبر مقدم، و﴿مِّنْ عِبَادِىَ﴾: صفة له، و﴿ٱلشَّكُورُ﴾: مبتدأ.

---

(١) المراح.

(٢) البحر المحيط.

والمعنى: أي يعملون له ما يشاء من القصور الشامخة، والصور المختلفة من النحاس والزجاج والرخام ونحوها، والجفان الكبيرة التي تكفي لعشرات الناس، والقدور الثوابت في أماكنها التي لا تتحرك ولا تتحول لكبرها وعظمها، وقلنا لهم: اعملوا يا آل داود بطاعة الله شكراً له على نعمه التي أنعمها عليكم في الدين والدنيا.

روي: أن النبي ﷺ صعد المنبر، فتلا هذه الآية، ثم قال: «ثلاث من أوتيهن.. فقد أوتي مثل ما أوتي آل داود» فقلنا: ما هُنَّ؟ فقال: «العدل في الرضا والغضب، والقصد في الفقر والغنى، وخشية الله في السر والعلانية» أخرجه الترمذي. والشكر كما يكون بالفعل يكون بالقول، ويكون بالنية كما قال:

أَفَادَتْكُمُ ٱلنَّعْمَاءُ مِنِّيْ ثَلاَثَةً ... يَدِيْ وَلِسَانِيْ وَٱلضَّمِيْرَ ٱلْمُحَجَّبَا

أي: وقليل من عبادي من يطيعني شكراً لنعمتي، فيصرف ما أنعمت به عليه فيما يرضيني، وقد قيل: الشكور: من يرى عجزه عن الشكر، ونحو الآية قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾، وعن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى تفطر قدماه، فقلت له: أتصنع هذا، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «أفلا أكون عبداً شكوراً». أخرجه مسلم في «صحيحه».

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا﴾ وحكمنا ﴿عَلَيْهِ﴾؛ أي: على سليمان ﴿ٱلْمَوْتَ﴾ وألزمناه إياه، وفصلناه به عن الدنيا ﴿مَا دَلَّهُمْ﴾؛ أي: ما دل الجن وآل داود ﴿عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ﴾؛ أي: على موت سليمان ﴿إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: إلا هامة الأكل، وسوسة الخشب المسماة بالأرضة، وهي دويبة وسوسة تأكل الخشب، ويقال لها: السرقة، أضيفت إلى فعلها، وهو الأرض بمعنى الأكل، ولذا سميت الأرض مقابل السماء أرضاً، لأنها تأكل أجساد بني آدم، يقال: أرضت الأرضة الخشبة أرضاً إذا أكلتها، فأرضت أرضاً ما لم يسم فاعله، فهي مأروضة حالة كونها ﴿تَأْكُلُ﴾؛ أي: تلك الدابة ﴿مِنسَأَتَهُۥ﴾؛ أي: منسأة سليمان؛ أي: تأكل عصاه التي كان متكئاً عليها من النسيء، وهو التأخير في الوقت؛ لأن العصا يؤخَّر بها الشيء عن الطريق مثلاً، ويزجر بها نحو الكلب ويطرد.

قيل[1]: إن ملك الموت أعلمه أنه بقي من حياته ساعة، فدعا الشياطين تجتمع حول محرابه، فلا ينظر أحد منهم إليه في صلاته إلا احترق، فمر واحد منهم، فلم يسمع صوته، ثم جمع فلم يسمع، فنظر فإذا هو قد خر ميتاً، وكان عمره ثلاثاً وخمسين سنة، ملك بعد موت أبيه وهو ابن ثلاثة عشرة سنة، فمدة ملكه أربعون سنة.

﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ وسقط سليمان ميتاً بعد سقوط عصاه من تحته ﴿تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ﴾؛ أي: علمت الجن علماً يقينياً ينتفي عنده الشكوك والشبه بعد التباس الأمر عليهم. من تبينت الشيء: إذا علمته بعد التباسه عليك ﴿أَن﴾ مخففة؛ أي: أنهم ﴿لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ﴾؛ أي: ما غاب عن حواسهم كما يزعمونه ﴿مَا لَبِثُوا﴾ وأقاموا ﴿فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾؛ أي: ذي الإهانة والخزي لهم، يعني الأشغال والتكاليف الشاقة، والأعمال الصعبة التي كانوا يعملونها لسليمان عليه السلام.

والحاصل: أنهم لو كان لهم علم بالغيب كما يزعمون.. لعلموا موت سليمان حين مات، ولما لبثوا بعده حولاً في تسخيره إلى أن خرَّ ميتاً، فلما وقع ما وقع علموا أنهم جاهلون، لا عالمون. ويجوز أن يؤخذ تبينت من: تبين الشيء: إذا ظهر وتجلى، فتكون أن مع ما بعدها بدل اشتمال من الجن، نحو: تبين زيد جهله؛ أي: ظهر للإنس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب.

وقال بعضهم: كانت الشياطين تجتمع حول محرابه أينما صلى، فلم يكن شيطان ينظر إليه في صلاته إلا احترق، فمر به شيطان، فلم يسمع صوته، ثم رجع، فلم يسمع صوته، فنظر فإذا سليمان قد خر ميتاً، ففتحوا عنه، فإذا العصا قد أكلتها الأرضة، فأرادوا أن يعرفوا وقت موته، فوضعوا الأرضة على العصا، فأكلت منها في يوم وليلة مقداراً، فحسبوا على ذلك النحو، فوجدوه قد مات منذ سنة، وكانوا يعملون بين يديه، ويحسبونه حياً، ولو علموا أنه مات.. لما لبثوا في العذاب سنة، ثم إن الشياطين قالوا للأرضة: لو كنت تأكلين الطعام.. أتيناك بأطيب الطعام، ولو كنت تشربين من الشراب.. سقيناك أطيب الشراب، ولكن ننقل إليك الماء والطين، فهم ينقلون ذلك لها حيث كانت، قاله ابن عباس رضي الله عنهما. ألم ترَ إلى

---

(١) البحر المحيط.

الطين يكون في جوف الخشب، فهو ما يأتيها به الشياطين تشكراً لها.

قال القفال[1]: قد دلت هذه الآية على أن الجن لم يسخروا إلا لسليمان، وأنهم تخلصوا بعد موته من تلك الأعمال الشاقة، وإنما تهيَّأ لهم التسخير والعمل، لأن الله تعالى زاد في أجسامهم وقواهم، وغيَّر خلقهم عن خلق الجن الذين لا يرون، ولا يقدرون على شيء من هذه الأعمال الشاقة، مثل: نقل الأجسام الثقال ونحوه؛ لأن ذلك معجزة لسليمان عليه السلام.

قال أهل التاريخ: كان سليمان عليه السلام أبيض جسيماً وضيئاً، كثير الشعر، يلبس البياض، وكان عمره ثلاثاً وخمسين سنة، وكانت وفاته بعد فراغ بناء بيت المقدس بتسع وعشرين سنة. قال بعضهم: هذا هو الصحيح؛ أي: كون وفاته بعد الفراغ من البناء، لا قبله بسنة على ما زعم بعض أهل التفسير.

وفي «التأويلات النجمية»: تشير الآية إلى كمال قدرته وحكمته، وأنه هو الذي سخر الجن والإنس لمخلوق مثلهم، وهم الألوف الكثيرة، والوحوش والطيور.

ثم قضى عليه الموت، وجعلهم مسخرين لجثة بلا روح، وبحكمته جعل دابة الأرض حيواناً ضعيفاً مثَّلها دليلاً لهذه الألوف الكثيرة من الجن والإنس تدلهم بفعلها على علم ما لم يعلموا.

وفيه أيضاً إشارة إلى أنه تعالى جعل فيها سبباً لإيمان أمة عظيمة، وبيان حال الجن أنهم لا يعلمون الغيب، وفيه إشارة أخرى: أن نبيين من الأنبياء اتكأ عصوين، وهما: موسى وسليمان، فلما قال موسى: هي عصاي أتوكأ عليها.. قال ربه: ألقها، فلما ألقاها.. جعلها ثعباناً مبيناً، يعني: من اتكأ على غير فضل الله ورحمته يكون متكؤه ثعباناً، ولما اتكأ سليمان على عصاه في قيام ملكه بها، واستمسك بها.. بعث الله أضعف دابة وأخسها لإبطال متكئه ومتمسكه؛ ليعلم أن من قام بغيره زال بزواله، وأنَّ كل متمسك بغير الله طاغوت من الطواغيت ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ انتهى كلامه.

ومعنى الآية[2]: أي إنما لما قضينا على سليمان بالموت.. لم يدل الجن

---

(1) روح البيان. (2) المراغي.

على موته إلا الأرضة التي وقعت في عصاه من داخلها؛ إذ بينما هو متكىء عليها، وقد وافاه القضاء المحتوم. . انكسرت، فسقط على الأرض، واستبان للجن أنهم لا يعلمون الغيب، كما كانوا يزعمون، ولو علموه لما قاموا في الأعمال الشاقة التي كانوا يعملونها ظانين أنه حيٌّ.

والكتاب الكريم لم يحدِّد المدة التي قضاها سليمان وهو متوكىء على عصاه، حتى علم الجن بموته، وقد روى القصاصون أنها كانت سنة، ومثل هذا لا ينبغي الركون إليه، فليس من الجائز أنَّ خدم سليمان لا يتنبهون إلى القيام بواجباته المعيشية من مأكل ومشرب وملبس ونحوها يوماً كاملاً، دون أن يحادثوه في ذلك، ويطلبوا إليه القيام بخدمته، فالمعقول أن الأرضة بدأت العصا، وسليمان لم يتنبه لذلك، وبينما هو متوكىء عليها حانت منيته، وكانت الأرضة قد فعلت فعلها في العصا، فانكسرت، فخرَّ على الأرض، فعلمت الجن كذبها إذ كانت تدعي أنها تعلم الغيب؛ إذ لو علمته ما لبثت ترهق نفسها في شاقّ الأعمال التي كلفت بها.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ بسكون الراء. وقرأ أبو المتوكل[2] وأبو الجوزاء وعاصم الجحدري: ﴿دابة الأرَض﴾ بفتح الراء. وقرأ نافع وأبو عمرو وجماعة: ﴿منساته﴾ بألفٍ محضة، وأصله: منسأته، أبدلت الهمزة ألفاً بدلاً غير قياسي. وقال أبو عمرو: أنا لا أهمزها؛ لأني لا أعرف لها اشتقاقاً، فإن كانت مما لا تهمز. . فقد احتطت، وإن كانت تهمز. . فقد يجوز لي ترك الهمزة فيما يهمز.

وقرأ ابن ذكوان وجماعة منهم: بكار والوليد أن ابن عتبة وابن مسلم: ﴿منسأْته﴾ بهمزة ساكنة، وهو من تسكين التحريك تخفيفاً، وليس بقياس، وضعَّف النحاة هذه القراءة؛ لأنه يلزم فيها أن يكون ما قبل تاء التأنيث ساكناً غير ألفاً. وقيل: قياسها: التخفيف بين بين، والراوي لم يضبط، وأنشد هارون بن موسى الأخفش الدمشقي شاهداً على سكون هذه القراءة قول الراجز:

صَرِيعُ خَمْرٍ قَامَ مِنْ وَكْأَتِهْ ... كَقَوْمَةِ ٱلشَّيْخِ إِلَىٰ مَنْسَأْتِهْ

وقرأ باقي السبعة بالهمزة مفتوحة. وقرىء بفتح الميم وتخفيف الهمزة قلباً

---

(١) البحر المحيط. (٢) زاد المسير.

وحذفاً، وقرىء على وزن مفعالة: منساءة. وقرأت فرقة منهم: عمر بن ثابت عن ابن جبير: مفصولة حرف جر ﴿من ساءته﴾ بجر التاء. قيل: ومعناه: من عصاه، يقال لها: ساة القوس وسيتها معاً، وهي يدها العليا والسفلى، سميت العصا ساة القوس على الاستعارة. وقرأ الجمهور: ﴿تَبَيَّنَتِ﴾ مبنياً للفاعل. وقرأ ابن عباس فيما ذكر ابن خالويه ويعقوب بخلاف عنه ﴿تبينت﴾ مبنياً للمفعول، وعن ابن عباس وابن مسعود وأبي وعلي بن الحسن والضحاك قراءة في هذا الموضع مخالفة لسواد المصحف، ولما روي عنهم ذكرها المفسرون، أضرب عن ذكرها صفحاً على عادتنا في ترك نقلِ الشاذ الذي يخالف للسواد مخالفةً كثيرةً. ذكره أبو حيان.

الإعراب

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾.

﴿ٱلْحَمْدُ﴾: مبتدأ، ﴿لِلَّهِ﴾: خبر، والجملة مستأنفة. ﴿ٱلَّذِى﴾: نعت للجلالة. ﴿لَهُۥ﴾: خبر مقدم. ﴿مَا﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: صلة لـ﴿مَا﴾، والجملة الاسمية صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة. ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ﴿وَلَهُ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿له﴾: خبر مقدم. ﴿ٱلْحَمْدُ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿فِى ٱلْآخِرَةِ﴾ حال من الضمير المستكن في الخبر، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على كونها صلة الموصول. ﴿وَهُوَ﴾: مبتدأ ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: خبر أول ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾: خبر ثان، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها. ﴿يَعْلَمُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة مستأنفة، أو خبر ثالث لـ﴿هو﴾ مسوقة لتفصيل بعض ما يحيط به علمه تعالى من الأمور المتعلقة بمصالح العباد الدينية والدنيوية. ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿يَعْلَمُ﴾. ﴿يَلِجُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿مَا﴾، والجملة صلة الموصول، ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق بـ﴿يَلِجُ﴾. ﴿وَمَا يَخْرُجُ﴾: معطوف على ﴿مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾. ﴿مِنْهَا﴾: متعلق بـ﴿يَخْرُجُ﴾. ﴿وَمَا يَنزِلُ﴾، ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾: معطوفان على ﴿مَا يَلِجُ﴾ أيضاً. ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ متعلقان بـ﴿يَنزِلُ﴾. ﴿وَهُوَ﴾ مبتدأ. ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: خبر أول.

﴿ٱلْغَفُورُ﴾: خبر ثانٍ له، والجملة مستأنفة.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾.

﴿وَقَالَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿كَفَرُوا۟﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول. ﴿لا﴾: نافية. ﴿تَأْتِينَا﴾: فعل ومفعول. ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾: فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قال﴾. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة مستأنفة. ﴿بَلَىٰ﴾: حرف جواب لإثبات النفي؛ أي: ليس الأمر إلا إتيانها. ﴿وَرَبِّى﴾: ﴿الواو﴾: حرف جر وقسم: ﴿رَبِّى﴾: مقسم به مجرور بواو القسم أكد إيجاب النفي بما هو الغاية في التأكيد والتشديد، وهو القسم بالله عز وجل، الجار والمجرور متعلق بفعل قسم محذوف وجوباً. ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم. ﴿تأتين﴾: فعل مضارع في محل الرفع لتجرده عن الناصب والجازم، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وهو تأكيد ثالث، والكاف: مفعول به، وفاعله: ضمير يعود على الساعة، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها من الإعراب على كونها مقول ﴿قُلْ﴾. ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾: صفة لـ﴿ربي﴾، أو بدل منه، ويجوز رفعه على كونه خبر مبتدأ محذوف، أو مبتدأ، وخبره جملة ﴿لَا يَعْزُبُ﴾ وقد قرىء بهما كما مرَّ.

﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿لَا يَعْزُبُ﴾: فعل مضارع. ﴿عَنْهُ﴾: متعلق به. ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾: فاعل ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: حال من ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾. ﴿وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾، أو خبره على قراءة الرفع. ﴿وَلَآ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿لا﴾: نافية ﴿أَصْغَرُ﴾ - بالرفع -: معطوف على ﴿مِثْقَالُ﴾. ﴿مِن ذَٰلِكَ﴾: متعلق بـ﴿أَصْغَرُ﴾، ﴿وَلَآ أَكْبَرُ﴾: معطوف على ﴿مِثْقَالُ﴾ أيضاً. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿فِى كِتَٰبٍ﴾: جار ومجرور، حال من ﴿مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾، ﴿مُّبِينٍ﴾ صفة وما عطف عليه تأكيداً للنفي في ﴿لَا يَعْزُبُ﴾؛ أي: لا يعزب عنه ما ذكر إلا حالة كونه في كتاب مبين. وفي «السمين»: قوله: ﴿وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ﴾، العامة على رفع أصغر وأكبر، وفيه وجهان:

أحدهما: الابتداء، وخبره ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾.

والثاني: العطف على ﴿مِثْقَالُ﴾، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ تأكيداً للنفي في ﴿لَا يَعْزُبُ﴾ كأنه قال: لكنه في كتاب مبين، ويكون في محل الحال.

وقرأ قتادة والأعمش، ورويم عن أبي عمرو ونافع أيضاً، بفتح الراءين، وفيه وجهان:

أحدهما: أن ﴿لَاَ﴾ هي لا التبرئة، بُني اسمها معها، والخبر قوله: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾.

والثاني: النسق على ﴿ذَرَّةٍ﴾ اهـ.

﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾.

﴿لِيَجْزِيَ﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل. ﴿يجزي﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة جوازاً بعد لام كي، وفاعله ضمير يعود على الله، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، تقديره: لجزائه الذين، الجار والمجرور متعلق بتأتين، كأنه علة وبيان لما يقتضيه إتيانها، أو بقوله: ﴿لَا يَعْزُبُ﴾ فكأنه قال: يحصي ذلك ليجزي. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مفعول به لـ﴿يجزي﴾، وجملة ﴿ءَامَنُوا۟﴾ صلة الموصول ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿ءَامَنُوا۟﴾. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ أول ﴿لَهُم﴾: خبر مقدم. ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر للأول، وجملة الأول مستأنفة مسوقة لبيان مآلهم. ﴿وَرِزْقٌ﴾: معطوف على ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾، ﴿كَرِيمٌ﴾: صفة ﴿وَرِزْقٌ﴾. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: ﴿الواو﴾ استئنافية، ﴿الذين﴾: مبتدأ أول، وجملة ﴿سَعَوْ﴾ صلة الموصول. ﴿فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾: متعلق بـ﴿سَعَوْ﴾، ولكنه على تقدير مضاف؛ أي: في إبطال آياتنا بالطعن فيها، أو وصفها بالسحر والشعر وغير ذلك. ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾: حال من فاعل ﴿سَعَوْ﴾. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ ثان. ﴿لَهُم﴾: خبر مقدم. ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ ثالث مؤخر. ﴿مِّن رِّجْزٍ﴾ صفة لـ﴿عَذَابٌ﴾. ﴿أَلِيمٌ﴾: صفة ثانية لـ﴿عَذَابٌ﴾، والجملة من المبتدأ الثالث وخبره في محل الرفع خبر للمبتدأ الثاني، وجملة الثاني في محل الرفع خبر

للأول، وجملة الأول مستأنفة.

وفي «الفتوحات»: قوله: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْ﴾ يجوز فيه وجهان:

أظهرهما: أنه مبتدأ. و﴿أُولَٰٓئِكَ﴾ وما بعده خبره.

والثاني: أنه عطف على ﴿الَّذِينَ﴾ قبله؛ أي: ويجزي الذين سعوا، ويكون ﴿أُولَٰٓئِكَ﴾ بعده مستأنفاً، و﴿أُولَٰٓئِكَ﴾ الذي قبله، وما في حيزه معترضاً بين المتعاطفين. اهـ. «سمين».

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٦﴾.

﴿وَيَرَى﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿يرى﴾: فعل مضارع مرفوع، أو: ﴿الواو﴾ عاطفة، ﴿يرى﴾: فعل مضارع منصوب معطوف على ﴿يجزي﴾. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: فاعل، والجملة مستأنفة أو معطوفة. ﴿أُوتُوا۟﴾: فعل ونائب فاعل. ﴿ٱلْعِلْمَ﴾: مفعول ثان لـ﴿أُوتُوا۟﴾ لأنه بمعنى: أعطوا، وجملة ﴿أُوتُوا۟﴾ صلة ﴿ٱلَّذِينَ﴾. ﴿ٱلَّذِىٓ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول أول لـ﴿يرى﴾، لأنها قلبية، وجملة ﴿أُنزِلَ﴾ صلة ﴿ٱلَّذِىٓ﴾. ﴿إِلَيْكَ﴾ متعلق بـ﴿أُنزِلَ﴾. ﴿مِن رَّبِّكَ﴾: حال من الضمير المستتر في ﴿أُنزِلَ﴾، أو متعلق بـ﴿أُنزِلَ﴾. ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل. ﴿ٱلْحَقَّ﴾ مفعول ثان لـ﴿يرى﴾. ﴿وَيَهْدِىٓ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة. ﴿يهدي﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ﴾. ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ﴾ متعلق به. ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾: مضاف إليه. ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾: صفة لـ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾، وجملة ﴿يهدي﴾ في محل النصب معطوف على ﴿ٱلْحَقَّ﴾ على كونه مفعولاً ثانياً لـ﴿يرى﴾ عطف فعل على اسم؛ لكونه في تأويل الاسم؛ أي: وهادياً، ويجوز أن تكون الواو حالية، والجملة في محل النصب حال من ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، ويجوز أن تكون الجملة مستأنفة.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧﴾.

﴿وَقَالَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة. ﴿كَفَرُوا۟﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول؛ أي: قال بعضهم لبعض: ﴿هَلْ﴾ حرف استفهام. ﴿نَدُلُّكُمْ﴾: فعل ومفعول به، وفاعله ضمير مستتر يعود على ﴿ٱلَّذِينَ﴾. ﴿عَلَىٰ

﴿رَجُلٍ﴾: متعلق بـ﴿ندل﴾، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾: فعل مضارع ومفعول به، وفاعل مستتر يعود على ﴿رَجُلٍ﴾، والجملة في محل الجر صفة ﴿رَجُلٍ﴾. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان. ﴿مُزِّقْتُمْ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة الفعلية في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذَا﴾ على كونها فعل شرط لها، وجواب الشرط محذوف، تقديره: إذا مزقتم تبعثون وتحشرون خلقاً جديداً. والمعنى: أي: ينبئكم أنكم تبعثون وتحشرون وقت تمزقكم، ولا يجوز تعلق ﴿إِذَا﴾ بـ﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾؛ لأن التنبئة لم تقع ذلك الوقت، ولا بـ﴿مُزِّقْتُمْ﴾؛ لأنه مضاف إليه، والمضاف إليه لا يعمل في المضاف، ولا بـ﴿جَدِيدٍ﴾؛ لأن إن ولام الابتداء يمنعان ذلك؛ لأن لهما الصدارة، وأيضاً فالصفة لا تعمل فيما قبل الموصوف. ﴿كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ مفعول به ومضاف إليه. ﴿إِنَّكُمْ﴾: ناصب واسمه. ﴿لَفِي خَلْقٍ﴾: خبره، واللام: حرف ابتداء ﴿جَدِيدٍ﴾: صفة ﴿خَلْقٍ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ سادة مسد مفعولي ﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾ الثاني والثالث، وجملة ﴿إِذَا﴾ تكون معترضة بين الفعل والمفعول.

﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾﴾.

يحتمل أن يكون هذا من تمام قول الكافرين، أولا؛ أي: من كلام القائلين: هل ندلكم، ويحتمل أن يكون من كلام السامع المجيب للقائل: هل ندلكم؛ كأن القائل لما قال له: هل ندلكم على رجل؟ أجابه فقال: هو يفتري على الله كذباً... إلخ. اهـ «خطيب». ﴿أَفْتَرَىٰ﴾: ﴿الهمزة﴾ فيه للاستفهام التقريري، واستغني بها عن همزة الوصل في التوصل إلى النطق بالساكن. ﴿افترى﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على رجل. ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ﴿افترى﴾. ﴿كَذِبًا﴾ مفعول به، والجملة الفعلية جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب. ﴿أَم﴾: حرف عطف معادل لهمزة الاستفهام ﴿بِهِۦ﴾: خبر مقدم. ﴿جِنَّةٌۢ﴾: مبتدأ مؤخر؛ أي: جنون، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿أفترى﴾. ﴿بَلِ﴾: حرف ابتداء وإضراب إبطالي. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ. ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول. ﴿بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾: متعلق بـ﴿يُؤْمِنُونَ﴾. ﴿فِى ٱلْعَذَابِ﴾: خبر المبتدأ ﴿وَٱلضَّلَٰلِ﴾: عطف على ﴿ٱلْعَذَابِ﴾. ﴿ٱلْبَعِيدِ﴾: صفة لـ﴿الضلال﴾، والجمة الاسمية مستأنفة.

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾.

﴿أَفَلَمْ﴾: ﴿الهمزة﴾ للاستفهام الإنكاري، داخلة على محذوف يقتضيه المقام، و﴿الفاء﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أعموا فلم يروا؟ أو: الهمزة مقدمة على حرف العطف، والأصل: فألم يروا، والجملة المحذوفة مستأنفة لا محل لها من الإعراب. ﴿لم﴾: حرف جزم ونفي. ﴿يَرَوْا﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لم﴾ ﴿إِلَىٰ مَا﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿يَرَوْا﴾. ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾: ظرف ومضاف إليه، صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة. ﴿وَمَا﴾: معطوف على ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾. ﴿خَلْفَهُم﴾: صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة. ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: حال من ﴿مَا﴾ الموصولة. ﴿وَٱلْأَرْضِۚ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾. ﴿إِن﴾: حرف شرط. ﴿نَّشَأْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿إِن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿نَخْسِفْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿إِن﴾ الشرطية على كونه جواباً لها، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿بِهِمُ﴾: متعلق بـ﴿نَخْسِفْ﴾. ﴿ٱلْأَرْضَ﴾: مفعول به، وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿أَوْ نُسْقِطْ﴾: فعل وفاعل مستتر، معطوف على ﴿نَخْسِفْ﴾. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق بـ﴿نُسْقِطْ﴾. ﴿كِسَفًا﴾: مفعول به. ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: صفة لـ﴿كِسَفًا﴾. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب وتوكيد. ﴿فِى ذَٰلِكَ﴾: خبر مقدم لـ﴿إِنَّ﴾. ﴿لَءَايَةً﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء. ﴿آية﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخر. ﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿آية﴾. ﴿مُّنِيبٍ﴾: صفة لـ﴿عَبْدٍ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية. ﴿لَقَدْ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم. ﴿قد﴾: حرف تحقيق. ﴿ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول. ﴿مِنَّا﴾: حال من ﴿فَضْلًاۖ﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها. ﴿فَضْلًاۖ﴾: مفعول ثانٍ لـ﴿ءَاتَيْنَا﴾، والجملة الفعلية جواب لقسم محذوف، وجملة القسم المحذوف مستأنفة. ﴿يَٰجِبَالُ﴾: منادى نكرة مقصودة في محل النصب مبني على الضم، وجملة النداء مقول لقول محذوف، تقديره: وقلنا يا جبال. ﴿أَوِّبِى﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والياء: فاعل. ﴿مَعَهُۥ﴾: ظرف متعلق بـ﴿أَوِّبِى﴾، والجملة الفعلية مقول لذلك القول المحذوف على

كونها جواب النداء. ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾: بالنصب معطوف على محل ﴿يَٰجِبَالُ﴾، وقرىء بالرفع عطفاً على لفظه ﴿وَأَلَنَّا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿آتينا﴾. ﴿لَهُ﴾: متعلق بـ﴿ألنا﴾. ﴿ٱلْحَدِيدَ﴾: مفعول به لـ﴿ألنا﴾.

﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿أَنِ﴾: حرف مصدر ونصب ﴿ٱعْمَلْ﴾: فعل أمر في محل النصب بـ﴿أَنِ﴾ المصدرية مبني على السكون، وفاعله ضمير مستتر يعود على ﴿دَاوُۥدَ﴾. ﴿سَٰبِغَٰتٍ﴾: صفة لمفعول محذوف، تقديره: دروعاً سابغات، والجملة الفعلية من ﴿أَنِ﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور بحرف جر محذوف، متعلق بفعل محذوف، تقديره: وأمرنا بعمل دروع سابغات، والجملة المحذوفة معطوفة على ﴿ألنا له﴾. ﴿وَقَدِّرْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر معطوف على ﴿ٱعْمَلْ﴾. ﴿فِى ٱلسَّرْدِ﴾: متعلق بـ﴿قدر﴾. ﴿وَٱعْمَلُوا۟﴾: فعل أمر وفاعل، مبني على حذف النون، والجملة مقول القول محذوف، تقديره: وقلنا له واعملوا، والقول المحذوف معطوف على أمرنا المحذوف. ﴿صَٰلِحًا﴾: مفعول به، أو صفة لمصدر محذوف؛ أي: عملاً صالحاً. ﴿إِنِّى﴾: ناصب واسمه. ﴿بِمَا﴾: متعلق بـ﴿بَصِيرٌ﴾، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: بما تعملونه ﴿بَصِيرٌ﴾: خبر ﴿إنَّ﴾، وجملة ﴿إنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ﴾.

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، أو استئنافية. ﴿لسليمان﴾: متعلق بمحذوف، تقديره: وسخرنا لسليمان. ﴿ٱلرِّيحَ﴾: بالنصب مفعول به لذلك الفعل المحذوف، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ﴾، أو مستأنفة، وبالرفع: مبتدأ مؤخر، ولسليمان: خبر مقدم؛ أي: والريح مسخرة لسليمان، والجملة مستأنفة. ﴿غُدُوُّهَا﴾: مبتدأ. ﴿شَهْرٌ﴾: خبر، والجملة الاسمية في محل النصب حال من ﴿ٱلرِّيحَ﴾، أو مستأنفة، وجملة ﴿وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ معطوفة على جملة ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ﴾. ﴿وَأَسَلْنَا﴾: فعل وفاعل، معطوف على سخرنا المقدَّر. ﴿لَهُۥ﴾: متعلق بـ﴿أسلنا﴾ ﴿عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾: مفعول به. ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة لفعل محذوف معطوف على سخرنا

المقدَّر سابقاً. ﴿من الجن﴾: متعلق بالفعل المحذوف: ﴿من﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به لـ﴿سخرنا﴾ المقدر، والتقدير: وسخرنا له من الجن من يعمل، أو: ﴿مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ خبر مقدر، و﴿من﴾ الموصولة مبتدأ مؤخر. ﴿يَعْمَلُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر صلة ﴿مَن﴾ الموصولة. ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: ظرف متعلق بـ﴿يَعْمَلُ﴾. ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾: جار ومجرور، ومضاف إليه حال من فاعل ﴿يَعْمَلُ﴾؛ أي: حالة كونه متلبساً بأمر ربه.

﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَمَن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿مَن﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما. ﴿يَزِغْ﴾ فعل مضارع، وفاعل مستتر مجزوم بـ﴿مَن﴾ على كونه فعل شرط لها. ﴿مِنْهُمْ﴾ حال من فاعل ﴿يَزِغْ﴾. ﴿عَنْ أَمْرِنَا﴾: متعلق بـ﴿يَزِغْ﴾. ﴿نُذِقْهُ﴾ فعل ومفعول، مجزوم بـ﴿مَن﴾ على كونه جواب الشرط، وفاعله ضمير يعود على الله. ﴿مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ متعلق بـ﴿نُذِقْهُ﴾، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية معطوفة على جملة سخرنا المقدر. ﴿يَعْمَلُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة مفصلة لما قبلها. ﴿لَهُۥ﴾ متعلق به. ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، وجملة ﴿يَشَآءُ﴾ صلة لـ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: ما يشاؤه سليمان. ﴿مِن مَّحَٰرِيبَ﴾ حال من مفعول ﴿يَشَآءُ﴾ المحذوف. ﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾: معطوف على ﴿مَّحَٰرِيبَ﴾، وهما غير منصرفين لصيغة منتهى الجموع. ﴿وَجِفَانٍ﴾: معطوف على ﴿مَّحَٰرِيبَ﴾. ﴿كَٱلْجَوَابِ﴾: جار ومجرور صفة لـ﴿جفان﴾، وهو مجرور بكسرة مقدرة على الياء المحذوفة تبعاً لرسم المصحف العثماني منع من ظهورها الثقل؛ لأنه اسم منقوص. ﴿وَقُدُورٍ﴾ معطوف على ﴿مَّحَٰرِيبَ﴾. ﴿رَّاسِيَٰتٍ﴾: صفة ﴿قدور﴾. ﴿وَٱعْمَلُوا﴾: الواو: استئنافية. ﴿ٱعْمَلُوٓا﴾: فعل وفاعل، والجملة مقول لقول محذوف، تقديره: وقلنا له: اعملوا يا آل داود شكراً. ﴿ءَالَ دَاوُۥدَ﴾: منادى مضاف حذفه منه حرف النداء، وجملة النداء معترضة بين الفعل ومعموله ﴿شُكْرًا﴾: مفعول لأجله؛ أي: اعملوا صالحاً لأجل شكر الله، أو منصوب على المصدرية؛ أي: عمل شكر، فكأنه قال: اشكروا شكراً، أو على الحال؛ أي:

شاكرين الله. ﴿وَقَلِيلٌ﴾: ﴿الواو﴾: حالية. ﴿قليل﴾: خبر مقدم. ﴿مِّنْ عِبَادِيَ﴾: صفة لـ﴿قليل﴾، أو حال من الضمير المستكن في ﴿قليل﴾. ﴿ٱلشَّكُورُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل النصب حال من فاعل ﴿ٱعْمَلُوٓاْ﴾، أو مستأنفة.

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾.

﴿فَلَمَّا﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية. ﴿لمّا﴾: حرف شرط غير جازم. ﴿قَضَيْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿لمّا﴾. ﴿عَلَيْهِ﴾: متعلق بـ﴿قَضَيْنَا﴾. ﴿ٱلْمَوْتَ﴾: مفعول به. ﴿مَا﴾: نافية، ﴿دَلَّهُمْ﴾: فعل ماضٍ، ومفعول به. ﴿عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ﴾: متعلقان به. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ. ﴿دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾: فاعل، والجملة الفعلية جواب شرط لـ﴿لمّا﴾، وجملة ﴿لمّا﴾ مستأنفة. ﴿تَأْكُلُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على ﴿دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ﴿دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾. ﴿مِنسَأَتَهُۥ﴾: مفعول به ومضاف إليه. ﴿فَلَمَّا﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة. ﴿لمّا﴾: حرف شرط. ﴿خَرَّ﴾: فعل ماضٍ، وفاعل مستتر يعود على سليمان، والجملة فعل شرط لـ﴿لمّا﴾. ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿لمّا﴾، وجملة ﴿لمّا﴾ معطوفة على جملة ﴿لمّا﴾ الأولى. ﴿أَن﴾: مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن. ﴿لَّوْ﴾: حرف شرط. ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه. ﴿يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب خبر كان، وجملة كان فعل شرط لـ﴿لَّوْ﴾. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿لَبِثُواْ﴾: فعل وفاعل. ﴿فِى ٱلْعَذَابِ﴾: متعلق به. ﴿ٱلْمُهِينِ﴾: صفة لـ﴿ٱلْعَذَابِ﴾، والجملة الفعلية جواب ﴿لَّوْ﴾ الشرطية، وجملة ﴿لَّوْ﴾ الشرطية في محل الرفع خبر ﴿أَن﴾ المخففة، وجملة ﴿أَن﴾ المخففة في محل النصب مفعول ﴿تبين﴾، والتقدير: علمت الجن عدم لبثهم في العذاب المهين، لو كان عندهم علم الغيب.

التصريف ومفردات اللغة

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الحمد: هو الثناء على الله بما هو أهله. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: هو الذي أحكم أمر الدارين، ودبره بحسب ما تقتضيه الحكمة. ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ هو الذي يعلم

بواطن الأمور وخوافيها.

﴿يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: يدخل فيها من الولوج، وهو الدخول في مضيق.

﴿وَمَا يَعْرُجُ﴾؛ أي: يصعد. ﴿وَمَا يَعْزُبُ﴾؛ أي: يبعد. وفي «المصباح»: عزب الشي: من بابي: قتل وضرب: إذا غاب وخفي، ومعنى ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾: أي: لا يبعد عن علمه، والعازب: المتباعد في طلب الكلأ وعن أهله.

﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ والمثقال: ما يوزن به، وهو من الثقل، وذلك اسم لكل صنج، كما في «المفردات». والذرة: النملة الصغيرة الحميراء، وما يرى في شعاع الشمس من ذرات الهواء؛ أي: وزن أصغر نملة، أو مقدار الهباء. ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾؛ أي: رزق حسن لا تعب فيه، ولا منَّ عليه.

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا﴾: وفي «المفردات» السعي: المشي السريع، وهو دون العدو، ويستعمل للجد في الأمر، خيراً كان أو شراً.

﴿مُعَٰجِزِينَ﴾؛ أي: ظانين ومقدرين أنهم يعجزوننا؛ لأنهم حسبوا أن لا بعث ولا نشور، يقال: أعجزت فلاناً، وعاجزته: جعلته عاجزاً.

﴿مِّن رِّجْزٍ﴾ الرجز بمعنى: القذر والشرك والأوثان، كما في قوله: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ سماها رجزاً؛ لأنها تؤدي إلى العذاب، وكذا سمي كيد الشيطان رجزاً في قوله: ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ لأنه سبب العذاب، وفي «المفردات»: أصل الرجز: الاضطراب، وهو في الآية كالزلزلة، كما مرَّ، والرجز - بكسر الراء وضمها -: العذاب، أو سيئه، والإثم والذنب والقذر.

﴿كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ الممزق مصدر ميمي بمعنى: التمزيق، وقياس كل ما زاد على الثلاث أن يجيء مصدره وزمانه ومكانه على زنة اسم مفعوله، ويجوز أن يكون ظرف مكان، قاله الزمخشري؛ أي: كل مكان تمزيق من القبور وبطون الوحش والطير. اهـ «خطيب». وأصل التمزيق: التفريق، يقال: مزَّق ثيابه؛ أي: فرقها، والمعنى: تنشئون خلقاً جديداً بعد أن تمزقت وتفرقت أجسادكم كل تمزيق وتفريق، بحيث تصير تراباً. اهـ «بيضاوي».

و﴿جَدِيدٍ﴾ فعيل بمعنى: فاعل عند البصريين، يقال: جَدَّ الشيء فهو جاد وجديد: كقل فهو قليل، وبمعنى: مفعول عند الكوفيين، يقال: جدَّ النساج الثوب:

إذا قطعه فهو جديد؛ أي: مقطوع. قال في «المفردات»: يقال: جددت الثوب: إذا قطعته على وجه الإصلاح، وثوب جديد أصله المقطوع، ثم جعل لكل ما أحدث إنشاؤه، والخلق الجديد: إشارة إلى النشأة الثانية، والجديدان: الليل والنهار.

﴿أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾؛ أي: جنون. ﴿نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ يقال: خسف به الأرض غاب به فيها، فالباء للتعدية ﴿أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا﴾ الكسف، كالقطع وزناً ومعنى، جمع: كسفة، كقطعة. قال في «المفردات»: ومعنى الكفة: القطعة من السحاب والقطن ونحو ذلك من الأجسام المتخلخلة، ومعنى إسقاط الكسف، من السماء: إسقاط قطع من النار، كما وقع لأصحاب الأيكة. ﴿لِّكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾ قال في «المفردات»: النوب: رجوع الشيء مرة بعد أخرى، والإنابة إلى الله: الرجوع إليه بالتوبة، وإخلاص العمل له.

﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ فعل أمر من التأويب على قراءة العامة بفتح الهمزة وتشديد الواو، وهو الترجيع، وقيل: التسبيح بلغة الحبشة، والتضعيف يحتمل أن يكون للتكثير، واختار بعضهم أن يكون للتعدي، قال: لأنَّهم فسروه برجعي معه التسبيح، ولا دليل فيه؛ لأنه تفسير معنىً، أو أمر من الأوب على قراءة الحسن وابن عباس وقتادة وابن أبي إسحاق: ﴿أوبي﴾ بضم الهمزة وسكون الواو أمر من آب يؤوب؛ أي: ارجعي معه بالتسبيح. اهـ «سمين».

﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ﴾؛ أي: جعلنا الحديد ليناً له في نفسه، كالشمع والعجين من الإلانة، أصله: من اللين ضد الخشونة.

﴿أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ﴾؛ أي: دروعاً واسعات طويلات. قال في «القاموس»: سبغ الشيء سبوغاً: إذا طال إلى الأرض، وسبغت النعمة: إذا اتسعت، ودروع سابغة: تامة طويلة. انتهى. ومنه استعير إسباغ الوضوء، أو إسباغ النعمة، كما في «المفردات».

﴿وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ﴾ والسرد في الأصل: خرز ما يخشن ويغلظ كخرز الجلد، ثم استعير لنظم الحديد ونسج الدروع، كما في «المفردات»، والمعنى: أي: اجعل النسج على قدر الحاجة.

﴿غُدُوُّهَا شَهۡرٞ﴾ قال الراغب: الشهر: مدة معروفة مشهورة بإهلال الهلال، أو

باعتبار جزء من اثني عشر جزءاً من دوران الشمس من نقطة إلى تلك النقطة، والمشاهرة: المعاملة بالشهر، كما أن المسانهة والمياومة بالسنة واليوم.

﴿عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ والقطر - بكسر العين -: النحاس المذاب.

﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾؛ أي: ومن يعدل عن طاعة سليمان.

و﴿مَّحَـٰرِيبَ﴾: جمع محراب، وهو في اللغة: كل موضع مرتفع، وقيل للذي يصلّى فيه محراب؛ لأنه يجب أن يرفع ويعظّم. وفي «البيضاوي»: من محاريب؛ أي أبنية مرتفعة، سميت بالمحاريب؛ لأنها يذب عنها ويحارب عليها. اهـ. وكتب عليها الشهاب قوله: أبنية مرتفعة، هذا أصل معنى المحراب، وسمي باسم صاحبه؛ لأنه يحارب غيره في حمايته، ثم نقل إلى الطاق التي يقف بحذائها الإمام، وهي مما أحدث في المساجد. وقيل للذي يصلّى فيه محراب؛ لأنه يجب أن يرفع ويعظم. قال في «القاموس»: المحراب: الغرفة، وصدر البيت، وأكرم مواضعه، ومقام الإمام من المسجد، والموضع ينفرد به الملك فيتباعد من الناس. انتهى.

﴿وَتَمَـٰثِيلَ﴾ جمع تمثال، وهو الصورة المصورة، أو هو ما تصنعه وتصوره مشبهاً بخلق الله من ذوات الروح. روي أنهم عملوا له أسدين في أسفل كرسيه، ونسرين فوقه، فإذا أراد أن يصعد بسط الأسدان له ذراعيهما، وإذا قعد أظلّه النسران بأجنحتهما، كما مرَّ.

﴿وَجِفَانٍ﴾جمع: جفنة، وهي القصعة الكبيرة، فإن أعظم القصاع الجفنة، ثم القصعة تليها تشبع العشرة، ثم الصحفة تشبع الخمسة، ثم الميكلة تشبع الرجلين والثلاثة، ثم الصحفة تشبع الرجل، فتفسير الجفان بالصحاف كما فعله البعض منظور فيه. والجفنة خصت بوعاء الأطعمة، كما في «المفردات».

﴿كَٱلْجَوَابِ﴾؛ أي: كالحياض الكبار، أصله: الجوابي بالياء، كالجواري جمع جابية من الجباية؛ لاجتماع الماء فيها، وهي من الصفات الغالبة كالدابة.

قال الراغب: يقال: جبيت الماء في الحوض: جمعته، والحوض الجامع له: جابية، ومنه استعير جبيت الخراج جباية.

﴿وَقُدُورٍ﴾ جمع: قدر بكسر القاف، وهو إناء يطبخ فيه اللحم ونحوه، كما في «المفردات».

﴿رَاسِيَـٰتٍ﴾ جمع: راسية، من رسا الشيء يرسو: إذا ثبت، ولذلك سميت الجبال الرواسي. ﴿ٱلشَّكُورُ﴾: الباذل وسعه في الشكر، قد شغل قلبه ولسانه وجوارحه به اعترافاً واعتقاداً وعملاً.

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾: القضاء الحكم، والفصل والموت: زوال القوة الحساسة.

﴿مِنسَأَتَهُۥ﴾ المنسأة: مفعلة اسم آلة، وهي العصا؛ لأنه ينسأ بها؛ أي: يطرد ويؤخر كالمكنسة والمكسحة والمقصعة.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: تعريف طرفي الجملة في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ لإفادة الحصر، ومعناه: لا يستحق الحمد الكامل إلا الله، أو لإفادة الاختصاص، ومعناه: جميع أفراد المدح والثناء والشكر من كل حامد مختص به سبحانه، لا شركة لأحد فيه؛ لأنه الخالق المالك، كما يدل عليه ما بعده.

ومنها: تقديم الخبر على المبتدأ لإفادة الحصر في قوله: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْآخِرَةِ﴾، وفيه أيضاً إطلاق المحمود عليه ليعم النعم الأخروية كلها. اهـ «روح».

ومنها: الطباق بين ﴿يَلِجُ﴾، و﴿يَخْرُجُ﴾، وبين: ﴿يَنزِلُ﴾، و﴿يَعْرُجُ﴾، وبين: ﴿أَصْغَرُ﴾، و﴿أَكْبَرُ﴾.

ومنها: إفادة المبالغة بصيغتي فعيل وفعول في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾، ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾.

ومنها: المقابلة بين ﴿لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ...﴾ الآية، وبين ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ﴾ فقد جعل المغفرة والرزق الكريم جزاء المحسنين، وجعل العذاب والرجز الأليم جزاء المجرمين.

ومنها: الاستفهام في قوله: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ للاستهزاء والسخرية؛ لأن غرضهم بهذا الكلام الاستهزاء بالرسول والسخرية به.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ للإبهام والتجهيل، ولم يذكروا اسمه إمعاناً في التجهيل، كأنه إنسان مجهول.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ﴾ لما فيه من وصف الشيء بوصف فاعله؛ إذ البعد في الأصل وصف الضال؛ لأنه الذي يتباعد عن المنهاج القويم، وكلما ازداد بعداً منه كان أضلَّ.

ومنها: تقديم العذاب على ما يوجبه ويؤدي إليه، وهو الضلال للمسارعة إلى بيان ما يسوؤهم.

ومنها: جعل العذاب والضلال محيطين بهم إحاطة الظرف بالمظروف؛ لأن أسباب العذاب معهم، فكأنهم في وسط.

ومنها: وضع الموصول موضع ضميرهم في قوله: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ﴾ للتنبيه على أنَّ علة ما اجترؤوا عليه كفرهم بالآخرة، وما فيها من فنون العقاب، ولولاه لما فعلوا ذلك خوفاً من غائلته اهـ «روح».

ومنها: التنكير في قوله: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ﴾ لغرض التفخيم؛ أي: فضلاً عظيماً.

ومنها: تأكيد فخامته الذاتية بفخامته الإضافية في قوله: ﴿مِنَّا﴾ لما فيه من نسبة الفضل إلى الله سبحانه.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿غُدُوُّهَا شَهۡرٞ﴾؛ أي: مسيرة شهر.

ومنها: نداء غير العاقل في قوله: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ﴾ تنزيلاً له منزلة العاقل.

ومنها: حذف الموصوف، وإقامة صفته مقامه تفخيماً لشأنه في قوله: ﴿أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ﴾؛ أي: دروعاً سابغات.

ومنها: الجناس المماثل في قوله: ﴿أَنِ ٱعۡمَلۡ﴾، ﴿وَٱعۡمَلُواْ﴾، ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ﴾؛ لأن السرد في الأصل: خرز ما يخشن ويغلظ لخرز الجلد، ثم استعير لنظم الحديد، ونسج

الدروع، كما في «المفردات».

ومنها: الطباق بين ﴿غُدُوُّهَا وَرَوَاحُهَا﴾.

ومنها: التفصيل بعد الإجمال في قوله: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ﴾ فإنه تفصيل لقوله: ﴿مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

ومنها: التشبيه في قوله: ﴿وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ﴾، ويسمى: التشبيه المرسل المجمل؛ لذكر أداة التشبيه، وحذف وجه الشبه.

ومنها: تقديم المعمول على عامله لرعاية الفواصل في قوله: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، وقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾.

ومنها: الإتيان بصيغة فعول في قوله: ﴿مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ لإفادة المبالغة.

ومنها: التهكم في قوله: ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾.

ومنها: جمع المؤكدات في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ فإنه جمع التأكيد بأن، وباسمية الجملة، وباللام.

ومنها: إضافة العام إلى الخاص في قوله: ﴿دَابَّةُ الْأَرْضِ﴾ إن قلنا: إن الأرض بفتح الراء جمع: أرضة؛ لأن الدابة أعم من الأرضة وغيرها من الدواب، كما في «الفتوحات».

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّا بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[1]: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر حال الشاكرين لنعمه، المنيبين إليه بذكر داود وسليمان.. أعقب ذلك بذكر ما حل بالكافرين بأنعمه، المعرضين عن ذكره وشكره، من عظيم العقاب بذكر قصة سبأ موعظةً لقريش، وتحذيراً لمن يكفر

(١) البحر المحيط.

بالنعم، ويعرض عن المنعم.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها[1]: أن الله سبحانه لما حكى ما أوتوا من النعم في مساكنهم، ثم كفرانهم بها، وما جوزوا به من الخراب والدمار.. قص علينا ما أعطوه من النعم في مسايرهم ومتاجرهم، ثم جحودهم بها، ثم ما حاق بهم بسبب ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر[2] قصص سبأ، وما كان من أمرهم من اتباع الهوى والشيطان.. أردف ذلك الإخبار بأنهم صدقوا ظن إبليس فيهم، وفي أمثالهم ممن ركنوا إلى الغواية والضلال؛ إذ تسلط عليهم، وانقادوا إلى وسوسته، وبذا امتازوا من فريق المؤمنين الذين لا سلطان للشيطان عليهم، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر ما آتاه الشاكرين من أوليائه كداود وسليمان من النعم التي لا حصر لها، وما فعله بسبأ حين بطروا النعمة، وكذبوا الرسل.. أعقب ذلك بأمر رسوله ﷺ أن يقول للمشركين من قومه تهكماً بهم وتعجباً من حالهم: ادعوا آلهتكم الذين زعمتموهم شركاء لله، فسلوهم أن يفعلوا بكم بعض أفعالنا بمن وصفنا أمرهم من إنعام أو انتقام، فإن لم يستطيعوا ذلك.. فاعلموا أنهم مبطلون.

ثم ذكر أن شأن المعبود أن يكون نافعاً للعباد، يخشى بطشه وسطوته، وهؤلاء ليس لهم شيء من ذلك؛ إذ لا تصرف لهم في شيء في السموات والأرض، لا استقلالاً، ولا شركةً، ولا هم معينون للخالق فيهما، ولا تنفع شفاعتهم لديه، فكيف تتقربون إليهم وتعبدونهم رجاء نفعهم بعد الذي علمتم من أمرهم؟!

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه بعد أن سلب عن شركائهم ملك شيء من الأكوان، وأثبت أن ذلك له وحده.. أمر نبيه أن يجعلهم يقرون بتفرده بالخلق

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

والرزق، وانفراده بالإلهية، وأن يخبر بأن أحد الفريقين الموحدين للرازق، والمشركين به الجماد مبطل، والآخر محق، وقد قام الدليل على التوحيد، فدل على بطلان ما أنتم عليه من الشرك، وأن يقول لهم: لا تؤاخذون بما نعمل، ولا نؤاخذ بما تعملون، وأن يقول لهم: إن ربنا هو الذي يحكم بيننا يوم القيامة، وهو الحكيم العليم بجلائل الأمور ودقائقها، وأن يقول لهم: أعلموني عما ألحقتم به من الشركاء، هل يخلقون، وهل يرزقون؟ كلا، بل الله هو الخالق الرازق الغالب على أمره، الحكيم في كل ما يفعل.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما أقام[1] الأدلة على التوحيد، وضرب لذلك الأمثال حتى لم يبق بعدها زيادة مستزيد.. شرع يذكر الرسالة، ويبين أنها عامة للناس جميعاً، ولكن أكثر الناس لا يعلمون، فيحملهم ذلك على مخالفتك، ثم ذكر سؤال منكري البعث عن الساعة استهزاءً بها، ثم أعقب ذلك بالتهديد والوعيد لما يكون لهم فيها من شديد الأهوال.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ...﴾ الآيات، سبب نزول هذه الآية: ما[2] أخرجه ابن أبي حاتم عن علي بن رباح قال: حدثني فلان أن فروة بن مُسَيْك الغُطَيْفِي قدم على رسول الله ﷺ، فقال: يا نبي الله، إن سبأ قوم كان لهم في الجاهلية عز، وإني أخشى أن يرتدوا عن الإسلام أفقاتلهم؟ فقال: ما أمرت فيهم بشيء بعد، فأنزلت هذه الآية ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ...﴾ الآيات.

التفسير وأوجه القراءة

﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ﴾ بوزن جبل[3]؛ أي: وعزتي وجلالي لقد كان لقبيلة سبأ، وهم أولاد سبأ بن يشجب ـ بالجيم ـ على ما في «القاموس» ـ بن يعرب بن

---

(١) المراغي.
(٢) لباب النقول.
(٣) روح البيان.

قحطان بن عامر، ـ وهو هود عليه السلام على ما قيل ـ ابن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام. وسبأ: لقب عبد شمس بن يشجب، وإنما لقب به؛ لأنه أول من سبي، كما قاله السهيلي، وهو ـ أي: سبأ ـ يجمع قبائل اليمن، ويعرب بن قحطان: أول من تكلم العربية، فهوأبوعرب اليمن، يقال لهم: العرب العاربة، ويقال لمن تكلم بلغة إسماعيل: العرب المستعربة، وهي لغة أهل الحجاز، فعربية قحطان كانت قبل إسماعيل عليه السلام، وهو لا ينافي كون إسماعيل أول من تكلم بالعربية؛ لأنه أول من تكلم بالعربية البينة المحضة، وهي عربية قريش التي نزل بها القرآن، وكذا لا ينافي ما قيل: إن أول من تكلم بالعربية آدم في الجنة، فلما أهبط إلى الأرض تكلم بالسريانية، وجاء: من أحسن أن يتكلم بالعربية، فلا يتكلم بالفارسية.

واشتهر على ألسنة الناس أنه ﷺ قال: «أنا أفصح من نطق بالضاد». قال جمع من العلماء: لا أصل له، ومعناه صحيح؛ لأن المعنى: أنا أفصح العرب؛ لكونهم هم الذين ينطقون بالضاد، ولا توجد في غير لغتهم، كما في «إنسان العيون» لعلي بن برهان الدين الحلبي.

وعن[1] فروة بن مسيك المرادي قال: لما أنزل في سبأ ما أنزل.. قال رجل: يا رسول الله، وما سبأ، أأرض أم امرأة؟ قال: «ليس بأرض ولا امرأة، ولكنه رجل ولد عشرة من العرب، فتيامن منهم ستة، وتشاءم منهم أربعة، فأما الذين تشاءموا: فلخم وجذام وغسان وعاملة، وأما الذين تيامنوا: فالأزد والأشعريون وحمير وكندة ومذحج وأنمار». فقال رجل: يا رسول الله، وما أنمار؟ قال: «الذين منهم خثعم وبجيلة». أخرجه الترمذي مع زيادة، وقال: حديث حسن غريب.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿لِسَبَإٍ﴾ بالجر والتنوين على أنه اسم حي؛ أي: الحي الذين هم أولاد سبأ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿لسبأ﴾ ممنوع الصرف بتأويل القبيلة، واختار هذه القراءة أبو عبيد، ويقوّي القراءة الأولى قوله: ﴿في مساكنهم﴾، ولو كان على تأويل القبيلة لقال: في مساكنها، فمما ورد على القراءة الأولى قول الشاعر:

---

(١) الخازن. (٢) الشوكاني.

ٱلْــوَارِدُونَ وَتَــيْــمٌ فِــيْ ذُرَىٰ سَــبَــإٍ   قَدْ عَضَّ أَعْنَـاقَـهَـا جِلْـدُ ٱلْجَـوَامِيْـسِ

ومما ورد على القراءة الثانية قول الشاعر:

مِـنْ سَـبَـأَ ٱلْـحَـاضِـرِيْـنَ مَـأرِبُ إِذْ   يَـبْـنُـونَ مِـنْ دُوْنِ مَـسِـيْـلِـهِ ٱلْـعَـرِمَـا

وقرأ قنبل وأبو حيوة والجحدري ﴿لسبأ﴾ بإسكان الهمزة، وقرىء بقلبها ألفاً.

﴿فِى مَسْكَنِهِمْ﴾؛ أي: في[1] بلدهم الذي كانوا فيه باليمن، وهو مأرب كمنزل على ما في «القاموس»، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث ليال، وهي المرادة بسبأ بلدة بلقيس في سورة النمل. قال السهيلي: مأرب: اسم ملك كان يملكهم، كما أنَّ كسرى: اسم لكل من ملك الفرس، وخاقان: اسم لكل من ملك الصين، وقيصر: اسم لكل من ملك الروم، وفرعون: لكل من ملك مصر، وتبع لكل من ملك الشحر واليمن وحضرموت، والنجاشي: لكل من ملك الحبشة.

وقيل: مأرب: اسم قصر كان لهم، ذكره المسعودي. قال في «إنسان العيون»: ويعرب قحطان، قيل له: أيمن؛ لأن هوداً عليه السلام قال له: أنت أيمن ولدي، وسمي اليمن يمناً بنزوله فيه.

وقرأ الجمهور: ﴿في مساكنهم﴾ على الجمع، واختار هذه القراءة أبو عبيد وأبو حاتم. ووجه الاختيار: أنها كانت لهم منازل كثيرة، ومساكن متعددة.

وقرأ حمزة وحفص بالإفراد مع فتح الكاف، وقرأ الكسائي: بالإفراد مع كسرها، وبهذه القراءة قرأ يحيى بن وثاب والأعمش، ووجه الإفراد: أنه مصدر يشمل القليل والكثير، أو اسم مكان وأريد به معنى الجمع، وهذه المساكن التي كانت لهم هي التي يقال لها الآن: مأرب.

﴿ءَايَةٌ﴾؛ أي: علامة ظاهرة دالة بملاحظة الأحوال السابقة واللاحقة لتلك القبيلة من الإعطاء والترفية بمقتضى اللطف، ثم من المنع والتخريب بموجب القهر؛ أي: علامة دالة على وجود الصانع المختار، وقدرته على كل ما يشاء من الأمور البديعة، ومجازاته للمحسن والمسيء، وما يعقلها إلا العالمون، وما يعتبرها إلا العاقلون.

---

(١) روح البيان.

﴿جَنَّتَانِ﴾ بدل من آية، والمراد بهما: جماعتان من البساتين، لا بستانان اثنان فقط. وقرأ ابن أبي عبلة[1]: ﴿جنتين﴾ بالنصب على أن ﴿آية﴾ اسم كان، و﴿جنتين﴾ الخبر، ووجه كون الجنتين آية: نبات الخمط والأثل والسدر مكان الأشجار المثمرة. وفي «القرطبي»: آية[2] دالة على قدرة الله تعالى، وعلى أن لهم خالقاً خلقهم، وأن كل الخلائق لو اجتمعوا على أن يخرجوا من الخشبة ثمرة لم يمكنهم ذلك، ولم يهتدوا إلى اختلاف أجناس الثمار وألوانها وطعومها وروائحها وأزهارها، وفي ذلك ما يدل على أنها لا تكون إلا من عالم قادر. اهـ.

وقد سبق قريباً أن قوله: ﴿جَنَّتَانِ﴾ بالرفع بدل من ﴿ءَايَةٌ﴾ التي هي اسم كان بدل مثنى من مفرد؛ لأن هذا المفرد يصدق على المثنى؛ لأنهما لما تماثلتا في الدلالة، واتحدت جهتها فيهما.. صح جعلهما آيةً واحدة، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ واعتمد أبو حيان كون ﴿جَنَّتَانِ﴾ خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هي جنتان؛ أي: بستانان. اهـ «كرخي». أي: جماعتان من البساتين.

جماعة ﴿عَن يَمِينٍ﴾؛ أي: عن يمين بلدتهم ووالديهم؛ لأن بلدتهم كانت في الوادي ﴿و﴾ جماعة عن ﴿ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: شمال واديهم، كل واحدة من تينك الجماعتين في تقاربها وتضامنها كأنهاجنة واحدة. اهـ «أبو السعود». وفي «القرطبي»: قال القشيري: ولم يرد جنتين اثنتين، بل أراد من الجهتين يمنة ويسرة في كل جهة بساتين كثيرة؛ أي: كانت بلادهم ذات بساتين وأشجار وثمار تستر الناس بظلالها. اهـ. أو المعنى[3]: بستانان، لكل رجل منهم عن يمين مسكنه وعن شماله، وفي «الشوكاني»: وهاتان الجنتان كانتا عن يمين واديهم وشماله، قد أحاطتا به من جهتيه، وكانت مساكنهم في الوادي، والآية: هي الجنتان، كانت المرأة تمشي فيهما، وعلى رأسها المكتل، فيمتلىء من أنواع الفواكه التي تتساقط من غير أن تمسها بيدها. وقال عبد الرحمن بن زيد: إن الآية التي كانت لأهل سبأ في مساكنهم: أنهم لم يروا فيها بعوضةً ولا ذباباً ولا برغوثاً ولا قملةً ولا عقرباً ولا حيةً، ولا غير ذلك من الهوام، وإذا جاءهم الركب في ثيابهم القمل.. ماتت عند

---

(١) البحر المحيط.

(٢) القرطبي.

(٣) روح البيان.

رؤيتهم لبيوتهم.

وقوله: ﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ مقول لقول محذوف؛ أي: قيل لهم على لسان نبينهم، أو على لسان الملائكة، أو بلسان الحال، ولم يكن ثَمَّ أمر، ولكن المراد: تمكينهم من تلك النعم. ويقال: كان سبأ ثلاث عشرة قرية، فبعث الله إليهم ثلاثة عشر نبياً، فقال لهم الأنبياء: كلوا من رزق ربكم؛ أي: مما رزقكم الله سبحانه من أنواع ثمار الجنتين ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ﴾ سبحانه على ما رزقكم منها باللسان والجنان والأركان، واعملوا بطاعته، واجتنبوا معاصيه.

وجملة قوله: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ مستأنفة مسوقة لبيان ما يوجب الشكر المأمور به؛ أي: بلدتكم[1] هذه بلدة طيبة؛ لكثرة أشجارها وثمارها، وقيل: معنى كونها طيبة: أنها لم تكن سبخة، بل لينة؛ حيث أخرجت الثمار الطيبة. وقيل: إنها طيبة الهواء والماء، كما قال الكاشفي. وفي «فتح الرحمن»: وطيبتها: أنها لم يكن بها بعوض ولا ذباب ولا برغوث ولا عقرب ولا حية، ولا غيرها من المؤذيات، وكان يمر بها الغريب وفي ثيابه القمل، فتموت كلها لطيب هوائها، ومن ثمة لم يكن بها آفات وأمراض أيضاً. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كانت أطيب البلاد هواء وأخصبها.

﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾؛ أي: وربكم الذي رزقكم ما فيها من الطيبات، وطلب منكم الشكر رب غفور لفرطات من يشكره وذنوبهم. قال مقاتل: المعنى: وربكم إن شكرتم فيما رزقكم رب غفور للذنوب، وقيل: إنما جمع لهم بين طيب البلدة والمغفرة للإشارة إلى أن الرزق قد يكون فيه حرام.

وقرأ رويس بنصب الأربعة[2]. قال أحمد بن يحيى: التقدير: اسكنوا بلدة طيبة، واعبدوا رباً غفوراً، وقال الزمخشري: منصوب على المدح.

ومعنى الآية: أي وعزتي وجلالي، لقد كان أهل هذا الحي من ملوك اليمن في نعمة عظيمة، وسعة في الرزق، وكانت لهم حدائق غناء، وبساتين فيحاء عن يمين الوادي وشماله، وقد أرسل الله سبحانه إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزق

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

ربهم، ويشكروه بتوحيده وعبادته كفاء ما أنعم عليهم بهذه المنن، وأحسن إليهم بتلك النعم، فكانوا كذلك إلى حين، ثم أعرضوا عما أمروا به، فعوقبوا بإرسال السيل عليهم، كما ذكره بقوله: ﴿فَأَعْرَضُوا۟...﴾ إلخ؛ أي: ولما ذكر الله سبحانه ما كان من جانبه من الإحسان إليهم.. ذكر ما كان من جانبهم في مقابلته فقال: فأعرضوا؛ أي: عما جاء به إليهم أنبياؤهم، وكانوا ثلاثة عشر نبياً بعدد قراهم، فدعوهم إلى الله تعالى، وذكروهم نعمه، فكذبوهم وقالوا: ما نعرف لله نعمة علينا، فقولوا لربكم فليحبس عنا هذه النعمة إن استطاع.

والمعنى: أعرض أولاد سبأ عن الوفاء، وأقبلوا على الجفاء، وكفروا النعمة، وتعرَّضوا للنقمة، وضيعوا الشكر، فبدلوا وبُدِّل لهم الحال.

ثم بيَّن كيفية الانتقام منهم فقال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: فتحنا عليهم، وسلطنا عليهم ﴿سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾؛ أي: سيل السدّ؛ أي: ماء السيول التي اجتمعت في سدهم الذي سدوه بين الجبلين ليجتمع فيه جميع سيول اليمن، والسيل: الماء الذي يأتيك، ولم يصبك مطره، والعرم: السد الذي يحبس الماء ليعلوا على الأرض المرتفعة، قاله السدي. والمعنى: أرسلنا عليهم سيل السد.

وقال عطاء: العرم: اسم الوادي. وقال الزجاج: العرم: اسم الجرذ الذي نقب السد عليهم، وهو الذي يقال له: الخلد، فنسب إليه السيل لكونه سبب جريانه؛ لأن الله تعالى أرسل جرذاناً برية كان لها أنياب من حديد، لا يقرب منها هرة إلا قتلتها، فنقبت عليهم ذلك السدَّ، فغرقت جنانهم ومساكنهم، ويقال لذلك الجرذ: الخلد بالضم، لإقامته عند جحره، وهو الفأر الأعمى الذي لا يدرك إلا بالسمع. وقرأ عروة بن الورد: ﴿العرم﴾ بإسكان الراء مخفف العرم، كقولهم في الكَبِد: الكَبْد، ذكره في «البحر».

قال ابن عباس ووهب وغيرهما[1]: كان لهم سد بنته بلقيس، وذلك أنهم كانوا يقتتلون على ماء واديهم، فأمرت بواديهم، فسد بالصخر والقار بين الجبلين، وجعلت لهم ثلاث أبواب بعضها فوق بعض، وبنت دونه بركة ضخمة، وجعلت فيها

---

(١) الخازن.

اثني عشر مخرجاً على عدة أنهارهم، يفتحونها إذا احتاجوا إلى الماء، وإذا استغنوا عنه سدوها، فإذا جاءهم المطر اجتمع عليهم ماء أودية اليمن، فاحتبس السيل من وراء السد، فأمرت بالباب الأعلى، ففتح فجرى ماؤه إلى البركة، فكانوا يسقون من الباب الأعلى، ثم من الثاني، ثم من الثالث الأسفل، فلا ينفد الماء حتى يثوب الماء من السنة المقبلة، فكانت تقسمه بينهم على ذلك، فبقوا بعدها مدة، فلما طغوا وكفروا سلط الله عليهم جرذاً يسمى الخلد، فنقَّب السد من أسفله، فغرق الماء جنانهم، وأخرب أرضهم.

وقال وهب: رأوا فيما يزعمون ويجدون في علمهم أن الذي يخرب سدهم فأرة، فلم يتركوا فرجة بين حجرين إلا ربطوا عندها هرة، فلما جاء زمان ما أراد الله تعالى بهم من التغريق.. أقبلت فيما يذكرون فأرة حمراء كبيرة إلى هرة من تلك الهرار، فساورتها حتى استأخرت الهرة عنها، فدخلت في الفرجة التي كانت عندها، فتغلغلت في السد، وحفرت حتى أوهنت المسيل، وهم لا يعلمون ذلك، فلما جاء السيل وجد خللاً، فدخل منه حتى اقتلع السد، وفاض الماء حتى علا أموالهم فغرقها، ودفن بيوتهم الرمل، فغرقوا ومزقوا كل ممزق حتى صاروا مثلاً عند العرب، يقولون: ذهبوا أيدي سبأ، وتفرقوا أيادي سبأ.

وقال السهيلي في كتاب «التعريف والأعلام»: كان الذي بني السدَّ سبأ بن يشجب، بناه بالرخام، وساق إليه سبعين وادياً، ومات قبل أن يستتمه، فأتم بعده. انتهى. وقال في «فتح الرحمن»: فأرسلنا عليهم السيل الذي لا يطاق، فخرب السد، وملأ ما بين الجبلين، وحمل الجنات وكثيراً من الناس ممن لم يمكنه الفرار؛ أي: إلى الجبل، وأغرق أموالهم، فتفرقوا في البلاد، فصاروا مثلاً. انتهى. وقيل: الأوس والخزرج منهم.

﴿وَبَدَّلْنَٰهُم﴾؛ أي: عوضناهم ﴿بِجَنَّتَيْهِمْ﴾؛ أي: عن[1] جنتيهم المذكورتين، وآتيناهم بدلهما. والتبديل: جعل الشيء مكان آخر، والباء تدخل على المتروك على ما هي القاعدة المشهورة. ﴿جَنَّتَيْنِ﴾ ثاني مفعولي ﴿بدلنا﴾؛ أي: أعطينا بدل

---

(١) روح البيان.

الجنتين المذكورتين لهم جنتين أخريين.

﴿ذَوَاتَىْ﴾: صفة لـ﴿جَنَّتَيْنِ﴾؛ أي: صاحبتي ﴿أُكُلٍ﴾ وثمر ﴿خَمْطٍ﴾؛ أي: مرّ، ويقال في الرفع: ذواتا بالألف، وهي تثنية: ذات، مؤنث: ذي، بمعنى: الصاحب، والأكل ـ بضم الكاف وسكونه ـ اسم لما يؤكل، والخمط: كل نبت أخذ طعماً من مرارة حتى لا يمكن أكله.

والمعنى: أهلكنا جنتيهم اللتين كانتا مشتملتين على تلك الفواكه الطيبة، والأنواع الحسنة، وأعطيناهم بدلهما جنتين صاحبتين ثمر مرٍّ.

وقرأ الجمهور بتنوين[1]: ﴿أُكُلٍ﴾ وعدم إضافته إلى ﴿خَمْطٍ﴾. وقرأ أبو عمرو: ﴿أكل﴾ ﴿خمط﴾ بالإضافة؛ أي: ثمر خمط على أن يكون الخمط كل شجر مر الثمر، أو كل شجر له شوك، أو هو الأراك على ما قاله البخاري. والأكل: ثمره. وقراءة الجمهور أولى من قراءة أبي عمرو، والخمط على قراءتهم نعت لـ﴿أكل﴾، أو بدل منه؛ لأن الأكل هو الخمط بعينه. وقال الأخفش: الإضافة أحسن في كلام العرب، مثل: ثوب خز، ودار آجر.

﴿و﴾ جنتين ذواتي ﴿أثل﴾ لا على ﴿خَمْطٍ﴾، فإن الأصل هو الطرفاء، أو شجر يشبهه أعظم منه طولاً، ولا ثمر له، الواحدة: أثلة، والجمع أثلاث، وقوله: ﴿وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ معطوف أيضاً على أكل؛ أي: وذواتي شيء قليل من سدر. وقرىء: ﴿أثلاً﴾ و﴿شيئاً﴾ بالنصب، حكاه الفضل بن إبراهيم عطفاً على ﴿جَنَّتَيْنِ﴾. ذكره أبو حيان.

قال البيضاوي[2]: وصف السدر بالقلة لما أن جناه وهو النبق مما يطيب أكله، ولذلك يغرس في البساتين. انتهى. فالسد: شجر النبق على مافي «القاموس». وقال أبو السعود: والصحيح أن السدر صنفان: صنف يؤكل من ثمره، وينتفع بورقه لغسل اليد، وصنف له ثمرة عفصة لا تؤكل أصلاً، وهو البري الذي يقال له: الضال. والمراد ههنا هو الثاني، فكان شجرهم من خير الشجر، فصيره الله من شر الشجر بسبب أعمالهم القبيحة. انتهى.

---

(١) البحر المحيط. (٢) البيضاوي.

والحاصل: أن الله سبحانه أهلك أشجارهم المثمرة، وأنبتت بدلها غير المثمرة.

ومعنى الآية[1]: أي فأعرضوا عن طاعة ربهم، وصدوا عن اتباع ما دعتهم إليه الرسل، فأرسل الله عليهم سيلا كثيراً ملأ الوادي، وكسر السد، وخرَّبه، وذهب بالجنان والبساتين وأهلك الحرث والنسل، ولم يبق منهم إلا شراذم قليلة تفرقت في البلاد، وبدلوا بتلك الجنان والبساتين التي سبق وصفها بساتين ليس فيها إلا بعض أشجار لا يؤبه بها، كالخمط والأثل وقليل من النبق.

ثم بيَّن سبب ذلك العقاب بقوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم﴾ فالإشارة[2] بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى مصدر ﴿جَزَيْنَٰهُم﴾ فمحله النصب على أنه مصدر مؤكد له؛ أي: ذلك الجزاء الفظيع جزيناهم لا جزاء آخر، أو الإشارة إلى ماذكر من التبديل، فمحله النصب على أنه مفعول ثان له؛ أي: ذلك التبديل جزيناهم لا غيره ﴿بِمَا كَفَرُوا۟﴾؛ أي: بسبب كفرانهم النعمة؛ حيث نزعناها منهم، ووضعنا مكانه ضدها، أو بسبب كفرهم بالرسل.

وفي هذه الآية: دليل على بعث الأنبياء بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، فإنه روي أن الواقعة المذكورة كانت في الفترة التي بينهما، وما قيل من أنه لم يكن بينهما نبيٌّ يعني به: نبي ذو كتاب، كذا في «بحر العلوم»، فلا يشكل قوله عليه الصلاة والسلام: «ليس بيني وبينه نبي»؛ أي: رسول مبعوث بشريعة مستقلة، بل كل من بعث كان مقرراً لشريعة عيسى عليه السلام.

والاستفهام في قوله: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ﴾ إنكاري بمعنى النفي؛ أي: وما نجازي هذا الجزاء الفظيع بسلب النعمة، ونزول النقمة ﴿إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾؛ أي: إلا المبالغ في الكفران، أو في الكفر، وكفر النعمة وكفرانها: سترها بترك أداء شكرها. والكفران في جحود النعمة أكثر استعمالاً والكفر في الدين أكثر، والكفور فيهما جميعاً، وقال مجاهد: إن المؤمن يكفر عنه سيئاته، والكافر يجازي بكل عمل عمله.

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿يجازى﴾ بضم الياء وفتح الزاي ﴿الكفور﴾ رفعاً. وقرأ حمزة والكسائي: ﴿نُجَٰزِيٓ﴾ بالنون وكسر الزاي، ﴿ٱلۡكَفُورَ﴾ بالنصب. وقرأ مسلم بن جندب: ﴿يجزى﴾ مبنياً للمفعول، ﴿الكفورُ﴾ رفعاً، وأكثر ما يستعمل الجزاء في الخير، والمجازاة في الشر، لكن في تقييدهما قد يقع كل واحد منهما موقع الآخر.

وفي الآية[2]: إشارة إلى أن المؤمن الشاكر يربط بشكره النعم الصورية، والمعنوية من الإيقان والتقوى والصدق والإخلاص والتوكل والأخلاق الحميدة، وغير الشاكرين يزيل بكفرانه هذه النعم، فيجد بدلها الفقر والكفر والنفاق والشك والأوصاف الذميمة. ألا ترى إلى حال بلعم، فإنه لم يشكر يوماً على نعمة الإيمان والتوفيق، فوقع فيما وقع، والعياذ بالله تعالى، فلما غرس أهل الكفر في بستان القلب والروح الأشجار الخبيثة.. لم يجدوا إلا الثمار الخبيثة، فما عوملوا إلا بما استوجبوه، وما حصدوا إلا بما زرعوا، وما وقعوا إلا في الحفرة التي حفروا، كما قيل: يداك أوكتا، وفوك نفخ.

وهذا مثل مشهور يضرب لمن يتحسر ويتضجر مما يرد عليه منه، يقال: أوكأ على سقائه: إذا شده بالوكاء، والوكاء: للقربة، وهو الخيط الذي يشد به فوها، وفي الحديث: «فمن وجد خيراً فليحمد الله ـ أي: الذي هو ينبوع الرحمة والخير ـ ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه».

فصل في سد مأرب ـ سد العرم

وصف هذا السد مؤرخو العرب في عصور مختلفة[3]، وأصدق من أجاد وصفه الهمداني في كتابه: «وصف جزيرة العرب» قال: في الجنوب الغربي من مأرب سلسلة جبال هي شعاب من جبل السراة الشهير، تمتد مئات الأميال نحو الشرق الشمالي، وبين هذه الجبال أودية تصب في واد كبير يعبِّر عنه العرب بالميزاب الشرقي، وهو أعظم أودية الشرق، وشعاب هذه المواضع وأوديتها إذا أمطرت السماء تجمعت فيها السيول، وانحدرت حتى تنتهي أخيراً إلى وادي آذنة،

---

(١) البحر المحيط.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

وهو يعلو سطح البحر نحو (١١٠٠) متر، وتسير فيه المياه نحو الشرق الشمالي حتى تنتهي إلى مكان قبل مأرب بثلاث ساعات، وهو مضيق بين جبلين، يقال لكل منهما: بلن، أحدهما: بلن الأيمن، وثانيهما: بلن الأيسر، والمسافة بينهما ست مئة ذراع، يجري السيل الأكبر بينهما من الغرب الجنوبي إلى الشرق الشمالي في وادي آذنة.

وقد اختار السبئيُّون المضيق بين جبلي بلن، وبنوا في عرضه سوراً عظيماً عرف بسد مأرب، أو بسد العرم؛ لأنه لا أنهار عندهم، وإنما يستقي أهلها من السيول التي تتجمع من المطر، وقد كان يذهب أكثرها في الرمال، فإذا انقضى فصل المطر.. ظمئوا وجفت أغراسهم، وربما فاض المطر فسطا على المدن والقرى، فنالهم منه أذى كثير. وبين المضيق ومدينة مأرب متسع من الأرض، تبلغ مساحة ما يحيط به من الأرض من سفوح وجبال نحو (٣٠٠٠) ميل مربع، كانت صحراء جرداء قاحلة، فأصبحت بعد تدبير المياه بالسد غياضاً وبساتين على سفحي الجبلين، وهي المعبَّر عنها بالجنتين، الجنة اليمنى، والجنة اليسرى. اهـ بتصرف.

قال الأصفهاني: إن السد تهدم قبل الإسلام بنحو أربع مئة سنة، وقال ياقوت: إنه هدم في نحو القرن السادس للميلاد، وقال ابن خلدون: إنه تهدم في القرن الخامس للميلاد.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا﴾ معطوف على قوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾، وهو[1] بيان لما أوتوا من النعم البادية في مسايرهم ومتاجرهم، بعد حكاية ما أوتوا من النعم الحاضرة في مساكنهم ومحاضرهم، وما فعلوا بها من الكفران، وما فعل بهم من الجزاء تكملة لقصتهم، وإنما لم يذكر الكل معاً لما في التثنية والتكرير من زيادة تنبيه وتذكير.

والمعنى[2]: وجعلنا مع ما آتيناهم في مساكنهم من فنون النعم ﴿بَيْنَهُمْ﴾؛ أي: بين بلادهم اليمنية ﴿وَبَيْنَ الْقُرَى﴾ الشامية ﴿الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ بالمياه والأشجار والثمار والخصب والسعة في العيش للأعلى والأدنى. والمراد بها هنا: فلسطين وأريحا

---

(١) روح البيان.   (٢) روح البيان.

وأردن ونحوها، والبركة: ثبوت الخير الإلهي في الشيء، والمبارَك: ما فيه ذلك الخير.

﴿قُرًى ظَـٰهِرَةً﴾؛ أي: قرى متواصلة يرى بعضها من بعض لتقاربها، فهي ظاهرة لأعين أهلها، أو راكبة متن الطريق، ظاهرة للسابلة، غير بعيدة عن مسالكهم حتى تخفى عليهم، أو مرتفعة على الآكام، وهي أصح القرى.

وكان متجرهم من أرضهم التي هي مأرب إلى الشام، وكانوا يبيتون بقرية، ويقيلون بأخرى حتى يرجعوا، وكانوا لا يحتاجون إلى زادٍ يحملونه من أرضهم إلى الشام، وقال الحسن: إن هذه القرى هي بين اليمن والشام، قيل: إنها كانت أربعة آلاف وسبع مئة قرية، وقيل: هي بين المدينة والشام، وقال المبرد: القرى الظاهرة: هي المعروفة، وإنما قيل لها: ظاهرة؛ لظهورها إذا خرجت من هذه ظهرت لك الأخرى، فكانت قرى ظاهرة؛ أي: معروفة، يقال: هذا أمر ظاهر؛ أي: معروف.

﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾؛ أي: وجعلنا مسافة السير بينها مقداراً معيناً واحداً؛ أي: جعلنا القرى في نسبة بعضها إلى بعض على مقدار معين يليق بحال أبناء السبيل، وذلك نصف يوم. وقال الفراء: أي: جعلنا بين كل قريتين نصف يوم حتى يكون المقيل في قرية، والمبيت في أخرى إلى أن يصل إلى الشام. قيل: كان الغادي من قرية يقيل في الأخرى، والرائح منها يبيت في أخرى إلى أن يبلغ الشام، لا يحتاج إلى حمل ماء وزاد، ولا مبيت في أرض خالية، ولا يخاف من عدو ولا سبع، وكل ذلك كان تكميلاً لما أوتوا من أنواع النعماء، وتوفيراً لها في الحضر والسفر، وإنما يبالغ الإنسان في السير لعدم الزاد والماء، ولخوف الطريق، فإذا وجد الزاد والأمن.. لم يحمل نفسه المشقة، بل ينزل أينما أراد.

والحاصل: أن الله سبحانه عدد عليهم النعم، ثم ذكر ما نزل بهم من النقم، ثم عاد لتعديد بقية ما أنعم به عليهم مما هو خارج عن بلدهم من اتصال القرى بينهم وبين ما يريدون السفر إليه، ثم ذكر بعد ذلك تبديله بالمفاوز والبراري، كما سيأتي.

وقوله: ﴿سِيرُواْ فِيهَا﴾؛ أي: في تلك القرى الظاهرة على تقدير القول بلسان المقال أو الحال، فإنهم لما مكنوا من السير وسويت لهم أسبابه.. فكأنهم أمروا

بذلك، وأذن لهم فيه؛ أي: وقلنا لهم: سيروا في تلك القرى لمصالحكم ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾؛ أي: متى شئتم من الليالي والأيام، أو مكنا لهم من السير فيها متى شاؤوا من الأيام والليالي؛ أي: سيروا فيها أي وقت شئتم حال كونكم ﴿ءَامِنِينَ﴾ من كل ما تكرهونه من الأعداء واللصوص والسباع بسبب كثرة الخلق، ومن الجوع والعطش بسبب عمارة المواضع، لا يختلف الأمن فيها باختلاف الأوقات، أو سيروا فيها آمنين، وإن تطاولت مدة سفركم، وامتدت ليالي وأياماً كثيرةً، أو سيروا فيها ليالي أعماركم وأيامها لا تلقون فيها إلا الأمن لكن لا على الحقيقة، بل على تنزيل تمكينهم من السير المذكور، وتسوية مباديه وأسبابه على الوجه المذكور منزلة أمرهم بذلك.

وخلاصة ما ذكر[1]: أنهم كانوا في نعمة وغبطة وعيش هنيء رغد في بلاد مرضية، وأماكن آمنة، وقرى متواصلة مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها، فالمسافر لا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء، بل حيث نزل وجد ماءً وثمراً، فهو يقيل في قرية ويبيت في أخرى بمقدار ما يحتاجون إليه في مسيرهم.

ثم ذكر أنهم بطروا وملوا تلك النعم، وآثروا الذي هو أدنى على الذي هو خير، كما طلب بنو إسرائيل الثوم والبصل مكان السلوى والعسل، وقالوا: لو كان جني جناننا أبعد.. لكان أجدر أن نشتهيه، وسألوا أن يجعل الله بينهم وبين الشام مفاوز وقفاراً؛ ليركبوا فيها الرواحيل، ويتزودوا الأزواد، ويتطاولوا فيها على الفقراء، كما حكى سبحانه عنهم بقوله: ﴿رَبَّنَا بَٰعِدْ﴾ بيننا؛ أي: بين بلدنا ويمننا، و﴿بَيْنَ﴾ مقصد ﴿أَسْفَارِنَا﴾ وهو الشام؛ أي: اجعل بيننا وبين الشام مفاوز وفلوات لنركب فيها الرواحل، ونتزود الأزواد، فلما تمنوا ذلك عجل لهم الإجابة بتخريب تلك القرى المتوسطة، وجعلها بلقعاً لا يسمع فيها داع ولا مجيب ﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ حيث عرضوها للسخط والعذاب بالشرك، وترك الشكر، وعدم الاعتداد بالنعمة، وتكذيب الأنبياء.

وقرأ الجمهور من السبعة[2]: ﴿رَبَّنَا﴾ بالنصب على النداء. وقرؤوا أيضاً

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

﴿بَعِّدْ﴾ بصيغة الطلب. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن محيصن وهشام عن ابن عامر: ﴿بعّد﴾ بتشديد العين على صيغة الطلب. وقرأ ابن السميفع: ﴿بعُد﴾ بضم العين فعلاً ماضياً، فيكون معنى هذه القراءة: الشكوى من بعد الأسفار. وقرأ أبو صالح ومحمد بن الحنفية وأبو العالية ونصر بن عاصم ويعقوب: ﴿ربنا﴾ بالرفع على الابتداء والخبر. ﴿باعد﴾ بفتح العين على أنه فعل ماض، والمعنى: لقد باعد ربنا بين أسفارنا، ورويت هذه القراءة عن ابن عباس، واختارها أبو حاتم، قال: لأنهم ما طلبوا التبعيد، إنما طلبوا أقرب من ذلك القرب الذي كان بينهم وبين الشام القرى المتواصلة بطراً وأشراً وكفراً للنعمة. وقرأ يحيى بن يعمر وعيسى بن عمر: ﴿ربُّنا﴾ بالرفع ﴿بعَّد﴾ بفتح العين مشددة، فيكون معنى هذه القراءة: الشكوى بأن ربهم بعَّد بين أسفارهم مع كونها قريبة متصلة بالقرى والشجر والماء، فيكون هذا من جملة بطرهم. وقرأ أخو الحسن البصري كقراءة ابن السميقع السابقة آنفاً، مع رفع ﴿بينُ﴾ على أنه الفاعل، كما قيل في قوله: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾. وروى الفراء والزجاج قراءة مثل هذه القراءة، لكن مع نصب ﴿بين﴾ على أنه ظرف، والتقدير: بعد سيرنا بين أسفارنا، وقرىء: ﴿بُعِّد﴾، وقرأ ابن يعمر: ﴿بين سفرنا﴾ بالإفراد، والجمهور بالجمع.

قال النحاس[1]: وهذه القراءات إذا اختلفت معانيها لم يجز أن يقال إحداها أجود من الأخرى، كما لا يقال ذلك في أخبار الآحاد إذا اختلفت معانيها، ولكن أخبر عنهم أنهم دعو ربهم أن يبعد بين أسفارهم، فلما فعل ذلك بهم شكوا وتضرروا، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ حيث كفروا بالله، وبطروا نعمته، وتعرضوا لنقمته ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾؛ أي: عظةً واعتباراً للناس، يتحدثون بهم ويتمثلون بهم.

أي: جعلنا أهل سبأ أخباراً وعظةً وعبرةً لمن بعدهم، بحيث يتحدث الناس بهم متعجبين من أحوالهم، ومعتبرين بعاقبتهم ومآلهم ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ﴾؛ أي: فرقناهم في كل جهة من البلاد ﴿كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾؛ أي: غاية[2] التفريق وكامله، على أن الممزق مصدر، أو: كل مطرح ومكان تفريق، على أنه اسم مكان، وفي التعبير بالتمزيق

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

الخاص بتفريق المتصل وخرقه من تهويل الأمر والدلالة على شدة التأثير والإيلام ما لا يخفى.

أي: مزقناهم تمزيقاً لا غاية وراءه، بحيث تضرب به الأمثال في كل فرقة ليس بعدها وصال، فيقال: تفرَّقوا أيدي سبأ؛ أي: تفرقوا تفرق أهل هذا المكان من كل جانب، وكانوا قبائل ولدهم سبأ، فتفرقوا في البلاد. قال الشعبي: فلحقت الأنصار بيثرب، وغسان بالشام. والأزد بِعُمَان، وخزاعة بتهامة، وقال الزمخشري[1]: غسان بالشام، وأنمار بيثرب، وجذام بتهامة، والأزد بِعُمَان. وفي «التحرير»: وقع منهم قضاعة بمكة، وأسد بالبحرين، وخزاعة بتهامة.

وفي الحديث: أن سبأ أبو عشرة قبائل، فلما جاء السيل على مأرب، وهو اسم بلدهم.. تيامن منهم ست قبائل ـ أي: تبددت في بلاد اليمن ـ: كندة والأزد والسفر ومذحج وأنمار التي منها بجلية وخثعم، وطائفة قيل لها حجير، بقي عليها اسم الأب الأول، وتشاءمت أربعة: لخم وجذام وغسان وخزاعة، ومن هذه المتشائمة أولاد قيلة، وهم الأوس والخزرج، ومنها عاملة، وغير ذلك.

والمعنى[2]: أي فجعلناهم أحاديث للناس يسمرون بها، ويعتبرون بأمرهم، وكيف مكر الله بهم، وفرَّق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهنيء، وصاروا مضرب الأمثال، فيقال للقوم يتفرقون: تفرقوا أيدي سبأ، فنزل آل جفنة بن عمرو الشام، ونزل الأوس والخزرج يثرب، ونزل أسد السراة السراة، ونزلت أزد عمان عماناً، ثم أرسل الله على السَّدِّ السيل فهدَّمه.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور من قصتهم، وما فعل الله بهم ﴿لَآيَٰتٍ﴾ عظيمة، ودلالات واضحة، وعلامات كثيرة، وعبراً بليغة، وحججاً قاطعة على الوحدانية والقدرة. قال بعضهم: جمع الآيات؛ لأنهم صاروا فرقاً كثيرةً، كل منهم آية مستقلة ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ عن المعاصي ودواعي الهوى والشهوات، وعلى البلايا والمشاق والطاعات ﴿شَكُورٍ﴾ على النعم الإلهية في كل الأوقات والحالات، أو لكل مؤمن كامل؛ لأنَّ الإيمان نصف صبر ونصف شكر، أو لكل من هو كثير الصبر والشكر،

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

وخص الصبار الشكور؛ لأنهما المتفعان بالمواعظ والآيات.

والمعنى: أن في[1] ذلك الذي حل بهؤلاء من النقمة والعذاب بعد النعمة والعافية عقوبة لهم على ما اجترحوه من الآثام لعبرة لكل عبد صبَّار على المصايب، شكور على النعم.

روى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «عجبت من قضاء الله تعالى للمؤمن، إن أصابه خير حمد ربه وشكر، وإن أصابته مصيبة حمد ربه وصبر، يؤجر المؤمن في كل شيء، حتى اللقمة يرفعها إلى في امرأته». وكان مطرِّف بن الشخير يقول: نعم العبد الصبَّار الشكور الذي إذا أعطي شكر، وإذا ابتلي صبر.

قال بعض أهل المعرفة: إن طلب الدنيا وشهواتها هو طلب البعد عن الله تعالى وعن جنابه، والميل إلى الدنيا والرغبة في شهواتها من خسة النفس، وركاكة العقل، وهو ظلم على النفس، فمن قطعته الدنيا عن جناب الله.. جعله الله عبرة لأهل الطلب، وأوقعه في وادي الهلاك، فلا بد من الصبر عن الدنيا وشهواتها، والشكر على نعمة العصمة وتوفيق العبودية، جعلنا الله وإياكم من الراغبين إليه، والمعتمدين عليه، وعصمنا من الرجوع عن طريقه، والضلال بعد إرشاده وتوفيقه، إنه الرحمن الذي بيده القلوب وتقليبها من حال إلى حال، وتصريفها كيف يشاء في الأيام والليالي.

واللام في قوله[2]: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ﴾ موطئة للقسم، وضمير ﴿عَلَيْهِمْ﴾ عائد إلى أهل سبأ لتقدم ذكرهم، والظاهر أنه راجع إلى الناس جميعاً، كما يشهد به ما بعده ﴿إِبْلِيسُ﴾ اللعين من: الإبلاس، وهو اليأس من رحمة الله ﴿ظَنَّهُ﴾؛ أي: ما ظنه بأهل سبأ من إغوائهم؛ أي: وعزتي وجلالي لقد وجد إبليس اللعين ظنه بأهل سبأ حين رأى انهماكهم في الشهوات صادقاً ﴿فَاتَّبَعُوهُ﴾؛ أي: اتبع أهل سبأ الشيطان في الشرك والمعصية ﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: إلا جماعة هم المؤمنون لم يتبعوه في أصل الدين، فـ﴿مِن﴾ بيانية، وتقليلهم بالإضافة إلى الكفار، أو تبيعيضية؛

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

أي: إلا فريقاً من فرق المؤمنين لم يتبعوه، وهم المخلصون. أو المعنى[1]: وجد ظنه ببني آدم صادقاً فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين، وذلك أنه حين شاهد آدم عليه السلام قد أصغى إلى وسوسته قال: إن ذريته أضعف منه عزماً، ولذا قال: لأضلنهم. وفي «التأويلات النجمية»: يشير إلى أن إبليس لم يكن متيقناً أن يقدر على الإغواء والإضلال، بل كان ظاناً بنفسه أنه يقدر على إغواء من لم يطع الله ورسوله، فلما زين لهم الكفر والمعاصي، وكانوا مستعدين لقبولها حكمة الله في ذلك، وقبلوا منه بعض ما أمرهم به على وفق هواهم، وتابعوه بذلك.. صدق عليهم ظنه؛ أي: وجدهم كما ظن فيهم. اهـ.

ومعنى الآية[2]: أي ولقد ظن إبليس بهؤلاء الذي بدَّلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط ـ عقوبة منا لهم ـ ظناً غير يقين أنهم يتبعونه ويطيعونه في معصية الله، وحين أغواهم وأطاعوه وعصوا ربهم.. تحقق صدق ظنه فيهم، إلا فريقاً من المؤمنين ثبتوا على طاعة الله ومعصية إبليس.

وقرأ ابن عباس وقتادة وطلحة والأعمش وزيد بن علي والكوفيون[3]: ﴿صَدَّقَ﴾ بتشديد الدال، وانتصب ﴿ظَنَّهُ﴾ على أنه مفعول بـ﴿صَدَّقَ﴾، والمعنى: وجد ظنه صادقاً؛ أي: ظن شيئاً، فوقع ما ظن. وقرأ باقي السبعة بالتخفيف، فانتصب ﴿ظَنَّهُ﴾ على المصدر، أي: يظن ظناً، أو على إسقاط الحرف؛ أي: في ظنه، أو على المفعول به، نحو قولهم: أخطأت ظني، وأصبت ظني، وظنه هذا كان حين قال: لأضلنَّهم ولأغوينهم، وهذا مما قاله ظناً منه، فصدق هذا الظن. وقرأ زيد بن علي والزهري وجعفر بن محمد وأبو الجهجاه الأعرابي من فصحاء العرب وبلال بن أبي برزة بنصب ﴿إبليس﴾ ورفع ﴿ظنه﴾ أسند الفعل إلى ظنه؛ لأنه ظن ظناً، فصار ظنه في الناس صادقاً، كأنه صدقه ظنه ولم يكذبه.

وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو: ﴿إبليس ظنه﴾ برفعهما فـ﴿ظَنُّهُ﴾ بدل من ﴿إبليس﴾ بدل اشتمال.

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) البحر المحيط.

ثم ذكر أنه ابتلاهم ليظهر حال المؤمنين من حال الشاكين في الآخرة، فقال: ﴿وَمَا كَانَ لَهُ﴾؛ أي: لإبليس ﴿عَلَيْهِم﴾؛ أي: على بني آدم ﴿مِن سُلْطَٰنٍ﴾؛ أي: تسلط واستيلاء بالوسوسة والاستغواء، وإلا فهو ما سلَّ عليهم سيفاً، ولا ضربهم بعصى، والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ متصل مفرغ من أعم العلل؛ أي: وما كان تلسيطنا إياه عليهم لعلة من العلل إلا لأجل أن نعلم ونميِّز ﴿مَن يُؤْمِنُ﴾ ويصدِّق ﴿بـ﴾مجيء ﴿الآخرة﴾ مع ما فيها من الأهوال ﴿مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾؛ أي: ممن هو في شك في مجيئها، وقيل: الاستثناء فيه منقطع، والمعنى عليه: لا سلطان له عليهم، ولكن ابتليناهم بوسوسته، والمعنى على الأول: أي: ما كان له عليهم تسلط بحال من الأحوال، ولا لعلة من العلل إلا ليتميز من يؤمن بالآخرة، ومن لا يؤمن بها؛ لأنه سبحانه قد علم ذلك علماً أزلياً. وقال الفراء: المعنى: إلا لنعلم ذلك عندكم، وقيل: إلا لتعلموا أنتم، وقيل: ليعلم أولياءنا والملائكة، والأولى: حمل العلم هنا على التمييز والإظهار، كما ذكرنا. وقرأ الزهري: ﴿إلا ليعلم﴾ بضم الياء وفتح اللام مبنياً للمفعول.

ومعنى الآية[1]: أي وما كان لإبليس على هؤلاء القوم من حجة يضلهم بها، ولكنا أردنا ابتلاءهم واختبارهم به ليظهر حال من يؤمن بالآخرة، ويصدِّق بالثواب والعقاب، ممن هو منها في شك، فلا يوقن بمعاد، ولا يصدق بثواب، ولا عقاب. قال الحسن البصري: والله ما ضربهم بعصى، ولا أكرههم على شيء، وما كان إلا غروراً وأماني دعاهم إليها فأجابوه.

وخلاصة ذلك: لا سلطان لإبليس على قلوب الناس، ولكني أسلطه عليهم كما أسلِّط الذباب على العيون القذرة، والأوبئة على البلاد التي لم يراع أهلها شروط النظافة في مساكنهم وملابسهم ومآكلهم، ولا أفعل ذلك إلا لحكمة، فإذا حلَّ الوباء بأرض مات من لا قدرة له على مقاومة جراثيم الأمراض، وبقي من هو قادر على المقاومة، ولديه قوة المناعة، وهكذا وسوسة الشيطان يفرق الله بها بين الثابت العقيدة والمتزلزلها، ومن انقاد لها.. فلا يلومن إلا نفسه، وهو المذنب وحده، وهكذا جميع حوادث الدنيا من مصائب وآلام، يثبت لها ذوو العزيمة

(١) المراغي.

الصادقة، ولا يضطرب حين حلولها إلا الضعيف الذي ليس له جلد ولا صبر.

وعبارة «روح البيان» هنا: والمعنى[1]: وما كان تسلُّطه عليهم إلا ليتعلق علمنا بمن يؤمن بالآخرة متميزاً ممن هو في شك منها تعلقاً حالياً يترتب عليه الجزاء، فعلم الله قديم، وتعلقه حادث؛ إذ هو موقوف على وجود المكلف في عالم الشهادة، فلا يظن ظان بالله ظنّ السوء أن الله جلّ جلاله لم يكن عالماً بأهل الكفر وأهل الإيمان، وإنما سلّط عليهم إبليس ليعلم به المؤمن من الكافر، فإن الله بكمال قدرته وحكمته خلق أهل الكفر مستعدّاً للكفر، وخلق أهل الإيمان مستعدّاً للإيمان، كما قال عليه السلام: «خلق الجنة وخلق لها أهلاً، وخلق النار وخلق لها أهلاً»، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾، فالله تعالى كان عالماً بحال الفريقين قبل خلقهم، وهو الذي خلقهم على ما هم به وإنما سلط الله الشيطان على بني آدم لاستخراج جواهرهم من معادن الإنسانية، كما تسلط النار على المعادن لتخليص جوهرها، فإن كان الجوهر ذهباً فيخرج منه الذهب، وإن كان الجوهر نحاساً فيخرج منه النحاس، فلا تقدر أن تخرج من معدن النحاس الذهب والفضة، وهو ناري يستخرج جواهرهم من معادنهم بنفخة الوساوس، فلا يقدر أن يخرج من كل معدن إلا ما هو جوهره، وقال بعضهم: العلم هنا مجاز عن التمييز، المعنى: إلا لنميّز المؤمن بالآخرة من الشاكّ فيها، فعلَّل التسلّط بالعلم، والمراد: ما يلزمه انتهى.

﴿وَرَبُّكَ﴾ يا محمد، ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من المخلوقات، ﴿حَفِيظٌ﴾؛ أي: محافظ، والمعنى: أي[2]: وربك أيها الرسول حفيظ على أعمال هؤلاء الكفار وغيرهم، لا يعزب عن علمه شيء، وهو يجازيهم جميعاً يوم القيامة بما كسبوا في الدنيا من خير أو شر، فمن أخبت لله وأناب إليه.. لاقى من الثواب ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ومن دسّ نفسه الأمّارة بالسوء، وانهمك في شهواته.. لاقى من سوء الجزاء كفاء أعماله ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾.

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

وقال بعضهم: الحفيظ[1]: هو الذي يحفظ كل شيء على ما هو به، والحفيظ من العباد: من يحفظ ما أمر بحفظه من الجوارح والشرائع والأمانات والودائع، ويحفظ دينه عن سطوة الغضب وخلابة الشهوة وخداع النفس وغرور الشيطان، فإنه على شفا جرف هار، وقد اكتفنته هذه الملكات المفضية إلى البوار، قال بعضهم: أسباب الحفظ: الجدّ والمواظبة، وترك المعاصي، واستعمال السواك، وتقليل النوم، وصلاة الليل، وقراءة القرآن نظراً وغير ذلك.

﴿قُلِ﴾ يا محمد للمشركين إظهاراً لبطلان ما هم عليه، وتبكيتاً لهم ﴿ادْعُوا﴾؛ أي: نادوا ﴿الَّذِينَ زَعَمْتُم﴾؛ أي: زعمتموهم آلهة، ومفعولا ﴿زعم﴾ محذوفان لدلالة السياق عليهما، فحذف الأول وهو الضمير الراجع إلى الموصول تخفيفاً؛ لطول الموصول بصلته، والثاني ـ وهو آلهة ـ لقيام صفته، أعني: قوله: ﴿مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ مقامه، والمعنى: ادعوا الذين عبدتموهم من دون الله، فيما يهمكم من جلب نفع ودفع ضر لعلّهم يستجيبون لكم إن صحّ دعواكم.

أي: قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين من قومك موبّخاً لهم، ومبيناً لهم سوء ما يصنعون: ادعوا هؤلاء الأصنام في مهام أموركم ليدفعوا الضرّ عنكم، أو يجلبوا النفع لكم لعلهم يستجيبون لكم، إن كان ذلك في مكنتهم، وبيدهم مقاليد أموركم، ثم أبان خطأهم، وعظيم جرمهم فقال: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾؛ أي: هؤلاء الآلهة لا يملكون وزن نملة صغيرة، أو وزن هباء كائنة ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ من خير وشر، ونفع وضرّ، فكيف يكونون آلهة يرجى منهم نفع، أو يخشى منهم ضرّ؛ أي: لا يقدرون فيهما أمراً ما من الأمور، فنفى عنهم ملك مثقال ذرّة، وإذا انتفى ملك الأحقر.. فملك الأعظم أولى، وذكر[2] السموات والأرض لقصد التعميم عرفاً، يعني: أن أهل العرف يعبّرون بهما عن جميع الموجودات، كما يعبّرون بالمهاجرين والأنصار عن جميع الجماعة، أو لأن آلهتهم بعضها سماويّة كالملائكة والكواكب، وبعضها أرضية كالأصنام، أو لأنّ الأسباب القريبة للخير والشرّ سماوية وأرضية، ونحو الآية قوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾.

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

﴿وَمَا لَهُمْ﴾؛ أي: لآلهتهم، ﴿فِيهِمَا﴾؛ أي: في السموات والأرض ﴿مِن شِرْكٍ﴾؛ أي: شركة مع الله لا خلقاً ولا ملكاً ولا تصرّفاً، ﴿وَمَا لَهُۥ﴾؛ أي: وما لله سبحانه وتعالى ﴿مِنْهُم﴾؛ أي: من آلهتهم ﴿مِّن ظَهِيرٍ﴾؛ أي: معين يعينه في تدبير أمورهما.

والمعنى[1]: أي ليس لآلهتهم في السموات والأرض مشاركة مع الله، لا بالخلق، ولا بالملك، ولا بالتصرف، وما لله سبحانه من تلك الآلهة معين يعينه على شيء من أمر السموات والأرض، ومن فيهما. ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾؛ أي: ولا تنفعهم شفاعتهم عنده تعالى، كما يزعمون، إذ لا شفاعة، ﴿عِندَهُۥٓ﴾ تعالى ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾؛ أي: إلا لشافع أذن له أن يشفع، وهو لا يأذن لأحد من الشفعاء من الملائكة وغيرهم أن يشفع لهؤلاء الكافرين، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾، والشفاعة لمثل هؤلاء لا تكون أبداً، والشفاعة: طلب الخير من الغير للغير، كما سيأتي في مبحث اللغة مبسوطاً.

والاستثناء في قوله[2]: ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ استثناء مفرغ من أعمّ الأحوال؛ أي: لا تنفع الشفاعة في حال من الأحوال إلاّ كائنة لمن أذن له أن يشفع من الملائكة والنبيين وغيرهم من أهل العلم والعمل، ومعلوم أنّ هؤلاء لا يشفعون إلاّ لمن يستحق الشفاعة، لا للكافرين، ويجوز أن يكون المعنى: لا تنفع الشفاعة من الشفعاء المتأهّلين لها في حال من الأحوال إلا كائنة لمن أذن له؛ أي: لأجله، وفي شأنه من المستحقين للشفاعة من أهل الإيمان، وأما من عداهم من غير المستحقين لها كهؤلاء الكفرة.. فلا تنفعهم شفاعة شافع أصلاً، وإن فرض وقوعها وصدورها عن الشفعاء؛ إذ لم يأذن لهم في شفاعتهم، بل في شفاعة غيرهم من المؤمنين، فعلى هذا يثبت حرمانهم من شفاعة هؤلاء الشفعاء من الملائكة وغيرهم بمنطوق النصّ، ومن شفاعة الأصنام بمفهومه؛ إذ حين حرموها من جهة القادرين على شفاعة بعض المحتاجين إليها، فلأن يحرموها من جهة العجزة عنها أولى.

وقرأ الجمهور[3]: ﴿أَذِنَ﴾ بفتح الهمزة؛ أي: أذن الله سبحانه له؛ لأن اسمه مذكور قبل هذا، وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي: بضمها على البناء للمفعول،

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان. (٣) الشوكاني.

والآذن: هو الله سبحانه.

و﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ﴾ غاية[1] لمحذوف يدل عليه قوله: ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ فإنه يشعر بالاستئذان المستدعي الترقّب والانتظار للجواب، كأنه سئل: كيف يؤذن لهم؟ فقيل: يتربّصون في موقف الاستئذان والاستدعاء، ويتوقّفون على وَجَلٍ، وفزعٍ زماناً طويلاً، حتى إذا أزيل الفزع، وكشف الخوف عن قلوب الشافعين والمشفوع لهم بكلمة يتكلم بها رب العزة في إطلاق الإذن لهم، وظهرت لهم تباشير الإجابة، والمنعى: حتى إذا أزيل الفزع عن قلوب الشافعين والمشفوع لهم من المؤمنين، وأما الكفرة: فهم عن موقف الاستشفاع بمعزل، وعن التفزيع عن قلوبهم بألف منزل.

﴿قَالُوا۟﴾؛ أي: المشفوع لهم للشافعين؛ إذ هم المحتاجون إلى الإذن، والمهتمّون بأمره، ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾؛ أي: في شأن الإذن، ﴿قَالُوا۟﴾؛ أي: الشفعاء؛ لأنهم المباشرون للاستئذان بالذات، المتوسّطون بينهم وبينه تعالى بالشفاعة. ﴿ٱلْحَقَّ﴾؛ أي: قال ربّنا القول الحق، وهو الإذن في الشفاعة للمستحقين لها.

قرأ الجمهور[2]: ﴿فُزِّعَ﴾ مبنياً للمفعول مشدّداً من الفزع؛ أي: أطير الفزع عن قلوبهم، وفعَّل يأتي لمعانٍ منها: الإزالة، وهذا منه نحو: قرّدْتُ البعير؛ أي: أزلت القراد عنه، وقرأ ابن عامر وابن مسعود وابن عباس وطلحة وأبو المتوكل الناجي وابن السميفع: ﴿فَزَّعَ﴾ مبنياً لفاعل مشدّداً من الفزع أيضاً، والضمير الفاعل في فزع إن كان الضمير في ﴿عَن قُلُوبِهِمْ﴾ للملائكة، فهو الله، وإن كان للكفار.. فالضمير لمغويهم، وكلا هاتين بتشديد الزاي من التفزيع، وهو إزالة الفزع، وقرأ الحسن: ﴿فُزِعَ﴾ من الفزع بتخفيف الزاي مبنياً للمفعول، و﴿عَن قُلُوبِهِمْ﴾ في موضع رفع به، كقولك: انطلق بزيد، وأبو المتوكل أيضاً وقتادة ومجاهد: ﴿فَزَّعَ﴾ مشدداً مبنياً للفاعل من التفزيع، وقرأ الحسن أيضاً كذلك، إلا أنه خفف الزاي، وقرأ عبد الله بن عمر والحسن أيضاً وأبو أيوب السختياني وقتادة أيضاً وأبو مجلز: ﴿فُرِّغَ﴾ مشدّد الراء المهملة مبنياً للمفعول؛ أي: كشف عن قلوبهم الخوف، والفاعل هو الله، وقرأ ابن مسعود وعيسى: ﴿افرنقع عن قلوبهم﴾ بمعنى: انكشف

---

(١) روح البيان بتصرف.
(٢) البحر المحيط.

عنها، من الافرنقاع وهو التفرق، وقال الزمخشري: والكلمة مركبة من حروف المفارقة مع زيادة العين، كما ركِّب قمطر من حروف القمط مع زياد الراء انتهى. فإن عنى الزمخشري أن العين من حروف الزيادة، وكذلك الراء، وهو ظاهر كلامه.. فليس بصحيح؛ لأن العين والراء ليستا من حروف الزيادة، وإن عني أنَّ الكلمة فيها حروف، وما ذكروا زائداً إلى ذلك العين والراء، كمادة فرقع وقمطر، فهو صحيح، ولولا إبهام ما قاله الزمخشري في هذه الكلمة لم أذكر هذه القراءة لمخالفتها سواد المصحف. ذكره أبو حيان.

ومعنى الآية[1]: أي يقف الناس منتظرين الإذن بالشفاعة، وَجِلِين، حتى إذا أذن للشافعين، وأزيل الفزع عن قلوب المنتظرين.. قال بعضهم لبعض: ماذا قال ربكم في الإذن بالشفاعة؟ قالوا: قال ربنا القول الحق، وهو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى.

والخلاصة: أن الشفاعة لا تنفع في حال إلا لشافع أذن له فيها من النبيين، والملائكة ونحوهم من المستأهلين لمقام الشفاعة، ويكون المشفوع له يستحق الشفاعة.

وقيل المعنى[2]: لا تنفع الشفاعة إلا من الملائكة الذين هم فزعون اليوم، مطيعون لله دون الجمادات والشياطين، وقال الحسن وابن زيد ومجاهد: معنى الآية: حتى إذا كشف الفزع عن قلوب المشركين في الآخرة.. قالت لهم الملائكة: ماذا قال ربكم في الدنيا؟ قالوا: الحق، فأقرّوا حين لا ينفعهم الإقرار.

ثمّ ذكر اعتراف الشفعاء بعظمة خالق الكون، وقصور كل ما سواه فقال: ﴿وَهُوَ﴾ جل شأنه: ﴿ٱلْعَلِيُّ﴾ فوق خلقه بالقهر والاقتدار، فله أن يحكم في عباده بما يشاء، ويفعل ما يريد، لا معقب لحكمه. ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾؛ أي: المتصف بالكبرياء في ذاته وصفاته، فهو الذي يُحتقر كل شيء في جنب كبريائه؛ أي: وهو سبحانه المنفرد بالعلوّ والكبرياء، لا يشاركه في ذلك أحد من خلقه، وليس لأحد منهم أن يتكلم إلا من بعد إذنه، وفي هذا تواضع منهم بعد أن رفع سبحانه أقدارهم بالإذن لهم في

---

(١) المراغي. (٢) الشوكاني.

الشفاعة، فهو من[1] تمام كلام الشفعاء، قالوه اعترافاً بغاية عظمة جناب العزة، وقصور شأن كل من سواه، وفيه أيضاً ثناء على الله، كما لا يخفى.

ثمّ أمر الله سبحانه رسوله ﷺ أن يبكِّت المشركين ويوبخهم فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لمشركي قومك ﴿قُلْ﴾ استفهام توبيخ وتبكيت؛ أي: قل لهم من ﴿يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بإنزال المطر ﴿و﴾ من ﴿الأرض﴾ بإخراج النبات؛ أي: قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين بربهم الأوثان والأصنام من يرزقكم من السموات بإنزال الغيث عليكم حياة لحروثكم، وصلاحاً لمعايشكم، وتسخير الشمس والقمر والنجوم لمنافعكم، ومن الأرض بإخراج أقواتكم، وأقوات أنعامكم؟ فإنْ هم قالوا: لا ندري.. فأجبهم: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ يرزقكم؛ إذ لا جواب سواه عندهم أيضاً إلا أنهم ربما أبوا أن يتكلموا به عناداً مع علمهم بصحته، ولأنهم لو تفوهوا به لقيل لهم: فما لكم لا تعبدون من يرزقكم، وتؤثرون عليه من لا يقدر على الرزق؟!

والمعنى[2]: أي فإن أجابوك، وقالوا: الله.. فذلك ظاهر، وإن لم يقولوا ذلك.. فقل: الله يرزق؛ إذ لا جواب سواه، وهذا إشارة إلى أن جر النفع ليس إلا به تعالى، ومنه تعالى، فإذن إن كنتم من الخواص فاعبدوه لعُلُوِّه وكبريائه، سواء دفع عنكم ضرراً أو لم يدفع، وسواء نفعكم بخير أو لم ينفع، فإن لم تكونوا كذلك.. فاعبدوه لدفع الضر، وجر النفع.

واعلم[3]: أنَّ الرزق قسمان: ظاهر، وهو الأقوات والأطعمة المتعلق بالأبدان، وباطن، وهو المعارف المتعلِّقة بالأرواح، وهذا أشرف القسمين، فإن ثمرته حياة الأبد، وثمرة الرزق الظاهر قوة إلى مدة قريبة الأبد، والله تعالى هو المتولي لخلق الرزقين، والمتفضل بالإيصال إلى كلا الفريقين، ولكنه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر.

ثم أمره سبحانه أن يخبرهم بأنهم على ضلالة، لكن على وجه الإنصاف في الحجة بعد ما سبق تقرير من هو على الهدى، ومن هو على الضلالة، فقال:

---

(١) روح البيان.

(٢) المراح.

(٣) روح البيان.

﴿وَإِنَّآ﴾؛ أي: أنا ومن اتبعني، ﴿أَوْ إِيَّاكُمْ﴾ عطف على اسم إن، ﴿لَعَلَىٰ هُدًى﴾ من الله تعالى، ﴿أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: بيِّن واضح، معناه[1]: ما نحن وأنتم علي أمر واحد، بل أحد الفريقين مهتدٍ، والآخر ضال، وهذا ليس على طريق الشك، بل على جهة الإلزام والإنصاف في الحجاج، كما يقول القائل: أحدنا كاذب، وهو يعلم أنه صادق، وصاحبه كاذب، فالنبي ﷺ ومن اتبعه على الهدى، ومن خالفه في ضلال، فكذبهم من غير أن يصرِّح بالتكذيب، ومنه بيت حسان يخاطب أبا سفيان بن حرب، وكان قد هجا رسول الله ﷺ قبل أن يسلم:

أَتَهْجُوْهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكُفْءٍ ... فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا ٱلْفِدَاءُ

وقيل: إن ﴿أَوْ﴾ بمعنى: الواو، على طريق النشر واللف المرتب.

ومعنى الآية: إنا لعلى هدى، وإنكم لفي ضلال مبين، واختلاف الحرفين[2]؛ لأن الهادي كمن صعد مناراً ينظر منه الأشياء، ويتطلع عليها، أو يركب جواداً يركضه حيث يشاء، والضال كأنه منغمس في ظلام مرتبك فيه لا يرى شيئاً، ولا يدري أين يتوجه، أو متردٍّ في بئر عميق، لا يستطيع الخروج منها.

والمعنى[3]: أي أن أحد الفريقين من الذين يوحِّدون الله الخالق الرازق ويخصّونه بالعبادة، والذين يعبدون الجمادات التي لا تقدر على خلق ولا رزق ولا نفع ولا ضر، لعلى أحد الأمرين: من الهدى والضلالة، ومعلوم لكل عاقل أنَّ من عبد الذي يخلق ويرزق، وينفع ويضرّ، هو الذي على الهدى، ومن عبد الذي لا يقدر على خلق ولا رزق، ولا نفع ولا ضرّ، هو الذي على الضلالة، فقد تضمن هذا الكلام بيان فريق الهدى، وهم المسلمون، وفريق الضلالة، وهم المشركون، على وجه أبلغ من التصريح، وهو الإيماء، وأوصل بالمجادل إلى الغرض مع قلة شغب الخصم، وفَلِّ شَوْكَتِهِ بالهويني.

ثم زاد في إنصافهم في المخاصمة، فأسند الإجرام إلى أنفسهم، والعمل للمخاطبين، فقال: ﴿قُل﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين: أنتم ﴿لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ

---

(١) الخازن.

(٢) البيضاوي.

(٣) الشوكاني.

﴿أَجْرَمْنَا﴾؛ أي: عما فعلنا واكتسبنا من الذنوب، وارتكبنا من الصغائر والزلات التي لا يخلو منها مؤمن، ﴿و﴾ نحن ﴿لا نسأل عما تعملون﴾ من الكفر والكبائر، بل كل مطالب بعمله، وكل زراع يحصد زرعه لا زرع غيره.

وهذا أبلغ في الإنصاف[1]، وأبعد من الجدل والاعتساف؛ حيث أسند فيه الإجرام، وإن أريد به الزلة وترك الأولى إلى أنفسهم مع كون أعمال المسلمين من البر الخالص، والطاعة المحضة، ومطلق العمل إلى المخاطبين، مع أن أعمالهم أكبر الكبائر والمعاصي المحضة، والمقصود: المهادنة والمتاركة، وقد نسخت هذه الآية وأمثالها بآية السيف، ونحو الآية قوله: ﴿فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

فإن قلتَ: لِمَ ترك كنتم هنا في قوله: ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، وقد ذكره في غير هذا الموضع؟

قلتُ: تركه هنا؛ لأن قوله: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ وقع في مقابلة ﴿أَجْرَمْنَا﴾ في قوله: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا﴾، وضمير ﴿أَجْرَمْنَا﴾ للنبي ﷺ، والمراد غيره، وغيره صدر منه ذنب، فعبَّر عنه بالماضي، والمخاطب في ﴿تَعْمَلُونَ﴾ الكفار، وكفرهم واقع في الحال، وفي المستقبل ظاهراً، فعبّر عنه بالمضارع، فلا يناسبه: كنتم، مع أن الخطاب في ذلك واقع في الدنيا، والخطاب في غيره نحو ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ واقع في الآخرة، فناسبه التعبير بكنتم. اهـ «فتح الرحمن».

ثم حذرهم وأنذرهم عاقبة أمرهم؛ إذ أمر رسوله أن يقول لهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الكفرة ﴿يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ بينكم ﴿رَبُّنَا﴾ يوم القيامة عند الحشر والحساب، ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ﴾؛ أي: يحكم ربنا، ﴿بَيْنَنَا﴾ وبينكم ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بالحكم العدل، ويفصل بيننا وبينكم بعد ظهور حال كلٍّ منا ومنكم، بأن يدخل المحقين الجنة، والمبطلين النار. ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿ٱلْفَتَّاحُ﴾؛ أي: الحاكم بالحق، القاضي بالصواب، الفيصل في القضايا المنغلقة. ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما ينبغي أن يقضي به، وبمن يقضي له وعليه، ولا يخفى عليه شيء من ذلك، كما لا يخفى عليه ما عدا ذلك،

---

(١) روح البيان.

وهذه الآية منسوخة أيضاً بآية السيف[1].

ومعنى الآية: أي قل لهم[2]: إن ربنا يوم القيامة يجمع بيننا حين الحشر والحساب، ثم يقضي بيننا بالعدل بعد ظهور حال كل منا ومنكم، وهو الحاكم العادل العالم بحقائق الأمور، وهناك يجزى كل عامل بما عمل، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وستعلمون يومئذ لمن العزة والنصرة والسعادة الأبدية، كما قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾.

وقال الزروقي[3]: الفتاح: المتفضل بإظهار الخير والسعة على أثر ضيق، وانغلاق باب للأرواح والأشباح في الأمور الدنيوية والأخروية، وقال بعض المشايخ: الفتاح: من الفتح، وهو الإفراج عن الضيق، كالذي يفرّج تضايق الخصمين في الحق بحكمه، والذي يذهب ضيق النفس بخيره، وضيق الجهل بتعليمه، وضيق الفقر ببذله.

وقال الغزالي ـ رحمه الله تعالى ـ: الفتّاح: هو الذي بعنايته ينفتح كل منغلق وبهدايته ينكشف كل مشكل، فتارة يفتح الممالك لأنبيائه، ويخرجها من أيدي أعدائه، ويقول: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾، وتارة يرفع الحجاب عن قلوب أوليائه، ويفتح لهم الأبواب إلى ملكوت سمائه، وجمال كبريائه، ويقول: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾، ومن بيده مفاتيح الغيب ومفاتيح الرزق.. فبالأحرى أن يكون فتاحاً، وخاصية هذا الاسم تيسير الأمور، وتنوير القلوب، والتمكين من أسباب الفتح، فمن قرأه في إثر صلاة الفجر إحدى وسبعين مرة، ويده على صدره.. طهر قلبه، وتنور سره، وتيسير أمره، وفيه تيسير الرزق وغيره.

والعليم: مبالغة العالم، وهو من قام به العلم، ومن عرف أنه تعالى هو العالم

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

بكل شيء، راقبه في كل شيء، واكتفى بعلمه في كل شيء، فكان واثقاً به عند كل شيء، ومتوجهاً له بكل شيء. قال ابن عطاء الله: متى آلمك عدم إقبال الناس عليك، أو توجههم بالذم إليك.. فارجع إلى علم الله فيك، فمصيبتك بعدم قناعتك بعلمه أشد من مصيبتك بوجود الأذى منهم. وخاصية هذا الاسم تحصيل العلم والمعرفة، فمن لازمه عرف الله حق معرفته على الوجه الذي يليق به تعالى.

ثم استفسر عن شبهتهم بعد إلزامهم الحجة تبكيتاً لهم فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين: ﴿أَرُونِيَ﴾؛ أي: اعلموني، أو أبصروني الآلهة ﴿الذين ألحقتم﴾ وهم ﴿بِهِۦ﴾ سبحانه ﴿شُرَكَآءَ﴾ له تعالى، وهذه الرؤية[1] هي القلبية، فيكون ﴿شُرَكَآءَ﴾ هو المفعول الثالث؛ لأن الفعل تعدى بالهمزة إلى ثلاثة مفاعيل، الأول: الياء في ﴿أَرُونِيَ﴾، والثاني: الموصول، والثالث: ﴿شُرَكَآءَ﴾، وعائد الموصول محذوف؛ أي: ألحقتموهم، ويجوز أن تكون هي البصرية، وتعدى الفعل بالهمزة إلى اثنين، الأول: الياء، والثاني: الموصول، ويكون ﴿شُرَكَآءَ﴾ منتصباً على الحال.

والمقصود بأمرهم[2]: إراءة الأصنام، مع كونها بمرأى منه ﷺ: إظهار خطأهم العظيم، وإطلاعهم على بطلان رأيهم؛ أي: أرونيها لأنظر بأي صفة ألحقتموها بالله الذي ليس كمثله شيء، مع استحقاق العبادة، هل يخلقون، وهل يرزقون؟ وفيه مزيد تبكيت لهم بعد إلزام الحجة عليهم، ثم رد عليهم ما يدعونه من الشركاء، وأبطل ذلك فقال: ﴿كَلَّاۚ﴾ ردع لهم عن المشاركة بعد إبطال المقايسة؛ أي: ارتدعوا عن دعوى المشاركة، بل ﴿هُوَ﴾ سبحانه وحده، أو الشأن، كما في ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾. ﴿ٱللَّهُ﴾؛ أي: المنفرد بالإلهية. ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾؛ أي: الموصوف بالعزة والغلبة القاهرة. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾؛ أي: الموصوف بالحكمة الباهرة، فأين شركاؤكم التي هي أخس الأشياء وأذلها من هذه الرتبة العالية.

ومعنى الآية[3]: أي ليس الأمر كما وصفتم، فلا نظير له تعالى، ولا ندَّ، بل هو الله الواحد الأحد، ذو العزة التي بها قهر كل شيء، وهو الحكيم في أفعاله

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

وأقواله، وفيما شرع لهم من الدين الحق الذي يسعد من اعتنقه في حياتيه الأولى والآخرة.

قال بعضهم[1]: والتقرب باسم العزيز في التمسك بمعناه، وذلك يرفع الهمة عن الخلائق، فإن العز فيه، ومن ذكره أربعين يوماً في كل يوم أربعين مرة.. أعانه الله تعالى وأعزه، ولم يحوجه إلى أحد من خلقه، قال السهروردي: من قرأه سبعة أيام متواليات، كل يوم ألفاً.. أهلك خصمه، وإن ذكره في وجه العسكر سبعين مرة، ويشير إليهم بيده، فإنهم ينهزمون، والتقرب باسم الحكيم أن تراعى حكمته في الأمور كلها، فتجري عليها مقدماً ما جاء شرعاً، ثم عادة سلمت من معارض شرعي، وخاصية هذا الاسم دفع الدواهي، وفتح باب الحكمة، فمن أكثر ذكره صرف عنه ما يخشاه من الدواهي، وفتح له باب من الحكمة، والحكمة في حقنا إصابة الحق في القول والعمل، وفي حق الله تعالى: معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الإحكام، قال بعضهم: الحكمة تقال بالاشتراك على معنيين: الأول: كون الحكيم بحيث يعلم الأشياء على ما هي عليه في نفس الأمر، والثاني: كونه بحيث تصدر منه الأفعال المحكمة الجامعة.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾؛ أي: وما بعثناك يا محمد إلى قومك خاصة، بل ما أرسلناك ﴿إِلَّا﴾ بعثة، وإرسالة ﴿كَآفَّةٗ﴾؛ أي: عامة شاملة ﴿لِّلنَّاسِ﴾ محيطة[2] بأحمرهم وأسودهم، وعربهم وعجمهم، من الكف بمعنى المنع؛ لأنها إذا عمتهم وشملتهم.. فقد كفتهم أن يخرج منها أحد منهم، فانتصاب ﴿كَآفَّةٗ﴾ على أنها صفة لمصدر محذوف، والتاء للتأنيث، والجار متعلق بها، ويجوز أن تكون حالاً من الكاف، والتاء للمبالغة كتاء علامة؛ أي: ما أرسلناك في حال من الأحوال إلا حال كونك جامعاً لهم في الإبلاغ؛ لأن الكف يلزم الجمع، قال الراغب: وما أرسلناك إلا كافاً لهم عن المعاصي، والتاء فيه للمبالغة، انتهى. ولا يجوز أن يكون حالاً من ﴿الناس﴾، لامتناع تقدم الحال على صاحبها المجرور عند الجمهور، كامتناع تقدم المجرور على الجار، وذهب أبو علي وابن كيسان وابن برهان وابن ملكون إلى جوازه، ومنه قول الشاعر:

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

إِذَا ٱلْمَرْءُ أَعْيَتْهُ ٱلسِّيَادَةُ نَاشِئاً ... فَمَطْلَبُهَا كَهْلاً عَلَيْهِ عَسِيْرُ

وقول الآخر:

تَسَلَّيْتُ طُرًّا عَنْكُمُ بَعْدَ بَيْنِكُمْ ... بِذِكْرَاكُمُ حَتَّىٰ كَأَنَّكُمُ عِنْدِيْ

وقول الآخر:

غَافِلاً تَعْرِضُ ٱلْمَنِيَّةُ لِلْمَرْ ... ءِ فَيُدْعَىٰ وَلاَتَ حَيْنَ إِبَاءِ

وممن رجح كونها حالاً من المجرور بعدها: ابن عطية، وقال: قدمت للاهتمام والتقوى.

وعن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبيُّ يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة» متفق عليه.

وفي الحديث[1]: بيان الفضائل التي خص الله بها نبينا محمداً ﷺ دون سائر الأنبياء، وأنَّ هذه الخمسة لم تكن لأحد ممن كان قبله من الأنبياء، وفيه اختصاصه بالرسالة العامة لكافة الخلق الإنس والجن، وكان النبي قبله يبعث إلى قومه، أو إلى بلده خاصة، فعمت رسالة نبينا محمد ﷺ جميع الخلق، وهذه درجة خص بها دون سائر الأنبياء عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام.

وانتصاب ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ على الحال من الكاف في ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾؛ أي: وما أرسلناك إلا حالة كونك مبشراً لمن آمن بالجنة، وحالة كونك منذراً ومخوفاً لمن كفر بالنار.

ومعنى الآية[2]: أي وما أرسلناك إلى قومك خاصة، بل أرسلناك إلى الخلق جميعاً، عربهم وعجمهم أسودهم وأحمرهم، إنسهم وجنهم، مبشراً من أطاعني بالثواب العظيم، ومنذراً من عصاني بالعذاب الأليم، ونحو الآية قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا

---

(١) الخازن. (٢) المراغي.

﴿النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾، وقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾؛ أي: الكفار ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما عند الله وما لهم من النفع في إرسال الرسل، فيحملهم جهلهم على الإصرار على ما هم عليه من الغيِّ والضلال، ونحو الآية قوله: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾، وقوله: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

وكرر ذكر الناس[1] تخصيصاً للجهل بنعمتي البشارة والنذارة، ونعمة الرسالة بهم، وأنهم هم الذين لا يعلمون فضل الله بذلك عليهم ولا يشكرونه، وذلك لأن العقل لا يستقل بإدراك جميع الأمور الدنيوية والدينية والأخروية، والتمييز بين المضار والمنافع، فاحتاج الناس إلى التبشير والإنذار، وبيان المشكلات من جهة أهل الوحي.

تتمة: وفي بعض الروايات من الحديث السابق آنفاً: «فضلت علي الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم»، وهي ما يكون ألفاظه قليلة، ومعانيه كثيرة، «ونصرت بالرعب» يعني: نصرني الله بإلقاء الخوف في قلوب أعدائي، «من مسيرة شهر بيني وبينهم»، وجعل الغاية شهراً؛ لأنه لم يكن بين بلده وبين أحد من أعدائه المحاربين له أكثر من شهر، «وأحلت لي الغنائم» يعني: أن من قبله من الأمم كانوا إذا غنموا الحيوانات.. تكون ملكاً للغانمين دون الأنبياء، فخص نبينا ﷺ بأخذ الخمس والصفي، وإذا غنموا غيرها من الأمتعة والأطعمة والأموال جمعوه، فتجيء نار بيضاء من السماء، فتحرقه حيث لا غلول، وخص هذه الأمة المرحومة بالقسمة بينهم، كأكل لحم القربان، فإن الله أحله لهم زيادة في أرزاقهم، ولم يحله لمن قبلهم من الأمم، «وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً» يعني: أباح الله لأمتي الصلاة حيث كانوا تخفيفاً لهم، وأباح التيمم بالتراب عند فقد الماء، ولم يبح الصلاة للأمم الماضية إلا في كنائسهم، ولم يجز التطهر لهم إلا بالماء، «وأرسلت إلى الخلق كافة»؛ أي: في زمنه وغيره ممن تقدم أو تأخر، بخلاف رسالة نوح عليه السلام، فإنها وإن كانت عامة لجميع أهل الأرض، لكنها خصت بزمانه، قال في

---

(١) روح البيان.

«إنسان العيون»: والخلق يشمل الإنس والجن، والملك والحيوانات والنبات والحجر.

﴿وَيَقُولُونَ﴾؛ أي: المشركون من فرط جهلهم، وغاية غيهم، وشدة تعنتهم وعنادهم مخاطبين لرسول الله ﷺ، والمؤمنين به بطريق الاستهزاء: ﴿مَتَىٰ﴾ يكون ﴿هَٰذَا الْوَعْدُ﴾ المبشر به والمنذر عنه، يعنون: الجنة والنار. ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعوى الوقوع والوجود.. فأخبرونا عن وقت وقوعه، ونحو الآية: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾، ثم أمر سبحانه رسوله ﷺ أن يجيبهم عن سؤالهم فقال: ﴿قُل﴾ لهم يا محمد ﴿لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ﴾ مبتدأ وخبر؛ أي: وعد يوم، وهو يوم البعث مصدر ميمي، وجملة: ﴿لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ﴾؛ أي: عن ذلك الميعاد المضروب لكم عند مفاجأته صفة لـ﴿الميعاد﴾ إن طلبتم التأخير، ﴿سَاعَةً﴾؛ أي: مقدار أقل قليل من الزمان.

﴿وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ عليه ساعة إن طلبتم الاستعجال، وفي هذا الجواب من المبالغة في التهديد ما لا يخفى؛ حيث جعل الاستئخار في الاستحالة كالاستقدام الممتنع عقلاً؛ أي لا يمكنكم التأخر عنه بالاستمهال، ولا التقدم إليه بالاستعجال.

فإن قلت[1]: كيف انطبق هذا جواباً لسؤالهم، مع أنهم سألوا عن تعيين وقت الوعد؛ لأن: متى، سؤال عن الوقت المعين، ولا تعرض في الجواب لتعيين الوقت؟

قلت: وجه انطباق هذا الجواب على سؤالهم: أن سؤالهم، وإن كان على صورة استعلام الوقت إلا أن مرادهم الإنكار والتعنت، والجواب المطابق لمثل هذا السؤال أن يجاب بطريق التهديد على تعنتهم وإنكارهم، وأنهم مرصدون ليوم يفاجئهم، فلا يستطيعون تأخر عنه ولا تقدماً عليه اهـ «زاده» بزيادة.

ومعنى الآية: أي قل لهم أيها الرسول[2]: إن لكم ميعاد يوم هو آتيكم لا محالة، لا تستأخرون عنه ساعة إذاجاء، فتنظروا للتوبة والإنابة، ولا تستقدمون قبله للعذاب؛ لأن الله جعل لكم أجلاً لا تعدونه.

---

(١) الفتوحات بتصرف. (٢) المراغي.

والخلاصة: دعوا السؤال عن وقت مجيء الساعة، فإنه كائن لا محالة، وسلوا عن أحوال أنفسكم حين تكونون مبهوتين متحيرين من هول ما تشاهدون، فهذا أليق بكم، قيل[1]: هو يوم البعث، وهو السابق إلى الذهن، وقيل: وقت حضور الموت، وقيل: أراد يوم بدر؛ لأنه كان يوم عذابهم في الدنيا. أقوال، وعلى كل تقدير فهذه الإضافة للبيان، ويجوز في ﴿مِّيعَادُ﴾ أن يكون مصدراً مراداً به الوعد، وأن يكون اسم زمان، قال أبو عبيدة: الوعد والوعيد والميعاد بمعنى.

وقرأ الجمهور: ﴿مِّيعَادُ﴾ يوم بالإضافة، وقرأ ابن أبي عبلة واليزيدي: ﴿ميعاد يوماً﴾ بتنوينهما، قال الزمخشري: وأما نصب ﴿يوماً﴾ فعلى التعظيم بإضمار فعل تقديره: لكم ميعاد، أعني يوماً، وأريد يوماً صفته كيت وكيت، ويجوز أن يكون انتصابه على الظرف على حذف مضاف؛ أي: إنجاز وعد يوم من صفته كيت وكيت، وقرأ عيسى: ﴿ميعاد﴾ منوناً، و﴿يوم﴾: بالنصب من غير تنوين مضافاً إلى الجملة، واحتمل تخريجه على الظرف على حذف مضاف؛ أي: إنجاز وعد يوم كذا، واحتمل تخريج الزمخشري على التعظيم.

الإعراب

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾.

﴿لَقَدْ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿كَانَ﴾: فعل ناقص، ﴿لِسَبَإٍ﴾: خبرها مقدم، ﴿فِي مَسْكَنِهِمْ﴾: حال من ﴿سبأ﴾؛ أي: حال كونهم في مسكنهم ﴿ءَايَةٌ﴾: اسمها مؤخر، وجملة ﴿كَانَ﴾ جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مستأنفة، ﴿جَنَّتَانِ﴾: بدل من ﴿ءَايَةٌ﴾ بدل كل، أو خبر لمبتدأ محذوف، ﴿عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾: صفة لـ﴿جَنَّتَانِ﴾، ﴿كُلُوا﴾: فعل أمر وفاعل، ﴿مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿كُلُوا﴾، والجملة في محل الرفع مقول لقول محذوف تقديره: وقيل لهم بلسان الحال، أو بلسان المقال: كلوا من رزق ربكم، ﴿وَاشْكُرُوا﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿كُلُوا﴾،

---

(١) الشوكاني.

﴿لَهُ﴾: متعلق بـ﴿اشكروا﴾. ﴿بَلْدَةٌ﴾: خبر لمبتدأ محذوف تقديره: بلدتكم بلدة طيبة، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة ﴿كُلُوا﴾، ﴿طَيِّبَةٌ﴾: صفة لـ﴿بَلْدَةٌ﴾، ﴿وَرَبٌّ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، ﴿غَفُورٌ﴾: صفة لـ﴿رب﴾، والتقدير: وربكم رب غفور، والجملة معطوفة على ما قبلها.

﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿فَأَعْرَضُوا﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت ما قيل لهم، وأردت بيان ما فعلوا بعد ذلك.. فأقول لك: أعرضوا، ﴿أعرضوا﴾: فعل ماض وفاعل، ومتعلقه محذوف تقديره: عن شكر ربهم، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿فَأَرْسَلْنَا﴾: ﴿الفاء﴾: حرف عطف وتفريع، ﴿أرسلنا﴾: فعل وفاعل، ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق به، ﴿سَيْلَ الْعَرِمِ﴾: مفعول به، والجملة معطوفة مفرعة على جملة ﴿أعرضوا﴾، ﴿وَبَدَّلْنَاهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به أول معطوف على ﴿أرسلنا﴾، ﴿بِجَنَّتَيْهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿بدلنا﴾، ﴿جَنَّتَيْنِ﴾: مفعول ثان لـ﴿بدلنا﴾، ﴿ذَوَاتَيْ﴾: صفة لـ﴿جَنَّتَيْنِ﴾ منصوب بالياء؛ لأنه جمع ذات مؤنث، ﴿ذو﴾: بمعنى صاحب، ﴿أُكُلٍ﴾: مضاف إليه، ﴿خَمْطٍ﴾: صفة ﴿أُكُلٍ﴾، ﴿وَأَثْلٍ﴾: معطوف على ﴿أُكُلٍ﴾، ﴿وَشَيْءٍ﴾: معطوف عليه أيضاً، ﴿مِنْ سِدْرٍ﴾: صفة أولى لـ﴿شَيْءٍ﴾، ﴿قَلِيلٍ﴾: صفة ثانية له، ﴿ذَلِكَ﴾: في محل النصب مفعول ثانٍ لـ﴿جَزَيْنَاهُمْ﴾ مقدم عليه؛ لأنه ينصب مفعولين؛ أي: جزيناهم ذلك التبديل، ﴿جَزَيْنَاهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، والجملة مستأنفة، ﴿بِمَا﴾ ﴿الباء﴾: سببية متعلقة بـ﴿جَزَيْنَاهُمْ﴾، ﴿ما﴾: مصدرية، ﴿كَفَرُوا﴾: فعل وفاعل، صلة لـ﴿ما﴾ المصدرية؛ أي: بسبب كفرهم، ﴿وَهَلْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿هَلْ﴾: حرف استفهام للاستفهام الإنكاري بمعنى: النفي، ﴿نُجَازِي﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على الله، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿الْكَفُورَ﴾: مفعول به، والجملة مستأنفة.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَجَعَلْنَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿جعلنا﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿بدلناهم﴾ عطف قصة على قصة، ﴿بَيْنَهُمْ﴾: ظرف مضاف منصوب على الظرفية، متعلق بـ﴿جعلنا﴾ على كونه مفعولاً ثانياً له، ﴿وَبَيْنَ ٱلْقُرَى﴾: ظرف ومضاف إليه، معطوف على الظرف الأول، ﴿ٱلَّتِي﴾ في محل الجر صفة لـ﴿ٱلْقُرَى﴾، ﴿بَٰرَكْنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿فِيهَآ﴾: متعلق به، والجملة صلة الموصول، ﴿قُرًى﴾: مفعول أول لـ﴿جعلنا﴾، ﴿ظَٰهِرَةً﴾: صفة لـ﴿قُرًى﴾، ﴿وَقَدَّرْنَا﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿جعلنا﴾، ﴿فِيهَآ﴾: متعلق بـ﴿ٱلْأَرْضِ﴾، أو متعلق بـ﴿ٱلسَّيْرَ﴾، و﴿ٱلسَّيْرَ﴾: مفعول به لـ﴿قدرنا﴾، ﴿سِيرُوا۟﴾: فعل أمر وفاعل، ﴿فِيهَآ﴾: متعلق بـ﴿سِيرُوا۟﴾، ﴿لَيَالِىَ وَأَيَّامًا﴾: منصوبان على الظرفية، متعلقان بـ﴿سِيرُوا۟﴾، ﴿ءَامِنِينَ﴾: حال من فاعل ﴿سِيرُوا۟﴾، وجملة ﴿سِيرُوا۟﴾ في محل النصب مقول لقول محذوف تقديره: وقلنا لهم سيروا، والقول المحذوف معطوف على ﴿قدرنا﴾.

﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾.

﴿فَقَالُوا۟﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿قالوا﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على محذوف جواب لما المحذوفة، والتقدير: ولما بطروا النعمة، وطغوا، وسئموا الراحة، ولم يصبروا على العافية.. تمنوا طول الأسفار، والكد في المعيشة، فقالوا: ربنا باعد بين أسفارنا، كما يشير إليه كلام القرطبي. ﴿رَبَّنَا﴾: منادى مضاف حذف منه حرف النداء، وجملة النداء مقول ﴿قالوا﴾، ﴿بَٰعِدْ﴾: فعل دعاء، وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾ على كونها جواب النداء، ﴿بَيْنَ﴾: ظرف متعلق بـ﴿بَٰعِدْ﴾، ﴿أَسْفَارِنَا﴾: مضاف إليه، ﴿وَظَلَمُوٓا۟﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿قالوا﴾، ﴿أَنفُسَهُمْ﴾: مفعول به: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، معطوف على ﴿ظَلَمُوٓا۟﴾، ﴿أَحَادِيثَ﴾: مفعول ثان، ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿جعلناهم﴾، ﴿كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة لنيابته عن المصدر ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب وتوكيد، ﴿فِى ذَٰلِكَ﴾: خبر مقدم لها، ﴿لَءَايَٰتٍ﴾: اسمها مؤخر، واللام حرف ابتداء، ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾: صفة لـ﴿آيات﴾، ﴿شَكُورٍ﴾: صفة ﴿صَبَّارٍ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ

عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿اللام﴾: موطئة للقسم ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿صَدَّقَ﴾: فعل ماض، ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق به، ﴿إِبْلِيسُ﴾: فاعل، ﴿ظَنَّهُۥ﴾: مفعول به، والجملة جواب القسم، وجملة القسم مستأنفة، ﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿اتبعوه﴾: فعل ماض، وفاعل ومفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿صَدَّقَ﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء، ﴿فَرِيقًا﴾: منصوب على الاستثناء ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: صفة لـ﴿فَرِيقًا﴾، ﴿وَمَا﴾: الواو: حالية أو عاطفة، ﴿مَا﴾: نافية، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، ﴿لَهُۥ﴾: خبر كان مقدم، ﴿عَلَيْهِم﴾: حال من ﴿سُلْطَٰنٍ﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها، ﴿مِن﴾: زائدة، ﴿سُلْطَٰنٍ﴾: اسمها مؤخر، والجملة في محل النصب حال من إبليس، أو معطوفة على جملة القسم، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء متصل مفرغ من أعم العلل، تقديره: وما كان تسليطنا إياه عليهم لعلة من العلل إلا لأجل أن نعلم ونميز من يؤمن بآياتنا، ﴿لِنَعْلَمَ﴾ ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿نعلم﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، وفاعله ضمير يعود على الله، ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿نعلم﴾، ﴿يُؤْمِنُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، ﴿بِٱلْآخِرَةِ﴾: متعلق به، وجملة ﴿يُؤْمِنُ﴾ صلة الموصول، وجملة ﴿نعلم﴾ مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، الجار والمجرور متعلق بمعلول محذوف تقديره: وما كان تسليطنا إياه عليهم إلا لعلمنا وتمييزنا من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك، ﴿مِمَّنْ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿نعلم﴾؛ لأنه متضمن معنى: نميز، ﴿هُوَ﴾: مبتدأ، ﴿مِنْهَا﴾: حال من ﴿شَكٍّ﴾؛ لأنه في الأصل صفة لـ﴿شَكٍّ﴾. ﴿فِى شَكٍّ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية صلة الموصول، ﴿وَرَبُّكَ﴾: مبتدأ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾: متعلق بـ﴿حَفِيظٌ﴾، ﴿حَفِيظٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿قُلِ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد، مبني بسكون مقدر منع من ظهوره اشتغال المحل بحركة التخلص من التقاء الساكنين، والجملة مستأنفة،

﴿ٱدۡعُواْ﴾: فعل أمر وفاعل، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول القول، وجملة ﴿زَعَمۡتُم﴾: صلة الموصول، ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور، صفة للمفعول الثاني المحذوف، والمفعول الأول محذوف أيضاً تقديره: زعمتموهم آلهة كائنة من دون الله تعالى، فحذف الأول لطول الموصول بصلته، وحذف الثاني لقيام صفته، أعني دون الله مقامه، فإذن مفعولا زعم محذوفان جميعاً بسببين مختلفين. ﴿لَا يَمۡلِكُونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية مستأنفة مسوقة لبيان حال آلهتهم، أو حال من الموصول في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم﴾. ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: متعلق بـ﴿يَمۡلِكُونَ﴾، أو صفة لـ﴿مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾، ﴿وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: معطوف على ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿مَا﴾: نافية، ﴿لَهُمۡ﴾: خبر مقدم، ﴿فِيهِمَا﴾: حال من شرك؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها، ﴿مِن﴾: زائدة، ﴿شِرۡكٖ﴾: مبتدأ مؤخر، واسم ﴿مَا﴾ على رأي من يجيز تقدم خبرها على اسمها، والجملة معطوفة على جملة ﴿لَا يَمۡلِكُونَ﴾، ﴿وَمَا﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ما﴾: نافية، ﴿لَهُۥ﴾: خبر مقدم، ﴿مِنۡهُم﴾: حال من ﴿ظَهِيرٖ﴾، ﴿مِن﴾ زائدة، ﴿ظَهِيرٖ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة معطوفة على جملة ﴿لَا يَمۡلِكُونَ﴾ أيضاً.

﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَلَا تَنفَعُ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لا تنفع الشفاعة﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿عِندَهُۥٓ﴾: متعلق بـ﴿تَنفَعُ﴾ أو حال من الشفاعة، والجملة مستأنفة مسوقة لبيان المصير الذي لا تنفع فيه شفاعة الشافعين، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿لِمَنۡ﴾: متعلق بـ﴿ٱلشَّفَٰعَةُ﴾، أو بـ﴿تَنفَعُ﴾، ﴿أَذِنَ﴾: فعل، وفاعل مستتر يعود على الله، ﴿لَهُۥ﴾: متعلق بـ﴿أَذِنَ﴾، والجملة صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، ﴿حَتَّىٰٓ﴾: حرف جر وغاية لمحذوف يفهم من السياق، كأنه قيل: وكانوا يتربصون ويقفون خائفين وجلين تتقاوسهم المخاوف، وتتقاذفهم الشكوك، أيؤذن لهم أم لا؟ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ﴾، ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، ﴿فُزِّعَ﴾: فعل ماض مغير الصيغة، ﴿عَن قُلُوبِهِمۡ﴾: جار ومجرور، في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿فُزِّعَ﴾، والجملة في محل الجر بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب الآتي، ﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة

﴿إِذَا﴾ الشرطية مع جوابها في محل الجر بـ﴿حَتَّىٰٓ﴾ الجارة، والتقدير: يقفون خائفين منتظرين الإذن إلى قولهم: ماذا قال ربكم وقت إزالة الفزع عنهم، و﴿حَتَّىٰٓ﴾: متعلق بيقفون المحذوف، ﴿مَاذَا﴾: ﴿ما﴾: اسم استفهام مبتدأ، ﴿ذا﴾: اسم موصول خبره، ﴿قَالَ رَبُّكُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة لـ﴿ذا﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: ما الذي قاله ربكم، والجملة الاسمية محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾، ﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿ٱلْحَقَّ﴾: مقول لـ﴿قَالَ﴾ المحذوف بتضمينه معنى ذكر، تقديره: قال ربنا القول الحق، وهو الإذن في الشفاعة، وجملة ﴿قال﴾ المحذوف في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾، ولك أن تعرب القول المحذوف مفعولاً مطلقاً لقال المحذوف، أو مفعولاً به؛ لأنه بمعنى: ذكر، و﴿ٱلْحَقَّ﴾: صفة له، ﴿وَهُوَ﴾: مبتدأ، ﴿ٱلْعَلِيُّ﴾: خبر أول، ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾: خبر ثانٍ، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة مستأنفة، ﴿مَن﴾: اسم استفهام مبتدأ، وجملة ﴿يَرْزُقُكُم﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾ ﴿مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ متعلق بـ﴿يَرْزُقُكُم﴾، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ﴿قُلِ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة، ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ خبره محذوف تقديره: الله يرزقنا وإياكم، أو خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هو الله، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾، ﴿وَإِنَّآ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إنا﴾: ناصب واسمه، ﴿أَوْ إِيَّاكُمْ﴾: معطوف على اسم ﴿إن﴾، ﴿لَعَلَىٰ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿على هدى﴾: جار ومجرور، خبر ﴿إن﴾؛ أي: لكائنون على هدى، وجملة ﴿إن﴾ معطوفة على جملة ﴿الله يرزقنا﴾ على كونها مقولاً لـ﴿قُلْ﴾، ﴿أَوْ فِى ضَلَٰلٍ﴾: معطوف على ﴿على هدى﴾، ﴿مُّبِينٍ﴾: صفة ﴿ضَلَٰلٍ﴾، ﴿قُل﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة مستأنفة، ﴿لَّا﴾: نافية، ﴿تُسْـَٔلُونَ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾، ﴿عَمَّآ﴾: متعلق بـ﴿تُسْـَٔلُونَ﴾، و﴿ما﴾ موصولة أو مصدرية، ﴿أَجْرَمْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة

لـ﴿ما﴾ الموصولة، أو المصدرية، ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لا﴾: نافية، ﴿نُسْـَٔلُ﴾: فعل مضارع مغيَّر الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على المتكلمين، والجملة معطوفة على جملة ﴿لَّا تُسْـَٔلُونَ﴾، ﴿عَمَّآ﴾: متعلق بـ﴿نُسْـَٔلُ﴾، وجملة ﴿تَعْمَلُونَ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ المصدرية، أو الموصولة، ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة مستأنفة، ﴿يَجْمَعُ﴾: فعل مضارع، ﴿بَيْنَنَا﴾: متعلق بـ﴿يَجْمَعُ﴾، ﴿رَبُّنَا﴾: فاعل ﴿يَجْمَعُ﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب، ﴿يَفْتَحُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله، معطوف على ﴿يَجْمَعُ﴾، ﴿بَيْنَنَا﴾: متعلق بـ﴿يَفْتَحُ﴾، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: متعلق بـ﴿يَفْتَحُ﴾ أيضاً، ﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ﴾: مبتدأ وخبر أول، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾: خبر ثانٍ، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّا بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة، ﴿أَرُونِيَ﴾: فعل أمر والواو فاعل، والنون: للوقاية، والياء: مفعول به أول؛ لأنّ الرؤية علمية متعدية قبل النقل إلى اثنين، فلما جيء بهمزة النقل تعدت إلى ثلاثة مفاعيل. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ثان لـ﴿أَرُونِيَ﴾، والجملة ﴿أَلْحَقْتُم﴾ صلة الموصول، والعائد محذوف، تقديره: ألحقتموهم، ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿أَلْحَقْتُم﴾، ﴿شُرَكَآءَ﴾: مفعول ثالث لـ﴿أَرُونِيَ﴾، وجملة ﴿أَرُونِيَ﴾ في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾، ويجوز أن تكون الرؤية بصرية متعدية قبل النقل إلى واحد، فلما جيء بهمزة النقل.. تعدت لاثنين، أولهما: ياء المتكلم، والثاني: الموصول، ﴿شُرَكَآءَ﴾: حال من العائد المحذوف؛ أي: بصّروني الملحقين به حال كونهم شركاء له. ﴿كَلَّا﴾ حرف ردع وزجر مبني على السكون، ﴿بَلْ﴾: حرف إضراب وابتداء، ﴿هُوَ﴾: ضمير الشأن مبتدأ أول ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ ثانٍ، ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: خبر أول له، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: خبر ثان له، وجملة المبتدأ الثاني مع خبره خبر للمبتدأ الأول، وجملة المتبدأ الأول مستأنفة، ولك أن تجعل ﴿هُوَ﴾ ضميراً عائداً على الله، وتعربه مبتدأ خبره ﴿ٱللَّهُ﴾، و﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾: صفتان للجلالة.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَمَآ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿ما﴾: نافية ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة مستأنفة، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿كَآفَّةٗ﴾: حال من الكاف في ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾، أو من الناس على رأي من يجيز تقدم الحال على الجار والمجرور، أو صفة لمصدر محذوف؛ أي: إرسالة كافة عامة للناس، ﴿لِّلنَّاسِ﴾ متعلقان بـ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ ﴿بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾: حالان من الكاف في ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾، ﴿وَلَٰكِنَّ﴾: حرف نصب واستدراك، ﴿أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾: اسمها ومضاف إليه، وجملة ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ خبرها، والجملة معطوفة على جملة: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ عطف اسمية على فعلية.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةٗ وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَيَقُولُونَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿يقولون﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿مَتَىٰ﴾: اسم استفهام في محل النصب على الظرفية الزمانية، مبني على السكون، والظرف متعلق بمحذوف خبر مقدم، ﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ مؤخر ﴿ٱلۡوَعۡدُ﴾: بدل من اسم الإشارة، والجملة الاسمية في محل النصب مقول لـ﴿يقولون﴾، ﴿إِن﴾: حرف شرط، ﴿كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾: فعل ناقص واسمه وخبره في محل الجزم بـ﴿إِن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله، تقديره: إنْ كنتم صادقين فيما وعدتمونا.. فأخبرونا متى هو، وجملة ﴿إِن﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿يقولون﴾، ﴿قُل﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة مستأنفة، ﴿لَّكُم﴾: خبر مقدم، ﴿مِّيعَادُ يَوۡمٖ﴾: مبتدأ مؤخر، وهو مصدر مضاف إلى الظرف، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قُل﴾، ﴿لَّا﴾: نافية، ﴿تَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿عَنۡهُ﴾: متعلق بـ﴿تَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾، ﴿سَاعَةٗ﴾: ظرف زمان متعلق به أيضاً، والجملة الفعلية في محل الجر صفة لـ﴿يَوۡمٖ﴾، وجملة ﴿وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ﴾: معطوفة على جملة ﴿لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ﴾ هو: سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، والمراد به هنا: القبيلة.

﴿فِي مَسۡكَنِهِمۡ﴾ والمسكن: موضع السكنى، وهو: مأرب، كمنزل من بلاد

اليمن، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام.

﴿ءَايَةٌ﴾؛ أي: علامة دالة على وجود الله ووحدانيته، وقدرته على إيجاد الغرائب والعجائب. ﴿جَنَّتَانِ﴾؛ أي: بستانان.

﴿عَن يَمِينٍ﴾ واليمين في الأصل: الجارحة، وهي أشرف الجوارح لقوتها، وبها تعرف من الشمال وتمتاز عنها. ﴿وَشِمَالٍ﴾: ضد اليمين. ﴿فَأَعْرَضُوا﴾؛ أي: انصرفوا عن شكر هذه النعم، يقال: أعرض: إذا أظهر عرضه؛ أي: ناحيته.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ الإرسال: مقابل الإمساك، والتخلية، وترك المنع.

﴿سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ السيل: أصله مصدر، كالسيلان بمعنى: فاض الوادي ماء، وجعل اسماً للماء الذي يأتيك ولم يصبك مطره، والعرم: من العرامة، وهي الشدة والصعوبة، يقال: عَرَم، كنصر وضرب وكرم وعلم عرامةً وعراماً بالضم، فهو عارم وعرم: إذا اشتد، وعرم الرجل إذا شرس خلقه؛ أي: ساء وصعب، وأضاف السيل إلى العرم؛ أي: الصعب، وهو من آضافة الموصوف إلى صفته، بمعنى: سيل المطر العرم، أو الأمر العرم، وقيل: العرم بفتح أوله وكسر ثانية، جمع: عرمة، كذلك مثل كلم وكلمة، وهي الحجارة المركومة، كخزّان أسوان في وادي النيل لحجز المياه جنوبيّ النيل، وقيل: اسم للجرذ؛ أي: الخلد: نوع من الفئران، وقيل: المطر الشديد، وقيل: اسم للوادي، وقيل: غير ذلك من الأقوال المتلاطمة، ولن تجد كلمة اختلف فيها المفسرون كهذه الكلمة، واختار الجلال منها أن يكون العرم جمع عرمة، وهو ما يمسك الماء من بناء وغيره إلى وقت حاجته، وهذا ما نعبّر عنه اليوم بالسدود، وهو أولى ما تفسَّر به الآية، وقد يحدث تصدّع السدود وانهيارها بأسباب مختلفة.

﴿وَبَدَّلْنَٰهُم﴾ والتبديل: جعل الشيء مكان آخر، والباء تدخل على المتروك، كما هو القاعدة المشهورة.

﴿ذَوَاتَىْ أُكُلٍ﴾ مثنى: ذوات أو ذات، ولفظ ذوات مفرد؛ لأن أصله: ذوية، فالواو عين الكلمة والياء لامها؛ لأنه مؤنث ذو وذو أصله: ذوي، فلما تحركت الياء وانفتح ما قبلها.. قلبت الفاً، فصار: ذوا، ثم حذفت الواو تخفيفاً، فعندما يراد تثنيته يجوز أن ينظر إلى لفظه الآن، فيقال: ذاتان، ويجوز أن ينظر إلى أصله،

فيقال: ذواتان. هذا، وذات: مؤنث ذو، ومثناها: ذواتان، والجمع: ذوات، ويعرب المؤنث والمثنى والجمع إعراب نظيره من الأسماء المفردة والمثناة والمجموعة.

﴿أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ بضمتين وبضم، فسكون: الثمر أو ما يؤكل، والخمط: المر والحامض، يقال: خمر خمطة؛ أي: حامضة، ولبن خمط؛ أي: متغيِّر، وفي «المختار»: الخمط: ضرب من الأراك له حمل يؤكل، وعن أبي عبيدة: كل شجر ذي شوك، وقال الزجاج: كل نبت أخذ طعماً من مرارة حتى لا يمكن أكله. اهـ.

﴿وَأَثْلٍ﴾ الأثلة: السمرة، وقيل: شجر من العضاة طويلة مستقيمة الخشبة تعمل منها القصاع والأقداح، فوقعت مجازاً في قولهم: نحت أثلته إذا تنقصته، وفلان لا تنحت أثلته، ولفلان أثلة مال؛ أي: أصل مال، ثم قالوا: أثلت مالاً وتأثلته، وشرف مؤثل وأثيل، وقيل: الأثل: الطرفاء، وهو المعروف في مصر بالأتل، وفي اللغة الأرمية: غاترا، قال الفراء: يشبه الطرفاء إلا أنه أعظم منه طولاً، ومنه اتخذ منبر رسول الله ﷺ، وورقه كورق الطرفاء، والواحدة: أثلة، والجمع: أثلال، كما مر وفي الأرمية: بربرس.

﴿مِّن سِدْرٍ﴾ السدر: شجر النبق يطيب أكله، ولذا يغرس في البساتين، وقيل: إن السدر صنفان، صنف يؤكل ثمره، وينتفع بورقه في غسل الأيدي، وصنف له ثمرة غضة لا تؤكل أصلاً، وهو الضال في الأرمية: قرقر غبروا.

﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ قال في «القاموس»: ﴿هَلْ﴾: كلمة استفهام، وقد يكون بمعنى الجحد وكفر النعمة، وكفرانها: سترها بترك أداء شكرها.

﴿وَبَيْنَ ٱلْقُرَى﴾: جمع قرية، والقرية: اسم للموضع الذي يجتمع فيه الناس، بلدة كانت أو غيرها. ﴿بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ والبركة: ثبوت الخير الإلهي في الشيء، والمبارك: ما فيه ذلك الخير.

﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ أصل ظهر الشيء: أن يحصل على ظهر الأرض فلا يخفى، وبطن الشيء: أن يحصل في بطنان الأرض فيخفى، ثم صار مستعملاً في كل ما برز للبصر والبصيرة. ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ والسير: المضي في الأرض.

﴿ءَامِنِينَ﴾ أصل الأمن: طمأنينة النفس، وزوال الخوف.

﴿بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ المباعدة والبعاد: مصدران لباعد، والأسفار: جمع سفر، والسفر: خلاف الحضر، وهو في الأصل كشف الغطاء، وسفر الرجل فهو سافر وسافر: خص بالمفاعلة اعتباراً بأن الإنسان قد سفر عن المكان، والمكان سفر عنه، ومن لفظ السفر اشتقت السفرة لطعام السفر، ولما يوضع فيه من الجلد المستدير. وقال بعضهم: وسمي السفر سفراً؛ لأنه يسفر؛ أي: يكشف عن أخلاق الرجال، ويستخرج دعاوي النفوس ودفائنها.

﴿أَحَادِيثَ﴾ جمع: أحدوثة، وهي ما يتحدث به على سبيل التلهي والاستغراب، وتقديره في العربية: ذوي أحاديث، قال ابن الكمال: الأحاديث مبني على واحده المستعمل، وهو الحديث، كأنهم جمعوا حديثاً على أحدثة، ثم جمعوا الجمع على الأحاديث، وفي «القاموس»: الأحاديث: جمع حديث بمعنى الخبر.
﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾؛ أي: فرقناهم كل تفريق؛ أي: فرقناهم تفريقاً لا يتوقع بعده عود اتصال.

﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ الصبار: كثير الصبر عن الشهوات ودواعي الهوى وعلى مشاقّ الطاعات، والشكور: كثير الشكران على النعم، وهما من صيغ المبالغة.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ﴾ وإبليس: مشتق من الإبلاس، وهو الحزن المعترض من شدة اليأس، كما في «المفردات»: أبلس: يئس وتحير، ومنه: إبليس، أو هو أعجمي. انتهى.

﴿ظَنَّهُۥ﴾ والظن: هو الاعتقاد الراجح مع احتمال النقيض، ومظنة الشيء ـ بكسر الظاء ـ: موضع يظن فيه وجوده.

﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الفريق: الجماعة المنفردة عن الناس.

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾؛ أي: وجد ظنه فيهم صادقاً؛ لانهماكهم في الشهوات، واستفراغ الجهد في اللذات.

﴿مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ السلطان: القهر والغلبة، ومنه: السلطان لمن له ذلك.

﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ العلم: إدراك الشيء بحقيقته، والعالم في وصف الله تعالى هو الذي لا يخفى عليه شيء.

﴿مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾: والشك: اعتدال النقيضين عند الإنسان وتساويهما.

﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾؛ أي: محافظ عليه، فإن فعيلاً ومفاعلاً صيغتان متآخيتان في إفادة المبالغة، وقيل: معناه: أي: وكيل قائم على شؤون خلقه.

﴿ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ قال في «القاموس»: الزعم ـ مثلثة ـ: القول الحق، والباطل، والكذب، وأكثر ما يقال فيما يشكّ فيه، وفي «المفردات»: الزعم: حكاية قول يكون مظنة الكذب، ولهذا جاء في القرآن في كل موضع ذمَّ القائلين به.

﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾ وهي طلب العفو أو الفضل للغير من الغير، يعني: أن الشافع شفيع للمشفوع له في طلب نجاته، أو زيادة ثوابه، ولذا لا تطلق الشفاعة على دعاء الرجل لنفسه، وأما دعاء الأمة للنبي ﷺ، وسؤالهم له مقام الوسيلة، فلا يطلق عليه الشفاعة؛ إما لاشتراط العلو في الشفيع، وإما لاشتراط العجز في المشفوع له، وكلاهما منتفٍ ههنا.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ والتفزيع: إزالة الفزع، وهو انقباض ونفار يعتري الإنسان من الشيء المخيف، وهو من جنس الجزع، ولذا لا يقال: فزعت من الله، كما يقال: خفت منه، وفي «الأساس»: وفزَّع عن قلبه: كشف الفزع عنه، فالتضعيف هنا للسلب، كما يقال: قرّدت البعير: أزلت قراده.

﴿عَمَّآ أَجْرَمْنَا﴾ الإجرام: فعل الجرم، والجرم ـ بالضم ـ: الذنب، وأصله: القطع، واستعير لكل اكتساب مكروه، كما في «المفردات».

﴿أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾؛ أي: أعلموني بالدليل وجه الشركة. ﴿كَلَّا﴾: كلمة للزجر عن كلام، أو فعل صدر من المخاطب.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الطباق بين لفظ ﴿يَمِينٍ﴾ و﴿وَشِمَالٍ﴾، وبين ﴿بشير﴾ و﴿نَذِيرٍ﴾، وبين ﴿تَسْتَقْدِمُونَ﴾ و﴿تَسْتَـْٔخِرُونَ﴾.

ومنها: المشاكلة في قوله: ﴿جَنَّتَيْنِ﴾ وهو ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في

مقابلته، فقد سمي البدل جنتين للمشاكلة، وإلا فالخمط والأثل والضال ليس بجنة.

ومنها: التهكم بهم في قوله: ﴿جَنَّتَيْنِ﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟﴾ فإن كلمة ﴿سِيرُوا۟﴾ مشتقة من السير.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ إلماعاً إلى قصر أسفارهم، فقد كانت قصيرة؛ لأنهم يرتعون في بحبوحة من العيش، ورغد منه، لا يحتاجون إلى مواصلة الكد، وتجشم عناء الأسفار للحصول على ما يرفه عيشهم.

ومنها: التذييل في قوله: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ فإنه تذييل لقوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟﴾، وهو هنا أن تكون الجملة الثانية متوقفة على الأولى في إفادة المراد؛ أي: وهل يجازى ذلك الجزاء المخصوص، ومضمون الجملة الأولى أن آل سبأ جزاهم الله تعالى بكفرهم، ومضمون الثانية أن ذلك العقاب المخصوص لا يقع إلا للكفور، وفرق بين قولنا: جزيته بسبب كذا، وبين قولنا: ولا يجزى ذلك الجزاء إلا من كان بذلك السبب، ولتغايرهما يصح أن يجعل الثاني علة للأول، ولكن اختلاف مفهومهما لا ينافي تأكيد أحدهما بالآخر للزوم معنى.

ومنها: مقابلة الإيمان بالشك في قوله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ إيذاناً بأن أدنى مرتبة الكفر يوقع في الورطة.

ومنها: جعل الشك ظرفاً له، وتقديم صلته عليه، والعدول إلى كلمة ﴿مِنْ﴾ مع أنه يتعدى بفي؛ للمبالغة والإشعار بشدته، وأنه لا يرجى زواله.

ومنها: المبالغة في قوله: ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾؛ لأن فعيلاً من صيغ المبالغة.

ومنها: فن الفرائد في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾، وهو أن يأتي المتكلم في كلامه بلفظة تتنزل منزلة الفريدة من حب العقد، وهي الجوهرة التي لا نظير لها، بحيث لو سقطت من الكلام لم يسد غيرها مسدَّها، وفي لفظة: ﴿فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ من غرابة الفصاحة ما لا مزيد عليه.

ومنها: التعجيز بدعاء الجماد الذي لا يسمع ولا يحس في قوله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟

﴿ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

ومنها: التوبيخ والتبكيت في قوله: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

ومنها: حذف الخبر لدلالة السياق عليه في قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾؛ أي: قل الله الخالق الرازق للعباد، ودلَّ على المحذوف سياق الآية.

ومنها: المبالغة بذكر صيغ المبالغة في قوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، وفي قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾؛ لأن فعالاً وفعولاً وفعيلاً من أوزان المبالغة.

ومنها: الاستدراج في قوله: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، وهو فن يعتبر من البلاغة محورها الذي تدور عليه؛ لأنه يستدرج الخصم ويضطره إلى الإذعان والتسليم، والعزوف عن المكابرة واللجاج، فإنه لما ألزمهم الحجة خاطبهم بالكلام المنصف الذي يقول من سمعه المخاطب به: قد أنصفك صاحبك، كقول الرجل لصاحبه: أنا وأنت أحدنا لكاذب، وأبرزه في صورة الإبهام لأجل الإنصاف في الكلام.

ومنها: المخالفة بين حرفي الجر في قوله: ﴿لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فإنه إنما خولف بينهما في الدخول على الحق والباطل؛ لأن صاحب الحق كأنه مستعلٍ على فرس جواد يركض به حيث شاء، وصاحب الباطل كأنه منغمس في ظلام منخفض فيه، لا يدري أين يتوجه، وهذا معنى دقيق قلّما يراعى مثله في الكلام، وكثيراً ما سمعنا إذا كان الرجل يلوم أخاه أو يعاتب صديقه على أمر من الأمور، فيقول له: أنت على ضلالك القديم، كما أعهدك، فيأتي بعلى في موضع: في، وإن كان هذا جائزاً، إلا أن استعمال في هنا أولى لما أشرنا إليه، والاستعارة التصريحية واضحة.

ومنها: الأمر في قوله: ﴿أَرُونِىَ﴾ أمرهم بإراءته الأصنام مع كونها بمرأى منه إظهاراً لخطئهم، وإطلاعهم على بطلان رأيهم.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿عَمَّآ أَجْرَمْنَا﴾ لأن الإجرام في الأصل: القطع ثم استعير لكل اكتساب مكروه.

ومنها: الإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا

يَعْلَمُونَ﴾ تخصيصاً للجهل بنعمتي البشارة والنذارة، ونعمة الرسالة بهم.

ومنها: الحذف والزيادة في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله[١] سبحانه لما ذكر الأصول الثلاثة، وهو: التوحيد والرسالة والحشر، وكانوا كافرين بها جميعاً.. ذكر شأن جماعة من المشركين جاهروا بإنكار القرآن، وبكل كتاب سبقه من الكتب السماوية السالفة، ويستتبع ذلك أنهم لا يؤمنون بما جاء فيها من البعث والحشر والحساب والجزاء، ثم ذكر ما سيكون من الحوار بين الضالين ومضليهم من الكفار، وما يسرونه من

---

(١) المراغي.

الحسرة والندامة، حين يرون العذاب، ثم أعقبه بذكر ما سيحيق بهم من الإهانة بوضع الأغلال في الأعناق، وأن هذا جزاء لهم على ما عملوا من سيء الأعمال، وما دسوا به أنفسهم من قبيح الخلال.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر قول المشركين لرسوله: لن نؤمن بهذا القرآن، ولا بالذي بين يديه، بعد أن طال به الأمد في دعوتهم حتى لحقه من ذلك الغم الكثير، كما قال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾.. سلاه على ما ابتلي به من مخالفة مترفي قومه له، وعداوتهم إياه بالتأسي بمن قبله من الرسل، فهو ليس بدعاً من بينهم، فما من نبي بعث في قرية إلا كذبه مترفوها، واتبعه ضعفاؤها، كما قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾، ثم ذكر حجتهم بأنهم لا حاجة لهم إلى الإيمان به، فما هم فيه من مال وولد برهان ساطع على محبة الله إياهم، فرد عليهم بأن بسط الرزق وتقتيره، كما يكون للبر.. يكون للفاجر؛ لأن ذلك مرتبط بسنن طبيعية، وأسباب قدرها سبحانه في هذه الحياة، فمن أحسن استعمالها استفاد منها، ثم ذكر أن المتقين يمتّعون إذ ذاك بغرف الجنان، وهم في أمن ودعة، وأن الذين يصدون عن سبيل الله في نار جهنم يصلونها أبداً، ثم وعد المنفقين في سبيل الله بالإخلاف، وأوعد الممسكين بالإتلاف.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر[1] أنَّ حال النبي ﷺ مع قومه ليس بدعاً بين الرسل، فحاله معهم كحال من تقدمه منهم مع أقوامهم، فكلهم كذبوا، وكلهم أوذوا في سبيل الله، ثم أعقب ذلك بأن ردّ عليهم بأن كثرة الأموال والأولاد لا صلة لها بمحبة الله تعالى، ولا سخطه.. أردف ذلك ما يكون من حالهم يوم القيامة من التقريع والتأنيب بسؤال الملائكة لمعبوداتهم أمامهم: هل هؤلاء كانوا يعبدونكم؟ فيجيبون: بأنهم كانوا يعبدون الشياطين بوسوستهم لهم، ثم بيَّن أنهم في ذلك اليوم لا يقع لهم نفع ممن كانوا يرجون من الأوثان والأصنام، ويقال لهم على طريق

---

(١) المراغي.

التوبيخ والتهكم: ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ...﴾ الآيات، سبب نزولها[١]: ما أخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق سفيان عن عاصم عن ابن رزين قال: كان رجلان شريكان، خرج أحدهما إلى الشام، وبقي الآخر، فلما بعث النبي ﷺ.. كتب إلى صاحبه يسأله ما عمل، فكتب إليه أنه لم يتبعه أحد من قريش إلا رذالة الناس ومساكينهم، فترك تجارته، ثم أتى صاحبه، فقال: دلني عليه، وكان يقرأ بعض الكتب، فأتى النبي ﷺ، فقال: إلام تدعو فقال: إلى كذا وكذا، فقال: أشهد أنك رسول الله، فقال: وما علمك بذلك؟ فقال: إنه لم يبعث نبي إلا اتبعه رذالة الناس ومساكينهم، فنزلت هذه الآية: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾، فأرسل إليه النبي ﷺ: أن الله قد أنزل تصديق ما قلت.

التفسير وأوجه القراءة

ثمّ ذكر سبحانه طرفاً من قبائح الكفار، ونوعاً من أنواع كفرهم، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ أي: كفار قريش، ﴿لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ الذي ينزل على محمد ﴿وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؛ أي: ولا بما نزل قبله من الكتب القديمة الدالة على البعث، كالتوراة والإنجيل.

والمعنى[٢]: أي وقال قوم من مشركي العرب: لن نؤمن بهذا القرآن، ولا بالكتب التي سبقته، ولا بما اشتملت عليه من أمور الغيب التي تتصل بالآخرة من بعث وحساب وجزاء.

روي: أن كفار مكة سألوا أهل الكاتب عن وصف الرسول ﷺ، فأخبروهم أنهم يجدون صفته في كتبهم، فأغضبهم ذلك، وقالوا ما قالوا.

---

(١) لباب النقول.

(٢) المراغي.

ثم ذكر ما يكون من حوار بين ضاليهم ومضليهم حين الوقوف بين يدي الملك الديان للحساب والجزاء، فقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ يا محمد، أو يا من يليق بالخطاب ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ المنكرون للبعث؛ لأنهم ظلموا بأن وضعوا الإنكار موضع الإقرار ﴿مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾؛ أي[1]: محبوسون في موقف المحاسبة على أطراف أناملهم، وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف تقديره: لو رأيت ذلك.. لرأيت أمراً فظيعاً شنيعاً تقصر العبارة عن تصويره، وإنما دخلت ﴿لَوْ﴾ على المضارع مع أنها للشرط في الماضي؛ لتنزيله منزلة الماضي، لأن المترقب في أخبار الله تعالى، كالماضي المقطوع به في تحقق وقوعه، أو لاستحضار صورة الرؤية ليشاهدها المخاطب. ﴿يَرْجِعُ﴾ ويردُّ، من رجع رجعاً بمعنى: ردَّ. ﴿بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾؛ أي: حالة كونهم يتحاورون، ويتراجعون الكلام فيما بينهم باللوم والعتاب، بعد أن كانوا في الدنيا متناصرين متحابّين.

وفي «السمين»[2] قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾: مفعول ﴿تَرَىٰٓ﴾، وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوفان للعلم؛ أي: ولو ترى يا محمد حال الظالمين وقت وقوفهم عند ربهم، راجعاً بعضهم إلى بعض القول.. لرأيت حالاً فظيعةً، وأمراً منكراً، وجملة ﴿يَرْجِعُ﴾ حال من ضمير ﴿مَوْقُوفُونَ﴾ والقول منصوب بـ﴿يَرْجِعُ﴾؛ لأنه يتعدى قال تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ﴾، وجملة قوله: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ تفسير لقوله: ﴿يَرْجِعُ﴾، فلا محل له من الإعراب، أو بدل منه؛ أي: حالة كون الاتباع الذين عدوا ضعفاء وقهروا يقولون: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾؛ أي: للرؤساء الذين بالغوا في الكبر والتعظم عن عبادة الله تعالى، وقبول قوله المنزل على أنبيائه، واستتبعوا الضعفاء في الغي والضلال: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ﴾ موجودون؛ أي: لولا إضلالكم وصدكم إيانا عن الإيمان، ﴿لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ بالله ورسوله؛ أي: أنتم منعتمونا من الإيمان واتّباع الرسول.

ومعنى الآية[3]: أي ولو ترى أيها الرسول حال أولئك الكافرين، وما هم فيه من مهانة وذلة، يحاور بعضهم بعضاً، ويتلاومون على ما كان بينهم من سوء

---

(١) روح البيان.

(٢) الفتوحات.

(٣) المراغي.

الأعمال، والسبب فيما أوقعهم في هذا النكال والوبال.. لرأيت العجب العجاب، والمنظر المخزي الذي يستكين منه المرء خجلاً، ثم فصل ذلك الحوار، فقال: يقول الأتباع للذين استكبروا في الدنيا، واستتبعوهم في الغيّ والضلال: لولا أنتم أيها السادة صددتمونا عن الهدى.. لكنا مؤمنين بما جاء به الرسول، ثم حكى سبحانه رد الرؤساء عليهم بقوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ﴾ وهو واقع في جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: فماذا قال الذين استكبروا؟ فقيل: قال الرؤساء الذين استكبروا عن الإيمان ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ﴾ منكرين لكونهم الصادين لهم عن الإيمان، مثبتين ذلك لأنفسهم؛ أي: للمستضعفين ﴿أَنَحْنُ﴾ معاشر الرؤساء ﴿صَدَدْنَٰكُمْ﴾؛ أي: منعناكم وصرفناكم أيها الأتباع ﴿عَنِ ٱلْهُدَىٰ﴾ والإيمان ﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم﴾ الهدى، قال العمادي: وإنما وقعت ﴿إِذْ﴾ مضافاً إليها، وإن كانت من الظروف اللازمة للظرفية، لأنه يتوسع في الزمان ما لا يتوسع في غيره، فأضيف إليه الزمان. اهـ. وقيل: إن ﴿إِذْ﴾ هنا بمعنى: أن المصدرية؛ أي: لم نصدكم عنه، كقولك: ما أنا قلت هذا، تريد: لم أقله، مع أنه مقول لغيري، فإن دخول همزة الاستفهام الإنكاري على الضمير يفيد نفي الفعل عن المتكلم، وثبوته لغيره، كما قال: ﴿بَلْ كُنتُم﴾ أنتم ﴿مُّجْرِمِينَ﴾؛ أي: راسخين في الإجرام والإشراك، فبسبب ذلك صددتم أنفسكم عن الإيمان، وآثرتم التقليد، وفي هذا تنبيه للكفار على أن طاعة بعضهم لبعض في الدنيا تصير سبب عداوة في الآخرة، وتبرىء بعضهم من بعض، قال أبو السعود: فأنكروا كونهم الصادين لهم عن الإيمان، وأثبتوا أنهم هم الصادون لأنفسهم بسبب كونهم راسخين في الإجرام. اهـ.

والمعنى: أي قال الذين استكبروا في الدنيا، وصاروا رؤساء في الكفر والضلالة للذين استضعفوا، فكانوا أتباعاً لأهل الضلال منهم: أنحن منعناكم من اتباع الحق بعد أن جاءكم من عند الله تعالى، بل أنتم منعتم أنفسكم حظها بإجرامكم وإيثاركم الكفر على الإيمان.

والخلاصة: أننا لم نحل بينكم وبين الإيمان لو صممتم على الدخول فيه، بل كنتم مجرمين، فمنعكم إيثاركم الكفر على الإيمان من اتباع الهدى، ثم حكي ردّ المستضعفين على قول المستكبرين بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ﴾ عطف على الجملة الاستئنافية.

فإن قلت[1]: لِمَ عطف هنا، وترك العطف فيما سبق؟

قلت: لأنّ الذين استضعفوا مرَّ أولاً كلامهم، فجيء بالجواب محذوف العاطف على طريقة الاستئناف، ثم جيء بكلام آخر للمستضعفين، فعطف على كلامهم الأول، اهـ «كشاف». أي: قال الذين استضعفوا ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ﴾ رداً لما أجابوا به عليهم، ودفعاً لما نسبوه إليهم من صدهم لأنفسهم: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ إضراب على إضرابهم، وإبطال له؛ أي: لم يكن إجرامنا الصاد لنا، بل مكركم لنا ليلاً ونهاراً هو الصاد لنا، والمكر[2]: صرف الغير عما يقصده بحيلة؛ أي: بل صدّنا مكركم بنا في الليل والنهار، وحملكم إيانا على الشرك والأوزار، فحذف المضاف إليه، وأقيم الظرف مقامه اتساعاً، يعني: في الظرف بإجرائه مجرى المفعول به، أو جعل ليلهم ونهارهم ماكرين مجازاً.

والمعنى: أنَّ المستكبرين لما أنكروا أن يكونوا السبب، وأثبتوا أن ذلك باختيارهم.. كر عليهم المستضعفون بقولهم: بل مكر الليل والنهار، فأبطلوا إضرابهم بإضرابهم، كأنهم قالوا: بل من جهة مكركم لنا ليلاً ونهاراً، أو حملكم إيانا على الشرك، واتخاذ الأنداد، اهـ «عمادي».

وقرأ قتادة ويحيى بن يعمر[3]: ﴿بل مكرٌ﴾ بالتنوين، ﴿الليلَ والنهارَ﴾ بالنصب على الظرفية، والتقدير: بل مكر كائن في الليل والنهار، وقرأ سعيد بن جبير بن محمد وأبو رزين وابن يعمر أيضاً: ﴿مكَرٌّ﴾ بفتح الكاف وتشديد الراء مضافاً مرفوعاً بمعنى: الكرور من كر يكر إذا جاء وذهب، ومعناه: كرور الليل والنهار واختلافهما، ومقصودهم الإحالة على طول الأمل، والاغترار بالأيام مع أمر هؤلاء الرؤساء بالكفر بالله تعالى، وقرأ ابن جبير أيضاً وطلحة وراشد هذا من التابعين ممن صحح المصاحف بأمر الحجاج: كذلك، إلا أنهم نصبوا الراء على الظرف، وناصبه فعل مضمر؛ أي: صددتمونا مكر الليل والنهار؛ أي: في مكرهما، ومعناه: دائماً.

وقوله: ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ﴾ ظرف للمكر؛ أي: بل صدَّنا مكركم الدائم في الليل

---

(١) الكشاف.

(٢) روح البيان.

(٣) البحر المحيط.

والنهار وقت أمركم إيانا، ﴿أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ﴾؛ أي: بوحدانيته، ﴿وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ﴾ سبحانه ﴿أَندَادًا﴾؛ أي: أشباهاً وأمثالاً، والمعنى: أي: وقال الأتباع للرؤساء في الضلال: صدَّنا مكركم بنا، وخداعكم في الليل والنهار حين كنتم تأمروننا أن نكفر بالله، ونجعل له أمثالاً وأشباهاً في العبادة.

وإجمال ذلك: ما صدَّنا إلا مكركم أيها الرؤساء بالليل والنهار، حتى أزلتمونا عن عبادة الله، فأنتم كنتم تغروننا وتنموننا وتخيروننا أننا على الهدى، وأنا على شيء، وكل ذلك باطل وكذب، ثم ذكر مآل أمرهم وسوء عاقبتهم، فقال: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ﴾ والضمير فيه راجع إلى الفريقين؛ أي: وأضمر كل من الفريقين المستكبرين والمستضعفين الندامة والحسرة على ما فرط منهم في الدنيا من الكفر وأخفوها عن غيرهم، أو أخفاها كل منهم عن الآخر مخافة الشماتة، ﴿لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾؛ أي: حين رأوا العذاب وعاينوه؛ إذ هم بهتوا مما عاينوا، فلم يستطيعوا أن ينطقوا ببنت شفة.

والخلاصة: أنهم ندموا على ما فرّطوا من طاعة الله في الدنيا حين شاهدوا عذابه الذي أعدّه لهم، وقيل: المعنى: أضمر الفريقان الندامة على ما فعلا من الضلال والإضلال حين ما نفعتهم الندامة، وأخفاها كل منهما عن الآخر مخافة التعيير، أو المعنى: أظهروا الندامة، فإنه من الأضداد، يكون تارة بمعنى الإخفاء، وتارةً بمعنى: الإظهار؛ إذ الهمزة تصلح للإثبات والسلب، كما في أشكيته، وهو المناسب لحالهم، ومنه قول أمرىء القيس:

تَـجَـاوَزْتُ أَحْـرَاسـاً وَأَهْـوَالَ مَـعْـشَـرٍ   عَـلَـيَّ حِـرَاصٌ لَـوْ يُـسِـرُّونَ مُـقْـتَـلِـيْ

وقيل: معنى أسرّوا الندامة: تبينت الندامة في أسرة وجوههم. ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ﴾: جمع غل، وهو: قيد وطوق من حديد يجمع اليد إلى العنق، كما سيأتي؛ أي: ونجعل الأغلال يوم القيامة، ﴿فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالحق لما جاءهم في الدنيا حين دخلوا النار في الآخرة من التابعين والمتبوعين، وإيراد المستقبل بلفظ الماضي من جهة تحقيق وقوعه، كما سيأتي في مبحث البلاغة إن شاء الله تعالى، والإظهار لمزيد الذم، أو للكفار على العموم، فيدخل هؤلاء فيهم دخولاً أولياً؛ أي: وجعلنا أغلال الحديد في أعناق هؤلاء في النار، ثم ذكر أنه لا

جزاء لأمثالهم إلا هذا، فقال: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ﴾ والاستفهام للإنكار؛ أي: ما يجزى الذين كفروا من التابعين والمتبوعين، ﴿إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ أي: إلا جزاء ما كانوا يعملون في الدنيا من الكفر والمعاصي، أو إلا بما كانوا يعملونه، على نزع الخافض، فلما قيدوا أنفسهم في الدنيا، ومنعوها من الإيمان بتسويلات الشيطان الجني والإنسي.. جُوزوا في الآخرة بالقيد؛ أي: وما يفعل ذلك بهم إلا جزاءً لما اجترحوا من الكفر والآثام. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ وقد قالوا في أمثالهم: إنك لا تجني من الشوك العنب.

ولما قص الله سبحانه حال من تقدم من الكفار.. أتبعه بما فيه التسلية لرسوله، وبيان أنَّ كفر الأمم السابقة بمن أرسل إليهم من الرسل هو كائن مستمر في الأعصر الأول، فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا﴾ وبعثنا، ﴿فِي قَرْيَةٍ﴾ من القرى، وبلدة من البلدان. قال في «كشف الأسرار»: القرية: المصر تقري أهلها وتجمعهم. ﴿مِنْ نَذِيرٍ﴾؛ أي: نبياً ينذر أهلها ويحذرهم عقاب الله، وجملة قوله: ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ في محل النصب على الحال؛ أي: إلا قال رؤساء تلك القرية المتكبرون المتنعمون بالدنيا؛ أي: إلا قال رؤساؤها وأغنياؤها وجبابرتها وقادة الشر فيها لرسلهم: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ﴾ على زعمكم من التوحيد والإيمان، ﴿كَافِرُونَ﴾؛ أي: منكرون على مقابلة الجمع بالجمع، وهذه الآية جاءت لتسلية رسول الله ﷺ؛ أي: يا محمد[1] هذه سيرة أغنياء الأمم الماضية، فلا يهمنَّك أمر أكابر قومك، فتخصيص المتنعمين بالتكذيب مع اشتراك الكل فيه؛ إما لأنهم المتبوعون، أو لأنّ الداعي الأعظم إلى التكذيب والإنكار هو التنعم المستتبع للاستكبار.

ومعنى الآية[2]: أي وما بعثنا إلى أهل قرية نذيراً ينذرهم بأسنا أن ينزل بهم على معصيتهم إيانا، إلا قال كبراؤها وأولوا النعمة والثروة فيها: إنا لا نؤمن بما بعثتم به من التوحيد والبراءة من الآلهة والأنداد، وليس في ذلك من عجب، فإن المنغمسين في الشهوات يحملهم التكبر والتفاخر بزينة الحياة الدنيا على النفور من الكمال الروحي، ومن تثقيف النفوس بالإيمان والحكمة، فالضدان لا يجتمعان، انغماس في الشهوة، وعلم وحكمة وثروة مادية وثروة روحية. ثم ذكر تفاخرهم بما

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

هم فيه بسطة العيش وكثرة الولد، وأن ذلك سيكون سبب نجاتهم من العذاب في الآخرة بقوله: ﴿وَقَالُوا﴾؛ أي: الكفار المترفون للفقراء المؤمنين، فخراً بزخارف الدنيا، وبما هو فتنة لهم. ﴿نَحْنُ﴾ معاشر الأغنياء. ﴿أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾ منكم في الدنيا، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ في الآخرة على تقدير وقوعها؛ لأن المكرم في الدنيا لا يهان في الآخرة.

أي: وقال المستكبرون في كل قرية أرسلنا فيها نذيراً: إنا ذوو عدد عديد من الأولاد وكثرة الأموال، فنحن لا نعذب؛ لأن ذلك دليل على محبة الله لنا وعنايته بنا، مرادهم: أن الله فضلنا عليكم بالأولاد والأموال في الدنيا، وذلك يدل على أنه قد رضي ما نحن عليه من الدين، وما نحن بمعذبين في الآخرة بعد إحسانه إلينا في الدنيا، ورضاه عنا. هيهات هيهات إنهم قد ضلوا ضلالاً بعيداً، وأخطؤوا في القياس: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾.

وخلاصة آرائهم: نحن في نعمة لا تشوبها نقمة، وذلك دليل على كرامتنا عند الله ورضاه عنا؛ إذ لو كان ما نحن فيه من الشرك وغيره مما تدعونا إلى تركه مخالفاً لما يرضيه.. لما كنا فيما نحن فيه من نعمة وبسطة في العيش، وكثرة الأولاد، فرد الله عليهم مقالتهم آمراً رسوله أن يبين لهم خطأهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد رداً عليهم. ﴿إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ ويوسعه، ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ أن يبسطه له، ويوسعه عليه من مؤمن وكافر. ﴿وَيَقْدِرُ﴾؛ أي: يضيق على من يشاء أن يقدره، ويضيقه عليه من مؤمن وكافر حسب اقتضاء مشيئته المبنية على الحكم البالغة، فلا ينقاس على ذلك أمر الثواب والعقاب اللذين مناطهما الطاعة وعدمها، فليس في التوسيع دلالة على الإكرام، كما أنه ليس في التضييق دلالة على الإهانة، وفي الحديث: «الدنيا عرض حاضر، يأكل منها بر وفاجر، والآخرة وعد صادق، يحكم فيها ملك قاهر».

والمعنى: قل لهم أيها الرسول: إن ربي يبسط الرزق من معاش ورياش في الدنيا لمن يشاء من خلقه، ويضيّق على من يشاء، لا لمحبة فيمن بسط له ذلك، ولا لخير فيه، ولا لزلفى استحق بها ذلك، ولا لبغض منه لمن قدر عليه، ولا لمقت منه له، ولكنه يفعل ذلك لسنن وضعها لكسب المال، في هذه الحياة، فمن سلك سبيلها وصل إلى ما يبغي، ومن أخطأها وضل.. لم ينل شيئاً من حظوظها، ولا رابطة بين الثراء ومحبة الله. ألا ترى أنه ربما وسع سبحانه على العاصي، وضيَّق على

المطيع، وربما عكس الأمر، وقد يوسّع على المطيع والعاصي تارةً، ويضيِّق عليهما أخرى، يفعل كل ذلك بحسب ما اقتضته مشيئته المبنية على الحكم البالغة التي قد نعلمها، وربما خفي علينا أمرها، ولو كان البسط دليل الإكرام والرضا.. لاختص به المطيع، ولو كان التضييق دليل الإهانة.. لاختص به العاصي، ومن ثمَّ جاء قوله ﷺ: «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما أعطي الكافر منها شيئاً»؛ أي: فهو سبحانه قد يرزق الكافر والعاصي استدراجاً له، وقد يمتحن المؤمن المطيع بالتقتير، توفيراً لأجره، وليس مجرد بسط الرزق لمن بسطه له يدل على أنه قد رضي عنه، ورضي عمله، ولا قبضه عمن قبضه عنه يدل على أنه لم يرضه، ولا رضي عمله، فقياس الدار الآخرة على الدار الأولى في مثل هذا من الغلط البين، أو المغالطة الواضحة.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ وهم أهل الغفلة والخذلان، ومن جملة هؤلاء الأكثر من قاس أمر الآخرة على الأولى ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ حكمة البسط والقدر، فيزعمون أنَّ مدار البسط هو الشرف والكرامة، ومدار القدر هو الذل والهوان، ولا يدرون أن الأول كثيراً ما يكون بطريق الاستدراك، والثاني بطريق الابتلاء، ورفع الدرجات حتى تحير بعضهم واعترض على الله في البسط لأناس، والتضييق منه على آخرين، ومن ثم قال ابن الراوندي:

كَمْ عَاقِلٍ عَاقِلٍ أَعْيَتْ مَذَاهِبُهُ وَجَاهِلٍ جَاهِلٍ تَلْقَاهُ مَرْزُوْقَا
هَذَا ٱلَّذِيْ تَرَكَ ٱلْأَوْهَامَ حَائِرَةً وَصَيَّرَ ٱلْعَالِمَ ٱلنِّحْرِيْرَ زِنْدِيْقَا

ثم بيَّن سبحانه لعباده أن الزلفى عنده ليست بكثرة المال والولد، بل بالتقوى وصالح العمل، فقال: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم﴾ وهذا الكلام مستأنف من جهته تعالى مبالغة في تحقيق الحق؛ أي: وما قناطير أموالكم وما جموع أولادكم أيها الناس ﴿بِٱلَّتِى﴾؛ أي: بالخصال التي، فإن[1] الجمع المكسر عقلاؤه، وغير عقلائه، سواء في حكم التأنيث، أو بالخصلة التي، فيكون تأنيث الموصول باعتبار تأنيث الصفة المحذوفة، ويجوز في غير القرآن باللتين وباللاتي وباللواتي وبالذين بالنسبة

---

(١) روح البيان.

للأولاد خاصةً.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿بِٱلَّتِي﴾، فإن جمع التكسير من العقلاء وغيرهم يجوز أن يعامل معاملة المفردة المؤنثة، وقرأ الحسن: ﴿باللاتي﴾ جمعاً، وهو أيضاً راجع للأموال والأولاد، وقرىء ﴿بالذي﴾. و﴿زُلْفَىٰٓ﴾ في قوله: ﴿تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ مفعول مطلق معنوي لتقربكم منصوب به؛ أي: وليست أموالكم، ولا أولادكم بالخصلة التي تقربكم عندنا تقريباً، بل الذي يقربكم إلينا التقوى والعمل الصالح، وقرأ الضحاك: ﴿زلَفًا﴾ بفتح اللام وتنوين الفاء، جمع: زلفة، وهي القربة. وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ استثناء من مفعول ﴿تُقَرِّبُكُمْ﴾؛ أي: وما الأموال والأولاد تقرب أحداً إلا المؤمن الصالح الذي أنفق أمواله في سبيل الله، وعلم أولاده الخير، وربَّاهم على الصلاح والطاعة. وقال أبو حيان: والظاهر أنه استثناء منقطع، وهو منصوب على الاستثناء؛ أي: لكن من آمن وعمل صالحاً، فإيمانه وعمله يقربانه، والإشارة بقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إلى ﴿مَنْ﴾، والجمع باعتبار معناها، أي: فأولئك المؤمنون العاملون ثابت ﴿لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ﴾ على أن الجار والمجرور خبر لما بعده، والجملة خبر لـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، وإضافة الجزاء إلى الضعف من إضافة المصدر إلى المفعول، أصله: فأولئك لهم أن يجازوا الضعف؛ أي: تضعيف الأعمال، ثم جزاء الضعف، ثم جزاء الضعف، ومعناه: أن يضاعف لهم الواحدة من حسناتهم عشراً، فما فوقها إلى سبع مئة إلى ما لا يحصي، أو من إضافة الموصوف إلى صفته، والمعنى عليه: فأولئك لهم الجزاء المضاعف. ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾؛ أي: بسبب ما عملوا من الصالحات، ﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ﴾ أي في غرفات الجنة، وهي قصورها ومنازلها الرفيعة، ﴿ءَامِنُونَ﴾ من جميع ما يكرهون من المصائب والآفات، كالموت والهرم والمرض والعدو وغير ذلك.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ﴾ على الإضافة، أضيف فيه المصدر إلى المفعول، وقرأ قتادة والزهري ويعقوب ونصر بن عاصم: برفعهما؛ ﴿جزاء الضعف﴾ على أن الضعف بدل من ﴿جزاء﴾، وروي عن يعقوب: أنه قرأ ﴿جزاء﴾ بالنصب منوناً، ﴿والضعف﴾ بالرفع على تقدير فأولئك لهم الضعف جزاء، أي حال

---

(1) البحر المحيط. (2) الشوكاني.

كونه جزاء، وقرأ الجمهور: ﴿فِي ٱلْغُرُفَٰتِ﴾ بالجمع مضموم الراء، واختار هذه القراءة أبو عبيد لقوله: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾، وقرأ الأعمش ويحيى بن وثاب وحمزة وخلف: ﴿في الغرفة﴾ بالإفراد لقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾.

ومعنى الآية[1]: أي وما أموالكم التي تفتخرون بها على الناس، ولا أولادكم الذين تتكبرون بهم بالتي تقربكم منا، لكن من آمن وعمل صالحاً، فإيمانهم وعملهم يقربانهم مني، وأولئك أضاعف لهم ثواب أعمالهم، فأجازيهم بالحسنة عشر أمثالها، أو أكثر إلى سبع مئة ضعف، وهم في غرفات الجنات آمنون من كل خوف وأذى، ومن كل شر يحذر منه. روي عن علي ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة لغرفاً ترى ظهورها من بطونها، وبطونها من ظهورها»، فقال أعرابي: لمن هي؟ قال: «لمن طيب الكلام، وأطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلى بالليل والناس نيام». وفي الآية إشارة إلى أنه لا تستحق الزلفى عند الله بالمال والأولاد مما زين للناس حبه، وحب غير الله يوجب البعد عن الله، فالأولى للعاقل أن يأخذ الباقي ويترك الفاني. ولما ذكر سبحانه حال المؤمنين.. ذكر حال الكافرين، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ وهم كفار قريش، ﴿يَسْعَوْنَ﴾ ويبادرون، ﴿فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ القرآنية، بالرد والطعن فيها، ويجتهدون في إبطالها حال كونهم ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾؛ أي: ظانين أنهم يعجزوننا ويفوتوننا، فلا يكون لهم مؤاخذة بمقابلة ذلك ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المجتهدون في إبطال آياتنا ﴿فِي ٱلْعَذَابِ﴾؛ أي: في عذاب جهنم ﴿مُحْضَرُونَ﴾ تحضرهم الزبانية إليها، لا يجدون عنها محيصاً؛ أي: مدخلون في العذاب، مخلدون فيه، لا يغيبون عنه، ولا ينفعهم ما اعتمدوا عليه من الشفعاء.

﴿قُلْ﴾ يا محمد لأولئك المفتخرين بالأموال والأولاد: ﴿إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ ويوسعه ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ البسط له ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾؛ أي: يوسعه عليه تارة، ﴿وَيَقْدِرُ لَهُۥ﴾؛ أي: يضيقه عليه تارة أخرى ابتلاءً وحكمةً، فهذا في شخص واحد باعتبار وقتين، وما سبق في شخصين، فلا تكرار؛ أي: بل فيه تقرير؛ لأن التوسع والتقتير ليسا لكرامة ولا هوان، فإنه لو كان كذلك لم يتصف بهما شخص واحد. اهـ «شهاب». وقيل: «تكرار لما تقدم لقصد التأكيد للحجة والدفع لما قاله الكفرة،

---

(١) المراغي.

وقيل: ما هنا في المؤمن وما سبق في الكافر، وقيل: ذكره توطئة لما بعده، والمعنى: قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له، فلا تخشوا الفقر، وأنفقوا في سبيل الله ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ﴾ ﴿مَا﴾: موصولة، بمعنى: الذي مبتدأ، خبره قوله: ﴿فَهُوَ﴾، سبحانه ﴿يُخْلِفُهُۥ﴾ لكم أو شرطية، بمعنى: أيُّ شيء نصب بقوله: أنفقتم، ومن شيء بيان له، وجواب الشرط فهو يخلفه، والمعنى: والذي، أو أي شيء أنفقتموه وصرفتم في طاعة الله تعالى، وطريق الخير والبر، وقيل: المعنى: وما أنفقتم على أنفسكم، أو على عيالكم، أو تصدقتم به، فالله تعالى يعطي خلفاً وعوضاً منه؛ إما في الدنيا بالمال، أو بالقناعة التي هي كنز لا يفنى، وإما في الآخرة بالثواب والنعيم، أو فيهما جميعاً، فلا تخشوا الفقر، وأنفقوا في سبيل الله تعالى، وتعرضوا لألطاف الله عاجلاً أو آجلاً. ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ وأفضلهم؛ أي: خير من يعطي ويرزق؛ لأن كل من رزق غيره من سلطان يرزق جنده، أو سيد يرزق مملوكه، أو رجل يرزق عياله، فهو من رزق الله تعالى، أجراه الله على أيدي هؤلاء، وهو الرازق الحقيقي الذي لا رازق سواه، فإن رزق العباد بعضهم بعضاً إنما هو بتيسير الله وتقديره، وليسوا برازقين على الحقيقة، ومن أخرج من العباد إلى غيره شيئاً مما رزقه الله.. فهو إنما تصرف في رزق الله له، فاستحق بما خرج منه الثواب عليه المضاعف لامتثاله لأمر الله، وإنفاقه فيما أمره الله تعالى.

ومعنى الآية: أي قل لهم أيها الرسول: إن ربي يوسع الرزق على من يشاء من عباده حيناً، ويضيقه عليه حيناً آخر، فلا تخشوا الفقر، وأنفقوا في سبيله، وتقربوا إليه بأموالكم لتنالكم نفحة من رحمته، وما أنفقتم من شيء فيما أمركم به ربكم، وأباحه لكم.. فهو يخلفه عليكم، ويعوضكم بدلاً منه في الدنيا وفي الآخرة ثواباً كل خلف دونه.

وفي الحديث: «أنفق بلالاً، ولا تخشى من ذي العرش إقلالاً» وعن مجاهد أنه خصه بالآخرة؛ إذ قال: «إذا كان لأحدٍ شيء فيلقتصد»، ويتأول هذه الآية: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ فإن الرزق مقسوم، ولعل ما قسم له منه قليل، وهو ينفق نفقة الموسع عليه. ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ فترزقون من حيث لا تحتسبون، ولا رازق غيره. روى الشيخان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم

يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً».

والظرف في قوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ منصوب باذكر مقدراً، أو متصل بقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ﴾؛ أي: ولو تراهم أيضاً يوم نحشرهم جميعاً للحساب العابد والمعبود، والمستكبر والمستضعف؛ أي: واذكر يا محمد لقومك يوم يحشر الله؛ أي: يجمع المستكبرين والمستضعفين، وما كانوا يعبدون من دون الله حال كونهم ﴿جَمِيعًا﴾؛ أي: مجتمعين لا يشذ منهم أحد ﴿ثُمَّ يَقُولُ﴾ سبحانه ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ توبيخاً للمشركين العابدين، وإقناطاً لهم من شفاعتهم، كم زعموا، وقرأ الجمهور: ﴿نحشرهم﴾، ﴿نقول﴾ بالنون فيهما، وحفص بالياء، ذكره أبو حيان.

﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ الكفار ﴿إِيَّاكُمْ﴾ يا ملائكتي ﴿كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ في الدنيا، وهذا استفهام تقريع وتقرير للكفار، و﴿إِيَّاكُمْ﴾ منصوب بـ﴿يَعْبُدُونَ﴾، وتخصيص الملائكة مع أنَّ بعض الكفار قد عبد غيرهم من الشياطين والأصنام؛ لأنهم أشرف معبودات المشركين. ﴿قَالُوا۟﴾؛ أي: الملائكة متنزهين عن ذلك، وهو استئناف بياني، ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾؛ أي: تنزيهاً لك عن الشرك﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾؛ أي: أنت الذي نواليه ونطيعه ونعبده ﴿مِن دُونِهِم﴾؛ أي: من دون المشركين ما اتخذناهم عابدين، ولا توليناهم، وليس لنا غيرك ولياً، أي: نحن نتولاك ولا نتولاهم، فبيَّنوا بإثبات موالاة الله، ومعاداة الكفار براءتهم من الرضا بعبادتهم لهم، ثم أضربوا عن ذلك، ونفوا أنهم عبدوهم حقيقة بقولهم: ﴿بَلْ كَانُوا۟﴾؛ أي: بل كان هؤلاء المشركون في الدنيا من جهلهم وغواياتهم، ﴿يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾؛ أي: الشياطين؛ حيث أطاعوهم في عبادة غير الله تعالى، وقيل: كانوا يتمثلون لهم ويتخيلون أنهم الملائكة فيعبدونهم، وعبَّر عن الشياطين بالجن؛ لاستتارهم عن الحواس، ولذا أطلقه بعضهم على الملائكة أيضاً، وجزم الكرماني: بأنهم عبدوا الجن كما عبدوا الشياطين، فإذاً الكلام على ظاهره، فلا حاجة إلى التأويل. ﴿أَكْثَرُهُم﴾؛ أي: أكثر المشركين، قيل: الأكثر[1] ههنا بمعنى الكل، والضمير للمشركين، كما هو الظاهر من السياق؛ أي: كل المشركين، وقال بعضهم: الضمير للإنس، والأكثر على معناه؛ أي: أكثر الإنس،

(١) روح البيان.

وقيل: المعنى: أكثر المشركين بالجن، ﴿بِهِم﴾؛ أي: بالجن، وبقولهم الكذب: الملائكة بنات الله، ﴿مُّؤْمِنُونَ﴾؛ أي: مصدقون ومتابعون، ويغترون بما يلقون إليهم من أنهم يشفعون لهم، وعبارة أبي حيان هنا: وإذا هم قد عبدوا الجن.. فما وجه قولهم: أكثرهم بهم مؤمنون، ولم يقولوا جميعهم، وقد أخبروا أنهم كانوا يعبدون الجن؟

والجواب: أنهم لم يدَّعوا الإحاطة؛ إذ قد يكون في الكفار من لم يطلع عليهم الملائكة، أو أنهم حكموا على الأكثر بإيمانهم بالجن، لأن الإيمان من عمل القلب، فلم يذكروا الإطلاع على جميع أعمال قلوبهم؛ لأن ذلك لله تعالى. اهـ.

ومعنى الآية: أي واذكر أيها الرسول لقومك يوم يحشر ربك العابدين المستكبرين منهم، والمستضعفين مع المعبودين من الملائكة وغيرهم، ثم تسأل الملائكة: أأنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم، وهذا سؤال وجّه إلى الملائكة ظاهراً، والمراد منه: تقريع المشركين، وتيئيسهم مما علقوا عليه أطماعهم من شفاعتهم لهم، فهو وارد على نهج قوله تعالى لعيسى عليه السلام: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾، وقد علم سبحانه أن الملائكة وعيسى براء مما وجه إليهم من السؤال الوارد على طريق التقرير، ولكن جاء ليقول ويقولوا، ويسأل ويجيبوا، فيكون توبيخهم أشد، وتعييرهم أبلغ، وخجلهم أعظم. ﴿قَالُوا﴾؛ أي: قالت الملائكة: تعاليت ربنا وتقدست عن أن يكون معك إله، نحن عبيدك، نتبرأ إليك من هؤلاء، وأنت الذي نواليه دونهم، فلا موالاة بيننا وبينهم.

والخلاصة: أننا برآء من عبادتهم والرضا بهم، ثم بيَّن أنهم ما عبدوهم على الحقيقة بقوله: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾؛ أي: بل هم كانوا يعبدون الشياطين؛ لأنهم هم الذين زينوا لهم عبادة الأوثان، وأضلوهم، وأكثر المشركين مؤمنون بالجن، مصدقون لهم فيما يقولون؛ إذ كانوا يعبدون غير الله بوسوستهم، ويستغيثون بهم في قضاء حاجاتهم، كما هو مشهور لدى أرباب العزائم والسحرة.

ولما أبطل تمسكهم بهم بعد تقريعهم وتأنيبهم.. زادهم أسى وحسرة، فقال: ﴿فَالْيَوْمَ﴾؛ أي: يوم الحشر، والفاء: ليست لترتيب ما بعدها من الحكم على جواب

الملائكة، فإنه محقق، أجابوا بذلك أم لا، بل لترتيب الإخبار به عليه: اهـ «أبو السعود».

أي: فهي للترتيب الذكري، والأظهر كونها استئنافية. ﴿لَا يَمْلِكُ﴾؛ أي: لا يقدر. ﴿بَعْضُكُمْ﴾ يعني: المعبودين. ﴿لِبَعْضٍ﴾ يعني: العابدين، ﴿نَّفْعًا﴾ بالشفاعة وإدخال الجنة. ﴿وَلَا ضَرًّا﴾؛ أي: ضرراً بالتعذيب، أو دفع ضرر؛ إذ الأمر فيه كله لله؛ لأن الدار دار جزاء، ولا يجازي الخلق أحدٌ غير الله. قال في «الإرشاد»: تقييد هذا الحكم بذلك اليوم مع ثبوته على الإطلاق؛ لانعقاد رجائهم على تحقيق النفع يومئذ، وهذا الكلام من جملة ما يقال للملائكة عند جوابهم بالتنزه والتبري مما نسب إليهم الكفرة، يخاطبون على رؤوس الأشهاد إظهاراً لعجزهم، وقصورهم عند عبدتهم، وتنصيصاً على ما يوجب خيبة رجائهم بالكلية.

وقوله: ﴿وَنَقُولُ﴾ معطوف على قوله[1]: لا يملك؛ أي: واليوم نقول، ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أنفسهم بالكفر والتكذيب، فوضعوهما موضع الإيمان والتصديق، وقيل[2]: عطف على ﴿يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾، لا على ﴿يَمْلِكُ﴾ كما قيل؛ لأنه مما يقال يوم القيامة خطاباً للملائكة مترتباً على جوابهم المحكي، وهذا حكاية لرسول الله ﷺ لما سيقال للعبدة يومئذ، إثر حكاية ما سيقال للملائكة.

﴿ذُوقُوا۟﴾ وباشروا وادخلوا ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم﴾ في الدنيا ﴿بِهَا﴾؛ أي: بتلك النار، متعلق بقوله: ﴿تُكَذِّبُونَ﴾، وتصرون على القول بأنها غير كائنة، فقد وردتموها، وبطل ظنكم ودعواكم.

ومعنى الآية: أي فاليوم لا يقع لكم نفع ممن كنتم ترجون نفعه من الأوثان، والأنداد الذين ادخرتم عبادتهم لشدائدكم وكروبكم؛ لأن الأمر في ذلك اليوم لله الواحد القهار، لا يملك أحد فيه منفعةً لأحد، ولا مضرةً له، ونقول للمشركين تهكماً بهم: ذوقوا عذاب النار التي كنتم تكذبون بها في دنياكم، فها أنتم أولاء قد وردتموها، وسمعتم شهيقها وزفيرها، وليس الخُبْرُ كالخَبَرِ، ولا السماع كالمعانية، فعضوا بنان الندم أسى وحسرة على ما قدمتم في دنياكم، فجنيتم صابه وعلقمه في

---

(١) الفتوحات. (٢) روح البيان.

أخراكم.

فإن قلت[1]: وقع الموصول هنا وصفاً للمضاف إليه الذي هو النار، وفي السجدة وقع وصفاً للمضاف إليه الذي هو النار، وفي السجدة وقع وصفاً للمضاف الذي هو العذاب؛ حيث قال هناك: ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾، فما الفرق بين الموضعين؟

قلتُ: الفرق بينهما: أنهم ثمة كانوا ملابسين للعذاب، كما صرح به في النظم؛ حيث قال: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾، فوصف لهم ما لابسوه، وما هنا عند رؤيتهم النار عقب الحشر، فوصف لهم ما عاينوه، وكونه هنا وصفاً للمضاف على أن تأنيثه مكتسب تكلف. اهـ «شهاب».

الإعراب

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ﴾.

﴿وَقَالَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، وجملة ﴿كَفَرُواْ﴾ صلة الموصول، ﴿لَن نُّؤۡمِنَ﴾: ناصب وفعل مضارع منصوب بـ﴿لَن﴾، وفاعله ضمير يعود على الذين كفروا، أعني: المتكلمين ﴿بِهَٰذَا﴾: متعلق به، ﴿ٱلۡقُرۡءَانِ﴾، بدل منه، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿وَلَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿لا﴾: زائدة زيدت لتأكيد نفي ما قبلها، ﴿بِٱلَّذِي﴾: معطوف على قوله: ﴿بِهَٰذَا﴾. ﴿بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾: ظرف ومضاف إليه، متعلق بمحذوف وقع صلة الموصول. ﴿وَلَوۡ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لو﴾: شرطية ﴿تَرَىٰٓ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على محمد، أو على أيِّ مخاطب، ومفعول ﴿تَرَىٰٓ﴾، وجواب ﴿لو﴾ الشرطية محذوفان، تقديره: ولو ترى يا محمد حال الظالمين وقت وقوفهم عند ربهم.. لرأيت أمراً فظيعاً، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية مستأنفة.

﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ﴾.

---

(١) الشهاب.

﴿إِذِ﴾: ظرف لما مضى من الزمان ﴿الظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذِ﴾ الظرفية، ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾: متعلق بـ﴿مَوْقُوفُونَ﴾، ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ﴾: فعل وفاعل، ﴿إِلَىٰ بَعْضٍ﴾: متعلق بـ﴿يَرْجِعُ﴾، ﴿الْقَوْلَ﴾: مفعول ﴿يَرْجِعُ﴾؛ لأنه يتعدى كما مر، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ضمير ﴿مَوْقُوفُونَ﴾، ﴿يَقُولُ الَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مفسرة لـ﴿يَرْجِعُ﴾، فلا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿اسْتُضْعِفُوا﴾ من الفعل ونائب فاعله صلة الموصول، ﴿لِلَّذِينَ﴾: متعلق بـ﴿يَقُولُ﴾، ﴿اسْتَكْبَرُوا﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، ﴿لَوْلَا﴾: حرف امتناع لوجود ﴿أَنتُمْ﴾: مبتدأ والخبر محذوف وجوباً، تقديره: موجودون ﴿لَكُنَّا﴾ ﴿اللام﴾: رابطة لجواب ﴿لَوْلَا﴾ ﴿كنا﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿مُؤْمِنِينَ﴾: خبره، وجملة ﴿كان﴾: جواب ﴿لَوْلَا﴾، لا محل لها من الإعراب؛ لأنها جواب شرط غير جازم.

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿قَالَ الَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، استئنافاً بيانا، ﴿اسْتَكْبَرُوا﴾: فعل وفاعل، والجملة صلة الموصول ﴿لِلَّذِينَ﴾ متعلق بـ﴿قَالَ﴾، ﴿اسْتُضْعِفُوا﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة صلة الموصول، ﴿أَنَحْنُ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، ﴿نَحْنُ﴾: مبتدأ، ﴿صَدَدْنَاكُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، ﴿عَنِ الْهُدَىٰ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿بَعْدَ﴾: منصوب على الظرفية الزمانية، والظرف متعلق بمحذوف حال من ﴿الْهُدَىٰ﴾ ﴿بَعْدَ﴾: مضاف توسعاً في الظروف، ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، في محل الجر مضاف إليه مبني على السكون، وقيل: ﴿إِذْ﴾ هنا بمعنى: أن المصدرية، وهو مفهوم تفيسر الزمخشري. ﴿جَاءَكُم﴾: فعل ومفعول وفاعل مستتر يعود على ﴿الْهُدَىٰ﴾، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾ ﴿بَلْ﴾: حرف إضراب للإضراب الإبطالي، ﴿كُنتُم﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿مُّجْرِمِينَ﴾: خبره، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ﴾ المذكور أولاً، وجملة ﴿ٱسْتُضْعِفُواْ﴾ صلة الموصول، ﴿لِلَّذِينَ﴾: متعلق بـ﴿قَالَ﴾، ﴿ٱسْتَكْبَرُواْ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، ﴿بَلْ﴾: حرف إضراب، ﴿مَكْرُ ٱلَّيْلِ﴾: مبتدأ، خبره محذوف، ﴿وَٱلنَّهَارِ﴾: معطوف على ﴿ٱلَّيْلِ﴾، والتقدير: مكر الليل والنهار صدنا، أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره: سبب كفرنا مكر الليل والنهار؛ أي: مكركم في الليل والنهار، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، متعلق بـ﴿مَكْرُ ٱلَّيْلِ﴾، ﴿تَأْمُرُونَنَآ﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾، ﴿أَن نَّكْفُرَ﴾ ناصب ومنصوب وفاعل مستتر، ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق به، وجملة ﴿أَن﴾ المصدرية مع مدخولها في تأويل مصدر مجرور بحرف جر، محذوف متعلق بـ﴿تَأْمُرُونَنَآ﴾، تقديره: إذ تأمروننا بكفرنا بالله سبحانه، ﴿وَنَجْعَلَ﴾: معطوف على ﴿نَّكْفُرَ﴾، ﴿لَهُۥٓ﴾ حال من ﴿أَندَادًا﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها، ﴿أَندَادًا﴾: مفعول ﴿نجعل﴾، ويجوز أن يكون الجار والمجرور في محل المفعول الثاني و﴿أَندَادًا﴾ مفعول أول.

﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَأَسَرُّواْ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، أو حالية، ﴿أسروا الندامة﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة مستأنفة، أو حال من ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ﴾ و﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ﴾، ﴿لَمَّا﴾: ظرف بمعنى: حين، متعلق بـ﴿أسروا﴾، ﴿رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿لَمَّا﴾، ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، ﴿فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿جعلنا﴾ على كونه مفعولاً ثانياً له، وجملة ﴿كَفَرُواْ﴾ صلة الموصول، ﴿هَلْ﴾: حرف استفهام للاستفهام الإنكاري، ﴿يُجْزَوْنَ﴾: فعل مضارع ونائب فاعل، ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر واستثناء مفرغ، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ثانٍ لـ﴿يُجْزَوْنَ﴾، والجملة الفعلية جملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب، ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَعْمَلُونَ﴾ خبره، وجملة ﴿كان﴾ صلة الموصول، لا محل لها من الإعراب.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٣٤ وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ٣٥ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٦﴾.

﴿وَمَآ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿ما﴾: نافية، ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿فِي قَرۡيَةٖ﴾: متعلق بـ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾، ﴿مِّن﴾: زائدة، ﴿نَّذِيرٍ﴾: مفعول به، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿قَالَ مُتۡرَفُوهَآ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب حال من ﴿قَرۡيَةٖ﴾، وسوَّغ مجيء الحال من النكرة: وقوعها في معرض النفي ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿بِمَآ﴾: متعلق بـ﴿كَٰفِرُونَ﴾، ﴿أُرۡسِلۡتُم﴾: فعل مغير الصيغة، ونائب فاعل، والجملة صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿أُرۡسِلۡتُم﴾، وهو العائد على ﴿ما﴾ الموصولة، ﴿كَٰفِرُونَ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قال﴾، ﴿وَقَالُواْ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿قَالَ مُتۡرَفُوهَآ﴾، ﴿نَحۡنُ أَكۡثَرُ﴾: مبتدأ وخبر، ﴿أَمۡوَٰلٗا﴾: تمييز محول عن المتبدأ، منصوب باسم التفضيل، ﴿وَأَوۡلَٰدٗا﴾: معطوف على ﴿أَمۡوَٰلٗا﴾، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿وَمَا﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ما﴾: حجازية، ﴿نَحۡنُ﴾: اسمها ﴿بِمُعَذَّبِينَ﴾: خبرها، والباء زائدة، وجملة ﴿مَا﴾ معطوفة على الجملة التي قبلها، ﴿قُلۡ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة مستأنفة، ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ﴿رَبِّي﴾: اسم ﴿إنّ﴾، ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، ﴿لِمَن﴾: متعلق بـ﴿يَبۡسُطُ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قُلۡ﴾، وجملة ﴿يَشَآءُ﴾ صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: لمن يشاء البسط له، وجملة ﴿وَيَقۡدِرُ﴾ معطوف على جملة ﴿يَبۡسُطُ﴾، ﴿وَلَٰكِنَّ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، أو حالية، ﴿لكن﴾: حرف نصب واستدراك، ﴿أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾: اسمها، وجملة ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ خبرها، والجملة الاستدراكية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾ على كونها مقولاً لـ﴿قُلۡ﴾ أو حال من فاعل ﴿يَبۡسُطُ﴾، والرابط محذوف تقديره: ولكن أكثر الناس لا يعلمون حكمة بسطه وقبضه.

﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ٣٧﴾.

﴿وَمَآ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿ما﴾: حجازية، ﴿أَمْوَٰلُكُمْ﴾: اسمها، ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُكُم﴾: معطوف على﴿أَمْوَٰلُكُمْ﴾، ﴿بِٱلَّتِى﴾: الباء: زائدة، ﴿التي﴾: اسم موصول في محل النصب خبر ﴿مَا﴾ الحجازية، والجملة مستأنفة ﴿تُقَرِّبُكُمْ﴾: فعل مضارع ومفعول به، وفاعل مستتر يعود على الموصول، والجملة صلة الموصول، ﴿عِندَنَا﴾: متعلق بمحذوف حال من ﴿زُلْفَىٰٓ﴾. و﴿زُلْفَىٰٓ﴾: مفعول مطلق معنوي منصوب بـ﴿تُقَرِّبُكُمْ﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء منقطع، لأن الخطاب للكفار، و﴿مَنْ ءَامَنَ﴾: ليس منتظماً في سلكهم، ﴿مَنْ﴾: اسم موصول، في محل النصب على الاستثناء، ويجوز أن يعرب ﴿مَنْ﴾: مبتدأ، وما بعده الخبر؛ لأن الاستثناء منقطع، وإلا بمعنى: لكن، ﴿ءَامَنَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعل مستتر، والجملة صلة الموصول، ﴿وَعَمِلَ﴾: معطوف على ﴿ءَامَنَ﴾، ﴿صَٰلِحًا﴾: مفعول به، أو مفعول مطلق؛ أي: عملاً صالحاً، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: ﴿الفاء﴾: تعليلية إن قلنا: إن ﴿مَنْ﴾ منصوب على الاستثناء، ﴿أولئك﴾: مبتدأ أول، ﴿لَهُمْ﴾: خبر مقدم، ﴿جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ﴾: مبتدأ ثان مؤخر، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره في محل الرفع خبر للأول، وجملة الأول مع خبره في محل الجر بلام التعليل المقدرة المدلول عليها بالفاء التعليلية؛ أي: وإنما استثنينا من آمن لكون جزاء الضعف لهم، وإن قلنا: إن ﴿إلا﴾ بمعنى: لكن فـ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾: مبتدأ أول، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ ثانٍ، ﴿والفاء﴾: رابطة الخبر بالمبتدأ لما في المبتدأ من معنى الشرط، ﴿بِمَا﴾ متعلق بجزاء، و﴿ما﴾: مصدرية أو موصولة، وجملة ﴿عَمِلُواْ﴾ صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف، تقديره: بما عملوه، أو صلة لـ﴿ما﴾ المصدرية، ﴿وَهُمْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿هم﴾: مبتدأ، ﴿فِى ٱلْغُرُفَٰتِ﴾: متعلق بـ﴿ءَامِنُونَ﴾، و﴿ءَامِنُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة معطوفة على جملة قوله: لهم جزاء الضعف.

﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ أول، ﴿يَسْعَوْنَ﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، ﴿فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾: متعلق بـ﴿يَسْعَوْنَ﴾، ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾: حال من فاعل ﴿يَسْعَوْنَ﴾، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ ثانٍ، ﴿فِى ٱلْعَذَابِ﴾ متعلق بـ﴿مُحْضَرُونَ﴾،

و﴿مُحۡضَرُونَ﴾ خبر للمبتدأ الثاني، وجملة المبتدأ الثاني وخبره في محل الرفع خبر الأول، وجملة الأول مستأنفة. ﴿قُلۡ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة مستأنفة، ﴿إِنَّ رَبِّي﴾: ناصب واسمه، ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قُلۡ﴾ ﴿لِمَن﴾: متعلق بـ﴿يَبۡسُطُ﴾، وجملة ﴿يَشَآءُ﴾ صلة ﴿مَنۡ﴾ الموصولة، ﴿مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾: حال من العائد المحذوف، ﴿وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓ﴾: معطوف على ﴿يَبۡسُطُ﴾، ﴿وَمَآ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿ما﴾: اسم شرط جازم في محل النصب مفعول مقدم لـ﴿أَنفَقۡتُم﴾، أو موصولة في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة قوله: ﴿فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥ﴾، كما أشرنا إليه في مبحث التفسير، ﴿أَنفَقۡتُم﴾: فعل وفاعل، في محل الجزم بـ﴿ما﴾ على كونه فعل شرط لها، ﴿مِّن شَيۡءٖ﴾: حال من ﴿مَا﴾ الشرطية، أو من العائد المحذوف إن كانت موصولة، ﴿فَهُوَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿ما﴾ الشرطية إن كانت شرطية، أو رابطة الخبر بالمبتدأ إن كانت موصولة، ﴿هو﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يُخۡلِفُهُۥ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿ما﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿ما﴾ الشرطية مستأنفة، أو الجملة في محل الرفع خبر ﴿ما﴾ الموصولة، ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾: مبتدأ وخبر ومضاف إليه، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٤٠ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ٤١﴾.

﴿وَيَوۡمَ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿يوم﴾: منصوب على الظرفية، متعلق بمحذوف تقديره: واذكر يوم يحشرهم، ﴿يَحۡشُرُهُمۡ﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على الله، ومفعول به، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿يوم﴾، والجملة المحذوفة مستأنفة، ﴿جَمِيعٗا﴾: حال من مفعول ﴿يَحۡشُرُهُمۡ﴾، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب، ﴿يَقُولُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، معطوف على ﴿يحشر﴾، ﴿لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾: متعلق بـ﴿يَقُولُ﴾، ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التوبيخي، ﴿هؤلاء﴾: مبتدأ، ﴿إِيَّاكُمۡ﴾: مفعول به مقدم لـ﴿يَعۡبُدُونَ﴾، ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿يَعۡبُدُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿كان﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية جملة إنشائية، لا محل لها من الإعراب، ﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة،

﴿سُبْحَٰنَكَ﴾: منصوب على المفعولية المطلقة بفعل محذوف، وجملة ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾، ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾، ﴿مِن دُونِهِم﴾: حال من ضمير المتكلمين في ﴿وَلِيُّنَا﴾؛ أي: حالة كوننا مجاوزين إياهم، ﴿بَلْ﴾: حرف إضراب، ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾، ﴿أَكْثَرُهُم﴾: مبتدأ، ﴿بِهِم﴾: متعلق بما بعده، ﴿مُّؤْمِنُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾ أيضاً.

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿فَٱلْيَوْمَ﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية، ﴿اليوم﴾: ظرف متعلق بـ﴿يَمْلِكُ﴾، ﴿لاَ﴾: نافية، ﴿يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿لِبَعْضٍ﴾: متعلق بـ﴿نَّفْعًا﴾، و﴿نَّفْعًا﴾: مفعول به، ﴿وَلَا ضَرًّا﴾: معطوف على ﴿نَّفْعًا﴾، ﴿وَنَقُولُ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿نقول﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، معطوف على ﴿لَا يَمْلِكُ﴾، وقيل: معطوف على قوله: ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ كما مرَّ في مبحث التفسير، ﴿لِلَّذِينَ﴾: متعلق بـ﴿نقول﴾، ﴿ظَلَمُوا۟﴾: صلة الموصول، ﴿ذُوقُوا۟﴾: فعل وفاعل، ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب، مقول ﴿نقول﴾، ﴿ٱلَّتِى﴾: صفة لـ﴿ٱلنَّارِ﴾، ﴿كُنتُم﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿بِهَا﴾: متعلق بـ﴿تُكَذِّبُونَ﴾، وجملة ﴿تُكَذِّبُونَ﴾: خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ صلة الموصول.

التصريف ومفردات اللغة

﴿مَّوْقُوفُونَ﴾؛ أي: محبوسون في موقف الحساب، جمع: موقوف، اسم مفعول من وقف الثلاثي المتعدي، وفي «المصباح»: وقفت الدابة تقف وقفاً ووقوفاً: سكنت ووقفتها أنا يتعدى، ولا يتعدى، ووقفت الرجل عن الشيء وقفاً: منعته عنه، اهـ، وبابه: وعد، كما في «المختار».

﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾؛ أي: عدوا ضعفاء، وقهروا، واستفعل هنا بمعنى: الفعل المجرد، وفي ﴿ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ للمبالغة في معنى الثلاثي؛ أي: بالغوا في

الكبر والتعظم عن عبادة الله سبحانه وتعالى.

﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ المكر: صرف الغير عما يقصده بحيلة. اهـ «روح». والحيلة: ما يتوصل به إلى المقصود بطريق خفي. اهـ «قسطلاني».

﴿أَندَادًا﴾ جمع: ند، كأضداد جمع ضد، والند: المثل والشبه.

﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾ الندامة: التحسر في أمر فائت.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ﴾ جمع غل، قال القهستاني: الغل: الطوق من حديد، الجامع لليد إلى العنق، المانع عن تحرك الرأس. انتهى، وهو معتاد بين الظلمة، قال الفقيه: إنه في زماننا جرت العادة بذلك، إذا خيف من الإباق، كما في الكبرى، ولا يكره أن يجعل قيداً في رجل عبده؛ لأنه سنة المسلمين في السفهاء، وأهل الفساد، فلا يكره في العبد؛ إذ فيه تحرز من إباقه وصيانة لماله، وحل ربطه بالحبل ونحوه. اهـ من «روح البيان».

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ﴾ قال في «كشف الأسرار»: القرية: المصر تقري أهلها وتجمعهم، كما سبق. اهـ.

﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾ المترف: كمكرم: المتنعم والموسع العيش والنعمة، من الترفة بالضم، وهو التوسع في النعمة يقال: أترفه: نعمه، وأترفته النعمة: أطغته..

﴿تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ الزلفى: مصدر من معنى العامل؛ إذ التقدير: تقربكم قربى، والزلفى والزلفة، والقربى والقربة بمعنى واحد. وقال الأخفش: زلفى: اسم مصدر، كأنه قال: بالتي تقربكم عندنا تقريباً، وقرأ الضحاك: ﴿زلفا﴾ بضم الزاي وفتح اللام على أنها جمع زلفة كقربة وقرب جمع المصدر، لاختلاف أنواعه. اهـ «سمين».

﴿جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ﴾ مصدر مضاف إلى مفعوله؛ أي: أن يجازيهم الله الضعف، أو من إضافة الموصوف إلى صفته؛ أي: لهم الجزاء المضاعف. ﴿فِى ٱلْغُرُفَٰتِ﴾ جمع غرفة، وهي البيت فوق البناء، يعني: كل بناء يكون علواً فوق سفل.

﴿يَسْعَوْنَ﴾ من سعى إذا جد واجتهد في الشيء.

﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ من المعاجزة، والمفاعلة ليست على بابها؛ أي: ظانين ومعتقدين

عجزنا عن أخذهم.

﴿مُحْضَرُونَ﴾ اسم مفعول من الإحضار.

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ﴾ يقال: نفق الشيء مضى ونفد؛ إما بالبيع نحو نفق البيع نفاقاً، وإما بالموت نحو نفقت الدابة نفوقاً، وإما بالغناء نحو نفقت الدراهم تنفق وأنفقتها.

﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ يقال: أخلف الله له وعليه: إذا أبدل له ما ذهب عنه. ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ وأورد على هذا وعلى نظائره ابن عبد السلام في أماليه، كما نقله السيوطي في شرح السنن: أنه لا بد من مشاركة المفضل للمفضل عليه في أصل الفعل حقيقةً لا صورة.

وأجيب بأن الرازقين بمعنى الموصلين للرزق والواهبين له بجعله حقيقة في هذا، كما صرح به الراغب؛ حيث قال: الرزق: العطاء الجاري، والرازق يقال لخالق الرزق ومعطيه، فيقال رازق لغيره تعالى، ولا يقال لغير الله تعالى رزاق، ولا حاجة إلى ما قيل من أنه من عموم المجاز، أو من استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه. اهـ «شهاب».

فائدة: وفي «التأويلات النجمية»: يشير إلى أنه خير المنفقين؛ لأن خيرية المنفق بقدر خيرية النفقة، فما ينفق كل منفق في النفقة.. فهو فانٍ، وما ينفق الله من نفقة ليخلفه بها فهي باقية، والباقيات خير من الفانيات انتهى.

قال في «بحر العلوم»: لما كان إقامة مصالح العباد من أجل الطاعات وأشرف العبادات؛ لأنها من وظيفة الأنبياء والصالحين.. دلهم الله سبحانه في الآية على طرف منها حثاً عليها، كما قال ﷺ، حثاً لأمته عليها: «الخلق كلهم عيال الله، وأحبّهم إليه أنفعهم لعياله، قال العسكري: هذا على التوسع والمجاز، كأن الله تعالى لما كان المتضمِّن لأرزاق العباد والكافل بها.. كان الخلق كالعيال له.

وفي الحديث: «إن لله أملاكاً خلقهم كيف يشاء، وصورهم على ما يشاء تحت عرشه، ألهمهم أن ينادوا قبل طلوع الشمس وقبل غروبها في كل يوم مرتين: ألا من وسع على عياله وجيرانه.. وسع الله عليه في الدنيا والآخرة، ألا من ضيَّق.. ضيق الله عليه، ألا إن الله قد أعطاكم لنفقة درهم على عيالكم خير من سبعين قنطاراً

ـ والقنطار كجبل أحد وزناً ـ أنفقوا ولا تخشوا ولا تضيقوا ولا تقتروا وليكن أكثر نفقتكم يوم الجمعة».

وفي الحديث: «كل معروف صدقة، وكل ما أنفق الرجل على نفسه وأهله كتب له به صدقة، وما وقى به الرجل عرضه كتب له به صدقة»، ومعنى كل معروف صدقة: أن الإنفاق لا ينحصر في المال، بل يتناول كل بر من الأموال والأقوال والأفعال والعلوم والمعارف، وإنفاق العلوم والمعارف أفضل وأشرف؛ لأن نفع الأموال للأجساد، ونفع العلوم والمعارف للقلوب والأرواح، ومعنى ما وقي به عرضه: ما أعطى الشاعر وذا اللسان المتقىٰ.

وفي الحديث: «ينادي مناد كل ليلة: لا دواء للموت، وينادي آخر: ابنوا للخراب، وينادي منادٍ: هب للمنفق خلفاً وينادي مناد: هب للممسك تلفاً».

وفي الحديث: «يؤجر ابن آدم في نفقته كلها إلا شيئاً وضعه في الماء والطين» قال القنوي، في شرح هذا الحديث؛ وهذا الحديث ـ وإن كان من حيث الصيغة مطلقاً ـ فالأحوال والقرائن تخصصه، وذلك أن بناء المساجد في الرباطات ومواضع العبادات يؤجر الباني لها عليها بلا خلاف، فالمراد بالمذكور هنا إنما هو البناء الذي لم يقصد صاحبه إلا التنزه والانفساح والاستراحة والرياء والسمعة، وإذا كان كذلك فمطمح همة الباني ومقصده لا يتجاوز هذا العالم، فلا يكون لبنائه ثمرة، ولا نتيجة في الآخرة؛ لأنه لم يقصد بما فعله أمراً وراء هذه الدار، فأفعاله أعراض زائلة لا موجب لتعدِّيها من هنا إلى الآخرة، فلا إثمار لها، فلا أجر. انتهى.

﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾: مضاف لمفعوله؛ أي: متولي أمورنا، والولي: خلاف العدو.

﴿ذُوقُوا۟﴾ الذوق في الأصل، وإن كان فيما يقل تناوله كالأكل، لا فيما يكثر تناوله، إلا أنه مستصلح للكثير، كما هنا.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ لأنه حذف فيه

جواب لو الشرطية.

ومنها: الإجمال في قوله: ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ﴾، ثم التفسير في قوله: ﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ إلى آخره.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ﴾؛ أي: لم نصدّكم.

ومنها: الطباق بين ﴿اسْتُضْعِفُوا﴾، و﴿اسْتَكْبَرُوا﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾؛ لأن الإجرام حقيقة في قطع الأجسام، ثم استعير لاكتساب كل مكروه وسوء.

ومنها: التعبير عما في المستقبل بلفظ الماضي في قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ إشارةً إلى تحقق وقوعه.

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ لما فيه من إسناد ما للفاعل إلى ظرفه، نحو: نهاره صائم، وليله قائم، وليل ماكر.

ومنها: التعبير بالماضي عما في المستقبل في قوله: ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ﴾، وفي قوله: ﴿وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ﴾ إشارةً إلى تحقق وقوعه؛ لأن المعنى: ونجعل الأغلال يوم القيامة في أعناق الذين كفروا.

ومنها: الإظهار في موضع الإضمار في قوله: ﴿فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ حيث لم يقل في أعناقهم؛ للتنويه بذمهم، والتنبيه على موجب أغلالهم.

ومنها: المجاز المرسل في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ﴾؛ أي: في أهل قرية.

ومنها: مقابلة الجمع بالجمع في قوله: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾.

ومنها: الطباق بين ﴿يَبْسُطُ وَيَقْدِرُ﴾.

ومنها: الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم﴾ مبالغة في تحقيق الحق وتقرير ما سبق، وكان مقتضى السياق: وما أموالهم... إلخ.

ومنها: المقابلة بين عاقبة الأبرار والفجار في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ

صَٰلِحًا﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾.

ومنها: التكرار لغرض التأكيد على ما قيل في قوله: ﴿إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ الخ.

ومنها: أسلوب التقريع والتوبيخ في قوله: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ الخطاب للملائكة تقريعاً للمشركين.

ومنها: تقديم المفعول على عامله في قوله: ﴿إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ لرعاية الفاصلة، ولأنه أبلغ في الخطاب، ولو أتى بالضمير متصلاً كان التركيب يعبدونكم، ولم تكن فاصلة.

ومنها: الإضافة للتشريف قوله: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾.

ومنها: الطباق بين ﴿نَّفْعًا﴾، و﴿ضَرًّا﴾ في قوله: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾.

ومنها: التهكم في قوله: ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

ومنها: الإيجاز بالحذف لدلالة السياق عليه في قوله: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ حذف خبر الأول لدلالة الثاني عليه، أي: ما أموالكم بالتي تقربكم، ولا أولادكم بالذين يقربونكم عندنا.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر أن المشركين هم أهل النار يوم القيامة، وأنه يقال لهم يومئذ: ذوقوا عذابها الذي كنتم به تكذبون.. أعقب ذلك بذكر ما لأجله استحقوا هذا العذاب، وهو صدهم عن دعوة رسول الله ﷺ بقولهم في القرآن: إنه إفك مفترى، وأنه سحر واضح لا شك فيه، وقد كان فيما حل بالأمم قبلهم مزدجر لهم لو أرادوا، فقد بلغوا من القوة ما بلغوا، وحين أرسل إليهم الرسل كذبوهم، فأخذوا أخذ عزيز مقتدر، ثم أنذرهم سوء عاقبة ما هم فيه، وأوصاهم، بأن يشمروا عن ساعد الجد طلباً للحق، متفرقين اثنين اثنين، وواحداً واحداً، ثم يتفكروا ليعلموا أن صاحبهم ليس بالمجنون، بل هو نذير لهم يخوفهم بأس الله وعذابه الشديد يوم القيامة، وقد كان لهم من حاله ما يرغبهم في دعوته، فهو لا يطلب منهم أجراً، ولا يريد منهم جزاء، وإنما مثوبته عند ربه المطلع على كل شيء، ثم أبان لهم أن الحق قد وضح، وجاءت أعلام الشريعة. كفلق الصبح نوراً وضياءً، ولا

بقاء للباطل، ولا قرار له إذا ظهر نور الحق: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه، لما أبطل شبههم، ورد عليهم بما لم يبقَ بعده مستزاد لمستزيد.. هددهم بشديد العقاب إن هم أصروا على عنادهم واستكبارهم، ثم ذكر أنهم حين معاينة العذاب يقولون: آمنا بالرسول، وأنى لهم ذلك، وقد فات الأوان، وقد كان ذلك في مكنتهم في دار الدنيا لو أرادوا، أما الآن فإن ذلك لا يجديهم فتيلاً ولا قطميراً من جراء ما كانوا فيه من شك مريب في الحياة الأولى، وتلك سنة الله في أشباههم من قبل.

التفسير وأوجه القراءة

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ﴾؛ أي: وإذا قرئت بلسان رسولنا محمد ﷺ. ﴿عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على مشركي مكة. ﴿ءَايَٰتُنَا﴾ القرآنية الناطقة بحقيقة التوحيد وبطلان الشرك حالة كونها، ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾؛ أي: واضحات الدلالات، ظاهرات المعاني ﴿قَالُوا۟﴾؛ أي: قال كفار مكة مشيرين إلى النبي ﷺ: ﴿مَا هَٰذَا﴾ التالي لها ﴿إِلَّا رَجُلٌ﴾ حقير لا يعبأ بكلامه، تنكيره للتهكم والتلهي، وإلا فرسول الله ﷺ كان علماً مشهوراً بينهم. ﴿يُرِيدُ﴾ ويقصد ﴿أَن يَصُدَّكُمْ﴾ ويمنعكم ويصرفكم ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ وأسلافكم من الأصنام منذ أزمنة متطاولة، فيستتبعكم بما يستبدعه من غير أن يكون هناك دين إلهي، وإضافة[1] الآباء إلى المخاطبين لا إلى أنفسهم لتحريك عرق العصبية منهم مبالغةً في تقريرهم على الشرك، وتنفيرهم عن التوحيد.

والمعنى[2]: وإذا تتلى على المشركين آيات الكتاب الكريم دالة على التوحيد وبطلان الشرك.. قالوا: إن هذا الرجل يريد أن يلفتكم عن الدين الحق دين الآباء والأجداد، ليجعلكم من أتباعه دون أن يكون له حجة على ما يدَّعي، وبرهان يدل على صحة ما يسلك من سبيل، ثم زادوا إنكارهم توكيداً، وأيأسوا الرسول من الطمع في إيمانهم ﴿وَقَالُوا۟﴾ ثانياً: ﴿مَا هَٰذَآ﴾ القرآن الذي يدعي محمد أنه وحي من

---

(١) روح البيان.
(٢) المراغي.

عند ربه ﴿إِلَّآ إِفْكٌ﴾؛ أي: كذب محض، وكلام مصروف عن وجهه لعدم مطابقة ما فيه من التوحيد والبعث الواقع ﴿مُّفْتَرًى﴾؛ أي: مختلف من عند نفسه وقد نسبه إلى ربه ترويجاً للدعوة، واجتلاباً لقلوب الكافة، والافتراء: الكذب عمداً، قالوه عناداً ومكابرةً، وإلا فقد قال كبيرهم عتبة بن ربيعة: واللّٰهِ ما هو شعر ولا كهانة ولا سحر.

ثم شددوا في الإنكار، فجعلوه سحراً بيّناً لا شك فيه عندهم، كما حكي عنهم بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ثالثاً: ﴿لِلْحَقِّ﴾؛ أي: للقرآن؛ أي: في شأنه على أن العطف لاختلاف العنوان، بأن يراد بالأول وهو قولهم: ﴿إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ معناه، وبالثاني وهو قولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ نظمه المعجز، وقيل: إن طائفة منهم قالوا: إنه إفك، وطائفة قالوا: إنه سحر، وقيل: المراد بالحق هنا: التوحيد، وأمور الإسلام، وقيل: المراد بالذين كفروا المذكور أولاً: جميع الكفار؛ لأن إنكار القرآن والمعجزة كان متفقاً عليه بين أهل الكتاب والمشركين، وبالثاني المشركون؛ لأنهم أنكروا التوحيد على القول بأن المراد بالحق: التوحيد؛ أي: وقال الذين كفروا للحق والقرآن ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾؛ أي: حينما جاءهم من الله تعالى، ومعنى التوقع في ﴿لَمَّا﴾: أنهم كذبوا به وجحدوه على البديهة ساعة أتاهم، وأول ما سمعوه قبل التدبر والتأمل. ﴿إِنْ﴾ بمعنى ما النافية؛ أي ما ﴿هَٰذَآ﴾ القرآن ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾؛ أي: خيال ظاهر سحريته لا شبهة فيه.

والمعنى على القول: بأن المراد بالحق التوحيد والشرائع؛ أي[1]: وقال المشركون لما جاء به النبي ﷺ من عند ربه مشتملاً على الهدى والشرائع التي وجهتهم في حياتهم الاجتماعية ونظم المعيشة وجهة جديدة، تكون بها سعادتهم في معاشهم ومعادهم، وغيّرت الطريق التي ورثوها عن الآباء والأجداد: ما هذا إلا سحر مبين لا خفاء فيه عندنا، وقد أعمى أبصارنا، وأضلَّ أحلامنا، فلم نستطع أن ندفعه بكل سبيل، ولا يزال يلج القلوب ويقتحمها، ويداخل النفوس ويستحوذ عليها، ونحن في حيرة لا نجد طريقاً للتغلب عليه بالوسائل التي نعرفها، وهي بين أيدينا.

---

(١) المراغي.

والخلاصة: أنهم نفوا أن يكون وحياً من عند ربه، وجعلوه إما كلاماً مفترى جاء به لترويج دعوته، وإما سحراً فعله ليخلب به العقل، ويصد الناس عن الدين الحق الذي ورثوه من الآباء والأجداد.

فرد الله سبحانه عليهم منكراً دعواهم أن دينهم هو الدين الحق، بقوله: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم﴾؛ أي: مشركي العرب. ﴿مِّن كُتُبٍ﴾؛ أي: كتباً، فإن ﴿مِن﴾ الاستغراقية داخلة على المفعول للتأكيد؛ أي: وما أعطينا كفار مكة كتباً دالةً على صحة الإشراك ﴿يَدْرُسُونَهَا﴾؛ أي: يقرؤونها، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾﴾، وقوله: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾﴾، وفي إيراد الكتب بصيغة الجمع تنبيه على أنه لا بد لمثل تلك من نظائر الأدلة. والدرس: قراءة الكتاب مع التدبر فيه، كما سيأتي في مبحث اللغة، وقرأ الجمهور: ﴿يدرسونها﴾ مضارع درس الثلاثي من باب نصر، وقرأ أبو حيوة: بفتح الدال وشدها وكسر الراء مضارع ادرس افتعل من الدرس، ومعناه: يتدارسونها، وعن أبي حيوة أيضاً: يدرسونها من التدريس، وهو تكرير الدرس، ذكره أبو حيان. ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ﴾؛ أي: إلى مشركي مكة ﴿قَبْلَكَ﴾ يا محمد ﴿مِّن نَّذِيرٍ﴾؛ أي: رسول يدعوهم إلى الإشراك، وينذرهم بالعقاب إن لم يشركوا.

وإذا انتفت الكتب الدالة على الإشراك[1]، والرسول الجائي به، فمن أين لهم هذه الشبهة، وهذا في غاية تجهيلهم وتسفيه رأيهم، اهـ «بيضاوي». فالمنفي إنما هو وصف الكتب المذكورة، ووصف النذير المذكور لا أصل الكتب، ولا أصل إرسال الرسول.

وهناك تفيسر آخر ذكره الشهاب حاصله[2]: أن المنفي أصل الكتب، وأصل إرسال الرسل، وذلك لأن العرب كانوا في فترة؛ إذ لم يبعث لهم نبي بعد إسماعيل، وقد انقضت رسالته بموته.

وحاصل المعنى على هذا: أنه لا عذر لهم في الشرك، ولا في عدم تصديقك، بخلاف أهل الكتاب، فإن لهم نوع عذر؛ لأن لهم ديناً وكتاباً، فيشق

---

(١) بيضاوي. (٢) الشهاب.

عليهم تركهما، ويحتجون على عدم المتابعة بأن نبيهم حذرهم ترك دينهم، وإن كان هذا احتجاجاً باطلاً اهـ. شيخنا.

ومعنى الآية: أي إن الدين الصحيح إنما يأتي بوحي من عند الله، وبكتاب ينزل على الرسول، ليبلِّغه للناس، ويبين لهم فيه ما جاء به من الشرائع والآداب والفضائل التي تكون بها سعادتهم في دنياهم وآخرتهم، وهم أمة أمية لم يأتهم كتاب قبل القرآن، ولم يبعث إليهم رسول قبل محمد، فمن أين أتاهم أن الدين الحق هو الذي يرشد إلى صحة الإشراك بالله، وينفي توحيد الخالق، حتى يكون لهم معذرة فيما يدعون، وحجة على صحة ما يعتقدون، ولا يخفى ما في هذا من التهكم بهم، والتجهيل لهم.

وبعد أن بشر وأنذر وأبان بالحجة والبرهان ما كان فيه المقنع لهم - لو كانوايعقلون - سلك بهم سبيل التهديد والوعيد، وضرب لهم المثل بالأمم التي كانت قبلهم وسلكت سبيلهم، ولم تجدها الآيات والنذر، فحل بها بأس الله، وأتاها العذاب من حيث لا تحتسب، فقال: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾؛ أي: من قبل كفار مكة من كفار الأمم الماضية، والقرون المتقدمة، كما كذبك قومك من قريش. ﴿وَمَا بَلَغُواْ﴾؛ أي: وما بلغ كفار مكة، وما وصلوا ﴿مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾؛ أي: عشر ما أعطينا أولئك المتقدمين من قوة الأجسام، وكثرة الأموال والأولاد، وطول الأعمال، فأهلكهم الله تعالى كعاد وثمود، فالمعشار: بمعنى العشر، كالمرباع بمعنى: الربع، وقيل: الضمير في ﴿بَلَغُواْ﴾ لكفار الأمم الماضية، والمعنى عليه: وما بلغ أولئك المتقدمون عشر ما آتينا هؤلاء المكذبين لك من البينات والهدى، والأول أولى، وقيل: إن المعنى: ما بلغ من قبلهم معشار ما آتينا هؤلاء من البينات والهدى والعلم والحجة والبرهان؛ أي: وما بلغ الذين من قبلهم من الأمم معشار ما أعطينا قوم محمد ﷺ من البيان والبرهان، فإن محمداً أفضل من جميع الرسل وأفصح، وبرهانه أوفى، وبيانه أشفى، وكتابه أكمل من سائر الكتب وأوضح، ثم إن المتقدمين لما كذَّبوا الكتب والرسل. . أنكر عليهم، وكيف لا أنكر على هؤلاء الأمة، وقد كذبوا بأفصح الرسل وأوضح السبل. اهـ «المراح». ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ﴾ معطوف على ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ على طريق التفسير والتفصيل، كقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا﴾ إلخ، وما بينهما حال، أو اعتراض، اهـ «أبو

السعود». وعبارة «البيضاوي»: ولا تكرير؛ لأن الأول للتكثير، والثاني: للتكذيب. انتهت.

وعبارة «الشوكاني»: والأولى أن يكون من عطف الخاص على العام؛ لأن التكذيب الأول لما حذف منه المتعلق للتكذيب.. أفاد العموم، فمعناه: كذبوا الكتب المنزلة، والرسل المرسلة، والمعجزات الواضحة، وتكذيب الرسل أخص منه، وإن كان مستلزماً له، فقد روعيت الدلالة اللفظية، لا الدلالة الالتزامية. وقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ معطوف على محذوف، قدَّره البيضاوي بقوله: فحين كذبوا رسلي.. جاءهم إنكاري بالتدمير والاستئصال، فكيف كان نكيري لهم؛ أي: إنكاري عليهم؛ أي: هو واقع موقعه، فهو في غاية العدل، خالٍ عن الجور والظلم، فأي شيء خطر هؤلاء، بجنب أولئك، فليحذروا من مثل ذلك بتصديق محمد ﷺ، والنكير: اسم مصدر بمعنى الإنكار؛ أي: إنكار المنكر وإزالته بالعقوبة في الدنيا، جعل تدميرهم إنكاراً تنزيلاً للفعل منزلة القول، كما في قول الشاعر:

وَنَشْتُمُ بِالْأَفْعَالِ لاَ بِالتَّكَلُّمِ

اهـ «شهاب».

قال أبو حيان[1]: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ تعظيم للأمر، وليست استفهاماً مجرداً، وفيه تهديد لقريش؛ أي: إنهم معرضون لنكير مثله، والنكير: مصدر كالإنكار، وهو من المصادر التي جاءت على وزن فعيل، والفعل على وزن أفعل، كالنذير والعذير من أنذر وأعذر، وحذفت الياء من نكير تخفيفاً؛ لأن الكسرة أجزأت عنها.

ومعنى الآية[2]: أي ولقد كان فيمن قبلهم من الأمم البائدة، والقرون الخالية كقوم نوح وعاد وثمود، وقد بلغوا من القوة والبأس ما لم يبلغوا معشاره، فكذبوا رسلي حين أرسلوا إليهم، فحل بهم النكال والوبال، ودمروا تدميراً، ولم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً، وإنهم ليشاهدون آثارهم في حلهم وترحالهم، في غدوهم ورواحهم، كما قال في آية أخرى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

﴿وَبِالَّيۡلِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٣٨﴾ فليحذروا أن يصيبهم مثل ما أصاب أولئك.

والخلاصة: أن فيما حل بمن قبلهم من المثلات نكالاً لهم على تكذيبهم رسلهم لعبرة لهم لو كانوا يعقلون، ثم أطال لهم الحبل، ومد لهم الباع، وأنصفهم في الخصومة فقال: ﴿قُلۡ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين، ﴿إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ﴾؛ أي: ما أذكركم وما أنصح لكم إلا بخصلة واحدة هي ﴿أَن تَقُومُواْ﴾ من مجلس رسول الله ﷺ، وتتفرقوا من مجمعكم عنده، فالقيام على حقيقته بمعنى القيام على الرجلين ضد الجلوس، ويجوز أن يكون بمعنى القيام بالأمر، والاهتمام بطلب الحق، والمعنى: إنما أعظكم بخصلة واحدة إن فعلتموها أصبتم الحق، وتخلصتم إليه، وهي أن تقوموا. ﴿لِلَّهِ﴾؛ أي: لوجه الله تعالى، وطلب رضاه خالصاً، لا لحمية ولا عصبية ولا للمراء والرياء والتقليد، بل لطلب ظهور الحق حال كونكم متفرقين ﴿مَثۡنَىٰ﴾؛ أي: اثنين اثنين ﴿وَ﴾ متفرقين ﴿فرادى﴾؛ أي: فرداً فرداً واحداً واحداً ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ﴾ معطوف على ﴿تَقُومُواْ﴾؛ أي: ثم تتدبروا وتتأملوا في أمر محمد ﷺ، وما جاء به، فتعلموا ﴿مَا بِصَاحِبِكُم﴾ محمد ﷺ ﴿مِّن جِنَّةٍۚ﴾؛ أي: من جنون يحمله على دعوى النبوة العامة، كما ظننتم، وفائدة التقييد[1] بالاثنين والفرادى: أن الاثنين إذا التجأا إلى الله تعالى، وبحثا طلباً للحق مع الإنصاف.. هُدِيا إليه، وكذا الواحد إذ تفكر في نفسه مجرداً عن الهوى بخلاف كثرة الجمع، فإنه يقل فيها الإنصاف غالباً، ويكثر الخلاف، ويثور غبار الغضب، ولا يسمع إلا نصرة المذهب.

وفي تقديم ﴿مَثۡنَىٰ﴾ إيذان بأنه أرفق وأقرب من الاطمئنان، فإن الاثنين إذا قعدا بطريق المشاورة في شأن الرسول ﷺ وصحة نبوته، من غير هوى وعصبية، وعرض كل منهما محصول فكره على الآخر.. أدى النظر الصحيح إلى التصديق، ويحصل العلم على العلم. قال الشاعر:

إِذَا ٱجْتَـمَـعُـوا جَـاؤُوا بِـكُـلِّ غَـرِيـبَـةٍ ... فَيَزْدَادُ بَعْضُ ٱلْقَومِ مِنْ بِعْضِهِمْ عِلْمَا

وأما الفرد[2]: فيفكر في نفسه أيضاً بعدل ونصفة، هل رأينا في هذا الرجل

---

(١) روح البيان. (٢) الخازن.

جنوناً قط، أو جربنا عليه كذباً قط، وقد علمتم أن محمداً ﷺ ما به من جنة، بل قد علمتم أنه من أرجح قريش عقلاً، وأوزنهم حلماً، وأحدهم ذهناً، وأرصنهم رأياً، وأصدقهم قولاً، وأزكاهم نفساً، وأجمعهم لما يحمد عليه الرجال ويمدحون به، وإذا علمتم ذلك كفاكم أن تطالبوه بآية، وإذا جاء بها تبين أنه نبي نذير مبين، صادق فيما جاء به، وقيل: تم الكلام عند قوله: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾؛ أي: في السموات والأرض، فتعلموا أن خالقهما واحد لا شريك له، ثم ابتدأ فقال: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ﴾، اهـ من «الخازن».

والمعنى[1]: أي قل لهم يا محمد: إني أرشدكم أيها القوم، وأنصح لكم أن لا تبادروا بالتكذيب عناداً واستكباراً، بل اتئدوا وتفكروا ملياً فيما دعوتكم إليه، وجدّوا واجتهدوا في طلب الحق خالصاً؛ إما واحداً فواحداً، وإما اثنين فاثنين، لعلكم تصلون إلى الحق، وتهتدون إلى قصد السبيل، وتكونون قد أنصفتم الحقيقة، وأمطتم الحجب التي غشّت أبصاركم، ورانت على قلوبكم، فلم تجعل للحق منفذاً.

وإنما طلب إليهم التفكر، وهم متفرقون اثنين اثنين، أو واحداً فواحداً؛ لأنّ في الازدحام تهويش الخاطر، والمنع من إطالة التفكير، وتخليط الكلام، وقلة الإنصاف، وفيما يشاهد كل يوم من الاضطراب، وتبلبل الأفكار في الجماعات الكثيرة حين الجدل والخصومة، ما يؤيد صدق هذا، ثم أبان لهم أن نتيجة الفكر ستؤدي بهم إلى أن يعترفوا بما يرشد إليه النظر الصحيح، فقال: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ﴾ إذ ما جاء به من ذلك الأمر العظيم الذي فيه سعادة البشر في دنياهم وآخرتهم لا يتصدّى لادعائه إلا أحد رجلين؛ إما مجنون لا يبالي بافتضاحه حين مطالبته بالبرهان وظهور عجزه، وإما نبيّ مؤيد من عند الله بالمجعزات الدالة على صدقه، وإنكم قد علمتم أن محمداً أرجح الناس عقلاً، وأصدق الناس قولاً، وأزكاهم نفساً، وأجمعهم للكمال النفسي والعقلي، فوجب عليكم أن تصدّقوه في دعوته، وقد قرنها بالمعجزات الدالة على ذلك، وفي التعبير بصاحبكم إيماء إلى أنه معروف لهم، مشهور لديهم، فهو قد نشأ بين ظهرانيهم، وعلموا ما له من صفات الفضل

---

(١) المراغي.

والنبل وكرم الخلال، مما لم يتهيّأ لأحد من أترابه ولداته.

وإذا استبان بالدليل أنّه ليس بالمجنون في كل ما يقول ويدّعي.. اتضح أنه صادق، كما قال سبحانه: ﴿إِنْ﴾؛ أي: ما ﴿هُوَ﴾؛ أي: صاحبكم ﴿إِلَّا نَذِيرٌ لَكُم﴾؛ أي: مخوّف لكم بلسان ينطق بالحق، ﴿بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾؛ أي: قدام عذاب الآخرة، إن عصيتموه؛ لأنه مبعوث في نسم الساعة؛ أي: أوّلها وقربها، وذلك لأنّ النسم النفس، ومن قرب منك يصل إليك نفسه، وقيل: المعنى: أي[1]: ما محمد إلا رسول مخوف لكم بعذاب حاضر يمسكم عن قريب قبل عذاب شديد في الآخرة إن لم تؤمنوا به؛ أي: ما هذا الرسول بالكاذب، بل هو نذير لكم بعقاب الله حين تقدمون عليه لكفركم به وعصيانكم أمره، وإنما جعل إنذاره بين يدي عذاب شديد؛ لأنّ محمداً ﷺ مبعوث قرب الساعة، كما جاء في الحديث: «بعثت أنا والساعة جميعاً إن كادت لتسبقني».

وروى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: صعد النبي ﷺ الصفا ذات يوم، فقال: «يا صباحاه»، فاجتمعت إليه قريش فقالوا: ما لك؟ فقال: «أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو يصبّحكم أو يمسيكم، أما كنتم تصدّقوني» قالوا: بلى، قال ﷺ: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»، فقال أبو لهب: تبّاً لك، ألهذا جمعتنا، فأنزل الله عز وجل: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾.

ولما نفى عن رسوله الجنون، وأثبت له النبوّة.. أمر الله سبحانه رسوله أن يخبرهم أنه لم يكن له غرض في الدنيا، ولا رغبة فيها، حتى تنقطع عندهم الشكوك، ويرتفع الريب، فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿مَا﴾؛ أي: أيُّ شيء ﴿سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾؛ أي: من جُعْلٍ على تبليغ الرسالة ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾ والمراد: نفي السؤال بالكلية؛ أي: لا أسألكم على إنذاركم أجراً، كقول من قال لمن لم يعطه شيئاً: إن أعطيتني شيئاً.. فخذه، وقال بعضهم: لما نزل قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾.. قال عليه السلام لمشركي مكة: «لا تؤذوني في قرابتي»، فكفوا عن ذلك، فلما سبّ آلهتهم.. قالوا لم ينصفنا يسألنا أن لا نؤذيه في قرابته، وهو يؤذينا بذكر آلهتنا بسوء، فنزل: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾

---

(1) المراح.

إن شئتم آذوهم، وإن شئتم امتنعوا، قال ابن عباس رضي الله عنهما: الأجر: المودّة في القربى، وقال قتادة: فهو لكم؛ أي: ثمرته وثوابه، لأني سألتكم صلة الرحم. ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ قرأ ابن كثير[1] وحمزة والكسائي بإسكان الياء؛ أي: ما أجر تبليغي وثوابه ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ لا على غيره، لأني أطلب ثواب الله تعالى لا عرض الدنيا، ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾؛ أي: مطلع يعلم صدقي وخلوص نيتي، وفيه إشارة إلى أنه من شرط دعوة الخلق إلى الله أن تكون خالصة لوجه الله، لا يشوبها طمع في الدنيا دون الآخرة، قال الإمام الزروقي: الشهيد: هو الحاضر الذي لا يغيب عنه معلوم ولا مرئيّ ولا مسموع.

ومعنى الآية: أي قل لهم يا محمد: إني لا أريد منكم أجراً ولا عطاءً على أداء رسالة ربي إليك، ونصحي لكم، وأمري بعبادته، إنما أطلب ثواب ذلك من الله تعالى، وهو العليم بجميع الأشياء، فيعلم صدقي وخلوص نيتي، وإذا علم أن الذي حمله على ركوب الصعاب واقتحام الأخطار ليس أمراً دنيوياً.. ثبت أن الذي حفزه عليها هو أمر الله تعالى له، وقد صدع به: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ وبهذا ثبت أنه نبيّ، ولما استبان أنه ليس بالمجنون، ولا هو بطالب الدنيا.. عُلِم أن الذي جاء به هبط إليه من السماء، وقذف به الوحي إليه، وأمره أن يبلغه إليهم، كما أشار إلى ذلك بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لمن أنكر التوحيد والرسالة: ﴿إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ﴾ ويرمي ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالوحي على من يشاء من عباده؛ أي: يلقي الوحي وينزله على من يجتبيه من عباده، فالاجتباء ليس لعلة، والاصطفاء ليس لحيلة، والمعنى: أنه يبيّن الحجة ويظهرها للناس على ألسن رسله، أو المعنى: يرمي بالحق الباطل فيدمغه ويزيله.

﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ قرأ الجمهور[2]: ﴿عَلَّٰمُ﴾ بالرفع، والظاهر: أنه خبر ثانٍ لـ﴿أَنَّ﴾، وقيل: خبر لمبتدأ محذوف، وقيل: بل من الضمير المستكن في ﴿يَقْذِفُ﴾، وقرأ عيسى بن عمرو ابن أبي إسحاق وزيد بن علي وابن أبي عبلة وأبو حيوة وحرب عن طلحة: بالنصب نعتاً لاسم ﴿إِنَّ﴾، أو بدلاً منه، أو على المدح، قال الفراء: والرفع في مثل هذا أكثر، كقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ۝٦٤﴾

---

(١) البيضاوي.　　(٢) البحر المحيط.

وقرىء: ﴿ٱلْغُيُوبِ﴾ بالحركات الثلاث في الغين، إما بالضم، فجمع: غيب، والغيب: هو الأمر الذي غاب عن خلقه، وأما الكسر: فكذلك استثقلوا ضمتين والواو، فكسروا الغين لتناسب الكسر مع الياء، والضمة التي على الياء مع الواو، وأما بالفتح: ففعول للمبالغة، كالصبور والشكور، وهو الأمر الذي غاب وخفي جدّاً.

أي: عالم[1] بكل ما غاب عن خلقه في السموات والأرض، قولاً كان أو فعلاً أو غيرهما، وفي «التأويلات»: إنما ذكر الغيوب بلفظ الجمع؛ لأنه عالم بغيب كل أحد، وهو ما في ضمير كل أحد، وأنه تعالى عالم بما يكون في ضمير أولاد كل أحد إلى يوم القيامة، وإنما قال علاّم بلفظ المبالغة ليتناول علم معلومات الغيوب في الحالات المختلفة كما هي بلا تغيّر في العلم عند تغير المعلومات من حال إلى حال، بحيث لا يشغله شأن حال عن حال.

والمعنى: أي قل يا محمد لمن أنكر التوحيد ورسالة الأنبياء والبعث: إنّ ربّي يلقي الوحي وينزله على قلب من يجتبيه من عباده، وهو العليم بمن يصطفيهم، كما قال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾، وقال: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾، وقد يكون المعنى كما روي عن ابن عباس: إنّ ربي يقذف الباطل بالحق؛ أي: يورده عليه، حتى يبطله ويزيل آثاره، ويشيع الحق في الآفاق، ولا يخفى ما في هذا من عدة بإظهار الإسلام ونشره بين الناس، وتبلُّج نوره في الكون، ونحوه: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ﴾ ثمّ أكد ما سلف بأمر رسوله ﷺ أن يخبر قومه بأنّ الإسلام سيعلو على سائر الأديان، وأن غيره سيضمحل ويزول، فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: الإسلام والتوحيد، وزال الشرك وذهب ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ﴾ الجديد من الإبداء، بمعنى الابتداء والاستئناف؛ أي: وما يظهر الباطل الجديد الذي لم يسبق ﴿وَمَا يُعِيدُ﴾ الباطل القديم الذي سبق بعد ذهابه من الإعادة بمعنى العود؛ أي: وما يعود الباطل القديم الذي اتصف به المشركون أولاً؛ أي: ذهب الباطل ذهاباً لم يبقَ منه إقبال ولا إدبار، ولا إبداء ولا إعادة.

---

(١) روح البيان.

والمعنى[1]: زال الشرك وذهب، بحيث لم يبقَ أثره أصلاً، مأخوذ من هلاك الحي، فإنه إذا هلك لم يبقَ له إبداء ولا إعادة، فجعل مثلاً في الهلاك بالكلية، وقيل: الباطل هو إبليس، والمعنى: لا يخلق إبليس أحداً ابتداءً، ولا يبعثه، إذا مات إعادةً، وقيل: الباطل هو الأصنام؛ أي: لا تخلق أحداً ابتداءً، ولا تعيد بعثاً للأموات.

روى ابن مسعود رضي الله عنه: أن النبي ﷺ دخل مكة، وحول الكعبة ثلاث مئة وستون صنماً، فجعل يطعنها بعود في يده، ويقول: «﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾، ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾».

والمعنى: أي قل[2]: جاء الإسلام، ورفعت رايته، وعلا ذكره، وذهب الباطل، فلم تبقَ منه بقيّة تبدىء شيئاً أو تعيده، وأصله في هلاك الحيّ، فإنه إذا هلك لم يبق له إبداءٌ؛ أي: فعل أمر ابتداء ولا إعادة؛ أي: فعله ثانياً، وأنشدوا لعبيد بن الأبرص.

أَقْفَرَ مِنْ أَهْلِهِ عُبَيْدُ ... فَٱلْيَوْمَ لاَ يُبْدِيْ وَلاَ يُعِيْدُ

ولما سدَّ عليهم مسالك القول.. لم يبقَ إلا أن يقولوا عناداً: إنه قد عرض له ما أضلّه عن محجة الصواب، فأمر رسوله أن يقول لهم: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿إِن ضَلَلْتُ﴾ عن الطريق الحق - كما تزعمون وتقولون. لقد ضللتَ حين تركت دين آبائك - ﴿فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾؛ أي: فإن وبال ضلالي وعقابه عليها؛ لأنه سببها؛ إذ هي الحاملة عليه بالذات، والأمارة بالسوء، وبهذا الاعتبار قوبل الشرطية بقوله: ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ﴾ إلى الطريق الحق ﴿فَبِمَا يُوحِىٓ﴾؛ أي: فبسبب ما يوحي إليَّ ربي من الحكمة والبيان، فإن الاهتداء بتوفيقه وهدايته.

وفيه[3]: إشارة إلى أنّ منشأ الضلالة نفس الإنسان، فإذ أوكلت النفس إلى

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) روح البيان.

طبعها لا يتولد منها إلا الضلالة، وإنَ الهداية من مواهب الحق سبحانه، ليست النفس منشأها، ولذلك قال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾. ﴿إِنَّهُۥ﴾ تعالى ﴿سَمِيعٌ﴾ قول كل مهتدٍ وضالٍّ، وإن بالغ في إخفائه ﴿قَرِيبٌ﴾ منّي ومنكم. يعلم الهدى والضلالة، وقال بعضهم: سميع بمنطق كل ناطق، قريب لكل شيء، وإن كان بعيداً، وقرأ الجمهور: ﴿ضَلَلْتُ﴾ بفتح اللام، وقرأ الحسن ويحيى بن وثاب: بكسر اللام، وهي لغة أهل العالية، والمعنى: أي: قل أيها الرسول لقومك: إن ضللت عن الهدى، وسلكت غير طريق الحق، فإنما ضرر ذلك على نفسي، وإن استقمت على الحق.. فبوحي الله إليَّ، وتوفيقه للاستقامة على محجّة الحق، وطريق الهدى، إنه سميع لما أقول وتقولون، ويجازي كلاً بما يستحق، قريب مجيب دعوة الداعي إذا دعاه.

روى الشيخان عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنما تدعون سميعاً قريباً مجيباً».

والخلاصة: أنّ الخير كله من الله، وفيما أنزله عليَّ من الوحي والحق المبين، ثم ذكر سبحانه حالاً من أحوال الكفار، فقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ يا محمد، أو يا من يفهم الخطاب، ويليق به ﴿إِذْ فَزِعُوا۟﴾؛ أي: حين يفزع الكفار ويخافون مما نزل بهم، قيل[1]: المراد: فزعهم عند نزول الموت بهم، وقال الحسن: هو فزعهم في القبور من الصيحة، وقال قتادة: هو فزعهم إذا خرجوا من قبورهم، وقال السدي: هو فزعهم يوم بدر حين ضربت أعناقهم بسيوف الملائكة، فلم يستطيعوا فراراً، ولا رجوعاً إلى التوبة، وقال ابن مغفّل: هو فزعهم إذا عاينوا عقاب الله يوم القيامة، وقال سعيد بن جبير: هو فزعهم من الخسف الذي يخسف بهم في البيداء، فيبقى رجل منهم، فيخبر الناس بما لقي أصحابه فيفزعون.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إنّ ثمانين ألفاً ـ وهم السفيانيّ وقومه ـ يخرجون في آخر الزمان، فيقصدون بالكعبة ليخرّبوها، فإذا دخلوا البيداء، وهي أرض ملساء بين الحرمين ـ كما في «القاموس» ـ خسف بهم، فلا ينجو منهم إلاّ

---

(١) الشوكاني.

السري الذي يخبر عنهم، وهو جهينة، فلذلك قيل: عند جهينة الخبر اليقين، وعبَّر بالماضي[1] في قوله: ﴿إِذْ فَزِعُوا﴾؛ لأن المستقبل بالنسبة إلى الله تعالى كالماضي في تحقّقه، وجواب ﴿لو﴾ محذوف تقديره: ولو ترى يا محمد حالهم وقت فزعهم من الموت، أو من عذاب الله، أو من الخسف بهم في البيداء.. لرأيت أمراً هائلاً.

﴿فَلَا فَوْتَ﴾ لهم من عذاب الله، ولا نجاة بهرب، أو بتحصن، ويدركهم ما فزعوا منه ﴿وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ من ظهر الأرض إلى بطنها، أو من الموقف إلى النار، أو من صحراء بدر إلى قليبها؛ أي: بئرها القديمة، أو من تحت أقدامهم إذا خسف بهم، وحيث كانوا، فهم قريب من الله، والجملة معطوفة على فزعوا؛ أي: ولو ترى يا محمد إذ يفزع الكفار، فلا يفوتني أحد منهم، ويؤخذون من مكان قريب.. لرأيت أمراً فظيعاً، وقرأ الجمهور[2]: ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ مبنياً على الفتح، و﴿أُخِذُوا﴾ فعلاً ماضياً، والظاهر: عطفه على ﴿فَزِعُوا﴾، وقيل: على ﴿فَلَا فَوْتَ﴾؛ لأن معناه: فلا يفوتوا وأخذوا، وقرأ عبد الرحمن مولى بني هاشم عن أبيه وطلحة: ﴿فلا فوت﴾، و﴿أخذ﴾ مصدرين منوّنين، وقرأ أبيّ: ﴿فلا فوت﴾ مبنياً، و﴿أخذ﴾ مصدراً منوّناً، ومن رفع ﴿أخذ﴾.. فخبر مبتدأ؛ أي: وحالهما أخذ، أو مبتدأ؛ أي: وهناك أخذ، ذكره أبو حيان؛ أي: ولو رأيت أيها الرسول هؤلاء المكذبين حين يفزعون مما رأوا من العذاب الشديد.. لرأيت من الأمر ما يعجز القول عن وصفه، فهم لا يمكنون من الهرب، ولا يفوتون ذلك العذاب، ولا يجدون ملجأ ولا مأوى يبتعدون فيه، ويؤخذون حين الفزع من مكان قريب؛ أي: من الموقف إلى النار، ولم يمكّنوا أن يُمْعِنوا في الهرب.

وفي «الفتوحات»: وقوله: ﴿وَأُخِذُوا﴾، وقوله: ﴿وَقَالُوا﴾، وقوله: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ﴾ الثلاثة معطوفة على ﴿فَزِعُوا﴾، والأربعة بمعنى الاستقبال، وعبّر فيها بالماضي لتحقق الوقوع. اهـ «شيخنا». ﴿وَقَالُوا﴾؛ أي: ويقول الكفار عند معاينة العذاب في

---

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

الآخرة: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾؛ أي: بمحمد ﷺ؛ لأنه مرّ ذكره في قوله: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ﴾ فلا يلزم الإضمار قبل الذكر، وقيل: الضمير عائد على الله، وقيل: على العذاب، وقيل: على القرآن، والأول أولى. ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ﴾؛ أي: وكيف يمكن لهم ﴿ٱلتَّنَاوُشُ﴾؛ أي: التناول السهل؛ أي: وكيف يمكن لهم أن يتناولوا الإيمان تناولاً سهلاً. ﴿مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾ فإنّ الإيمان إنما هو في حيّز التكليف، وهي الدنيا، وقد بعد عنهم بارتحالهم إلى الآخرة، وهو تمثيل لحالهم في طلب الخلاص بالإيمان بعد ما فات عنهم وبعد بحال من يريد أن يتناول الشيء من غلوة - وهي غاية رمية حجر - كتناوله من مقدار ذراع في الاستحالة، ﴿وَأَنَّىٰ﴾ هنا للاستفهام الاستبعادي.

والتناوش: التناول السهل، وقال ابن عباس: التناوش: الرجوع إلى الدنيا، وقرأ الجمهور: ﴿ٱلتَّنَاوُشُ﴾ بالواو، وقرأ حمزة والكسائي وأبو عمرو وأبو بكر: بالهمزة، ويجوز أن يكونا مادّتين إحداهما النون والواو والشين، والأخرى النون والهمزة والشين، وسيأتي البحث عنه في المفردات.

وجملة قوله: ﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾؛ أي: بمحمد، أو بالعذاب الشديد الذي أنذرهم إيّاه، ﴿مِن قَبْلُۖ﴾؛ أي: من قبل ذلك اليوم في وقت التكليف في محل نصب على الحال من فاعل ﴿قَالُوٓاْ﴾؛ أي: وقالوا آمنا به، والحال أنهم قد كفروا بما آمنوا به الآن من قبل هذا الوقت، وذلك حال كونهم في الدنيا.

يعني: تابوا وقد أغلقت الأبواب، وندموا وقد تقطعت الأسباب، فليس إلا الخسران والندم والعذاب والألم.

فَخَلِّ سَبِيْلَ ٱلْعَيْنِ بَعْدَكَ لِلْبُكَا فَلَيْسَ لأَيَّامِ ٱلصَّفَاءِ رُجُوْعُ

أي: لا يقدر الإنسان على شيء إذا مات وصار إلى تحت الأرض، كما كان يقدر إذا كان فوق الأرض وهو حيّ، والمعنى: أي: وقالوا حين إذ أخذوا: آمنّا بالله وملائكته وكتبه ورسله، وكيف يمكن لهم ذلك ويقبل منهم، وقد صاروا بعيدين عن قبول الإيمان؛ إذ هذه الدار ليست أهلاً لقبول التكاليف من الإيمان بالله والعمل الصالح، والحال أنهم قد كفروا به من قبل ذلك اليوم في الدنيا، وجملة قوله: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ إمّا معطوف على ﴿وَقَدْ كَفَرُواْ﴾ على حكاية الحال الماضية؛ أي: والحال أنهم قد كانوا يتكلّمون بالغيب، أو بالشيء الغائب، يقولون: لا بعث

ولا حساب ولا جنة ولا نار. ﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ من الصدق، أو عن الحق والصواب، أو أنهم قد كانوا يرجمون بالظن الكاذب، ويتكلمون بما لم يظهر لهم في حق الرسول من المطاعن، أو العذاب من قطع القول بنفيه، كما قالوا: وما نحن بمعذبين ﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾؛ أي: من جهة بعيدة عن حاله ﷺ؛ حيث ينسبونه إلى الشعر والسحر والكهانة والكذب، ولعله تمثيل لحالهم في ذلك بحال من يرمي شيئاً لا يراه من مكان بعيد، لا مجال للظن في لحوقه، فالباء في ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ بمعنى: في؛ أي: في محل غائب عن نظرهم، أو للملابسة. اهـ «شهاب».

وإما معطوف على ﴿قَالُوٓاْ﴾؛ أي: ويقولون: آمنّا به، ويقذفون بالغيب الخ، بناء على أنه تمثيل لحالهم بحال القاذف في تحصيل ما ضيّعوه من الإيمان في الدنيا.

وقيل: هو مستأنف؛ أي: يتلفظون بكلمة الإيمان حين لا ينفع نفساً إيمانها، فمثّلت حالهم في طلبهم تحصيل ما عطّلوه من الإيمان في الدنيا بقولهم: آمنّا في الآخرة، وذلك مطلب مستبعد بحال من يقذف شيئاً من مكان بعيد، لا مجال للنظر في لحوقه حيث يريد أن يقع فيه، لكونه غائباً عنه بعيداً.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَيَقْذِفُونَ﴾ مبنياً للفاعل على حكاية حال ماضية، وقرأ مجاهد وأبو حيوة ومحبوب عن أبي عمرو: ﴿ويقذفون﴾ مبنياً للمفعول، قال مجاهد: ويرجمهم بما يكرهون من السماء، وقال الزمخشري: أي: يأتيهم به؛ أي: بالغيب شياطينهم، ويلقّنونهم إياه، وقيل: يرمون في النار، وقال أبو الفضل الرازي: يرمون بالغيب من حيث لا يعلمون، ومعناه: يجازون بسوء أعمالهم، ولا علم لهم بما أتاهم. ﴿وَحِيلَ﴾؛ أي: حجز ﴿بَيْنَهُمْ﴾؛ أي أوقعت الحيلولة والمنع بين هؤلاء الكفار ﴿وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ ويحبّون من نفع الإيمان يومئذ، والنجاة به من النار، والفوز بالجنة، وقيل: حيل بينهم وبين ما يشتهون في الدنيا من أموالهم وأهليهم، أو حيل بينهم وما يشتهون من الرجوع إلى الدنيا، كما حكي عنهم بقوله: ﴿فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾. ﴿كَمَا فُعِلَ﴾ ذلك المنع والحيلولة ﴿بِأَشْيَاعِهِم﴾؛ أي: بمن

---

(١) البحر المحيط.

اتصف بصفاتهم؛ أي: بأمثالهم ونظرائهم وأشباههم ﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي: من قبلهم من كفار الأمم الماضية.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِي شَكٍّ﴾ وتهمة مما وجب الإيمان واليقين به، كالتوحيد والبعث ونزول العذاب على تقدير الإصرار، تعليل لما قبله. ﴿مُّرِيبٍ﴾ صفة لشك؛ أي: موقع لهم ذلك الشك في الريبة والتهمة من أمر الرسل والبعث والجنة والنار،[1] من: أرابه إذا أوقعه في الريبة، أو ذي ريبة من أراب الرجل إذا صار ذا ريبة، ودخل فيها، وكلاهما مجاز في الإسناد، إلا أن بينهما فرقاً وهو أن المريب من الأول منقول ممن يصلح أن يكون مريباً من الأشخاص والأعيان إلى المعنى، وهو الشك، أي: يكون صفة من أوقع في الريب حقيقة، وقد جعل في الآية صفة نفس الشك الذي هو معنى من المعاني، والمريب من الثاني منقول من صاحب الشك إلى الشك؛ أي: إنهم كانوا في شكّ ذي شكّ، كما تقول: شعر شاعر، وعجب عجيب، وإنما الشاعر في الحقيقة صاحب الشعر، وإنما أسند الشاعرية إلى الشعر للمبالغة، وإذا كان حال الكفرة الشك في الدنيا.. فلا ينفعهم اليقين في الآخرة؛ لأنه حاصل بعد معاينة العذاب، والخروج من موطن التكليف، وقد ذمّوا في هذه الآيات بالشكّ والكفر والرجم بالغيب.

والمعنى[2]: أي وحجز بينهم وبين الرجوع إلى الدنيا ليعملوا صالحاً، كما قال: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ ثم بين أن هذه سنة الله في أمثالهم ممن كذبوا الرسل من قبلهم، فقال: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾؛ أي: فعلنا بهم كما فعلنا بالأمم الماضية التي كذّبت رسلها، فتمنوا حين رأوا بأس الله أن لو آمنوا، ولكن لم يقبل منهم، ثم علّل عدم قبول إيمانهم حينئذ بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾؛ أي: لأنهم كانوا في الدار الأولى شاكين فيما أخبرت به الرسل من البعث والجزاء، وقد تغلغل الشكّ في قلوبهم حين صاروا لا يطمئنّون إلى شيء مما جاءوا به، وفي[3]

---

(١) روح البيان.

(٢) المراغي.

(٣) النسفي.

هذا ردٌّ على من زعم أن الله لا يعذب على الشك، والله أعلم.

الإعراب

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾.

﴿وَإِذَا﴾: الواو: استئنافية ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، مضمّن معنى الشرط، ﴿تُتْلَىٰ﴾: فعل مضارع مغيّرالصيغة، ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلق بـ﴿تُتْلَىٰ﴾، ﴿ءَايَٰتُنَا﴾: نائب فاعل لـ﴿تُتْلَىٰ﴾، ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾: حال من ﴿ءَايَٰتُنَا﴾، والجملة الفعلية في محل الخفض بإضافة ﴿إذا﴾ إليها على كونها فعل شرط لها، والتالي هو النبي عليه الصلاة والسلام ﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة جواب ﴿إذا﴾، لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿إذا﴾ الشرطية مستأنفة لا محل لها من الأعراب ﴿مَا﴾ نافية، ﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿رَجُلٌ﴾: خبر المبتدأ والجملة في محل نصب مقول قالوا، وجملة ﴿يُرِيدُ﴾: صفة للرجل، ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر، ﴿يَصُدَّكُمْ﴾: فعل مضارع ومفعول به، وفاعله ضمير يعود إلى ﴿رَجُلٍ﴾، و﴿أَن﴾ المصدرية مع ما في حيّزها في تأويل مصدر منصوب على المفعولية لـ﴿يُرِيدُ﴾؛ أي: يريد صدّكم، ﴿عَمَّآ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿يَصُدَّكُمْ﴾. ﴿كَانَ﴾: زائدة، أو شأنية، أو ناقصة، ويضمر لها ضمير يعود على الآباء، والمسألة حينئذ من باب التنازع، وأعمل الثاني لقربه، ولو أعمل الأول لقال: يعبدونه، ﴿يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾ على القول الأخير، وجملة ﴿كان﴾ صلة الموصول، ﴿وَقَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿قَالُوا۟﴾ الأول، ﴿مَا﴾: نافية. ﴿هَٰذَا﴾: مبتدأ. ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر، ﴿إِفْكٌ﴾: خبر، ﴿مُّفْتَرًى﴾: صفة ﴿إِفْكٌ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ما قبله، وجملة ﴿كَفَرُوا۟﴾ صلة الموصول، ﴿لِلْحَقِّ﴾: متعلق بـ﴿قَالَ﴾، ﴿لَمَّا﴾: ظرف بمعنى: حين، متعلق بـ﴿قَالَ﴾،

﴿جَآءَهُمۡ﴾: فعل ومفعول، وفاعله ضمير يعود على ﴿الحقّ﴾، والجملة الفعلية في محل الجرّ مضاف إليه لـ﴿لَمَّا﴾، ﴿إِن﴾: نافية مهملة، ﴿هَٰذَآ﴾: مبتدأ، ﴿إِلَّآ﴾: أداة حصر، ﴿سِحۡرٌ﴾: خبر، ﴿مُّبِينٌ﴾: صفة ﴿سِحۡرٌ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾. ﴿وَمَآ﴾: الواو: عاطفة، أو حالية، ﴿مَآ﴾: نافية، ﴿ءَاتَيۡنَٰهُم﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، ﴿مِّن﴾: زائدة، ﴿كُتُبٍ﴾: مفعول ثانٍ لـ﴿ءَاتَيۡنَٰهُم﴾، وجملة ﴿يَدۡرُسُونَهَاۖ﴾: صفة لـ﴿كُتُبٍ﴾، وجملة ﴿ءَاتَيۡنَٰهُم﴾ إما معطوفة على جملة ﴿قَالَ﴾، أو في محل النصب حال من فاعل ﴿قَالَ﴾، ﴿وَمَآ﴾: الواو: عاطفة، ﴿مَآ﴾: نافية، ﴿أَرۡسَلۡنَآ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿ءَاتَيۡنَٰهُم﴾، ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾ متعلق بـ﴿أَرۡسَلۡنَآ﴾. ﴿قَبۡلَكَ﴾: حال من ﴿نَّذِيرٍ﴾، أو متعلق بـ﴿أَرۡسَلۡنَآ﴾. ﴿مِّن نَّذِيرٍ﴾ مفعول ﴿أَرۡسَلۡنَآ﴾، و﴿مِّن﴾: زائدة.

﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَكَذَّبَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، أو استئنافية، ﴿كذب الذين﴾: فعل وفاعل، معطوف على قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، أو مستأنفة، ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾: جار ومجرور، صلة الموصول، ﴿وَمَآ﴾: الواو: حالية، ﴿ما﴾ نافية. ﴿بَلَغُواْ﴾: فعل وفاعل، ﴿مِعۡشَارَ﴾: مفعول به، ﴿مَآ﴾: اسم موصول في محل الجر مضاف إليه، وجملة ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ صلة الموصول، والعائد، محذوف تقديره: ما آتيناهموه، وجملة ﴿بَلَغُواْ﴾ في محل النصب حال من فاعل ﴿كذب﴾، ولكنها حالة سببيّة، ﴿فَكَذَّبُواْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة تفسيرية ﴿كذبوا رسلي﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ عطف تفسير، ﴿فَكَيۡفَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة على محذوف تقديره: فحين كذبوا رسلي جاءهم إنكاري بالتدمير، فكيف كان نكير، والجملة المحذوفة مستأنفة، ﴿كيف﴾: اسم استفهام للاستفهام التعجّبي في محل النصب خبر كان مقدم عليها وجوباً، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، ﴿نَكِيرِ﴾: اسمها مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بالكسرة، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة، ﴿نَكِيرِ﴾: مضاف، وياء المتكلم المحذوفة في محل الجر مضاف إليه، وجملة ﴿كَانَ﴾ معطوفة على تلك الجملة المحذوفة.

﴿۞ قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿قُلۡ﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة مستأنفة، ﴿إِنَّمَآ﴾: أداة حصر، ﴿أَعِظُكُم﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به، ﴿بِوَٰحِدَةٍۖ﴾: متعلق به، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿قُلۡ﴾، ﴿أَن﴾: حرف نصب ومصدر ﴿تَقُومُواْ﴾: فعل وفاعل منصوب بـ﴿أَن﴾ ﴿لِلَّهِ﴾: متعلق بـ﴿تَقُومُواْ﴾، والجملة الفعلية مع ﴿أَن﴾ المصدرية في تأويل مصدر مجرور على كونه عطف بيان من ﴿واحدة﴾، أو بدل منها، أو مرفوع على كونه خبر مبتدأ محذوف تقديره: هي قيامكم لله مثنى وفرادي، ﴿مَثۡنَىٰ﴾: حال من فاعل ﴿تَقُومُواْ﴾، ﴿وَفُرَٰدَىٰ﴾: معطوف عليه؛ أي: حالة كونكم اثنين اثنين، وفرداً فرداً، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب، ﴿تَتَفَكَّرُواْ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿تَقُومُواْ﴾، ﴿مَا﴾: نافية، ﴿بِصَاحِبِكُم﴾: خبر مقدم، ﴿مِّن﴾: زائدة، ﴿جِنَّةٍ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل النصب مفعول ﴿تَتَفَكَّرُواْ﴾ معلقة عنها بـ﴿مَا﴾ النافية، ولكنها على إسقاط في، كما في «الشهاب»، ﴿إِنۡ﴾: نافية، ﴿هُوَ﴾: مبتدأ، ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر، ﴿نَذِيرٞ﴾: خبر المبتدأ، ﴿لَّكُم﴾: متعلق بـ﴿نَذِيرٞ﴾، ﴿بَيۡنَ﴾: منصوب على الظرفية الاعتبارية، وهو مضاف ﴿يَدَيۡ﴾ مضاف إليه مجرور بالياء، وهو مضاف ﴿عَذَابٖ﴾: مضاف إليه ﴿شَدِيدٖ﴾: صفة عذاب، والظرف متعلق بمحذوف حال من ﴿نَذِيرٞ﴾.

﴿قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿قُلۡ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة، ﴿مَا﴾: اسم شرط في محل النصب مفعول ثانٍ لـ﴿سَأَلۡتُكُم﴾ مقدَّم عليه، ﴿سَأَلۡتُكُم﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، في محل الجزم بـ﴿مَا﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها، ﴿مِّنۡ أَجۡرٖ﴾: حال من ﴿مَا﴾ الشرطية ﴿فَهُوَ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب، ﴿هو﴾: مبتدأ، ﴿لَكُمۡ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿مَا﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَا﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قُلۡ﴾، ﴿إِنۡ﴾: نافية، ﴿أَجۡرِيَ﴾: مبتدأ، ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: خبر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلۡ﴾،

﴿وَهُوَ﴾: مبتدأ، ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾: متعلق بـ﴿شَهِيدٌ﴾، و﴿شَهِيدٌ﴾ خبر، والجملة معطوفة على ما قبلها على كونها مقولاً لـ﴿قُلْ﴾.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة، ﴿إِنَّ رَبِّي﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿يَقْذِفُ﴾ خبره، ﴿بِالْحَقِّ﴾: متعلق بـ﴿يَقْذِفُ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾، ﴿عَلَّامُ﴾: خبر ثان لـ﴿إِنَّ﴾، أو خبر مبتدأ محذوف، ﴿الْغُيُوبِ﴾: مضاف إليه. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة، ﴿جَاءَ الْحَقُّ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾، ﴿وَمَا﴾: الواو: عاطفة، ﴿مَا﴾: نافية، ﴿يُبْدِئُ الْبَاطِلُ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿جَاءَ الْحَقُّ﴾، ﴿وَمَا يُعِيدُ﴾: معطوف على ﴿يُبْدِئُ﴾.

﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر، والجلمة مستأنفة، ﴿إِنْ﴾: حرف شرط، ﴿ضَلَلْتُ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إِنْ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿فَإِنَّمَا﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب، ﴿إنما﴾: حرف مكفوف وكاف، ﴿أَضِلُّ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على محمد، ﴿عَلَىٰ نَفْسِي﴾: متعلق بـ﴿أَضِلُّ﴾، والجملة في محل الجزم بـ﴿إِنْ﴾ على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إِنْ﴾الشرطية في محل النصب مقول ﴿قُلْ﴾، وهي في قوة بنفسي، فيصح مقابلتها مع ما بعدها، ﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ﴾: الواو: عاطفة، ﴿إِنْ﴾: حرف شرط، ﴿اهْتَدَيْتُ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إِنْ﴾ على كونه فعل شرط لها، ﴿فَبِمَا﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب، ﴿الباء﴾: حرف جر وسبب، ﴿ما﴾: مصدرية، أو موصولة في محل الجر بالباء، ﴿يُوحِي﴾: فعل مضارع، ﴿إِلَيَّ﴾: متعلق بـ﴿يُوحِي﴾، ﴿رَبِّي﴾: فاعل ﴿يُوحِي﴾، والجملة الفعلية صلة ﴿ما﴾ المصدرية، أو الموصولة، والتقدير على الأول: فبسبب إيحاء ربّي إليّ، وعلى الثاني: فبسبب الذي يوحيه إليّ ربي، الجار والمجرور خبر لمبتدأ محذوف معلوم مما قبله، تقديره: فاهتدائي كائن بسبب إيحاء ربّي إليّ، أو

بسبب الذي يوحيه إلي ربي، والجلمة الاسمية في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الأولى ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه ﴿سَمِيعٌ﴾: خبره الأول، ﴿قَرِيبٌ﴾: خبره الثاني، وجلمة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿وَلَوْ﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿لو﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿تَرَىٰٓ﴾: فعل مضارع مرفوع، وفاعله ضمير مستتر يعود على محمد، أو على أيٍّ مخاطب، و﴿تَرَىٰٓ﴾: بصرية مفعولها محذوف ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى متعلق بـ﴿تَرَىٰٓ﴾ ﴿فَزِعُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾، وجواب ﴿لو﴾ محذوف تقديره: ولو ترى حالهم وقت فزعهم.. لرأيت أمراً عظيماً مذهلاً، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية مستأنفة مسوقة لتقرير حال الكفار عند فزعهم، ﴿فَلَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، أو استئنافية، ﴿لا﴾: نافية للجنس، ﴿فَوْتَ﴾: في محل النصب، وخبرها محذوف، تقدير: فلا فوت كائن لهم، والجملة في محل الجرّ معطوفة على جملة ﴿فَزِعُوا۟﴾، أو مستأنفة، ﴿وَأُخِذُوا۟﴾ فعل ونائب فاعل، معطوف على ﴿فَزِعُوا۟﴾، ﴿مِن مَّكَانٍ﴾: متعلق بـ﴿أخذوا﴾، ﴿قَرِيبٍ﴾: صفة ﴿مكان﴾، ﴿وَقَالُوٓا۟﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿فَزِعُوا۟﴾، ﴿ءَامَنَّا﴾: فعل وفاعل، ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿ءَامَنَّا﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓا۟﴾، ﴿وَأَنَّىٰ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿أنى﴾: اسم استفهام للاستفهام الاستبعاديّ، بمعنى: من أين، أو: كيف، في محل الرفع خبر مقدم، ﴿لَهُمُ﴾: جار ومجرور حال من ﴿ٱلتَّنَاوُشُ﴾، ﴿ٱلتَّنَاوُشُ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿مِن مَّكَانٍۭ﴾: متعلق بـ﴿ٱلتَّنَاوُشُ﴾، ﴿بَعِيدٍ﴾: صفة ﴿مَّكَانٍۭ﴾، والجملة الاسمية جملة إنشائية مستأنفة، لا محل لها من الإعراب.

﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿وَقَدْ﴾: ﴿الواو﴾: حالية، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿كَفَرُوا۟﴾: فعل وفاعل، ﴿بِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿كَفَرُوا۟﴾، ﴿مِن قَبْلُ﴾: جار ومجرور، حال من فاعل ﴿كَفَرُوا۟﴾، وجملة ﴿كَفَرُوا۟﴾ في محل النصب حال من فاعل ﴿قَالُوٓا۟﴾، ﴿وَيَقْذِفُونَ﴾: فعل

وفاعل، معطوف على ﴿قد كفروا﴾ بناءً على أنها حكاية حال ماضية؛ أي: وقد كانوا يقذفون بالغيب، ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾: متعلق بـ﴿يقذفون﴾، ﴿مِن مَّكَانٍ﴾ متعلق به أيضاً، ﴿بَعِيدٍ﴾: صفة مكان، ﴿وَحِيلَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿حيل﴾: فعل ماضٍ مغيّر الصيغة على وزن قيل وبيع، ﴿بَيْنَهُمْ﴾: ﴿بين﴾: في محل النصب على الظرفية، مبنيّ على الفتح لإضافته إلى المبني، وهو مضاف، والهاء مضاف إليه، والظرف في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿حيل﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَقَالُوٓاْ﴾، ﴿وَبَيْنَ مَا﴾: ظرف ومضاف إليه، معطوف على الظرف الأول، ﴿يَشْتَهُونَ﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، والعائد محذوف؛ أي: وبين ما يشتهونه ﴿كَمَا﴾: ﴿الكاف﴾: حرف جر وتشبيه، ﴿ما﴾: مصدرية، ﴿فُعِلَ﴾: فعل ماضٍ مغيَّر الصيغة، ﴿بِأَشْيَاعِهِم﴾: جار ومجرور في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿فُعِلَ﴾، وجملة ﴿فُعِلَ﴾ صلة ﴿ما﴾ المصدرية، الجار والمجرور صفة لمصدر محذوف معمول لفعل محذوف، تقديره: فعلنا بهم فعلاً مثل فعلنا بأشياعهم، ويحتمل كون ﴿ما﴾ موصولة بمعنى: الذي ﴿فُعِلَ﴾: فعل ماضٍ مغيَّر الصيغة، ونائب فاعله ضمير يعود على ﴿ما﴾، والتقدير: فعلنا بهم فعلاً مثل الفعل الذي فعل بأشياعهم، والجملة المحذوفة مستأنفة: ﴿مِن قَبْلُ﴾: جار ومجرور، حال من ﴿أشياعهم﴾، ﴿إِنَّهُمْ﴾: ناصب واسمه، ﴿كَانُواْ﴾: فعل ناقص واسمه، ﴿فِى شَكٍّ﴾: خبره، ﴿مُّرِيبٍ﴾: صفة ﴿شَكٍّ﴾، وجملة ﴿كان﴾ في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿إِلَّآ إِفْكٌ﴾ الإفك: أشد الكذب، والكذب: ما خالف الواقع. ﴿مُّفْتَرًى﴾: المنسوب إلى الله تعالى، فهو تأسيس، لا تأكيد. ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ والسحر: من سحر يسحر، إذا خدع أحداً، وجعله مدهوشاً متحيراً، وهذا إنما يكون بأن يفعل الساحر شيئاً يعجز عن فعله وإدراكه المسحور عليه، كما في «شرح الأمالي».

وفي «الفتوحات المكية»: السحر: مأخوذ من السحر، وهو ما بين الفجر الأول والفجر الثاني، واختلاطه وحقيقته اختلاط الضوء والظلمة، فما هو بليل لما خالطه من ضوء الصبح، ولا هو بنهار بعدم طلوع الشمس للأبصار، فكذلك ما فعله

السحرة، ما هو باطل محقق، فيكون عدماً، فإن العين أدركت أمراً ما لا تشك فيه، ولا هو حق محض، فيكون له وجود في عينه، فإنه ليس هو في نفسه كما تشهده العين، ويظنه الرائي. انتهى. قال الشيخ الشعراني في «الكبريت الأحمر»: هو كلام نفيس، ما سمعنا مثله قط.

﴿مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ والدرس: قراءة الكتاب بإمعان النظر فيه طلباً لدرك معناه، والتدريس: تكرير الدرس، قال الراغب في «المفردات»: درس الشيء، معناه: بقي أثره، وبقاء الأثر يقتضي انمحاءه في نفسه، ولذلك فسر الدروس بالانمحاء، وكذا درس الكتاب، ودرست العلم: تناولت أثره بالحفظ، ولما كان تناول ذلك بمداومة القراءة.. عبر عن إدامة القراءة بالدرس.

﴿مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ قال في «القاموس»: والعشير: جزء من عشرة، كالمعشار والعشر، وتابعه من نقل عنه كالمنجد وغيره، وقال في «الكشاف»: والمعشار: كالمرباع، وهما: العشر والربع، وعبارة «البحر»: المعشار: مفعال من العشر، ولم يبقَ على هذا الوزن من ألفاظ العدد غيره، وغير المرباع، ومعناهما: العشر والربع، وقال قوم: المعشار: عشر العشر، وقال الماوردي: المعشار هنا: هو عشر العشير، والعشير: هو عشر العشر، فيكون جزءاً من ألف، قال: وهو الأظهر؛ لأن المراد به المبالغة في التقليل، قال الشوكاني: مراعاة المبالغة في التقليل لا يسوغ لأجلها الخروج عن المعنى العربي، وقال الجوهري: معشار الشيء: عشره، كما قاله صاحب «القاموس»، وهذا هو المعنى المعروف المعتبر هنا. ﴿نَكِيرِ﴾ والنكير: مصدر كالإنكار، وهو من المصادر التي جاءت على وزن فعيل، والفعل على وزن أفعال كالنذير والعذير من أنذر وأعذر، ذكره في «البحر».

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم﴾ الوعظ: زجر يقترن به تخويف، وقال الخليل: هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب، والعظة والموعظة الاسم. اهـ.

﴿وَفُرَٰدَىٰ﴾ قال الراغب: الفرد: الذي لا يختلط به غيره، فهم أعم من الوتر، وأخص من الواحد، وجمعه: فرادى. انتهى. وفي «المختار»: الفرد: الوتر، وجمعه: أفراد، وفرادى بالضم على غير القياس، كأنه جمع فردان.

﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾ التفكر: طلب المعنى بالقلب. ﴿مِّن جِنَّةٍ﴾؛ أي: جنون.

﴿مِّنْ أَجْرٍ﴾؛ أي: جعل ﴿يَقْذِفُ﴾ القذف: الرمي البعيد بنحو الحجارة والسهم، ويستعار لمعنى الإلقاء. ﴿يُبْدِئُ﴾ يقال: أبدأ الشيء: فعله ابتداءً، وأعاده فعله ثانياً. ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ الفوت: بعد الشيء عن الإنسان، بحيث يتعذر إدراكه. ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟﴾ والفزع: انقباض ونفار من الأمر المهول المخيف. ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾ التناوش بالواو: التناول السهل لشيء قريب، من النوش، يقال: تناوش وتناول إذا مد يده إلى شيء يصل إليه، ومن همزه فإنه أبدل من الواو همزة لانضمامه، نحو: أقتت في وقتت، وفي «المصباح»: ناشه نوشاً من باب قال: تناوله، والتناوش: التناول، يهمز ولا يهمز، وتناوشوا بالرماح: تطاعنوا بها. اهـ قال ابن السكيت: يقال للرجل إذا تناول رجلاً ليأخذ برأسه ولحيته: ناشه ينوشه نوشاً، ومنه: المناوشة في القتال، وذلك إذا تدانى الفريقان، وأنشدوا لغيلان بن حريث في وصف الإبل.

فَهْيَ تَنُوشُ ٱلْحَوْضَ نَوْشَاً مِنْ عُلاَ ... نَوْشَاً بِهِ تَقْطَعُ أَجْوَازَ ٱلْفَلاَ

يريد أنها عالية الأجسام طويلة الأعناق.

﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾؛ أي: يرجمون بالظنون التي لا علم لهم بها، والعرب تقول لكل من تكلم بما لا يستيقنه: هو يقذف بالغيب. ﴿بِأَشْيَاعِهِم﴾؛ أي: بأشباههم ونظرائهم، جمع شيع، وشيع جمع شيعة فالأشياع جمع الجمع، كما في «القرطبي» وشيعة الرجل: أتباعه وأنصاره، وكل قوم أمرهم واحد يتبع بعضهم رأي بعض فهم شيع.

﴿فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ﴾؛ أي: موقع في الريبة والظنة، يقال: أراب الرجل؛ أي: صار ذا ريبة، فهو مريب، ومن قال: هو من الريب الذي هو الشك والتهمة، قال: يقال شك مريب، كما يقال: عجب عجيب، وشعر شاعر في التأكيد. اهـ «قرطبي».

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: التنكير في قوله: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ﴾ للتهكم والتلهي.

ومنها: إضافة الآباء إلى ضمير المخاطبين، لا إلى أنفسهم في قوله: ﴿عَمَّا كَانَ

﴿يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ لتحريك عرق العصبية منهم مبالغة في تقريرهم على الشرك، وتنفيرهم عن التوحيد.

ومنها: الإظهار في موضع الإضمار في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ إظهاراً للغضب عليهم، ودلالة على أن هذا القول لا يجترىء عليه إلا المتمادون في الكفر، المنهمكون في الغي والباطل، وكان التركيب أن يقال: وقالوا؛ لتقدم المرجع، وفيه تكرار الفعل، وهو قولهم دلالة على الإنكار عليهم.

ومنها: زيادة ﴿مِن﴾ الاستغراقية في قوله: ﴿مِّن كُتُبٍ﴾ لتأكيد النفي.

ومنها: إيراد ﴿كُتُبٍ﴾ بصيغة الجمع تنبيهاً على أنه لا بد لمثل تلك الشبهة من نظائر الأدلة.

ومنها: الطباق بين ﴿مَثْنَىٰ﴾ ﴿وَفُرَٰدَىٰ﴾ فهو طباق بديع أُتي به احترازاً من القيام جماعة؛ لأن في الاجتماع تشويشاً للخواطر.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ استعار لفظ اليدين لما يكون من الأهوال والشدائد أمام الإنسان.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ فإنه كناية عن زهوق الباطل ومحو أثره؛ لأنه إذا هلك لم يكن له إبداء ولا إعادة.

ومنها: التعبير بالماضي عن المستقبل في قوله: ﴿إِذْ فَزِعُواْ﴾؛ لأن المستقبل بالنسبة إلى الله تعالى كالماضي في تحققه.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ شبه طلبهم ما لا يكون، وهو أن ينفعهم إيمانهم في ذلك الوقت، كما ينفع المؤمنين إيمانهم في الدنيا بحال من يريد أن يتناول الشيء من غلوة، كما يتناوله الآخر من مقياس ذراع تناولاً سهلاً لا تعب فيه في الاستحالة.

ومنها: الاستعارة التمثيلية أيضاً في قوله: ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ تقريرها: أنه شبه حالهم في ذلك؛ أي: في قولهم آمنا به؛ حيث لا ينفعهم الإيمان، بحال من رمى شيئاً من مكان بعيد، وهو لا يراه، فإنه لا يتوهم إصابته، ولا لحوقه لخفائه عنه، وغاية بعده.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية حيث استعار القذف بمعنى رمي الحجارة والحصى؛ لإلقائهم القول الكاذب، وظنهم الفاسد.

ومنها: حكاية الحال الماضية في قوله: ﴿يقذفون﴾ حيث عبر عن الماضي بلفظ المضارع.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿مُرِيبٍ﴾ لما فيه من الإسناد إلى الشيء ما لصاحبه؛ لأن الريب صفة للشاك، فأسند إلى الشك إسناداً مجازياً لقصد المبالغة.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

جملة ما اشتملت عليه هذه السورة الكريمة من حكم وأحكام

اشتملت هذه السورة على الأمور التالية:

١ ـ حمد الله سبحانه وتعالى، والثناء عليه بما هو أهله.

٢ ـ مقال المشركين في إنكار البعث، والرد عليهم بأنه آتٍ لا شك فيه.

٣ ـ الاستهزاء بالرسول، وحكمهم عليه بأنه إما مفتري، وإما مجنون.

٤ ـ النعم التي آتاها سبحانه داود وسليمان عليهما السلام.

٥ ـ ما كان لسبأ من النعم، ثم زوالها لكفرانهم بها، واتباعهم وسوسة الشيطان.

٦ ـ النعي على المشركين لعبادتهم الأوثان والأصنام مع بيان أنها لا تفيدهم يوم القيامة شيئاً.

٧ ـ الحجاج والجدل بين الأتباع والمتبوعين من الكافرين يوم القيامة، وإلقاء كل منهما التبعة على الآخر.

٨ ـ بيان أن المترفين في كل أمة هم أعداء الرسل لاعتزازهم بأموالهم وأولادهم، واعتقادهم أنهم ما آتاهم ربهم ذلك إلا لرضاه عنهم، ثم رده سبحانه عليهم.

٩ ـ سؤال الملائكة أمام المشركين بأنهم هل طلبوا منهم عبادتهم ليكون في ردهم ما يكفي في تبكيتهم.

١٠ ـ مقال المشركين عند سماع القرآن، وادعاؤهم أنه ليس بوحي من عند الله تعالى، بل الداعي مفتر ليصد الناس عن دين الإباء والأجداد.

١١ ـ عظتهم بما حل بمن قبلهم من الأمم.

١٢ ـ أمرهم بالتأمل والتدبر في الأدلة التي أمامهم لعلهم يرعوون عن غيهم.

١٣ ـ إثبات أن الرسول نذير مبين لا مفتر ولا مجنون.

١٤ ـ كون الرسول لا يطلب أجراً على دعوته، بل أجره على الله سبحانه وتعالى.

١٥ ـ طلب المشركين يوم القيامة أن يرجعوا إلى الدنيا ليؤمنوا بالرسول ويعملوا صالح الأعمال، ثم الرد عليهم بأن ذلك قد فات أوانه، وأن لا سبيل إلى تحقيقه[١].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) إلى هنا قد انتهى تفسير سورة سبأ بتوفيقه سبحانه وتيسيره، في منتصف ليلة السبت المبارك الثالثة عشر من شهر الله المحرم من شهور سنة أربع عشرة وأربع مئة وألف من الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين. آمين.

ولما فرغت منها.. تفرغت لتفسير سورة الملائكة بقدر طاقتي مع كثرة العوائق والمعائق والعوائق، وأسأل الله سبحانه وتعالى صرف العوارض والحواجز عني، والتيسير والتسهيل لأوضح المسالك، والتوفيق لما هو المعنى لكتابه في الواقع، إنه الكريم الجواد، والهادي إلى سبيل الرشاد، والموفق لطريق الصواب والسداد، والمسؤول لكل مأمول، والمرجو لفتح أبواب القبول، ونسأله أن يختم أعمالنا بالصالحات، وأعمارنا بالشهادات، وأن يجعل مآبنا إلى فراديس الجنات آمين آمين يا رب العالمين.

سورة فاطر

سورة فاطر، وتسمى سورة الملائكة أيضاً، مكية، نزلت بعد سورة الفرقان، قال القرطبي: في قول الجميع. وأخرج البخاري وابن الضريس وابن مردويه، والبيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس قال: أنزلت سورة فاطر بمكة.

وعدد آياتها: خمس وأربعون آية، **وعدد كلماتها**: تسع مئة وسبع وتسعون كلمة، **وعدد حروفها**: ثلاثة آلاف ومئة وثلاثون حرفاً.

الناسخ والمنسوخ فيها: وقال أبو عبد الله محمد بن حزم: سورة الملائكة جميعها محكم إلا قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ الآية (٢٣) نسخ معناها، لا لفظها بآية السيف. انتهى.

المناسبة: ومناسبة هذه السورة للسورة التي قبلها[١]: أنه سبحانه وتعالى لما ذكر في آخر سابقتها هلاك المشركين، وإنزالهم منازل العذاب.. لزم المؤمنين حمده تعالى وشكره، كما جاء في قوله: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

وعبارة أبي حيان هنا[٢]: مناسبة هذه السورة للسورة التي قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر في آخر السورة التي قبلها هلاك المشركين أعداء المؤمنين، وإنزالهم منازل العذاب.. تعين على المؤمنين حمده تعالى وشكره لنعمائه، ووصفه بعظيم آلائه، كما في قوله: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾، وقال أيضاً عند قوله: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾، فأول هذه السورة تتصل بآخر السابقة؛ لأن قوله: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ﴾ بيان لانقطاع رجاء من كان في شك مريب، ولما ذكر حالهم ذكر حال المؤمنين وبشّرهم بإرسال الملائكة إليهم مبشرين، وأنه يفتح لهم أبواب الرحمة. انتهى.

---

(١) المراغي.
(٢) البحر المحيط.

فضلها: ومن فضائلها: ما روي عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة الملائكة دعته ثمانية أبواب الجنة أن ادخل من أي باب شئت».

التسمية: سميت بسورة فاطر أو بسورة الملائكة لذكرهما فيها.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما وصف نفسه بالقدرة الكاملة والإرادة النافذة.. أيد ذلك بما

يشاهده كل أحد في نفسه من الضيق حيناً، والسعة حيناً آخر، مع العجز عن دفع البؤس إن وجد، وجلب النعمة لو أراد.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما بين أنه وحده هو المنعم بما يشاهده كل أحد في نفسه.. أمر بذكر نعمه بالاعتراف بها والشكر لها.

قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ...﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر الأصل الأول وهو التوحيد.. ثنى بذكر الأصل الثاني وهو الرسالة، وسلى رسوله على تكذيب قومه له بأنه ليس ببدع بين الرسل، فقد كذب كثير منهم قبله، فعليه أن يتأسى بهم ويصبر على أذاهم، ثم ذكر الأصل الثالث، وهو البعث والنشور مع بيان أنه حق لا شك فيه، وأنه لا ينبغي أن يقبلوا فيه وساوس الشيطان، فإنه عدو لبني آدم، ولا يرشدهم إلا إلى الذنوب والآثام التي توصلهم إلى عذاب النار وبئس القرار.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما بين أن الشيطان يضل أتباعه ويدعوهم إلى النار.. ذكر هنا أن حزب الشيطان لهم العذاب الشديد، وأن حزب الله لهم المغفرة والأجر الكبير، ثم بين أن الضلال والهداية بيد الله بحسب ما يعلم من الاستعداد وصفاء النفوس وقبول الهداية، أو تدسيتها وارتكابها الأجرام والمعاصي، فلا تحزن على ما ترى من ضلال قومك واتباعهم لوساوس الشيطان، والله عليم بحالهم، وسيجازيهم بما يستحقون.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها[1]: أن الله سبحانه لما ذكر أن الكافرين لهم عذاب شديد يوم القيامة، وأن الذين يعملون الصالحات لهم أجر كبير عند ربهم في ذلك اليوم.. أردف ذلك ببيان أن هذا اليوم لا ريب فيه، وضرب المثل الذي يدل على تحققه لا محالة، ثم ذكر أن من يريد العزة.. فليطع الله ورسوله، ولا يتعزز بعبادة

(١) المراغي.

الأصنام والأوثان، كما أخبر الله عنهم: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾﴾، وأن العمل الطيب يرفع إلى الله ويحفظ لديه، ويجازي عليه، ثم أعقب ذلك بأن من يمكر بالمؤمنين ويريد خداعهم.. فالله يفسد عليه تدبيره ويجازيه بما عمل شر الجزاء، وبعد أن ذكر دليل البعث بما يشاهد في الآفاق من دلائل القدرة.. ذكردليلاً عليه بما يرى في الأنفس من اختلاف أطوارها، فقد كانت تراباً، ثم نطفة، ثم وضعت في الأرحام إلى أن صارت بشراً سوياً، ومنها ما يمد في عمرها، ومنها ما يخترم قبل ذلك، كما تدل عليه المشاهدة، وكل ذلك يسير على الله سبحانه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر الأدلة على إثبات البعث، وضرب المثل لذلك بإحياء الأرض الميتة بعد إنزال الغيث عليها.. أردف هذا بذكر البراهين المختلفة على وحدانيته وعظيم قدرته بخلقه الأشياء المتحدة في الجنس المختلفة في المنافع، فهذا ماء عذب زلال يجري في الأقاليم والأمصار والبراري والقفار، يسقي منه الإنسان والحيوان، وينبت النبات الذي فيه غذاء لهما، وهذا ماء ملح أجاج تسير فيه السفن الكبار، ويستخرج منه اللؤلؤ والمرجان، ومن كل منهما تأكل لحماً طرياً فيه لذة للآكلين، وهذان ليل ونهار ضياء وظلام، يدخل أحدهما في الآخر، فأخذ هذا من طول ذاك، ويزيد هذا في قصر ذاك، فيعتدلان، ثم يتقارضان صيفاً وشتاءً، وسخر الشمس والقمر والنجوم الثوابت والسيارات بمقدار معين، وعلى نهج ثابت لا يتغير، وكل ذلك بتقدير العزيز العليم.

أما ما تدعون من دونه من الأصنام والأوثان.. فلا يملكون شروى نقير، ولا يسمعون لكم دعاءً، ولا يستجيبون لدعوة، ويوم القيامة يتبرؤون منكم إذا دعوتموهم واستشفعتم بهم، ولا ينبئك بهذا إلا الخبير، وهو ربك العليم بما كان وما سيكون.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ...﴾ الآية، سبب نزولها: ما أخرجه[1] ابن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ قال: أنزلت هذه الآية

(١) لباب النقول ببعض زيادة.

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ حيث قال النبي ﷺ: «اللهم أعز دينك بأحد العمرين: عمر بن الخطاب، أو بأبي جهل عمرو بن هشام» فهدى الله سبحانه عمر رضي الله عنه، وأضل أبا جهل لعنه الله تعالى، ففيهما أنزلت.

التفسير وأوجه القراءة

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ أي: كل المحامد مختصة بالله تعالى لا تتجاوز منه إلى غيره، وهو إن كان في الحقيقة حمداً لله لذاته بذاته، لكنه تعليم للعباد كيف يحمدونه، وبهذا الاعتبار تكون الجملة مقولاً لقول محذوف تقديره: قولوا يا عبادي عند ثنائي: الحمد لله، والشكر له على نعمه.

وهذه السورة[1] ختام السور المفتتحة بالحمد التي فصلت فيها النعم الأربع التي هي أمهات النعم المجموعة في الفاتحة، وهي الإيجاد الأول، ثم الإبقاء الأول، ثم الإيجاد الثاني المشار إليه بسورة سبأ، ثم الإبقاء الثاني الذي هو أنهاها وأحكمها، وهو الختام المشار إليه بهذه السورة المفتتحة الابتداء. اهـ «خطيب».

واعلم[2]: أن الحمد يتعلق بالنعمة والمحنة؛ إذ تحت كل محنة منحة، فمن النعمة العطاس، وذلك لأنه سبب لانفتاح المسام؛ أي: ثقب الجسد، واندفاع الأبخرة المحتبسة عن الدماغ الذي فيه قوة التذكر والتفكر، فهو بحران الرأس، كما أن العرق بحران بدن المريض، ولذا أوجب الشارع الحمد للعاطس. قال ابن عباس رضي الله عنهما: من سبق العطاس بالحمد لله وقي وجع الرأس والأضراس، ومن المحنة التجشي. وفي الحديث: «من عطس أو تجشأ فقال: الحمد لله على كل حال.. دفع الله بها عنه سبعين داءً أهونها الجذام». والتجشي: تنفس المعدة، وذلك لأن التجشي إنما يتولد من امتلاء المعدة من الطعام، فهو من المصائب في الدين خصوصاً إذا وقع حال الصلاة، ويدل عليه أنه عليه الصلاة والسلام كان يقول عند كل مصيبة «الحمد لله على كل حال».

ثم رتب الحمد على نعمة الإيجاد أولاً؛ إذ لا غاية وراءها؛ إذ كل كمال مبنيٌّ عليها فقال: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: مبدعهما ومخترعهما وخالقهما ابتداءً

---

(١) الفتوحات. (٢) روح البيان.

من غير مثال سبق من الفطر بفتح الفاء بمعنى: الشق، أو الشق طولاً، كما ذهب إليه الراغب، كأنه شق العدم بإخراجهما منه. وقيل: المعنى: شاقهما لنزول الأرواح من السماء، وخروج الأجساد من الأرض، كما في «البحر». وأما الفطر بكسرها: فهو ترك الصوم. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: ما كنت أدري ما فاطر السموات حتى اختصم إلي أعرابيان في بئر فقال: أحدهما أنا فطرتها؛ أي: ابتدأت حفرها.

والمقصود من هذا: أن من قدر على ابتداء هذا الخلق العظيم.. فهو قادر على الإعادة. وقرأ الجمهور[1]: ﴿فَاطِرِ﴾ على صيغة اسم الفاعل، وقرأ الزهري والضحاك: ﴿فطر﴾ على صيغة الفعل الماضي فعلى القراءة الأولى نعت للاسم الجليل؛ لأن إضافته محضة لكونه بمعنى الماضي، فتفيد التعريف، ومن جعلها غير محضة جعله بدلاً منه، وهو قليل في المشتق، ومثله: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ إضافته محضة أيضاً على أنه نعت آخر للاسم الجليل، ورسلاً منصوب بفعل مقدر، لأن اسم الفاعل إذا كان بمعنى الماضي لا يعمل عند البصريين، وجوز الكسائي عمله، أو منصوب بـ﴿جَاعِلِ﴾؛ لأن اسم الفاعل بمعنى الماضي، وإن كان لا يعمل عند البصريين إلا معرفاً باللام إلا أنه بالإضافة أشبه المعرف باللام فعمل عمله، وأما على أن إضافته غير محضة فهو منصوب بـ﴿جَاعِلِ﴾ بلا خلاف.

والمعنى: أي مصير الملائكة وسائط بينه تعالى وبين أنبيائه والصالحين من عباده، يبلِّغون إليهم رسالاته بالوحي والإلهام، والرؤيا الصادقة. أو بينه تعالى وبين خلقه؛ حيث يوصلون إليهم آثار قدرته وصنعه. وقال بعضهم: الإلقاء إما صحيح أو فاسد، فالصحيح إلٰهي رباني متعلق بالعلوم والمعارف أو ملكي روحاني، وهو الباعث على الطاعة وعلى كل ما فيه صلاح، ويسمى إلهاماً. والفاسد نفساني، وهو ما فيه حظ النفس، ويسمى هاجساً أو شيطاني، وهو ما يدعو إلى معصية، ويسمىٰ وسواساً.

والمراد بالملائكة: بعضهم لا كلهم، جبرائيل، وإسرافيل، وميكائيل، وعزرائيل، والحفظة المتعاقبون، والملائكة المسددون حكام العدل، وغيرهم

---

(١) الشوكاني.

كالملك الذي أرسله الله تعالى إلى الأعمى والأبرص والأقرع.

وقرأ الجمهور: ﴿جَاعِلِ﴾ بصيغة اسم الفاعل مجروراً. وقرأ الحسن: ﴿جاعل﴾ بالرفع والإضافة؛ أي: هو جاعل، وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو: ﴿جاعل﴾: بالرفع بغير تنوين. ﴿الملائكة﴾: نصباً حذف التنوين لالتقاء الساكنين، وقرأ ابن يعمر وخليد بن نشيط: ﴿جعل﴾ فعلاً ماضياً (الملائكة) نصباً، وذلك بعد قراءته فاطر بألف والجر، كقراءة من قرأ: ﴿فالق الإصباح وجعل الليل سكنا﴾، وقرأ الحسن وحميد بن قيس: ﴿رسلا﴾ بإسكان العين، وهي لغة تميم. وقال الزمخشري: وقرىء: ﴿الحمد لله الذي فطر السموات والأرض وجعل الملائكة﴾ فمن قرأ: ﴿فطر﴾ و﴿جعل﴾.. فينبغي أن تكون هذه الجمل إخباراً من العبدإلى ما أسداه إلينا من النعم، كما تقول: الفضل لزيد أحسن إلينا بكذا، خولنا كذا، يكون ذلك جهة بيان لفعله الجميل، كذلك يكون في قوله: ﴿فطر﴾ جعل؛ لأن في ذلك نعماً لا تحصى، ومن قرأ: ﴿فاطر﴾ ﴿جاعل﴾.. فالأظهر أنهما اسما فاعل بمعنى المضي، فيكون صفة للجلالة.

﴿أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٖ﴾ صفة لرسلاً؛ أي: أصحاب أجنحة ﴿مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ﴾ صفات لأجنحة، فهي مخفوضة بالفتحة الملفوظة، أو المقدرة؛ لأنها غير مصروفة للعدل والصفة؛ أي: جاعل الملائكة رسلاً أصحاب أجنحة اثنين اثنين، وثلاثة ثلاثة، وأربعة أربعة؛ أي: ذوي أجنحة متعددة متفاوتة في العدد حسب تفاوت ما لهم من المراتب، ينزلون بها من السماء إلى الأرض، ويعرجون أو يسرعون بها، فإن ما بين السماء والأرض، وكذا ما بين السموات مسيرة خمس مئة سنة، وهم يقطعونها في بعض الأحيان في وقت واحد.

ففي تعداد الأجنحة[١] إشارة إلى كمالية استعداد بعض الملائكة على بعض، وتفاوت أقدارهم وقواهم عند الله تعالى. والمعنى: إن من الملائكة خلقاً لكل منهم جناحان، وخلقاً لكل منهم ثلاثة، وخلقاً آخر لكل منهم أربعة. وعبارة النسفي هنا: والمعنى[٢]: إن الملائكة طائفة، أجنحتهم اثنان اثنان؛ أي: لكل واحد منهم جناحان، وطائفة أجنحتهم ثلاثة ثلاثة، ولعلَّ الثالث يكون في وسط الظهر بين

---

(١) روح البيان. (٢) النسفي.

الجناحين، يمدهما بقوة، وطائفة أجنحتهم أربعة أربعة. انتهى. وقال البيضاوي: ولعله لم يرد خصوصية الأعداد المذكورة ونفي ما زاد عليها؛ لما روي أنه ﷺ رأى جبرائيل ليلة المعراج وله ست مئة جناح، منها اثنان يبلغان من المشرق إلى المغرب، وفي هذا رمز إلى قوة استعداده الروحي، وقربه من الملأ الأعلى، وسرعة تنفيذه ما يؤمر به.

وذكر السهيلي: أن المراد بالأجنحة في حق الملائكة صفة ملكية، وقوة روحانية، وليست كأجنحة الطير، ولا ينافي ذلك وصف كل جناح منها أنه يسد ما بين المشرق والمغرب. هذا كلامه، كما في «إنسان العيون». وقال إسماعيل البروسوي: لا يجوز[1] العدول عن الظاهر مع إمكان الحمل على الحقيقة. وقد تظاهرت الروايات الدالة على إثبات الأجنحة للملائكة، وإن لم تكن كأجنحة الطير من حيث إن الله تعالى باين بين صور المخلوقات والملائكة، وإن كانوا روحانيين، لكن لهم أجسام لطيفة، فلا يمنع أن يكون للأجسام أجنحة جسمانية، كما لا يمنع أن يكون للأرواح أجنحة روحانية نورانية، كما ثبت لجعفر الطيار رضي الله عنه.

والحاصل: أن المناسب لحال العلويين أن يكونوا طائرين، كما أن المناسب لحال السفليين أن يكونوا سائرين، ومن أمعن النظر في خلق الأرض والجو.. عرف ذلك، ويؤيد ما قلنا إن البراق، وإن كان في صورة البغل في الجملة، لكنه لما كان علوياً.. أثبت له الجناح، نعم إن الأجنحة من قبيل الإشارة إلى القوة الملكية، والإشارة لا تنافي العبارة هذا.

وقيل: لم يجمع الله سبحانه في الأرض لشيء من خلقه بين الأجنحة والقرون والخراطيم والقوائم إلا لأضعف خلقه، وهو البعوض.

وجملة قوله: ﴿يَزِيدُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿فِي ٱلْخَلْقِ﴾؛ أي: في أي خلق كان من الملائكة وغيرهم، فاللام للجنس، والخلق بمعنى: المخلوق ﴿مَا يَشَآءُ﴾؛ أي: كل ما يشاء أن يزيده بموجب مشيئته ومقتضى حكمته من الأمور التي لا يحيط بها الوصف مستأنفة مقررة لما قبلها من تفاوت أحوال الملائكة.

فليس تفاوت أحوال الملائكة في عدد الأجنحة[2]، وكذا تفاوت أحوال

---

(١) روح البيان. (٢) روح البيان.

غيرهم في بعض الأمور تستدعيه ذواتهم، بل ذلك من أحكام المشيئة ومقتضيات الحكم.

فالآية متناولة لزيادات الصور والمعاني، فمن الأولى حسن الصورة خصوصاً الوجه، قيل: ما بعث الله نبياً إلا حسن الشكل، وكان نبينا ﷺ أملح الناس، ومنها ملاحة العينين واعتدال الصورة وسهولة اللسان وطلاقته وقوة البطش والشَّعر الحسن والصوت الحسن، وكان نبينا ﷺ طيب النغمة، وفي الحديث: «للَّهُ أشد أذناً للرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب قينة إلى قينته» أي: من استماع مالك جارية مغنية أريد هنا المغنية، وفي الحديث: «زينوا القرآن بأصواتكم»؛ أي: أظهروا زينته بحسن أصواتكم، وإلا فجلَّ كلام الخالق أن يزينه صوت مخلوق، ورخص تحسين الصوت به والتطريب ما لم يتغير المعنى بزيادة أو نقصان في الحروف، ومنها حسن الخط، وفي الخبر عن رسول الله ﷺ: «الخط الحسن يزيد الحق وضحاً»؟ وهو بالفتح: الضوء والبياض، وفي الحديث: «عليكم بحسن الخط، فإنه من مفاتيح الرزق». وقال البروسوي: حسن الخط مما يرغب فيه الناس في جميع البلاد، فاستكمال صنعة الكتابة من الكمالات البشرية، وإن كانت من الزيادات لا من المقاصد، وقد يتعيش بعض الفقراء بمنافع قلمه، ولا يحتاج إلى الغير، فتكون المنة لله على كل حال.

ومن الثانية كمال العقل، وجزالة الرأي، وجراءة القلب، وسماحة النفس، وغير ذلك من الزيادات المحمودة، كعلو الهمة؛ أي: التعلق بالمولى لا بالدنيا والعقبى. أو المعنى[1]: يزيد في خلق الأجنحة ما يشاء، كما يزيد في أرجل الحيوان ما يشاء، حتى لقد تبلغ فوق العشرين أحياناً. وهكذا يزيد في تفاوت العقول والنفوس والقوى المادية والمعنوية، كما قيل:

وَٱلنَّاسُ أَلْفٌ مِنْهُمْ كَوَاحِدِ ... وَوَاحِدٌ كَٱلأَلْفِ إِنْ أَمْرٌ عَنَا

وجملة قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ممكن ﴿قَدِيرٌ﴾؛ أي: بليغ القدرة تعليل لما قبلها من أنه يزيد في الخلق ما يشاء، فإن شمول قدرته تعالى لجميع الأشياء

---

(١) المراغي.

مما يوجب قدرته على أن يزيد كل ما يشاؤه إيجاباً بيناً، ومن الأشياء الإنقاذ من الشهوات، والإخراج من الغفلات، والإدخال في دائرة العلم والشهود الذي هو من باب الزيادات، فمن استعجز القدرة الإلهية فقد كفر. والمعنى: فيزيد كل ما هو أهل للزيادة، وما هو مستعد لها حسية كانت أو معنوية، فلا يمنع عليه فعل شيء أراد لما له من القدرة والسلطان على كل شيء.

و﴿مَّا﴾ في قوله: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ﴾ شرطية في محل النصب بـ﴿يَفْتَحِ﴾؛ أي: أيُّ شيء يفتح الله سبحانه ﴿لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾؛ أي: من خزائن رحمته، أية رحمة كانت من نعمة وصحة وعلم وحكمة ورزق ومطر إلى غير ذلك ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾؛ أي: لتلك الرحمة؛ أي: لا أحد من المخلوقات يقدر على إمساك تلك الرحمة، وحبسها عمن فتحت له، فإنه لا مانع لما أعطاه. وفي «الإرشاد»: عبر عن إرسالها بالفتح إيذاناً بأنها أنفس الخزائن، وأعزها منالاً، وتنكيرها للإشاعة والإبهام. قيل: الفتح ضربان[1]:

الأول: فتح إلهي، وهو النصرة بالوصول إلى العلوم والهدايات التي هي ذريعة إلى الثواب والمقامات المحمودة، ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ①﴾، وقوله: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾.

والثاني: فتح دنيوي، وهو النصرة في الوصول إلى اللذات البدنية. وذلك قوله: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾، وقوله: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

﴿وَمَا يُمْسِكْ﴾؛ أي: وأيّ شيء يمسكه الله سبحانه من رحمته ويحبسه ويمنعه ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ﴾؛ أي: لا أحد من الموجودات يقدر على إرساله وإعطائه، فإنه لا معطي لما منعه، فهو سبحانه المعطي المانع، القابض الباسط، لا معطي سواه، ولا منعم غيره، واختلاف الضميرين بالتأنيث في الأول، والتذكير في الثاني لما أن مرجع الأول مفسر بالرحمة، ومرجع الثاني مطلق في كل ما يمسكه من رحمته وغضبه. ففي التفسير الأول وتقييده بالرحمة إيذان بأن رحمته سبقت غضبه؛ أي:

---

(١) روح البيان.

في التعلق، وإلا فهما صفتان لله تعالى لا تسبق إحداهما على الأخرى في ذاتهما. ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ سبحانه؛ أي: فلا مرسل له من بعد إمساكه ومنعه كقوله: ﴿فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ﴾؛ أي: من بعد إضلال الله إياه.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾؛ أي: الغالب على كل ما يشاء من الأمور التي من جملتها الفتح والإمساك، فلا أحد ينازعه ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ الذي يفعل ما يشاء حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة. وفي «الخازن»: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ فيما أمسك ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾؛ أي: فيما أرسل.

ومعنى الآية[1]: مفاتيح الخير ومغاليقه كلها بيده سبحانه وتعالى، فما يعطِ من خير.. فلا يستطيع أحد منعه ولا إمساكه، وأيُّ خير يمسكه.. فلا يبسطه ولا يفتحه لهم فاتح؛ لأن الأمور كلها بيده تعالى، ومنها البذل والعطاء، والمنع والإمساك، وهو الغالب على كل ما يشاء من الأمور التي منها الفتح والإمساك. وهو الحكيم الذي يفعل كل ما يفعل بحسب ما تقتضيه الحكمة والمصلحة. وفي الآية عظة للناس بالإقبال إلى ربهم، والتوجه إليه في قضاء حوائجهم، والتوكل عليه في جميع مآربهم، والإعراض عما سواه من جميع خلقه.

ونحو الآية قوله: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٧﴾. روى أحمد عن المغيرة بن شعبة ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا انصرف من الصلاة لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد»، وهو بالفتح: الحظ، والإقبال في الدنيا؛ أي: لا ينفع الفتى المحظوظ حظه في الدنيا منك؛ أي: عندك، وإنما ينفعه العمل والطاعة.

وروى مسلم عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: إن رسول الله ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول: «سمع الله لمن حمده، اللهم ربّنا لك الحمد ملء السماء والأرض، وملء ما شئت من شيء بعد، اللهم أهل الثناء والمجد أحق

---

(١) المراغي.

ما قال العبد، وكلُّنا لك عبد، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد».

وعن معاذ ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: «لا تزال يد الله مبسوطة على هذه الأمة ما لم يرفق خيارهم بشرارهم، ويعظم برّهم فاجرهم، ويعن قرّاؤهم أمراءهم على معصية الله، فإذا فعلوا نزع الله يده عنهم».

وأخرج ابن المنذر عن عامر بن عبد قيس قال: أربع آيات من كتاب الله إذا قرأتهن فما أبالي ما أصبح عليه وأمسي:

١ ـ ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾.

٢ ـ ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾.

٣ ـ ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾.

٤ ـ ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾.

فعلى العاقل أن يجتهد حتى يأتي رزقه الصوري والمعنوي بلا جهد ولا مشقة ولا تعب، اللهم افتح لنا خير الباب، وارزقنا مما رزقت أولي الألباب، إنك مفتِّح الأبواب.

ثم أمر الله سبحانه عباده أن يذكروا نعمه الفائضة عليهم التي لا تعد ولا تحصى بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ عامة، فاللام للجنس، أو يا أهل مكة خاصّة، فاللام للعهد ﴿ٱذْكُرُوا۟﴾ بلسانكم وجنانكم وجوارحكم. ﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه؛ أي: إنعامه ﴿عَلَيْكُمْ ۚ﴾ إن جعلت النعمة مصدراً، أو منة الله حال كونها كائنة عليكم إن جعلت اسماً؛ أي: راعوها واحفظوها بمعرفة حقها والاعتراف بها. وتخصيص العبادة والطاعة بمعطيها سواء كانت نعمة خارجة كالمال والجاه، أو نعمة بدنيّة كالصحة والقوة، أو نعمة نفسية كالعقل والفطنة، ومعنى أمرهم بالذكر لها: هو إرشادهم إلى الشكر لاستدامتها وطلب المزيد منها، ورسمت[1] لفظة ﴿نِعْمَتَ﴾ بالتاء المبسوطة في أحد عشر موضعاً من القرآن، ووقف عليها بالهاء ابن كثير وأبو عمرو والكسائي

---

(١) روح البيان.

ويعقوب ولمّا كان ذكر النعمة مؤدّياً إلى ذكر المنعم قال بطريق الاستفهام الإنكاري: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: هل خالق مغاير له تعالى موجود؛ أي: لا خالق سواه على أنّ ﴿خَٰلِقٍ﴾ مبتدأ محذوف الخبر، زيدت عليه ﴿مِنْ﴾ تأكيداً للعموم. و﴿غير الله﴾ نعت له باعتبار محله، كما أنه نعت له في قراءة الجر باعتبار لفظه.

وقرأ ابن وثاب وشقيق وأبو جعفر وزيد بن علي وحمزة والكسائي[1] ﴿غَيْرِ ٱللَّهِ﴾ بالخفض نعتاً على اللفظ، و﴿مِنْ خَٰلِقٍ﴾ مبتدأ و﴿يَرْزُقُكُم﴾ جوّزوا أن يكون خبراً للمبتدأ، وأن يكون صفته، وأن يكون مستأنفاً، والخبر على هذين الوجهين محذوف، تقديره: لكم. وقرأ شيبة وعيسى والحسن وباقي السبعة: ﴿غَيْرُ﴾ بالرفع، وجوزوا أن يكون نعتاً على الموضع، كما كان على الجر نعتاً على اللفظ، وهذا الوجه أظهر لتوافق القراءتين فيه، وأن يكون خبراً للمبتدأ، وأن يكون فاعلاً باسم الفاعل الذي هو خالق؛ لأنه قد اعتمد على أداة الاستفهام، فحسن أعماله كقولك، أقائم زيد في أحد وجهيه. وقرأ الفضل بن إبراهيم النحوي: ﴿غيرَ﴾ بالنصب على الاستثناء والخبر إمّا ﴿يَرْزُقُكُم﴾ وإما محذوف، و﴿يَرْزُقُكُم﴾ مستأنف، أو صفة أخرى لـ﴿خَٰلِقٌ﴾، وفي «روح البيان»: وجملة[2] ﴿يَرْزُقُكُم﴾ كلام مستأنف لا محل له من الإعراب، ولا مساغ لكونه صفة أخرى لـ﴿خَٰلِقٌ﴾؛ لأنّ معناه حينئذ نفي وجود خالق موصوف بوصفي المغايرة والرازقية معاً من غير تعرض لنفي وجود ما اتصف بالمغايرة فقط، ولا لكونه خبراً للمبتدأ؛ لأن معناه نفي رازقية خالق مغاير له تعالى من غير تعرّض لنفي وجوده رأساً مع أنّه المراد حتماً. والمعنى: يرزقكم سبحانه وتعالى: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بالمطر ﴿و﴾ من ﴿الأرض﴾ بالنبات.

وفائدة هذا التعريف: أنه إذا عرف أنه لا رازق سواه.. لم يعلّق قلبه بأحدٍ في طلب شيء، ولا يتذلّل للإنفاق لمخلوق، وكما لا يرى رزقه من مخلوق لا يراه من نفسه أيضاً، فيتخلّص من ظلمات تدبيره واحتياله، وتوهّم شيء من أمثاله وأشكاله، ويستريح بشهود تقديره تعالى.

وجملة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ مستأنفة لتقرير النفي المستفاد من الاستفهام؛ أي: لا

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

معبود بحق في الوجود إلا هو سبحانه وتعالى عمّا يقولون علواً كبيراً، وإذا تبيّن تفرّده تعالى بالألوهية والخالقية والرّازقيّة ﴿فَأَنَّىٰ﴾؛ أي: فمن أي وجه، وبأي حجة ﴿تُؤْفَكُونَ﴾؛ أي: تصرفون عن التوحيد إلى الشرك، وعن عبادته إلى عبادة الأوثان، وكيف تصرفون، فالفاء لترتيب إنكار عدولهم عن الحق إلى الباطل على ما قبلها.

قال الزجاج: أي من أين يقع لكم الإفك والتكذيب بتوحيد الله والبعث، وأنتم مقرّون بأنّ الله خلقكم ورزقكم. وفي «الفتوحات»: ﴿فَأَنَّىٰ﴾ هنا بمعنى: كيف؛ أي: من أيٍّ وجه، ومن أي حالة، وبأي سبب تعبدون غيره، فغيره ليس فيه وصف يقتضي أن تصرفوا لعبادته، فإنه لا يقدر على خلق، ولا على رزق، ولا على غيرهما. اهـ شيخنا.

ومعنى الآية: يا أيها الناس راعوا نعم الله تعالى واحفظوها بمعرفة حقها، والاعتراف بها، وخصوا خالقها بالعبادة والطاعة، فهو الذي بيده أرزاقكم وأقواتكم، فإلى أيّ وجه تصرفون عنه بعد أن استبان الحق ووضح السبيل.

والخلاصة: احفظوا نعم الله تعالى، وأدّوا حقها، ولا تشركوا به سواه من الأصنام والأوثان بعد وضوح الدليل وسطوع البرهان.

ثمّ سلّى الله سبحانه رسوله ﷺ فقال: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ ليتأسّى بمن قبله من الأنبياء، ويتسلّى عن تكذيب كفار العرب؛ أي: وإن استمر المشركون على أن يكذّبوك يا محمد فيما بلّغت إليهم فلا تحزن واصبر. ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ﴾ أولوا شأن خطير، وذوو عدد كثير، ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ فصبروا وظفروا. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه لا إلى غيره ﴿تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ من الرجع، وهو الرد؛ أي: تردّ إليه عواقبها، فيجازي كل صابر على صبره، وكل مكذّب على تكذيبه. وفي «التأويلات النجمية»: يشير إلى تسلية الرسول ﷺ وأولياء أمته وتسهيل الصبر على الأذيّة إذا علم أن الأنبياء عليهم السلام استقبلهم مثل ما استقبله، وأنهم لمَّا صبروا لله كفاهم، علم أنه يكفيه بسلوك سبيلهم والاقتداء بهم. وقرأ الحسن والأعرج ويعقوب وابن عامر وأبو حيوة وابن محيصن وحميد والأعمش ويحيى بن وثاب وحمزة والكسائي وخلف[1]: ﴿ترجع﴾

---

(١) الشوكاني.

بفتح الفوقية على البناء للفاعل، وقرأ الباقون بضمها على البناء للمفعول.

والمعنى: أي وإن استمر قومك يا محمد على تكذيبك فيما بلّغته إليهم من الحق المبين بعد أن أقمت لهم الحجج، وضربت الأمثال فتأسى بمن سبقك من الرسل، فقد صبروا على ما أوذوا حتى أتاهم نصرنا، ولا مبدّل لكلماتنا، وإلى الله مرجع أمرك وأمرهم، فيجازيك وإياهم على الصبر والتكذيب. ثمّ ذكر أن البعث آت لا ريب فيه، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ عامة، أو يا كفار مكة خاصة. ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه إياكم بالبعث والجزاء، وإخباره لكم بالحساب والعقاب والجنة والنار ﴿حَقٞۖ﴾؛ أي: ثابت لا محالة لا خلف فيه.

وفي «التأويلات النجمية»: يشير سبحانه إلى أنّ كل ما وعد به الله من الثواب والعقاب والدرجات في الجنة والدركات في النار والقربات في أعلى علّيّين، وفي مقعد صدق عند مليك مقتدر، والبعد إلى أسفل سافلين حق، وصدق لا كذب فيه، فإذا علم ذلك استعدّ للموت قبل نزول الفوت، ولم يهتم للرزق، ولم يتهم الرب في كفاية الشغل ونشط في استكثار الطاعة ورضي بالمقسوم. ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾؛ أي: لا تمنعنكم زينة الحياة الدنيا، وزخارفها، وشهواتها عن التزوّد للآخرة؛ بأن يذهلكم التمتع بها عن طلب الآخرة، والسعي لها، وتقطعكم زينتها وشهواتها عن الرياضات والمجاهدات وترك الأوطان ومفارقة الإخوان في طريق الطلب، والمراد: نهيهم عن الاغترار بها، وإن توجّه النهي صورة إليها. وفي بعض الأثار: «يا ابن آدم، لا يغرنك طول المهلة، فإنما يعجل بالأخذ من يخاف الفوت» قال سعيد بن جبير: غرور الحياة الدنيا: أن يشتغل الإنسان بنعيمها ولذاتها عن عمل الآخرة حتى يقول: ﴿يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾.

﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم﴾؛ أي: لا يخدعنكم أيها الناس ﴿بِٱللَّهِ﴾؛ أي: بسعة كرمه وعفوه. ﴿ٱلۡغَرُورُ﴾ بفتح الغين؛ أي: الشيطان المبالغ في الغرور والخداع؛ بأن يمنّيكم المغفرة مع الإصرار على المعصية، فيقول لكم: إن الله يتجاوز عنكم ويغفر لكم لفضلكم، أو لسعة رحمته لكم.

وفي «المفردات»: الغرور ـ بالفتح ـ كل ما يغرّ الإنسان من مال وجاه وشهوة وشيطان، وقد فسّر بالشيطان، إذ هو أخبث الغاوين، وبالدنيا، لما قيل الدنيا تغرّ وتضرّ وتمرّ.

والمعنى[1]: ولا يغرنكم أيها الناس بالله الشيطان المبالغ في الغرور؛ بأن يمنيكم المغفرة مع الإصرار على المعاصي، قائلاً: اعملوا ما شئتم إنّ الله غفور يغفر الذنوب جميعاً، وإنه غني عن عبادتكم وتعذيبكم، فإنّ ذلك وإن أمكن، لكن تناول الذنوب بهذا التوقّع من قبيل تناول السم اعتماداً على دفع الطبيعة. فالله تعالى، وإن كان أكرم الأكرمين مع أهل الكرم، لكنّه شديد العقاب مع أهل العذاب. وقرأ الجمهور[2]: بفتح الغين، وفسّره ابن عباس رضي الله عنه بالشيطان. وقرأ أبو حيوة وأبو السمال ومحمد بن السميقع: بضمّ الغين، جمع: غار مثل: قاعد وقعود، أو مصدر كقوله: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾، وعليه فالكلام على حذف مضاف؛ أي: صاحب الغرور والخداع، وهو الشيطان، يقال: غرّه غروراً كلزمه لزوماً ونهكه نهوكاً.

ومعنى الآية[3]: أي إن وعد الله بالحشر والجزاء حق لا شكّ فيه، فلا تغرنّكم الحياة الدنيا، فيذهلنكم التمتع بمتاعها، ولا يلهينكم التلهي بزخارفها عن تدارك ما ينفعكم يوم حلول الميعاد اتباعاً لوساوس الشيطان.

والخلاصة: أنّكم لا تغتروا بالحياة الدنيا، وتتركوا فعل ما أمرتم به، وتفعلوا ما نهيتم عنه. ثمّ ذكر العلة في عدم الاغترار بالشيطان فقال: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ﴾ يا بني آدم لا لغيركم ﴿عَدُوٌّ﴾ عظيم عداوة قديمة بما فعل بأبيكم ما فعل لا تكاد تزول، أو معلن عداوته لكم بوسوسته. ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ بمخالفتكم له في عقائدكم وأفعالكم، وكونكم على حذر منه في جميع أحوالكم؛ أي: فعادوه أنتم أشدّ العداوة بطاعة ربكم، وخالفوه فيما أمركم به من معصية الله، وكذّبوه فيما يغرنكم به، فلا تكفي[4] العداوة باللسان فقط، بل يجب أن تكون بالقلب والجوارح جميعاً، ولا يقوى المرء على عداوته إلاّ بملازمة الذّكر ودوام الاستعانة بالربّ، فإنّ من هجم عليه كلاب الرّاعي يشكل عليه دفعها إلاّ أن ينادي الراعي، فإنه يطردها بكلمة منه. ثمّ بيّن لعباده كيفية عداوة الشيطان لهم فقال: ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ﴾ الشيطان ﴿حِزْبَهُۥ﴾؛ أي أشياعه وجماعته وأتباعه المطيعين له إلى معاصي الله سبحانه. ﴿لِيَكُونُواْ﴾؛ أي:

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.
(٤) روح البيان.

لأجل أن يكون حزبه ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾؛ أي: من أصحاب النار المسعرة المتقدة عليهم خالدين فيها معه؛ أي: ما غرضه من دعوة شيعته إلى اتباع الهوى، والركون إلى لذّات الدنيا إلا إضلالهم وإلقاؤهم في العذاب الدائم من حيث لا يشعرون. وفي «التأويلات»: حزبه المعرضون عن الله المشتغلون بغير الله. قال في «الإرشاد»: هذا تقرير لعداوته، وتحذير من طاعته بالتنبيه على أنّ غرضه في دعوة شيعته إلى اتباع الهوى، والركون إلى ملاذ الدنيا ليس تحصيل مطالبهم ومنافعهم الدنيويّة، كما هو مقصد المتحابّين في الدنيا عند سعي بعضهم في حاجة بعض، بل هو توريطهم وإلقائهم في العذاب المخلّد من حيث لا يحتسبون. انتهى. ثمّ كشف الغطاء فبنى الأمر كله على الإيمان وتركه، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: ثبتوا على الكفر بما وجب الإيمان به، وأصرّوا عليه. ﴿لَهُمْ﴾ بسبب كفرهم وإجابتهم لدعوة الشيطان ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ معجّل ومؤجّل[1]، فمعجّله: تفرقة قلوبهم، وانسداد بصائرهم، وخساسة همّتهم، حتى إنهم يرضون بأن يكون معبودهم الأصنام والهوى والدنيا والشيطان، ومؤجّله: عذاب الآخرة، وهو ممّا لا يخفى شدّته وصعوبته، ومحل الموصول الرفع على الابتداء، والخبر جملة قوله: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

والمعنى: أي الذين كفروا بالله ورسوله لهم عذاب شديد في النّار من جراء كفرهم، وإجابتهم دعوة الشيطان، واتباعهم خطواته. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾؛ أي: ثبتوا على الإيمان واليقين. ﴿وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: الطاعات الخالصة لله تحصيلاً لزيادة نور الإيمان. ﴿لَهُم﴾ بسبب إيمانهم، وعملهم الصالح الذي من جملته عداوة الشيطان ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ عظيمة، وهي في المعجل ستر ذنوبهم، ولولا ذلك لافتضحوا، وفي المؤجّل محوها من ديوانهم، ولولا ذلك لهلكوا. ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ لا غاية له، وهو اليوم سهولة العبادة، ودوام المعرفة، وما يناله في قلبه من زوائد اليقين وخصائص الأحوال، وأنواع المواهب، وفي الآخرة: تحقيق المسؤول، ونيل ما فوق المأمول.

والمعنى: أي والذين صدقوا الله ورسوله، وعملوا بما أمرهم به، وانتهوا عمّا نهاهم عنه لهم مغفرة من الله لذنوبهم، وأجر كبير كفاء ما ملؤوا به قلوبهم من عامر

---

(١) روح البيان.

الإيمان، وأخبتوا لربهم بصالح الأعمال، والهمزة في قوله: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ للاستفهام الإنكاري داخلة على محذوف. والفاء عاطفة على ذلك المحذوف و﴿من﴾ اسم موصول في محل الرفع على الابتداء، والخبر محذوف، والتقدير: أيتساوى الفريقان بعد تباين عاقبتهما، فيكون من زيّن وحسّن له عمله السيء،؛ أي: زينه له الشيطان. ﴿فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ﴾؛ أي: فظنّه جميلاً وأضلّه الله، كمن استقبحه واجتنبه واختار الإيمان والعمل الصالح، وهداه الله سبحانه؛ أي: لا يكون مثله دلّ على الخبر المحذوف قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ﴾ الخ، فهو تقرير له، وتحقيق للحق ببيان أن الكل بمشيئة الله تعالى، والفاء فيه لتعليل النفي المستفاد من الاستفهام، أي لا يكون مثله، لأنّ الله سبحانه يضلّ ﴿مَن يَشَآءُ﴾ أن يضله لاستحسانه الضلال وصرف اختياره إليه، فيردّه إلى أسفل سافلين. ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُۖ﴾ أن يهديه لصرف اختياره إلى الهدى، فيرفعه إلى أعلى عليين، والفاء في قوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ﴾ ولا تمت ﴿عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على المزين لهم؛ أي: بسببهم، ﴿حَسَرَٰتٍۚ﴾؛ أي: لأجل حسرتك واغتمامك بعدم إيمانهم للإفصاح، وذهاب النفس كناية عن الموت، وحسرات جمع: حسرة، وهي شدّة الحزن على ما فات، والندم عليه، كأنه انحسر عنه الجهل الذي حمله على ما ارتكبه، وجمعه للدلالة على تضاعف اغتمامه ﷺ على أحوالهم، أو على كثرة قبائح أعمالهم الموجبة للتأسف والتحسر، و﴿عَلَيْهِمْ﴾ صلة ﴿تذهب﴾، كما يقال: هلك عليه حباً، ومات عليه حزناً، ولا يجوز أن يتعلّق بحسرات؛ لأنّ المصدر لا تتقدّم عليه صلته.

والمعنى[1]: إذا عرفت أنّ الكل بمشيئة الله تعالى، وأردت بيان ما هو الأصلح لك.. فأقول لك: لا تهلك نفسك للحسرات على غيّهم، وإصرارهم، والغموم على تكذيبهم وإنكارهم، فقد بذلت لهم النصح، وخرجت عن عهدة التبليغ، فلا مشقة لك من بعد، وإنما المشقّة عليهم في الدنيا والآخرة؛ لأنهم سقطوا عن عينك، ومن سقط عن عينك، فقد سقط عن عين الله، فلا يوجد أحد يرحمه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه ﴿عَلِيمٌۢ﴾؛ أي: بليغ العلم. ﴿بِمَا يَصْنَعُونَ﴾؛ أي: بما يفعلون من القبائح، فيجازيهم عليها جزاءً قبيحاً، فإنّهم وإن استحسنوا القبائح

---

(١) روح البيان.

لقصور نظرهم، فالقبيح لا يكون حسناً أبداً.

والجملة تعليل لما قبلها مع ما تضمنه من الوعيد الشديد. واعلم أنّ الكافر يتوهم أن عمله حسن، كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾، ثمّ الراغب في الدنيا يجمع حلالها وحرامها، ولا يتفكّر في زوالها، ولا في ارتحاله عنها قبل كمالها، فقد زيّن له سوء عمله.

والمعنى: أي فلا تأسف على عدم إيمانهم وعدم إجابتهم دعوتك، فإنّ الله حكيم في قدره، فهو يضل من يضل من عباده، ويهدي من يشاء، لما في ذلك من الحجة البالغة، والعلم التام باستعداد النفوس؛ إما بإخباتها لربها، وإنابتها إليه، وميلها إلى صالح العمل، وإما بتدسيتها وحبها لاجتراح السيئات، وارتكاب الموبقات، ونحو الآية قوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾، ثمّ هدّد الكافرين على قبيح أعمالهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾؛ أي: إن الله عليم بما يصنعون من القبائح، فيجازيهم عليه بما يستحقون، وفي هذا وعيد تهد منه الجبال، وتدك منه الأرض دكاً.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿فمن زين﴾ مبنياً للمفعول ﴿سُوٓءُ﴾ بالرفع، وقرأ عبيد بن عمير: ﴿زيّن له سوء﴾ مبنياً للفاعل، ونصب ﴿سوء﴾، وعنه أيضاً: ﴿أسوأ﴾ على وزن أفعل منصوباً، وأسوأ عمله هو الشرك، وقرأ طلحة: ﴿أمن زين له سوء عمله﴾ بغير فاء. قال صاحب «اللوامح»: للاستخبار بمعنى العامة للتقرير، ويجوز أن يكون بمعنى: حرف النداء، فحذف التمام كما حذف من المشهور الجواب انتهى، ومعنى بالجواب: خبر المبتدأ، وبالتمام: ما يؤدي لأجله؛ أي: يا من زين له سوء عمله تفكر وارجع إلى الله، فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء. وقرأ الجمهور: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ﴾ مبنياً للفاعل من ذهب، و﴿نَفْسُكَ﴾ فاعل. وقرأ أبو جعفر وقتادة وعيسى والأشهب وشيبة وأبو حيوة وحميد والأعمش وابن محيصن: ﴿تُذْهِبْ﴾ من أذهب مسنداً لضمير المخاطب ﴿نَفْسَكَ﴾ بالنصب، ورويت عن نافع.

ثم أخبر سبحانه عن نوع من أنواع بديع صنعه، وعظيم قدرته؛ ليتفكّروا في

---

(١) البحر المحيط.

ذلك وليعتبروا به فقال: ﴿وَٱللَّهُ﴾ وحده، مبتدأ خبره قوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ قرأ الجمهور[1]: ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ بالجمع، وقرأ ابن كثير وابن محيصن والأعمش ويحيى بن وثاب وحمزة والكسائي: ﴿الريح﴾ بالإفراد؛ أي: والإله الذي يستحق منكم العبادة هو الذي أوجد الرياح، وأنشأها من العدم، فهبو بها دليل ظاهر على الفاعل المختار، وذلك لأنّ الهواء قد يسكن وقد يتحرك، وعند حركته قد يتحرك إلى اليمين، وقد يتحرك إلى الشمال، وفي حركاته المختلفة قد ينشىء السحاب، وقد لا ينشىء، فهذه الاختلافات دليل على تسخير مدبّر ومؤثر مقدّر.

والمراد بالرياح هنا[2]: الجنوب والشمال والصبا، فإنها رياح الرحمة لا الدّبور، فإنها رياح العذاب، أما الجنوب فريح تخالف الشمال، مهبها من مطلع سهيل إلى مطلع الثريا، وأما الشمال بالفتح ويكسر مهبها بين مطلع الشمس وبنات النعش، أو من مطلع الشمس إلى مسقط النسر الطائر، ولا تكاد تهب ليلاً، وأمّا الصبا: فمهبها من جانب المشرق إذا استوى الليل والنهار، سميت بها لأنها تصبو إليها النفوس؛ أي: تميل، ويقال لها: القبول أيضاً بالفتح؛ لأنها تقابل الدبور، أو لأنها تقابل باب الكعبة، أو لأن النفس تقبلها. ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾؛ أي: تهيّجه وتحركه من حيث هو، وتنشره وترفعه بين السماء والأرض لإنزال المطر؛ لأنه مزيد ثار الغبار إذا هاج وانتشر ساطعاً، والسحاب جسم يملأه الله ماء كما شاء.

وصيغة المضارع مع مضيّ أرسل وسقنا؛ لحكاية الحال الماضية استحضاراً لتلك الصورة البديعة الدالة على كمال القدرة والحكمة، ولأن المراد بيان أحداثها لتلك الخاصيّة، ولذلك أسند إليها. ﴿فَسُقۡنَٰهُ﴾؛ أي: السحاب، وكان مقتضى الظاهر أن يقال: فساقه؛ أي: ساق الله سبحانه ذلك السحاب وأجراه ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾؛ أي: إلى مكان لا نبات فيه؛ لأنه هو الذي يحتاج إلى الماء، وقال: ﴿فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ﴾ التفاتا من الغيبة إلى التكلم دلالة على زيادة اختصاصه به تعالى، وإنّ الكل منه، والوسائط أسباب.

وقال أبو عبيدة: مقتضاه: فتسوقه؛ لأنه قال أولاً: فتثير سحاباً، قيل: النكتة في التعبير بالماضيين بعد المضارع الدلالة على التحقق. اهـ. وقال: ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾

---

(١) الشوكاني.

(٢) روح البيان.

بالتنكير قصداً به إلى بعض البلاد الميتة، وهي بلاد الذين تبعّدوا عن مظانّ الماء. وقرأ نافع وحمزة والكسائي وحفص[1]: ﴿مَّيِّتٍ﴾ بتشديد الياء، والباقون بتخفيفها. قال المبرّد: ميْت وميّت واحد، وقال هذا قول البصريين وأنشد:

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَاحَ بِمَيْتٍ إِنَّمَا الْمَيْتُ مَيِّتُ الأَحْيَاءِ

﴿فَأَحْيَيْنَا﴾ الفاءات[2] الثلاثة للسببيّة، فإن ما قبل كل واحدة منها سبب لمدخولها غير أن الأولى دخلت على السبب بخلاف الأخيرتين، فإنهما دخلتا على المسبَّب، ﴿بِهِ﴾؛ أي: بالمطر النازل من السحاب المدلول عليه بالسحاب، فإنّ بينهما تلازماً في الذهن، كما في الخارج، أو بالسحاب فإنه سبب السبب. ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ بإنبات ما ينبت فيها. ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؛ أي: بعد يبسها؛ أي: صيَّرناها خضراء بالنبات بعد خلوّها منه، وأسند[3] الله تعالى الإرسال إلى الغائب والسوق، والإحياء إلى المتكلم؛ لأنّ في الأول تعريفاً بالفعل العجيب، وهو الإرسال والإثارة، وفي الثاني تذكيراً بالنعمة، فإن كمال نعمة الرياح والسحب بالسوق والإحياء.

والكاف في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ في حيّز الرفع على الخبريَّة؛ أي: مثل ذلك الإحياء الذي تشاهدونه إحياء الموتى، وإخراجهم من القبور يوم الحشر في صحة المقدوريّة وسهولة التأتّي من غير تفاوت بينهما أصلاً سوى الإلف في الأوَّل دون الثاني، فالآية احتجاج على الكفرة في إنكارهم البعث حيث دلّهم على مثال يعاينونه غير ما مرّةٍ.

وقال بعضهم[4]: معنى ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾: أي: في كيفية الإحياء، فكما أنَّ إحياء الأرض بالماء كذلك إحياء الموتى بالماء، كما روي أنّ الله تعالى يرسل من تحت العرش ماء كمنّي الرجال، فينبت به الأجساد كنبات البقل، ثم يأمر إسرافيل فيأخذ الصور فينفخ نفخة ثانية، فتخرج الأرواح من ثقب الصور كأمثال النحل، وقد ملأت ما بين السماء والأرض فيقول الله: ليرجعنّ كل روح إلى جسده، فتدخل

---

(١) البيضاوي.
(٢) روح البيان.
(٣) المراح.
(٤) روح البيان.

الأرواح في الأرض إلى الأجساد ثمّ تدخل في الخياشيم فتمشي في الأجساد مشي السمّ في اللديغ، ثمّ تنشق الأرض، فيخرجون حفاة عراة، والله أعلم.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ﴾ ويودّ ويطلب ﴿ٱلْعِزَّةَ﴾ والشرف والمنعة. ﴿فَـ﴾ليطلبها من عنده تعالى بلزوم طاعته وتقواه، لا من عند غيره فإنه ﴿لله﴾ وحده لا لغيره ﴿ٱلْعِزَّةَ﴾ والمنعة حال كونها ﴿جَمِيعًاۚ﴾؛ أي: في الدنيا والآخرة؛ أي: عزة الدنيا والآخرة، لا يملك غيره شيئاً منها، فاستغنى عن ذكر الجواب بذكر دليله إيذاناً بأن اختصاص العزة به تعالى موجب لتخصيص طلبها به تعالى، ونظيره قولك: من أراد العلم فهو عند العلماء؛ أي: فليطلبه من عندهم؛ لأن الشيء لا يطلب إلا من عند صاحبه ومالكه، فقد أقمت الدليل مقام المدلول.

فإن قلت: قد أثبت العزة في آية أخرى لله ولرسوله وللمؤمنين، وهنا خصّها بالله سبحانه، فبينهما معارضة؟.

قلت: يجمع بينهما أن عز الربوبيّة والإلهيّة لله تعالى وصفاً، وهذا هو المراد هنا، وعزّ الرسول والمؤمنين له تعالى فعلاً ومنّةً وفضلاً، فإذاً العزة لله جميعاً، فعزة الرسول والمؤمنين أثر عزة الربوبية، وقال الزمخشري: لا تنافي بينهما؛ لأنّ العزة في الحقيقة لله بالذات، وللرسول بواسطة قربه من الله، وللمؤمنين بواسطة الرسول، فالمحكوم عليه أوّلاً غير المحكوم عليه ثانياً، قيل: معنى هذا الكلام: من كان يريد أن يعلم من له العزة فلله العزة جميعاً؛ أي: العزة كلها مختصة بالله، عزة الدنيا، وعزة الآخرة، وقيل: من كان يريد العزة فليتعزّز بطاعة الله فقال: فهو دعاء، إلى طاعة من له العزة؛ أي: فليطلب العزة من عند الله تعالى بطاعته وتقواه، وذلك أن الكافرين كانوا يتعزّزون بالأصنام، كما قال: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾﴾، وأنّ الذين آمنوا بألسنتهم من غير مواطاة قلوبهم كانوا يتعزّزون بالمشركين، كما قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ فبيّن أن لا عزة إلا لله ولرسوله ولأوليائه المؤمنين. اهـ. «خازن» بتصرف. وفي «القرطبي»: ويحتمل أن يريد سبحانه أن ينبّه ذوي الأقدار والهمم من أين تنال العزة، ومن أين تستحق، فتكون الألف واللام للاستغراق، وهذا هو المفهوم من هذه الآية.

وقال الشوكاني: والظاهر في معنى الآية: أي: من كان يريد العزة ويطلبها فليطلبها من الله عز وجل، فلله العزة جميعاً ليس لغيره منها شيء، فتشمل الآية كل من طلب العزة، ويكون المقصود بها التنبيه لذوي الأقدار والهمم من أين تنال العزة، ومن أيّ جهة تطلب. اهـ.

﴿إِلَيْهِ﴾ سبحانه وتعالى لا إلى غيره فقط من الملائكة الموكّلين بأعمال العباد ﴿يَصْعَدُ﴾ ويعرج ويعلو ﴿ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ الذي يطلب به العزة، ومعنى صعوده إليه: قبوله له، أو صعود الكتبة من الملائكة بما يكتبونه من الصحف، وخص الكلم الطيب بالذكر لبيان الثواب عليه، وهو يتناول كل كلام يتّصف بكونه طيباً من ذكر الله، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وتلاوة، وغير ذلك، فلا وجه لتخصيصه بكلمة التوحيد، أو بالتحميد والتمجيد، وقيل: معنى ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ﴾: أي: إلى سمائه، ومحل قبوله، وحيث يكتب الأعمال المقبولة، كما قال: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾، وقال الخليل عليه السلام: ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾؛ أي: ذاهب إلى الشام الذي أمرني بالذهاب إليه.

فالظاهر أنّ الكتبة يصعدون بصحيفة إلى حيث أمر الله أن توضع، أو يصعد هو؛ أي: الكلم الطيب بنفسه، فلا حاجة إلى هذه التأويلات، قال بعضهم: بعض الأعمال ينتهي إلى سدرة المنتهى، وبعضها يتعدّى إلى الجنة، وبعضها إلى العرش، وبعضها يتجاوز العرش إلى عالم المثال، وقد يتعدى من عالم المثال إلى اللوح، ثمّ إلى المقام القلمي، ثمّ إلى العماء، وذلك بحسب تفاوت مراتب العمّال في الصدق والإخلاص، وصحة التصوّر والشهود والعيان. انتهى. ولكن لا نقل في ذلك كله، وهو إلى الخرافات أقرب، والأسلم عدم تأويل الآية، كما أشرنا إليه آنفاً. ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾؛ أي: يرفع الكلم الطيب ويحقّقه ويقوّيه، ولا ينال الدرجات العالية إلا به؛ إذ الكلم الطيب لا ينفع مع العصيان، فإنّ الأعمال كالمراقي له، وقول بلا عمل كثريد بلا دسم، وسحاب بلا مطر، وقوس بلا وتر، وهذا المعنى هو الظاهر هنا كما في «الإرشاد»، وقال به الحسن وشهر بن حوشب وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة وغيرهم، ومعناه، أنه لا يقبل الكلم إلا مع العمل الصالح، وقيل: إن فاعل ﴿يَرْفَعُهُۥ﴾ هو الكلم الطيب، ومفعوله: العمل الصالح، ويؤيده قراءة نصب العمل، ومعناه: أنّ العمل الصالح لا يقبل إلا مع التوحيد والإيمان، وقيل: إن فاعل

﴿يَرْفَعُهُۥ﴾ يعود إلى الله عز وجل.

والمعنى: إن الله يرفع العمل الصالح إليه ويقبله، كما سيأتي عن قتادة، وقال ابن عطية هذا أرجح الأقوال.. وقيل: العمل الصالح يرفع صاحبه ويشرفه، قاله ابن عباس، وقال قتادة: المعنى: إن الله يرفع العمل الصالح لصاحبه؛ أي: يقبله، فيكون قوله: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ﴾ على هذا مبتدأ خبره جملة ﴿يَرْفَعُهُۥ﴾، وكذا على قول من قال يرفع صاحبه.

وقال أبو حيان: ويجوز[1] أن يكون العمل معطوفاً على الكلم الطيب؛ أي: يصعدان إلى الله، و﴿يَرْفَعُهُۥ﴾ استئناف إخبار؛ أي: يرفعهما الله تعالى ويقبلهما، ووحّد الضمير لاشتراكهما في الصعود، والضمير قد يجري مجرى اسم الإشارة، فيكون لفظه مفرداً.

وصلاح العمل بالإخلاص فيه[2]، وما كان كذلك قبله الله وأثاب عليه، وما لا إخلاص فيه فلا ثواب عليه، بل عليه العقاب، فالصلاة والزكاة وأعمال البر إذا فعلت مراءاة للناس لا يتقبّلها الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦﴾ وروي عن ابن عباس أنه قال: الكلم الطيب: ذكر الله، والعمل الصالح: أداء فرائضه. وعن الحسن وقتادة: لا يقبل الله قولاً إلا بعمل، من قال وأحسن.. قبل الله منه.

والخلاصة: أنّ القول إذا لم يصحبه عمل لا يقبل، وأنشدوا:

لاَ تَرْضَ مِنْ رَجُلٍ حَلاَوَةَ قَوْلِهِ ... حَتَّىٰ يُزَيِّنَ مَا يَقُوْلُ فِعَالُ

وَإِذَا وَزَنْتَ فِعَالَهُ بِمَقَالِهِ ... فَتَوَازَنَا فَإِخَالُ ذَاكَ جَمَالُ

وقال ابن المقفع: قول بلا عمل كثريد بلا دسم، وسحاب بلا مطر، وقوس بلا وتر، كما سبق. وقرأ الجمهور[3]: ﴿يَصْعَدُ﴾ من صعد الثلاثي، و﴿ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ بالرفع على الفاعلية، وقرأ علي وابن مسعود والسلميّ وإبراهيم: ﴿يصعد﴾ من أصعد الرباعي ﴿الكلم الطيب﴾ بالنصب على المفعولية، وقرأ الضحاك على البناء

---

(١) البحر المحيط.

(٢) المراغي.

(٣) الشوكاني.

للمفعول، وقرأ الجمهور: ﴿ٱلۡكَلِمُ﴾، وقرأ أبو عبد الرحمن: ﴿الكلام﴾، وقرأ الجمهور: ﴿وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ﴾ بالرفع على العطف، أو على الابتداء، وقرأ ابن أبي عبلة وعيسى بن عمر بالنصب على الاشتغال.

وبعد أن ذكر أنّ العمل الصالح يصعد إلى الله.. ذكر أن المرائين لا يتقبّل منهم عمل، ولهم عذاب شديد عند ربهم فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ وانتصاب[1] ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ على أنها صفة لمصدر محذوف، فإنّ يمكر لازم لا ينصب المفعول به؛ أي: يمكرون المكرات السيئات، أو مفعول به على التضمين؛ أي: يعملون السيئات، وهي مكرات قريش بالنبيّ ﷺ في دار الندوة، وتداروهم الرّأي في إحدى الثلاث التي هي الإثبات، والقتل، والإخراج، كما حكى الله سبحانه عنهم في سورة الأنفال بقوله: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ﴾. ﴿لَهُمۡ﴾ بسبب مكراتهم ﴿عَذَابٞ شَدِيدٞۖ﴾؛ أي: بالغ نهاية الشدّة في الدنيا والآخرة لا يدرك غايته، ولا يبالي بما يمكرون به ﴿وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المفسدين الذين أرادوا أن يمكروا بالنّبي ﷺ.

وضع اسم الإشارة موضع ضميرهم[2] للإيذان بكمال تميّزهم بما هم فيه من الشرّ والفساد عن سائر المفسدين، واشتهارهم بذلك ﴿هُوَ﴾ مبتدأ ثانٍ لا ضمير منفصل لعدم شرطه، خاصةً دون مكر الله بهم، وفي «الإرشاد»: لا من مكروا به. ﴿يَبُورُ﴾؛ أي: يهلك ويفسد ويبطل، فإنّ البوار فرط الكساد كما سيأتي. ولما كان فرط الكساد يؤدي إلى الفساد، كما قيل: كسد حتى فسد، عبَّر بالبوار عن الهلاك والفساد.

ولقد أبارهم الله تعالى إبارة بعد إبارة مكراتهم؛ حيث أخرجهم من مكة، وقتلهم، وأثبتهم في قليب بدر، فجمع عليهم مكراتهم الثلاث التي اكتفوا في حقه ﷺ بواحدة منهنّ ﴿قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ فللمكر السيء قوم أشقياء غاية أمرهم الهلاك، وللكلم الطيّب والعمل الصالح قوم سعداء، نهاية شأنهم النجاة. قال مجاهد وشهر بن حوشب: المراد بالآية: أصحاب الرياء.

ومعنى الآية[3]: أي والذين يمكرون المكر السيء بالمسلمين بأن يعملوا كل

---

(۱) روح البيان.
(۲) روح البيان.
(۳) المراغي.

ما يكون سبباً في ضعف الإسلام، والحط من قدره، حتى يمحى أثره من الوجود، كما فعلت قريش في دار الندوة؛ إذ تدارست الرّأي في شأن النبي ﷺ بحبسه، أو قتله، أو إجلائه من مكة، لهم العذاب الشديد يوم القيامة، ومكر هؤلاء المفسدين يظهر زيفه عن قريب لأولي البصائر، فإنه ما أسرّ أحد سريرة إلاّ أبداها الله تعالى على صفحات وجهه، وفلتات لسانه، وما أسرّ أحد سريرة إلا كساه الله تعالى رداءها إن خيراً فخير، وإن شرًّا فشر، فالمرائي لا يروج أمره، ولا يتّفق إلا على غبيّ. أمّا المؤمنون المتفرسون.. فلا يروج ذلك عليهم، بل ينكشف عن قريب، ويجازون عليه أشد الخزي والهوان.

وفي «التأويلات النجمية»: يشير سبحانه بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ إلى الذين يظهرون الحسنات بالمكر، ويخفون السيئات من العقائد الفاسدة ليحسبهم الخلق من الصالحين الصادقين. ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾، وشدة عذابهم في تضعيف عذابهم، فإنهم يعذّبون بالسيئات التي يخفونها، ويضاعف لهم العذاب بمكرهم في إظهار الحسنات دون حقيقتها، كما قال تعالى: ﴿وَمَكْرُ أُوْلَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾؛ أي: مكرهم يبوّرهم ويهلكهم. انتهى. ثمّ ذكر سبحانه دليلاً آخر على صحة البعث والنشور بما يُرى في الأنفس، فقال: ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وتعالى ﴿خَلَقَكُم﴾ يا بني آدم ابتداء خلقاً إجمالياً في ضمن خلق أبيكم آدم عليه السلام ﴿مِّن تُرَابٍ﴾، وقال قتادة: يعني آدم، والتقدير على هذا: والله خلق أباكم الأول، وأصلكم الذي ترجعون إليه من تراب، فالكلام حينئذ على حذف مضاف. وقال بعضهم: من تراب تقبرون وتدفنون فيه؛ أي: خلقكم من تراب لتكونوا متواضعين كالتراب. وفي الحديث: «إن الله جعل الأرض ذلولا تمشون في مناكبها، وخلق بني آدم من التراب ليذلهم بذلك، فأبوا إلاّ نخوةً واستكباراً، ولن يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبّة من خردل من كبر».

﴿ثُمَّ﴾ خلقكم خلقاً تفصيلياً. ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ لتكونوا قابلين لكل كمال، كالماء الذي هو سرّ الحياة ومبدأ العناصر الأربعة، والنطفة هو الماء الصافي الخارج من بين الصلب والتّرائب، كما سيأتي. وقال بعضهم: ﴿خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ يعني: آدم، وهو أصل البشر ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أخرجها من ظهر آبائكم بالتناسل والتوالد.

وفي «التأويلات»: يشير سبحانه بقوله: ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ إلى أنه خلقكم من

أسفل المخلوقات، وهي النطفة؛ لأن التراب نزل دركة المركبية، ثم دركة النباتية، ثم دركة الحيوانية، ثم دركة الإنسانية، ثم دركة النطفة، فهي أسفل سافلي المخلوقات، وهي آخر خلق خلقه الله تعالى من أصناف المخلوقات، كما أن أعلى الشجرة آخر شيء يخلقه الله، وهو البذر الذي يصلح أن توجد منه الشجرة، فالبذر آخر صنف خلق من أصناف أجزاء الشجرة.

﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ﴾ سبحانه ﴿أَزْوَاجًا﴾؛ أي: أصنافاً، أحمر وأبيض وأسود، أو ذكراناً وإناثاً، وعن قتادة: جعل بعضكم زوجاً لبعض، فالذكر زوج الأنثى، وفي «التأويلات» يشير إلى ازدواج الروح والقالب فالروح من أعلى مراتب القرب، والقالب من أسفل دركات البعد، فبكمال القدرة والحكمة جمع بين أقرب الأقربين، وأبعد الأبعدين، ورتب للقالب في ظاهره الحواس الخمس، وفي باطنه القوى البشرية، ورتب للروح المدركات الروحانية، ليكون بالروح والقالب مدركاً لعوالم الغيب والشهادة كلها، وعالماً بما فيها خلافة عن حضرة الربوبية عالم الغيب والشهادة. انتهى. ﴿وَمَا﴾ نافية ﴿تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ﴾ من حوامل حملاً، و﴿مِن﴾ مزيدة في الفاعل لاستغراق النفي وتأكيده، والأنثى خلاف الذكر ﴿وَلَا تَضَعُ﴾؛ أي: لا تلد أنثى من حوامل ولداً في حال من الأحوال ﴿إِلَّا﴾ حال كونها متلبسة ﴿بِعِلْمِهِۦ﴾ تعالى، تابعةً لمشيئته، قال في «بحر العلوم»: بعلمه في موضع الحال، والمعنى: ما يحدث شيء من حمل حامل، ولا وضع واضع إلا وهو عالم به، يعلم مكان الحمل ووضعه وأيامه وساعاته وأحواله من الخداج والتمام والذكورة والأنوثة وغير ذلك، فلا يخرج شيء عن علمه وتدبيره.

﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ ﴿ما﴾: نافية، والتعمير إطالة العمر، والمعمر من أطيل عمره، ويقال للمعمر: ابن الليالي، وقوله: ﴿مِن مُّعَمَّرٍ﴾؛ أي: من أحد، و﴿مِن﴾ زائدة لتأكيد النفي، كما في من أنثى.

وسمي معمراً باعتبار مصيره[1]، يعني: هو من باب تسمية الشيء بما يؤول إليه، والمعنى: وما يمد في عمر أحد وما يطول، ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ والضمير راجع إلى المعمر، والنقصان من عمر المعمر محال، فهو من التسامح في العبارة

---

(١) روح البيان.

ثقة بفهم السامع، فيراد من ضمير المعمر ما من شأنه أن يعمر على الاستخدام. والمعنى: وما يمد في عمر أحد، ولا ينقص من عمر أحد، لكن لا معنى لا ينقص من عمره بعد كونه زائداً، بل على معنى لا يجعل من الابتداء ناقصاً. ﴿إِلَّا﴾ وهو مثبت ﴿فِي كِتَبٍ﴾ عظيم ولوح محفوظ، أو في علم الله، أو في صحيفة كل إنسان.

واعلم: أن الزيادة والنقصان في الآية بالنسبة إلى عمرين كما عرفت، وإلا فمذهب أكثر المتكلمين وعليه الجمهور أن العمر يعني: عمر شخص لا يزيد ولا ينقص، وقيل: الزيادة والنقص في عمر واحد باعتبار أسباب مختلفة أثبت في اللوح، مثل أن يكتب فيه: إن حج فلان فعمره ستون، وإلا فأربعون، فإذا حج فقد بلغ الستين، وقد عمر، وإذا لم يحج فلا يجاوز الأربعين، فقد نقص من عمره الذي هو الغاية وهو الستون، وكذا إن تصدق، أو وصل الرحم فعمره ثمانون، وإلا فخمسون، وإليه أشار النبي ﷺ بقوله: «الصدقة والصلة تعمران الديار، وتزيدان في الأعمار».

وقال سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما[1]: وما يعمر من معمر إلا كتب عمره كم هو سنة، وكم هو شهراً، وكم هو يوماً، وكم هو ساعةً، ثم يكتب في كتاب آخر نقص من عمره يوم، نقص من عمره شهر، نقص سنة، حتى يستوفي أجله. وقال ابن جبير أيضاً: فما مضى من أجله فهو النقصان، وما يستقبله فهو الذي يعمره، فالهاء على هذا للمعمر، وعن سعيد أيضاً: يكتب عمره كذا وكذا سنةً، ثم يكتب أسفل ذلك: ذهب يوم، ذهب يومان، حتى يأتي إلى آخره.

وعن قتادة: المعمر: من بلغ ستين سنة، والمنقوص من عمره: من يموت قبل الستين سنة. وقيل: إن الله كتب عمر الإنسان مئة سنة إن أطاع، وتسعين إن عصى، فأيُّهما بلغ فهو كتاب، وهذا مثل قول النبي ﷺ: «من أحب أن يبسط له في رزقه، وينسأ له في أثره ـ أي: يؤخر في عمره ـ فليصل رحمه».

والضمير على هذا يرجع إلى المعمَّر. وقيل: المعنى: وما يعمر من معمر؛ أي: هرم، ولا ينقص آخر من عمر الهرم إلا في كتاب؛ أي: بقضاء من الله

---

(١) الفتوحات.

عز وجل، وروي معناه عن الضحاك، فالضمير في عمره يرجع إلى معمر آخر غير الأول على حد: عنده درهم ونصفه؛ أي: نصف درهم آخر.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَلَا يُنقَصُ﴾ بضم الياء وفتح القاف مبنياً للمفعول. وقرأ يعقوب وسلاّم وعبد الوارث وهارون كلاهما عن أبي عمرو: ﴿ولا يَنقُص﴾ بفتح الياء وضم القاف مبنياً للفاعل. وقرأ الحسن[2] والأعرج والزهري: ﴿من عمْره﴾ بسكون الميم، وقرأ الباقون: بضمها، وهما لغتان، كالسحت والسحت، والنكر والنكر، والعمر: اسم لمدة عمارة البدن بالحياة.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الخلق وما بعده، أو إن كتابة الأعمال والآجال ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى ﴿يَسِيرٌ﴾ غير متعذر عليه، بل هو يسير لا يتعذر عليه منها شيء ولا يعسر لاستغنائه عن الأسباب، فكذلك البعث. اهـ. «قرطبي». وفي «بحر العلوم»: إن ذلك إشارة إلى أن الزيادة والنقص على الله يسير، لا يمنعه منه مانع، ولا يحتاج فيه إلى أحد، ولا يعزب عنه كثير ولا قليل، ولا كبير ولا صغير.

ومعنى الآية: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ...﴾ الخ؛ أي[3]: واللَّهُ خلق الناس من النطفة، والنطفة من الغذاء، والغذاء ينتهي آخراً إلى الماء والتراب، فهم من تراب صار نطفة، ثم جعلهم أصنافاً ذكراناً وإناثاً بقدر معلوم؛ بحيث يكاد الفريقان يستويان عدداً، ولو لم يكن كذلك لفني الإنسان والحيوان؛ إذ حفظ النوع لا يتم إلا بتلك المساواة على وجه التقريب، ولا تكون المساواة إلا بتدبير وعلم، وإلى ذلك أشار بقوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾؛ أي: ولا تحمل الأنثى ولا تضع إلا وهو عليم بذلك لا يخفى عليه، ولو لم يكن كذلك لم يتم التوازن في العدد بين الزوجين، فيفنى الإنسان والحيوان، ونحو الآية قوله: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۝٨ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩﴾.

﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ...﴾ إلخ؛ أي: لا أحد يقضى له بطول العمر

---

(١) البحر المحيط.
(٢) البحر المحيط.
(٣) المراغي.

إلا وهو بالغ ما قدر له، لا يزيد ذلك ولا ينقص منه، ولا أحد مقدر له قصر العمر بزائد على ما قدر له في الكتاب الذي كتب له، وذلك لحفظ الموازين في الأرض حتى ينتظم العمران، ولو لم يكن على هذا النحو لاختلط الحابل بالنابل، وساء حال الكون؛ إذ يكثر الناس، وتزدحم الأرض، ويشتد الكرب، ومن ثَمّ تفاوتت الأعمار في جميع الأمصار، وكانت بمقدار، واعتدل النظام بالمرض والموت والوباء والحرب.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ النظام البديع للعالم هين على الله؛ لعلمه الشامل وعدم خفاء شيء عليه.

ثم ذكر سبحانه نوعاً آخر من بديع صنعه وعجيب قدرته فقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ﴾ العذب والملح، وهذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر. إنما سُمي[1] العذب بحراً؛ لكونه مع الملح، كما يقال للشمس والقمر: قمران بالتغليب. قال في «إخوان الصفا»: فإن قيل: ما البحار؟ يقال: هي مستنقعات على وجه الأرض، حاصرة للمياه المجتمعة فيها. ﴿هَٰذَا﴾ البحر ﴿عَذْبٌ﴾؛ أي: طيب حال. ﴿فُرَاتٌ﴾؛ أي: بليغ عذوبته وحلاوته بحيث يكسر العطش. ﴿سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ﴾؛ أي: سهل، انحدار مائه في الحلق لعذوبته، فإن العذب لكونه ملائماً للطبع تجذبه القوة الجاذبة بسهولة.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿سَآئِغٌ﴾ اسم فاعل من ساغ، وقرأ عيسى بن عمر: ﴿سيغ﴾ على وزن فيعل؛ كميت، وجاء كذلك عن أبي عمرو وعاصم، وقرأ عيسى أيضاً: ﴿سيغ﴾ مخففاً من المشدد كميت مخفف ميت. ﴿وَهَٰذَا﴾ البحر الآخر ﴿مِلْحٌ﴾؛ أي: ذو ملوحة، وهي طعم الملح؛ أي: طعمه كطعم الملح، وقرأ الجمهور: ﴿مِلْحٌ﴾، وقرأ أبو نهيك وطلحة بفتح الميم وكسر اللام، وقال أبو الفضل الرازي: وهي لغة شاذة، ويجوز أن يكون مقصوراً من: مالح، فحذف الألف تخفيفاً، وقد يقال: ماء ملح في الشذوذ، وفي المستعمل: مملوح.

﴿أُجَاجٌ﴾؛ أي: شديد ملوحته، بحيث يحرق الحلق بملوحته، وهو نقيض

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

الفرات. قال في «خريدة العجائب»: الحكمة في كون ماء البحر ملحاً أجاجاً لا يذاق ولا يساغ؛ لئلا ينتن من تقادم الدهور والأزمان، وعلى ممر الأحقاب والأحيان، فيهلك من نتنه العالم الأرضي، ولو كان عذباً لكان كذلك، ألا ترى العين التي ينظر الإنسان بها إلى الأرض والسماء والعالم والألواح، وهي شحمة مغمورة في الدمع، وهو ماء مالح، والشحم لا يصان إلا بالملح، فكان الدمع مالحاً لذلك المعنى انتهى. وأما الأنهار العظيمة العذبة فلجريانها دائماً لم يتغير طعمها ورائحتها، فإن التغير إنما يحصل من الوقوف في مكان؛ أي: وما يعتدل البحران فيستويان، أحدهما عذب سائغ شرابه يجري في الأنهار السارحة بين الناس من كبار وصغار بحسب الحاجة إليها في الأقاليم والأمصار، وثانيهما ملح ساكن تسير فيه السفن الكبار. ﴿وَمِن كُلٍّ﴾؛ أي: ومن كل واحد من البحرين المختلفين طعماً ﴿تَأْكُلُونَ﴾ أيها الناس ﴿لَحْمًا﴾ ﴿طَرِيًّا﴾؛ أي: غضاً جديداً من الطراوة، وهي الرطوبة، وهو ما يصاد منهما من حيواناتهما التي تؤكل، ووصف السمك بالطراوة لتسارع الفساد إليه، فيسارع إلى أكله طرياً؛ أي: ومن كل البحار تأكلون السمك الغض الطري فضلاً من الله سبحانه ومنة.

﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ﴾؛ أي[1]: من المالح خاصة، ولم يقل منه؛ لأنه معلوم. ﴿حِلْيَةً﴾؛ أي: زينة؛ أي: لؤلؤاً ومرجاناً، وفي «الأسئلة المقحمة»: أراد بالحلية اللآلىء، واللآلىء إنما تخرج من ملح أجاج، لا من عذب فرات، فكيف أضافها إلى البحرين؟.

والجواب: قد قيل إن اللآلىء تخرج من عذب فرات، وفي الملح عيون من ماء عذب ينعقد فيه اللؤلؤ والمرجان. انتهى.

قال في «الخريدة»: اللؤلؤ يتكوَّن في بحر الهند وفارس، والمرجان ينبت في البحر كالشجر، وإذا كلس المرجان عقد الزئبق، فمنه أبيض، ومنه أحمر، ومنه أسود، وهو يقوي العين كحلاً، وينشف رطوبتها. ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾؛ أي: تلبس تلك الحلية نساؤكم، ولما كان تزينهن بها لأجل الرجال فكأنها زينتهم ولباسهم، ولذا أسند إليهم، وقيل: معنى تلبسونها[2]: تلبسون كل شيء منها بحسبه، كالخاتم في

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

الإصبع، والسوار في الذراع، والقلادة في العنق، والخلخال في الرجل، ومما يلبس حلية السلاح الذي يحمل كالسيف والدرع ونحوهما. ﴿وَتَرَى﴾ يا من يتأتى منه الرؤية ﴿ٱلْفُلْكَ﴾؛ أي: أي: السفن ﴿فِيهِ﴾ في كل منهما، وإفراد[1] ضمير الخطاب مع جمعه فيما سبق، وما لحق؛ لأن الخطاب لكل أحدٍ يتأتى منه الرؤية دون المنتفعين بالبحرين فقط. ﴿مَوَاخِرَ﴾؛ أي: شواق للماء بجريها مقبلة ومدبرة بريح واحدة. ﴿لِتَبْتَغُوا۟﴾ واللام متعلق بمواخر، أو متعلق بمحذوف؛ أي: لتطلبوا بركوبها. ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾؛ أي: من فضل الله سبحانه ورزقه بالنقلة فيها، قال مجاهد: ابتغاء الفضل: هو التجارة في البحر إلى البلدان البعيدة في مدة قريبة. قال في «بحر العلوم»: ابتغاء الفضل: التجارة، وهي أعظم أسباب سعة الرزق وزيادته، كما قال النبي ﷺ: «تسعة أعشار رزق أمتي في البيع والشراء».

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ أي: ولتشكروا الله سبحانه على ما أنعم عليكم به من ذلك الفضل، وحرف الترجي للإيذان بكونه مرضياً عنده تعالى. وفي «بحر العلوم»: وكي تعرفوا نعم الله فتقوموا بحقها، ولا سيما أنه جعل المهالك سبباً لوجود المنافع وحصول المعايش.

واعلم: أنه تعالى ذكر هذه الآية دلالة على قدرته، وبياناً لنعمته، وقال بعضم: ضرب البحر العذب والملح مثلاً للمؤمن والكافر، فكما لا يستوي البحران في الطعم، فكذا المؤمن والكافر لا يستويان، ولا الكفر والإيمان، فقوله: ﴿وَمِن كُلٍّ﴾ الخ إما استطراد في صفة البحرين، وما فيهما من النعم والمنافع، أو تفصيل للأجاج على الكافر من حيث إنه يشارك العذب في منافع كثيرة، كالسمك وجري الفلك ونحوهما، والكافر خلا من المنافع بالكلية على طريقة قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ﴾.

ومعنى الآية: أي وتستخرجون[2] الدر والمرجان من الملح الأجاج، ومن العذب الفرات، وتجري السفن في كل منهما تشقه شقاً بحيازيها حين جريها مقبلة مدبرة حاملة أقواتكم كيف شئتم، وتذهبون فيها إن أردتم.

---

(١) روح البيان.　　(٢) المراغي.

ولما كان بين الفلك في البحر، والشمس والقمر في مدارهما مناسبة، فإن كلاً منهما سارح في تلك العوالم الشاسعة.. أردفه بذكر الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر، فقال: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ﴾ ويدخله ﴿فِي ٱلنَّهَارِ﴾؛ أي: يدخل الله سبحانه الليل في النهار بإضافة بعض أجزاء الليل إلى النهار، فينقص الأول ويزيد الثاني، كما في فصل الربيع والصيف. ﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ بإضافة بعض أجزاء النهار إلى الليل، كما في فصل الخريف والشتاء.

والمعنى[1]: يدخل بعض ساعات أحدهما في الآخر حتى يصير الزائد منهما خمس عشرة ساعة، والناقص تسعاً. و﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾؛ أي: ذلل ضوء الشمس والقمر لبني آدم. وفي «بحر العلوم»: معنى تسخير الشمس والقمر: تصييرهما نافعين للناس، حيث يعلمون بمسيرهما عدد السنين والحساب. انتهى. ومنه[2] يعلم حكمة الإيلاج، فإنه بحركة النَّيِّرين تختلف الأوقات، وتظهر الفصول الأربعة التي تتعلق بها المصالح، والأمور المهمة، ثم قوله: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ﴾ عطف على ﴿يُولِجُ﴾، واختلافهما صيغةً لما أن إيلاج أحد الملوين في الآخر متجدِّد حيناً فحيناً، وأما تسخير النَّيِّرين.. فلا تعدد فيه، وإنما المتعدِّد والمتجدِّد آثاره، وقد أشير إليه بقوله تعالى: ﴿كُلٌّ﴾؛ أي: كل واحد من الشمس والقمر ﴿يَجۡرِيٓ﴾؛ أي: بحسب حركته الخاصة وحركته القسرية على المدارات اليومية المتعددة حسب تعدد أيام السنة جرياً مستمراً. ﴿لِأَجَلٍ﴾؛ أي: إلى وقت ﴿مُّسَمًّىۚ﴾؛ أي: معين قدره الله تعالى لجريانهما، وهو يوم القيامة، فحينئذ ينقطع جريهما.

وقال بعضهم: كل يجري إلى أقصى منازلهما في الغروب؛ لأنهما يغربان كل ليلة في موضع، ثم يرجعان إلى أدنى منازلهما، فجريانهما عبارة عن حركتيهما الخاصتين بهما في فلكيهما، والأجل المسمى: عبارة عن منتهى دوريتهما، ومدة الجريان للشمس سنة، وللقمر شهر، فإذا كان آخر السنة ينتهي جري الشمس، وإذا كان آخر الشهر ينتهي جري القمر، قال في «البحر»: والمعنى في التحقيق يجري لإدراك أجلٍ على أن الجري مختص بإدراك أجل.

ولما ذكر[3] أشياء كثيرة تدل على قدرته الباهرة من إرسال الرياح، والإيجاد

---

(١) النسفي. (٢) روح البيان. (٣) البحر المحيط.

من تراب، وما عطف عليه، وإيلاج الليل في النهار، وتسخير الشمس والقمر.. أشار إلى أن المتصف بهذه الأفعال الغريبة هو الله، فقال: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ مبتدأ إشارة إلى فاعل الأفاعيل المذكورة إشارة تجوّز، فإن الأصل في الإشارة أن تكون إلى محسوس ويستحيل إحساسه تعالى بالحواس، وأشار[1] إليه إشارة بعيد مع أنه أقرب من كل قريب للإيذان بغاية العظمة؛ أي: ذلك العظيم الشأن الذي أبدع هذه الصنائع البديعة ﴿ٱللَّهُ﴾ خبر؛ أي: المعبود بحق في الوجود ﴿رَبُّكُمْ﴾؛ أي: مالككم أيها المخلوقات خبر ثان، ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ خبر ثالث؛ أي: هو الجامع لهذه الأوصاف من الإلهية والربوبية والمالكية لما في السموات والأرض، فاعرفوه ووحدوه وأطيعوا أمره، ويجوز أن يكون قوله: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ جملةً مستقلة في مقابلة قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾؛ أي: تعبدون ﴿مِن دُونِهِۦ﴾؛ أي: حال كونكم متجاوزين الله وعبادته ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾؛ أي: ما يقدرون أن ينفعوكم مقدار القطمير فضلاً عن هذه المنافع العظيمة العجيبة المذكورة سابقاً.

وقرأ الجمهور: ﴿تَدْعُونَ﴾ بتاء الخطاب، وعيسى وسلام ويعقوب بياء الغيبة، ذكره في «البحر المحيط». والقطمير: هو القشرة البيضاء الرقيقة الملتفة على النواة كاللفافة لها. وقيل: هو القمع الذي في رأس التمرة، وقيل: قشر الثوم وأياً كان هو مثل في القلة والحقارة، كالنقير الذي هو النقرة، والنكتة في ظهر النواة، ومنه ينبت النخل والفتيل الذي في شق النواة على هيئة الخيط المفتول، ثم بيّن سبحانه حال هؤلاء الذين يدعونهم من دون الله تعالى بأنهم لا ينفعون ولا يضرون. فقال: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ﴾؛ أي: الأصنام للإعانة وكشف الضر، ﴿لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ لأنهم جماد، والجماد ليس من شأنه السماع ﴿وَلَوْ سَمِعُوا۟﴾ على سبيل الفرض والتقدير. ﴿مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾؛ أي: ما أجابوا لكم؛ لأنهم لا لسان لهم، ما أجابوكم لمطلبكم لعجزهم عن النفع بالكلية، فإن من لا يملك نفع نفسه كيف يملك نفع غيره، وقيل[2]: لو جعلنا لهم سماعاً وحياةً فسمعوا دعاءكم.. لكانوا أطوع لله منكم، ولم يستجيبوا لكم إلى ما دعوتموه إليه من الكفر.

والخلاصة: كيف تعبدون من لا ينفع ولا يضر، وتدعون من بيده النفع

---

(١) روح البيان.　(٢) الشوكاني.

والضر، وهو الذي ذرأكم في الأرض، وإليه تحشرون؟

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾؛ أي: يجحدون بإشراككم لهم، وبعبادتكم إياهم، ويتبرؤون منها بقولهم: ما كنتم إيانا تعبدون. وإنما[1] جيء بضمير العقلاء؛ لأن عبدتهم كانوا يصفونهم بالتمييز جهلاً وغباوةً، ولأنه أسند إليهم ما يسند إلى أولي العلم من الاستجابة والسمع، ويجوز أن يراد كل معبود من دون الله من الملائكة والجن والإنس والأصنام، فغلَّب غير الأصنام عليها، كما في «بحر العلوم»، ويجوز[2] أن يرجع قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ وما بعده إلى من يعقل فقط ممن عبدهم الكفار، وهم الملائكة والجن والشياطين، والمعنى: أنهم يجحدون أن يكون ما فعلتموه حقاً، وينكرون أنهم أمروكم بعبادتهم، ويحتمل[3] أن يكون قوله: ﴿يَكْفُرُونَ﴾ بما يظهر هنالك من جمودها وبطئها عند حركة كل ناطق، ومدافعة كل محتجٍّ فيجيء هذا على طريق التجوز، كقول ذي الرمة:

وَقَفْتُ عَلَىٰ رَبْعٍ لِمَيَّةَ نَاطِقٍ ... تُخَاطِبُنِيْ آثَارُهُ وأُخَاطِبُهْ

وَأَسْقِيْهِ حَتَّىٰ كَادَ مِمَّا أَبُثُّهُ ... تُكَلِّمُنِيْ أَحْجَارُهُ وَمَلَاعِبُهْ

والمعنى: أي وهم يوم القيامة يتبرؤون منكم، ويقولون: ما كنتم إيانا تعبدون، بل كنتم تعبدون أهواءكم وشهواتكم وما زيَّنته لكم شياطينكم، ونحو الآية قوله: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾.

ثم أكد صدق ما حكاه عنهم من أحوالهم بقوله: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾؛ أي: لا يخبرك بالأمر مخبر مثل خبير أخبرك به، وهو الحق سبحانه فإنه الخبير بكنه الأمور دون سائر المخبرين، والمراد: تحقيق ما أخبر به من حال آلهتهم، ونفي ما يدّعون لهم من الإلهية.

والخلاصة: ولا يخبرك يا محمد عن أمر هذه الآلهة، وعن عبدتها يوم القيامة إلا ذو خبرة بأمرها وأمرهم، وهو الله الذي لا يخفى عليه شيء كان، أو سيكون في

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

(٣) البحر المحيط.

مستأنف الأزمان. وقال في «التجريد»: يحتمل وجهين:

الأول: أن يكون ذلك خطاباً للرسول لما أخبر بأن الخشب والحجر يوم القيامة ينطق ويكذّب عابده، وهو أمر لا يعلم بالعقل المجرد لولا إخبار الله عنه، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾؛ أي: يكفرون بهم يوم القيامة، وهذا القول مع كون المخبر عنه أمراً عجيباً هو كما قال؛ لأن المخبر عنه خبير.

والثاني: أن يكون خطاباً ليس مختصاً بأحد؛ أي: هذا الذي ذكر هو كما ذكر لا ينبئك أيها السامع كائناً من كنت مثل خبير.

قال الزروقي: الخبير: هو العليم بدقائق الأمور لا يتوصَّل إليها غيره إلا بالاختيار والاحتيال، وقال الغزالي: هو الذي لا يعزب عنه الأخبار الباطنة، ولا يجري في الملك والملكوت شيء، ولا تتحرك ذرةٌ ولا تسكن ولا تضطرب نفس ولا تطمئن إلا ويكون عنده خبرها.

وحظ العبد من ذلك أن يكون خبيراً لما يجري في بدنه وقلبه من الغش والخيانة والتطوف حول العاجلة، وإضمار الشر وإظهار الخير، والتجمل بإظهار الإخلاص والإفلاس عنه، ولا يكون خبيراً بمثل هذه الخفايا إلا بإظهار التوحيد وإخفائه وتحقيقه، والوصول إلى الله بالإعراض عن الشرك، وما يكون متعلق العلاقة والميل، وذلك أن التعلق بما سوى الله تعالى لا يفيد شيئاً من الجلب والسلب، فإنه كله مخلوق، والمخلوق عاجز، وليست القدرة إلا لله تعالى، فوجب توحيده والعبادة له والتعلق به.

الإعراب

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة، ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: صفة للجلالة، ومضاف إليه، وهو من إضافة الوصف إلى مفعوله إضافة محضة؛ لأنه بمعنى الماضي، ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على السموات، ﴿جَاعِلِ﴾: صفة ثانية للجلالة وهو مضاف ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾: مضاف إليه إضافة محضة أيضاً من إضافة الوصف إلى

مفعوله الأول، ﴿رُسُلًا﴾: مفعول ثانٍ له على مذهب الكسائي من جواز إعمال الوصف مطلقاً، وإذا كان جاعل بمعنى خالق.. كان ﴿رُسُلًا﴾ حالاً مقدرة، ﴿أُوْلِيٓ﴾: صفة رسلاً منصوب بالياء؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، ﴿أَجْنِحَةٍ﴾: مضاف إليه ﴿مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾: صفات لـ﴿أَجْنِحَةٍ﴾، الأول مجرور بفتحة مقدرة للتعذر نيابة عن الكسرة؛ لأنه اسم لا ينصرف، والمانع له من الصرف الوصف والعدل التحقيقي؛ لأنه معدول عن العدد المكرر، ومثله: ثلاث ورباع، إلا أنهما مخفوضان بالفتحة الظاهرة. ﴿يَزِيدُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله، ﴿فِي ٱلْخَلْقِ﴾: متعلق بـ﴿يَزِيدُ﴾، ﴿مَا﴾ اسم موصول في محل النصب مفعول به لـ﴿يَزِيدُ﴾، وجملة ﴿يَزِيدُ﴾ مستأنفة مقررة لما قبلها ﴿يَشَآءُ﴾ فعل مضارع مرفوع والفاعل يعود على الله، والجملة صلة الموصول. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾: متعلق بـ﴿قَدِيرٌ﴾، و﴿قَدِيرٌ﴾: خبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾.

﴿مَّا﴾: اسم شرط جازم في محل النصب مفعول به مقدم لـ﴿يَفْتَحِ﴾، ﴿يَفْتَحِ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل، مجزوم بـ﴿مَّا﴾ على كونه فعل شرط لها ﴿لِلنَّاسِ﴾: متعلق بـ﴿يَفْتَحِ﴾، ﴿مِن رَّحْمَةٍ﴾: حال من ﴿مَّا﴾ الشرطية، ﴿فَلَا﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب، ﴿لا﴾: نافية للجنس، ﴿مُمْسِكَ﴾: اسمها ﴿لَهَا﴾ خبرها، وجملة ﴿لا﴾ في محل الجزم بـ﴿مَّا﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَّا﴾ الشرطية مستأنفة. ﴿وما﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿مَا﴾: اسم شرط جازم في محل النصب مفعول به مقدم. لـ﴿يُمْسِكْ﴾، ﴿يُمْسِكْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله مجزوم بما الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿فَلَا﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب الشرط، ﴿لا﴾: نافية للجنس ﴿مُرْسِلَ﴾: اسمها ﴿لَهُۥ﴾: خبرها ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾: جار مجرور حال من ضمير ﴿لَهُۥ﴾؛ أي: حالة كونه كائناً من بعده إمساكه، وجملة ﴿لا﴾ في محل الجزم بـ﴿ما﴾ على كونها جواب شرط لها، وجملة ﴿ما﴾ معطوفة على جملة ﴿مَّا﴾ الأولى، ﴿وَهُوَ﴾: مبتدأ، ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: خبر أول، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: خبر ثانٍ، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل ماقبلها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ۝٣﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾: حرف نداء، ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة، ﴿ها﴾: حرف تنبيه زائد، ﴿ٱلنَّاسُ﴾: بدل من أي، أو عطف بيان له، وجملة النداء مستأنفة ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾: فعل وفاعل ومفعول والجملة الفعلية جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿ٱللَّهِ﴾: لفظ جلالة مضاف إليه، ﴿عَلَيۡكُمۡۚ﴾: متعلق بـ﴿نِعۡمَتَ﴾؛ لأنها بمعنى الإنعام، وإذا كانت بمعنى المنعم به تعلق الجار والمجرور بمحذوف على أنه حال منه، ﴿هَلۡ﴾: حرف استفهام للاستفهام التوبيخي الإنكاري، ﴿مِنۡ﴾: حرف جر زائد، ﴿خَٰلِقٍ﴾: مبتدأ، ﴿غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾: صفة لـ﴿خَٰلِقٍ﴾ على المحل أو اللفظ، وخبر المبتدأ محذوف، تقديره: هل من خالق غير الله موجود، وجملة ﴿يَرۡزُقُكُم﴾ إما حال من الضمير المستكن في خبر المبتدأ، أو مستأنفة، أو هي الخبر، والجملة الاستفهامية جملة إنشائية لا محل لها من الإعراب، ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: متعلق بـ﴿يَرۡزُقُكُم﴾، ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾، ﴿لَآ﴾: نافية للجنس، ﴿إِلَٰهَ﴾: اسمها، وخبر ﴿لَآ﴾ محذوف تقديره: لا إله موجود، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿هُوَۖ﴾: ضمير للمفرد المنزه عن الذكورة والأنوثة والغيبة، في محل الرفع بدل من المستكن في خبر ﴿لَآ﴾، وجملة ﴿لَآ﴾ مستأنفة، مسوقة لتقرير النفي المستفاد مما قبله، ﴿فَأَنَّىٰ﴾: ﴿الفاء﴾ استئنافية، ﴿أنى﴾: اسم استفهام بمعنى كيف في محل النصب حال من مرفوع ﴿تُؤۡفَكُونَ﴾، و﴿تُؤۡفَكُونَ﴾: فعل مضارع ونائب فاعل مرفوع بثبات النون، والجملة مستأنفة.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ۝٤﴾.

﴿وَإِن﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إن﴾: حرف شرط جازم، ﴿يُكَذِّبُوكَ﴾: فعل مضارع وفاعل ومفعول به، مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها، ﴿فَقَدۡ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب الشرط وجوباً لكونه مقروناً بقد، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿كُذِّبَتۡ﴾: فعل ماض مغيَّر الصيغة في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، والتاء لتأنيث نائب الفاعل. ﴿رُسُلٞ﴾: نائب فاعل لـ﴿كذب﴾، ﴿مِّن قَبۡلِكَۚ﴾: صفة لـ﴿رُسُلٞ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿وَإِلَى﴾: الواو:

استئنافية، ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ متعلق بـ﴿تُرْجَعُ﴾، ﴿تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة الفعلية متسأنفة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾: ﴿يا﴾: حرف نداء، أي: منادى نكرة مقصودة، ﴿ها﴾: حرف تنبيه زائد، ﴿ٱلنَّاسُ﴾: بدل من أي، وجملة النداء مستأنفة، ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾: ناصب واسمه ﴿حَقٌّ﴾: خبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة على كونها جواب النداء، ﴿فَلَا﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم أن وعد الله حق، وأردتم بيان ما هو الأصلح لكم.. فأقول: لا تغرنكم الحياة الدنيا، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿لا﴾: ناهية جازمة، ﴿تَغُرَّنَّكُمُ﴾: فعل مضارع في محل الجزم بلا الناهية، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، والكاف: مفعول به. ﴿ٱلْحَيَوٰةُ﴾: فاعل، ﴿ٱلدُّنْيَا﴾: صفة له، والجملة الفعلية في محل النصب مقول الجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿وَلَا﴾: الواو: عاطفة، ﴿لا﴾ ناهية ﴿يَغُرَّنَّكُم﴾: فعل مضارع ومفعول به، في محل الجزم بلا الناهية. ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿يغرن﴾، ﴿ٱلْغَرُورُ﴾: فاعل، وهو من صيغ المبالغة كالصبور والشكور، والجملة الفعلية معطوفة على الجملة التي قبلها، ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾: ناصب واسمه ﴿لَكُمْ﴾: متعلق بـ﴿عَدُوٌّ﴾ و﴿عَدُوٌّ﴾: خبره، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، ﴿فَٱتَّخِذُوهُ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم أنه عدو لكم، وأردتم بيان ما هو اللازم لكم.. فأقول لكم: اتخذوه عدواً ﴿اتخذوه﴾: فعل أمر وفاعل ومفعول أول ﴿عَدُوًّا﴾: مفعول ثان له، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿إِنَّمَا﴾: مكفوف وكاف ﴿يَدْعُوا۟﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلشَّيْطَٰنَ﴾، ﴿حِزْبَهُۥ﴾: مفعول به، والجملة مستأنفة مسوقة لتقرير ما قبلها ﴿لِيَكُونُوا۟﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر، وتعليل، ﴿يكونوا﴾: فعل ناقص واسمه منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾: جار ومجرور مضاف إليه متعلق بمحذوف خبر ﴿يكونوا﴾، وجملة ﴿يكونوا﴾ مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، الجار والمجرور متعلق بـ﴿يَدْعُوا۟﴾.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿كَفَرُوا۟﴾ صلته ﴿لَهُمْ﴾: خبر مقدم ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر ﴿شَدِيدٌ﴾: صفته، والجملة من المبتدأ الثاني، وخبره خبر للأول، وجملة الأول مستأنفة، ويجوز أن يكون الموصول بدلاً من الواو في ﴿لِيَكُونُوا۟﴾ أو صفة لـ﴿حِزْبَهُۥ﴾، فيكون موضعه النصب، كما يجوز أن يكون محله الجر على أنه بدل من ﴿أَصْحَٰبِ﴾ أو أنه نعت لأصحاب، ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿ءَامَنُوا۟﴾ صلة له، ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: عطف على ﴿ءَامَنُوا۟﴾، ﴿لَهُم﴾: خبر مقدم ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾: مبتدأ ثانٍ مؤخر، ﴿وَأَجْرٌ﴾: معطوف على ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾، ﴿كَبِيرٌ﴾: صفة لـ﴿أجر﴾، وجملة المبتدأ الثاني وخبره خبر للأول، وجملة الأول معطوف على جملة الموصول الأول.

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿أَفَمَن﴾: الهمزة: للاستفهام الإنكاري داخلة على محذوف، والفاء عاطفة على ذلك المحذوف، ﴿من﴾: اسم موصول في محل الرفع مبتدأ ﴿زُيِّنَ﴾: فعل ماضٍ، ﴿لَهُۥ﴾: متعلق بـ﴿زُيِّنَ﴾، ﴿سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾: نائب فاعل ومضاف إليه، والجملة الفعلية صلة الموصول، ﴿فَرَءَاهُ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿رأى﴾: فعل ماضٍ، وفاعل مستتر يعود على ﴿مَن﴾، والهاء: مفعول أول لـ﴿رأى﴾، و﴿حَسَنًا﴾: مفعول ثانٍ؛ أي لأنها قلبية، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿زُيِّنَ﴾، وخبر المبتدأ محذوف تقديره: كمن هداه الله تعالى، والجملة الاسمية معطوفة على جملة محذوفة، والتقدير: هل الفريقان متساويان، فمن زين له سوء عمله كمن هداه الله، والجملة المحذوفة مستأنفة. ﴿فَإِنَّ﴾: ﴿الفاء﴾: تعليلة؛ لتعليل النفي المستفاد من الاستفهام؛ أي: لا يكون مثله؛ لأن الله ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها، وجملة ﴿يُضِلُّ﴾ خبرها، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل الجر بلام التعليل المقدرة المدلول عليها بالفاء التعليلية المتعلقة بمعلول محذوف؛ أي: لا يكون مثله لإضلال الله من يشاء، وهدايته من يشاء، والجملة المحذوفة مستأنفة، ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿يُضِلُّ﴾، وجملة ﴿يَشَآءُ﴾: صلة الموصول.

﴿وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

﴿وَيَهْدِي﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، معطوف على ﴿يُضِلُّ﴾، ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿يهدي﴾، وجملة ﴿يَشَآءُ﴾ صلة الموصول، ﴿فَلَا تَذْهَبْ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفت أن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء، وأردت بيان ما هو الأفصح لك.. فأقول لك: ﴿لا تذهب﴾: ﴿لا﴾: ناهية جازمة ﴿تَذْهَبْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لا﴾ الناهية، ﴿نَفْسُكَ﴾: فاعل، ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق بـ﴿تَذْهَبْ﴾، ﴿حَسَرَٰتٍ﴾: مفعول لأجله، والمعنى: فلا تهلك نفسك للحسرات، وقال المبرد: إنها تمييز، وقال الزمخشري: يجوز أن يكون حالاً من ﴿نَفْسُكَ﴾ كأن كلها صارت حسرات لفرط التحسر، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه ﴿عَلِيمٌۢ﴾: خبره ﴿بِمَا﴾: متعلق بـ﴿عَلِيمٌۢ﴾، وجملة ﴿يَصْنَعُونَ﴾ صلة الموصول، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾﴾.

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة، ﴿أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر، ومفعول به، والجملة صلة الموصول، ﴿فَتُثِيرُ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿تثير﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿أَرْسَلَ﴾، والعائد مقدر؛ أي: فتثير بقدرته. ﴿سَحَابًا﴾: مفعول به ﴿فَسُقْنَٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿تثير﴾، ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ﴾: متعلق بـ﴿سقنا﴾، ﴿مَّيِّتٍ﴾: صفة ﴿بَلَدٍ﴾، ﴿فَأَحْيَيْنَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿أحيينا﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿سقنا﴾، ﴿بِهِ﴾: متعلق بـ﴿أحيينا﴾، ﴿ٱلْأَرْضَ﴾: مفعول به، ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾: ظرف متعلق بمحذوف حال من ﴿ٱلْأَرْضَ﴾. ﴿كَذَٰلِكَ﴾: خبر مقدم، ﴿ٱلنُّشُورُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾.

﴿مَن﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أوهما، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ على كونه فعل شرط لها، واسمها ضمير يعود على ﴿مَن﴾. ﴿يُرِيدُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، ﴿ٱلْعِزَّةَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾، ﴿فَلِلَّهِ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة لجواب ﴿مَن﴾ الشرطية وجوباً ﴿لله﴾: خبر مقدم ﴿ٱلْعِزَّةُ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿جَمِيعًا﴾: حال من ﴿ٱلْعِزَّةُ﴾، والجملة في محل الجزم جواب ﴿مَن﴾ الشرطية، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية مستأنفة؛ وقال بعضهم: الجملة تعليل للجواب المحذوف، والتقدير من كان يريد العزة فليطلبها عند الله بطاعته؛ لأن العزة جميعاً لله تعالى، ﴿إِلَيْهِ﴾: جار مجرور متعلق بـ﴿يَصْعَدُ﴾، ﴿يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ﴾: فعل وفاعل، ﴿ٱلطَّيِّبُ﴾: صفة لـ﴿ٱلْكَلِمُ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب حال من الجلالة، ﴿وَٱلْعَمَلُ﴾: مبتدأ ﴿ٱلصَّٰلِحُ﴾: صفته، وجملة ﴿يَرْفَعُهُۥ﴾: خبر ﴿العمل﴾، والجملة الاسمية في محل النصب حال من ﴿ٱلْكَلِمُ﴾، وفاعل ﴿يَرْفَعُهُۥ﴾ ضمير مستتر يعود على ﴿العمل﴾، وضمير المفعول يعود على ﴿ٱلْكَلِمُ﴾؛ أي: العمل الصالح يرفع الكلم، وقيل: الفاعل ضمير الله، فتعود هاء المفعول على العمل، والجملة الاسمية حينئذ مستأنفة. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: الواو: استئنافية، ﴿الذين﴾: مبتدأ أول، ﴿يَمْكُرُونَ﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: صفة لمفعول مطلق محذوف؛ أي: المكرات السيئات، أو مفعول به على تضمين ﴿يَمْكُرُونَ﴾ بمعنى: يكتسبون، ﴿لَهُمْ﴾: خبر مقدم، ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ ثانٍ مؤخر ﴿شَدِيدٌ﴾ صفته، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر للأول، وجملة الأول مستأنفة، ﴿وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مبتدأ أول ومضاف إليه، ﴿هُوَ﴾: مبتدأ ثانٍ، ولا يجوز كونه ضمير فصل لعدم توفر شروطه الستة بكون ما بعده جملة فعلية، وجملة ﴿يَبُورُ﴾: خبر للمبتدأ الثاني، وجملة الثاني خبر للأول، معطوفة على جملة قوله: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿خَلَقَكُم﴾: خبره، والجملة الاسمية مستأنفة، ﴿مِّن تُرَابٍ﴾: متعلق بـ﴿خلق﴾، ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾: معطوف على قوله: ﴿مِن تُرَابٍ﴾، ﴿ثُمَّ

﴿جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على الله ومفعولان، والجملة معطوفة على جملة ﴿خَلَقَكُم﴾، ﴿وَمَا﴾: الواو: عاطفة، ﴿ما﴾: نافية، ﴿تَحْمِلُ﴾: فعل مضارع، ﴿مِن﴾: زائدة، ﴿أُنثَىٰ﴾: فاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَٱللَّهُ﴾: عطف فعلية على اسمية، ﴿وَلَا تَضَعُ﴾ فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على ﴿أُنثَىٰ﴾: معطوف على ﴿تَحْمِلُ﴾، ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ، ﴿بِعِلْمِهِۦ﴾: حال من فاعل ﴿تَضَعُ﴾؛ أي: إلا حالة كونها متلبسة بعلمه تعالى. ﴿وَمَآ﴾: الواو: عاطفة، ﴿ما﴾: نافية، ﴿يُعَمَّرُ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة ﴿مِن﴾: زائدة، ﴿مُّعَمَّرٍ﴾: نائب فاعل، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ﴾، ﴿وَلَا يُنقَصُ﴾: فعل مضارع مغير الصيغة، ﴿مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾: جار ومجرور صفة لنائب فاعل محذوف تقديره ولا ينقص شيء من عمره والجملة معطوفة على جملة قوله ﴿وَمَا يُعَمَّرُ﴾. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿فِى كِتَٰبٍ﴾: جار ومجرور حال من نائب فاعل ﴿يُعَمَّرُ﴾ و﴿يُنقَصُ﴾؛ أي: ولكنه على تقدير مضاف؛ أي: إلا حال كون زيادة عمره ونقصانه كائنين في كتاب. ﴿إِنَّ﴾: حرف نصب، ﴿ذَٰلِكَ﴾: اسمها ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿يَسِيرٌ﴾، و﴿يَسِيرٌ﴾: خبرها، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَمَا﴾: الواو: استئنافية، ﴿ما﴾: نافية، ﴿يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿هَٰذَا عَذْبٌ﴾: مبتدأ، وخبر، ﴿فُرَاتٌ﴾: خبر ثان، أو صفة لـ﴿عَذْبٌ﴾، ﴿سَآئِغٌ﴾: خبر ثالث، ﴿شَرَابُهُۥ﴾: فاعل سائغ؛ لأنه صفة مشبهة؛ أي: تسهل انحداره، ويجوز أن يكون ﴿سَآئِغٌ﴾: خبراً مقدماً، ﴿شَرَابُهُۥ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة صفة ثانية لـ﴿عَذْبٌ﴾، وجملة قوله: ﴿هَٰذَا عَذْبٌ﴾ في محل النصب حال من البحران، ﴿وَهَٰذَا﴾: مبتدأ ﴿مِلْحٌ﴾: خبر ﴿أُجَاجٌ﴾: صفة له، والجملة في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿هَٰذَا عَذْبٌ﴾. ﴿وَمِن﴾: الواو: إما عاطفة، والجملة بمثابة التتمة والتكميل للتمثيل، أو استئنافية، فتكون الجملة مستأنفة استطرادية. ﴿من كلٍّ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَأْكُلُونَ﴾، وهنا صفة محذوفة لـ﴿كُلٍّ﴾؛ أي: ومن كل منهما، ﴿تَأْكُلُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة إما معطوفة

على جملة قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ﴾، أو مستأنفة، ﴿لَحْمًا﴾: مفعول به، ﴿طَرِيًّا﴾: صفة له ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿تَأْكُلُونَ﴾، ﴿حِلْيَةً﴾: مفعول به، ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة صفة لـ﴿حِلْيَةً﴾، ﴿وَتَرَى﴾: الواو: عاطفة ﴿ترى﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على أيِّ مخاطب، ﴿ٱلْفُلْكَ﴾: مفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿تَأْكُلُونَ﴾. ﴿فِيهِ﴾: متعلق بـ﴿مَوَاخِرَ﴾، أو بـ﴿ترى﴾، ﴿مَوَاخِرَ﴾ حال من ﴿ٱلْفُلْكَ﴾؛ لأن الرؤية هنا بصرية ﴿لِتَبْتَغُوا﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿تبتغوا﴾: فعل مضارع وفاعل منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام تقديره: لابتغائكم ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾، الجار والمجرور متعلق بـ﴿مَوَاخِرَ﴾، ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿تبتغوا﴾، ﴿وَلَعَلَّكُمْ﴾: لعل حرف نصب وتعليل، والكاف: اسمها، وجملة ﴿تَشْكُرُونَ﴾ خبرها، وجملة ﴿لعل﴾ معطوفة على جملة ﴿لِتَبْتَغُوا﴾ عطف على علة أو مستأنفة.

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

﴿يُولِجُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، ﴿ٱلَّيْلَ﴾: مفعول به، ﴿فِى ٱلنَّهَارِ﴾ متعلق بـ﴿يُولِجُ﴾، والجملة مستأنفة، أو في محل النصب حال من فاعل ﴿خَلَقَكُم﴾، وجملة ﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ معطوفة على الجملة التي قبلها. ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ﴾: فعل وفاعل مستتر يعود على الله، معطوف على ﴿يُولِجُ﴾، ﴿وَٱلْقَمَرَ﴾: معطوف على ﴿ٱلشَّمْسَ﴾، ﴿كُلٌّ﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَجْرِى﴾: خبره، ﴿لِأَجَلٍ﴾: متعلق بـ﴿يَجْرِى﴾. ﴿مُّسَمًّى﴾: نعت لـ﴿أَجَلٍ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب حال من الشمس والقمر.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا ٱسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾.

﴿ذَٰلِكُمُ﴾: مبتدأ، ﴿ٱللَّهُ﴾: خبر أول ﴿رَبُّكُمْ﴾: خبر ثان ﴿لَهُ﴾: خبر مقدم ﴿ٱلْمُلْكُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل الرفع خبر ثالث

لـ﴿ذَٰلِكُمُ﴾، وجملة ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ مستأنفة، ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: الواو: استئنافية، أو حالية ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ، ﴿تَدۡعُونَ﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، ﴿مِن دُونِهِۦ﴾: حال من فاعل ﴿تَدۡعُونَ﴾، ﴿مَا﴾: نافية، ﴿يَمۡلِكُونَ﴾: فعل وفاعل خبر ﴿ٱلَّذِينَ﴾. ﴿مِن﴾: حرف جر زائد، ﴿قِطۡمِيرٍ﴾: مفعول به، والجملة الاسمية مستأنفة، أو حال من الضمير المستكن في قوله: ﴿لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ﴾، ﴿إِن﴾: حرف شرط جازم، ﴿تَدۡعُوهُمۡ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿لَا﴾: نافية، ﴿يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ﴾: فعل وفاعل ومفعول به مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿وَلَوۡ سَمِعُواْ﴾: الواو: عاطفة، ﴿لو﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿سمعوا﴾: فعل وفاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب، ﴿مَا ٱسۡتَجَابُواْ﴾: فعل وفاعل، و﴿ما﴾: نافية، والجملة جواب ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الشرطية ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾: الواو: عاطفة ﴿يوم القيامة﴾: ظرف متعلق بـ﴿يَكۡفُرُونَ﴾، ﴿يَكۡفُرُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الشرطية، ﴿بِشِرۡكِكُمۡۚ﴾: متعلق بـ﴿يَكۡفُرُونَ﴾، وهو من إضافة المصدر إلى فاعله، ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ﴾ الواو: استئنافية، ﴿لا﴾: نافية، ﴿يُنَبِّئُكَ﴾: فعل مضارع ومفعول به ﴿مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾: فاعل، والجملة مستأنفة، والأحسن أن يكون الخطاب عاماً؛ أي: أيها السامع كائناً من كنت، كما مرَّ.

التصريف ومفردات اللغة

﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: أصل الفطر بفتح الفاء: الشق مطلقاً، وقيل: الشق طولاً يقال: فطر الشيء إذا أوجده على غير مثال سابق، وبابه نصر، كما في «المختار»: كأنه شقَّ العدم بإخراجهما منه، وأما الفطر بكسر الفاء فترك الصوم.

﴿رُسُلًا﴾ والرسل: جمع رسول بمعنى المرسل؛ أي: مصيرهم وسائط بينه وبين أنبيائه.

﴿أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ﴾ أولو بمعنى: أصحاب، اسم جمع لذو، كما أن أولاء اسم جمع لذا، وإنما كتبت الواو بعد الألف في حالتي الجر والنصب لئلا يلتبس بإلى الجارة، وإنما كتبوه في الرفع حملاً عليهما، والأجنحة: جمع جناح، وهو للطائر

بمنزلة اليد للإنسان.

﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ﴾ والفتح في الأصل: إزالة الإغلاق، وفي العرف: الظفر، ولما كان سبباً للإرسال والإطلاق استعير له بقرينة لا مرسل له مكان الفاتح.

﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾؛ أي: فكيف تصرفون عن التوحيد إلى الشرك من الأفك بالفتح، وهو: الصرف، يقال: ما أفكك عن كذا؛ أي: ما صرفك عنه، وقيل: هو من الإفك ـ بالكسر ـ، وهو الكذب، وفي «المختار»: والأفك ـ بالفتح ـ مصدر أفكه؛ أي: قلبه وصرفه عن الشيء، وبابه ضرب، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾. ﴿تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ من الرجع بمعنى الرد؛ أي: ترد إليه عواقبها.

﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ الغَرور ـ بفتح الغين المعجمة ـ فعول من أوزان المبالغة، كالشكور والصبور، وفي «المفردات»: الغرور كل ما يغر الإنسان من مال وجاه وشهوة وشيطان، سمي به هنا الشيطان؛ لأنه لا نهاية لغروره.

﴿لَكُمْ عَدُوٌّ﴾؛ أي: عظيم؛ لأن عداوته عامة قديمة، والعموم يفهم من قوله: ﴿لَكُمْ﴾ حيث لم يخص ببعض دون بعض، والقدم يفهم من اسمية الجملة الدالة على الاستمرار اهـ. «كرخي».

﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ﴾ والذهاب المضي، وذهاب النفس كناية عن الموت، كما سيأتي في البلاغة.

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾والإرسال في القرآن على معنيين:

الأول: بمعنى البعثة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾.

والثاني: بمعنى الإطلاق والتسخير، كما في قوله تعالى: ﴿أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ وفي «المفردات»: الإرسال يقال في الإنسان وفي الأشياء المحبوبة والمكروهة، وقد يكون ذلك للتسخير كإرسال الريح والمطر، وقد يكون ببعث من له اختيار نحو إرسال الرسل، وقد يكون ذلك بالتخلية وترك المنع نحو: ﴿أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ والإرسال يقابل الإمساك.

و﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾: جمع ريح بمعنى الهواء المتحرك، أصله روح، ولذا يجمع على أرواح، وأما أرياح قياساً على رياح فخطأ.

﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾؛ أي: تهيجه وتنشره بين السماء والأرض لإنزال المطر، فإنه مزيد ثار الغبار إذا هاج وانتشر ساطعاً كما مر.

والسحاب: جسم يملؤه الله تعالى ماء كما شاء، وقيل: بخار يرتفع من البحار والأرض فيصيب الجبال فيستمسك وينا له البرد، فيصير ماء وينزل، وأصل السحب الجر كسحب الذيل والإنسان على الوجه، ومنه السحاب لجره الماء.

﴿فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ﴾ والبلد: المكان المحدود المتأثر باجتماع قطانه وإقامتهم فيه، ولاعتبار الأثر، قيل: بجلده بلد؛ أي: أثر، والبلد الميت هو الذي لا نبت فيه قد اغبر من القحط.

قال الراغب: الموت يقال بإزاء القوة النامية الموجودة في النبات.

وفي «المصباح»: البلد يذكر ويؤنث، والبلدة البلد، وتطلق البلد والبلدة على كل موضع من الأرض عامراً كان أو خلاءً، وفي التنزيل: ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾؛ أي: إلى أرض ليس بها نبات ولا مرعى، فيخرج ذلك بالمطر فترعاه أنعامهم، فأطلق الموت على عدم النبات والمرعى، وأطلق الحياة على وجودهما، وميت وميت بمعنى واحد، قاله محمد بن يزيد وأنشد:

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَاحَ بِمَيْتٍ ... إِنَّمَا الْمَيْتُ مَيِّتُ الأَحْيَاءِ

إِنَّمَا الْمَيْتُ مَنْ يَعِيشُ كَئِيبَاً ... كَاسِفَاً بَالُهُ قَلِيلَ الرَّجَاءِ

ويرى بعضهم: أن الميت بالتخفيف هو الذي مات، والميت بالتشديد والمائت هو الذي لم يمت بعد، وأنشد:

وَمَنْ يَكُ ذَا رُوحٍ فَذَلِكَ مَيِّتٌ ... وَمَا المَيْتُ إِلاَّ مَنْ إِلَى القَبْرِ يُحْمَلُ

والمراد أنه لا نبات فيه.

﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ والنشور إحياء الأموات يقال: نشر الله الميت وأنشره؛ أي: أحياه.

﴿يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ﴾؛ أي: الشرف والمنعة، قال الراغب: العز حالة مانعة للإنسان من أن يغلب من قولهم أرض عزاز؛ أي: صلبة.

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ والصعود: الذهاب في المكان العالي، استعير لما

يصل من العبد إلى الله، كما استعير النزول لما يصل من الله إلى العبد، والكلم بكسر اللام: اسم جنس؛ لأنه يدل على الماهية من حيث هي هي، وليس بجمع خلافاً لصاحب «القاموس»، ولغيره من النحاة؛ لأنه يجوز تذكير ضميره، والجمع يغلب عليه التأنيث ولا اسم جمع؛ لأن له واحداً من لفظه، والغالب على اسم الجمع خلاف ذلك، وواحده كلمة، والكلمة فيها ثلاث لغات كلمة بفتح الكاف وكسر اللام، وكلمة بكسر الكاف وسكون اللام، وكلمة بفتح الكاف وسكون اللام، وفي «الروح»: والكلم بكسر اللام: اسم جنس كنمر ونمرة، كما ذهب إليه الجمهور، ولذا وصف بالمذكر، لا جمع كلمة، كما ذهب إليه البعض.

وأصل الطيب: الذي به يطلب العزة، والكلم الطيب: هو التوحيد أو الذكر أو قراءة القرآن، وصعوده إلى الله قبوله، والعمل الصالح هو ما كان بإخلاص.

﴿يَرْفَعُهُۥ﴾؛ أي: يقبله، والرفع يقال تارة في الأجسام الموضوعة إذا أعليتها عن مقرها، وتارة في البناء إذا طولته، وتارة في الذكر إذا نوهته، وتارة في المنزلة إذا شرفتها، كما في «المفردات». ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ﴾؛ أي: يعملون على وجه المكر والخديعة. ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؛ أي: المكرات السيئات كأن يراؤوا المؤمنين في أعمالهم يوهمونهم أنهم في طاعة الله.

وأصل المكر: صرف الغير عما يقصده بحيلة، وفي «القاموس»: المكر: الخديعة والمكرات بفتحات جمع مكرة بسكون الكاف، وهي المرة من المكر الذي هو الحيلة والخديعة. اهـ. شيخنا. وقيل: المراد بالمكر هنا الرياء في الأعمال اهـ «قرطبي» ﴿وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾؛ أي: يهلك ويفسد ويبطل ولا يتم لهم، يقال: بار يبور بوراً وبواراً: هلك، وبارت السوق أو السلعة: كسدت وبار العمل: بطل، وبارت الأرض: لم تزرع وبوّر الأرض تركها أو صيرها بائرة، وأباره: أهلكه.

﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ والنطفة: هي الماء الصافي الخارج من بين الصلب والترائب قل أو كثر. ﴿مِنْ أُنثَىٰ﴾ والأنثى خلاف الذكر، ويقالان في الأصل اعتباراً بالفرجين، كما في «المفردات».

﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ والمعمر: من أطيل عمره، والعمر: اسم لمدة عمارة البدن بالحياة ﴿وما يستوى البحران﴾ أصل البحر: كل مكان واسع جامع للماء

الكثير، ويقال للمتوسع في العلم: بحر.

وفي «القاموس»: البحر: الماء الكثير عذباً أو ملحاً، وقال بعضهم: البحر في الأصل يقال للملح دون العذب، فقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ...﴾ الخ. إنما سمي العذب بحراً لكونه مع الملح، كما يقال للشمس والقمر: قمران.

﴿هَٰذَا عَذْبٌ﴾؛ أي: حلو لذيذ طعمه، ﴿فُرَاتٌ﴾؛ أي: كاسر للعطش، مزيل له، وقيل: فرات فعال يقال للواحد والجمع، وفي «القاموس»: وفرت الماء، ككرم فروتة إذا عذب، ﴿سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ﴾؛ أي: سهل انحداره لخلوه مما تعافه النفس، يقال: ساغ الشراب: سهل مدخله، والشراب ما يشرب، والمراد هنا: الماء.

﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ﴾؛ أي: ذو ملوحة وحرارة.

﴿أُجَاجٌ﴾؛ أي: شديد الملوحة والحرارة، وفي «القاموس»: وأج الماء أجوجاً بالضم يأجج كيسمع ويضرب وينصر إذا اشتدت ملوحته، وتقول: هجير أجاج للشمس فيه مجاج، وهو لعاب الشمس، وماء أجاج يحرق بملوحته. ﴿مَوَاخِرَ﴾؛ أي: شواق للماء حين جريانها، يقال: سفينة ماخرة: إذا جرت تشق الماء مع صوت، والجمع: المواخر، كما في «المفردات».

﴿مِن قِطْمِيرٍ﴾ القطمير: القشرة البيضاء الرقيقة التي تكون بين التمرة والنواة، وقيل: هي النكتة في ظهرها، واعلم أن في النواة أربعة أشياء يضرب بها المثل في القلة الفتيل، وهو ما في شق النواة، والقطمير وهو اللفافة المذكورة، والنقير وهو ما في ظهرها، والشفروق وهو ما بين القمع والنواة، وقال الجوهري: ويقال: هو النكتة البيضاء التي في ظهر النواة تنبت منها النخلة، وكلها مذكور في القرآن إلا الأخير، كما ذكرناه في أوائل الكتاب.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن

رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ﴾ شبه فيه إرسال النعم بفتح الخزائن للإعطاء، واستعير الفتح للإرسال لكونه ـ أي: الفتح ـ سبباً للإرسال، واشتق منه: يفتح بمعنى: يرسل على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية، وكذلك في قوله: ﴿وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ شبه حبس النعم بالإمساك لكونه سببه، فاستعير الإمساك للمنع.

ومنها: التعبير عن الإرسال بالفتح إيذاناً بأنها أنفس الخزائن وأعزها منالاً، كأنما هي أبواب مؤصدة لا يفتح مغالقها إلا الله سبحانه من صنوف النعم وضروب الآلاء، كالرزق والمطر والصحة والأمن في الأوطان، وغير ذلك مما لا يحصى عدده.

ومنها: تنكير ﴿مِن رَّحۡمَةٖ﴾ إفادة للإشاعة والإيهام لتندرج في مطاويها ضروب النعم، كما تقدم؛ أي: أي شيء يفتح الله من خزائن رحمته أي رحمة كانت من نعمة وصحة وعلم وحكمة.

ومنها: الطباق بين ﴿يَفۡتَحِ﴾ و﴿يُمۡسِكۡ﴾، وكذلك بين ﴿يُضِلُّ﴾ ﴿وَيَهۡدِي﴾، وبين ﴿تَحۡمِلُ﴾ و﴿تَضَعُ﴾.

ومنها: الجناس المماثل بين ﴿يُكَذِّبُوكَ﴾ و﴿كُذِّبَتۡ﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾.

ومنها: المقابلة بين جزاء الأبرار والفجار في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ﴾ لأنها من المحسنات البديعية اللفظية.

ومنها: حذف الخبر لدلالة السياق عليه في قوله: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ﴾ حذف منه الخبر؛ أي: كمن لم يزين له سوء عمله، ودل على هذا المحذوف قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ...﴾ الخ.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾؛ لأن ذهاب النفس كناية عن موتها؛ لأن النفس إذا ذهبت هلك الإنسان.

ومنها: المجاز العقلي في قوله: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابٗا﴾ لما فيه من الإسناد إلى السبب، والمثير حقيقة هو الله تعالى.

ومنها: الإتيان بصيغة المضارع في قوله: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ بين ماضيين. ﴿أَرْسَلَ فَسُقْنَاهُ﴾ لحكاية الحال الماضية استحضاراً لتلك الصورة البديعة الدالة على كمال القدرة والحكمة، ولأن المراد بيان إحداثها لتلك الخاصية، ولذلك أسند إليها.

ومنها: الالتفات من الغيبة في قوله: ﴿أَرْسَلَ﴾ إلى التكلم في قوله: ﴿فَسُقْنَاهُ﴾، وقوله: ﴿فَأَحْيَيْنَا﴾ دلالة على زيادة اختصاصه به تعالى، وأن الكل منه والوسائط أسباب.

ومنها: تنكير بلد في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ إشارة إلى أن المقصود بعض البلاد الميتة؛ وهي بلاد الذين تبعدوا عن مظان الماء.

ومنها: التشبيه المرسل في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ النُّشُورُ﴾ لوجود الأداة؛ أي: كمثل إحياء الموات نشور الأموات في صحة المقدورية، أو كيفية الإحياء.

ومنها: الاستعارة في قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ﴾؛ لأن الصعود الذهاب في المكان العالي، استعير لما يصل من العبد إلى الله، كما مر.

ومنها: المجاز الإسنادي في قوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾، ففيه مجاز في المسند، ومجاز في الإسناد، فالصعود مجاز عن العلم؛ لأن الصعود صفة من صفات الأجرام، والكلم معلوم، فأسند الفعل للمفعول به.

ومنها: وضع اسم الإشارة موضع ضميرهم للإيذان بكمال تميزهم بما هم فيه من الشر والفساد عن سائر المفسدين والتخصيص واشتهارهم بذلك.

ومنها: الإتيان بضمير ﴿هُوَ﴾ في قوله: ﴿هُوَ يَبُورُ﴾ إفادة للحصر والتخصيص كما مرت الإشارة إليه في مبحث التفسير.

ومنها: المجاز الأول في قوله: ﴿مِن مُّعَمَّرٍ﴾ لأن تسميته معمراً باعتبار مصيره، فهو من باب تسمية الشيء بما يؤول إليه.

ومنها: الاستخدام في قوله: ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾ وهو ذكر الشيء بمعنى، وعود الضمير إليه بمعنى آخر، وهو من المحسنات البديعية؛ لأن المعنى لا ينقص من عمر أحد، لكن لا على معنى لا ينقص من عمره بعد كونه زائداً، بل على معنى لا يجعل من الابتداء ناقصاً.

ومنها: المقابلة بين قوله: ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾، ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ...﴾ إلخ. وهو تركيب استعمل في غير ما وضع له علاقة المشابهة، وليس فيه ذكر للمشبه ولا لأداة التشبيه، فقد مثَّل الله سبحانه للمؤمن والكافر بالبحرين، ثم فضل البحر الأجاج على الكافر بأنه قد شارك البحر العذب في منافع من السمك واللؤلؤ، وجري الفلك بما ينفع الناس، والكافر خالٍ من النفع، ويقال: إن المؤمن والكافر ـ وإن اشتركا في بعض الصفات كالشجاعة والسخاوة ـ لا يتساويان في الخاصية العظمى لبقاء أحدهما على فطرته الأصلية.

ومنها: الاستطراد بقوله: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا...﴾ إلى آخر الآية، فإن المقصود من الآية تشبيه المؤمن والكافر بالبحرين، فذكر منافع البحرين يسمى استطراداً، وهو ذكر الشيء في غير موضعه لمناسبة بينه وبين ذلك الموضع.

ومنها: الإتيان بحرف الترجي في قوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ للإيذان بكونه مرضيًّا عنده تعالى.

ومنها: التجوز في قوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ لأن الأصل في الإشارة أن تكون إلى محسوس، ويستحيل إحساسه تعالى بالحواس.

ومنها: الإشارة إليه بإشارة البعيد في قوله ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ مع كونه سبحانه أقرب من حبل الوريد للإيذان بغاية العظمة له تعالى؛ أي: تنزيلاً للبعد الرتبي منزلة البعد الحسي.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر[1] أن ملك السموات والأرض له،

---

(١) المراغي.

وأن ما يدعون من دونه من الأصنام والأوثان لا يملك شيئاً، ولا يجلب نفعاً، ولا يدفع ضراً.. أعقب لهذا بما هو فذلكة لما تقدم، وكالنتيجة له بأنه لا افتقار إلا إليه تعالى، ولا اتكال إليه إلا عليه، وهو الذي تجب عبادته وحده؛ لأن النفع والضر بيده، لا شريك له، ثم بيَّن أنه يوم القيامة لا تجزي نفس عن نفس شيئاً، ولا تستطيع دفع ضر عنها، ولو كانت ذات قرابة منها، ثم أرشد إلى أن البشارة والإنذار إنما تجدي نفعاً من يخشى الله ويخاف عقابه، وأن من يتزكى فنفع ذلك عائد إليه، وإلى الله عاقبة الأمور كلها، ومردها إليه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾...﴾ الآيات، مناسبتها لما قبلها: أن الله سبحانه لما بين طريق الهدى وطريق الضلالة، وذكر أن المستعد للإيمان قد اهتدى بهدى النذير، والجاحد المعاند قسا قلبه، ولم يستفد من هديه.. ضرب مثلاً به تنجلي حالهما، ثم ذكر أن الهداية بيد الله يمنحها من يشاء، وأن هؤلاء المشركيين كالموتى لا يسمعون نصيحة، ولا يهتدون بعظة، وأن الله سبحانه لم يترك أمة سدى، بل أرسل الرسل، فمنهم من أجاب دعوة الداعي ونجا، ومنهم من استكبر وعصى وكانت عاقبته الوبال والنكال في الدنيا، والنار في العقبى.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر دلائل وحدانيته، وعظيم قدرته التي أعرض عنها المشركون عناداً واستكباراً.. أردف ذلك ذكر ما يرونه من المشاهدات الكونية المختلفة الأشكال والألوان، لعل ذلك يعيد إليهم أحلامهم، وينبه عقولهم إلى الاعتبار بما يرون ويشاهدون.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما بيَّن أن العلماء هم الذين يخشون الله ويخافون عقابه.. أردف ذلك بذكر حال العالمين بكتاب الله تعالى، العاملين بما فرض فيه من أحكام كإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة في السر والعلن، وأبان أن هؤلاء يرجون ثواباً من ربهم كفاء أعمالهم، بل أضعاف ذلك فضلاً من ربهم ورحمة، ويطمعون في غفران زلاتهم؛ لأنه الغفور الشكور لهم على ما أحسنوا من عمل.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه

الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر[1] أن الذين يتلون كتاب الله يوفيهم أجرهم، أكد هذا وقرره بأن هذا الكتاب حق وصدق، وهو مصدق لما بين يديه من الكتب، فتاليه مستحق لهذا الأجر والثواب، ثم قسم هؤلاء الذين أورثوا الكتاب أقساماً ثلاثة، ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات، ثم ذكر جزاء هؤلاء السابقين، وأنهم يدخلون جنات تجري من تحتها الأنهار، وأنهم يحلون فيها أساور الذهب واللؤلؤ ويلبسون الحرير، ويقولون حينئذ: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن، إن ربنا لغفور شكور، ويقولون: إنه أحلنا داراً لا نصب فيها ولا تعب.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[2]: ما أخرجه عبد الغني بن سعيد الثقفي في تفسيره عن ابن عباس رضي الله عنهم أن حصين بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف القرشي نزل فيه﴿﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه البيهقي في البعث وابن أبي حاتم من طريق نفيع بن الحارث عن عبد الله بن أبي أوفى قال: قال رجل للنبي ﷺ: يا رسول الله، إن النوم مما يقر الله به أعيننا في الدنيا، فهل في الجنة من نوم، قال: «إن النوم شريك الموت، وليس في الجنة موت»، قال: فما راحتهم؟ فأعظم ذلك رسول الله ﷺ، وقال: «ليس فيها لغوب، كل أمرهم راحة» فنزلت: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾.

التفسير وأوجه القراءة

ثم ذكر سبحانه افتقار خلقه إليه ومزيد حاجتهم إلى فضله، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ الخطاب فيه عام لا خصوص أهل مكة، كما هو الغالب في الآيات المكية، أو خاص بهم؛ لأن الموضوع فيهم، ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾؛ أي: المحتاجون ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه الاحتياج[3] الكثير الشديد في أنفسكم، وفيما يعرض لكم من أمر مهم، أو

---

(١) المراغي.
(٢) لباب النقول.
(٣) روح البيان.

خطب ملم، فإن كل حادثٍ مفتقر إلى خالقه ليبديه وينشأه أولاً، ويديمه ويبقيه ثانياً، ثم الإنسان محتاج إلى الرزق، ونحوه من المنافع في الدنيا مع دفع المكاره والعوارض، وإلى المغفرة ونحوها في العقبى، فهو محتاج في ذاته وصفاته وأفعاله إلى كرم الله تعالى وفضله. وإنما[1] خاطب الناس بذلك، وإن كان كل ما سوى الله فقيراً إليه؛ لأن الناس هم الذي يدّعون الغنى ونسبوه لأنفسهم، قال بعضهم[2]: إن الله سبحانه ما شرف شيئاً من المخلوقات بتشريف خطاب أنتم الفقراء إلى الله حتى الملائكة المقربين، سوى الإنسان، وذلك أن افتقار المخلوقات إلى أفعال الله تعالى من حيث الخلق ونحوه، وافتقار الإنسان إلى ذات الله وصفاته، فجميع المخلوقات وإن كانت محتاجة إلى الله تعالى لكن الاحتياج الحقيقي إلى ذات الله وصفاته مختص بالإنسان من بينها، كمثل سلطان له رعية، وهو صاحب جمال، فيكون افتقار جميع رعاياه إلى خزائنه وممالكه، ويكون افتقار عشاقه إلى عين ذاته وصفاته، فيكون غنى كل مفتقر بما يفتقر إليه، فغنى الرعية يكون بالمال والملك، وغنى العاشق يكون بمعشوقه. انتهى.

قال ذو النون[3]: الخلق محتاجون إليه تعالى في كل نفس وخطرة ولحظة، وكيف لا ووجودهم وبقاؤهم به. والفقراء[4]: جمع فقير: والفقير: من صيغ المبالغة كالمفتقر بمعنى ذي الاحتياج الكثير والشديد، والفقر: وجود الحاجة الضرورية، وفقد ما يحتاج إليه وتعريف الفقراء للمبالغة في فقرهم، فإنهم لكثرة افتقارهم وشدة احتياجهم هم الفقراء فحسب، وإن افتقار سائر المخلوقات بالنسبة إلى فقرهم كالعدم.

والمعنى[5]: يا أيها الناس أنتم أشد الخلق افتقاراً إلى الله تعالى، واحتياجاً إليه في أنفسكم وعيالكم وأموالكم، وفيما يعرض لكم من سائر الأمور، فلا غنى لكم عنه طرفة عين، ولا أقل من ذلك، ومن هنا قول الصديق رضي الله عنه: من عرف نفسه عرف ربه. أي: من عرف نفسه بالفقر والذل والعجز والمسكنة عرف ربه

---

(١) الصاوي.
(٢) روح البيان.
(٣) النسفي.
(٤) روح البيان.
(٥) الصاوي.

بالغنى والعز والقدرة والكمال؛ أي: أنتم مفتقرون إليه تعالى في كل حالة، في حالة الفقر والغنى والضعف والقوة والذل والعز، فالعبد مفتقر لربه في أي حالة كان بها ذلك العبد. ﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿هُوَ﴾ وحده ﴿ٱلْغَنِىُّ﴾ عن الأشياء كلها المستغني على الإطلاق، فكل أحد يحتاج إليه تعالى؛ لأن أحداً لا يقدر أن يصلح أمره إلا بالأعوان؛ لأن الأمير ما لم يكن له خدم وأعوان لا يقدر على الإمارة، وكذا التاجر يحتاج إلى المكارين، والله الغني عن الأعوان وغيرها. ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾؛ أي: المحمود بكل لسان، المنعم على جميع الموجودات حتى استحق عليهم الحمد على نعمته العامة وفضله الشامل، فالله هو الغني المغني الحميد.

وفي «النسفي»: ولم يسمهم[1] بالفقراء للتحقير، بل للتعريض على الاستغناء، ولهذا وصف نفسه بالغني الذي هو مطعم الأغنياء، وذكر الحميد بعده ليدل به على أنه الغني النافع بغناء خلقه، والجواد المنعم عليهم؛ إذ ليس كل غني نافعاً بغناه إلا إذا كان الغني جواداً منعماً، وإذا جاد وأنعم حمده المنعم عليهم.

قال سهل: لما خلق الله الخلق حكم لنفسه بالغنى، ولهم بالفقر، فمن ادعى الغنى حجب عن الله، ومن أظهر فقره أوصله فقره إليه، فينبغي للعبد أن يكون مفتقراً بالسر إليه، ومنقطعاً عن الغير إليه حتى تكون عبوديته محضة، فالعبودية هي الذل والخضوع، وعلامته: أن لا يسأل من أحد. وقال الواسطي: من استغنى بالله لا يفتقر، ومن تعزز بالله لا يذل. وقال الحسيني: على مقدار افتقار العبد إلى الله يكون غنياً بالله، وكلما ازداد افتقاراً ازداد غنى، وقال يحيى: الفقر خير للعبد من الغنى؛ لأن المذلة في الفقر، والكبر في الغنى، والرجوع إلى الله بالتواضع والذلة خير من الرجوع إليه بتكثير الأعمال، وقيل: صفة الأولياء ثلاثة: الثقة بالله في كل شيء، والفقر إليه في كل شيء، والرجوع إليه في كل شيء، وقال الشبلي: الفقر يجر البلاء، وبلاؤه كله عز. انتهى من «النسفي».

ومعنى الآية[2]: أنتم أيها العباد أولو الحاجة والفقر إلى خالقكم ورازقكم، فإياه فاعبدوا، وإلى رضاه فسارعوا، وهو الغني عن عبادتكم وعن غيرها، وهو المحمود على نعمه، فكل نعمة بكم وبسواكم فهي منه، فله الحمد والشكر على

---

(١) النسفي. (٢) المراغي.

كل حال.

والخلاصة: أنتم في حاجة إليه، وهو ذو الغنى وحده لا شريك له، والمحمود في جميع ما يقول ويفعل، ويشرِّع لكم ولغيركم من الأحكام، ثم أرشد إلى غناه وقدرته الكاملة بقوله: ﴿إِن يَشَأْ﴾ الله سبحانه وتعالى؛ إذهابكم عن وجه الأرض، ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾ عنها ويعدمكم كما قدر على إيجادكم وبقائكم ﴿وَيَأْتِ﴾؛ وينشىء ﴿بِخَلْقٍ﴾؛ أي: بمخلوق ﴿جَدِيدٍ﴾ مكانكم وبدلكم ليسوا على صفتكم، بل مستمرون على الطاعة، فيكون الخلق من جنسهم، وهو الآدمي، أو يأت بعالم آخر غير ما تعرفونه، فيكون من غير جنسهم.

وعلى كلا التقديرين فيه إظهار الغضب للناس الناسين، وتخويف لهم على سرفهم ومعاصيهم.

﴿وَمَا ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الإذهاب بهم، والإتيان بآخرين ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه متعلق بقوله: ﴿بِعَزِيزٍ﴾؛ أي: بمتعذر ولا صعب ولا مستعسر، بل هو هين عليه يسير؛ لشمول قدرته على كل مقدور، ولذلك يقدر على الشيء وضده، فإذا قال لشيء: كن.. كان من غير توقف ولا امتناع، وقد أهلك القرون الماضية، واستخلف الآخرين إلى أن جاء نوبة قريش، فناداهم بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ وبيَّن أنهم محتاجون إليه احتياجاً كلياً، وهو غني عنهم وعن عبادتهم، ومع ذلك دعاهم إلى ما فيه سعادتهم وفوزهم، وهو الإيمان والطاعة، وهم مع احتياجهم لا يجيبونه، فاستحقوا الهلاك، ولم يبقَ إلا المشيئة[1].

ثم إنه تعالى شاء هلاكهم لإصرارهم، فهلك بعضهم في بدر، وبعضهم في غيره من المعارك، وخلق مكانهم من يطيعونه تعالى فيما أمرهم به ونهاهم عنه، ويستحقون بذلك فضله ورحمته، واستمر الإفناء والإيجاد إلى يومنا هذا، لكن لا على الاستعجال، بل على الإمهال، فإنه تعالى صبور لا يؤاخذ العصاة على العجلة، ويؤخر العقوبة ليرجع التائب ويقلع المصر. ففي الآية وعظ وزجر لجميع الأجناس من الملوك ومن دونهم، فمن أهمل أمر الجهاد.. لم يجد المهرب من

---

(١) روح البيان.

بطش رب العباد، ومن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. جعل نفسه عرضة للهلاك والخطر، وعلى هذا فقس. فينبغي للعاقل المكلف أن يعبد الله تعالى ويخافه، ولا يجترىء على ما يخالفه رضاه، ولا يكون أسوأ من الجمادات مع أن الإنسان أشرف المخلوقات.

وعبارة «النسفي» هنا: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ كلكم إلى العدم، فإن غناه بذاته لا بكم في القدم، ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وهو بدون حمدكم حميد، ﴿وَمَا ذَٰلِكَ﴾ الإنشاء والإفناء ﴿عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾؛ أي: بممتنع، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ويخلق بعدكم من يعبده ولا يشرك به شيئاً. انتهى.

ومعنى الآية[1]: إن يشأ ربكم أن يهلككم أهلككم؛ لأنه هو الذي أنشأكم من غير حاجة به إليكم، ويأتِ بخلق سواكم يطيعونه ويأتمرون بأمره، وينتهون عما نهاهم عنه، وما ذلك بصعب على الله الخالق لجميع عباده، بل هو يسير هين عليه، وليس بخافٍ ما في هذا من تهديد ووعيد وزجر وتأنيب، ثم أخبر عن أحوال يوم القيامة وأهوالها وشدائدها بقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ﴾؛ أي: ولا تحمل ﴿وَازِرَةٌ﴾؛ أي: نفس آثمة، وكذا غيرها يوم القيامة ﴿وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾؛ أي: إثم نفس أخرى بحيث تتعرى منه المحمول عنها، بل إنما تحمل كل منهما وزرها الذي اكتسبته، بخلاف الحال في الدنيا، فإن الجبابرة يأخذون الولي بالولي، والجار بالجار.

ولا تعارض هذه الآية قوله تعالى[2]: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ لأنهم إنما حملوا أثقال ضلالهم مع أثقال إضلالهم، وكلاهما أوزارهم ليس فيها شيء من أوزار غيرهم، ألا ترى كيف كذبهم في قولهم: ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ﴾ بقوله: ﴿وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ﴾، ومثل هذا حديث: «من سن سنة سيئة.. فعليه وزرها، ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة». فإن الذي سن السنة السيئة إنما حمل وزر سنة السيئة، لا وزر من عمل بها، وقد تقدم الكلام على هذه الآية مستوفىً في محلها، ومنه يعلم وجه تحميل ذنوب المظلومين يوم القيامة على الظالمين، فإن المحمول في الحقيقة جزاء الظلم، وإن كان يحصل في الظاهر تخفيف حمل المظلوم، ولا يجري إلا في الذنب المتعدي، وفي الآية إشارة إلى أن

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.

لله تعالى في خلق كل واحدٍ من الخلق سراً مخصوصاً به، وله مع كل واحد شأن آخر، فكل مطالب بما حمل، كما أن كل بذر ينبت بنبات قد أودع فيه، ولا يطالب بنبات بذر آخر؛ لأنه لا يحمل إلا ما حمل عليه، كما في «التأويلات النجمية».

وإنما قال[1]: ﴿وَازِرَةٌ﴾، ولم يقل: ولا تزر نفس وزر أخرى؛ لأن المعنى أن النفوس الوازرات لا ترى منهنّ واحدة إلا حاملة وزرها لا وزر غيرها. ﴿وَإِن تَدْعُ﴾ مضارع أسند إلى الغائبة؛ أي: ولو دعت نفس ﴿مُثْقَلَةٌ﴾؛ أي: نفس أثقلتها الأوزار، وهي تقع على المذكر والمؤنث، والمفعول محذوف؛ أي: أحداً، فالثقل: الإثم، سمي به لأنه يثقل صاحبه يوم القيامة، ويثبطه عن الثواب في الدنيا، ﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ الذي عليها من الذنوب ليحمل بعضها قيل: في الأثقال في الظاهر، كالشيء المحمول على الظهر حمل بالكسر، وفي الأثقال المحمول في الباطن كالولد في البطن حمل بالفتح، كما في «المفردات».

﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ﴾؛ أي: من حملها ﴿شَيْءٌ﴾ قليل ولا كثير؛ أي: لم تجب لحمل شيء منه. ﴿وَلَوْ﴾ للوصل[2]؛ أي: للغاية ﴿كَانَ﴾؛ أي: المدعو المفهوم من الدعوة، وترك ذكره ليشمل كل مدعو ﴿ذَا قُرْبَىٰٓ﴾؛ أي: ذا قرابة من الداعي كالأب والأم والولد والأخ ونحو ذلك؛ إذ لكل واحد منهم يومئذ شأن يغنيه، وحمل يعجزه، وقيل: التقدير: ولو كان الداعي ذا قربى، والمعنيان حسنان. اهـ «جمل».

ففي هذا دليل على أنه تعالى لا يؤاخذ بالذنب إلا جانيه، وأن الاستغاثة بالأقربين غير نافعة لغير المتقين، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: يلقى الأب والأم ابنه فيقول: يا بني، احمل عني بعض ذنوبي، فيقول: لا أستطيع، حسبي ما عليَّ، وكذا يتعلق الرجل بزوجته فيقول لها: إني كنت لك زوجاً في الدنيا، فيثني عليها خيراً، فيقول: قد احتجت إلى مثقال ذرةٍ من حسناتك، لعلي أنجو بها مما ترين، فتقول: ما أيسر ما طلبت، ولكن لا أطيق، إني أخاف مثل ما تخوفت.

فإن قلت[3]: ما الفرق بين معنى قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، ومعنى:

---

(١) النسفي.

(٢) روح البيان.

(٣) النسفي.

﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾؟

قلتُ: إن الأول دال على عدل الله في حكمه، وأن لا يؤاخذ نفساً بغير ذنبها، والثاني: في بيان أنه لا غياث يومئذ حتى إن نفساً قد أثقلتها الأوزار لو دعت إلى أن يخفف بعض وقرها لم تجب. ولم تغث، وإن كان المدعو بعض قرابتها.

قال في «الإشارة»: هذه الآية نفي للتحمل اختياراً، والأولى نفي له إجباراً، وفيه من[1] الإشارة أن الطاعة نور، والعصيان ظلمة، فإذا اتصف جوهر الإنسان بصفة النور، أو بصفة الظلمة.. لا تنقل تلك الصفة من جوهره إلى جوهر إنسان آخر أياً كان، ألا ترى أن كل أحد عند الصراط يمشي في نوره لا يتجاوز منه إلى غيره شيء، وكذا من غيره إليه.

ومعنى الآية[2]: وإن تدع نفس مثقلة بالذنوب نفساً أخرى إلى حمل شيء من ذنوبها معها لم تحمل تلك المدعوة من تلك الذنوب شيئاً، ولو كانت قريبةً لها في النسب، فكيف بغيرها مما لا قرابة بينها وبين الداعية لها، وقرأ الجمهور[3]: ﴿لَا يُحْمَلْ﴾ بالياء مبنياً للمفعول، وأبو السمال عن طلحة وإبراهيم بن زاذان عن الكسائي بفتح التاء من فوق وكسر الميم، وتقتضي هذه القراءة نصب شيء، كما اقتضت قراءة الجمهور رفعه، وفاعل ﴿تحمل﴾ ضمير عائد على مفعول ﴿تَدْعُ﴾ المحذوف؛ أي: وإن تدع مثقلة نفساً أخرى إلى حملها.. لم تحمل منه شيئاً، وقرىء: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ على أن ﴿كَانَ﴾ تامة؛ أي: ولو حضر، آنذاك ذو قربى، ودعته لم يحمل منه شيئاً مثل قوله: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾، ونحو الآية قوله: ﴿لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾، وقوله: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾، ثم سلى رسوله ﷺ عدم قبولهم دعوته وإصرارهم على عنادهم، فقال: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ يا محمد بهذه الإنذارات، والإنذار: الإبلاغ مع التخويف ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ﴾؛ أي: يخافون

---

(١) روح البيان.

(٢) الشوكاني.

(٣) البحر المحيط.

﴿رَبَّهُم﴾ حال كونهم ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾؛ أي: غائبين عن عذابه وأحكام الآخرة، أو غائبين عن الناس في خلواتهم، فهو حال من الفاعل، أو حال كون ذلك العذاب غائباً عنهم، فهو حال من المفعول.

قال الزجاج: تأويله: إنَّ إنذارك إنما ينفع الذين يخشون ربهم، فكأنك تنذرهم دون غيرهم ممن لا ينفعهم الإنذار، كقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾، وقوله ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾، ومعنى ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: أنهم احتفلوا بأمرها، ولم يشتغلوا عنها بشيء مما يلهيهم؛ أي: راعوها، كما ينبغي، وجعلوها مناراً منصوباً، وعلماً مرفوعاً، قال في «كشف الأسرار»: وغاير بين اللفظين؛ لأن أوقات الخشية دائمة، وأوقات الصلاة معينة منقضية، والمعنى: إنما ينفع إنذارك وتحذيرك هؤلاء من قومك دون من عداهم من أهل التمرد والفساد، وإن كنت نذيراً للخلق كلهم، وخص الخشية والصلاة بالذكر؛ لأنهما أصلا الأعمال الحسنة الظاهرة والباطنة؛ أما الصلاة.. فإنها عماد الدين، وأما الخشية فإنها شعار اليقين، وإنما يخشى المرء بقدر علمه بالله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ فقلب لم يكن عالماً خاشياً يكون ميتاً، لا يؤثِّر فيه الإنذار، كما قال تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾، ومع هذا جعل تأثير الإنذار مشروطاً بشرط آخر، وهو إقامة الصلاة، وأمارة خشية قلبه بالغيب محافظة الصلاة في الشهادة، وفي الحديث: «إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة».

﴿وَمَن تَزَكَّىٰ﴾ وتطهر من أوضار[1] الأوزار والمعاصي بالتأثر من هذه الإنذارات، وأصلح حاله بفعل الطاعات ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ﴾ ويتطهر ﴿لـ﴾ غرض ﴿نفسه﴾ لاقتصار نفعه عليها، كما أن من تدنس بها لا يتدنس إلا عليها، وقيل: المعنى: ومن يعطي الزكاة.. فإنما ثوابه لنفسه.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ﴾ فعلاً ماضياً ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ﴾ فعلاً مضارعاً من تزكى، وقرأ العباس عن أبي عمرو: ﴿ومن يزكى فإنما يزكى﴾ بالياء من تحت وشد الزاي فيهما، هما مضارعان أصلهما: ومن يتزكى، أدغمت التاء في الزاي، كما أدغمت في الذال في قوله: ﴿يذكرون﴾، وقرأ ابن مسعود وطلحة: ﴿ومن ازكى﴾

---

(١) **أوضار: أوساخ.**

(٢) البحر المحيط.

بإدغام التاء في الزاي، واجتلاب همزة الوصل في الابتداء، وطلحة أيضاً، فإنما يزكى بإدغام التاء في الزاي. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى، ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾؛ أي: الرجوع للمجازاة، لا إلى غيره استقلالاً ولا اشتراكاً، فيجازيهم على تزكيهم أحسن الجزاء.

ومعنى الآية: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ...﴾ الخ؛ أي[1]: إنما يجدي النصح والإنذار لدى من يخشون الله سبحانه، ويخافون شديد عقابه يوم القيامة من غير معاينة منهم لذلك، بل لإيمانهم بما أتيت به، وتصديقهم لك فيما أنبأت به عن ربك، فهؤلاء هم الذين ينفعهم إنذارك ويتعظون بمواعظك، لا من طبع الله على قلوبهم، فهم لا يفقهون إلى أنهم يؤدون الصلاة المفروضة عليهم، ويقيمونها على ما رسمه الدين، فهي التي تطهر قلوبهم، وتقربهم من ربهم حين مناجاتهم له، كما جاء في الحديث: أعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

والخلاصة: أنه إنما ينفع إنذارك وتخويفك من يخشى بأس الله وشديد عقابه، دون من عداهم من أهل التمرد والعناد، ثم حثَّ على الأعمال الصالحة، وأبان أن فائدتها عائدة إليهم، فقال: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ﴾ الخ؛ أي: ومن يتطهر من أدناس الشرك وأوضار الذنوب والمعاصي.. فنفع ذلك عائد إليه، كما أن من يتدسى بالذنوب والآثام.. فضرر ذلك راجع إليه، وإلى الله سبحانه مصير كلِّ عامل، وهو مجازيه بما قدم من خير أو شر على ما جنى وأثل لنفسه.

والحاصل[2]: أن الله سبحانه ذكر أولاً أنه لا يحمل أحد ذنب أحد، ثم ذكر ثانياً أن المذنب إن دعا غيره، ولو كان من قرابته إلى حمل شيء من ذنوبه لا يحمل، ثم ذكر ثالثاً أن ثواب الطاعة مختص بفاعلها ليس لغيره منه شيء، ثم ضرب مثلاً للمؤمن والكافر، فقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ﴾؛ أي: المسلوب حاسة البصر ﴿وَٱلْبَصِيرُ﴾؛ أي: الذي له ملكة البصر، فشبه الكافر بالأعمى، والمؤمن بالبصير. فإن المؤمن[3] من أبصر طريق الفوز والنجاة وسلكه، بخلاف الكافر، فكما لا يستوي الأعمى والبصير من حيث الحس الظاهري؛ إذ لا بصر للأعمى..

(١) المراغي.
(٢) الشوكاني.
(٣) روح البيان.

كذلك لا يستوي الكافر والمؤمن من حيث الإدراك الباطني، ولا بصيرة للكافر، بل الكافر أسوأ حالاً من الأعمى المدرك للحق؛ إذ لا اعتبار بحاسة البصر لاشتراكها بين جميع الحيوانات. ﴿وَلَا﴾ لتأكيد نفي الاستواء، ﴿الظُّلُمَٰتُ﴾ جمع ظلمة، وهي عدم النور، ﴿وَلَا﴾ للتأكيد أيضاً ﴿النُّورُ﴾، وهو الضوء المنتشر المعين للأبصار، وهذا تمثيل للباطل والحق، فالكافر في ظلمة الكفر والشرك والجهل والعصيان والبطلان لا يبصر اليمين من الشمال، فلا يرجى له الخلاص من المهالك بحال، والمؤمن في نور التوحيد والإخلاص والعلم والطاعة والحقانية بيده الشموع والأنوار أينما سار؛ أي: ولا تستوي الظلمات والنور. وجمع الظلمات مع إفراد النور لتعدد فنون الباطل، واتحاد الحق، يعني أن الحق واحد، وهو التوحيد.

فالموحد لا يعبد إلا الله تعالى، وأما الباطل فطرقه كثيرة، وهي وجوه الإشراك، فمن عابد للكواكب، ومن عابد للنار، ومن عابد للأصنام، ومن عابد للشمس، ومن عابد للملائكة، إلى غير ذلك، فالظلمات كلها لا تجد فيها ما يساوي ذلك النور الواحد.

﴿وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾﴾؛ أي: شدة حر الشمس، قال الأخفش[1]: و﴿لا﴾ في قوله: ﴿وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ﴾ زائدةٌ، والتقدير: وما يستوي الظلمات والنور، ولا الظل والحرور، والحرور: شدة حر الشمس، قال الأخفش: والحرور لا يكون إلا مع شمس النهار، والسموم يكون بالليل، وقيل: عكسه، وقال رؤبة بن العجاج: الحرور يكون بالليل خاصة، والسموم يكون بالنهار خاصة، وقال الفراء: السموم لا يكون إلا بالنهار، والحرور يكون فيهما. قال النحاس: وهذا أصح، وقال قطرب: الحرور: الحر، والظل: البرد، والمعنى: أنه لا يستوي الظل الذي لا حر فيه ولا أذى، والحر الذي يؤذي، قيل: أراد الثواب والعقاب، وسمي الحر حروراً مبالغة في شدة الحر؛ لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، وقال الكلبي: أراد بالظل الجنة، وبالحرور النار، وقال عطاء: يعني: ظل الليل وشمس النهار، وقيل: يعني الراحة والشدة.

وإنما قدم الأعمى على البصير[2]، والظلمات على النور، والظل على الحرور

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

ليتطابق فواصل الآي، والمعنى: كما لا يستوي الظل والحرارة من حيث إن في الظل استراحة للنفس، وفي الحرارة مشقة وألماً، كذلك لا يستوي ما للمؤمن من الجنة التي فيها ظل وراحة، وما للكافر من النار التي فيها حرارة شديدة، وأفرد[1] الأعمى والبصير؛ لأنه قابل الجنس بالجنس؛ إذ قد يوجد في أفراد العميان ما يساوي به بعض أفراد البصراء، كأعمى عنده من الذكاء ما يساوي به البصير البليد، فالتفاوت بين الجنسين مقطوع به لا بين الأفراد.

ثم ذكر سبحانه تمثيلاً آخر للمؤمن والكافر، فقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ﴾ بنور الإيمان، ﴿وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ بأمراض الشرك والجهل، وهذا التمثيل أبلغ من الأول، ولذلك كرر الفعل معه، وأوثرت صيغة الجمع في الطرفين تحقيقاً للتباين بين أفراد الفريقين، فالتفاوت بينهما أكثر؛ إذ ما من ميت يساوي في الإدراك حياً، فذكر أن الأموات لا يساوون الأحياء، سواء قابلت الجنس بالجنس، أم قابلت الفرد بالفرد.

والحي[2]: ما به القوة الحساسة، والميت: ما زال عنه ذلك، وجه التمثيل أن المؤمن منتفع بحياته؛ إذ ظاهره ذكر، وباطنه فكر دون الكافر؛ إذ ظاهره عاطل وباطنه باطل، وقال بعض العلماء: هو تمثيل للعلماء والجهال، وتشبيه الجهلة بالأموات شائع، ومنه قوله:

لاَ تُعْجِبَنَّ ٱلْجَهُولَ حُلَّتُهُ فَإِنَّهُ ٱلْمَيْتُ ثَوْبُهُ كَفَنُ

لأن الحياة المعتبرة هي حياة الأرواح والقلوب، وذلك بالحكم والمعارف، ولا عبرة بحياة الأجساد بدونها لاشتراك البهائم، قال قتادة: هذه الأمور كلها أمثال؛ أي: كما لا تستوي هذه الأشياء.. كذلك لا يستوي الكافر والمؤمن، ولا في المواضع كلها لتأكيد معنى النفي، والفرق[3] بين الواوات فيها أن بعضها ضمت شفعاً إلى شفع، وبعضها وتراً إلى وتر.

والمعنى[4]: أي وما يستوي الأعمى عن دين الله الذي ابتعث به نبيه ﷺ، والبصير الذي قد أبصر فيه رشده فاتبع محمداً ﷺ، وصدقه، وقبل عن الله ما ابتعثه

---

(١) البحر المحيط.
(٢) روح البيان.
(٣) النسفي.
(٤) المراغي.

به، وما تستوي ظلمات الكفر ونور الإيمان، ولا الثواب والعقاب، ثم ضرب مثلاً آخر لهما بقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ...﴾ إلخ؛ أي: وما يستوى أحياء القلوب بالإيمان بالله ورسوله ومعرفة كتابه وتنزيله، وأموات القلوب بغلبة الكفر عليها حتى صارت لا تعقل عن الله أمره ونهيه، ولا تفرِّق بين الهدى والضلال، وكل هذه أمثال ضربها الله سبحانه للمؤمن والإيمان، والكافر والكفر.

ونحو الآية قوله: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾، وقوله: ﴿۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

والخلاصة: أن المؤمن بصير سميع نيِّر القلب، يمشي على صراط مستقيم في الدنيا والآخرة حتى يتقربه الحال في الجنات ذات الظلال والعيون، والكافر أعمى وأصم يمشي في ظلمات لا خروج له منها، فهو يتيه في غيه، وضلاله في الدنيا والآخرة حتى يفضي به ذلك إلى حرور وسموم وحميم، وظل من يحموم، لا بارد ولا كريم.

ثم بيَّن أن الهداية والتوفيق بيده سبحانه وحده، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿يُسْمِعُ﴾ كلامه إسماع فهم واتّعاظ، وذلك بإحياء القلب. ﴿مَن يَشَآءُ﴾ أن يسمعه من أوليائه الذين خلقهم لجنته، ووفَّقهم لطاعته، فينتفع بإنذارك، ﴿وَمَآ أَنتَ﴾ يا محمد، ﴿بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾؛ أي[1]: بمفهم من هو مثل الميت الذي في القبور، شبَّه الله سبحانه الكفار بالموتى في عدم التأثر بدعوته ﷺ؛ أي: فكما لا يسمع أصحاب القبور ولا يجيبون.. كذلك الكفار لا يسمعون ولا يقبلون الحق.

وقرأ الجمهور[2]: بتنوين ﴿مسمع﴾ وقطعه عن الإضافة، وقرأ الحسن والأشهب وعيسى الثقفي وعمرو بن ميمون: بإضافته، والمعنى: إن الله يهدي من يشاء إلى سماع الحجة وقبولها بخلق الاستعداد فيه للهداية، ثم ضرب مثلاً لهؤلاء المشركين، وجعلهم كالأموات لا يسمعون فقال: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ﴾ الخ؛ أي: فكما لا تقدر أن تسمع من في القبور كتاب الله فتهديهم به إلى سبيل الرشاد.. لا

---

(١) المراح. (٢) البحر والشوكاني.

تقدر أن تنفع بمواعظ الله وحججه من كان ميت القلب، لا يستطيع فهم كتابه ومعرفة مغازي الدين وأسراره.

والخلاصة: كما لا ينتفع الأموات بعد أن صاروا إلى قبورهم، وهم كفار بالهداية والدعوة إليها، كذلك هؤلاء المشركون لا حيلة لك فيهم، ولا تستطيع هدايتهم، ثم بين عمل الرسول ووظيفته فقال: ﴿إِنْ أَنتَ﴾؛ أي: ما أنت يا محمد ﴿إِلَّا نَذِيرٌ﴾؛ أي: رسول منذر بالنار والعقاب ومخوف، وأما الإسماع البتة فليس من وظائفك ولا حيلة لك إليه في المطبوع على قلوبهم الذين هم بمنزلة الموتى. والمعنى: أي: ما أنت إلا رسول منذر عقاب الله لهؤلاء المشركين الذين طبع على قلوبهم، ولم تكلَّف هدايتهم وقبولهم ما جئتهم به، فإن ذلك بيده تعالى لا بيدك ولا بيد غيرك، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن هم لم يستجيبوا لك.

تنبيه: قوله[1]: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾، وقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾، وقوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ وغير ذلك لتمييز مقام الألوهية عن مقام النبوة كيلا يشتبها على الأمة فيضلوا عن سبيل الله، كما ضل بعض الأمم السالفة، فقال بعضهم: عزير ابن الله، وقال بعضهم: المسيح ابن الله، وذلك من كمال رحمته لهذه الأمة وحسن توفيقه.

قال بعضهم: فإن قلت: إنه قد ثبت أنه ﷺ أمر يوم بدر بطرح أجساد الكفار في القليب، ثم ناداهم بأسمائهم، وقال: «هل وجدتم ما وعد الله ورسوله حقاً، فإني وجدت ما وعدني الله حقاً؟». فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله، كيف تكلم أجساداً لا أرواح فيها؟ فقال النبي ﷺ: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا شيئاً» فهذا الخبر يقتضي أن النبي ﷺ أسمع من في القليب، وهم موتى، فيعارض هذه الآية، فما وجه الجمع بينهما؟

قلتُ: يحمل الخبر على أن الله تعالى أحيى أهل القليب حينئذ حتى سمعوا كلام رسول الله ﷺ توبيخاً لهم، وتصغيراً ونقمة وحسرة، وإلا فالميت من حيث هو ميت ليس من شأنه السماع، فقد أسمع الرسول ﷺ بإسماع الله تعالى، وإلا فليس

---

(١) روح البيان.

من شأن أحد الإسماع، كما أنه ليس من شأن الميت السماع، وظهر من هذا الجواب أنه لا معارضة بين الآية والحديث، وقوله عليه الصلاة والسلام: «ما أنتم بأسمع...» إلخ، يدل على أن الأرواح أسمع من الأجساد مع الأرواح لزوال حجاب الحس وانخراقه، والله أعلم.

ثم بيَّن سبحانه أنه ليس نذيراً من تلقاء نفسه، بل بإذن ربه وإرادته، وأنه ما جاء إلا بالحق، فقال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ يا محمد ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ إما حال من الفاعل؛ أي: حال كوننا محقين، أو من المفعول؛ أي: حال كونك محقاً، أو صفة لمصدر محذوف؛ أي: إرسالاً متلبساً بالحق، وهذا أولى لشموله الأولين في المعنى؛ أي: وأرسلناك بالدين الحق الذي هو الإسلام، أو بالقرآن حال كونك، ﴿بَشِيرًا﴾؛ أي: مبشراً للمؤمنين بالجنة ﴿وَنَذِيرًا﴾؛ أي: منذراً للكافرين بالنار.

والمعنى: أي إنا أرسلناك أيها الرسول بالإيمان بي وحدي، وبالشرائع التي فرضتها على عبادي مبشراً بالجنة من صدقك، وقبل منك ما جئت به من عندي ومنذراً بعقاب من كذبك ورد عليك ما أوحيت به إليك، ثم بيَّن فضله سبحانه على عباده ورحمته بهم، وأنه لم يتركهم دون أن يبين لهم طريق الهدى والضلال، فقال: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ﴾؛ أي: ما من أمة من الأمم السالفة وأهل عصر من الأعصار الماضية ﴿إِلَّا خَلَا﴾ ومضى ومر ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في تلك الأمة ﴿نَذِيرٌ﴾ من نبي أو عالم ينذرهم من عذاب الله تعالى، والاكتفاء بالإنذار؛ لأنه هو المقصود الأهم من البعثة.

قال في «الكواشي»: وأما فترة عيسى فلم يزل فيها من هو على دينه، وداع إلى الإيمان. وفي «كشف الأسرار: والآية تدل على أن كل وقت لا يخلو من حجة خبرية، وأن أول الناس آدم، وكان مبعوثاً إلى أولاده، ثم لم يخل بعده زمان من صادق مبلغ عن الله، أو آمر يقوم مقامه في البلاغ والأداء حين الفترة، وقد قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ لا يؤمر ولا ينهى.

فإن قيل[1]: كيف يجمع بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ

---

(١) روح البيان.

﴿ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾؟

قلت: معنى الآية: ما من أمةٍ من الأمم الماضية إلا وقد أرسلت إليهم رسولاً ينذرهم على كفرهم، ويبشرهم على إيمانهم؛ أي: سوى أمتك التي بعثناك إليهم، يدل على ذلك قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾، وقوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾.

وقيل: يجمع بينهما بأن المراد من هذه الآية المذكورة هنا: ما من أمة هلكوا بعذاب الاستئصال إلا بعد أن أقيم عليهم الحجة بإرسال الرسول بالإعذار والإنذار. انتهى ما في «كشف الأسرار». هذا الثاني هو أنسب بالتوفيق بين الآيتين، يدل عليه ما بعده من قوله: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ الخ، وإلا فلا يخفى أن أهل الفترة ما جاءهم نذير على ما نطق به قوله تعالى: ﴿مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾، ويدل عليه أيضاً أن كل أمة أنذرت من الأمم، ولم تقبل.. استؤصلت، فكل أمة مكذبة معذبة بنوع من العذاب، وتمام التوفيق بين الآيتين في سورة يسٓ إن شاء الله تعالى.

والمعنى: وما من أمة خلت من بني آدم إلا وقد بعث الله إليهم النذر، وأزاح عنهم العلل، كما قال: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾، وقال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾.

ثم سلى رسوله ﷺ على ما يلاقيه من قومه من الإصرار على العناد والتكذيب، وأبان له أنه ليس ببدع من بين الرسل، فقال: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾؛ أي: وإن يكذبوك أيها الرسول مشركو قومك، فلا تبتئس بما يفعلون، ﴿فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم الماضية رسلهم، والحال أنه قد ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؛ أي: بالمعجزات الباهرة والأدلة القاطعة، ﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾؛ أي: وبالكتب التي فيها مواعظ، كزبور داود، وصحف إبراهيم وموسى وشيث وإدريس. ﴿وَبِٱلْكِتَٰبِ﴾ والمراد به: الجنس الصادق بالمتعدد ﴿ٱلْمُنِيرِ﴾ صفة للكتاب؛ أي: وبالكتب المنيرة؛ أي: التي توضح وتبين الأحكام والشرائع كالتوراة والإنجيل، والمراد بالبينات: المعجزات الظاهرة الدالة على صدق دعواهم وصحة نبوتهم، وبالزبر: الكتب التي فيها المواعظ والأمثال والحكم، وبالكتاب المنير: الكتب المظهرة

للحق، الموضحة لما يحتاج إليه من الأحكام والشرائع والدلائل والوعد والوعيد؛ أي[1]: جاءتهم على إرادة التفصيل دون الجمع؛ أي: بعض هذه المذكورات جاءت بعض المكذبين، وبعضها بعضهم، لا أن الجميع جاءت كلاً منهم، وعبارة «النسفي» هنا: ولما كانت[2] هذه الأشياء في جنسهم أسند المجيء بها إليهم إسناداً مطلقاً، وإن كان بعضها في جميعهم وهي البينات، وبعضها في بعضهم، وهي الزبر والكتاب، وفيه مسلاة لرسول الله ﷺ، قال أبو حيان: وإعادة حرف الجر هنا في العطف في الأخيرين هو على سبيل التأكيد، ذكره في سورة آل عمران، وبعد أن سلاه ﷺ هدد من خالفوه وعصوه بمثل ما فعل بمن قبلهم من الماضين فقال: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ﴾ بأنواع العذاب، ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ أي: ثبتوا على الكفر وداوموا عليه، وضع الموصول موضع ضميرهم لذمهم بما في حيز الصلة، والإشعار بعلية الأخذ، ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾؛ أي: إنكاري بالعقوبة، وتغييري عليهم؛ أي: هو واقع موقعه، وقرأ ورش عن نافع وشيبة بإثبات الياء في ﴿نَكِيرِ﴾ وصلاً لا وقفاً.

وقال ابن الشيخ: الاستفهام فيه للتقرير المضمن للتعجب، فإنه ﷺ شدة الله عليهم، فحسن الاستفهام على هذا الوجه في مقابلة التسلية، يحذِّر كفار هذه الأمة بمثل عذاب الأمم المكذبة المتقدمة، والعاقل من وعظ بغيره.

والمعنى[3]: أي وبعد أن أتاهم الرسل بما أتوهم فكذبوهم فيما جاؤوهم به.. أخذتهم بالعقاب والنكال، فانظر كيف كان شديد عقابي بهم، وإنكاري عليهم، فإن تمادى قومك وأصروا على إنكارهم واستمروا في عمايتهم.. حل بهم مثل ما حلَّ بأولئك، فتلك سنة الله لا تبديل لها ولا تغيير، ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ ولا يخفى ما في هذا من شدة التهديد والوعيد.

ووجه التسلي[4]: أنه ﷺ كان يحزن عليهم، وقد نهى الله عن الحزن بقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ وذلك لأنهم كانوا غير مستعدين لما دعوا إليه من الإيمان والطاعة، فتوقع ذلك منهم كتوقع الجوهرية من الحجر القاسي مع أن الحزن للحق

(١) روح البيان.
(٢) النسفي.
(٣) المراغي.
(٤) روح البيان.

لا يضيع.

قال بعضهم: لا يخفى أن أجر كل نبي في التبليغ يكون على قدر ما ناله من المشقة الحاصلة له من المخالفين، وعلى قدر ما يقاسيه منهم، وكل من رد رسالة نبي ولم يؤمن بها أصلاً، فإن لذلك النبي أجر المصيبة، وللمصاب أجر على الله سبحانه بعدد من رد رسالته من أمته بلغوا ما بلغوا، وقس على هذا حال الولي الوارث الداعي إلى الله على بصيرة.

ثم ذكر سبحانه نوعاً من أنواع قدرته الباهرة، وخلقاً من مخلوقاته البديعة فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ والاستفهام فيه تقريري[1]، والرؤية قلبية، والخطاب فيه لرسول الله ﷺ؛ أي: ألم تعلم يا محمد، يعني: قد علمت، أو لكل من يصلح له؛ أي: ألم تعلم يا محمد ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿أَنزَلَ﴾ بقدرته وحكمته ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: من الجهة العلوية سماءً أو سحاباً ﴿مَآءً﴾؛ أي: مطراً ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾؛ أي: بذلك الماء، والالتفات من الغيبة إلى التكلم لإظهار كمال الاعتناء بفعل الإخراج لما فيه من الصنع البديع المنبىء عن كمال القدرة والحكمة، ولأن الرجوع إلى نون العظمة أهيب في العبارة. ﴿ثَمَرَٰتٍ﴾ جمع ثمرة، وهي اسم لكل ما يطعم من أحمال الشجر، ﴿مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ وصف سببي للثمرات، والمراد بالألوان: الأجناس والأصناف والهيئات؛ أي: مختلفاً أجناسها من الرمان والتفاح والتين والعنب وغيرها، أو أصنافها على أن كلاً منها ذو أصناف مختلفة كالعنب، فإن أصنافه تزيد على خمسين وكالتمر فإن أصنافه تزيد على مئة وكالذرة فإن أصنافها تزيد على مئة، أو هيئاتها من الصفرة والحمرة والخضرة والبياض والسواد وغيرها.

وقرأ الجمهور: ﴿مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ على حد اختلف ألوانها، وقرأ زيد بن علي: ﴿مختلفة ألوانها﴾ على حد اختلفت ألوانها، وجمع التكسير يجوز فيه أن تلحق التاء فيه، وأن لا تلحق، يقول سبحانه: منبِّهاً إلى كمال قدرته: ألم تشاهد[2] أيها الرائي أنا خلقنا الأشياء المختلفة من الشيء الواحد، فأنزلنا من السماء ماءً، وأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها وطعومها وروائحها، كما هو مشاهد من ألوان الثمار من أصفر إلى أحمر إلى أخضر إلى نحو ذلك.

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

ونحو الآية قوله: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٤﴾.

﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ﴾ متبدأ وخبر، ولكنه على حذف مضاف، والجدد: جمع جدة بالضم بمعنى الطريقة التي يخالف لونها ما يليها، سواء كانت في الجبل أو في غيره، والخطة في ظهر الحمار تخالف لونه، ولما لم يصح الحكم على نفس الجدد بأنها من الجبال.. احتيج إلى تقدير المضاف؛ أي: أن من الجبال ما هو ذو جدد؛ أي: صاحب خطط وطرائق متلونة يخالف لونها لون الجبل، فيؤول المعنى إلى أن من الجبال ما هو مختلف ألوانه؛ لأن بيض صفة جدد، وحمر عطف على بيض، فتلا عليه السلام القرائن الثلاث، فإن ما قبلها ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾، وما بعدها ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾؛ أي: منهم بعض مختلف ألوانه، فلا بد في القرينة المتوسطة بينهما من ارتكاب الحذف، فيقال: ومن الجبال ما هو مختلف ألوانه ليؤول المعنى إلى ما ذكر فيحصل تناسب القرائن.

وقرأ الجمهور: ﴿جُدَدٌۢ﴾ بضم الجيم وفتح الدال، وقرأ الزهري: بضمهما، جمع: جديدة، وروي عنه أنه قرأ بفتحهما، وردها أبو حاتم، وصححها غيره. ﴿بِيضٌ﴾ جمع: أبيض صفة جدد، ﴿وَحُمْرٌ﴾ جمع: أحمر، معطوف على بيض، ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾؛ أي: ألوان تلك الجدد البيض والحمر بالشدة والضعف، فقوله: بيض وحمر، وإن كان صفة لجدد، إلا أن قوله: ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾ صفة لكل واحدة من الجدد البيض والحور، بمعنى أن بياض كل واحدة من الجدد البيض، وكذا حمرة الجدد الحمر يتفاوتان بالشدة والضعف، فرب أبيض أشد بياضاً من أبيض آخر، وكذلك رب أحمر أشد حمرةً من أحمر آخر، فنفس البياض مختلف، وكذا نفس الحمرة، فلذلك جمع لفظ ألوان مضافاً إلى ضمير كل واحد من البيض والحمر، فيكون كل واحد منهما من قبيل الكلي المشكك، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾ صفة ثالثة لجدد، فيكون ضمير ألوانها للجدد، فيكون تأكيداً لقوله: ﴿بِيضٌ وَحُمْرٌ﴾، ويكون اختلاف ألوان الجدد بأن يكون بعضها أبيض، وبعضها أحمر، فتكون الجدد كلها على لونين بياض وحمرة إلا أنه عبر عن اللونين بألوان لكثرة كل واحد منهما باعتبار محاله، كذا في «حواشي ابن الشيخ». قال

بعضهم: من شاهد جبال ديار العرب في طريق الحج وغيرها.. وجد هذه الأقسام كلها، فإنها وجدوها مختلفة متلونة انتهى. وقوله: ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ معطوف على ﴿بِيضٌ﴾، فيكون من تفاصيل الجدد، والصفات القائمة بها كالبيض والحمر، كأنه قيل: ومن الجبال ذو جدد بيض وحمر وسود غرابيب؛ أي: شديدة السواد كالغراب، وإنما وسط الاختلاف؛ لأنه علم من الوصف بالغرابيب أنه ليس في الأسود اختلاف اللون بالشدة والضعف، ويجوز أن يكون غرابيب عطفاً على جدد، فلا يكون داخلاً في تفاصيل الجدد، بل يكون قسيمها، كأنه قيل: ومن الجبال مخطط ذو جدد، ومنها ما هو على لون واحد وهو السواد.

فالغرض من الآية: إما بيان اختلاف ألوان طرائق الجبال، كاختلاف ألوان الثمرات، فترى الطرائق الجبلية من البعيد منها بيض ومنها حمر ومنها سود، وإما بيان اختلاف ألوان الجبال نفسها، وكل منها أثر دال على القدرة الكاملة، كذا في «حواشي ابن الشيخ».

والغرابيب: جمع غربيب، كعفاريت وعفريت، يقال: أسود غربيب؛ أي: شديد السواد الذي يشبه لون الغراب، وكذا يقال: أسود حالك، كما يقال: أصفر فاقع، وأبيض يقق محركةً، وأحمر قانٍ لخالص الصفرة وشديد البياض والحمرة. وفي الحديث: «إن الله يبغض الشيخ الغربيب». يعني: الذي يخضب بالسواد، كما في تفسير «القرطبي» أو الذي يشيب كما في «المقاصد الحسنة»، والسود: جمع أسود، وفي «أبي السعود»: قوله: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ﴾، وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ إيراد هاتين الجملتين اسميتين مع مشاركتهما للفعلية قبلهما في الاستشهاد بمضمون كل على تباين الناس في الأحوال لما أنَّ اختلاف الجبال والناس والدواب والأنعام فيما ذكر من الألوان أمر مستمر، فعبر عنه بما يدل على الاستمرار، وأما إخراج الثمرات المختلفة فأمر حادث، فعبر عنه بما يدل على الحدوث، ولما كان فيه نوع خفاء علق الرؤية به بطريق الاستفهام التقريري بخلاف أحوال الجبال والناس وغيرهما، فإنها مشاهدة غنية عن التأمّل، فلذلك جردت عن التعليق بالرؤية، فتدبر. انتهى منه.

فإن قلت[1]: إذا كان الغربيب تأكيداً للأسود، كالفاقع مثلاً للأصفر.. ينبغي

---

(١) روح البيان.

أن يقال: وسود غرابيب بتقديم السود؛ إذ من حق التأكيد أن يتبع المؤكد، ولا يتقدم عليه.

قلت: الغرابيب: تأكيد لمضمر يفسِّره ما بعده، والتقدير: سود غرابيب سود، فالتأكيد إذاً متأخر عن المؤكد، وفي الإضمار، ثم الإظهار مزيد تأكيد لما فيه من التكرار، وهذا أصوب من كون السود بدلاً من الغرابيب، كما ذهب إليه الأكثر حتى صاحب «القاموس»، كما قال: وأما غرابيب سود.. فبدل، لأن تأكيد الألوان لا يتقدم، وقيل هو على التقديم والتأخير؛ أي: سود غرابيب.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: ومن بني آدم ﴿وَٱلدَّوَآبِّ﴾ جمع دابة، وهي ما يدب على الأرض من الحيوان، ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾: جمع نعم محركة، وقد يسكن عينه: الإبل والبقر والضأن والمعز دون غيرها من الدواب، وقوله: ﴿مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ﴾ صفة لموصوف محذوف؛ أي: ومن هذه المذكورات صنف أو نوع أو بعض مختلف ألوانه، كاختلاف ألوان الثمرات والجبال بأن يكون أبيض وأحمر وأسود وأخضر وأصفر، ولم يقل هنا ألوانها؛ لأن الضمير يعود إلى البعض الدال عليه من التبعيضية في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾، وإنما ذكر سبحانه اختلاف الألوان في هذه الأشياء؛ لأن هذا الاختلاف من أعظم الأدلة على قدرة الله تعالى وبديع صنعه.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَٱلدَّوَآبِّ﴾ مشدد الباء، والزهري بتخفيفها؛ كراهية التضعيف؛ إذ فيه التقاء الساكنين، كما همز بعضهم ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فراراً من التقاء الساكنين، فحذف هنا آخر المضعفين، وحرّك أول الساكنين، وقرأ ابن السميقع: ﴿ألوانها﴾. وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ تمّ الكلام عليه، وهو وصف لمصدر محذوف مؤكّد تشبيهي، تقديره: مختلف ألوانه اختلافاً كائناً كذلك؛ أي: كاختلاف الثمار والجبال.

ولما قال: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾. وعدَّد آيات الله وأعلام قدرته وآثار صنعته، وما خلق من الفطر المختلفة الأجناس، وما يستدل به عليه، وعلى صفاته.. أتبع ذلك بقوله: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ﴾ سبحانه ويخافه ﴿مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ به الذين علموه بصفاته، فعظموه[2]؛ إذ شرط الخشية معرفة المخشي، والعلم بصفاته

---

(١) البحر المحيط. (٢) البيضاوي.

وأفعاله، فمن كان أعلم به كان أخشى منه، ولذلك قال النبي ﷺ: «إني أخشاكم لله وأتقاكم له»، وفي آخر: «أعلمكم بالله أشدكم له خشية»، ومن كان علمه به أقل كان آمن، ولهذا أتبعه ذكر أفعاله الدالة على كمال قدرته، وهو كلام مستأنف.

وفي «الإرشاد»: هو تتمة لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ بتعيين من يخشاه من الناس بعد بيان اختلاف طبقاتهم وتباين مراتبهم على معنى[1]: إنما يخشاه سبحانه بالغيب العالمون به، وبما يليق به من صفاته الجليلة، وأفعاله الجميلة، وعلى كل تقدير فهو سبحانه قد عين في هذه الآية أهل خشية، وهم العلماء به وبعظيم قدرته، قال مجاهد: إنما العالم من خشي الله عز وجل، وقال مسروق: كفى بخشية الله علماً، وكفى بالاغترار جهلاً، فمن كان أعلم بالله كان أخشاهم له قال الربيع بن أنس: من لم يخش الله.. فليس بعالم. وقال الشعبي: العالم من خاف الله وتقديم[2] المخشي وهو المفعول للاختصاص وحصر الفاعلية؛ أي: لا يخشى الله من بين عباده إلا العلماء، ولو أخر لانعكس الأمر، وصار المعنى: لا يخشون إلا الله، وبينهما تغاير، ففي الأول بيان أن الخاشين هم العلماء دون غيرهم، وفي الثاني بيان أن المخشي منه هو الله دون غيره.

وقرأ الجمهور: بنصب الجلالة ورفع العلماء، وقرأ أبو حنيفة وعمر بن عبد العزيز وابن سيرين: برفع الجلالة ونصب العلماء على أن الخشية استعارة للتعظيم، فإن المعظَّم يكون مهيباً، فالمعنى عليه: إنما يعظم الله سبحانه من بين جميع عباده العلماء، كما يعظِّم المهيب المخشي من الرجال بين الناس، وهذه القراءة ـ وإن كانت شاذة ـ لكنها مفيدة جداً، وجعل عبد الله بن عمر الخشية بمعنى الاختيار؛ أي: إنما يختار الله من بين عباده العلماء، وعلى كل من القراءتين في هذه الآية للعلماء منقبة عظيمة وخصلة حميدة.

والمعنى[3]: أي إنما يخاف الله فيتقي عقابه بطاعته العالمون بعظيم قدرته على ما يشاء من الأشياء، وأنه يفعل ما يريد؛ لأن من علم ذلك أيقن بعقابه على

---

(١) الشوكاني.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

معصيته، فخافه ورهبه خشية أن يعاقبه، وقد أثر عن ابن عباس أنه قال: العالم بالرحمن من عباده من لم يشرك به شيئاً، وأحلّ حلاله وحرَّم حرامه وحفظ وصيته، وأيقن أنه ملاقيه ومحاسبه بعمله. وقال الحسن البصري: العالم من خشي الرحمن بالغيب ورغِب فيما رغَّب الله فيه، وزهد فيما سخط الله فيه، ثم تلا الآية.

وعن عائشة رضي الله عنها: صنع رسول الله ﷺ شيئاً، فرخّص فيه، فتنزه عنه قوم، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فخطب فحمد الله، ثم قال: «ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه، فوالله إني لأعلمهم بالله، وأشدهم له خشية» أخرجه البخاري ومسلم. ثم بيَّن سبب خشيتهم منه فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿عَزِيزٌ﴾ في انتقامه ممن كفر به ﴿غَفُورٌ﴾ لذنوب من آمن به وأطاعه، فهو قادر على عقوبة العصاة وقهرهم، وإثابة أهل الطاعة والعفو عنهم، ومن حق المعاقب والمثيب أن يخشى.

قيل[1]: الخشية: تألم القلب بسبب توقع مكروه في المستقبل يكون تارةً بكثرة الجناية من العبد، وتارة بمعرفة جلال الله وهيبته، وخشية الأنبياء من هذا القبيل، فعلى المؤمن أن يجتهد في تحصيل العلم بالله حتى يكون أخشى الناس، فبقدر مراتب العلم تكون مراتب الخوف والخشية وروي عن النبي ﷺ: أنه سئل: يا رسول الله، أينا أعلم؟ قال: «أخشاكم لله سبحانه وتعالى، إنما يخشى الله من عباده العلماء»، قال: يا رسول الله، فأيُّ الأصحاب أفضل؟ قال: «من إذا ذكرت الله.. أعانك، وإذا نسيت.. ذكّرك»، قالوا: فأيّ الأصحاب شر؟ قال: «الذي إذا ذكرت لم يعنك، وإذا نسيت لم يذكرك»، قالوا: فأيُّ الناس شرٌّ؟ قال: «اللهم اغفر للعلماء، العالم إذا فسد فسد الناس». كذا في «تفسير أبي الليث». نسأل الله سبحانه أن يجعلنا عاملين محقّقين، وفي الخوف والخشية صادقين ومحقّين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالى؛ أي: يداومون على تلاوة القرآن، ويعملون بما فيه؛ إذ لا تنفع التلاوة بدون العمل، والتلاوة[2]: القراءة متتابعة، والقراءة أعم كالدراسة والأوراد الموظّفة، والقراءة منها، لكن التهجّي وتعليم الصبيان لا يعد قراءة، ولذا قالوا: لا يكره التهجّي للجنب والحائض

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

والنفساء بالقرآن؛ لأنه لا يعد قارئاً، وكذا لا يكره لهم التعليم للصبيان وغيرهم حرفاً حرفاً، وكلمةً كلمةً مع القطع بين كل كلمتين، وقيل: معنى ﴿يَتْلُونَ﴾ يتّبعون كتاب الله، من قولهم: تلاه إذا اتبعه؛ لأن التلاوة بلا عمل لا نفع فيها، وقد ورد: «رب قارىء للقرآن والقرآن يلعنه».

﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضة؛ أي: أدّوها بآدابها وشرائطها وأركانها في أوقاتها، وغاير بين الجملتين بالاستقبال والمضي؛ لأن أوقات التلاوة أعم بخلاف أوقات الصلاة، وكذا أوقات الزكاة المدلول عليها بقوله: ﴿وَأَنفَقُوا۟﴾ في وجوه البرّ ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ وأعطيناهم ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ وهي ضد السر؛ أي: إنفاق سر وعلانية، أو ذوي سرّ وعلانية بمعنى مسرّين ومعلنين؛ أي: أنفقوا كيفما أمكن لهم من غير قصد إليهما، فيه حثّ على الإنفاق كيفما تهيّأ، فإن تهيّأ سراً فهو أفضل، وإلا فعلانية، ولا يمنعه ظنه أن يكون رياء، فإن ترك الخير مخافة أن يقال فيه إنه مراءٍ هو عين الرياء، ويمكن أن يراد بالسر صدقة النفل، بالعلانية صدقة الفرض، وفيه أيضاً حثّ على الإنفاق في جميع الأوقات.

وجملة ﴿يَرْجُونَ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾؛ أي: يقصدون ويطلبون، ﴿تِجَٰرَةً﴾؛ أي: مثوبة ﴿لَّن تَبُورَ﴾ صفة لتجارة؛ أي: لن تبطل ولن تخسر ولن تهلك؛ أي: يأملون من ربهم، ويطلبون منه بأعمالهم المذكورة مثوبة مدّخرة لا تبطل ولا تحبط. قال في «الإرشاد»: وأتى بقوله: ﴿لَّن تَبُورَ﴾ للدلالة على أنها ليست كسائر التجارات الدائرة بين الربح والخسران؛ لأنه اشتراء باقٍ بفانٍ، والإخبار برجائهم من أكرم الأكرمين عدة قطعية بحصول رجائهم، وقوله: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ﴾ متعلق بـ﴿يَرْجُونَ﴾[1]، أو بـ﴿لَّن تَبُورَ﴾ على معنى أنه ينتفي عنها الكساد، وتنفق عند الله ليوفيهم بحسب أعمالهم وخلوص نياتهم ﴿أُجُورَهُمْ﴾؛ أي: أجور أعمالهم من التلاوة والإقامة والإنفاق، فلا وقف على لن تبور أي لن تكسد لأجل أن يعطيهم أجور أعمالهم الصالحة وافية كاملة، أو متعلق بمحذوف دل عليه السياق؛ أي: فعلوا ذلك ليوفيهم أجور أعمالهم، ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾؛ أي: من جوده وكرمه وخزائن رحمته ما يشاء مما لم يخطر ببالهم عند العمل، ولم يستحقوا له، بل هو كرم محض، ومن

---

(١) البحر المحيط.

فضله يوم القيامة نصبهم في مقام الشفاعة ليشفعوا فيمن وجبت لهم النار من الأقرباء وغيرهم.

وجملة قوله: ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ﴾ تعليل[1] لما قبله من التوفية والزيادة؛ أي: غفور لفرطاتهم وفي «بحر العلوم»: ستَّار لكل ما صدر منهم مما من شأنه أن يستر، محاه له عن قلوبهم، وعن ديوان الحفظة. ﴿شَكُورٌ﴾ لطاعاتهم؛ أي: مجازيهم عليها ومثيب لهم، وقيل[2]: إن هذه الجملة هي خبر إن في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ مع تقدير رابط؛ أي: غفور لهم، وتكون جملة ﴿يَرْجُونَ﴾ في محل نصب على الحال من فاعل ﴿أنفقوا﴾، والأول أولى.

وفي «التأويلات النجمية»: غفور يغفر تقصيرهم في العبودية، شكور يشكر سعيهم مع التقصير بفضل الربوبية.

وحاصل معنى الآية: أن الذين يتبعون كتاب الله تعالى، ويعملون بما فرض فيه من فرائض، فيؤدون الصلاة المفروضة لمواقيتها على ما رسمه الدين بإخلاص وخشية من ربهم، ويتصدقون مما أعطاهم من الأموال سراً وعلانية بلا بسط ولا إسراف، هؤلاء قد عاملوا ربهم راجين ربح تجارتهم بنيلهم عظيم ثوابه كفاء ما قدّموا من عمل مع الإخبات والإنابة إليه، ويبتغون فضلاً منه ورحمة فوق ذلك، وغفراناً لما فرط من زلاّتهم، وما اجترحوا من سيئاتهم، فالله هو الغفور لما فرط من المطيعين من الزلات، الشكور لطاعاتهم، فمجازيهم عليها الجزاء الأوفى، ونحو الآية قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾.

قال أبو الليث: الشكر على ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: الشكر ممن دونه يكون بالطاعة وترك مخالفته.

والوجه الثاني: الشكر ممن هو شكله يكون بالجزاء والمكافأة.

والوجه الثالث: الشكر ممن فوقه يكون رضى منه باليسير، كما قال بعضهم الشكور: هو المجازي بالخير الكثير على العمل اليسير، والمعطي بالعمل في أيام

---

(١) روح البيان. (٢) الشوكاني.

معدودة نعماً في الآخرة غير مجذوذة، ومن عرف أنه الشكور شكر نعمته، وآثر طاعته، وطلب رحمته، وشهد منته. قال الغزالي: وأحسن وجوه الشكر لنعم الله أن لا يستعملها في معاصيه، بل في طاعته.

﴿وَالَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهو القرآن، فـ﴿مِن﴾ للتبيين، أو هو اللوح المحفوظ، فـ﴿مِن﴾ للتبعيض، وجملة قوله: ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: الصدق لا كذب فيه، ولا شكّ خبر الموصول حال كونه ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؛ أي: موافقاً لما قبله من الكتب السماوية المنزّلة على الأنبياء في العقائد وأصول الأحكام، وهو حال مؤكدة؛ أي: أحقه مصدقاً؛ لأنَّ حقيّته لا تنفكّ عن هذا التصديق ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه ﴿بِعِبَادِهِۦ﴾ متعلق بقوله: ﴿لَخَبِيرٌۢ﴾؛ أي: محيط ببواطن أمورهم ﴿بَصِيرٌ﴾؛ أي: عالم بظواهرها، وقدّم الجار والمجرور لرعاية الفاصلة التي على حرف الراء، فلو كان في أحوالك ما ينافي النبوّة.. لم يوح إليك مثل هذا الحق المعجز الذي هو عيار على سائر الكتب، يعرف صدقها منه، وتقديم الخبير للتنبيه على أن العمدة في ذلك العلم والإحاطة هي الأمور الروحانية.

المعنى[1]: أي إن القرآن الذي أنزلناه إليك يا محمد هو الحق من ربك، وعليك وعلى أمتك أن تعمل به، وتتّبع ما فيه دون غيره من الكتب التي أوحيت إلى غيرك، وهو مصدق لما مضى بين يديه مما أنزل إلى الرسل من قبله، فصار إماماً لها، إن الله سبحانه خبير بأحوال عباده بصير بما يصلح لهم، فيشرّع لهم من الأحكام ما يناسب أحوال الناس في كل زمان ومكان، ويرسل من الرسل من هو حقيق بتبليغ ذلك للناس ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾.

﴿ثُمَّ﴾ للترتيب والتأخير؛ أي: بعدما أوحينا إليك، أو بعد كتب الأولين، كما دلّ ما قبله على كل منهما، وسئل سفيان الثوري على ماذا عطف بقوله: ﴿ثُمَّ﴾؟ قال: على إرادة الأزل، والأمر المقضي؛ أي: بعدما أردنا في الأزل. ﴿أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: ملكنا بعظمتنا ملكاً تاماً، وأعطينا هذا القرآن عطاءً لا رجوع فيه. ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ المفعول الأول لـ﴿أَوْرَثْنَا﴾ الموصول، والمفعول الثاني ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾، وإنما قدّم المفعول الثاني لقصد التشريف والتعظيم للكتاب.

---

(١) المراغي.

والمعنى[1]: ثم أورثنا الذين اصطفيناهم واخترناهم من عبادنا هذا الكتاب الذي هو القرآن؛ أي: قضينا وقدّرنا في سابق علمنا بأن نورّث العلماء من أمتك يا محمد هذا الكتاب الذي أنزلناه عليك، ومعنى اصطفائهم: اختيارهم واستخلاصهم، ولا شكّ أنّ علماء هذه الأمة من الصحابة، فمن بعدهم قد شرّفهم الله تعالى على سائر العباد، وجعلهم أمة وسطاً ليكونوا شهداء على الناس، وأكرمهم بكونهم أمة خير الأنبياء، سيّد ولد آدم، قال مقاتل: يعني قرآن محمد جعلناه ينتهي إلى الذين اصطفينا من عبادنا، وقيل: إن المعنى: أورثناه من الأمم السالفة؛ أي: أخرناه عنهم، وأعطيناه الذين اصطفينا، والأول أولى.

وهذه الأمة اصطفاهم الله تعالى على سائر الأمم، كما اصطفى رسولهم على جميع الرسل، وكتابهم على كل الكتب، وهذا الإيراث للمجموع لا يقتضي الاختصاص بمن يحفظ جميع القرآن، بل يشمل من يحفظ منه جزءاً، ولو أنه الفاتحة، فإن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين لم يكن واحد منهم يحفظ جميع القرآن، ونحن على القطع بأنهم مصطفون.

ولما كانت الوراثة بالسبب والنسب، وكان السبب جنساً واحداً، كالزوجية، وهما صاحبا الفرض، وكان النسب من جنسين: الأصول كالآباء والأمهات، والفروع كل ما يتولّد من الأصول كالأولاد والأخوة والأخوات وأولادهم والأعمام وأولادهم، وهم صاحب فرض وعصبية، فصار مجموع الورثة ثلاثة أصناف: صنف صاحب الفرض بالسبب، وصنف صاحب الفرض بالنسب، وصنف صاحب الباقي وهم العصبة، كذلك الورثة ههنا ثلاثة أقسام، كما قال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ﴾؛ أي: فمن الذين اصطفينا من عبادنا ﴿ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ بما عمل من الصغائر؛ لأن عمل الصغائر لا ينافي الاصطفاء، ولا يمنع صاحبه من دخول الجنة مع الذين يدخلون الجنة، يحلون فيها من أساور من ذهب إلى آخر ما سيأتي، ووجه كونه ظالماً لنفسه أنه نقصها من الثواب بما فعل من الصغائر المغفورة له، فإنه لو عمل مكان تلك الصغائر طاعات.. لكان لنفسه فيها من الثواب حظاً عظيماً، وهذا القول هو الراجح، وقد روي هذا القول عن عمر وعثمان وابن مسعود وأبي الدرداء وعائشة،

---

(١) روح البيان.

وقيل: الظالم لنفسه هو صاحب الكبائر، وقيل: هو المقصّر في العمل بالكتاب.

واعلم[1]: أن الظلم ثلاثة أقسام: ظلم بين الإنسان وبين الله، وأعظمه الكفر والشرك والنفاق، وظلم بينه وبين الناس، وظلم بينه وبين نفسه، وهو المراد بما في هذه الآية كما في «المفردات». وتقديم الظالم في الذكر لا يدل على تقديمه في الدرجة لقوله تعالى: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾، كما في «الأسئلة المقحمة»، وقال بعضهم: قدم الظالم لكثرة الفاسقين، ولأن الظلم بمعنى الجهل، والركوب إلى الهوى مقتضى الجبلة، والاقتصاد والسبق عارضان، وقال أبو الليث: الحكمة في تقديم الظالم وتأخير السابق كي لا يعجب السابق بنفسه، ولا ييأس الظالم من رحمة الله.

وقال القشيري: في الإرث يبدأ بصاحب الفرض، وإن قلّ نصيبه، فكذا ههنا بدأ بالظالم، ونصيبه أقل من نصيب الآخرين، ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾؛ أي: متوسط في العمل بالكتاب في أغلب الأوقات، ولا يخلو من خلط شيء أو متوسط في أمر الدين، بحيث لا يميل إلى جانب الإفراط، ولا إلى جانب التفريط، وهذا من أهل الجنة ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ﴾؛أي: متقدم إلى ثواب الله وجنته ورحمته ﴿بِالْخَيْرَاتِ﴾؛ أي: بالأعمال الصالحة، بضم التعليم والإرشاد إلى العلم والعمل ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾؛ أي: بإرادته وتوفيقه، جعله في «كشف الأسرار» متعلقاً بالأصناف الثلاثة على معنى ظلم الظالم، وقصد المقتصد، وسبق السابق بعلم الله تعالى، والظاهر تعلقه بالسابق، كما ذهب إليه أجلاء المفسرين على معنى بتيسيره وتوفيقه وتمكينه من فعل الخير، لا باستقلاله، وفيه تنبيه على عزة منال هذه الرتبة وصعوبة مأخذها قال القشيري: كأنه قال: يا ظالم ارفع رأسك، فإنك وإن ظلمت فما ظلمت إلا نفسك، ويا سابق اخفض فإنك وإن سبقت فما سبقت إلا بتوفيقي.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿سَابِقٌ﴾ على صيغة اسم الفاعل، وقرأ أبو عمران الحوفي وعمر بن أبي شجاع ويعقوب في رواية والقراءة عن أبي عمرو: ﴿سبَّاق﴾ على صيغة المبالغة، وقيل: المراد بالطوائف الثلاث: التالي للقرآن تلاوة مجرّدة، والقارىء له العامل به، والقارىء العامل بما فيه والمعلم له، وقال الحسن:

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

الظالم: الذي رجحت سيئاته على حسناته، والمقتصد: الذي استوت حسناته وسيئاته، والسابق: من رجحت حسناته على سيئاته، وقيل: من ظاهره خير من باطنه، ومن استوى ظاهره وباطنه، ومن باطنه خير من ظاهره، أو من أسلم بعد فتح مكة، ومن أسلم بعد الهجرة قبل الفتح، ومن أسلم قبل الهجرة.

والمعنى[1]: أي أوحينا إليك القرآن، ثمّ أورثناه من اصطفينا من عبادنا، وهم هذه الأمة التي هي خير الأمم بشهادة الكتاب: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

وجعلناهم أقساماً ثلاثة: ظالم لنفسه مفرِّط في فعل بعض الواجبات، مرتكب لبعض المحرمات، مقتصد مؤدٍّ للواجبات، تاركٌ للمحرمات، تقع منه تارة بعض الهفوات، وحيناً يترك بعض المستحسنات، سابقٌ بالخيرات بإذن الله، يقوم بأداء الواجبات والمستحبات، ويترك المحرمات والمكروهات وبعض المباحات.

والخلاصة: أن الأمة في العمل أقسام ثلاثة: مقصّر في العمل بالكتاب، مسرف على نفسه، ومتردّد بين العمل به ومخالفته، ومتقدم إلى ثواب الله تعالى بعمل الخيرات وصالح الأعمال بتيسير الله وتوفيقه. ﴿ذَٰلِكَ﴾ السبق بالخيرات ﴿هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ الذي لا يقادر قدره، والمن العظيم من الله الكبير، لا ينال إلا بتوفيقه، أو[2] ذلك الإيراث والاصطفاء، فيكون بالنظر إلى جميع المؤمنين من الأمة، وكونه فضلاً؛ لأن القرآن أفضل الكتب الإلهية، وهذه الأمة المرحومة أفضل جميع الأمم السابقة، وفي «التأويلات النجمية»: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: الذي ذكر من الظالم مع السابق في الإيراث والاصطفاء ودخول الجنة، ومن دقائق حكمته أنه تعالى ما قال في هذه المعرض الفضل العظيم؛ لأن الفضل العظيم في حق الظالم أن يجمعه مع السابق في الفضل والمقام، كما جمعه معه في الذكر انتهى.

وبعد أن ذكر سبحانه أحوال السابقين.. بيَّن جزاءهم ومآلهم بقوله: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾؛ أي: بساتين استقرار وثبات وإقامة بلا رحيل؛ لأنه لا سبب للرحيل عنها، وهو إما بدل من الفضل الكبير؛ لأنه لما كان هو السبب في نيل الثواب.. نزّل منزلة المسبب، وعلى هذا فتكون جملة ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ مستأنفة أو مبتدأ خبره قوله: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾؛ أي: هؤلاء الثلاثة أصناف يدخلون جنات عدن، ومن دخلها لم يخرج

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

منها، وهذا هو الأولى بالترجيح، أو الضمير للسابق فقط، وجمعه لأن المراد بالسابق الجنس، وعلى هذا فتخصيص حال السابقين ومآلهم بالذكر، والسكوت عن الفريقين الآخرين وإن لم يدل على حرمانهما من دخول الجنة مطلقاً لكن فيه تحذير لهما من التقصير، وتحريض على السعي في إدراك شؤون السابقين.

والأول هو الأصح، وعليه عامة أهل العلم، كما في «كشف الأسرار» قال أبو الليث: في تفسير أول الآية وآخرها دليل على أنّ الأصناف الثلاثة كلهم مؤمنون يدخلون الجنة، فأما أول الآية فقوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ﴾ فأخبر أنه أعطى الكتاب لهؤلاء الثلاث، وأما آخر الآية فقوله: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾؛ إذ لم يقل: يدخلانها. وفي «التأويلات النجمية»: لما ذكرهم أصنافاً ثلاثة رتّبها، ولما ذكر حديث الجنة والتنعّم والتزيّن فيها.. ذكرهم على الجمع، فقال: ﴿جَنَّـٰتُ عَدْنٍ﴾ الآية، نبَّه على أنّ دخولهم الجنة لا باستحقاق بل بفضله، وليس في الفضل تميّز فيمايتعلق بالنعمة دون ما يتعلق بالمنعم.

وقرأ الجمهور: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ مبنياً للفاعل، وقرأ أبو عمرو: ﴿يدخلونها﴾ مبنياً للمفعول، وقرأ زر بن حبيش والزهري ﴿جنة﴾ على الإفراد، والجمهور: ﴿جَنَّـٰتُ﴾ بالجمع.

﴿يُحَلَّوْنَ﴾ خبر ثان، أو حال مقدرة؛ أي: يلبسون على سبيل التزيُّن والتحلي نساءً ورجالاً ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في تلك الجنات ﴿مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ ﴿مِنْ﴾ الأولى تبعيضية، والثانية بيانية؛ أي: يحلون بعض أساور كائنة من ذهب؛ لأنه أفضل من سائر أفرادها، والأساور جمع أسورة جمع سوار، كما سيأتي. ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ بالنصب معطوف على محل من أساور، واللؤلؤ: الدر؛ أي: ويحلون لؤلؤاً.

وقرأ الجمهور: ﴿يُحَلَّوْنَ﴾ بضم الياء وفتح الحاء وشدّ اللام مبنياً للمفعول، وقرىء بفتح الياء وسكون الحاء وتخفيف اللام من حليت المرأة، فهي حال إذا لبست الحليّ، وقرأ عاصم ونافع: ﴿لؤلؤا﴾ بالنصب عطفاً على محل ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾، والباقون: بالجر عطفاً على ﴿ذَهَبٍ﴾.

وقال في «بحر العلوم»: معطوف على ﴿ذَهَبٍ﴾ فإنهم يسوّرون بالجنسين: أساور من ذهب، ومن لؤلؤ، وذلك على الله يسير، وكم من أمر من أمور الآخرة

يخالف أمور الدنيا، وهذا منها.

﴿وَلِبَاسُهُمْ﴾؛ أي: ما يلبسون ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في الجنات ﴿حَرِيرٌ﴾ لا كحرير الدنيا، فإنه لا يوجد من معناه في الدنيا إلا الاسم. والمعنى: أي: بساتين إقامة يدخلها هؤلاء الذين أورثناهم الكتاب، واصطفيناهم من عبادنا يوم القيامة، ويحلون فيها أسورة من ذهب ولآلىء، ويكون لباسهم فيها حريراً. ﴿وَقَالُوا﴾؛ أي: ويقولون عند دخولهم الجنة حمداً لربهم على ما صنع بهم، وصيغة الماضي للدلالة على التحقق ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ أي: الإحاطة بأوصاف الكمال لمن له تمام القدرة، ﴿الَّذِي أَذْهَبَ﴾؛ أي: أزال ﴿عَنَّا﴾ بدخولنا الجنة، ﴿الْحَزَنَ﴾؛ أي: جنس الحزن والغم والهمّ، سواء كان حزن الدنيا، أو حزن الآخرة من همّ المعاش وحزن زوال النعم والجوع والعطش وخوف السلطان ودغدغة التحاسد والتباغض وحزن الأعراض والآفات ووسوسة إبليس والسيئات وردّ الطاعات وسوء العاقبة والموت وأهوال يوم القيامة والنار والمرور على الصراط، وغير ذلك.

وقرأ الجمهور: ﴿الْحَزَنَ﴾ بفتحتين، وقرأ جناح بن حُبيش: بضم الحاء وسكون الزاي: أي: ويقولون حينئذ: الحمد لله الذي أذهب عنا الخوف من كل ما نحذر، وأراحنا مما كنا نتخوّف من هموم الدنيا والآخرة، ثم ذكر السبب في ذهاب الحزن عنهم فقال: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ لذنوب المذنبين ﴿شَكُورٌ﴾ للمطيعين. روي عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم، ولا في نشورهم، وكأني بأهل لا إله إلا الله ينفضون التراب عن رؤوسهم، ويقولون: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن، إن ربنا لغفور شكور». رواه البغوي بسنده.

والخلاصة: أنه أذهب عنهم الحزن من خوف العاقبة، ومن أجل المعاش والوساوس، ولما ذكر سرورهم وكرامتهم بتحليتهم بالحلي، وإدخالهم الجنات.. ذكر سرورهم ببقائهم فيها، وأعلمهم بدوامها فقال: ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا﴾؛ أي: أنزلنا ﴿دَارَ الْمُقَامَةِ﴾ والدوام التي يقام فيها أبداً، ولا ينتقل عنها، ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ ورحمته وإحسانه من غير أن يوجبه شيء من جهتنا. والمعنى[1]: ﴿إِنَّ رَبَّنَا﴾ المحسن إلينا

---

(١) روح البيان.

مع إساءتنا ﴿لَغَفُورٌ﴾ للمذنبين، فيبالغ في ستر ذنوبهم الخارج عن الحصر ﴿شَكُورٌ﴾ للمطيعين، فيبالغ في إثابتهم، فإن الشكر من الله: الإثابة والجزاء الوفاق. وفي «التأويلات النجمية»: غفور للظالم لنفسه، شكور للمقتصد والسابق، وإنما قدم ما للظالم رفقاً بهم لضعف أحوالهم. انتهى.

ثمّ وصفوا الله بوصف آخر هو شكر له فقالوا: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا﴾ وأنزلنا ﴿دَارَ ٱلْمُقَامَةِ﴾ مفعول ثان لـ﴿أحلّ﴾، وليست بظرف، لأنها محدودة مختصة، والمقامة مصدر ميمي بمعنى الإقامة؛ أي: دار الإقامة التي لا انتقال عنها أبداً، فلا يريد النازل بها ارتحالاً منها، ولا يراد به ذلك ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾؛ أي: من إنعامه وتفضله من غير أن يوجبه شيء من قبلنا من الأعمال، فإن الحسنات فضل منه أيضاً، فلا واجب عليه.

وذلك أن دخول الجنة بالفضل والرحمة، واقتسام الدرجات بالأعمال والحسنات هذا مخلوق تحت رق مخلوق مثله لا يستحق على سيده عوضاً لخدمته، فكيف الظن بمن له الملك على الإطلاق، أيستحق من يعبده عوضاً على عبادته تعالى الله سبحانه عما تقول المعتزلة من الإيجاب. ﴿لَا يَمَسُّنَا﴾؛ أي: حالة كوننا لا يصيبنا ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في دار الإقامة في وقت من الأوقات ﴿نَصَبٌ﴾؛ أي: تعب بدن ولا وجع، كما في الدنيا. ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾؛ أي: كلال وفتور وضعف ناشىء من تعب؛ إذ لا تكليف فيها ولا كد، وإذا أرادوا أن يروه سبحانه لا يحتاجون إلى قطع مسافة وانتظار وقت، بل هم في غرفهم يلقون فيها تحية وسلاماً، وإذا رأوه لا يحتاجون إلى تحديق مقلة في جهة يرونه، كما هم بلا كيفية.

والتصريح بنفي الثاني مع استلزام نفي الأول له، وتكرير الفعل للمبالغة في بيان انتفاء كل منهما.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿لُغُوبٌ﴾ بضم اللام، وعلي بن أبي طالب وأبو عبد الرحمن السلمي: بفتحها.

والمعنى: أي إنَّ ربنا لغفور شكور؛ لأنه أنزلنا الجنة التي لا تحول عنها ولا

---

(١) البحر المحيط.

نقلة، ولا يصيبنا فيها نصب ولا وجع ولا إعياء ولا فتور.

والخلاصة: أنهم أتعبوا أنفسهم في العبادة في دار الدنيا، فاستراحوا راحة دائمة في الآخرة، كما قالوا: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ وقيل للربيع بن خيثمة وقد كان يقوم ليله ويصوم نهاره: أتعبت نفسك، فقال: راحتها أطلب.

الإعراب

﴿۞ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا﴾ ﴿يا﴾: حرف نداء ﴿أي﴾: منادى نكرة مقصودة، و﴿ها﴾: حرف تنبيه زائد، ﴿النَّاسُ﴾: بدل من أيّ، أو عطف بيان له، وجملة النداء مستأنفة، ﴿أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة جواب النداء لا محل لها من الإعراب. ﴿إِلَى اللَّهِ﴾: متعلق بالفقراء؛ لأنه جمع فقير، وفقير صفة مشبهة، ﴿وَاللَّهُ﴾: مبتدأ، ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل، ﴿الْغَنِيُّ﴾: خبر أول، ﴿الْحَمِيدُ﴾: خبر ثانٍ، والجملة مستأنفة، ﴿إِنْ﴾: حرف شرط جازم ﴿يَشَأْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله، مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، ومفعول به، مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه جواباً لها، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿وَيَأْتِ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، معطوف على ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾، ﴿بِخَلْقٍ﴾: متعلق بـ﴿يأت﴾، ﴿جَدِيدٍ﴾: صفة لـ﴿خلق﴾، ﴿وَمَا ذَلِكَ﴾: الواو: عاطفة ﴿ما﴾: حجازية، ﴿ذَلِكَ﴾: اسمها، ﴿عَلَى اللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿عزيز﴾، ﴿بِعَزِيزٍ﴾: ﴿الباء﴾: زائدة ﴿عزيز﴾: خبر ﴿ما﴾ الحجازية، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿إن﴾ الشرطية.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾.

﴿وَلَا﴾: الواو: استئنافية ﴿لا﴾: نافية، ﴿تَزِرُ﴾: فعل مضارع، ﴿وَازِرَةٌ﴾: فاعل، أو صفة لفاعل محذوف؛ أي: نفس وازرة، ﴿وِزْرَ﴾: مفعول به، ﴿أُخْرَى﴾: مضاف إليه، ﴿وَإِنْ﴾: الواو: عاطفة، ﴿إِنْ﴾: حرف شرط، ﴿تَدْعُ﴾: فعل مضارع

مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، ﴿مُثْقَلَةٌ﴾: فاعل، ﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿تَدْعُ﴾ ومفعول ﴿تَدْعُ﴾ محذوف للعلم؛ أي: أحداً من الناس، ﴿لَا﴾: نافية ﴿يُحْمَلْ﴾: فعل مضارع مغيَّر الصيغة، مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه جواباً لها، ﴿مِنْهُ﴾: حال من ﴿شَيْءٌ﴾. ﴿شَيْءٌ﴾: نائب فاعل، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معطوفة على جملة قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ﴾. ﴿وَلَوْ﴾ الواو: عاطفة على جملة محذوفة وقعت حالاً، ﴿لو﴾: حرف شرط، ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على معلوم من السياق تقديره: ولو كان المدعو ﴿ذَا قُرْبَىٰٓ﴾: خبر كان منصوب بالألف، وجواب ﴿لو﴾ محذوف تقديره: ولو كان المدعو ذا قربى.. لا يحمل منها شيئاً وجملة ﴿لو﴾ الشرطية في محل النصب معطوفة على جملة محذوفة وقعت حالاً من مفعول ﴿تَدْعُ﴾ المحذوف، والتقدير: ولو كان المدعو غير قربى لا يحمل منه شيء، ولو كان ذا قربى.. لا يحمل منه شيء، والمعنى: لا يحمل منها المدعو شيئاً من حملها: حالة كونه غير قريب لها، وحالة كونه قريباً لها، وقد مرَّ أمثال ذلك في أوائل الكتاب فراجعها.

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

﴿إِنَّمَا﴾ حرف كاف ومكفوف، ﴿تُنذِرُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، والجملة مستأنفة، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مفعول به، وجملة ﴿يَخْشَوْنَ﴾ صلتهم، ﴿رَبَّهُم﴾: مفعول به لـ﴿يَخْشَوْنَ﴾. ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿يَخْشَوْنَ﴾؛ أي: يخشون ربهم غائبين عن عذابه، أو من المفعول؛ أي: يخشون عذابه غائباً عنهم، ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿يَخْشَوْنَ﴾، ﴿وَمَن﴾: الواو: استئنافية، ﴿مَن﴾: اسم شرط جازم في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما، ﴿تَزَكَّىٰ﴾: فعل ماض في محل الجزم بـ﴿من﴾ على كونه فعل شرط لها، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾ ﴿فَإِنَّمَا﴾ ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب ﴿إنما﴾: كافة ومكفوفة، ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾ فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾: ﴿لِنَفْسِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾ على أنه تعليل له، والجملة الفعلية في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ على كونها جواب شرط لها، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية مستأنفة، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾: خبر مقدم، ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَمَا﴾ الواو: استئنافية، ﴿ما﴾: نافية، ﴿يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ﴾: فعل وفاعل، ﴿وَٱلْبَصِيرُ﴾: معطوف عليه، والجملة مستأنفة مسوقة لضرب المثل للمؤمن والكافر، والتنافي بينهما في الذات والوصف والمستقر في الآخرة، ﴿وَلَا﴾: الواو: عاطفة، ﴿لا﴾: زائدة زيدت لتأكيد نفي ما قبلها، ﴿ٱلظُّلُمَٰتُ﴾: معطوف على ﴿ٱلْأَعْمَىٰ﴾، ﴿وَلَا ٱلنُّورُ﴾: معطوف على الظلمات، و﴿لا﴾: زائدة لتأكيد النفي، ﴿وَلَا﴾ الواو: عاطفة، ﴿لا﴾: زائدة لتأكيد النفي، ﴿ٱلظِّلُّ﴾: معطوف على ﴿ٱلْأَعْمَىٰ﴾، ﴿وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾: معطوف على ﴿ٱلظِّلُّ﴾، ﴿وَمَآ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ما﴾: نافية، ﴿يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ﴾: فعل وفاعل، معطوف على قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ﴾، ﴿وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾: معطوف على ﴿ٱلْأَحْيَآءُ﴾، و﴿لا﴾: زائدة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه ﴿يُسْمِعُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر يعود على الله، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، والجملة مستأنفة، ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿يُسْمِعُ﴾، وجملة ﴿يَشَآءُ﴾ صلتها، ﴿وَمَآ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿ما﴾: نافية حجازية، ﴿أَنتَ﴾: في محل الرفع اسمها، ﴿بِمُسْمِعٍ﴾: ﴿الباء﴾: زائدة ﴿مسمع﴾: خبرها منصوب، والجملة معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾. ﴿مَّن﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿مسمع﴾. ﴿فِي ٱلْقُبُورِ﴾: متعلق بمحذوف صلة ﴿مَّن﴾ الموصولة، ﴿إِنْ﴾: نافية، ﴿أَنتَ﴾: مبتدأ، ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر، ﴿نَذِيرٌ﴾: خبر ﴿أَنتَ﴾، والجملة مستأنفة.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿إِنَّآ﴾: ناصب واسمه، ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: حال من الفاعل؛ أي: محقين، أو من المفعول؛ أي: محقاً، أو نعت لمصدر محذوف؛ أي: إرسالاً متلبساً بالحق. ﴿بَشِيرًا﴾: حال من المفعول، ﴿وَنَذِيرًا﴾: معطوف عليه. ﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿إِنْ﴾: نافية، ﴿مِن﴾ زائدة، ﴿أُمَّةٍ﴾: مبتدأ ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر، ﴿خَلَا﴾: فعل ماض، ﴿فِيهَا﴾ متعلق بـ﴿خَلَا﴾، ﴿نَذِيرٌ﴾: فاعل ﴿خَلَا﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿إِنَّ﴾.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿وَإِن﴾ ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿إن﴾: حرف شرط، ﴿يُكَذِّبُوكَ﴾: فعل مضارع وفاعل ومفعول، مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وجواب الشرط محذوف تقديره: فاصبر على تكذيبهم، ولا تتأسف عليه، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية مع جوابها مستأنفة، ﴿فَقَدْ﴾: ﴿الفاء﴾: تعليلية للجواب المحذوف، أو رابطة الجواب، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل، ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾: جار ومجرور صلة الموصول، والجملة الفعلية في محل الجر بلام التعليل المقدرة مسوقة لتعليل الجواب المحذوف، أو هي الجواب، ﴿جَآءَتْهُمْ﴾: فعل ومفعول به، ﴿رُسُلُهُم﴾: فاعل، والجملة الفعلية في محل النصب حال من الموصول على تقدير: قد، ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: متعلق بمحذوف حال من ﴿رُسُلُهُم﴾، أو متعلق بـ﴿جَآءَتْهُمْ﴾، ﴿وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ﴾: معطوفان على البينات بإعادة الجار، ﴿ٱلْمُنِيرِ﴾: صفة لـ﴿الكتاب﴾، ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب، ﴿أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ﴾، وجملة ﴿كَفَرُوا۟﴾ صلة الموصول. ﴿فَكَيْفَ﴾: ﴿الفاء﴾: استئنافية، ﴿كيف﴾: اسم استفهام للاستفهام التعجبي، في محل النصب خبر ﴿كَانَ﴾ مقدم عليها وجوباً ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، ﴿نَكِيرِ﴾: اسمها مرفوع بضمة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة لرعاية الفاصلة، وجملة ﴿كَانَ﴾ مستأنفة.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿أَلَمْ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التقريري، ﴿لم﴾: حرف جزم ونفي ﴿تَرَ﴾: فعل مضارع مجزوم بلم، وعلامة جزمه حذف حرف العلة، وفاعله ضمير مستتر يعود على محمد، أو على كل من يصلح للخطاب، والجملة مستأنفة مسوقة لتقرير ما تقدم من ذكر اختلاف أحوال الناس، ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿أَنزَلَ﴾: خبره، وجملة ﴿أَنَّ﴾ سادة مسد مفعولي ﴿تَرَ﴾ لأنها قلبية، ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: متعلق بـ﴿أَنزَلَ﴾، ﴿مَآءً﴾: مفعول به لـ﴿أَنزَلَ﴾. ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة، ﴿أخرجنا﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿أَنزَلَ﴾ على طريق الالتفات من الغيبة إلى التكلم، ﴿بِهِۦ﴾:

متعلق بـ﴿أخرجنا﴾، ﴿ثَمَرَٰتٍ﴾: مفعول ﴿أخرجنا﴾، ﴿مُّخْتَلِفًا﴾: صفة لـ﴿ثَمَرَٰتٍ﴾، ولكنها سببية، ولذلك لم يؤنث لأنه أسند إلى جمع تكسير يجوز فيه التذكير والتأنيث، ﴿أَلْوَٰنُهَا﴾: فاعل لـ﴿مُّخْتَلِفًا﴾، ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، أو عاطفة ﴿من الجبال﴾: خبر مقدم، ﴿جُدَدٌۢ﴾: مبتدأ مؤخر، ولكنه على حذف مضاف؛ أي: ومن الجبال ذو جدد وطرق بيض وحمر، والجملة الاسمية مستأنفة، أو معطوفة على جملة ﴿أَنَّ﴾، فكأنه قال: ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء، وأنه من الجبال ذو جدد بيض الخ. ﴿بِيضٌ﴾: صفة لـ﴿جُدَدٌۢ﴾، ﴿وَحُمْرٌ﴾: معطوف عليه، ﴿مُّخْتَلِفٌ﴾: صفة لـ﴿جُدَدٌۢ﴾ أيضاً، ﴿أَلْوَٰنُهَا﴾: فاعل مختلف، ﴿وَغَرَابِيبُ﴾: معطوف على ﴿جُدَدٌۢ﴾، ﴿سُودٌ﴾: بدل من ﴿غرابيب﴾، وجعله الزمخشري معطوفاً على ﴿بِيضٌ﴾، و﴿غرابيب﴾: صفة له مقدمة عليه مبالغة في التأكيد، فكأنه قيل: ومن الجبال جدد بيض وحمر وسود غرابيب؛ أي: شبيه بالغراب.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَمِنَ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿من الناس﴾: خبر مقدم، ﴿وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾: معطوفان على ﴿ٱلنَّاسِ﴾، ﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾: صفة لمبتدأ مؤخر محذوف تقديره: صنف مختلف ألوانه كائن من الناس والدواب، ﴿أَلْوَٰنُهُۥ﴾: فعل مختلف، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ﴾، ﴿كَذَٰلِكَ﴾: صفة لمصدر محذوف تقديره: مختلف ألوانه اختلافاً كائناً كذلك؛ أي: كاختلاف ألوان الجبال، ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، ﴿يَخْشَى ٱللَّهَ﴾: فعل ومفعول به مقدم على فاعله لإفادة الحصر، ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾: حال من ﴿ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾، و﴿ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾: فاعل، والجملة الفعلية مستأنفة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿عَزِيزٌ﴾: خبر أول له، ﴿غَفُورٌ﴾: خبر ثانٍ، والجملة مستأنفة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾: ناصب واسمه، ﴿يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾: فعل وفاعل ومفعول

به، صلة الموصول، ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿يَتْلُونَ﴾، ﴿وَأَنفَقُوا۟﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿يَتْلُونَ﴾. ﴿مِمَّا﴾: متعلق بـ﴿أنفقوا﴾، ﴿رَزَقْنَٰهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، صلة لـ﴿ما﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: رزقناهموه، ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾: منصوبان بنزع الخافض؛ أي: في السر والعلانية، أو على الحالية، أو على المفعولية المطلقة، ﴿يَرْجُونَ﴾: فعل وفاعل، ﴿تِجَٰرَةً﴾: مفعول به، جملة ﴿يَرْجُونَ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة، ﴿لَّن﴾: حرف نصب، ﴿تَبُورَ﴾: فعل مضارع، وفاعله ضمير يعود على ﴿تِجَٰرَةً﴾، والجملة في محل النصب صفة لـ﴿تِجَٰرَةً﴾، ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿يوفيهم﴾: فعل مضارع ومفعول به أول وفاعل مستتر يعود على الله منصوب بأن مضمرة بعد لام كي، ﴿أُجُورَهُمْ﴾: مفعول ثانٍ، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، الجار والمجرور متعلق بـ﴿لَّن تَبُورَ﴾، على معنى أنها لن تكسد لأجل أن يوفيهم أجور أعمالهم الصالحة، وقيل: متعلق بمحذوف دل عليه السياق تقديره: فعلوا ذلك ليوفيهم أجورهم، ﴿وَيَزِيدَهُم﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به، معطوف على ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ﴾، ﴿مِّن فَضْلِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿يزيد﴾، ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه، ﴿غَفُورٌ﴾: خبر أول له، ﴿شَكُورٌ﴾: خبر ثان، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها من التوفية والزيادة.

﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِىٓ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية، ﴿الذي﴾: مبتدأ ﴿أَوْحَيْنَآ﴾: فعل وفاعل، ﴿إِلَيْكَ﴾ متعلق به، والجملة صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: أوحيناه، ﴿مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: حال من العائد المحذوف، ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل، ﴿ٱلْحَقُّ﴾: خبر، والجملة مستأنفة، ﴿مُصَدِّقًا﴾: حال من ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾. ﴿لِّمَا﴾: متعلق بـ﴿مُصَدِّقًا﴾، ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: ظرف ومضاف إليه صلة لـ﴿ما﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، ﴿بِعِبَادِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿لَخَبِيرٌ﴾، ﴿لَخَبِيرٌ﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿خبيرٌ﴾: خبر أول لـ﴿إن﴾، ﴿بَصِيرٌ﴾: خبر ثانٍ لها، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ

﴿وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف وترتيب مع تراخٍ، ﴿أَوۡرَثۡنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾: مفعول ثانٍ قدّم لشرفه، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول أول لـ﴿أَوۡرَثۡنَا﴾، والجملة معطوفة على محذوف معلوم من السياق تقديره: أوحينا إليك هذا الكتاب، ثم أورثناه الذين اصطفينا. ﴿ٱصۡطَفَيۡنَا﴾: فعل وفاعل، صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: اصطفيناهم. ﴿مِنۡ عِبَادِنَاۖ﴾: حال من الموصول، أو من العائد المحذوف، ﴿فَمِنۡهُمۡ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت إيراثنا إياهم، وأردت بيان تفاصيلهم.. فأقول لك: ﴿منهُمْ﴾: خبر مقدم، ﴿ظَالِمٞ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿لِّنَفۡسِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿ظَالِمٞ﴾، والجملة في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة، ﴿وَمِنۡهُم﴾: خبر مقدم، ﴿مُّقۡتَصِدٞ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة في محل النصب معطوفة على الجملة التي قبلها، ﴿وَمِنۡهُمۡ﴾: خبر مقدم ﴿سَابِقُۢ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على ما قبلها، ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾: حال من الضمير المستكن في ﴿سَابِقُۢ﴾، أو متعلق به، ﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل، ﴿ٱلۡفَضۡلُ﴾: خبر، ﴿ٱلۡكَبِيرُ﴾: صفة له، والجملة مستأنفة.

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿جَنَّٰتُ﴾: مبتدأ، ﴿عَدۡنٖ﴾ مضاف إليه، وجملة ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾: خبر، والجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً، أو ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾: بدل من ﴿ٱلۡفَضۡلُ﴾، وجملة ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾ حال من ﴿جَنَّٰتُ﴾، ﴿يُحَلَّوۡنَ﴾: فعل ونائب فاعل، ﴿فِيهَا﴾: متعلق به، والجملة الفعلية خبر ثان لـ﴿جَنَّٰتُ﴾، ﴿مِنۡ﴾: زائدة، ﴿أَسَاوِرَ﴾: مفعول ثانٍ لـ﴿يُحَلَّوۡنَ﴾، ﴿مِن ذَهَبٖ﴾: صفة لـ﴿أَسَاوِرَ﴾، ﴿وَلُؤۡلُؤٗاۖ﴾: معطوف على محل ﴿مِنۡ أَسَاوِرَ﴾، ﴿وَلِبَاسُهُمۡ﴾: مبتدأ، ﴿فِيهَا﴾: حال من ضمير الغائبين، ﴿حَرِيرٞ﴾: خبر، والجملة معطوفة على جملة ﴿يُحَلَّوۡنَ﴾.

﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَقَالُواْ﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾: والتقدير: جنات

يدخلونها، ويقولون فيها: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾، ﴿ٱلَّذِىٓ﴾: صفة للجلالة ﴿أَذْهَبَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر، صلة الموصول، ﴿عَنَّا﴾: متعلق بـ﴿أَذْهَبَ﴾، ﴿ٱلْحَزَنَ﴾: مفعول به ﴿إِنَّ رَبَّنَا﴾: ناصب واسمه، ﴿لَغَفُورٌ﴾: خبر أول لها، واللام: حرف ابتداء، ﴿شَكُورٌ﴾: خبر ثانٍ، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿ٱلْحَمْدُ﴾.

﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿ٱلَّذِىٓ﴾: بدل من الموصول الأول، أو نعت ثانٍ للجلالة ﴿أَحَلَّنَا﴾: فعل وفاعل مستتر، ومفعول به، صلة الموصول، ﴿دَارَ ٱلْمُقَامَةِ﴾: مفعول ثانٍ لـ﴿أَحَلَّنَا﴾ ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿أَحَلَّنَا﴾، ﴿لَا﴾: نافية، ﴿يَمَسُّنَا﴾: فعل ومفعول به، ﴿فِيهَا﴾: متعلق بـ﴿يَمَسُّنَا﴾، ﴿نَصَبٌ﴾: فاعل، والجملة في محل النصب حال من مفعول ﴿أَحَلَّنَا﴾ الأول، ﴿وَلَا يَمَسُّنَا﴾: فعل ومفعول به، ﴿فِيهَا﴾: متعلق به، ﴿لُغُوبٌ﴾: فاعل، والجملة في محل النصب معطوفة على ما قبلها.

التصريف ومفردات اللغة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ الفقراء: جمع فقير، كالفقائر جمع: فقيرة، والفقير: المكسور الفقار، والفقر ذكره في «تاج المصادر» في باب ضرب، وجعله في «القاموس»: من حدِّ كرم، وقال الراغب في «المفردات»: يقال: افتقر فهو مفتقر وفقير، ولا يكاد يقال فقر، وإن كان القياس يقتضيه، انتهى. وفهم من هذا أن الفقير صيغة مبالغة، كالمفتقر بمعنى ذي الاحتياج الكثير الشديد، والفقر: وجود الحاجة الضرورية، وفقد ما يحتاج إليه.

﴿مُثْقَلَةٌ﴾ والمثقلة: النفس التي أثقلتها الذنوب والأوزار، قال الراغب: الثقل والخفة متقابلان، وكل ما يترجح عما يوزن به أو يقدر به يقال: هو ثقيل، وأصله في الأجسام، ثم يقال في المعاني: أثقله الغرم والوزر. انتهى.. فالثقل هنا: الإثم، سمي به لأنه يثقل صاحبه يوم القيامة، ويثبِّطه عن الثواب في الدنيا.

﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ قيل: في الأثقال المحمولة في الظاهر، كالشيء المحمول على الظهر، حمل بالكسر، وفي الأثقال المحمولة في الباطن، كالولد في البطن حمل

بالفتح، كما في «المفردات». وفي «المصباح»: الحمل بالكسر ما يحمل على الظهر ونحوه، والجمع أحمال وحمول، وحملت المتاع حملاً من باب ضرب، فأنا حامل، والأنثى حاملة بالتاء؛ لأنها صفة مشتركة، وفي «المختار»: قال ابن السكيت: الحمل بالفتح ما كان في البطن، أو على رأس شجرة، والحمل ـ بالكسر ـ: ما كان على ظهر أو رأس، قال الأزهري: وهذا هو الصواب، وهو قول الأصمعي.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ﴾ يقال: وزر يزر كوعد يعد من الباب الثاني وزراً بالفتح والكسر، وزر يوزر من الرابع حمل، والوزر الإثم والثقل.

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ والإنذار: الإبلاغ مع التخويف. ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾﴾ والأعمى: فاقد حاسة البصر، والبصير ضده.

﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ﴾: جمع ظلمة، وهي عدم النور. ﴿وَلَا ٱلنُّورُ﴾: وهو الضوء المنتشر المعين للأبصار. ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾﴾ قال الراغب: يقال لكل موضع لا تصل إليه الشمس ظل، ولا يقال الفيء إلا لما زال عنه الشمس، ويعبر بالظل عن العز والمنعة، وعن الرفاهية انتهى. والحرور: فعول من الحر غلب على السموم، وهي الريح الحارة التي تؤثر تأثير الشمس تكون غالباً بالنهار.

وعبارة «الزمخشري»: الحرور: السموم إلا أن السموم يكون بالنهار، والحرور بالليل والنهار، وقيل: بالنهار خاصة، وفي «المصباح»: الحر بالفتح خلاف البرد، يقال: حر اليوم والطعام يحر من باب تعب وحر حروراً من بابي قعد وضرب لغة، والاسم الحرارة، فهو حار، وحرت النار تحر من باب تعب توقدت وأسعرت، والحرة بالفتح: أرض ذات حجارة سود، والجمع: حرار، مثل: كلبة وكلاب، والحرور وزان رسول: الريح الحارة.

قال الفراء: تكون ليلاً ونهاراً، قال أبو عبيدة: أخبرنا رؤبة أن الحرور بالنهار، والسموم بالليل. وقال أبو عمرو بن العلاء: الحرور والسموم بالليل والنهار، والحرور مؤنثة، وعبارة «القاموس»: والحرور: الريح الحارة بالليل، وقد تكون بالنهار، وحر الشمس والحر الدائم والنار. انتهى.

فائدة: قال الزمخشري: فإن قلت ﴿لا﴾ المقرونة بواو العطف ما هي؟.

قلت: إذا وقعت الواو في النفي.. قرنت بها لتأكيد معنى النفي، انتهى.

وقد كررت ﴿لا﴾ هنا خمس مرات اثنين في الأولى ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ٢٠﴾، واثنين في الثانية ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ٢١﴾، وواحدة في الثالثة ﴿وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾، فالزيادة في عبارتهم شاملة لأصل زيادتها كالأولى من الجملة الأولى، ولتكريرها كالثانية منها. اهـ شيخنا. والحي: من به القوة الحساسة، والميت: من زال عنه ذلك.

﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ جمع: قبر، وهو مقر الميت، يقال: قبرته جعلته في القبر.

﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ﴾ الأمة: الجماعة الكثيرة، وتقال لكل أهل عصر، والمراد بها هنا: أهل العصر، فإن قيل: كم من أمة في الفترة بين عيسى ومحمد لم يرسل إليها رسول ينذرها؟

أجيب: بأن آثار النذارة إذا كانت باقية لم تخلُ من نذير إلى أن تندرس، وحين اندرست آثار نذارة عيسى بعث محمداً ﷺ. اهـ «خطيب» و «خازن».

وهذا يقتضي أن أهل الفترة مكلفون لبقاء آثار الرسل المتقدمة فيهم. تأمل فالمسألة خلافية.

﴿إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ قال الراغب: الخلاء: المكان الذي لا ساتر فيه من بناء وساكن وغيرهما، والخلو يستعمل في الزمان والمكان، لكن لما تصور في الزمان المضي.. فسر أهل اللغة قولهم خلا الزمان بقولهم: مضىٰ وذهب انتهى.

﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾: جمع زبور بمعنى المكتوب من: زبرت الكتاب كتبته كتابة غليظة، وكل كتاب غليظ الكتابة يقال له زبور، كما في «المفردات». ﴿ثَمَرَٰتٍ﴾ جمع ثمرة، وهي اسم لكل ما يطعم من أحمال الشجر. ﴿جُدَدٌۢ﴾ ـ بالضم والفتح ـ: جمع جدة بالضم، وهي الطرق المختلفة الألوان في الجبل وغيره، كما مر.

﴿غرابيب﴾ جمع غربيب كعفاريت جمع عفريت، وهو شديد السواد، يقال: أسود غربيب، وأبيض يقق، وأصفر فاقع، وأحمر قان، وفي الحديث: «إن الله يبغض الشيخ الغربيب» يعني: الذي يخضب بالسواد. وقال امرؤ القيس في وصف فرسه:

العَيْنُ طَامِحَةٌ واليَدُ سَابِحَةٌ والرِّجْلُ لاَفِحَةٌ والوَجْهُ غِرْبِيبُ

﴿سُودٌ﴾ جمع أسود، ﴿وَٱلدَّوَآبِّ﴾ جمع دابة، وهي ما يدب على الأرض من الحيوان، وغلب على ما يركب من الخيل والبغال والحمير، ويقع على المذكر. ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾: جمع نعم محركة، وقد يسكن عينه: الإبل والبقر والضأن والمعز دون غيرها، فالخيل والبغال والحمير خارجة عن الأنعام.

﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ والعلانية: ضد السر، وهي الإظهار، وأكثر ما يقال ذلك في المعاني دون الأعيان، يقال: أعلنته فعلن؛ أي: أظهرته فظهر.

﴿تِجَٰرَةً﴾ والتجارة في العرف: تقليب المال لغرض الربح، والمراد من التجارة هنا: المعاملة مع الله لنيل الثواب، والتاجر الذي يبيع ويشتري وعمله التجارة وهي التصرف في رأس المال طالباً للربح، وليس في كلامهم تاء بعدها جيم غير هذه اللفظة، وأما تجاه فأصله وجاه وتجوب، فالتاء فيه للمضارعة.

﴿لَّن تَبُورَ﴾: البوار: فرط الكساد، والوصف منه: بائر، ولما كان فرط الكساد يؤدي إلى الفساد.. عبر بالبوار عن الهلاك مطلقاً، ومن الهلاك المعنوي ما في قولهم: خذوا الطريق ولو دارت، وتزوجوا البكر ولو بارت، واسكنوا المدن ولو جارت. ﴿أُجُورَهُمْ﴾ جمع أجر، والأجر ثواب العمل.

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ﴾ قال الراغب: الوراثة: انتقال قينة إليك عن غيرك من غير عقد ولا ما يجري مجرى العقد، وسمي بذلك المنتقل عن الميت، ويقال لكل من حصل له شيء من غير تعب: قد ورث كذا انتهى.

﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا﴾ والاصطفاء في الأصل: تناول صفو الشيء وخالصه.

﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾؛ أي: عامل به تارة، ومخالف له أخرى، وإنما قال مقتصد بصيغة الافتعال؛ لأن ترك الإنسان للظلم في غاية الصعوبة.

﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ﴾؛ أي: متقدم إلى ثواب الله سبحانه، راجع دخول جنته، وأصل السبق: التقدم في السير، ويستعار لإحراز الفضل كما هنا.

﴿بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾؛ أي: بسبب ما يعمل من الخيرات والأعمال الصالحة، والخير كل ما يرغب فيه الكل، كالعقل والعدل والفضل والشيء النافع، وضده: الشر.

﴿مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ والأساور: جمع أسورة، وهو جمع سوار على وزن كتاب وغراب معرب «دستواره». ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ واللؤلؤ: الدر، سمي بذلك لتلألئه ولمعانه. ﴿وَلِبَاسُهُمْ﴾ واللباس: اسم لما يلبس.

﴿حَرِيرٌ﴾: والحرير من الثياب: ما رق، كما في «المفردات»، وثوب يكون سداه ولحمته إبريسماً، وإن كان في الأصل الإبريسم المطبوخ، كما في «القهستاني»، ويحرم لبسه على الرجال دون النساء إلا في الحرب، كما هو مبسوط في علم الفروع.

﴿الْحَزَنَ﴾: الحزن - بفتحتين - والحزن - بالضم والسكون - واحد، وهو: خشونة الأرض، وخشونة في النفس لما يحصل فيها من الغم، وضده الفرح. وقيل: الحزن - بالتحريك -: الخوف من محذور يقع في المستقبل.

﴿أَحَلَّنَا﴾؛ أي: أنزلنا يقال: حلت إذا نزلت من حل الأحمال عند النزول، ثم جرِّد استعماله للنزول فقيل: حل حلولاً وأحله غيره، والمحلة: مكان النزول، كما في «المفردات».

﴿دَارَ الْمُقَامَةِ﴾: مفعول ثانٍ لـ﴿أحل﴾، وليست بظرف؛ لأنها محدودة مختصة، فلو كان ظرفاً لتعدى إليه الفعل بفي، والمقامة - بالضم -: مصدر ميمي، تقول: أقام يقيم إقامة ومقامة. ﴿لَا يَمَسُّنَا﴾ المس، كاللمس، وقد يقال في كل ما ينال الإنسان من أذى. ﴿نَصَبٌ﴾؛ أي: تعب وكد بالأشغال.

﴿لُغُوبٌ﴾؛ أي: ضعف وملالة عن كثرة الأشغال، والفرق بين النصب واللغوب: أن النصب نفس المشقة والكلفة، واللغوب: ما يحدث منه من الفتور والضعف للجوارح. قال أبو حيان: هو لازم من تعب البدن، فهي الجديرة لعمري بأن يقال فيها:

عَلْيَاءُ لاَ تَنْزِلُ ٱلأَحْزَانُ سَاحَتَهَا ... لَوْ مَسَّهَا حَجَرٌ مَسَّتْهُ سَرَّاءُ

وفي «القاموس»: نصب كفرح: أعيا، وفي «المختار»: ونصب تعب، وبابه: طرب.

﴿لُغُوبٌ﴾ إعياء من التعب، وفي «القاموس»: لغب لغباً ولغوباً، كمنع وسمع وكرم: أعيا أشد الإعياء، وفي «المختار»: اللغوب - بضمتين -: التعب والإعياء،

وبابه: دخل، ولَغِب بالكسر لغوباً لغةٌ ضعيفة، فظاهر ما ورد في كتب اللغة أنهما متفقان في المعنى، ولكن الزمخشري فرَّق بينهما تفريقاً دقيقاً، فقال: فإن قلت: ما الفرق بين النصب واللغوب؟ قلت: النصب: التعب والمشقة التي تصيب المتنصِّب للأمر المزاول له، وأما اللغوب فما يلحقه من الفتور بسبب النصب، فالنصب نفس المشقة والكلفة، واللغوب نتيجته وما يحدث منه من الكلال والفترة. انتهى.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: تعريف الفقراء في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ للمبالغة في فقرهم، كأنهم لشدة افتقارهم وكثرة احتياجهم هم الفقراء فقط، وأن افتقار غيرهم بالنسبة إلى فقرهم كالعدم.

ومنها: الطباق بين ﴿يذهب﴾ و﴿وَيَأْتِ﴾، بين ﴿ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾، و﴿ٱلظُّلُمَٰتُ﴾ و﴿ٱلنُّورُ﴾، و﴿ٱلظِّلُّ﴾ و﴿ٱلْحَرُورُ﴾، و﴿ٱلْأَحْيَآءُ﴾ و﴿ٱلْأَمْوَٰتُ﴾، وبين: ﴿نذيراً﴾ و﴿بَشِيرًا﴾، وبين ﴿سِرًّا﴾ و﴿علانية﴾.

ومنها: جناس الاشتقاق بين ﴿تَزِرُ﴾ و﴿وَازِرَةٌ﴾ و﴿وِزْرَ﴾ في قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، وبين ﴿حِمْلِهَا﴾ و﴿يُحْمَلْ﴾ في قوله: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية في قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾﴾ الآية، شبه الكافر بالأعمى، والمؤمن بالبصير بجامع ظلام الطريق، وعدم الاهتداء على الكافر، ووضوح الرؤية، والاهتداء للمؤمن، ثم استعار المشبه به ﴿ٱلْأَعْمَىٰ﴾ للكافر، واستعار ﴿البصير﴾ للمؤمن بطريق الاستعارة التصريحية الأصلية.

ومنها: تكرار ﴿لا﴾ في قوله: ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ مبالغة في تأكيد النفي.

ومنها: تقديم الأعمى على البصير، والظلمات على النور، والظل على الحرور لتطابق فواصل الآي.

ومنها: إيثار صيغة الجمع في الطرفين في قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ تحقيقاً للتباين بين أفراد الفريقين.

ومنها: الاستعارة المرشحة في قوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ مثل المصرين على الكفر بالأموات، ورشح له بذكر القبور، وترشيح الاستعارة اقترانها بما يلائم المستعار منه، شبه تعالى من طبع على قلبه بالموتى في عدم القدرة على الإجابة، فكما لا يسمع أصحاب القبور ولا يجيبون، كذلك الكفار لا يسمعون ولا يقبلون الحق.

ومنها: الاكتفاء في قوله: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ لكون الإنذار هو المقصود الأهم من البعثة.

ومنها: إعادة الجار في المعطوف في قوله: ﴿وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ﴾ لإفادة التأكيد.

ومنها: وضع الظاهر موضع المضمر في قوله: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ لذمهم بما في حيز الصلة، والإشعار بعلية الأخذ.

ومنها: الاستفهام التقريري في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾.

ومنها: الالتفات من الغيبة في: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ إلى التكلم في قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ لإظهار كمال الاعتناء بفعل الإخراج لما فيه من الصنع البديع المنبىء عن كمال القدرة والحكمة، ولأن الرجوع إلى نون العظمة أهيب في العبارة.

ومنها: التدبيج في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ والتدبيج: أن يذكر المتكلم ألوانا يقصد الكناية بها والتورية بذكرها عن أشياء من وصف أو مدح أو هجاء أو غير ذلك من الفنون، وقد أراد الله سبحانه بذلك الكناية عن المشتبه من الطرق إلى آخر ما ذكروه هنا.

ومنها: العدول عن الجملة الفعلية إلى الاسمية في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ فأورد هاتين الجملتين اسميتين مع مشاركتهما للفعلية قبلهما في الاستشهاد بمضمون كل على تباين الناس في الأحوال لما أن اختلاف الجبال والناس والدواب والأنعام فيما ذكر من الألوان أمر مستمر، فعبر عنه بما يدل على

الاستمرار، وأما إخراج الثمرات المختلفة.. فأمر حادث، فعبر عنه بما يدل على الحدوث، ولما كان فيه نوع خفاء علّق الرؤية به بطريق الاستفهام التقريري، بخلاف أحوال الجبال والناس وغيرهما، فإنها مشاهدة غنية عن التأمل، فلذلك جردت عن التعليق بالرؤية فتدبر، كما مر ذلك عن «أبي السعود».

ومنها: التقديم والتأخير لغرض الحصر في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ فقصر الخشية على العلماء قصر صفة على موصوف، فكأنه قيل: إن الذين يخشون الله من بين عباده هم العلماء دون غيرهم، أما إذا قدمت الفاعل.. فإن المعنى ينقلب إلى أنهم لا يخشون إلا الله، فيكون قصر موصوف على صفة، وهما معنيان مختلفان كما يبدو للمتأمل.

ومنها: مغايرة الأسلوب من الاستقبال في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ إلى المضي في قوله: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ للدلالة على أن أوقات التلاوة أعم بخلاف أوقات الصلاة، وكذا أوقات الزكاة المدلول عليها بقوله: ﴿وَأَنفَقُوا۟﴾.

ومنها: الاستعارة التصريحية المرشحة في قوله: ﴿تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ استعار التجارة للمعاملة مع الله تعالى لنيل ثوابه، وشبَّهها بالتجارة الدنيوية، وهي المعاملة مع الخلق بالبيع والشراء لغرض الربح بجامع الاكتساب في كلٍّ، ثم رشّحها بقوله: ﴿لَّن تَبُورَ﴾.

ومنها: تقديم المعمول على عامله في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ لمرعاة الفاصلة التي على حرف الراء.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ شبه إعطاء الكتاب إياهم من غير كد ولا تعب في وصوله إليهم بتوريث الوارث، وفيه أيضاً تقديم المفعول الثاني على المفعول الأول لشرفه وعظم قدره، وفي هذه الآية أيضاً من البلاغة الجمع ثم التقسيم، وهو أن يجمع المتكلم بين شيئين أو أكثر في حكم، ثم يقسم ما جمعه، فجمع العباد هنا في إيراثهم الكتاب، ثم فصلهم بقوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ إلخ.

ومنها: الإضافة للتشريف في قوله: ﴿عِبَادِنَا﴾.

ومنها: التعبير عن المستقبل بالماضي في قوله: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ أي:

ويقولون عند دخول الجنة: الحمد لله للدلالة على التحقق والوقوع.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

قال الله سبحانه جلَّ وعلا:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾.

المناسبة

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ...﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما[1] بيَّن ما لعباده الذين أورثوا الكتاب من النعمة في دار السرور.. أردف ذلك بذكر ما لأضدادهم من النقمة زيادة في سرورهم بما قاسوا في الدنيا من تكبرهم عليهم، وفخارهم بما أوتوا من نعيم زائد وجور لا يدوم. وعبارة أبي حيان[2]: لما ذكر حال المؤمنين ومقرهم.. ذكر حال

(١) المراغي. (٢) البحر المحيط.

الكافرين، وهذا يدل على أن أولئك الثلاثة هم في الجنة، والذين كفروا هم مقابلوهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَـٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ. . .﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لماذكر فيما سلف أنه ليس للظالمين من ينصرهم، ويدفع العذاب عنهم. . أردف ذلك ببيان أنه محيط بالأشياء علماً، فلو كان لهم نصير في وقت ما. . لعلمه، إلا أنه تعالى لما نفى النصير على سبيل الاستمرار، وكان ذلك مظنة أن يقال: كيف يخلدون في العذاب، وقد ظلموا في أيام معدودات. . أعقب ذلك بذكر أنه عليم بما انطوت عليه ضمائرهم، وأنهم صمموا على ما هم فيه من الضلال والكفر إلى الأبد، فمهما طالت أعمارهم فلن تتغير حالهم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ. . .﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه لما بيَّن[1] أنه هو الذي استخلفهم في الأرض. . أكد هذا بأمره ﷺ أن يقول لهم ما يضطرهم إلى الاعتراف بوحدانيته، وعدم إشراك غيره معه.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ. . .﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه وتعالى لما ذكر تكذيبهم للتوحيد بإشراكهم الأوثان والأصنام، وبَكَّتهم على هذا أشد التبكيت، وضرب لهم الأمثال ليبين لهم سخف عقولهم وقبح معتقداتهم. . أردف ذلك بذكر إنكارهم للرسالة بعد أن كانوا مترقبين لها ناعين على أهل الكتاب تكذيب بعضهم بعضاً، فقالت اليهود: ليست النصارى على شيء، وقالت النصارى: ليست اليهود على شيء، ثم هددهم بأن عاقبتهم ستكون الهلاك الذي لا محيص عنه، وتلك سنة الله سبحانه في الأولين من قبلهم، وسنته لا تبديل فيها ولا تحويل.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ. . .﴾ الآية، مناسبة هذه الآية لما قبلها: أن الله سبحانه[2] لما هدد المشركين بجريان سنته فيهم بإهلاكهم، كما أهلك المكذبين من قبلهم. . نبَّههم إلى ذلك بما يشاهدونه من

---

(١) المراغي. (٢) المراغي.

آثارهم في رحلاتهم للتجارة في الشام والعراق واليمن، فقد خلت منهم منازلهم، وسلبوا ما كانوا فيه من النعيم بعد كمال القوة وكثرة العدد والعدد وكثرة المال والولد، وما أغنى ذلك عنهم شيئاً، ولا دفع عنهم من عذابه لما جاء أمره؛ لأنه لا يعجزه شيء إذا أراده.

ثم ذكر حلمه بعباده، وأنه لو أخذهم بما اجترحوا من السيئات ما ترك على ظهر الأرض إنساناً يدبّ على وجهها، لكنّه أخر عقابهم إلى يوم القيامة فيحاسبهم ويوفي كل عامل جزاء عمله إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وهو البصير بحال عباده.

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية[1]: ما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن أبي هلال أنه بلغه أن قريشاً كانت تقول: لو أن الله بعث منّا نبياً.. ما كانت أمة من الأمم أطوع لخالقها، ولا أسمع لنبيّها، ولا أشد تمسكاً بكتابها منا، فأنزل الله سبحانه قوله: ﴿وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾﴾، وقوله: ﴿لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾، وقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾، وكانت اليهود تستفتح به على النصارى فيقولون: إنّا نجد نبيًّا يخرج.

التفسير وأوجه القراءة

ولمّا فرغ سبحانه وتعالى من ذكر جزاء عباده الصالحين.. ذكر جزاء عباده الطالحين، فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: جحدوا بوجود الله سبحانه، أو كفروا بوحدته ﴿لَهُمْ﴾ بمقابلة كفرهم الذي هو أكبر الكبائر وأقبح القبائح، ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ التي لا تشبه ناراً، ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: لا يحكم عليهم بموتٍ ثانٍ، ﴿فَيَمُوتُوا﴾ ويستريحوا من العذاب، ونصبه بأن مضمرة في جواب النفي ﴿وَلَا

(١) لباب النقول.

﴿يُخَفَّفُ﴾؛ أي: لا يهوّن ولا يقلّل ولا يرفع، ﴿عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾؛ أي: من ﴿عذاب جهنم طرفة عين﴾، بل كلما خبت.. زيد استعارها، كما قال في آية أخرى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾، وهذه الآية هي مثل قوله تعالى: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾، وقوله: ﴿عَنْهُم﴾ نائب مناب الفاعل، و﴿مِّنْ عَذَابِهَا﴾ في موضع النصب، أو بالعكس، وإن كانت ﴿مِن﴾ زائدة يتعيّن له الرفع ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثل ذلك الجزاء الفظيع، ﴿نَجْزِي﴾ في الآخرة، ﴿كُلَّ كَفُورٍ﴾؛ أي: كل من هو مبالغ في الكفر، أو في الكفران، لا جزاء أخفّ وأدنى منه.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿فَيَمُوتُوا﴾ بالنصب جواباً للنفي، وقرأ عيسى بن عمر والحسن: ﴿فيموتون﴾ بإثبات النون، قال أبو عثمان المازني: على العطف على ﴿يقضى﴾، وقال ابن عطية: هي قراءة ضعيفة، ولا وجه لهذا التضعيف، بل هي كقوله: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾؛ أي: فلا يعتذرون، قال ابن عطية: وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو: ﴿ولا يخفف﴾ بإسكان الفاء، شبّه المنفصل بالمتصل، كقوله: فاليوم أشرب غير مستحقب.

وقرأ الجمهور: ﴿نَجْزِي كُلَّ﴾ مبنياً للفاعل، ونصب ﴿كل﴾ وقرأ أبو عمرو وأبو حاتم عن نافع بالياء مبنياً للمفعول ورفع ﴿كل﴾.

والمعنى[2]: أي والذين ستروا ما تدل عليه العقول من شموس الآيات وأنوار الدلالات، لهم نار جهنم، لا يحكم عليهم فيها بموت ثانٍ فيستريحوا من الآلام، ولا يخفّف عنهم العذاب فيها، بل كلّما خبت زيد سعيرها، ونحو الآية قوله: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ (٧٧)﴾، وقوله: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤) لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥)﴾، وقوله: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾، وقوله: ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (٣٠)﴾.

ثم بيّن أن هذا جزاء كل كافر بنعمة ربه جاحد بوحدانيته، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾؛ أي: وهكذا نكافىء كل جاحد لآلاء الله منكر لرسله، فندخله نار جهنم بما قدّم في الدنيا من سيئات عمله.

﴿وَهُمْ﴾؛ أي: الكفار، ﴿يَصْطَرِخُونَ﴾؛ أي: يصيحون ويستغيثون، ﴿فِيهَا﴾؛

---

(١) البحر المحيط. (٢) المراغي.

أي: في نار جهنم، ويدعون ويتضرّعون ويقولون: يا ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا﴾ من هذه النار، وخلّصنا من عذابها، وردّنا إلى الدنيا، ﴿نَعۡمَلۡ﴾ عملاً ﴿صَٰلِحًا﴾ على أنه صفة لمصدر محذوف، ويصح كونه صفة لمحذوف؛ أي: شيئاً صالحاً؛ أي: نؤمن بدل الكفر، ونطيع بدل المعصية، وذلك لأنّ قبول الأعمال مبنيّ على الإيمان، ﴿غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ﴾ في الدنيا؛ أي: غير الذي عملناه في الدنيا أولاً، قيدوا العمل الصالح بهذا الوصف إشعاراً بأنهم كانوا يحسبون ما فعلوه صالحاً، والآن تبيّن خلافه؛ إذ كان هوًى وطبعاً ومخالفةً، وللتحسّر على ما عملوه من غير الأعمال الصالحة مع الاعتراف منهم بأنّ أعمالهم في الدنيا كانت غير صالحة؛ أي: وهم يستغيثون ويضجّون في النار يقولون ربّنا أخرجنا منها، وأعدنا إلى دار الدنيا.. نطعك ونعمل غير الذي كنا نعمل من معصيتك، وقد علم منهم أنه لو ردّهم إلى هذه الدار.. لعادوا إلى ما نهوا عنه، فأجاب الله سبحانه عليهم بقول: ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم﴾ ونمهلكم يا معشر الكفار في الدنيا، ﴿مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ﴾؛ أي: بقدر ما يتّعظ فيه، ﴿مَن تَذَكَّرَ﴾؛ أي: من أراد أن يتعظ ويؤمن، والهمزة فيه[1] للاستفهام التقريري المضمّن للتوبيخ، داخلة على محذوف يقتضيه المقام، والواو عاطفة على ذلك المحذوف والتعمير إطالة العمر، والعمر اسم لمدة عمارة البدن بالحياة، و﴿مَّا﴾ نكرة موصوفة، أو مصدر يراد به الزمان، كقولك: أتيك غروب الشمس. والتقدير: ألم نعطكم مهلة، ولم نعمركم عمراً أو تعميراً أو وقتاً وزمناً يتذكر فيه من تذكر؛ أي: يتمكن فيه من التذكر والتفكر من أراد التذكر والتفكر في شأنه وإصلاح حاله، وإن قصر، إلا أن التوبيخ في المطاولة أعظم، وهذا الزمن قيل: هو ستون سنة، قاله جماعة من الصحابة، وقيل: أربعون سنة، قاله الحسن ومسروق وغيرهما، وقيل: ثماني عشرة سنة، قاله عطاء وقتادة.

وقرأ الأعمش[2]: ﴿ما يذكّر فيه﴾ بالإدغام من اذكر بالإدغام، واجتلاب همة الوصل ملفوظاً بها في الدرج.

يعني: أنه إذا بلغ حدّ البلوغ يفتح الله له نظر العقل، فيلزم حينئذ على المكلف أن ينظر بنظر العقل إلى المصنوعات، فيعرف صانعها ويوحّده ويطيعه، وإذا بلغ إلى

---

(١) روح البيان. (٢) البحر المحيط.

الثماني عشرة، أو العشرين، أو ما فوق ذلك يتأكد التكليف، ويلزم الحجة أشدّ من الأول، وفي الحديث: «أعذر الله إلى امرىء أخّر أجله حتى بلغ ستين سنة»؛ أي: أزال عذره، ولم يبق له موضعاً للاعتذار؛ حيث أمهله طول هذه المدة، ولم يعتذر؛ لأن الستين قريب معترك المنايا، وهو زمن الإنابة والخشوع وترقب المنية ولقاء الله تعالى، ولعل سرّ تعيين ستين ما قاله النبي ﷺ: «أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين، وأقلهم من يجاوز ذلك» رواه ابن ماجه عن أبي هريرة، فإذا بلغ الستين وجاوزها.. كانت السبعون آخر زمان التذكُّر؛ لأن ما بعدها زمان الهرم.

وكل جماعة من الصحابة فمن بعدهم إذا بلغ أربعين سنة، أو رأى شيباً.. بالغ في الاجتهاد، وطوى الفراش، وأقبل على قيام الليل، وأقلّ معاشرة الناس، ولا فرق في ذلك بين الأربعين فما دونها؛ لأن الأجل مكتوم لا يدري متى يحل، أيقظنا الله وإياكم من رقدة الغافلين، والمعنى[1]: عشتم في الدنيا أعماراً لو كنتم ممن ينتفعون بالحق لانتفعتم به مدة عمركم، ونحو الآية حكاية عنهم: ﴿هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾.

والخلاصة: أنه تعالى لا يجيبكم إلى ما طلبتم؛ لأنكم كنتم عصاة، ولو رددتم لعدتم إلى ما نهيتم عنه ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾؛ أي: وجاءكم الرسول ومعه كاتب الله ينذركم بالعقاب إن خالفتم أمره وتركتم طاعته.

والخلاصة: أنه احتج عليهم بأمرين: طول العمر، وإرسال الرسل.

قوله: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ معطوف[2] على الجملة الاستفهامية؛ لأنه في معنى: قد عمرناكم، وجاءكم النذير من حيث إن همزة الإنكار إذا دخلت على حرف النفي أفادت التقرير، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢...﴾ الخ؛ لأنه في معنى: قد شرحنا إلخ.

والمراد بالنذير: رسول الله ﷺ، وعليه جمهور المفسرين، كما قاله الواحدي، وقيل المراد: أيُّ رسولٍ كان؛ لأن الكلام مع الكفار على الإطلاق، وقيل ما معه من القرآن. وقيل: كمال العقل؛ لأنه فارق بين الخير والشر، أو موت الأقارب

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

والجيران والإخوان، وقيل: الشيب، والمعنى عليه: أولم نعمّركم حتى شبتم، وفيه أن مجيء الشيب ليس بعام للجميع عموم ما قبله، وفي الأثر: ما من شعرة تبيضّ إلا قالت لأختها: استعدّي فقد قرب الموت، وقيل: غير ذلك.

قيل: أول من شاب من ولد آدم عليه السلام إبراهيم الخليل عليه السلام، فقال: ما هذا يا رب؟ قال: هذا وقار في الدنيا، ونور في الآخرة، فقال: ربّ زدني من نورك ووقارك. وفي الحديث: «إن الله سبحانه يبغض الشيخ الغربيب»؛ أي: الذي لا يشيب، كما في «المقاصد الحسنة».

وقيل: أول من صلع من البشر آدم عليه السلام؛ لطوله أثّر فيه حر الشمس؛ لأن طوله كان ستين ذراعاً، والفاء في قوله: ﴿فَذُوقُواْ﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر، تقديره: إذا عرفتم قطع أعذاركم بما ذكر من التعمير ومجيء النذير، وأردتم بيان ما تستحقّون.. فأقول لكم: ذوقوا عذاب جهنم؛ لأنكم لم تعتبروا ولم تتعظوا، فأنتم الظالمون، ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾ اليوم، ﴿مِن نَّصِيرٍ﴾ ينصرهم ويمنعهم من عذاب الله تعالى، والفاء في قوله: ﴿فَمَا﴾ للتعليل؛ أي: فذوقوا العذاب؛ لأنه ليس للظالمين أنفسهم بالكفر والشرك ناصر يدفع عنهم العذاب، وفيه إشارة إلى أنهم كانوا في الدنيا نائمين، ولذا لم يذوقوا الألم، فلمّا ماتوا وبعثوا وتيقّظوا تيقّظاً تاماً.. ذاقوا العذاب وأدركوه.

والمعنى: أي فذوقوا عذاب النار جزاء مخالفتكم للأنبياء في حياتكم الدنيا، ولن تجدوا لكم ناصراً ينقذكم مما أنتم فيه من العذاب والسلاسل والأغلال، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه، ﴿عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي عالم ما غاب في السموات والأرض عن العباد، وما شوهد لهم؛ أي: يختص بالله سبحانه علم كل شيء غاب عن العباد فيهما، وخفي عليهم، فكيف يخفى عليه أحوالهم، وأنهم لو ردوا إلى الدنيا.. لعادوا لما نهوا عنه؛ أي: أنه تعالى عالم بكل شيء، ومن ذلك أعمالكم لا تخفى عليه منها خافية، فلو ردّكم إلى الدنيا لم تعملوا صالحاً، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾.

قرأ الجمهور[1]: ﴿عَٰلِمُ غَيْبِ﴾ بإضافة عالم إلى غيب، وقرأ جناح بن

---

(١) البحر المحيط.

حبيش: ﴿عالم﴾ منوّناً ﴿غيب﴾ بالنصب، وقيل: المعنى: أي[1] إن الله عالم ما تخفون أيها المشركون في أنفسكم، وما تضمرون، وما ستنوون أن تفعلوه، وما هو غائب عن أبصاركم في السموات والأرض، فاتّقوه أن يطّلع عليكم وأنتم تضمرون الكيد لرسوله، وتريدون إطفاء دينه، وتنصرون آلهتكم التي لا تنفعكم شيئاً يوم القيامة، والمعنى الأول أولى بالسياق، وفي هذا إيماءٌ إلى أنه لو مدّ أعمارهم لم يرجعوا عن الكفر أبداً، فلا مطمع في صلاحهم، وجملة قوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ تعليل لما قبلها؛ أي: لأنه عليم بما تكنّه السرائر وما تنطوي عليه الضمائر، وسيجازي كل عامل بما عمل؛ أي: لأنه إذا علم مضمرات الصدور وهي أخفى من كل شيء.. علم ما فوقها بالأولى، وقيل: هذه الجملة مفسّرة للجملة الأولى.

ولم يقل: ذوات الصدور[2]؛ لإرادة الجنس، وذات: تأنيث ذي بمعنى: صاحب، والمعنى: عليم بالمضمرات صاحبة الصدور؛ أي: القلوب، فحذف الموصوف وأقيمت صفته مقامه، وجعلت الخواطر القائمة بالقلب صاحبة له بملازمتها وحلولها، كما يقال للّبن ذو الإناء، ولولد المرأة وهو جنين: ذو بطنها، فالإضافة لأدنى ملابسة.

وفي «التأويلات النجمية»: أي عالم بإخلاص المخلصين وصدق الصادقين، وهما من غيب سموات القلوب، وعالم بنفاق المنافقين وجحد الجاحدين، وهما من غيب أرض النفوس انتهى. ثم ذكر ما هو سبب آخر لعلمه بالغيب قال: ﴿هُوَ﴾؛ أي: الله سبحانه، وهو مبتدأ، خبره قوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي[3]: جعلكم أمة خالفة لمن قبلها، قال قتادة: خلفاً بعد خلف، وقرناً بعد قرن، والخلف هو التالي للمتقدم، وقيل: جعلكم خلفاءه في أرضه.

والخلائف[4]: جمع خليفة، وأما خلفاء فجمع خليف، كما سيأتي، وكلاهما بمعنى المستخلف؛ أي: جعلكم خلفاء في أرضه ممن كان قبلكم من الأمم،

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) الشوكاني.

(٤) روح البيان.

وأورثكم ما بأيديهم من متاع الدنيا لتشكروه بالتوحيد والطاعة، ومن خلافتهم أن الله تعالى استخلفهم في خلق كثير من الأشياء كالخبز، فإنه تعالى يخلق الحنطة بالاستقلال، والإنسان بخلافته يطحنها ويخبزها، وكالثوب فإنه تعالى يخلق القطن والإنسان بخلافته، يغزله وينسج منه الثوب، وهلمّ جراً؛ أي[1]: هو الذي ألقى إليكم مقاليد التصرّف، والانتفاع بما في الأرض لتشكروه بالتوحيد والطاعة. ﴿فَمَن كَفَرَ﴾ منكم نعمة الخلافة بأن يخالف أمر مستخلفه، ولا ينقاد لأحكامه ويتّبع هواه ﴿فَعَلَيْهِ﴾ لا على غيره ﴿كُفْرُهُۥ﴾؛ أي: وبال كفره، وجزاؤه: هو الطرد واللعن والنار، لا يتعدّاه إلى غيره ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾؛ أي: إلا بغضاً وغضباً؛ أي: كلما استمروا في كفرهم أبغضهم ربهم وغضب عليهم ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾؛ أي: نقصاً وهلاكاً؛ أي: وكلما اطمأنّوا إلى كفرهم خسروا أنفسهم يوم القيامة، وحق عليهم هو العذاب، والمعنى. أن الكفر لا ينفع عند الله تعالى؛ حيث لا يزيدهم إلا المقت، ولا ينفعهم في أنفسهم حيث لا يزيدهم إلا الخسار. والتكرير[2]: للتنبيه إلى اقتضاء الكفر لكل من الأمرين القبيحين: البغض، والخسران على سبيل الاستقلال والأصالة، والتنكير للتعظيم؛ أي: مقتاً عظيماً ليس وراءه خزي وصغار، وخساراً عظيماً ليس بعده شرٌّ وتبارٌ، ثم أمره سبحانه أن يوبّخهم ويبكّتهم فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد تبكيتاً لهم: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾؛ أي: أخبروني ﴿شُرَكَآءَكُمُ﴾؛ أي: عن آلهتكم وأصنامكم، والإضافة إليهم؛ حيث لم يقل شركائي؛ لأنهم جعلوهم شركاء الله، وزعموا ذلك من غير أن يكون له أصل ما أصلاً، ﴿ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾؛ أي: تعبدون، ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: حال كونكم متجاوزين دعاء الله وعبادته؛ أي[3]: أخبروني عن الشركاء الذين اتخذتموهم آلهةً وعبدتموهم من دون الله تعالى، وجملة ﴿أَرُونِى﴾ - أي: أخبروني ﴿مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: أيَّ جزءٍ من أجزاء الأرض استبدّوا بخلقه دون الله - بدل من ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ بدل اشتمال، والمعنى: أخبروني عن شركائكم، أروني أيَّ شيء خلقوا من الأرض، وإنما فسّرنا الرؤية بالإخبار؛ لأنّ الرؤية والعلم سبب الإخبار،

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

(٣) الشوكاني.

فاستعمل الإراءة في الإخبار، والمراد من الاستفهام في قوله: ﴿مَاذَا خَلَقُوا۟﴾ الإنكار؛ أي: نفي ذلك، وقيل: إن الفعلان، وهما: أرأيتم وأروني من باب التنازع، وقد أعمل الثاني على ما هو اختيار البصريين، فإن: أرأيتم يطلب: ماذا خلقوا مفعولاً ثانياً، وأروني يطلبه أيضاً معلقاً له.

والمعنى(١): أي أخبروني أيها المشركون عن شركائكم الذين تدعونهم من دون الله من الأصنام والأوثان، أروني أيَّ جزءٍ من الأرض، أو من الأناس والحيوان خلقوا حتى يستحقّوا الإلهية، والشركة.

والخلاصة: أعلمتم هذه الآلهة ما هي، وعلى أيِّ حال هي، فإن كنتم تعلمون أنها عاجزة، فكيف تعبدونها؟ وإن كنتم توهّمتم فيها القدرة، فأروني أثرها؟

﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ أي: بل ألهم شركة مع الله في خلق السموات أو ملكها أو التصرف فيها؛ ليستحقّوا بذلك شركة ذاتية في الألوهية، ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾؛ أي: بل أعطينا الشركاء وأنزلنا عليهم، ويجوز أن يكون الضمير للمشركين، ويكون فيه التفات من الخطاب إلى الغيبة. ﴿كِتَٰبًا﴾ ينطق بأنا اتخذناهم شركاء، ﴿فَهُمْ﴾؛ أي: الشركاء أو المشركون، ﴿عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾؛ أي: على حجة ظاهرة واضحة من ذلك الكتاب بأنّ لهم شركة جعلية.

وقرأ ابن وثاب والأعمش وحمزة وأبو عمرو وابن كثير وحفص وأبان عن عاصم(٢): ﴿عَلَىٰ بَيِّنَتٍ﴾ بالإفراد، وباقي السبعة بالجمع، قال مقاتل: يقول تعالى: هل أعطينا كفار مكة كتاباً فهم على بيان منه بأنّ مع الله شريكاً.

وخلاصة ما تقدم(٣): أخبروني عمّن تعبدونهم من دون الله هل استبدُّوا بخلق شيء من الأرض حتى يعبدوا كعبادة الله، أو لهم شركة معه في خلق السموات، وآتيناهم برهاناً بهذه الشركة.

والخلاصة: أنّ عبادة هؤلاء؛ إما بدليل من العقل، ولا عقل يحكم بعبادة من لا يخلق شيئاً، وإما بدليل من النقل، وإنّا لم نؤت المشركين كتاباً فيه الأمر بعبادة

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

(٣) المراغي.

هؤلاء، وبعد أن نفى ما نفى من الحجج.. أضرب عن ذلك، وبيّن أن الذي حملهم على الشرك هو تقرير السلف للخلف، وإضلال الرؤساء للأتباع، وقولهم لهم: إن هؤلاء شفعاء يشفعون لكم عند الله إذا أنتم عبدتموهم، وإلى هذا أشار بقوله: ﴿بَلْ إِن﴾ نافية؛ أي: ما ﴿يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أنفسهم بالشرك ﴿بَعْضُهُم﴾ وهم الرؤساء والأشراف، ﴿بَعْضًا﴾؛ أي: لبعض، وهم الأتباع، ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾؛ أي: إلا باطلاً لا أصل له، كما يفعله الرؤساء والقادة من المواعيد لأتباعهم؛ أي[1]: ما يعد بعضهم بعضاً إلا غروراً يغرونهم به ويزيّنونه لهم، وهو الأباطيل التي تغرّ، ولا حقيقة لها، وذلك قولهم: إن هذا الآلهة تنفعهم وتقرّبهم إلى الله، وتشفع لهم عنده، وهو تغرير محض، يسفّه بذلك آراءهم، وينبئهم على ذميم أحوالهم وأفعالهم، وخسّة هممهم، ونقصان عقولهم بإعراضهم عن الله، وإقبالهم على ما سواه؛ أي[2]: بل ما يعد الأسلاف للأخلاف، والرؤساء للسفلة في الدنيا بأن شركاءهم تقربهم إلى الله تعالى، وبأنها تشفع لهم في الآخرة، فتضر وتنفع، إلا باطلاً، وقيل: إن الشياطين تعد المشركين بذلك، وقيل: المراد بالوعد الذي يعد بعضهم بعضاً هو أنهم ينصرون على المسلمين ويغلبونهم، فعلى العاقل أن يصحّح التوحيد ويحقّقه، ولا يرى الفاعل والخالق إلا الله سبحانه وتعالى، ولما أبان حقارة الأصنام.. أرشد إلى عظمته تعالى فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى: ﴿يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: يحفظهما ويمنعهما من ﴿أَن تَزُولَا﴾ وتسقطا وتقعا.

أي[3]: إن الله سبحانه يمنع السموات أن تضطرب وتتحرَّك وتنتقل عن أماكنها، فترتفع أو تستخفض، ويمنع الأرض من مثل ذلك، ويحفظهما برباطٍ خاص، وهو ما يسمّيه العلماء نظام الجاذبية، فجميع العوالم من الأرض والقمر والشمس والسيارات الأخرى تجري في مدارات خاصة بهذا النظام الذي وضع لها، ولولا ذلك لتحطّمت هذه الكرات المشاهدة، وزالت عن أماكنها، لكنها به ثبتت في مواضعها، واستقرّت في مداراتها.

﴿وَلَئِن زَالَتَآ﴾؛ أي: وعزتي وجلالي لئن زالت السموات والأرض عن مقرّهما

---

(١) الشوكاني.

(٢) المراح.

(٣) المراغي.

ومركزهما على سبيل الفرض، أو بتخليتهما، كما يكون يوم القيامة، ﴿إِنْ أَمْسَكَهُمَا﴾؛ أي: ما يمسكها ﴿مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِۦٓ﴾ تعالى؛ أي: ما يقدر أحد على إمساكهما وإعادتهما إلى محلهما ومكانهما من بعده تعالى؛ أي: ما يقدر أحد غيره تعالى على ذلك، أو المعنى: وإن أشرفتا على الزوال ما استطاع أحد غيره تعالى أن يمسكهما ويمنعهما عن السقوط.

والخلاصة: أنه لا يقدر على دوامهما وبقائهما على هذا الوضع إلا اللطيف الخبير، ونحو الآية قوله: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾، وقوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾.

وجملة قوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه وتعالى ﴿كَانَ حَلِيمًا﴾ غير معاجل بالعقوبة التي تستوجبها جنايات الكفار حيث أمسكهما، وكانتا جديرتين بأن تهدّا هدّ العظيم كلمة الشرك، ﴿غَفُورًا﴾ لمن رجع عن كلمة الكفر، وقال بالوحدانية، تعليل لما قبلها من إمساكه تعالى للسموات والأرض؛ أي: ومن ثَمَّ حلم على المشركين، وغفر لمن تاب منهم على عظيم جرمهم المقتضي تعجيل العقوبة لهم.

والخلاصة: أنه يحلم وينظر ويؤجل، ولا يعجّل، ويستر ويغفر.

وفي «شرح الأسماء» للإمام الغزالي رحمه الله تعالى: الحليم: هو الذي يشاهد معصية العصاة، ويرى مخالفة الأمر، ثم لا يستفزّه غضب، ولا يعتريه غيظ، ولا يحمله على المسارعة إلى الانتقام مع غاية الاقتدار عجلة وطيش. انتهى. والفرق بين الحليم والصبور: أن المذنب لا يأمن العقوبة في صفة الصبور، كما يأمنها في صفة الحليم؛ يعني: أن الصبور يشعر بأنه يعاقب في الأخرة بخلاف الحليم، كما في «المفاتيح». ولعل هذا بالنسبة إلى المؤمنين دون الكفار، فعلى العاقل أن يتخلَّق بهذا الاسم بأن يصفح عن الجنايات، ويسامح في المعاملات، بل يجازي الإساءة بالإحسان، فإنه من كمالات الإنسان.

واعلم: أنّ التوحيد سبب لنظام العالم بأسره، ألا ترى أنه لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله الله؛ أي: لا يوجد من يوحِّد توحيداً حقيقياً، فإنه إذا انقرض أهل هذا التوحيد، وانتقل الأمر من الظهور إلى البطون.. يزول العالم، وينتقض أجزاؤه؛ لأنه إذاً يكون كجسد بلا روح، والروح إذا فارق الجسد يتسارع إلى الجسد البلى والفساد.

ويروى أنّ آخر مولود في النوع الإنساني يكون بالصّين، فيسري بعد ولادته العقم في الرجال والنساء، ويدعوهم إلى الله تعالى، فلا يجاب في هذه الدعوة، فإذا قبضه الله، وقبض مؤمني زمانه.. وبقي من بقي مثل البهائم، لا يَحِلُّون حلالاً، ولا يحرّمون حراماً، فعليهم تقوم الساعة، وتخرّب الدنيا، وينتقل الأمر إلى الآخرة.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ﴾؛ أي: أقسم وحلف مشركوا مكة، ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ إما منصوب على المصدرية؛ أي: أغلظ أيمانهم وأشدّها وأوكدها، أو مصدر واقع موقع الحال؛ أي: جاهدين ومبالغين في أيمانهم، والجهد بالفتح: بلوغ الغاية في الاجتهاد، وأما بالضم.. فهو الطاقة، والأيمان: جمع يمين، واليمين في الحلف مستعار من اليمين بمعنى اليد اعتباراً بما يفعل المحالف والمعاهد عنده. قال الراغب: أي: حلفوا واجتهدوا في الحلف أن يأتوا به على أبلغ ما في وسعهم. انتهى، وكان أهل الجاهلية يحلفون بآبائهم وبالأصنام وبغير ذلك، وكانوا يحلفون بالله، ويسمّونه جهد اليمين، وعبارة «الصاوي» هنا: وإنما كان الحلف بالله غاية أيمانهم؛ لأنهم كانوا يحلفون بآبائهم وأصنامهم، فإذا أرادوا التأكيد والتشديد.. حلفوا بالله، وهي اليمين المغلّظة، كما قال النابغة:

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيْبَةً وَلَيْسَ وَرَاءَ اللَّهِ لِلْمَرْءِ مَطْلَبُ

أي: كما أن الله تعالى أعلى المطالب، كذلك الحلف به أعلى الأحلاف روي أن قريشاً بلغهم قبل مبعث النبي ﷺ أنَّ أهل الكتاب كذّبوا رسلهم، فقالوا: لعن الله اليهود والنصارى، أتتهم الرسل فكذبوهم، وحلفت قريش: واللهِ ﴿لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾؛ أي: واللهِ لئن جاء قريشاً نبيٌّ منذر مخوّف من عذاب الله ﴿لَيَكُونُنَّ﴾؛ أي: قريش ﴿أَهْدَىٰ﴾؛ أي: أطوع وأصوب ديناً، ﴿مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾؛ أي[1]: من كل من اليهود والنصارى وغيرهم؛ لأن ﴿إِحْدَى﴾ شائعة، والأمم جمع، فليس المراد إحدى الأمتين اليهود والنصارى فقط، ولم يقل من الأمم بدون إحدى؛ لأنه لو قال لجاز أن يراد بعض الأمم وأنّث ﴿إِحْدَى﴾ لكون أمة مؤنثة.

والمعنى[2]: أي وأقسم المشركون بالله أغلظ الأيمان، وبالغوا فيها أشد

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

المبالغة، لئن جاءهم من الله رسول ينذرهم بأسه.. ليكوننّ أسلك لطريق الحق، وأشد قبولاً له من أيِّ أمة من الأمم التي قد خلت من قبلهم، أو المعنى: فواللهِ لئن أتانا رسول لنكوننّ أهدى من إحدى الأمم؛ أي: من الأمة التي يقال فيها هي إحدى الأمم تفضيلاً لها على غيرها في الهدى والاستقامة، كما يقال للدّاهية العظيمة: هي إحدى الدواهي.

والخلاصة: من إحدى الأمم على العموم، أو من الأمة التي يقال لها: إحدى الأمم تفضيلاً لها، ولا ينافي عموم ما هنا قوله في أواخر سورة الأنعام: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾؛ أي: اليهود والنصارى، ثم قوله: ﴿أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾؛ أي: إلى الحق؛ لأن[1] تخصيص الطائفتين وكتابيهما هناك إنما هو لاشتهارهما بين الأمم، واشتهارهما فيما بين الكتب السماوية.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾؛ أي: نذير أفضل الكل، وأشرف الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، ﴿مَّا زَادَهُمْ﴾؛ أي: ما زاد قريشاً ذلك النذير أو مجيئه. ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾؛ أي: إلا تباعداً عن الحق والهدى، وهرباً منه، وفيه إشعار بأن[2] المثبت أصل النفور؛ لكونهم جاهليّة لم يأتهم نذير من عهد إسماعيل، وإسناد الزيادة إليه مجاز؛ لأنه هو السبب في أن زادوا في أنفسهم نفوراً. ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بدل من ﴿نُفُورًا﴾، أو مفعول له؛ أي: ما زادهم إلا عتوّاً وتكبّراً عن الإيمان به، أو ما زاداهم إلا نفوراً لأجل الاستكبار والعتوّ، قال في «بحر العلوم»: الاستكبار والتكبّر، كالاستعظام والتعظّم لفظاً ومعنى. انتهى. قال بعضهم: إن الله تعالى قد أنشأك من الأرض، فلا ينبغي لك أن تعلو على أمك، ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ معطوف على ﴿ٱسْتِكْبَارًا﴾، أو على ﴿نُفُورًا﴾، وهو من إضافة الموصوف إلى صفته، كمسجد الجامع، وصلاة الأولى، وأصله: أن مكروا المكر السيء، فحذف الموصوف استغناء بوصفه، ثم بدل أن مع الفعل بالمصدر، ثم أضيف اتساعاً، وقال الراغب: المكر: صرف الغير عما يقصده بحيلة، وذلك ضربان: محمود، وهو أن يتحرَّى بذلك فعل جميل، وعلى ذلك قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾، ومذموم، وهو

---

(١) روح البيان.
(٢) الصاوي.

أن يتحرّى به فعل قبيح. انتهى. ومنه ما في هذه الآية، ولذا وُصف بالسيء.

والمعنى: ما زادهم إلا المكر السيىء في دفع أمره ﷺ، وفي قتله وإهلاكه، ومعنى الآية؛ أي[1]: ولكن حين جاءهم الرسول انعكست الآية، فما زادهم مجيئه إلا بعداً عن الإيمان بالله، وانصرافاً عن الحق، واستكباراً عن اتباع آياته، ومكروا بالناس مكراً سيئاً، فصدّوهم عن سبيله.

والخلاصة: أنه قد تبين أن لا عهد لهم مع ادّعائهم أنهم أوفى الناس، ولا صدق لهم مع جزمهم بأنهم أصدق الخلق، وصار مثلهم مثل الإبل التي نفرت من ربها فضلت عن الطريق، فدعاها صاحبها، فازدادت بدعائه نفرة، وصارت بحيث يتعذّر أو يتعسّر ردّها.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ﴾ بكسر همزة السيىء، وقرأ الأعمش وحمزة بإسكانها وصلاً، فإما إجراءً للوصل مجرى الوقف، وإما إسكاناً لتوالي الحركات، وإجراءً للمنفصل مجرى المتّصل، وقد غلّط كثير من النحاة هذه القراءة؛ ونزّهوا الأعمش على جلالته أن يقرأ بها، قالوا: وإنما يقف بالسكون، فغلط من روى عنه أنه كان يقرأ بالسكون وصلاً، وتوجيه هذه القراءة ممكن بأن من قرأ بها أجرى الوصل مجرى الوقف، كما في قول الشاعر:

فَٱلْيَوْمَ أَشْرَبْ غَيْرَ مُسْتَحْقِبِ ... إِثْماً مِنَ ٱللَّهِ وَلاَ وَاغِلِ

بسكون الباء من أشرب، ومثله قراءة من قرأ: ﴿وما يشعرْكم﴾ بسكون الراء، ومثل ذلك قراءة أبي عمرو: ﴿إلى بارئكم﴾ بسكون الهمزة، وغير ذلك كثير في كلامهم، قال أبو على الفارسي: هذا على إجراء الوصل مجرى الوقف، وروي عن ابن كثير: ﴿ومكر السئْي﴾ بهمزة ساكنة بعد السين وياء بعدها مكسورة، وهو مقلوب السيء المخفّف من السيىء، كما قال الشاعر:

وَلاَ يُجْزُوْنَ مِنْ حَسَنٍ بِسَئْيٍ ... وَلاَ يُجْزُوْنَ مِنْ غِلْظٍ بِلِيْنِ

وقرأ ابن مسعود: ﴿ومكراً سيئاً﴾ عطف نكرة على نكرة، ثم بيّن أن عاقبة مكرهم عادت عليهم بالوبال بقوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ﴾؛ أي: لا يحيط، ﴿ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ﴾

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط والشوكاني.

ولا ينزل وباله. ﴿إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ وهو الماكر، وقد حاق بهم يوم بدر؛ أي: ولا يعود وبال ذلك إلا عليهم أنفسهم دون غيرهم، وقُرىء[1]: ﴿يُحِيقُ﴾ بضم الياء ﴿المكرَ السيءَ﴾ بالنصب؛ أي: ولا يحيق الله المكر السيىء إلا بأهله، روي الزهري أن النبي ﷺ قال: «لا تمكروا ولا تعينوا ماكراً، فإن الله يقول: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾، ولا تبغوا، ولا تعينوا باغياً، فإن الله سبحانه يقول ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾، ولا تنكثوا، ولا تعينوا ناكثاً، فإن الله يقول: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾».

وقد وقع مثل هذا في كلام العرب، فقد قالوا: من حفر لأخيه جباً وقع فيه منكباً والعبرة في الأمور بالعواقب. ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾.

قال أبو عبد الله الرازي: فإن قلت[2]: كثيراً ما نرى الماكر يفيده مكره، ويغلب خصمه بالمكر، والآية تدل على عدم ذلك؟

فالجواب: من وجوه:

أحدها: أنّ المكر في الآية هو المكر بالرسول ﷺ من العزم على القتل والإخراج، ولا يحيق إلا بهم؛ حيث قتلوا ببدر.

وثانيها: أنه عام، وهو الأصح، فإنه صلى الله عليه وسلم نهى عن المكر، وقال: «لا تمكروا، ولا تعينوا ماكراً، فإنه تعالى يقول: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾» فعلى هذا يكون ذلك الممكور به أهلاً، فلا يريد نقضاً.

وثالثها: أن الأمور بعواقبها، ومن مكر به غيره ونفذ فيه المكر عاجلاً في الظاهر، ففي الحقيقة هو الفائز، والماكر هو الهالك. انتهى.

ثم هدّدهم بأن يحل بهم مثل ما أحلّ بمن قبلهم من العذاب فقال: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾ النظر هنا بمعنى الانتظار، والاستفهام فيه إنكاريّ؛ أي: ما ينتظر هؤلاء المشركون، ﴿إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ أي: إلا عادة الله سبحانه في الأولين؛ أي: في الأمم المتقدّمة بتعذيب مكذّبيهم وما كريهم؛ بأن ينزل بهؤلاء العذاب، كما نزل بأولئك. والفاء في قوله: ﴿فَلَن﴾ لتعليل[3] ما يفيده الحكم بانتظارهم العذاب من

---

(١) البحر المحيط.

(٢) الفخر الرازي.

مجيئه، فجعل استقبالهم لذلك انتظاراً له منهم؛ أي: فهل ينتظر هؤلاء المشركون من قومك بعد تكذيبك إلا أن أنزل بهم من العذاب على شركهم بي وتكذيبهم رسولي، مثل ما أنزلت بمن قبلهم من أمثالهم الذين كذَّبوا رسلهم؛ لأنه لن ﴿تَجِدَ﴾ أيها المخاطب، أو يا محمد ﴿لِسُنَّتِ اللَّهِ﴾ سبحانه، وعادته في تعذيب الأمم المكذّبة. ﴿تَبْدِيلًا﴾؛ أي: تغييراً بأن يضع موضع العذاب الرحمة والعفو، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾؛ أي: نقلاً عن المستحق إلى غيره؛ بأن ينقله من المكذبين إلى غيرهم؛ أي: وهذه سنة الله في كل مكذب، فلا تغيّر ولا تبدّل، ولن يجعل الرحمة موضع العذاب، ولن يحوّل العذاب من نفس إلى أخرى، كما قال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ ونفي وجدان التبديل والتحويل عبارة عن نفي وجودهما بالطريق البرهاني، وتخصيص كل منهما بنفي مستقل لتأكيد انتفائهما.

وفي «الفتوحات»: إن قلت[1]: التبديل: تغيير الشيء عمّا كان عليه مع بقاء مادّته، والتحويل: نقله من مكان إلى آخر، فكيف قال ذلك مع أنّ سنة الله لا تبدّل ولا تحوّل؟

قلتُ: أراد بالأول أنّ العذاب لا يبدّل بغيره، وبالثاني أنه لايحوّل عن مستحقّه إلى غيره، وجمع بينهما هنا تتميماً لتهديد المسيىء؛ لقبح مكره في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ اهـ «كرخي».

وفي الآية[2] تنبيه على أنّ فروع الشرائع وإن اختلفت صورها، فالغرض المقصود منها لا يختلف ولا يتبدّل، وهو تطهير النفس وترشيحها للوصول إلى ثواب الله تعالى وجواره، كما في «المفردات». والهمزة في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ للاستفهام الإنكاري، أو التقريري، وهو الظاهر من دخول همزة الاستفهام على حرف النفي، وعبارة «الصاوي» هنا: والاستفهام الإنكاري بمعنى النفي، ونفي النفي: إثبات.

والمعنى: بل ساروا في الأرض، ومرَّوا على ديار قوم صالح وقوم لوط وقوم شعيب وغيره، فنظروا آثار ديارهم. انتهى. وهي داخلة على محذوف يقتضيه

---

(١) روح البيان.
(٢) الفتوحات.
(٣) روح البيان.

السياق، والواو عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أقعد مشركوا مكة في مساكنهم، ولم يسيروا، ولم يذهبوا في نواحي الأرض إلى جانب الشام واليمن والعراق للتجارة. ﴿فَيَنظُرُواْ﴾ ويعرفوا بمشاهدة آثار ديار الأمم الماضية العاتية، ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ﴾ كانوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: على أي حالة كان أخذهم، فإنهم هلكوا، لما كذبوا الرسل، وآثار هلاكهم باقية في ديارهم ﴿وَكَانُوٓاْ﴾؛ أي: والحال أنّ الذين من قبلهم كعاد وثمود وسبأ كانوا ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾، وأطول منهم أعماراً، وأكثر منهم أموالاً، فما نفعهم طول المدى، وما أغنى عنهم شدة القوى، وكثرة الغنى، وتقدم الكلام على نظير هذه الجملة في سورة الروم، وهناك قال: ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ استئناف إخبار عما كانوا عليه، وهنا قال: وكانوا؛ أي: وقد كانوا، فالجملة حال، فهما مقصدان ذكره أبو حيان.

وهذه الجملة مسوقة[1] لتقرير معنى ما قبلها، وتأكيده؛ أي: أقعدوا ولم يسيروا في الأرض، فينظروا ما أنزلنا بعاد وثمود ومدين وأمثالهم من العذاب لما كذبوا الرسل، فإن ذلك هو من سنة الله في المكذبين التي لا تبدل ولا تحول، وآثار عذابهم، وما أنزل الله بهم موجودةٌ في مساكنهم، ظاهرة في منازلهم، والحال وآثار أولئك قد كانوا أشد منهم قوة جسم، وأطول أعماراً، وأكثر أموالاً، وأكبر أبداناً.

والخلاصة: أقعد هؤلاء المشركون بالله في مساكنهم، ولم يسيروا في الأرض التي أهلكنا فيها أهلها بكفرهم بنا، وتكذيبهم رسلنا أثناء رحلاتهم التي يسلكونها إلى طريق الشام في تجاراتهم، فينظروا على أي حالة كان أخذهم، ألم نهلكهم ونخرب مساكنهم، ونجعلهم مثلاً لمن بعدهم، فيتعظوا لهم، ويزدجروا عما هم عليه من الشرك بعبادتهم الآلهة من الأوثان والأصنام.

ثم بين أنهم إذا صاروا على تمردهم وعنادهم.. فهم لا يفلتون من عقابه، فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ﴾ تقرير لما يفهم مما قبله من استئصال الأمم السابقة، واللام[2] و﴿من﴾ لتأكيد النفي المستفاد من ﴿ما﴾ والمعنى: استحال من كل الوجوه أن يعجز الله سبحانه شيء ويسبقه ويفوته ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا﴾ تأكيد آخر لـ﴿ما﴾ النافية، ففي الكلام ثلاث تأكيدات ﴿في الأرض﴾؛ أي: ما كان ليسبقه

---

(١) الشوكاني. (٢) روح البيان.

ويفوته شيء من الأشياء كائناً ما كان فيهما، ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه، ﴿كَانَ عَلِيمًا﴾؛ أي: بليغ العلم بكل شيء في العالم مما وجد ويوجد ﴿قديراً﴾؛ أي: بليغ القدرة على كل ممكن، ولذلك علم بجميع أعمالهم السيئة، فعاقبهم بموجبها، فمن كان قادراً على معاقبة من قبلهم كان قادراً على معاقبتهم إذا كانت أعمالهم مثل أعمالهم، أي: إنه تعالى عليم بمن يستحق أن تعجل له العقوبة، ومن قد تاب وأناب إلى ربه، ورجع عن ضلالته، قدير على الانتقام ممن شاء منهم، وعلى توفيق من أراد بالإيمان.

والإشارة في الآية أنه ما خاب له تعالى وليٌ، ولا ربح له عدوٌ فقد وسع لأوليائه فضلاً كثيراً، ودمرَّ على أعدائه تدميراً، وسبب الفضل والولاية هو التوحيد، كما أن سبب القهر والعداوة هو الشرك، وأن الله تعالى أمهل عباده، ولم يأخذهم بغتة، ليروا أن العفو والإحسان أحب إليه من الأخذ والانتقام، وليعلموا شفقته وبره وكرمه، وأن رحمته سبقت غضبه. ولما كان المشركون يستعجلون بالوعيد استهزاء، فيقولون: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ...﴾ بيَّن أنه لا يعاجلهم بالعقوبة على ما كسبوا لعلّهم يُنيبون أو ينيب بعضهم إلى ربه، ويؤوب إلى رشده فقال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ﴾ سبحانه ﴿ٱلنَّاسَ﴾ جميعاً، ويعاقبهم ﴿بِمَا كَسَبُوا۟﴾ من الذنوب، وعملوا من الخطايا، ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾؛ أي: على ظهر الأرض ووجهها، والكناية راجعة إلى الأرض، وإن لم يسبق لها ذكر؛ لكونها مفهومة من المقام، وقال أبو حيان: وتقدَّم الكلام على نظير هذه الآية في سورة النحل، وقال هناك: ﴿عَلَيْهَا﴾، وهنا قال: ﴿عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾، والضمير عائد على الأرض، إلا أن هناك يدل عليه سياق الكلام، وهنا يمكن أن يعود على ملفوظ به، وهو قوله: ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، وقال هناك: ﴿بِظُلْمِهِم﴾ وقال هنا: ﴿بِمَا كَسَبُوا۟﴾ انتهى. وفي «الجمل» وهنا قال: ﴿عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾ استعارة من ظهر الدابة دلالة على التمكن والتقلب عليها، والمقام هنا يناسب ذلك؛ لأنه حث على السير للنظر والاعتبار، والله سبحانه وتعالى أعلم بأسرار كتابه.

فإن قيل: كيف يقال لما عليه الخلق وجه الأرض وظهر الأرض، مع أن الظهر مقابل الوجه، فهو من قبيل إطلاق الضدين على شيء واحد؟.

قلتُ: صح ذلك باعتبارين: فإنه يقال لظاهرها: ظهر الأرض من حيث أن

الأرض كالدابة الحاملة الأثقال، ويقال له: وجه الأرض؛ لكون الظاهر منها كالوجه للحيوان، وأن غيره كالبطن، وهو الباطن منها اهـ «زاده».

﴿مِن دَآبَّةٍ﴾؛ أي: من نسمة تدب عليها كائنة ما كانت، سواء كانت من بني آدم؛ لأنهم المكلفون المجازون، ويعضده ما بعد الآية، أو من غيرهم أيضاً، فإن شؤم معاصي المكلفين يلحق الدواب في الصحارىٰ، والطيور في الهواء بالقحط ونحوه، ولذا يقال من أذنب ذنباً، فجميع الخلق ـ من الإنس والدواب والوحوش والطيور والذر ـ خصماؤه يوم القيامة، وقد أهلك الله في زمان نوح عليه السلام جميع الحيوانات إلا ما كان منها في السفينة، وذلك بشؤم المشركين وسببهم، وقال بعض الأئمة: ليس معناه أن البهيمة تؤخذ بذنب ابن آدم، ولكنها خلقت لابن آدم، فلا معنى لإبقائها بعد إفناء من خلقت له.

والمعنى: أي ولو يعاقب الله الناس ويكافئهم بما عملوا من الذنوب واجترحوا من الآثام.. ما ترك على ظهر الأرض نسمة تدب؛ لشؤم المعاصي التي يفتنون فيها: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ﴾؛ أي: يؤخر عقابهم ومؤاخذتهم بما كسبوا ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ أي: إلى وقت معين معلوم عند الله تعالى، حدده لأخذهم، لا يقصرون دونه، ولا يتجاوزونه إذا بلغوه، فللعذاب أجل، والله لا يؤاخذ الناس بنفس الظلم، فإن الإنسان ظلوم جهول، وإنما يؤاخذ بالإصرار على المعاصي، وحصول يأس الناس عن إيمانهم، فإذا لم يبق فيهم من يؤمن يهلك الله المكذبين، ولو أخذهم بنفس الظلم.. لكان كل يوم إهلاك ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾؛ أي: وقت هلاكهم، وأخذهم، ومجازاتهم، وهو يوم القيامة، أو يوم لا يوجد في الخلق من يؤمن، أو يوم القتل والأسر ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه وتعالى يجازيهم بما عملوا من خير أو شر؛ لأن الله تعالى ﴿كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ لا يخفى عليه شيء من أمرهم، دقَّ أو جل، ظهر أو بطن. وجملة ﴿إن﴾ تعليل للجواب المحذوف، كما قدرناه، وهو العامل في إذا، لا جاء، كما توهّمه الشوكاني؛ لأن القاعدة عندهم: أن إذا خافضة لشرطها منصوبة بجوابها.

ثم إن البصير هو المدرك لكل موجود برؤيته، وخاصية هذا الاسم وجودز التوفيق عند ذكره، فمن قرأه قبل صلاة الجمعة مئة مرة فتح الله بصيرته، ووفقه لصالح القول والعمل، نسأل الله سبحانه أن يفتح بصيرتنا إلى جانب اللاهوت،

ويأخذنا عن التعلق بعالم الناسوت، ويختمنا بالخير، ويجعلنا ممن أتاه بقلب سليم.

الإعراب

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾.

﴿وَالَّذِينَ﴾ ﴿الواو﴾: عاطفة، ﴿الذين﴾ مبتدأ، وجملة ﴿كَفَرُوا﴾ صلة له، ﴿لَهُمْ﴾: خبر مقدم ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل الرفع خبر ﴿الذين﴾، وجملة ﴿الذين﴾ معطوفة على قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ ﴿لَا﴾: نافية ﴿يُقْضَىٰ﴾: فعل مضارع مغيَّر الصيغة ﴿عَلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿يُقْضَىٰ﴾، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ثانٍ للموصول، أو حال من ضمير ﴿لَهُمْ﴾ ﴿فَيَمُوتُوا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة سببية ﴿يموتوا﴾: فعل مضارع، وفاعل منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد الفاء السببية الواقعة في جواب النفي، وعلامة نصبه حذف النون، والجملة مع أن المضمرة في تأويل مصدر معطوف على مصدر متصيد من الجملة التي قبلها من غير سابك لإصلاح المعنى، تقديره: لا يكون قضاء عليهم، فموتهم، ﴿وَلَا يُخَفَّفُ﴾: ﴿الواو﴾ عاطفة ﴿لا﴾: نافية ﴿يُخَفَّفُ﴾ فعل مضارع مغيَّر الصيغة ﴿عَنْهُمْ﴾: جار ومجرور نائب فاعل لـ﴿يُخَفَّفُ﴾ ﴿مِّنْ عَذَابِهَا﴾: متعلق بـ﴿يخفف﴾، ويجوز العكس، والجملة الفعلية معطوفة على جملة ﴿يُقْضَىٰ﴾، ﴿كَذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور صفة لمصدر محذوف ﴿نَجْزِي﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على الله ﴿كُلَّ كَفُورٍ﴾: مفعول به، والتقدير: نجزي كل كفور جزاء كائناً كالجزاء المذكور، والجملة الفعلية مستأنفة. ﴿وَهُمْ﴾: ﴿الواو﴾: حالية، ﴿هم﴾: مبتدأ، وجملة ﴿يَصْطَرِخُونَ﴾؛ خبره، والجملة الاسمية في محل النصب حال من ضمير ﴿لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾، ﴿فِيهَا﴾؛ متعلق بـ﴿يَصْطَرِخُونَ﴾ ﴿رَبَّنَا﴾؛ منادى مضاف، وجملة النداء مقول لقول محذوف وقع تفسيراً لـ﴿يَصْطَرِخُونَ﴾ تقديره؛ وهم يصطرخون فيها يقولون في صراخهم؛ ربنا إلخ، ﴿أَخْرِجْنَا﴾: فعل أمر، معناه الدعاء، وفاعله ضمير مستتر يعود على الله، و﴿نا﴾: مفعول به، والجملة في محل النصب مقول لذلك القول المحذوف على كونها

جواب النداء، ﴿نَعْمَلْ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر مجزوم بالطلب السابق، والجملة في محل النصب مقول القول على كونها جواب الطلب ﴿صَٰلِحًا﴾: صفة أولى لمصدر محذوف؛ أي: عملاً صالحاً، أو لمفعول به محذوف؛ أي: شيئاً صالحاً ﴿غَيْرَ﴾: صفة ثانية على كلا التقديرين، وصحَّ الوصف به مع كونه مضافاً إلى المعرفة لعدم تعرفه بالإضافة؛ لأنه من الأسماء المتوغلة في الإبهام ﴿غَيْرَ﴾ مضاف، ﴿ٱلَّذِى﴾: مضاف إليه ﴿كُنَّا﴾: فعل ناقص واسمه، وجملة ﴿نَعْمَلْ﴾ خبر ﴿كان﴾، وجملة ﴿كان﴾ صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: كنا نعمله

﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التقريري لدخولها على حرف النفي داخلة على محذوف، و﴿الواو﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: ألم نمهلكم ولم نعمركم، بل أمهلناكم وعمرناكم، والجملة المحذوفة مقول لقول محذوف تقديره: فيقال لهم: ألم نمهلكم ولم نعمركم، والقول المحذوف معطوف على القول المحذوف عند قوله: ﴿رَبَّنَا﴾ ﴿لم نعمركم﴾: ﴿لم﴾: حرف جزم ﴿نُعَمِّرْكُم﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به، مجزوم بـ﴿لم﴾، والجملة معطوفة على الجملة المحذوفة ﴿ما﴾: نكرة موصوفة بمعنى عمراً أو زمناً في محل النصب مفعول ثانٍ لـ﴿نُعَمِّرْكُم﴾، أو ظرف متعلق به ﴿يَتَذَكَّرُ﴾: فعل مضارع ﴿فِيهِ﴾: متعلق به، ﴿مَن﴾: اسم موصول في محل الرفع فاعل لـ﴿يَتَذَكَّرُ﴾، وجملة ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ صفة لـ﴿ما﴾ ﴿تذكر﴾: فعل ماضٍ وفاعل مستتر صلة لـ﴿مَن﴾ الموصولة، ﴿وَجَآءَكُمُ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿جاءكم﴾: فعل ومفعول. ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ فعل ماضٍ ومفعول به وفاعل معطوف على قوله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾؛ لأن معناه إخبار لكون الاستفهام فيه تقريرياً؛ أي: قد أمهلناكم وعمرناكم وجاءكم النذير، فلا عذر لكم، ﴿فَذُوقُوا۟﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم تعميرنا إياكم، ومجيء النذير لكم، وأردتم بيان ما هو المستحق لكم.. فأقول لكم: ذوقوا. ﴿ذوقوا﴾: فعل أمر وفاعل مبني على حذف النون، والمفعول محذوف تقديره: فذوقوا نار جهنم، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مقول للقول

المحذوف ﴿فَمَا﴾: ﴿الفاء﴾: تعليلية ﴿ما﴾ نافية ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾: خبر مقدم ﴿مِن﴾: زائدة ﴿نَّصِيرٍ﴾: مبتدأ مؤخر، ويجوز أن تكون ﴿ما﴾ حجازية عند من يجوّز تقديم خبرها على اسمها، إذا كان ظرفاً، والجملة الاسمية في محل النصب مقول للقول المحذوف على كونها معلّلة للأمر بالذوق.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٣٨) هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ۖ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا (٣٩)﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ﴾: ناصب واسمه ﴿عَالِمُ﴾ خبره ﴿غَيْبِ السَّمَاوَاتِ﴾: مضاف إليه ﴿وَالْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿السَّمَاوَاتِ﴾، والجملة مستأنفة ﴿إِنَّهُ﴾ ناصب واسمه ﴿عَلِيمٌ﴾: خبره ﴿بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾: متعلق به، وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها من علمه غيب السموات والأرض. ﴿هُوَ الَّذِي﴾ مبتدأ وخبر، والجملة مستأنفة ﴿جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ﴾: فعل ماضٍ، وفاعل مستتر، ومفعولان، والجملة صلة الموصول ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: متعلق بـ﴿خَلَائِفَ﴾، أو صفة له ﴿فَمَن﴾: ﴿الفاء﴾ فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم جعلنا إياكم خلائف في الأرض، وأردتم بيان عاقبتكم، فأقول لكم: ﴿من﴾: اسم شرط جازم، في محل الرفع مبتدأ، والخبر جملة الشرط، أو الجواب، أو هما ﴿كَفَرَ﴾: فعل ماضٍ في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ على كونه فعل شرط لها، فاعله ضمير يعود على ﴿مَن﴾ الشرطية ﴿فَعَلَيْهِ﴾: ﴿الفاء﴾: رابطة الجواب وجوباً ﴿عليه﴾: خبر مقدم ﴿كُفْرُهُ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل الجزم بـ﴿مَن﴾ الشرطية على كونها جواباً لها، وجملة ﴿مَن﴾ الشرطية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة ﴿وَلَا يَزِيدُ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿لَا﴾: نافية ﴿يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ﴾: فعل مضارع ومفعول به، وفاعل ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾: ظرف متعلق بمحذوف حال من ﴿الْكَافِرِينَ﴾ ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿مَقْتًا﴾: مفعول ثانٍ لـ﴿يَزِيدُ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿مَن﴾ الشرطية ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ﴾: فعل ومفعول أول وفاعل، ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر ﴿خَسَارًا﴾: مفعول ثانٍ، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها، وكررت للتوكيد، ولزيادة التقرير على رسوخ الكفر في نفوسهم، واقتضاء الكفر لكل واحد من الأمرين الهائلين، وهما: المقت والخسار.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة مستأنفة ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾: فعل وفاعل، ورأى هنا بصرية تتعدى لمفعول واحد بلا همز، ولاثنين بالهمز، كما هنا، وهي بمعنى: أخبروني ﴿شُرَكَآءَكُمُ﴾: مفعول أول لأرى، والجملة في محل النصب مقول لـ﴿قُلْ﴾: صفة لـ﴿شُرَكَآءَكُمُ﴾ ﴿تَدْعُونَ﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: تدعونهم ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: جار ومجرور حال من فاعل ﴿تَدْعُونَ﴾ ﴿أَرُونِى﴾: فعل أمر وفاعل ونون وقاية ومفعول أول، والجملة معترضة، وأعربها الزمخشري بدلاً من ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ ﴿مَاذَا﴾: اسم استفهام مركب في محل الرفع مبتدأ، وجملة ﴿خَلَقُوا۟﴾ خبره؛ أي: أي شيء خلقوه، أو ﴿ما﴾ اسم استفهام مبتدأ، ﴿ذا﴾ اسم موصول بمعنى الذي في محل الرفع خبر لـ﴿ما﴾، وجملة ﴿خَلَقُوا۟﴾ صلة لذا الموصولة؛ أي: ما الذي خلقوه، والاستفهام فيه إنكاري ﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق بـ﴿خَلَقُوا۟﴾، والجملة الاستفهامية في محل النصب مفعول ثانٍ؛ إما لـ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾، وإما لـ﴿أَرُونِى﴾، فالمسألة من باب التنازع، أو مفعول ثانٍ لـ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ وجملة ﴿أَرُونِى﴾ اعتراضية ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ﴾: ﴿أَمْ﴾: منقطعة بمعنى بل الإضرابية، وهمزة الاستفهام الإنكاري أضرب بها عن الاستفهام الإنكاري إلى استفهام آخر ﴿لَهُمْ﴾: خبر مقدم ﴿شِرْكٌ﴾: مبتدأ مؤخر ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: متعلق بـ﴿شِرْكٌ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على جملة ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾: ﴿أَمْ﴾: منقطعة أيضاً تفسر ببل، وهمزة الاستفهام ﴿ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾: فعل وفاعل ومفعول أول، ﴿كِتَٰبًا﴾: مفعول ثانٍ، والجملة الإضرابية في محل النصب معطوفة على ما قبلها ﴿فَهُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿هم﴾: مبتدأ ﴿عَلَىٰ بَيِّنَتٍ﴾ خبره ﴿مِّنْهُ﴾: صفة لـ﴿بَيِّنَتٍ﴾، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ ﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: ﴿بَلْ﴾: حرف إضراب وابتداء ﴿إِنْ﴾: نافية ﴿يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، أو في محل النصب مقول لـ﴿قُلْ﴾ ﴿بَعْضُهُم﴾: بدل من ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بدل بعض من كل ﴿بَعْضًا﴾: مفعول به لـ﴿يَعِدُ﴾ ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء مفرغ ﴿غُرُورًا﴾: مفعول ثانٍ لـ﴿يَعِدُ﴾، أو منصوب بنزع الخافض؛ أي: إلا بغرور، أو صفة لمصدر محذوف، أي: إلا وعداً باطلاً.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: خبره، والجملة مستأنفة ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ﴿أنْ﴾: حرف نصب ومصدر ﴿تَزُولَاۚ﴾: فعل وفاعل منصوب بـ﴿أنْ﴾ المصدرية، وجملة ﴿أنْ﴾ المصدرية مع ما في حيزها في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض، أي: عن زوالها، الجار والمجرور متعلق بـ﴿يُمْسِكُ﴾؛ لأنه بمعنى يمنع ويحفظ، أو منصوب على أنه بدل اشتمال من ﴿السماوات﴾ ﴿وَلَئِن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة واللام موطئة للقسم ﴿أنْ﴾: حرف شرط جازم ﴿زَالَتَآ﴾: فعل وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونها فعل شرط لها ﴿إنْ﴾ نافية ﴿أَمْسَكَهُمَا﴾: فعل ماض ومفعول به ﴿مِن﴾: زائدة ﴿أَحَدٍ﴾: فاعل ﴿أمسك﴾ ﴿مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾: جار ومجرور حال من أحد، أو صفة له، وعلى هذا يكون المعنى أحد غيره تعالى، وجملة ﴿إِنْ أَمْسَكَهُمَا﴾ جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم معطوفة على جملة قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، وجواب ﴿إن﴾ الشرطية محذوف دلّ عليه جواب القسم على حد قول ابن مالك:

وَاحْذِفْ لَدَىٰ اجْتِمَاعِ شَرْطٍ وقَسَم   جَوابَ ما أَخَّرْتَ فَهُوْ مُلْتَزَم

وجملة ﴿إن﴾ الشرطية جملة معترضة لا محل لها من الإعراب لاعتراضها بين القسم وجوابه. ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها ضمير يعود على الله ﴿حَلِيمًا﴾: خبر أول لها ﴿غَفُورًا﴾: خبر ثان لها، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾ وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾﴾.

﴿وَأَقْسَمُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿أقسموا﴾ ﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾: منصوب على المصدرية، أو على الحال؛ أي: جاهدين ﴿لئن﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿إن﴾: حرف شرط جازم ﴿جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾: فعل ومفعول وفاعل في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها﴿لَّيَكُونُنَّ﴾:

﴿اللام﴾: موطئة للقسم مؤكدة للأولى ﴿يكونن﴾: فعل مضارع ناقص مرفوع لعدم اتصاله بنون التوكيد لتجرده عن الناصب والجازم، وعلامة رفعه ثبات النون المحذوفة لتوالي الأمثال، و﴿الواو﴾ المحذوفة لالتقاء الساكنين في محل الرفع اسمها، ونون التوكيد حرف لا محل لها من الإعراب، أصله: ليكونونن، كما سيأتي ﴿أَهْدَىٰ﴾: خبر ﴿يكون﴾ ﴿مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه متعلق بـ﴿أَهْدَىٰ﴾، وجملة ﴿يكون﴾ جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم مقول لقول محذوف، تقديره: وأقسموا بالله جهد أيمانهم قائلين لئن جاءهم نذير، وجواب ﴿إن﴾ الشرطية محذوف تقديره: إن جاءهم نذير يكونوا أهدى من إحدى الأمم، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية معترضة بين القسم وجوابه ﴿فَلَمَّا﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿لما﴾: حرف شرط غير جازم ﴿جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾: فعل ومفعول وفاعل، والجملة فعل شرط لـ﴿لمّا﴾ لا محل لها من الإعراب ﴿ما﴾: نافية ﴿زَادَهُمْ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على ﴿نَذِيرٌ﴾ ومفعول به أول ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر، ﴿نُفُورًا﴾: مفعول ثانٍ لزاد، والجملة الفعلية جواب ﴿لمّا﴾ لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لمّا﴾ معطوفة على جملة قوله: وأقسموا.

﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾.

﴿ٱسْتِكْبَارًا﴾: مفعول لأجله؛ أي: لأجل الاستكبار، أو بدل من ﴿نُفُورًا﴾، أو حال من مفعول ﴿زَادَهُمْ﴾، أي: حال كونهم مستكبرين ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ متعلق بـ﴿ٱسْتِكْبَارًا﴾ ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾: معطوف على ﴿ٱسْتِكْبَارًا﴾، أو على ﴿نفوراً﴾، وهو من إضافة الموصوف إلى صفته، والأصل: المكر السيء أو أن هناك موصوفاً محذوفاً؛ أي: مكر العمل السيء ﴿وَلَا يَحِيقُ﴾ ﴿الواو﴾: حالية ﴿لا﴾: نافية ﴿يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ﴾: فعل وفاعل ﴿ٱلسَّيِّئُ﴾ صفته ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر، ﴿بِأَهْلِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿يَحِيقُ﴾، والجملة في محل النصب حال من مكر السيء أو مستأنفة.

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾.

﴿فَهَلْ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفت هؤلاء المشركين، وأردت بيان عاقبتهم.. فأقول لك: هل

ينظرون ﴿هل﴾: حرف للاستفهام الإنكاري ﴿يَنظُرُونَ﴾: فعل وفاعل ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر، ﴿سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: مفعول به، وهو مصدر مضاف إلى مفعوله؛ أي: سنة الله في الأولين، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة ﴿فَلَن﴾: ﴿الفاء﴾: تعليلية ﴿لن﴾: حرف نصب ﴿تَجِدَ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر منصوب بـ﴿لن﴾، ﴿لِسُنَّتِ ٱللَّهِ﴾: مجرور باللام، وهو مصدر مضاف إلى فاعله؛ لأنه تعالى سنّها، الجار والمجرور متعلق بـ﴿تَبْدِيلًا﴾ و﴿تَبْدِيلًا﴾: مفعول ﴿تَجِدَ﴾؛ لأنه من وجد الضالة، بمعنى: أصاب، والجملة الفعلية في محل الجر بلام التعليل المقدرة المدلول عليها بالفاء التعليلية ﴿وَلَن تَجِدَ﴾: فعل وناصب وفاعل مستتر ﴿لِسُنَّتِ ٱللَّهِ﴾: متعلق بـ﴿تَحْوِيلًا﴾، والجملة معطوفة على الجملة التي قبلها.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (٤٤)﴾.

﴿أَوَلَمْ﴾: ﴿الهمزة﴾ للاستفهام التقريري داخلة على محذوف، و﴿الواو﴾: عاطفة على ذلك المحذوف، والتقدير: أقعدوا في منازلهم ولم يسيروا، والجملة المحذوفة مستأنفة ﴿لم﴾: حرف نفي وجزم ﴿يَسِيرُوا۟﴾: فعل وفاعل مجزوم بـ﴿لم﴾ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: متعلق به، والجملة معطوفة على تلك المحذوفة ﴿فَيَنظُرُوا۟﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿ينظروا﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿يَسِيرُوا۟﴾ ﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام في محل النصب خبر كان مقدم للزومه الصدارة ﴿كَانَ عَٰقِبَةُ﴾: فعل ناقص واسمه ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مضاف إليه ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾: جار ومجرور صلة الموصول، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل النصب مفعول ﴿ينظروا﴾ معلقة عنها باسم الاستفهام ﴿وَكَانُوٓا۟﴾: ﴿الواو﴾: حالية ﴿كانوا﴾: فعل ناقص واسمه ﴿أَشَدَّ﴾: خبره ﴿مِنْهُمْ﴾ متعلق بـ﴿أَشَدَّ﴾ ﴿قُوَّةً﴾: تمييز منصوب باسم التفضيل، وجملة ﴿كان﴾ في محل النصب حال من الذين ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ﴾: ﴿الواو﴾: استئنافية ﴿مَا﴾: نافية ﴿كَانَ ٱللَّهُ﴾: فعل ناقص واسمه ﴿لِيُعْجِزَهُۥ﴾ ﴿اللام﴾: حرف نفي وجحود ﴿يعجز﴾ فعل مضارع منصوب بأن مضمرة وجوباً بعد لام الجحود، و﴿الهاء﴾ مفعول به ﴿مِن﴾: زائدة ﴿شَىْءٍ﴾: فاعل ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: صفة لـ﴿شَىْءٍ﴾ ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وجملة يعجز صلة أن المضمرة، وأن مع صلتها في تأويل مصدر مجرور باللام

تقديره: وما كان الله لإعجاز شيء إياه، الجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر كان، ولكن اللام بمعنى الباء، والتقدير: وما كان الله موصوفاً بإعجاز شيء في السمٰوات والأرض إياه، وجملة ﴿كان﴾ مستأنفة مسوقة لتقرير ما يفهم مما قبله من استئصال الأمم السابقة ﴿إِنَّهُۥ﴾: ناصب واسمه ﴿كَانَ﴾: فعل ناقص، واسمه ضمير يعود على الله ﴿عَلِيمًا﴾: خبر أول لها ﴿قَدِيرًا﴾: خبر ثانٍ، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل ما قبلها.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَلَوْ﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿لو﴾: حرف شرط غير جازم، ﴿يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ﴾ فعل وفاعل ومفعول به، والجملة فعل شرط لـ﴿لو﴾ لا محل لها من الإعراب ﴿بِمَا﴾ جار ومجرور متعلق بـ﴿يُؤَاخِذُ﴾ ﴿كَسَبُوا۟﴾: فعل وفاعل صلة الموصول، والعائد محذوف تقديره: بما كسبوه، ويحتمل كون ﴿ما﴾ مصدرية؛ أي: بكسبهم ﴿ما﴾ نافية ﴿تَرَكَ﴾: فعل ماض وفاعل مستتر يعود على الله ﴿عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿تَرَكَ﴾ ﴿مِن﴾: زائدة ﴿دَآبَّةٍ﴾: مفعول ﴿تَرَكَ﴾، وجملة ﴿تَرَكَ﴾ جواب ﴿لو﴾ الشرطية لا محل لها من الإعراب، وجملة ﴿لو﴾ الشرطية معطوفة على جملة قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ﴾، ﴿وَلَٰكِن﴾: ﴿الواو﴾: عاطفة ﴿لكن﴾: حرف استدراك ﴿يُؤَخِّرُهُمْ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾: متعلق بـ﴿يؤخر﴾ ﴿مُّسَمًّى﴾: صفة ﴿لِأَجَلٍ﴾، والجملة الاستدراكية معطوفة على جملة ﴿لو﴾ الشرطية ﴿فَإِذَا جَآءَ﴾ ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿إذا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان ﴿جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة في محل الخفض بإضافة إذا إليها على كونها فعل شرط لها، والظرف متعلق بالجواب، وجوابه محذوف تقديره: فيجازيهم على أعمالهم، والفاء رابطة الجواب، وجملة إذا معطوفة على الجملة الاستدراكية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾: ناصب واسمه ﴿كَانَ﴾: فعل ناقص، واسمه ضمير يعود على الله ﴿بِعِبَادِهِۦ﴾: متعلق بـ﴿بَصِيرًا﴾ ﴿بَصِيرًا﴾: خبر كان، وجملة ﴿كَانَ﴾ في محل الرفع خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ مستأنفة مسوقة لتعليل الجواب المحذوف.

التصريف ومفردات اللغة

﴿يَصۡطَرِخُونَ﴾: أي: يصيحون أشد الصياح للاستغاثة، أصله: يصترخون بوزن يفتعلون من الاصطراخ، والاسطراخ: افتعال من الصراخ، وهو الصياح بجهد وشدة، دخلت الطاء فيه للمبالغة كدخولها في الاصطبار والاصطفاء والاصطناع والاصطياد جرياً على القاعدة المشهورة عند الصرفيين: أن الفعل المبدوء بأحد أحرف الإطباق، وهي: الصاد والضاد والطاء والظاء، إذا صيغ منه على وزن افتعل، وما يتصرف منه.. أبدلت تاء الافتعال طاء مثال ذلك: الأفعال: صلح ضرب طرد ظلم، إذا بنينا منها صيغة افتعل.. قلنا على القياس: اصتلح اضترب اطترد اظتلم، ولتخفيف اللفظ أبدلت التاء طاء، والمجانسة بينهما ظاهرة، فنقلت إلى اصطلح اضطرب اطرد اظطلم، ويجوز في نحو: اظطلم وجهان آخران: اظّلَم اطلَّم.

﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم﴾ والتعمير: إطالة العمر، والعمر اسم لمدة عمارة البدن بالحياة، كما سبق.

﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ هو المعتقدات والظنون التي في النفوس.

﴿خَلَٰٓئِفَ﴾ جمع خليفة، وهو الذي يقوم بما كان قائماً به سلفه، وأما خلفاء فجمع خليف، وكلاهما بمعنى المستخلف بصيغة اسم المفعول.

﴿مَقۡتٗاۖ﴾؛ أي: بغضاً واحتقاراً، قال الراغب: المقت: البغض الشديد لمن يراه متعاطياً لقبيح اهـ.

﴿خَسَارٗا﴾؛ أي: خسارة، فالعمر كرأس المال إذا اشترى به صاحبه رضا الله تعالى ربح، وإذا اشترى سخطه خسر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾؛ أي: يحفظهما بقدرته، فإن الإمساك ضد الإرسال، وهو التعلق بالشيء وحفظه ﴿أَن تَزُولَاۚ﴾؛ أي: تضطربا وتنتقلا من أماكنهما، والزوال: الذهاب، وهو يقال في كل شيء قد كان ثابتاً قبل، أي: كراهة زوالهما عن أماكنهما، فإن الممكن حال بقائه لا بد له من حافظ.

﴿حَلِيمًا﴾ والحلم: ضبط النفس والطبع عن هيجان الغضب، كما في «المفردات».

﴿وَأَقْسَمُوا۟﴾ أقسم: حلف، أصله: من القسامة، وهي أيمان تقسم على أولياء المقتول، ثم صار اسماً لكل حلف، كما في «المفردات».

﴿جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ﴾؛ أي: غاية اجتهادهم فيها، قال الفراء: للجهد بالفتح من قولك اجهد جهدك؛ أي: ابلغ غايتك، والجهد بالضم الطاقة، وعند غير الفراء كلاهما بمعنى الطاقة اهـ «زاده». وإنما كان القسم بالله غاية أيمانهم؛ لأنهم كانوا يحلفون بآبائهم وأصنامهم، فإذا اشتد عليهم الحال، وأرادوا تحقيق الحق.. حلفوا بالله.

﴿لَّيَكُونُنَّ﴾ بضم النون الأولى مضارع، اتصل به واو الجماعة، ولم تباشره نون التوكيد، أصله: ليكونونن بثلاث نونات، أولاها نون الرفع، حذفت نون الرفع لتوالي الأمثال، وواو الجماعة لالتقاء الساكنين، وهو معرب مرفوع بثبوت النون لعدم مباشرته بنون التوكيد لوجود الفاصل، وهو واو الجماعة.

﴿نُفُورًا﴾؛ أي: تباعداً عن الحق والهدى.

﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، الاستكبار: التكبر، كالاستعظام بمعنى التعظم. ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ قال الراغب: المكر: صرف الغير عما يقصده بحيلة، كما مر عنه ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ﴾ قال في «القاموس»: حاق به يحيق حيقاً وحيوقاً وحيقاناً: أحاط به، كأحاق وحاق بهم العذاب: أحاط ونزل، كما في «المختار»، والحيق: ما يشتمل على الإنسان من مكروه فعله، أي: ولا يصيب ولا ينزل. ﴿يَنظُرُونَ﴾ النظر هنا بمعنى الانتظار ﴿إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ والسنة: الطريقة، وسنة النبي: طريقته التي كان يتحراها، وسنة الله: طريقة حكمته. ﴿تَبْدِيلًا﴾ بوضع الرحمة موضع العذاب. ﴿تَحْوِيلًا﴾ بأن ينقل عذابه من المكذبين إلى غيرهم.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع.

فمنها: التشبيه في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾.

ومنها: المبالغة في نحو ﴿كَفُورٍ﴾ و﴿شكور﴾ ونحو: ﴿حَلِيمًا﴾ ﴿عَلِيمًا﴾ ﴿قَدِيرًا﴾؛ فإنها من صيغ المبالغة.

ومنها: الاستفهام التقريري في قوله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾؛ لأن همزة الإنكار إذا دخلت على حرف النفي أفادت التقرير، لأنه في معنى: عمرناكم، نظيره قوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾؛ لأنه في معنى: قد شرحنا صدرك، ولا تغتر بما ذكره أكثر المفسرين هنا من أن الاستفهام إنكاري؛ لأنه غير صواب، والله أعلم.

ومنها: التهكُّم في قوله: ﴿فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ مثل قوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾.

ومنها: المجاز المرسل في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾؛ أي: خطرات القلوب، ففيه إسناد ما للحال إلى المحل؛ لأن الصدور محل القلوب، فالإضافة فيه لأدنى ملابسة.

ومنها: التكرير في قوله: ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ لزيادة التشنيع والتقبيح على من كفر بالله تعالى، وللتنبيه على أن اقتضاء الكفر لكل واحد من الأمرين الهائلين القبيحين بطريق الاستقلال والأصالة.

ومنها: التنكير للتعظيم في كل من الأمرين؛ أي: مقتاً عظيماً ليس وراءه خزي وصغار، وخساراً عظيماً ليس وراءه شرٌّ وتبار.

ومنها: الاستفهام الإنكاري للتوبيخ في قوله: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾، وكذلك قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾.

ومنها: الكناية في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾؛ لأنه كناية عن حفظهما؛ لأن الإمساك في الأصل: التعلق بالشيء، فكنى به عن الحفظ.

ومنها: ائتلاف اللفظ مع المعنى في قوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾، وهو أن تكون ألفاظ المعنى المراد يلائم بعضها بعضاً، ليس فيها لفظة نافرة عن أخواتها غير لائقة بمكانها؛ لأنه كانت هنا جميع الألفاظ المجاورة للقسم كلها من المستعمل المتداول فيه.

ومنها: إرسال المثل في قوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ قال كعب الأحبار لابن عباس في التوراة: من حفر حفرة لأخيه وقع فيه، فقال له ابن عباس: إنا وجدنا هذا في كتاب الله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾.

ومنها: الإسناد المجازي في قوله: ﴿مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾؛ لأن إسناد الزيادة للنذير مجاز مرسل؛ لأنه سبب في ذلك كقوله: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ اهـ «سمين».

ومنها: الاستفهام التقريري في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾؛ لأن همزة الإنكار دخلت على حرف النفي، فأفادت التقرير؛ لأن نفي النفي إثبات، كما مر، فصار المعنى: قد ساروا ونظروا.

ومنها: جمع المؤكدات في قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾؛ لأن اللام في ﴿لِيُعْجِزَهُ﴾، و﴿من﴾ في قوله: ﴿مِن شَيْءٍ﴾ لتأكيد النفي المستفاد من ﴿ما﴾، وكذا ﴿لا﴾ في قوله: ﴿وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ تأكيد آخر لـ﴿ما﴾ النافية، ففي الكلام ثلاث تأكيدات.

ومنها: الاستعارة المكنية في قوله: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ﴾ فقد شبه الأرض بالدابة التي يركب الإنسان عليها، ويحمل عليها أنواع الأثقال، ثم حذف المشبه به وهو الدابة، ورمز إليه بشيء من لوازمه، وهو الظهر على طريقة الاستعارة المكنية.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

مجمل ما اشتملت عليه هذه السورة الكريمة من حكم وأحكام

وجملة ما تضمنته هذه السورة:

١ ـ الأدلة على قدرة الله سبحانه بإبداعه للكون، وأنه المنعم المتفضل.

٢ ـ تذكير الناس بالنعم ليشكروها.

٣ ـ تثبيت فؤاد رسول الله ﷺ بذكر قصص المكذبين الأنبياء والمرسلين.

٤ ـ نداء الناس عامة بأن يتحلو بالفضائل، ويتخلوا عن الرذائل، ولا يتبعوا خطوات الشيطان، وينظروا فيما أبدع الرحمن من الآيات في الأرض والسموات.

٥ ـ ضرب الأمثال لما سلف من القسمين، وإيضاح الطائفتين المؤمنة والكافرة.

٦ ـ تقسيم المؤمنين إلى علماء محققين وصالحين متقين، ثم تقسيمهم من حيث العمل أقساماً ثلاثة.

٧ ـ وصف عاقبة الكافرين والمؤمنين، وما يلقاه كل منهما يوم القيامة[1].

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

---

(١) إلى هنا تم تفسير سورة فاطر، في اليوم الثاني من شهر صفر المبارك قبيل الظهر من الشهور المنسلكة في سلك سنة أربع عشرة وأربع مئة وألف ٢/ ٢/ ١٤١٤ من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، نسأل الله الكريم الرحيم لطفه ورحمته وعفوه العميم وعافيته الدائمة في الدنيا والدين لنا ولأحبابنا ولإخواننا المسلمين، آمين يا رب آمين، بحرمة كتابك الكريم.

سورة يس

سورة يس سورة مكية، قال القرطبي: بالإجماع إلا أن فرقة قالت: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ نزلت في بني سلمة من الأنصار، حين أرادوا أن يتركوا ديارهم وينتقلوا إلى جوار مسجد رسول الله ﷺ، وليس زعماً صحيحاً، وسيأتي بيان ذلك، وقيل: إلا قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ...اللَّهُ﴾ الآية.

وأخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس قال: سورة يس نزلت بمكة، وأخرج ابن مردويه عن عائشة مثله.

تسميتها: وسميت هذه السورة سورة يس؛ لأن الله سبحانه افتتح السورة الكريمة بها، وفي الافتتاح بها إشارة إلى إعجاز القرآن الكريم، وتسمى أيضاً القلب والدافعة والقاضية والمعمِّمة.

وآيها: ثلاث وثمانون آية، وكلماتها: سبع مئة وتسع وعشرون كلمة، وحروفها: ثلاثة آلاف حرف.

الناسخ والمنسوخ فيها: وقال ابن حزم: سورة يس كلها محكمة، ليس فيها ناسخ ولا منسوخ.

مناسبتها لما قبلها:

١ - أنه لما ذكر في السورة السالفة قوله: ﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾، وقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾، وقد أعرضوا عنه وكذبوه.. افتتح هذه السورة بالقسم بصحة رسالته، وأنه على صراط مستقيم؛ لينذر قوماً ما أنذر آباؤهم.

٢ - أنه قال فيما قبلها: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾، وقال في هذه: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾، وقال: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾، وورد في فضلها أحاديث كثيرة:

فمنها: ما روي عن معقل بن يسار عن النبي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «اقرؤا يس على موتاكم».

ومنها: ما ذكر الآجري من حديث أم الدرداء عن النبي ﷺ قال: «ما من ميت يقرأ عليه يس إلا هوّن الله عليه».

ومنها: ما في مسند الدارمي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ يس في ليلة ابتغاء وجه الله غفر الله له في تلك الليلة». أخرجه أبو نعيم الحافظ.

ومنها: ما روى الترمذي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لكل شيء قلباً، وقلب القرآن يس، ومن قرأ يس كتب الله له بها قراءة القرآن عشر مرات».

ومنها: ما روي عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «إن في القرآن لسورة تشفع لقارئها، وتغفر لمستمعها، ألا وهي سورة يس تدعى في التوراة: المعممة»، قيل: يا رسول الله، وما المعممة؟ قال: «تعم صاحبها بخير الدنيا، وتدفع عنه أهوال الآخرة، وتدعى أيضاً: الدافعة والقاضية»، قيل: يا رسول الله، وكيف ذلك؟ قال: تدفع عن صاحبها كل سوء، وتقضي له كل حاجة».

ومنها[1]: ما روى الدارمي عن شهر بن حوشب قال: قال ابن عباس: من قرأ يس حين أصبح يعطى يسر يومه حتى يمسي، ومن قرأها في صدر ليلة أعطي يسر ليلته حتى يصبح.

ومنها: ما روى الضحاك عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الجنة يرفع عنهم القرآن، فلا يقرؤون شيئاً سوى طه ويس»، وعن أبي جعفر قال: من وجد في قلبه قسوة فليكتب يس في جام؛ أي: إناء بزعفران، ثم يشربه.

ومنها: ما روى الثعلبي عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «من دخل مقبرة، فقرأ سورة يس.. خفف العذاب عن أهلها ذلك اليوم، وكان له بعدد من فيها حسنات» وقال يحيى بن أبي كثير: إن من قرأ سورة يس ليلاً لم يزل في فرح حتى يصبح، ومن قرأها حين يصبح لم يزل في فرح حتى يمسي، وقد حدثني بهذا

---

(١) القرطبي.

من جربها، ذكره الثعلبي وابن عطية، وقال ابن عطية: ويصدق ذلك التجربة، اهـ «قرطبي».

وفي «البيضاوي»: عن ابن عباس[1]: أنه ﷺ قال: «إن لكل شيء قلباً، وقلب القرآن يس، من قرأها يريد بها وجه الله غفر له، وأعطي من الأجر كأنما قرأ القرآن عشر مرات، وأيما مسلم قرىء عنده إذا نزل به ملك الموت سورة يس.. نزل بكل حرف منها عشرة أملاك يقومون بين يديه صفوفاً، يصلون عليه، ويستغفرون له، ويشهدون غسله، ويتبعون جنازته، ويصلون عليه، ويشهدون دفنه، وأيما مسلم قرأ سورة يس وهو في سكرات الموت.. لم يقبض ملك الموت روحه حتى يجيئه رضوان بشربة من الجنة، فيشربها وهو على فراشه، فيقبض روحه وهو ريان، ويمكث في قبره وهو ريان، ولا يحتاج إلى حوض من حياض الأنبياء حتى يدخل الجنة وهو ريان. اهـ.

ومنها: «يس لما قرئت له».

قلت: وورد في فضلها أحاديث كثيرة ذكرت أكثرها هنا، وأغلبها أحاديث فيها مقال، وفيها موضوعات، وإنما ذكرتها استئناساً بها في فضل هذه السورة الكريمة.

والله سبحانه وتعالى أعلم

* * *

(١) البيضاوي.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

المناسبة

قد سبق لك بيان وجه المناسبة بين آخر السورة السابقة وأول هذه السورة.

قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ...﴾ الآيات، مناسبة هذه الآيات لما قبلها: أن الله سبحانه لما ذكر أن هؤلاء المشركين قد ختم الله على قلوبهم فهم لا يؤمنون.. أردف ذلك بذكر مَثَلٍ لقوم حالهم كحالهم في الغلو في الكفر والإصرار على التكذيب والاستكبار على الرسل، وصم الآذان عن سماع الوعظ

والإرشاد، وهم أهل قرية أنطاكية ببلاد الشام، فقد كان قصصهم مع رسل الله، كقصص قومك معك في العناد والاستكبار والعتو والطغيان[1].

أسباب النزول

قوله تعالى: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢...﴾ الآيات، سبب نزول هذه الآيات[2]: ما أخرجه أبو نعيم في «الدلائل» عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ يقرأ في السجدة، فيجهر بالقراءة حتى تأذى به ناس من قريش، حتى قاموا ليأخذوه، وإذا أيديهم مجموعة إلى أعناقهم، وإذا بهم عمي لا يبصرون، فجاؤوا إلى النبي ﷺ فقالوا: ننشدك الله والرحم يا محمد، فدعا حتى ذهب عنهم فنزلت: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ إلى قوله: ﴿أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ قال: فلم يؤمن من ذلك النفر أحد.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ إلى قوله: ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾ سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه ابن جرير عن عكرمة قال: قال أبو جهل: لئن رأيت محمداً لأفعلن ولأفعلن، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ إلى قوله: ﴿يُبْصِرُونَ﴾ فكانوا يقولون: هذا محمد، فيقول: أين هو أين هو؟ ولا يبصر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ...﴾ الآية، سبب نزول هذه الآية: ما أخرجه الترمذي وحسنه، والحاكم وصححه عن أبي سعيد الخدري: قال: كانت بنو سلمة في ناحية المدينة، فأرادوا النقلة إلى قرب المسجد، فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ...﴾ الآية، فقال النبي ﷺ: «إن آثاركم تكتب، فلا تنتقلوا» وأخرج الطبراني عن ابن عباس مثله، قال الحافظ ابن كثير: وفي هذا الحديث غرابة من حيث ذكر نزول هذه الآية، والسورة بكمالها مكية، قلت: فلا وجه لقوله؛ لأنه إذا ثبت أن هذه الآية نزلت بمكة، فلا مانع من نزولها مرتين، وإن لم يثبت نزولها بمكة، فقد تكون السورة مكية إلا آية، كما هو معروف، والله أعلم.

---

(١) المراغي.   (٢) لباب النقول.

التفسير وأوجه القراءة

قوله ﴿يسٓ ۝١﴾ قرأ الجمهور[1]: بسكون النون مظهرة، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة وحفص وقالون وورش: بإدغام النون في الواو الذي بعدها، وقرأ عيسى بن عمر وابن أبي إسحاق بفتح النون، وقال الزجاج: النصب على أنه مفعول لفعل مقدر، كأنه قال: اتل يس، وهذا على مذهب سيبويه، أنه اسم للسورة، أو على البناء، وقرأ ابن عباس وابن أبي إسحاق أيضاً والسمال ونصر بن عاصم: بكسرها على البناء أيضاً كجير، وقرأ الكلبي وهارون الأعور ومحمد بن السميقع: بضم النون على البناء كمنذ وحيث وقط، وقيل: على أنها خبر مبتدأ محذوف؛ أي: هذه يس، ومنعت من الصرف للعلمية والتأنيث، وقال الكلبي: هي بلغة طيء، يا إنسان، وقيل: الحركة لالتقاء الساكنين، الفتح لطلب الخفة كأين وكيف، والضم كحيث، والكسر على أصل التقاء الساكنين كأمسِ.

وإذا قيل إنه قسم.. فيجوز أن يكون معرباً بالنصب على ما قاله أبو حاتم، والرفع على الابتداء نحو: أمانة الله لأقومن، والجر على إضمار حرف الجر، وهو جائز عند الكوفيين، وعبارة[2] ابن الجوزي هنا: وقرأ الحسن وأبو الجوزاء: ﴿يسٓ ۝١﴾ بفتح الياء وكسر النون، وقرأ أبو المتوكل الناجي وأبو رجاء وابن أبي عبلة بفتح الياء والنون جميعاً، وقرأ أبو حصين الأسدي بكسر الياء وإظهار النون. قال الزجاج: والذي عند أهل العربية أن هذا بمنزلة افتتاح السور، وبعض العرب يسن، والقرآن بفتح النون، وهذا جائز في العربية لوجهين:

أحدهما: أن يس اسم للسورة، فكأنه قال: اتل يس، وهو على وزن هابيل وقابيل لا ينصرف.

والثاني: فتح لالتقاء الساكنين، والتسكين أجود؛ لأنه حرف هجاء. انتهى.

وقال صاحب «الروح»: ﴿يسٓ ۝١﴾ إما مسرود[3] على نمط التعديد، فلا حظ له من الإعراب أو اسم للسورة، وعليه الأكثر، فمحله الرفع على أنه خبر مبتدأ

---

(١) البحر المحيط بتصرف.

(٢) زاد المسير.

(٣) روح البيان.

محذوف؛ أي: هذه يس، أو النصب على أنه مفعول لفعل محذوف؛ أي: اقرأ يس، ويؤيِّد كونه اسم السورة قوله ﷺ: «إن الله تعالى قرأ طه ويس قبل أن خلق آدم بألفي عام، فإذا سمعت الملائكة قالوا: طوبى لأمة ينزل عليهم هذا، وطوبى لألسن تتكلم بهذا، وطوبى لأجواف تحمل هذا».

قال الشوكاني[1]: واختلف في معنى هذه اللفظة، فقيل: معناها يا رجل، أو يا إنسان، قال ابن الأنباري: الوقف على يس حسن لمن قال هو افتتاح للسورة، ومن قال معناه: يا رجل، أو يا إنسان.. لم يقف عليه، وقال سعيد بن جبير وغيره: هو اسم من أسماء محمد ﷺ دليله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣﴾ قال السيد الحموي:

يَا نَفْسُ لا تَمْحَضِيْ بِٱلْوِدِّ جَاهِدَةً عَلَىٰ ٱلْمَوَدَّةِ إِلاَّ آلَ يَاسِيْنَا

ومنه قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ۝١٣٠﴾ أي: على آل محمد، وسيأتي في الصافات ما المراد بآل ياسين، قال الواحدي: قال ابن عباس والمفسرون: يريد يا إنسان؛ يعني: محمداً ﷺ، وقال أبو بكر الوراق: معناه: يا سيد البشر، وقال مالك: هو اسم من أسماء الله تعالى، روى ذلك عنه أشهب، وحكى أبو عبد الرحمن السلمي عن جعفر الصادق: أن معناه: يا سيد، وقال كعب: هو قسم أقسم الله به، وقالت فرقة[2]: ﴿يا﴾ حرف نداء، والسين مقامة مقام إنسان، انتزع منه حرف فأقيم مقامه، ورجح الزجاج: أن معناه يا محمد، وقال البقلي: أقسم بيد القدرة الأزلية وسناء الربوبية.

واختلفوا هل هو عربي، أو غير عربي؟: فقال سعيد بن جبير وعكرمة: حبشي، وقال الكلبي: سرياني، تكلَّمت به العرب.. فصار من لغتهم، وقال الشعبي: هو بلغة طيء، وقال الحسن: هو بلغة كلب، وذهب قوم[3] إلى أن الله تعالى لم يجعل لأحد سبيلاً إلى إدراك معاني الحروف المقطعة في أوائل السور، وقالوا: إن الله تعالى منفرد بعلمها، ونحن نؤمن بأنها من جملة القرآن العظيم،

---

(١) فتح القدير.

(٢) البحر المحيط.

(٣) روح البيان.

ونكل علمها إليه تعالى ونقرأها تعبداً وامتثالاً لأمر الله تعالى، وتعظيماً لكلامه، وإن لم نفهم منها ما نفهمه من سائر الآيات، وهذا القول هو الأصح الأسلم الذي عليه أكثر السلف.

﴿وَٱلْقُرْءَانِ﴾ بالجر على أنه مقسم به ابتداء، والواو فيه واو القسم؛ أي: أقسم بالقرآن الحكيم، وقيل: الواو للعطف على يس إن جعل يس مقسماً به؛ أي: أقسم بيس، وبالقرآن الحكيم، قال النقاش: لم يقسم الله سبحانه لأحد من أنبيائه بالرسالة في كتابه إلا لمحمد ﷺ تعظيماً له وتمجيداً، فقال في «إنسان العيون». من خصائصه عليه السلام أن الله تعالى أقسم على رسالته بقوله: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣﴾. اهـ.

﴿ٱلْحَكِيمِ﴾؛ أي: الحاكم، كالعليم بمعنى العالم، فإنه يحكم بما فيه من الأحكام، فهو فعيل بمعنى: فاعل، أو المحكم المصفى من التناقض والعيب ومن التغير بوجه ما، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾، وهو الذي أحكم نظمه وأسلوبه، وأتقن معناه وفحواه، فهو فعيل بمعنى مفعل، كما تقول: عقدت العسل، فهو عقيد؛ أي: معقد، أو[1] ذي الحكمة؛ أي: المتضمن لها والمشتمل عليها، فإنه منبع كل حكمة، ومعدن كل عظة، فيكون بمعنى النسب مثل تامر بمعنى ذي تمر، أو هو من قبيل وصف الكلام بصفة المتكلم به؛ أي: الحكيم قائله.

﴿إِنَّكَ﴾ يا أكمل الرسل، ويا أفضل الكل، وهو خطاب المواجهة بعد شرف القسم به، وهو مع قوله: ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ جواب للقسم، والجملة لرد إنكار الكفرة بقولهم في حقه ﷺ لست مرسلاً، وما أرسل الله إلينا رسولا.

قال في «بحر العلوم»: هو من الأيمان الحسنة البديعة لتناسب بين المرسل به والمرسل إليه اللذين: أحدهما: المقسم به المنزل، والآخر المقسم عليه، المنزل إليه. انتهى.

وهذه الشهادة منه تعالى من جملة ما أشير إليه بقوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾.

---

(١) روح البيان.

﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ متعلق بـ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، والمعنى: أي: إنك يا محمد لمن المرسلين الذين أرسلوا على طريقة مستقيمة، وهي التوحيد والاستقامة في الأمور كلها، قال ابن الجوزي: وأحسن[1] ما قيل في العربية أن يكون ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ خبر ﴿إن﴾، ويكون قوله: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤﴾ خبراً ثانياً لها، فيكون المعنى: إنك لمن المرسلين، إنك على صراط مستقيم. اهـ. ويجوز أن يكون على صراط مستقيم حالاً من الضمير المستكن في خبر ﴿إنّ﴾، والمعنى: أي: أقسم بالقرآن المحكم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، إنك أيها الرسول لمن المرسلين الذين هم على دين قويم، وشرع مستقيم موصل إلى الجنة والرضى.

فإن قلت[2]: أيُّ حاجة إلى قوله: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤﴾، ومن المعلوم أن الرسل لا يكونون إلا على صراط مستقيم؟

قلتُ: فائدته وصف الشرع بالاستقامة صريحاً، وإن دل عليه لمن المرسلين التزاماً، فجمع بين الوصفين في نظام واحد، كأنه قال: إنك لمن المرسلين الثابتين على طريق ثابت استقامته، وقد نكره ليدل له على أنه أرسل من بين الصراط على صراط مستقيم لا يوازيه صراط، ولا يكتنه وصفه في الاستقامة، فالتنكير للتفخيم، كما سيأتي.

﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو بكر وأبو جعفر وشيبة والحسن والأعرج والأعمش: برفع اللام على أنه خبر مبتدأ محذوف، أي: هذا القرآن هو تنزيل العزيز في ملكه، الرحيم بخلقه؛ أي: منزل منه سبحانه وتعالى، عبَّر عن المنزل بالمصدر مبالغةً حتى كأنه نفس التنزيل، ويجوز أن يكون خبراً لقوله: يس إن جعل اسماً للسورة؛ أي: سورة يس منزَّل من العزيز الرحيم، لا مختلق من عند محمد ﷺ، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وطلحة والأشهب وعيسى بخلاف عنهما: بالنصب؛ إما على المصدرية؛ أي: نزَّل الله ذلك تنزيلاً من العزيز الرحيم، أو على المدح؛ أي: أمدح تنزيل العزيز الرحيم؛ أي: أمدح كتاباً منزلاً من العزيز الرحيم، وقرأ[3] أبو حيوة وأبي بن كعب وأبو رزين وأبو العالية

---

(١) زاد المسير.

(٢) روح البيان.

(٣) زاد المسير.

والجحدري وأبو جعفر يزيد بن القعقاع: بالجر على أنه نعت للقرآن؛ لأنه بمعنى المنزل، أو بدل منه، وعبر عنه بالمصدر، كما تقول العرب: هذا الدرهم ضرب الأمير؛ أي: مضروبه لكمال عراقته في كونه منزلاً من عند الله تعالى، فكأنه نفس التنزيل كما مر آنفاً.

والعزيز[1]: هو الغالب على جميع المقدورات، المتكبِّر الغني عن طاعة المطيعين، المنتقم ممن خالفه، ولم يصدق القرآن، وخاصية هذا الاسم وجود الغنى والعز صورة أو حقيقة أو معنى، فمن ذكره أربعين يوماً في كل يوم أربعين مرة.. أعانه الله تعالى وأعزه، فلم يحوجه إلى أحدٍ من خلقه، والرحيم: هو المتفضل على عباده المؤمنين بإنزال القرآن ليوقظهم من نوم الغفلة، ونعاس النسيان، وخاصية هذا الاسم رقة القلب والرحمة للمخلوقين، فمن دوامه كل يوم مئة مرة.. كان له ذلك، ومن خاف الوقوع في مكروه.. ذكره وقرينه وهو اسم الرحمن.

قوله: ﴿لِتُنذِرَ﴾ متعلق بـ﴿تَنزِيلَ﴾؛ أي: نزل عليك القرآن لتنذر، أو بفعل مقدر يدل عليه من المرسلين؛ أي: أرسلناك لتنذر؛ أي: لتخوف بالقرآن، ﴿قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ ﴿مَآ﴾: نافية، والجملة صفة مبينة لغاية احتياجهم إلى الإنذار، والمعنى: لتنذر قوماً غير منذر آباؤهم الأقربون؛ لتطاول مدة الفترة، ولم يكونوا من أهل الكتاب، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ يعني: العرب، وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، ويجوز أن تكون ﴿مَآ﴾ موصولة، أو موصوفة على أن تكون الجملة مفعولاً ثانياً ﴿لتنذر﴾ بحذف العائد، والمعنى: لتنذر قوماً العذاب الذي أنذره آباؤهم، أو لتنذر قوماً عذاباً أنذره آباؤهم الأبعدون في زمن إسماعيل عليه السلام، وإنما وصف الآباء في التفسير الأول بالأقربين، وفي الثاني بالأبعدين؛ لئلا يلزم أن يكونوا منذرين وغير منذرين، فآباؤهم الأقدمون آتاهم النذير لا محالة، بخلاف آبائهم الأدنين، وهم قريش، فيكون ذلك بمعنى قوله: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾، ويجوز أن تكون ﴿مَآ﴾ مصدرية، فتكون نعتاً لمصدر مؤكد؛ أي: لتنذر قوماً إنذاراً كائناً مثل إنذار آبائهم الأقدمين من العذاب، ﴿فَهُمْ﴾؛

---

(١) روح البيان.

أي[1]: القوم وآباؤهم الأقربون، ﴿غَٰفِلُونَ﴾ عن أمر الآخرة، جاحدون لها، إن قلنا: إن ﴿مَآ﴾ نافية، أو فهؤلاء القوم غافلون عما أنذر به آباؤهم الأقدمون لامتداد المدرة إن قلنا إن ﴿مَآ﴾ موصولة، أو موصوفة.

وعبارة «الشوكاني» قوله: ﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾[2] متعلق بنفي الإنذار على الوجه الأول؛ أي: لم ينذر آباؤهم فهم بسبب ذلك غافلون، وعلى الأوجه الأخيرة متعلق بقوله ﴿لِتُنذِرَ﴾؛ أي: فهم غافلون عما أنذرنا به آباءهم، وقد ذهب أكثر أهل التفسير إلى أن المعنى على النفي، وهو الظاهر من النظم لترتيب فهم غافلون على ما قبله.

وعبارة «الروح»: قوله: ﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ متعلّق[3] بنفي الإنذار مترتب عليه، والضمير للفريقين: القوم والآباء؛ أي: لم ينذر آباؤهم فهم جميعاً لأجله غافلون عن الإيمان والرشد، وحجج التوحيد وأدلة البعث، والفاء داخلة على الحكم المسبَّب عما قبله، فالنفي المتقدِّم سبب له؛ يعني: أن عدم إنذارهم هو سبب غفلتهم، ويجوز أن يكون متعلقاً بقوله: ﴿لِتُنذِرَ﴾ رداً لتعليل إنذاره، فالضمير للقوم خاصة؛ أي: فهم غافلون عما أنذر به آباؤهم الأقدمون؛ لامتداد المدة، فالفاء داخلة على سبب الحكم المتقدم.

والمعنى[4]: أي إنا أرسلناك لتنذر العرب الذين لم يأتهم نذير من قبلك، فهم في غفلة عن معرفة الشرائع التي فيها سعادة البشر، وإصلاح المجتمع، وذكرهم وحدهم هنا؛ لأن الخطاب كان معهم، وهذا لا يمنع أنه مرسل إلى الناس كافة، كما قال: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾، واللام في قوله: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ﴾؛ أي: موطئة للقسم؛ أي: لقد حقت كلمة العذاب العاجل ووجبت ﴿عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾؛ أي: على أكثر أهل مكة، كأبي جهل وأصحابه، ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ أي: في علم الله تعالى، وقتلوا يوم بدر على الكفر؛ أي: وعزتي وجلالي، لقد وجب وثبت قضاؤنا بالعذاب على أكثر أهل مكة، أو أكثر الكفار

---

(١) المراح.
(٢) الشوكاني.
(٣) روح البيان.
(٤) المراغي.

على الإطلاق، أو أكثر كفار العرب، أو أكثر القوم الذين تنذرهم، وهم أهل مكة، وهم من مات على الكفر وأصر عليه أول حياته، فيتفرع قوله: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ على ما قبله؛ أي: لا يؤمنون بإنذارك إياهم، والفاء داخلة على الحكم المسبب عما قبله؛ أي: لأن الله تعالى قد علم منهم الإصرار على ما هم فيه من الكفر والموت عليه، وذهب الجمهور[1]: إلى أن المراد بهذا القول قوله تعالى لإبليس عند قوله: لأغوينهم أجمعين: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾، وهو المعنيُّ بقوله: ﴿وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، وهذا القول لما تعلق بمن تبع إبليس من الجن والإنس، وكان أكثر أهل مكة ممن علم الله منهم الإصرار على اتباعه، واختيار الكفر إلى أن يموتوا.. كانوا ممن وجب وثبت عليهم مضمون هذا القول، لكن لا بطريق الجبر من غير أن يكون من قبلهم ما يقتضيه، بل بسبب إصرارهم الاختياري على الكفر والإنكار، وعدم تأثرهم من التذكير والإنذار، ولما كان مناط ثبوت القول وتحققه عليهم إصرارهم على الكفر إلى الموت.. كان قوله: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ متفرعاً في الحقيقة على ذلك، لا على ثبوت القول، وفُهِم من قوله: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ﴾ أن أهل السعادة أقل، وإنما كان أهل السعادة أقل؛ لأن المقصود من الإيجاد ظهور الخليفة من العباد، وهو يحصل بواحدٍ مع أن الواحد على الحق، هو السواد الأعظم في الحقيقة.

فمن آمن فقد أعلى الدين، ومن أعلاه فقد تعرض لعلوه وعزه عند الله تعالى، ومن كفر.. فقد أراد إطفاء نور الله، والله متم نوره، ولما قال المشركون يوم أحد: أعل هبل، أعل هبل.. أذلهم الله وهبلهم، وهو صنم كان يعبد في الجاهلية، وهو الحجر الذي يطأه الناس في العتبة السفلى من باب بني شيبة، وهو الآن مكبوب على وجهه، وبلط الملوك فوقه البلاط، فإن كنت تفهم مثل هذه الأسرار، وإلا فاسكت، والله تعالى حكيم يضع الأمور كلها في مواضعها، فكل ما ظهر في العالم فهو حكمة وضعه في محله، لكن لا بد من الإنكار لما أنكره الشارع فإياك والغلط.

ومعنى الآية[2]: وعزتي وجلالي لقد وجب العقاب على أكثرهم؛ لأنه سبحانه سجل عليهم في أم الكتاب أنهم لا يؤمنون به ولا يصدقون برسوله، لما علم من

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

خبث نفوسهم، وسوء استعدادهم، فلا تعمر قلوبهم بالإيمان، ولا تخبت لله في أيِّ زمان، ثم ضرب لهم مثلاً، فقال: ﴿إِنَّا﴾ بمقتضى قهرنا وجلالنا ﴿جَعَلْنَا﴾؛ أي: خلقنا، أو صيرنا، ﴿فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ﴾؛ أي: في أعناق أكثر أهل مكة، جمع: عنق، ﴿أَغْلَٰلًا﴾ ثقالاً عظيمة، جمع: غل، وهو ما يشد به اليد إلى العنق للتعذيب والتشديد، سواء كان من الحديد أو غيره، وقال القهستاني: الغل: الطوق من حديد، الجامع لليد إلى العنق، المانع من تحرك الرأس. اهـ. والفاء[1] في قوله: ﴿فَهِىَ﴾ للنتيجة، أو التعقيب؛ أي: فالأغلال منتهية، ﴿إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ جمع ذقن، وهو مجتمع اللحيين؛ أي: فالأغلال لعظمها وضخامتها منتهية إلى أذقانهم، بحيث لا يتمكَّن المغلول معها من تحرك الرأس والالتفات، ووجه وصول الغل إلى الذقن، هو إما كونه غليظاً عريضاً يملأ ما بين الصدر والذقن، فلا جرم يصل إلى الذقن، ويرفع الرأس إلى فوق، وإما كون طوق الغل الذي يجمع اليدين إلى العنق، بحيث يكون في ملتقى طرفين تحت الذقن حلقة يدخل فيها رأس العمود الواصل بين ذلك الطوق وبين قيد اليد خارجاً عن الحلقة إلى الذقن، فلا يخلِّيه يحرِّك رأسه. ﴿فَهُم﴾؛ أي: أكثر أهل مكة بسبب ذلك ﴿مُّقْمَحُونَ﴾؛ أي: رافعون رؤوسهم غاضون أبصارهم، فإن الإقماح رفع الرأس إلى فوق مع غض البصر، يقال: أقمح البعير رأسه، وقمح قموحاً عند رفع رأسه عند الحوض بعد الشرب؛ إما لارتوائه، أو لبرودة الماء، أو لكراهة طعمه، قال بعضهم: لفظ الآية - وإن كان ماضياً - لكنه إشارة إلى ما يفعل بهم في الآخرة، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟...﴾ الآية، ولهذا قال الفقهاء: كره جعل الغل في عنق عبده؛ لأنه عقوبة أهل النار، قال الفقيه: إن في زماننا جرت العادة بذلك إذا خيف من الإباق، بخلاف التقييد، فإنه غير مكروه؛ لأنه سنة المسلمين في المتمردين.

هذا والجمهور[2] على أن الآية تمثيل لحال الأكثر في تصميمهم على الكفر، وعدم امتناعهم منه، وعدم التفاتهم إلى الحق، وعدم انعطاف أعناقهم، نحوه: بحال الذين غلت أعناقهم، فوصلت الأغلال إلى أذقانهم، وبقوا رافعين رؤوسهم، غاضين أبصارهم، فهم أيضاً لا يلتفتون إلى الحق، ولا يعطفون أعناقهم نحوه، ولا

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

يطأطئون رؤوسهم له، ولا يكادون يرون الحق، أو ينظرون إلى جهته.

قال أبو حيان: والظاهر[1] أن قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا﴾ هو حقيقة لا استعارة، لما أخبر تعالى أنهم لا يؤمنون.. أخبر عن شيء من أحوالهم في الآخرة إذا دخلوا النار. انتهى. وقرأ ابن عباس[2]: ﴿إنا جعلنا في أيمانهم أغلالا﴾ قال الزجاج: أي: في أيديهم، قال النحاس: وهذه القراءة تفسير، ولا يقرأ بما خالف المصحف، قال: وفي الكلام حذف على قراءة الجماعة، التقدير: إنا جعلنا في أعناقهم وفي أيديهم أغلالاً، فهي إلى الأذقان، فلفظ ﴿هي﴾ كناية عن الأيدي، لا عن الأعناق، والعرب تحذف مثل هذا، ونظيره: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾؛ أي: والبرد؛ لأن الغل إذا كان في العنق.. فلا بد أن يكون في اليد، ولا سيما وقد قال الله تعالى: ﴿فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾، فقد علم أنه يراد به الأيدي، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه قرأ: ﴿إنا جعلنا في أيديهم أغلالا﴾، وعن ابن مسعود أنه قرأ: ﴿إنا جعلنا في أيمانهم أغلالا﴾، كما روي سابقاً عن قراءة ابن عباس.

ومعنى الآية: أي إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً، فهي واصلة إلى الأذقان ملصقة بها، فهم من جراء ذلك مقمحون؛ أي: مرفوعو الرؤوس؛ إذ أن طوق الغل الذي في عنق المغلول يكون في ملتقى طرفيه تحت الذقن حلقة فيها رأس العمود خارجاً من الحلقة إلى الذقن، فلا يمكنه من أن يطأطىء رأسه، فلا يزال مقمحاً.

والمراد: منعناهم بموانع عن الإيمان تشبه ما ذكر، فهم غاضوا أبصارهم، لا يلتفتون إلى الحق، ولا يعطفون أعناقهم نحوه، ولا يطأطؤون رؤوسهم له، ثم أكد ما سبق، وزاده بياناً وتفصيلاً، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا﴾ لهم مع ما ذكر سابقاً؛ أي: خلقنا لهم من كمال غضبنا عليهم وصيرنا، ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾؛ أي: من قدامهم ﴿سَدًّا﴾ عظيماً؛ أي: حاجزاً يحجزهم عن الإبصار، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾؛ أي: من ورائهم ﴿سَدًّا﴾ عظيماً.

وقرأ عبد الله وعكرمة والنخعي وابن وثاب وطلحة وحمزة والكسائي وابن كثير وحفص[3]: ﴿سَدًّا﴾ بفتح السين في الموضعين، وقرأ الجمهور: بالضم، وكلاهما

---

(١) البحر المحيط.
(٢) الشوكاني.
(٣) البحر المحيط.

لغتان بمعنى، أي منعناهم عن الإيمان بموانع، فهم لا يستطيعون الخروج من الكفر إلى الإيمان، كالمضروب أمامه وخلفه بالأسداد، ومن هذا المعنى في الآية قول الشاعر:

وَمِنَ ٱلْحَوَادِثِ لاَ أَبَالَكَ أَنَّنِي ضُرِبَتْ عَلَيَّ ٱلأَرْضُ بِٱلأَسْدَادِ
لاَ أَهْتَدِيْ فِيْهَا لِمَوْضِعِ تَلْعَةٍ بَيْنَ ٱلْعُذَيْبِ وَبَيْنَ أَرْضِ مُرَادِ

﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ﴾؛ أي: غطينا أبصارهم، وجعلنا عليها غشاوة، فالكلام على حذف مضاف، ﴿فَهُمْ﴾ بسبب ذلك، ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾؛ أي: لا يقدرون على إبصار شيء، والفاء[1] داخلة على الحكم المسبب عما قبله؛ لأن من أحاطه السد من جميع جوانبه لا يبصر شيئاً؛ إذ الظاهر أن المراد ليس جهتي القدام والخلف فقط، بل يعم جميع الجهات، إلا أن جهة القدام لما كانت أشرف الجهات وأظهرها، وجهة الخلف كانت ضدها.. خُصت بالذكر. قال الفراء[2]: فألبسنا أبصارهم غشاوة؛ أي: عمي فهم لا يبصرون سبيل الهدى، وكذا قال قتادة: إنَّ المعنى: لا يبصرون الهدى، وقال السدي: لا يبصرون محمداً ﷺ حين ائتمروا على قتله، وقال الضحاك وجعلنا من بين أيديهم سداً؛ أي: في الدنيا، ومن خلفهم؛ أي: في الآخرة، فأغشيناهم فهم لا يبصرون؛ أي: عموا عن البعث، وعموا عن قبول الشرائع في الدنيا، وقيل: ما بين أيديهم: الآخرة، وما خلفهم: الدنيا.

وقرأ الجمهور: ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ﴾ بالغين المعجمة؛ أي: غطينا أبصارهم، فهو على حذف مضاف، كما مر، وقرأ ابن عباس وعمر بن عبد العزيز وابن يعمر وعكرمة والنخعي وابن سيرين والحسن وأبو رجاء وزيد بن علي ويزيد البربري ويزيد بن المهلب وأبوحنيفة وابن مقسم: ﴿فَأَعْشَيْنَٰهُمْ﴾ بالعين المهملة، من العشاء، وهو ضعف البصر؛ أي: جعلنا عليها غشاوة، ومنه ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾.

والآية إما تتمّة للتمثيل وتكميل له؛ أي: تكميل؛ أي: وجعلنا مع ما ذكر من

---

(١) روح البيان.
(٢) الشوكاني.

أمامهم سداً عظيماً، ومن ورائهم سداً كذلك، فغطينا بهما أبصارهم، فهم بسبب ذلك لا يقدرون على إبصار شيء ما أصلاً، وإما تمثيل مستقل، فإن ما ذكر من جعلهم حصورين بين سدين هائلين قد غطّينا بهما أبصارهم بحيث لا يبصرون شيئاً قطعاً كافٍ في الكشف عن فظاعة حالهم، وكونهم محبوسين في مطمورة الغيّ والجهالات، محرومين من النظر في الأدلّة والآيات.

قال الإمام[1]: المانع من النظر في الآيات والدلائل قسمان: قسم يمنع من النظر في الآيات التي في أنفسهم، فشبّه ذلك بالغل الذي يجعل صاحبه مقمحاً لا يرى نفسه، ولا يقع بصره على بدنه، وقسم يمنع من النظر في آيات الآفاق، فشبّه بالسد المحيط، فإن المحاط بالسد لا يقع نظره على الآفاق، فلا تتبيّن له الآيات التي في الآفاق، كما أن المقمح لا تتبيّن له الآيات التي في الأنفس، فمن ابتلى بهما حرم من النظر بالكلية؛ لأن الدلائل والآيات مع كثرتها منحصرة فيهما، كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا﴾ مع قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ الخ. إشارة إلى عدم هدايتهم لآيات الله تعالى في الأنفس والآفاق.

وقيل[2]: نزلت هذه الآيات في أبي جهل بن هشام، وصاحبيه المخزوميين، وذلك أن أبا جهل حلف لئن رأى محمداً يصلي.. ليرضخن رأسه بحجر، فلما رآه يصلي ذهب إليه فرفع حجراً ليرميه، فلما أومأ إليه.. رجفت يداه إلى عنقه، والتصق الحجر بيده إلى عنقه، فلما عاد إلى أصحابه أخبرهم بما رأى، قال الوليد بن المغيرة: أنا أرضخ رأسه، فأتاه وهو يصلي على حالته ليرميه بالحجر، فأعمى الله بصره، فجعل يسمع صوته ولا يراه، فرجع إلى أصحابه فلم يرهم حتى نادوه، قال: واللهِ ما رأيته، ولقد سمعت صوته، فقال الرجل الثالث: واللهِ لأشدخنَّ رأسه، ثم أخذ الحجر وانطلق، فرجع القهقرى ينكص على عقبيه، حتى خرّ على قفاه مغشيًّا عليه، فقيل له: ما شأنك؟ قال: شأني عظيم، رأيت الرجل، فلما دنوت منه.. فإذا فحل يخطر بذنبه ما رأيت قط فحلاً أعظم منه حال بيني وبينه، فواللاتِ والعزى لو دنوت منه.. لأكلني، فأنزل الله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم

---

(1) روح البيان. (2) المراح.

﴿مُقۡمَحُونَ ۝٨﴾؛ أي: إنا جمعنا أيمانهم إلى الأذقان حين أرادوا أن يرجموا النبي ﷺ بالحجارة، وهو في الصلاة، فها هم مغلولون من كل خير محرومون. ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا﴾ الخ؛ أي: وجعلنا من أمامهم ستراً حيث أرادوا أن يرجموا النبي ﷺ بالحجارة، وهو في الصلاة، فلم يبصروا النبي ﷺ، ومن خلفهم سدًّا، حتى لا يبصروا أصحابه، فغطَّينا أبصارهم فهم لا يبصرون النبي ﷺ، فيؤذوه، ومعنى الآية: أي[1]: إنه زيّن لهم سوء أعمالهم، وأعجبوا بأنفسهم، واستكبروا عن اتباع الرسول، وشمخوا بأنوفهم، ولم يخضعوا لما جاءهم به، وصدوا أبواب النظر عما ينفعهم، ولم يقبلوا شيئاً سوى ما هم عليه، فما مثلهم إلا مثل من أحاط به سدان من الأمام والخلف، فحجباه عن النظر، فهو لا يبصر شيئاً.

والخلاصة: أنهم محبوسون في سجن الجهالة، ممنوعون عن النظر في دلائل الأنفس ودلائل الكون، محرومون عن التأمل فيما حل بمن قبلهم من الأمم الخالية، والتفكر في العواقب المستقبلة، ثم ذكر فذلكة لما تقدم فقال: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ﴾؛ أي: على أكثر أهل مكة ﴿ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾؛ أي: مستو[2] عند أكثر أهل مكة إنذارك إياهم وعدمه؛ لأن قوله: ﴿ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾ وإن كانت جملة فعلية استفهامية، لكنه في معنى مصدر مضاف إلى الفاعل، فصح الإخبار عنه، فقد هجر فيه جانب اللفظ، ونظر إلى المعنى، ومنه: تسمع بالمعيدي خير من أن تراه. وهمزة الاستفهام وأم لتقرير معنى الاستواء والتأكيد، فإن معنى الاستفهام منسلخ منهما رأساً بتجريدهما عنه لمجرد الاستواء، كما جرِّد حرف النداء عن الطلب لمجرد التخصيص في قولهم: اللهم اغفر لنا أيتها العصابة. فكما أن هذا جرى على صورة النداء، وليس بنداء، كذلك: ﴿ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾ جرى على صورة الاستفهام، وليس باستفهام. وقوله: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾؛ أي: لا يؤمن أكثر أهل مكة، استئناف مؤكد لما قبله مبيِّن لما فيه من إجمال ما فيه الاستوار.

والمعنى[3]: أي وسواء على هؤلاء الذين حق عليهم القول إنذارك إياهم وتركه، فإنه قد طبع الله على قلوبهم فهم لا يؤمنون؛ إذ قد خبثت نفوسهم، وساء

---

(١) المراغي.
(٢) روح البيان.
(٣) المراغي.

استعدادهم، وغشيت أبصارهم، فلا تقدر على النظر في الدلائل المشاهدة، ولا تستطيع التأمل في جمال الكون، كما قال البوصيري:

قَدْ تُنْكِرُ ٱلْعَيْنُ ضَوْءَ ٱلشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ وَيُنْكِرُ ٱلْفَمُ طَعْمَ ٱلْمَاءِ مِنْ سَقَمِ

قال الزجاج: أي من أضله الله هذا الإضلال لم ينفعه الإنذار، إنما ينفع الإنذار من ذكر في قوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ الخ؛ أي: ولما بيَّن سبحانه كون الإنذار عندهم كعدمه.. عقبه ببيان من يؤثر فيه الإنذار، فقال: إنما تنذر؛ أي[1]: ما ينفع إنذارك يا محمد إلا ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾؛ أي: القرآن بالتأمل فيه، أو الوعظ والتذكير، ولم يصر على اتباع خطوات الشيطان، ﴿وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ سبحانه، ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾؛ أي: خاف عقابه تعالى، والحال أنه غائب عن العقاب، على أنه حال من الفاعل، أو والحال أن العقاب غائب عنه، أي: قبل نزول العذاب وحلوله على أنه حال من المفعول، أو حال كونه غائباً عن عيون الناس في خلواته، ولم يغتر برحمته، فإنه منتقم قهّار، كما أنه رحيم غفار، وكيف يؤمن سخطه وعذابه بعد أن قال: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾﴾، ومن كان نعمته بسبب رحمته أكثر، فالخوف منه أتمّ مخافة أن يقطع عنه النعم المتواترة، فظهر وجه ذكر الرحمن مع الخشية، مع أن الظاهر أن يذكر معها ما ينبىء عن القهر ﴿فَبَشِّرْهُ﴾؛ أي: فبشر من ابتع الذكر وخشي الرحمن، ووحّد الضمير مراعاة للفظ ﴿مَنْ﴾، ﴿بِمَغْفِرَةٍ﴾ عظيمة لذنوبه، ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾؛ أي: حسن مرضي لأعماله الصالحة، لا يقادر قدره، وهو الجنة وما فيها مما أعدّه الله تعالى لعباده الجامعين بين اتباع ذكره وخشيته.

والفاء في قوله[2]: ﴿فَبَشِّرْهُ﴾ لترتيب البشارة، أو الأمر بها على ما قبلها من اتباع الذكر والخشية. يقول الفقير: رتّب التبشير بمثنّى على مثنّى، فالتأمل في القرآن، أو التأثر من الوعظ يؤدي إلى الإيمان المؤدي إلى المغفرة؛ لأن الله تعالى يغفر ما دون الشرك لمن يشاء، والخشية تؤدي إلى الحسنات المؤدية إلى الأجر الكريم؛ لأن الله تعالى قال: ﴿جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

ومعنى الآية[3]: أي إنما ينفع إنذارك من آمن بالقرآن، واتبع ما فيه من

---

(١) روح البيان.

(٢) روح البيان.

(٣) المراغي.

الأحكام، وخشي عقاب الله تعالى قبل حلوله، ومعاينة أهواله، فإنه سبحانه عظيم الرحمة، أليم العذاب، كما قال: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾. فبشِّر هذا الذي اتبع أحكام الدين، وخاف العقاب بمغفرة ما فرط منه من الزلاّت، وأجرٍ كريم، ونعيم مقيم لا يستطاع وصفه مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ونحو الآية قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾.

ولما ذكر سبحانه وتعالى الرسالة، وهي أحد الأصول الثلاثة التي بها يصير المكلف مؤمناً.. ذكر الحشر، وهو أحد الأصول الثلاثة، والثالث هو التوحيد، فقال: ﴿إِنَّا﴾ من مقام كمال قدرتنا، والجمع للتعظيم ولكثرة الصفات، وقال بعضهم: جمع الضمير لما في إحياء الموتى من حظ الملائكة، وينافيه الحصر الدالة عليه قوله: ﴿نَحْنُ﴾ قال في «البحر»: كرّر الضمير لتكرير التأكيد، ﴿نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾؛ أي: نبعثهم بعد مماتهم، ونجازيهم على حسب أعمالهم، فيظهر حينئذ كمال الإكرام، والانتقام للمبشّرين والمنذرين من الأنام، وقال الحسن والضحاك: أي: نحييهم بالإيمان بعد الجهل، والأول أولى، وقد أطلق النبي ﷺ لفظ الموتى على كل غنيٍّ مترف، وسلطان جائر، وذلك في قوله ﷺ: «أربع يمتن القلب: الذنب على الذنب، وكثرة مصاحبة النساء وحديثهن، وملاحاة الأحمق تقول له، ويقول لك، ومجالسة الموتى» قيل: يا رسول الله، وما مجالسة الموتى؟ قال: «كل غني مترف، وسلطان جائر».

وفي «التأويلات النجمية»: نحيي قلوباً ماتت بالقسوة بما نمطر عليها من صوب الإقبال والزلفة انتهى. فالإحياء إذاً مجاز عن الهداية، ﴿نكتب﴾؛ أي: نحفظ ونثبت في اللوح المحفوظ، يدل عليه آخر الآية، أو يكتب رسلنا، وهم الكرام الكاتبون، وإنما أسند إليه تعالى ترهيباً، ولأنه الآمر به، ﴿مَا قَدَّمُوا۟﴾؛ أي: ما أسلفوا من خير أو شر، وإنما[1] أخر الكتابة مع أنها مقدمة على الإحياء؛ لأنها ليست مقصودة لذاتها، وإنما تكون مقصودةً لأمر الإحياء، ولولا الإحياء والإعادة لما ظهر للكتابة فائدة أصلاً، ﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾؛ أي: ونكتب آثارهم؛ أي: ما أبقوه من

---

(١) روح البيان.

الحسنات التي لا ينقطع نفعها بعد الموت، كمن سنّ سنة حسنة، وكعلم علّموه، أو كتاب ألفوه، أو حبيس وقفوه، أو بناء شيء من المساجد والرباطات والقناطر، أو من السيئات التي تبقى بعد موت فاعلها، كوظيفة وظّفها بعض الظلمة على المسلمين مسانهة أو مشاهرة، كخراج وغرامة ومكوس وعشور، وسكة أحدثها فيها تخسيرهم وشيء فيه صد عن ذكر الله تعالى من ألحان وملاهي ونحوها، قال مجاهد وابن زيد: ونظيره قوله تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾؛ أي: بما قدم من أعماله، وأخّر من آثاره، فعلى العدول أن يرفعوا الأحداث التي فيها ضرر بيِّن للناس في دينهم ودنياهم، وإلا فالراضي كالفاعل، وكلٌّ مجزي بعمله.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿وَنَكْتُبُ﴾ على البناء للفاعل، وقرأ زر ومسروق: على البناء للمفعول، وقيل: المراد بالآية: آثار المشائين إلى المساجد، وبه قال جماعة من الصحابة والتابعين. قال النحاس: وهو أولى ما قيل في الآية؛ لأنها نزلت في ذلك، كما مر في أسباب النزول، ويجاب عنه بأن الاعتبار بعموم الآية، لا بخصوص سببها، وعمومها يقتضي كتب جميع آثار الخير والشر، والله تعالى لا يترك الجزاء على الخطى، سواء كانت في حسنة، أو في سيئة.

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ من الأشياء كائناً ما كان، سواء كان ما يصنعه الإنسان، أو غيره، وهو منصوب بفعل مضمر يفسّره قوله: ﴿أَحْصَيْنَاهُ﴾؛ أي: ضبطناه وبيّناه وكتبناه وحفظناه وعددناه وأثبتناه ﴿فِي إِمَامٍ﴾؛ أي: أصل عظيم الشأن. ﴿مُبِينٍ﴾؛ أي: مظهر لجميع الأشياء مما كان، وما سيكون، وهو اللوح المحفوظ، سمّي إماماً؛ لأنه يؤتم به ويتبع، وقالت فرقة: أراد صحائف الأعمال، وفي ذكر الإحصاء ترغيب وترهيب، فإن المحصي لم يصح منه الغفلة في حال من الأحوال، فعلى العاقل أن يراقب نفسه في كل وقت ونفس وحركة وسكتة.

وقرأ الجمهور[2]: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ﴾ بنصب ﴿كل﴾ على الاشتغال، وقرأ أبو السمال: بالرفع على الابتداء.

---

(١) الشوكاني.

(٢) البحر المحيط.

ومعنى الآية[1]: أي إنا نحن نحيي الموتى جميعاً من قبورهم يوم القيامة، ونكتب ما أسلفوا من عمل، وتركوا من أثر حسن بعدهم، كعلم علموه، أو حبيس في سبيل الله وقفوه، أو مستشفى لنفع الأمة أنشؤوه، أو أثر سيء كغرس الأحقاد والأضغان، وترتيب مبادىء الشر، والعدوان بين الأنام. روى ابن أبي حاتم عن جرير بن عبد الله البجلي قال: قال رسول الله ﷺ: «من سنّ سنة حسنة.. فله أجرها، وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، ومن سنّ سنة سيئة كان عليها وزرها ووزر من عمل بها من بعده، لا ينقص من أوزارهم شيئاً، ثم تلا: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾». والمراد من الكتابة ذلك مجازاتهم عليه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، ثم ذكر أن الضبط والإحصاء لا يخص أعمال بني آدم، بل يتناول جميع الأشياء، فقال: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾؛ أي: وبينّا كل شيء، وحفظناه في أصل عظيم يؤتم به ويُتبع ولا يخالف، وهو علمنا الأزلي القديم الذي لا يغادر صغيرةً ولا كبيرة إلا أحصاها، ونحو الآية قوله: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ وقوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾.

قوله: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ إلى قوله: ﴿خَامِدُونَ﴾، يشير[2] إلى أصناف ألطافه مع أحبائه، وأنواع قهره مع أعدائه، أمر الله تعالى سيد المرسلين ﷺ بإنذار مشركي مكة بتذكيرهم قصة أصحاب القرية، ليتحترزوا عن أن يحل بهم ما نزل بكفار أهل القرية.

قال في «الإرشاد»: ضرب المثل يستعمل على وجهين:

الأول: في تطبيق حالة غريبة بحالة أخرى مثلها، والمعنى عليه: واجعل يا محمد أصحاب القرية مثلاً وشبهاً لأهل مكة في الغلو في الكفر، والإصرار على تكذيب الرسل؛ أي: طبّق حالهم بحالهم؛ أي: شبه حالهم بحالهم على أن ﴿مَّثَلًا﴾ مفعول ثانٍ، و﴿أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ مفعوله الأول، أخر عنه ليتصل به ما هو شرحه وبيانه.

---

(١) المراغي.

(٢) روح البيان.

والثاني: في ذكر حالة غريبة، وبيانها للناس من غير قصدٍ إلى تطبيقها بنظيرة لها، والمعنى عليه: واذكر لهم وبيِّن لهم قصة هي في الغرابة كالمثل، فقوله: ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾؛ أي: مثل أصحاب القرية على تقدير المضاف كقوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾، وهذا المقدر بدل من الملفوظ، أو بيان له.

وقوله: ﴿إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ بدل من أصحاب القرية بدل الاشتمال لاشتمال الظروف على ما حل فيها، كأنه قيل: واجعل وقت مجيء المرسلين مثلاً، أو بدل من المضاف المقدر، كأنه قيل: واذكر لهم وقت مجيء المرسلين، وهم رسل عيسى عليه السلام إلى أهل أنطاكية. والمعنى: أي[1]: واجعل يا محمد أصحاب قرية أنطاكية مثلاً وشبهاً لهؤلاء المكذبين لك من أهل مكة؛ إذ أصروا على تكذيب الرسل الذين أرسلوا إليهم، كما أصر قومك على تكذيبك عناداً واستكباراً، والمشهور لدى المفسرين، ومنهم: قتادة وغيره: أن الرسل هم رسل عيسى عليه السلام من الحواريين، بعثهم إلى أهل أنطاكية، وكان منهم ما قصه الله علينا في كتابه، ويرى ابن عباس، واختاره كثير من أجلة العلماء أن الرسل هم رسل الله تعالى، أرسلهم ردءاً لعيسى عليه السلام، مقرِّرين لشريعته، كهارون لموسى عليه السلام، ويؤيد هذا القول:

١ - قولهم: ﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾.

٢ - أنهم لو كانوا رسل المسيح لما قالوا لهم: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾.

٣ - أن أهل أنطاكية آمنوا برسل المسيح إليهم، فقد كانوا أول أهل مدينة آمنت بالمسيح، ومن ثم كانت إحدى المدن الأربع اللاتي فيهم بطارقة النصارى، وهن: القدس وأنطاكية والاسكندرية ورومية؛ لأنها مدينة الملك قسطنطين الذي نصر دينهم ووطده، ولما ابتنى القسطنطينية نقلوا البطريق من رومية إليها.

واسم هذه القرية كما ذكرنا أولاً أنطاكية من قرى الروم، بفتح[2] الهمزة وكسرها وسكون النون وكسر الكاف وفتح الياء المخففة، قاعدة بلاد يقال لها:

---

(١) المراغي. (٢) روح البيان.

العواصم، وهي ذات عين، وسور عظيم من صخر، داخله خمسة أجبل، دورها اثنا عشر ميلاً، كما في «القاموس» ويقال: أنتاكية بالتاء بدل الطاء، وهو المسموع من لسان الملك في قصة ذكرت في «مشارق الأشواق»، قال الإمام السهيلي: نسبت أنطاكية إلى أنطقيس، وهو اسم الذي بناها، ثم غيِّرت، وكانت أنطاكية إحدى المدن الأربع التي يكون فيها بطارقة النصارى، وهي أنطاكية والقدس والاسكندرية ورومية، ثم بعدها قسطنطينية. قال في «خريدة العجائب»: رومية الكبرى: مدينة عظيمة في داخلها كنيسة عظيمة، طولها ثلاث مئة ذراع، وأركانها من نحاس مفرغ مغطّى كلها بالنحاس الأصفر، وبها أيضاً كنيسة بنيت على هيئة المقدس، وبها ألف حمام، وألف فندق، وهو الخان، ورومية أكبر من أن يحاط بوصفها ومحاسنها، وهي للروم مثل مدينة فرانسة للإفرنج، كرسي ملكهم ومجتمع أمرهم، وبيت ديانتهم، وفتحها من أشراط الساعة.

ذكر القصة في ذلك

قال العلماء بأخبار الأنبياء[1]: بعث عيسى عليه السلام رسولين من الحواريين إلى أهل أنطاكية، فلما قربا من المدينة.. رأيا شيخاً يرعى غنيمات له، وهو حبيب النجار صاحب يس، فسلما عليه، فقال الشيخ لهما: من أنتما؟ فقالا: رسولا عيسى عليه السلام، ندعوكم من عبادة الأوثان إلى عبادة الرحمن، فقال الشيخ لهما: أمعكما آية؟ قالا: نعم، نشفي المريض، ونبرىء الأكمه والأبرص بإذن الله تعالى، قال الشيخ: إن لي ابناً مريضاً منذ سنين، قالا: فانطلق بنا نطلع على حاله، فأتى بهما إلى منزله، فمسحا ابنه، فقام في الوقت بإذن الله تعالى صحيحاً، ففشا الخبر في المدينة، وشفى الله تعالى على أيديهما كثيراً من المرضى، وكان لهم ملك يعبد الأصنام، اسمه: أنطيخا، وكان من ملوك الروم، فانتهى خبرهما إليه، فدعا بهما، وقال: من أنتما؟ قالا: رسولا عيسى عليه السلام، قال: وفيم جئتما؟ قالا: ندعوك من عبادة ما لا يسمع ويبصر، فقال: وهل لنا إله دون آلهتنا؟ قال: نعم، الذي أوجدك وآلهتك، قال لهما: قوما حتى انظر في أمركما، فتبعهما الناس، فأخذوهما

(١) الخازن.

وضربوهما، وقال وهب: بعث عيسى عليه السلام هذين الرجلين إلى أنطاكية، فأتياها، فلم يصلا إلى ملكها، وطالت مدة مقامهما، فخرج الملك ذات يوم فكبّرا وذكرا الله تعالى، فغضب الملك، وأمر بهما فحبسا، وجلد كل واحد منهما مئة جلدة، فلما كُذِّبا وضربا بعث عيسى عليه السلام رأس الحواريين: شمعون الصفي على أثرهما ليبصرهما، فدخل شمعون البلد متنكراً، فجعل يعاشر حاشية الملك حتى أنسوا به، فرفعوا خبره إلى الملك، فدعاه وأنس به وأكرمه ورضي عشرته، فقال للملك ذات يوم: بلغني أنك حبست رجلين في السجن، وضربتهما حين دعواك إلى غير دينك، فهل كلمتهما، وسمعت قولهما؟ فقال: حال الغضب بيني وبين ذلك، قال: فإنَّ رأيي أيها الملك أن تدعوهما حتى تطلع على ما عندهما، فدعاهما الملك، فقال لهما شمعون: من أرسلكما إلى ههنا؟ قالا: الله الذي خلق كل شيء، وليس له شريك، فقال لهما شمعون: فصفاه وأوجزا، قالا: إنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فقال شمعون: وما آيتكما؟ قالا: ما تتمنّاه، فأمر الملك حتى جاؤوا بغلام مطموس العينين، وموضع عينيه كالجبهة، فما زالا يدعوان ربهما حتى انشقّ موضع البصر، فأخذا بندقتين من طين، فوضعاهما في حدقتيه، فصارتا مقلتين يبصر بهما، فتعجب الملك، فقال شمعون للملك: إن أنت سألت إلهك حتى يصنع لك مثل هذا كان الشرف لك ولإلهك، فقال له الملك: ليس لي عنك سرٌّ مكتوم، فإن الهنا الذي نعبده لا يسمع ولا يبصر، ولا يضر ولا ينفع، وكان شمعون يدخل مع الملك على الصنم، ويصلي ويتضرع حتى ظنوا أنه على ملتهم، فقال الملك للرسولين: إن قدر إلهكما الذي تعبدانه على إحياء ميت آمنا به وبكما، قالا: إلهنا قادر على كل شيء، فقال الملك: إن ههنا ميتاً قد مات منذ سبعة أيام ابن دهقان، وأنا أخرته فلم أدفنه حتى يرجع أبوه، وكان غائباً، فجاؤوا بالميت، وقد تغيّر وأروح، فجعلا يدعوان ربهما علانية وشمعون يدعو ربه سرًّا، فقام الميت، وقال: إني ميت منذ سبعة أيام، ووجدت مشركاً، فادخلت في سبعة أودية من النار، وأنا أحذِّركم ما أنتم عليه، فآمنوا بالله، ثم قال: فتحت أبواب السماء، فنظرت شاباً حسن الوجه يشفع لهؤلاء الثلاثة، قال الملك: ومن الثلاثة؟ قال: شمعون وهذان، وأشار بيده إلى صاحبيه، فعجب الملك من ذلك، فلما علم شمعون أنَّ قوله قد أثر في الملك.. أخبره بالحال ودعاه، فآمن الملك، وأمن معه قوم، وكفر آخرون،

قيل: بل كفر الملك، وأجمع على قتل الرسل هو وقومه، فبلغ ذلك حبيباً، وهو على باب المدينة، فجاء يسعى إليهم يذكِّرهم ويدعوهم إلى طاعة المرسلين، فذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ﴾ بدل من ﴿إِذْ﴾ الأولى؛ أي: واذكر لهم وقت إرسالنا اثنين إلى أصحاب القرية، واسمهما: يحيى ويونس، وقيل: صادق ومصدوق، وقيل: غير ذلك، ونسبة إرسالهما إليه تعالى بناءً على أنَّه بأمره تعالى، فكانت الرسل رسل الله، ويؤيِّده[1] مسألة فقهية، وهي أن وكيل الوكيل بإذن الموكل بأن قال الموكل له: اعمل برأيك يكون وكيلاً للموكل، لا للوكيل حتى لا ينعزل بعزل الوكيل إياه، وينعزل إذا عزله الموكل الأول، ويجوز أن يكون اللهُ أرسلهم بعد رفع عيسى إلى السماء، وقوله: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ مرتب على محذوف؛ أي: فأتياهم فدعواهم إلى الحق فكذبوهما في الرسالة بلا تراخ وتأمل، وضربوهما وحبسوهما كما سبق، ﴿فَعَزَّزْنَا﴾؛ أي: قويناهما، فحذف المفعول لدلالة ما قبله عليه، ولأن القصد ذكر المعزوزبه، وبيان تدبيره اللطيف الذي به عزّ الحق وذلَّ الباطل.

قرأ الجمهور بالتشديد، وقرأ أبو بكر عن عاصم والحسن وأبو حيوة والمفضل وأبان: بتخفيف الزاي، قال الجوهري: ﴿فَعَزَّزْنَا﴾ يخفف ويشدد؛ أي: قوينا وشددنا، فالقراءتان على هذا بمعنًى، وقيل: التخفيف بمعنى: غلبنا وقهرنا، ومنه: ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾، والتشديد بمعنى: قوّينا وكثرنا، ﴿بِثَالِثٍ﴾ هو شمعون الصفار، قاله ابن عباس، ويقال له: شمعون الصخرة أيضاً رئيس الحواريين، وقد كان خليفة عيسى عليه السلام بعد رفعه إلى السماء، وقال كعب ووهب: اسمه شلوم، وقيل: يونس.

قال في «التكملة»: اختلف في المرسلين الثلاثة، فقيل: كانوا أنبياء رسلاً، أرسلهم الله تعالى، وقيل: كانوا من الحواريين أرسلهم عيسى بن مريم إلى أهل القرية المذكورة، ولكن لما كان إرساله إياهم عن أمره.. أضاف الإرسال إليه. انتهى. علم منه أن الحواريين لم يكونوا أنبياء لا في زمان عيسى ولا بعد رفعه، وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «ليس بيني وبينه نبي»؛ أي: بين عيسى عليه السلام، وإن احتمل أن يكون المراد: النبي الذي يأتي بشريعة مستقلة، وهو لا ينافي وجود النبي

---

(١) روح البيان.

المقرر للشريعة المتقدمة.

وقرأ عبد الله: ﴿بالثالث﴾ بالألف واللام، و﴿قَالُوٓاْ﴾؛ أي: قال الثلاثة جميعاً: ﴿إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ﴾ مؤكدين كلامهم لسبق الإنكار، لما أن تكذيبهما تكذيب للثالث لاتحاد كلمتهم؛ أي: وجاؤوا بكلامهم هذا مؤكداً لسبق التكذيب للاثنين، والتكذيب لهما تكذيب للثالث؛ لأنهم أرسلوا جميعاً بشيء واحد، وهو الدعاء إلى الله عز وجل، وهذه الجملة[1] مستأنفة استئنافاً بيانياً واقعاً في سؤال مقدر، كأنه قيل: ما قال هؤلاء الرسل بعد التعزيز لهم بثالث؟

ومعنى الآية[2]: أي واذكر لهم حين أرسلنا إلى أهل القرية رسولين من عندنا، فأسرعوا في تكذيبهما، فقويناهما وشددنا أزرهما برسول ثالث، فقالوا لأهل القرية إنا إليكم مرسلون من ربكم الذي خلقكم بأن تخلصوا له العبادة، وتتبرّؤوا مما تعبدون من الألهة والأصنام، والمشهور: إن الرسولين الأولين كانا: يوحنا وبولس، والرسول الثالث: شمعون، ثم ذكر شبهةً كثيراً ما تمسك بها المكذبون للرسل من الأمم الماضية، ﴿قَالُوا۟﴾؛ أي: قال أهل أنطاكية الذين لم يؤمنوا مخاطبين للرسل الثلاثة، وهذه الجملة أيضاً مستأنفة واقعة في جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: فما قال لهم أهل أنطاكية؟ فقيل: قالوا: ﴿مَآ أَنتُمۡ﴾ أيها الثلاثة، ﴿إِلَّا بَشَرٞ﴾؛ أي: آدمي ﴿مِّثۡلُنَا﴾؛ أي: مشاركون لنا في البشرية، فليس لكم مزية علينا تختصون بها، وهذا من قبيل قصر القلب، فالمخاطبون وهم الرسل لم يكونوا جاهلين بكونهم بشراً، ولا منكرين لذلك، لكنهم نزّلوا منزلة المنكرين لاعتقاد الكفار أن الرسول لا يكون بشراً، فنزلوهم منزلة المنكرين للبشرية لما اعتقدوا التنافي بين الرسالة والبشرية، فقلبوا هذا الحكم وعكسوه، وقالوا: ما أنتم إلا بشر مثلنا؛ أي: أنتم مقصورون على البشرية، ليس لكم وصف الرسالة التي تدَّعونها، فلا فضل لكم علينا يقتضي اختصاصكم بالرسالة دوننا، ولو أرسل الرحمن إلى البشر رسلاً.. لجعلهم من جنس أفضل منهم، وهم الملائكة على زعمهم، وهذا الموضع قد بسط الكلام فيه في كتب البلاغة فراجعها.

﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ﴾ من وحي سماوي، ومن رسول يبلّغه، فكيف صرتم

---

(١) روح البيان. (٢) المراغي.

رسلاً، وكيف يجب علينا طاعتكم، وهو تتمّة الكلام المذكور؛ لأنه يستلزم الإنكار أيضاً؛ أي: ما أنزل شيئاً مما تدّعونه ويدعيه غيركم ممن قبلكم من الرسل وأتباعهم وفي قولهم: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ إيماء إلى أنهم يعترفون بالألوهية لكنهم ينكرون الرسالة ويتوسلون بالأصنام. ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾؛ أي: ما أنتم ﴿إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ في دعوى رسالته، فأجابوهم بإثبات رسالتهم بكلام مؤكّد تأكيداً بليغاً لتكرر الإنكار من أهل أنطاكية حيث: ﴿قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾﴾؛ وإن كذبتمونا. فأكّدوا الجواب بالقسم الذي يفهم من قولهم: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ﴾، وبإن وباللام؛ أي: استشهدوا بعلم الله، وهو يجري مجرى القسم في التوكيد مع ما فيه من تحذيرهم معارضة علم الله، وزادوا اللام لما شهدوا منهم من شدة الإنكار، ﴿وَمَا عَلَيْنَآ﴾؛ أي: من جهة ربنا، ﴿إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾؛ أي: إلا تبليغ رسالته تبليغاً ظاهراً واضحاً مبيناً بالآيات الشاهدة بالصحة، فإنه لا بدّ للدعوى من البينة، وقد خرجنا من عهدته فلا مؤاخذة لنا بعد ذلك من جهة ربنا، وليس في وسعنا إجباركم على الإيمان، ولا أن نوقع في قلوبكم العلم بصدقنا، فإن آمنتم وإلا فينزل العذاب عليكم، وفيه تعريض لهم بأن إنكارهم للحق ليس لخفاء حاله وصحته، بل هو مبني على محض العناد والحمية الجاهلية.

وهذه الجملة مستأنفة كالتي قبلها، وكذلك قوله: ﴿قَالُوٓا۟﴾ لما ضاقت عليهم الحيل، ولم يبقَ لهم علل وحجج، ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ فإنها مستأنفة جواباً عن سؤال مقدَّر؛ أي إنا تشاءمنا بكم جرياً على ديدن الجهلة؛ حيث كانوا يتمنون بكل ما يوافق شهواتهم، وإن كان مستجلباً لكل شرٍّ ووبال، ويتشاءمون بكل ما لا يوافقها، وإن كان مستتبعاً لسعادة الدارين، وقال النقشبندي: قد تشاءمنا بقدومكم؛ إذ منذ قدمتم إلى ديارنا ما نزل القطر علينا، وما أصابنا هذا الشر إلا من قبلكم، أخرجوا من بيننا، واخرجوا إلى أوطانكم سالمين، وانتهوا عن دعوتكم، ولا تتفوّهوا بها بعد، قيل: أسرع فيهم الجذام عند تكذيبهم الرسل، وكان ﷺ يحب التفاؤل، ويكره التطيُّر، والفرق بينهما[1]: أن الفأل إنما هو من طريق حسن الظن بالله، والتطير إنما هو من طريق الاتكال على شيء سواه.

---

(١) روح البيان.

وفي الخبر: لما توجه النبي ﷺ نحو المدينة.. لقي بريدة بن أسلم، فقال: «من أنت يا فتى»؟ قال: بريدة، فالتفت النبي ﷺ إلى أبي بكر فقال: «برد أمرنا وصلح»؛ أي: سهل، ثم قال عليه السلام: «ابن من أنت يا فتى؟» قال: ابن أسلم، فقال النبي عليه السلام لأبي بكر رضي الله عنه: «سلمنا من كيدهم».

وفي الفقه: لو صاحت الهامة أو طير آخر، فقال رجل: يموت المريض، يكفر، ولو خرج إلى السفر ورجع فقال: ارجع لصياح العقعق، كفر عند البعض وفي الحديث: «ليس عبد إلا سيدخل في قلبه الطيرة، فإذا أحسَّ بذلك.. فليقل: أنا عبد الله، ما شاء الله لا قوّة إلا بالله، لا يأتي بالحسنات إلا الله، ولا يذهب بالسيئات إلا الله، أشهد أن الله على كل شيء قدير، ثم يمضي بوجهه»؛ أي: يمر إلى جهة حاجته، قالوا: من تطير تطيراً منهياً عنه حتى منعه مما يريده من حاجته، فإنه قد يصيبه ما يكرهه، كما في «عقد الدر».

﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا﴾؛ أي: والله لئن لم تمتنعوا عن مقالتكم هذه، ولم تسكتوا عنا ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾؛ أي: لنرمينكم بالحجارة؛ أي: لئن لم تتركوا هذه الدعوى، وتعرضوا عن هذه المقالة.. لنرجمنكم بالحجارة. ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم﴾؛ أي: وليصيبنّكم، ﴿مِّنَّا﴾؛ أي: من جهتنا، ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: عذاب شديد وجيع فظيع؛ أي: لا نكتفي برجمكم بحجر أو حجرين، بل نديم ذلك عليكم إلى الموت، وهذا العذاب الأليم، أو ليمسنكم بسبب الرجم منا عذاب مؤلم. قال الفراء: عامة ما في القرآن من الرجم المراد به: القتل: وقال قتادة هو على بابه من الرجم بالحجارة، قيل: ومعنى العذاب: القتل: وقيل: الشتم، وقيل: هو التعذيب المؤلم من غير تقييد بنوع خاص، وهذا هو الظاهر. وفسر بعضهم الرجم بالشتم، فيكون المعنى: لا نكتفي بالشتم، بل يكون شتمنا مؤدياً إلى الضرب والإيلام الحسي.

والمعنى[1]: أي إنا تشاءمنا من تبليغكم ودعوتكم، فقد افتتن بعض القوم بكم، وتفرقت كلمتنا، وانفرط عقد وحدتنا، ولئن لم تنتهوا عن بث هذه الدعوة بيننا لنرجمنكم بالحجارة رجماً، ولنمثلن بكم شر التمثيل، أو لنعذبنكم عذاباً شديداً، وأنتم أحياء.

---

(١) المراغي.

والخلاصة: إنّا إما أن نقتلكم أو نلقينكم في غيابات السجون، وننكل بكم تنكيلاً عظيماً، ثم أجاب عليهم الرسل دفعاً لما زعموه من التطير بهم، فـ﴿قَالُواْ﴾؛ أي: المرسلون لأهل أنطاكية، ﴿طَٰٓئِرُكُم﴾؛ أي: سبب شؤمكم، ﴿مَّعَكُمْ﴾؛ أي: من جهة أنفسكم لازم في أعناقكم، لا من قبلنا، وليس هو من شؤمنا؛ أي: سوء حالكم وشدتكم، وإصابة الضرر بكم من الله بسببكم، وهو سوء اعتقادكم، وقبح أعمالكم، فالطائر بمعنى ما يتشاءم به مطلقاً، قال الفراء: طائركم؛ أي: رزقكم وعملكم، وبه قال قتادة، وقال أبو حيان؛ أي: حظكم، وما صار لكم من خير أو شر معكم؛ أي: من أفعالكم ليس هو من أجلنا، بل بكفركم؛ أي: قالوا لهم: سبب شؤمكم من أفعالكم، لا من قبلنا كما تزعمون، فأنتم أشركتم بالله سواه، وأولعتم بالمعاصي، واجترحتم السيئات، أما نحن فلا شؤم من قبلنا، فإنا لا ندعوا إلا إلى توحيد الله، وإخلاص العبادة له، والإنابة إليه، وفي ذلك منتهى اليمن والبركة.

وقرأ الجمهور[1]: ﴿طَٰٓئِرُكُم﴾ على وزن اسم الفاعل، وقرأ الحسن وابن هرمز وعمرو بن عبيد وزر بن حبيش: ﴿طيركم﴾ بياء ساكنة بعد الطاء، وقرأ الحسن فيما نقل: ﴿اطيركم﴾ مصدر؛ اطير الذي أصله: تطير، فأدغمت التاء في الطاء، فاجتلبت همزة الوصل في الماضي والمصدر، وقوله: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ بهمزتين همزة الاستفهام التوبيخي، وهمزة إن الشرطية، وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة ما قبله عليه؛ أي: هل إن وعظتم بما فيه سعادتكم، وخوفتم.. تطيرتم أو توعدتم بالرجم والتعذيب؟

وقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ إضراب[2] عما تقضيه الشرطية من كون التذكير سبباً للشؤوم، أو مصحّحاً للتوعيد؛ أي: ليس الأمر كذلك، بل أنتم قوم عادتكم الإسراف في العصيان والتجاوز فيه عن الحد، فلذلك أتاكم الشؤم أو في الظلم والعدوان، ولذلك توعدتم وتشاءمتم بمن يجب إكرامه والتبرك به، وهؤلاء القوم في الحقيقة هم النفس وصفاتها، فإنها أسرفت في موافقة الطبع ومخالفة الحق، فكل من كان في يد مثل هذه النفس.. فهو لا يبالي بالوقوع في المهالك،

---

(١) البحر المحيط. (٢) روح البيان.

ولا يزال يدعو الناس إلى ما سلكه من شر المسالك، وكل من تخلص عنها وزكاها.. أفلح هو ومن تبعه، ولذا وعظ الأنبياء، وذكَّروا ونبَّهوا الناس على خطئهم وإسرافهم، وردوهم عن طريقة أسلافهم، ولكن الذكرى إنما تنفع المؤمنين.

والمعنى[1]: أي أمن جرّاء أنا ذكرناكم وأمرناكم بعبادة الله مخلصين له الدين.. تقابلونا بمثل هذا الوعيد، بل أنتم قوم ديدنكم الإسراف، ومجاوزة الحد في الطغيان، ومن ثَمَّ جاءكم الشؤم، ولا دخل لرسل الله في ذلك.

والخلاصة: أنتم قوم مسرفون في ضلالتكم، متمادون في غيِّكم، تتشاءمون بمن يجب التبرك بهم من هداة الدين، فقد جعلتم أسباب السعادة أسباباً للشقاء، ولا يخفى ما في ذلك من شديد التوبيخ وعظيم التهديد، والتنبيه إلى سوء صنيعهم بحرمانهم من الخيرات، ونحو الآية قوله تعالى حكاية عن قوم فرعون: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَـٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَـٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

وقرأ الجمهور من السبعة وغيرهم[2]: ﴿أَإِن ذُكِّرْتُم﴾ بهمزتين، الأولى همزة الاستفهام التوبيخي، والثانية همزة إن الشرطية، فحققها الكوفيون، وابن عامر، وسهلها باقي السبعة، وقرأ زر بن حبيش وابن السميقع: بهمزتين مفتوحتين ﴿أأن﴾ وهي قراءة أبي جعفر وطلحة، إلا أنهما لينا الثانية بين بين، وقرأ الماجشون، وهو أبو سلمة يوسف بن يعقوب بن عبد الله بن أبي سلمة المدني: بهمزة واحدة مفتوحة، والحسن بهاء مكسورة، وأبو عمرو في رواية، وزر أيضاً: بمدة قبل الهمزة المفتوحة، استثقل اجتماعهما ففصل بينهما بألف. وقرأ أبو جعفر أيضاً والحسن أيضاً وقتادة وعيسى الهمداني والأعمش: ﴿أين﴾ بهمزة مفتوحة وياء ساكنة ونون مفتوحة، ظرف مكان، وروي هذا عن عيسى الثقفي أيضاً، فالقراءة الأولى على معنى: هل إن ذكرتم تتطيرون؛ بجعل المحذوف مصب الاستفهام على مذهب سيبويه، وبجعله للشرط على مذهب يونس، فإن قدرته مضارعاً كان مجزوماً، والقراءة الثانية على معنى: ألِئن ذُكِّرتم تطيرتم، فإن مفعول من أجله، وكذلك الهمزة الواحدة المفتوحة، والتي بمدة قبل الهمزة المفتوحة، وقراءة الهمزة المكسورة

---

(١) المراغي.

(٢) البحر المحيط.

وحدها، فحرف شرط بمعنى الإخبار؛ أي: إن ذكِّرتم تطيَّرتم، والقراءة الأخيرة: ﴿أين﴾ فيها ظرف مكان، أداة الشرط حذف جزاؤه للدلالة عليه، تقديره: أين ذكرتم صحبكم طائركم، ويدل عليه قوله: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ﴾ ومن جوَّز تقديم الجزاء على الشرط وهم الكوفيون وأبو زيد المبرد.. يجوز أن يكون الجواب: طائركم معكم، وكان أصله: أين ذكرتم فطائركم معكم، فلما قدم حذفت الفاء.

وقرأ الجمهور: ﴿ذُكِّرۡتُم﴾ بتشديد الكاف، وأبو جعفر وخالد بن إلياس وطلحة والحسن وقتادة وأبو حيوة والأعمش من طريق زائدة والأصمعي عن نافع بتخفيفها.

ثم أبان أن الحق لا يعدم نصيراً، وأن الله يقيِّض له من يدافع عنه فقال: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ﴾؛ أي: من أبعد جوانب أنطاكية، ﴿رَجُلٞ﴾ عظيمُ الشأن، قويُّ الأيمان، فيه[1] إشارة إلى رجولية الجائي وجلادته، وتنكيره لتعظيم شأنه، لا لكونه رجلاً منكوراً غير معلوم، فإنه معلوم عند الله تعالى، وكان منزله عند أقصى باب المدينة، وفي مجيئه من أقصى المدينة بيان لكون الرسل أتوا بالبلاغ المبين حتى بلغت دعوتهم إلى أقصى المدينة، حيث آمن الرجل، وكان دور السور اثني عشر ميلاً؛ أي: فلما سمع خبر الرسل مع القوم جاء حالة كونه ﴿يَسۡعَىٰ﴾؛ أي: يسرع في مشيه، فإن السعي: المشي السريع، وهو دون العدو، كما في «المفردات».

فإن قلت[2]: لِمَ قدَّم هنا ﴿مِنۡ أَقۡصَا﴾ على ﴿رَجُلٞ﴾، وأخره عنه في سورة القصص؟.

قلت: خالف بين الموضعين بالتقديم والتأخير تفنناً في البلاغة، وهو من المحسنات البديعية اللفظية، وذلك الرجل هو حبيب بن موسى النجار المشهور عند العلماء بصاحب يس، وفي بعض التواريخ كان من نسل الإسكندر الرومي، وإنما سمي حبيب النجار؛ لأنه كان نجاراً ينحت الأصنام وغيرها. وقيل: كان إسكافاً، وقيل: كان قصاراً، ويمكن أن يكون جامعاً لهذه الصنائع، وقيل: هو حبيب بن

---

(١) روح البيان.
(٢) البحر المحيط بتصرف.

إسرائيل النجار، قيل: كان مجذوماً، فمنزله عند أقصى باب من أبواب المدينة، عَبَد الأصنام سبعين سنة، يدعوهم لكشف ضره، فلما دعاه الرسل إلى عبادة الله تعالى.. قال: هل من آية؟ قالوا: نعم، ندعو ربنا القادر يفرّج عنك ما بك، فقال: إن هذا لعجيب، لي سبعون سنةً أدعو هذه الآلهة، فلم تستطع، يفرجه ربكم في غداة واحدة؟ قالوا: نعم، ربنا على ما يشاء قدير، وهذه لا تنفع شيئاً، ولا تضر، فآمن، ودعوا ربهم، فكشف الله ما به كأن لم يكن به بأس، فأقبل على التكسب، فإذا تكسب.. تصدق بنصف كسبه، والنصف الآخر لنفسه وعياله، فلما همَّ قومه بقتل الرسل.. جاءهم يسعى، ف﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ﴾ هؤلاء ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ المبعوثين إليكم بالحق، وهذه الجملة مستأنفة واقعة في جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: فما قال عندما جاء ساعياً، ووصل إلى المجمع، ورآهم مجتمعين على الرسل قاصدين قتلهم؟ فقيل: قال: يا قوم، أصله: يا قومي، خاطبهم بيا قومي لتأليف قلوبهم، واستمالتها نحو قبول نصيحته، وللإشارة إلى أنه لا يريد بهم إلا الخير، وأنه غير متهم بإرادة السوء بهم، قال بعضهم: وكان مشهوراً بينهم بالورع واعتدال الأخلاق، وفي قوله: ﴿ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ تعرض لعنوان رسالتهم حثاً لهم على اتباعهم.

ثم أكد ذلك وكرره فقال: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ﴾؛ أي: من لا يسألونكم ﴿أَجۡرٗا﴾ وجعلاً على ما جاؤكم به من الهدى؛ أي: لا يطلبون منكم أجرةً ومالاً على النصح لكم، وتبليغ الرسالة إليكم. ﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾؛ أي: والحال أنهم مهتدون في أنفسهم إلى خير الدين والدنيا، والمهتدي إلى طريق الحق الموصل إلى هذا الخير إذا لم يكن متهماً في الدعوة.. يجب اتباعه، وإن لم يكن رسولاً، فكيف وهم ورسل ومهتدون؟! ومن قال: الإيغال هو ختم الكلام بما يفيد نكتة يتمّ المعنى بدونها.. تكون الآية عنده مثالاً له؛ لأن قوله: ﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ مما يتم المعنى بدونه؛ لأن الرسول مهتدٍ لا محالة إلا أن فيه زيادة حثٍّ على اتباع الرسل، وترغيب فيه، فقوله: ﴿مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ﴾ بدل من المرسلين معمول لاتبعوا الأول، والثاني: تأكيد لفظي للأول، نظير قوله تعالى: ﴿لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ﴾ هذا عند بعض النحويين، وأما عند جمهورهم فلا يجوز أن يعرب بدلاً إذا صُرِّح بالعامل الرافع أو الناصب. قال في «الإرشاد»: تكرير للتأكيد وللتوسل به إلى وصفهم بما يرغِّبهم في اتباعهم من التنزه عن الغرض الدنيوي الاهتداء إلى خير الدنيا والدين.

انتهى. وفيه ذم للمتشيخة المزوِّرين الذين يجمعون بتلبيساتهم أموالاً كثيرةً من الضعفاء الحمقى، السائلين، نحو أباطيلهم، ودليل على نقص من يأخذ أجراً على شيء من أفعال الشرع التي هي لازمة له، كالصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله تعالى.

والمعنى[١]: أي وجاء من أطراف المدينة رجل يعدو مسرعاً لينصح قومه حين بلغه أنهم عقدوا النية على قتل الرسل، فتقدم للذب عنهم ابتغاء وجه الله ونيل ثوابه، قال: يا قوم، اتبعوا رسول الله الذين لا يطلبون منكم أجراً على تبليغهم، ولا يطلبون علواً في الأرض ولا فساداً، وهم سالكون طريق الهداية التي توصل إلى سعادة الدارين

روي: أن هذا الرجل يسمى حبيباً، وكان نجاراً، قال ابن أبي ليلى: سباقوا الأمم ثلاثة، لم يكفروا قط طرفة عين: علي بن أبي طالب، وصاحب يس، ومؤمن آل فرعون. ورواه الزمخشري حديثاً، وقال ابن كثير: إنه حديث منكر لا أصل له، ثم أبان أنه ما اختار لهم إلا ما اختاره لنفسه، فقال: ﴿وَمَا لِيَ﴾؛ أي: وأيُّ شيء ثبت لي، وأي عذر ومانع عرض لي في كوني ﴿لَآ أَعۡبُدُ﴾ الإله ﴿ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ وخلقني وطهرني من كتم العدل، ورباني بأنواع اللطف والكرم، وهذا تلطف منه في الإرشاد بإيراده في معرض المناصحة لنفسه وإمحاض النصح؛ حيث أراهم أنه اختار لهم ما يختار لنفسه، والمراد تقريعهم على ترك عبادة خالقهم إلى عبادة غيره؛ أي: أيُّ مانع من جانبي يمنعني من عبادة الذي خلقني؛ أي: لا مانع له من ذلك، فالاستفهام إنكاري.

قرأ غير حمزة[٢]: بفتح الياء، وقرأ حمزة بإسكانها، ثم رجع إلى خطابهم لبيان أنه ما أراد نفسه، بل أرادهم بكلامه فقال: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾، ولم يقل: وإليه أرجع، وفيه مبالغة في التهديد؛ أي: إليه تعالى لا إلى غيره تردون أيها القوم بعد البعث للمجازاة والمحاسبة.

---

(١) المراغي.

(٢) البيضاوي.

فإن قلت[1]: كيف أضاف الفطرة إلى نفسه والرجوع الذي هو البعث إليهم مع علمه بأن الله فطرهم وإياه، وإليه يرجع هو وهم، فلم يقل: الذي فطرنا وإليه نرجع، أو: فطركم وإليه ترجعون؟.

قلت: لأن الخلق والإيجاد نعمة من الله تعالى، توجب الشكر، والبعث بعد الموت للجزاء وعيد من الله يوجب الزجر، فأضاف ما يقتضي الشكر إلى نفسه؛ لأنه أليق بإيمانه، وما يقتضي الزجر إليهم؛ لأنه أليق بكفرهم.

والمعنى: أي وما يمنعني من إخلاص العبادة للذي خلقني، وإليه المرجع للجزاء يوم المعاد، فيجازيكم على أعمالكم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وفي هذا تقريع لهم بتركهم عبادة الخالق، وعبادة غيره، وتهديد بتخويفهم بالرجوع إلى شديد العقاب، ثم أعاد التوبيخ مرةً أخرى، وساق الكلام المساق الأول، وهو إبراز الكلام في صورة النصيحة لنفسه فقال: ﴿ءَأَتَّخِذُ﴾؛ أي: أأعبد ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ تعالى، ﴿ءَالِهَةً﴾ آلهة لا تملك من الأمر شيئاً، وهي الأصنام، وهو إنكار ونفي لاتخاذ الآلهة على الإطلاق؛ أي: لا أتخذ من دون الذي فطرني آلهة باطلة لا تنفعني ولا تضرني، فجعل الإنكار متوجهاً إلى نفسه، وهم المرادون به؛ أي: لا أتخذ من دون الله آلهة وأعبدها، وأترك عبادة من يستحق العبادة، وهو الذي فطرني، ثم بيَّن حال هذه الأصنام التي يعبدونها من دون الله سبحانه إنكاراً عليهم، وبياناً لضلال عقولهم وقصور إدراكهم فقال: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ﴾ وقرأ طلحة بن مصرف ﴿إن يزدني﴾ بفتح الياء؛ أي: إن أرادني الرحمن بضرر؛ أي: إن أراد الرحمن أن يصيبني بسوء ومكروه ﴿لَّا تُغْنِ عَنِّى﴾؛ أي: لا تدفع عني، ﴿شَفَٰعَتُهُمْ﴾؛ أي: شفاعة تلك الآلهة، ﴿شَيْـًٔا﴾ من الضرر؛ أي: لا تنفعني شيئاً من النفع، إذ لا شفاعة لهم فتنتفع، فنصب ﴿شَيْـًٔا﴾ على المصدرية، وقوله: ﴿لَّا تُغْنِ﴾ جواب الشرط، والجملة الشرطية مستأنفة لا محل لها من الإعراب، ﴿وَلَا يُنقِذُونِ﴾؛ أي: لا يخلِّصونني من ذلك الضرر والمكروه بالنصرة والمظاهرة، وهو عطف على ﴿لَّا تُغْنِ﴾، وعلامة الجزم فيه حذف نون الإعراب؛ لأن أصله لا ينقذونني، وهو تعميم بعد تخصيص مبالغةً بهما في عزهم وانتفاء قدرتهم.

---

(١) فتح الرحمن.

قال الإمام السهيلي: ذكروا أن حبيباً كان به داء الجذام، فدعا له الحواري فشفي، فلذلك قال: إن يردن الرحمن. الخ انتهى. وقال بعضهم: إن المريض كان ابنه إلا أن يقال: لا مانع من ابتلاء كليهما، أو أن مرض ابنه في حكم مرض نفسه، فلذا أضاف الضر إلى نفسه، ويحتمل أن الضر ضر القوم؛ لأنه روي شفاء كثير من مرضاهم على يدي الرسل، فأضافه حبيب إلى نفسه على طريقة ما قبله من الاستمالة، وتعريفاً للإحسان بهم بطريق اللطف، ﴿إِنِّيٓ إِذًا﴾؛ أي: إذا اتخذت من دونه آلهة، ﴿لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: لفي خسران واضح، فإن إشراك ما ليس من شأنه النفع، ولا دفع الضر بالخالق المقتدر الذي لا قادر غيره، ولا خير إلا خيره ضلالٌ بيِّن، لا يخفى على أحدٍ ممن له تمييز في الجملة، وهذا تعريض بضلالهم كما سبق.

ثم التفت إلى الرسل، وخاطبهم مصرِّحاً بإيمانه، منيباً إلى ربه فقال: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ﴾ الذي أرسلكم، ﴿فَٱسْمَعُونِ﴾؛ أي: فاسمعوا كلامي من الإيمان، فاشهدوا لي بذلك عند ربي، قال المفسرون: أراد قومه قتله، فأقبل هو على المرسلين فقال: إني آمنت بربكم أيها الرسل، فاسمعوا إيماني، واشهدوا لي به، وقيل: إنه خاطب بهذا الكلام قومه لما أرادوا قتله تصلباً في الدين، وتشدداً في الحق، فلما قال هذا القول وصرَّح بالإيمان.. وثبوا عليه فقتلوه؛ وقيل: وطئوه بأرجلهم حتى خرجت أمعاؤه، وقيل: حرقوه، وقيل: حفروا له حفيرة وألقوه فيها، وقيل: إنهم لم يقتلوه، بل رفعه الله إلى السماء، فهو في الجنة، وبه قال الحسن، وقيل: نشروه بالمنشار حتى خرج من بين رجليه، وروي أنه لما قال ذلك.. وثبوا عليه وثبةَ رجلٍ واحد، فقتلوه، ولم يجد من يدافع عنه، قال قتادة: جعلوا يرجمونه بالحجارة، وهو يقول: اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون، فلم يزالوا به كذلك حتى فارق الحياة، والمعنى: على أنه خطاب لقومه: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ﴾ الذي خلقكم وربَّاكم بأنواع النعم، وإنما قال: بربكم، ولم يقل: آمنت بربي؛ ليعلموا أن ربهم هو الذي يعبده هو فيعبدوا ربهم، ولو قال: إني آمنت بربي، لعلهم يقولون: أنت تعبد ربك، ونحن نعبد ربنا، وهو آلهتهم. ﴿فَٱسْمَعُونِ﴾؛ أي: أجيبوني في وعظي ونصحي، واقبلوا قولي، كما يقال: سمع لمن حمده؛ أي: قبله، فالخطاب للكفرة، شافههم بذلك إظهاراً للتصلب في الدين، وعدم المبالاة بالقتل.

وإضافة الربِّ إلى ضميرهم لتحقيق الحق، والتنبيه على بطلان ما هم عليه من اتخاذ الأصنام أرباباً، كما في «الإرشاد». وإنما أكَّده إظهاراً لصدوره عنه بكمال الرغبة والنشاط.

ثم ذكر مآل أمره، وما قاله حين وجد النعيم والكرامة، فقال: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ﴾؛ أي: قيل لحبيب النجار من جهة الرب جل جلاله حين قتلوه: ادخل الجنة إكراماً له بدخولها حينئذ، كما هي سنة الله سبحانه في عباده الشهداء، وقيل: معناه: البشرى بدخول الجنة، وأنه من أهلها، يدخلها بعد البعث، لا أنه أمر بدخولها في الحال؛ لأن الجزاء بعد البعث، وعلى قول من قال: إنه رفع إلى السماء ولم يقتل.. يكون المعنى: أنهم لما أرادوا قتله.. نجاه الله من القتل، وقيل له: ادخل الجنة.

وإنما لم يقل: قيل له بزيادة لفظة: له؛ لأن الغرض بيان مقول، لا المقول له؛ لظهوره وللمبالغة في المسارعة إلى بيانه، والجملة مستأنفة واقعة في جواب سؤال مقدر نشأ عن حكاية حاله ومقاله، كأنه قيل: كيف كان بقاؤه عند ربه بعد ذلك التصلب في دينه، والتسخي بروحه لوجهه تعالى، فقيل: قيل له: ادخل الجنة، وكذا قوله تعالى: ﴿قَالَ﴾ الخ مستأنف واقع في جواب سؤال مقدَّر نشأ من حكاية حاله، كأنه قيل: فماذا قال عند نيله تلك الكرامة السنية؟ فقيل: قال متمنياً علم قومه بحاله ليحملهم ذلك على اكتساب مثله بالتوبة من الكفر، والدخول في الإيمان والطاعة، جرياً على سنن الصالحين في كظم الغيظ، والترحم على الأعداء، وليعلموا أنهم على خفاء عظيم في أمره، وأنه كان على الحق، وأن عداوتهم لم تكسبه إلا سعادة؛ أي: فلما دخل الجنة وشاهدها قال حبيب النجار: ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي﴾ ﴿يا﴾ في مثل هذا المقام لمجرد التنبيه من غير قصد إلى تعيين المنبه؛ أي: انتبه أيها المخاطب، أتمنى أن قومي ﴿يَعۡلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ ﴿ما﴾: إما موصولة، والباء صلة ﴿يَعۡلَمُونَ﴾؛ أي: أتمنى علم قومي بالأمر الذي بسببه غفر لي ربي ذنوبي، وهو الإيمان به والطاعة أو: مصدرية، والباء: صلة العلم أيضاً؛ أي: أتمنى علم قومي بغفران ربي لذنوبي، أو استفهامية وردت على الأصل، وهو أن لا تحذف الألف بدخول الجار عليها، والباء: صلة غفر على هذا الوجه؛ أي: أتمنى علم قومي بأيِّ شيء غفر لي ربي ذنوبي، يريد تفخيم شأن المهاجرة عن ملتهم،

والمصابرة على أذيتهم لإعزاز الدين حتى قُتل.

﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾؛ أي: من المنعمين في الجنة، وإن كان على النصف؛ إذ تمامه إنما يكون بعد تعلق الروح بالجسد يوم القيامة. وفي الحديث المرفوع: «نصح قومه حياً وميتاً»، وهكذا[1] ينبغي للمؤمن أن يكون ناصحاً للناس، لا يلتفت إلى تعصُّبهم وتمردهم، ويستوي حاله في الرضى والغضب. قال حمدون القصار: لا يسقط عن النفس رؤية الخلق بحال، ولو سقط عنها في وقت لسقط في المشهد الأعلى في الحضرة، ألا تراه في وقت دخول الجنة يقول: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ يحدِّث نفسه، إذ ذاك.

وقرىء[2]: من ﴿المكرّمين﴾ مشدد الراء مفتوح الكاف، وقرأ الجمهور: بإسكان الكاف وتخفيف الراء.

ومعنى الآية: أي قال الله سبحانه له: ادخل الجنة كفاء ما قدمت من عمل، وأسلفت من إحسان، فلما دخلها وعاين ما أكرمه الله به لإيمانه وصبره.. قال: يا ليت قومي يعلمون بما أنا فيه من نعيم وخير عميم لإيماني بربي، وتصديقي برسله، وصبري على أذى قومي، وإنما تمنى علم قومه بحاله ليحملهم ذلك على اكتساب المثوبة مثله بالتوبة عن الكفر، والدخول في حظيرة الإيمان والطاعة، اتباعاً لسنن أولياء الله الذي يكظمون الغيظ، ويترحمون على الأعداء.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: نصح قومه حياً بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، وبعد مماته بقوله: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

الإعراب

﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾﴾.

﴿يسٓ ﴿١﴾﴾: إن قلنا إنه علم على السورة.. فهو إما خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هذه يس، والخبر مرفوع، وعلامة رفعه ضمة ظاهرة في آخره على قراءة الرفع،

(١) روح البيان.

(٢) البحر المحيط.

ولم ينون؛ لأنه اسم لا ينصرف للعلمية والتأنيث المعنوي، أو مبتدأ خبره محذوف تقديره: يس هذا محلها، أو مفعول لفعل محذوف على قراءة النصب تقديره: اقرأ يس، أو مجرور بحرف قسم محذوف على قراءة الجر. وإن قلنا إنه من الحروف المقطعة التي وقعت فواتح السور.. فلا توصف بإعراب ولا بناء؛ لأنهما فرع عن إدراك المعنى، ومعناها: لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى. ﴿وَٱلْقُرْءَانِ﴾: الواو: حرف جر وقسم، ﴿القرآن﴾: مقسم به مجرور بواو القسم، ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾: صفة له، الجار والمجرور متعلق بمحذوف، تقديره: أقسم بالقرآن الحكيم، وجملة القسم مستأنفة. ﴿إِنَّكَ﴾: ناصب واسمه، ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: جار ومجرور خبره، واللام حرف ابتداء وتوكيد، وجملة ﴿إنّ﴾ جواب القسم لا محل لها من الإعراب، ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ﴾: جار ومجرور خبر ثانٍ لـ﴿إنّ﴾، ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾: صفة ﴿صِرَٰطٍ﴾، ويجوز أن يكون الجار والمجرور حالاً من الضمير المستكن في خبر ﴿إنّ﴾، وأجاز الزمخشري أن يتعلق بالمرسلين؛ أي: من الذين أرسلوا على طريقةٍ مستقيمة، ولا بأس بهذا الإعراب.

﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧﴾.

﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ﴾: بالنصب مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره: نزل العزيز الرحيم القرآن تنزيلاً، أو منصوب على المدح بفعل محذوف تقديره: أمدح تنزيل العزيز الرحيم، وبالرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هو تنزيل العزيز، وبالجر بدل من ﴿يسٓ ۝١﴾، أو صفة له؛ لأنه بمعنى منزَّل. ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾: مضاف إليه، ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾: صفة لـ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾، ﴿لِتُنذِرَ﴾: ﴿اللام﴾: حرف جر وتعليل، ﴿تنذر﴾: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل، وفاعله ضمير يعود على محمد، ﴿قَوْمًا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية مع أن المضمرة في تأويل مصدر مجرور باللام، الجار والمجرور متعلق بـ﴿تَنزِيلَ﴾؛ أي: نزلت عليك لإنذارك قوماً، أو متعلق بمعنى قوله: من المرسلين؛ أي: أرسلت لإنذارك قوماً، ﴿مَّآ﴾: نافية، ﴿أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾: فعل ونائب فاعل، والجملة في محل النصب صفة لـ﴿قَوْمًا﴾، ويجوز أن تكون ﴿مَّآ﴾ موصولة أو موصوفة في محل النصب على أنها مفعول ثان لـ﴿تنذر﴾، وجملة ﴿أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ صلة لها، أو صفة لها، والعائد أو الرابط

محذوف تقديره: لتنذر قوماً العذاب الذي أنذره آباؤهم،أو عذاباً أنذره آباؤهم، ويجوز أن تكون مصدرية؛ أي: لتنذر قوماً إنذار آبائهم، ويجوز أن تكون زائدةً، وتكون جملة ﴿أُنذِرَ﴾ صفة لـ﴿قَوْمًا﴾، ففي ﴿مَّا﴾ أربعة أوجهٍ من الإعراب. ﴿فَهُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة تفريعية، ﴿هم﴾: مبتدأ، ﴿غَٰفِلُونَ﴾: خبره، والجملة في محل النصب، معطوف على جملة ﴿أنذر﴾ على كونها صفة لـ﴿قَوْمًا﴾، ﴿لَقَدْ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿قد﴾: حرف تحقيق، ﴿حَقَّ ٱلْقَوْلُ﴾: فعل وفاعل، ﴿عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾: متعلق بـ﴿حَقَّ﴾، والجملة الفعلية جواب القسم، وجملة القسم مستأنفة، ﴿فَهُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة تفريعية، ﴿هم﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ خبره، والجملة معطوفة على جملة الجواب.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾.

﴿إِنَّآ﴾: ناصب واسمه، وجملة ﴿جَعَلْنَا﴾ خبره، ﴿فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾: متعلق بـ﴿جَعَلْنَا﴾ على كونه مفعولاً ثانياً لـ﴿جَعَلْنَا﴾، ﴿أَغْلَٰلًا﴾: مفعول أول لها، وجملة ﴿إن﴾ مستأنفة مسوقة لتمثيل تصميمهم على الكفر، وأنه لا سبيل إلى ارعوائهم عن غيهم، ﴿فَهِىَ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة تفريعية، ﴿هي﴾: مبتدأ، ﴿إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، تقديره: مجموعة أو مرفوعة إلى الأذقان، والجملة الاسمية معطوفة مفرعة على جملة ﴿جَعَلْنَا﴾، ﴿فَهُم﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة تفريعية، ﴿هم﴾: مبتدأ ﴿مُّقْمَحُونَ﴾: خبره، والجملة معطوفة مفرعة على جملة قوله: ﴿فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾، ﴿وَجَعَلْنَا﴾: فعل وفاعل، معطوف على ﴿جَعَلْنَا﴾ الأول، ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾: جار ومجرور ومضاف إليه، متعلق بـ﴿جَعَلْنَا﴾ على كونه مفعولاً ثانياً له، ﴿سَدًّا﴾: مفعول أول له، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾: معطوف على ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾، ﴿سَدًّا﴾: معطوف على ﴿سَدًّا﴾ الأول، ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة تفريعية، ﴿أغشيناهم﴾: فعل وفاعل ومفعول به، معطوف على ﴿جَعَلْنَا﴾، ﴿فَهُمْ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة تفريعية ﴿هم﴾: مبتدأ، وجملة ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية معطوفة على جملة ﴿أغشينا﴾.

﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾.

﴿وَسَوَآءٌ﴾: الواو: استئنافية، ﴿سواء﴾: خبر مقدم، ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلق بـ﴿سواء﴾؛ لأنه بمعنى: مستوٍ. ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾: ﴿الهمزة﴾: حرف استفهام وتسوية، ﴿أنذرتهم﴾: فعل وفاعل ومفعول به، ﴿أَمْ﴾: حرف عطف معادل لهمزة التسوية، ﴿لَمْ﴾: حرف نفي وجزم، ﴿تُنذِرْهُمْ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، معطوف على جملة ﴿أنذرتهم﴾، وجملة ﴿أنذرتهم﴾ في تأويل مصدر من غير سابك لإصلاح المعنى، أو بسابك هو همزة التسوية، مرفوع على كونه مبتدأ لـ﴿سواء﴾ تقديره: وإنذارك إياهم وعدم إنذارك إياهم سواء؛ أي: مستويان، والجملة مستأنفة، ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة مؤكدة لما قبلها، أو حال مؤكدة له، ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، ﴿تُنذِرُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة مستأنفة، ﴿مَنِ﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿تُنذِرُ﴾، ﴿ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، ﴿وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، معطوف على ﴿ٱتَّبَعَ﴾. ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾: حال من فاعل ﴿خشي﴾، أو من مفعوله، ﴿فَبَشِّرْهُ﴾: ﴿الفاء﴾: فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جواب شرط مقدَّر تقديره: إذا عرفت إنما الإنذار لمن اتبع الذكر، وأردت بيان عاقبته.. فأقول لك: بشره، ﴿بشره﴾: فعل أمر وفاعل مستتر ومفعول به. ﴿بِمَغْفِرَةٍ﴾: متعلق به، ﴿وَأَجْرٍ﴾: معطوف على ﴿مغفرة﴾، ﴿كَرِيمٍ﴾: صفة ﴿أجر﴾، والجملة الفعلية في محل النصب مقول لجواب إذا المقدرة، وجملة إذا المقدرة مستأنفة.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿نَحْنُ﴾: مبتدأ، ﴿نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ مستأنفة، ﴿وَنَكْتُبُ﴾: فعل مضارع، وفاعل مستتر، معطوف على ﴿نُحْيِ﴾، ﴿مَا﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول ﴿نكتب﴾، وجملة ﴿قَدَّمُوا۟﴾: صلة ﴿مَا﴾ الموصولة، والعائد محذوف تقديره: ما قدموه ﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾: معطوف على ﴿مَا﴾، ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ﴾: الواو: استئنافية، ﴿كل شيء﴾: منصوب بفعل مضمر وجوباً يفسره ما بعده على سبيل الاشتغال تقديره:

وأحصينا كل شيء أحصيناه، والجملة المحذوفة مستأنفة، ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، جملة مفسرة لا محل لها من الإعراب، ﴿فِىٓ إِمَامٍ﴾: متعلق بـ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾، ﴿مُّبِينٍ﴾: صفة ﴿إِمَامٍ﴾. ﴿وَٱضْرِبْ﴾: الواو: استئنافية، ﴿اضرب﴾: فعل أمر، وفاعل مستتر يعود على محمد، والجملة مستأنفة، ﴿لَهُم﴾: جار ومجرور حال من ﴿مَّثَلًا﴾؛ لأنه صفة نكرة قدمت عليها، ﴿مَّثَلًا﴾: مفعول ثانٍ لـ﴿اضرب﴾؛ لأنه بمعنى: اجعل ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾: مفعول أول له، ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان في محل النصب على الظرفية بدل اشتمال من ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾، ﴿جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾: فعل ومفعول به وفاعل، والجملة الفعلية في محل الخفض بإضافة ﴿إِذْ﴾ إليها.

﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾.

﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان بدل من ﴿إِذْ﴾ الأولى بدل تفصيل من مجمل، وهو يدخل في نطاق بدل المطابق، أو بدل الكل من الكل، ﴿أَرْسَلْنَآ﴾: فعل وفاعل، ﴿إِلَيْهِمُ﴾: متعلق به، ﴿ٱثْنَيْنِ﴾: مفعول به لـ﴿أَرْسَلْنَآ﴾، وجملة ﴿أَرْسَلْنَآ﴾ في محل الجر مضاف إليه لـ﴿إِذْ﴾، ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾: فعل وفاعل ومفعول، معطوف على ﴿أَرْسَلْنَآ﴾، ﴿فَعَزَّزْنَا﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿كذبوهما﴾، ﴿بِثَالِثٍ﴾: متعلق بـ﴿عززنا﴾، ﴿فَقَالُوٓا۟﴾: فعل وفاعل معطوف على ﴿عززنا﴾، ﴿إِنَّآ﴾: ناصب واسمه، ﴿إِلَيْكُم﴾: متعلق بـ﴿مُّرْسَلُونَ﴾، و﴿مُّرْسَلُونَ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾، وجملة ﴿إِنَّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قالوا﴾، ﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿مَآ﴾: نافية، ﴿أَنتُمْ﴾: مبتدأ، ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر، ﴿بَشَرٌ﴾: خبر أنتم، ﴿مِّثْلُنَا﴾: صفة ﴿بَشَرٌ﴾، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾، والخطاب فيه للرسل الثلاثة، ﴿وَمَآ﴾: الواو: عاطفة، ﴿ما﴾: نافية، ﴿أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ فعل وفاعل، ﴿مِن﴾: زائدة ﴿شَىْءٍ﴾: مفعول ﴿أَنزَلَ﴾، والجملة الفعلية في محل النصب، معطوف على جملة قوله: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ﴾ ﴿ما﴾: نافية، ﴿أَنتُمْ﴾: مبتدأ، ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر، وجملة ﴿تَكْذِبُونَ﴾ في محل الرفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾، ﴿قَالُوا۟﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿رَبُّنَا﴾: مبتدأ، وجملة

﴿يَعۡلَمُ﴾ خبره، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾، ﴿إِنَّآ﴾: ناصب واسمه، ﴿إِلَيۡكُمۡ﴾: متعلق بـ﴿مرسلون﴾، ﴿لَمُرۡسَلُونَ﴾: خبر ﴿إنّ﴾، و﴿اللام﴾ حرف ابتداء، وجملة ﴿إنّ﴾ في محل النصب سادة مسد مفعول ﴿يَعۡلَمُ﴾، ﴿وَمَآ﴾: الواو: عاطفة، ﴿ما﴾: نافية، ﴿عَلَيۡنَآ﴾: خبر مقدم، ﴿إِلَّا﴾: أداة حصر، ﴿ٱلۡبَلَٰغُ﴾: مبتدأ مؤخر، ﴿ٱلۡمُبِينُ﴾: صفة ﴿ٱلۡبَلَٰغُ﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿رَبُّنَا﴾.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿قَالُوٓاْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿إِنَّا﴾: ناصب واسمه، ﴿تَطَيَّرۡنَا﴾: فعل وفاعل، ﴿بِكُمۡۖ﴾: متعلق به، وجملة ﴿تَطَيَّرۡنَا﴾ في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾، ﴿لَئِن﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم، ﴿إن﴾: حرف شرط جازم، ﴿لَّمۡ﴾: حرف جزم، ﴿تَنتَهُواْ﴾: فعل مضارع وفاعل، مجزوم بـ﴿لَّمۡ﴾، والجملة الفعلية في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وجواب ﴿إن﴾ الشرطية محذوف دلَّ عليه جواب القسم، تقديره: نرجمكم، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾ على كونها معترضة، ﴿لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ﴾: ﴿اللام﴾: موطئة للقسم مؤكدة للأولى، ﴿نرجمن﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد، والكاف مفعول به، والجملة جواب القسم لا محل لها من الإعراب، وجملة القسم في محل النصب مقول ﴿قَالُوٓاْ﴾، ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم﴾: الواو: عاطفة، واللام: موطئة للقسم، ﴿يمسن﴾: فعل مضارع مبني على الفتح، والنون للتوكيد، والكاف مفعول به، ﴿مِّنَّا﴾: متعلق بـ﴿يمسن﴾، ﴿عَذَابٌ﴾: فاعل، ﴿أَلِيمٞ﴾: صفة ﴿عَذَابٌ﴾، والجملة معطوفة على جملة قوله: ﴿لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ﴾. ﴿قَالُواْ﴾: فعل وفاعل، والجملة مستأنفة، ﴿طَٰٓئِرُكُم﴾: مبتدأ، ﴿مَّعَكُمۡۚ﴾: ظرف متعلق بمحذوف خبر المبتدأ، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالُواْ﴾، ﴿أَئِن﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام التوبيخي، ﴿إن﴾: حرف شرط ﴿ذُكِّرۡتُمۚ﴾: فعل ماضٍ مغيَّر الصيغة ونائب فاعل، في محل الجزم بـ﴿إن﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، وجواب الشرط محذوف، والقاعدة عند سيبويه: أنه إذا اجتمع شرط واستفهام.. يجاب الاستفهام ويحذف جواب الشرط، والتقدير عنده: أإن ذكرتم تتطيرون وتوعدون، وذهب غيره إلى إجابة الشرط، والتقدير

عندهم: أإن ذكرتم تتطيروا بالجزم، وجملة ﴿إن﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾، ﴿بَلْ﴾: حرف ابتداء وإضراب، ﴿أَنتُمْ﴾: مبتدأ، ﴿قَوْمٌ﴾: خبر، ﴿مُّسْرِفُونَ﴾: صفة ﴿قَوْمٌ﴾، والجملة الاسمية في محل النصب مقول ﴿قَالُوا۟﴾.

﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَجَآءَ﴾: الواو: عاطفة أو استئنافية، ﴿جاء﴾: فعل ماض، ﴿مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾: متعلق بـ﴿جاء﴾، ﴿رَجُلٌ﴾ فاعل، وجملة ﴿يَسْعَىٰ﴾ صفة لـ﴿رَجُلٌ﴾، أو حال منه لوصفه بصفة محذوفة معلومة من السياق؛ أي: رجل عظيم الشأن عند الله، والجملة الفعلية مستأنفة، أو معطوفة على الجمل التي قبلها، ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على رجل، والجملة مستأنفة، ﴿يَـٰقَوْمِ﴾: منادى مضاف، وجملة النداء في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن﴾: فعل وفاعل ومفعول، والجملة الفعلية توكيد للجملة التي قبلها، ﴿لَّا﴾: نافية، ﴿يَسْـَٔلُكُمْ﴾: فعل، وفاعل مستتر يعود على ﴿مَن﴾ ومفعول أول، ﴿أَجْرًا﴾: مفعول ثانٍ، والجملة صلة ﴿مَن﴾ الموصولة، ﴿وَهُم﴾: الواو: حالية، ﴿هُم﴾: مبتدأ، ﴿مُّهْتَدُونَ﴾: خبر ﴿هم﴾، والجملة في محل النصب حال من فاعل ﴿يسأل﴾، والجمع باعتبار معنى ﴿مَن﴾، ﴿وَمَا﴾: الواو: عاطفة، ﴿ما﴾: اسم استفهام في محل الرفع مبتدأ، ﴿لِىَ﴾: جار ومجرور في محل الرفع خبر، والجملة الاسمية في محل النصب معطوفة على جملة قوله: ﴿يَـٰقَوْمِ﴾، ﴿لَآ﴾: نافية، ﴿أَعْبُدُ﴾: فعل مضارع وفاعل مستتر، ﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول في محل النصب مفعول به، والجملة الفعلية في محل النصب حال من ياء المتكلم، ﴿فَطَرَنِى﴾: فعل وفاعل مستتر ومفعول به، والجملة صلة الموصول، ﴿وَإِلَيْهِ﴾: متعلق بـ﴿تُرْجَعُونَ﴾، و﴿تُرْجَعُونَ﴾: فعل مغيَّر الصيغة ونائب فاعل، معطوف على ﴿فَطَرَنِى﴾.

﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿ءَأَتَّخِذُ﴾: ﴿الهمزة﴾: للاستفهام الإنكاري، ﴿أتخذ﴾: فعل مضارع وفاعل

مستتر، ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾: جار ومجرور، متعلق بـ﴿أتخذ﴾ على كونه مفعولاً ثانياً له، ﴿ءَالِهَةً﴾: مفعول أول له، والجملة في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿إِن﴾: حرف شرط، ﴿يُرِدْنِ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿إِنْ﴾ الشرطية على كونه فعل شرط لها، والنون نون الوقاية، وياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بكسر نون الوقاية مفعول به، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾: فاعل، ﴿بِضُرٍّ﴾: متعلق بـ﴿يُرِدْنِ﴾، ﴿لَّا﴾: نافية، ﴿تُغْنِ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿إِنْ﴾ الشرطية على كونه جواباً لها، وعلامة جزمه حذف حرف العلة، ﴿عَنِّى﴾ متعلق بـ﴿تُغْنِ﴾، ﴿شَفَٰعَتُهُمْ﴾: فاعل ﴿تُغْنِ﴾، ﴿شَيْـًٔا﴾: مفعول مطلق، أو مفعول به، وجملة ﴿إِنْ﴾ الشرطية في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿وَلَا﴾: الواو: عاطفة ﴿لا﴾: نافية، ﴿يُنقِذُونِ﴾: فعل مضارع وفاعل، معطوف على ﴿تُغْنِ﴾ مجزوم بـ﴿إن﴾ الشرطية، وعلامة جزمه حذف النون، والنون نون الوقاية، وياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بكسر نون الوقاية مفعول به، لأن أصله: ينقذونني.

﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿إِنِّىٓ﴾: ناصب واسمه، ﴿إِذًا﴾: حرف جواب وجزاء لا عمل لها لفقد شرطها، ﴿لَّفِى﴾: ﴿اللام﴾: حرف ابتداء، ﴿في ضلال﴾: جار ومجرور خبر إن، ﴿مُّبِينٍ﴾: صفة ﴿ضَلَٰلٍ﴾، وجملة ﴿إنّ﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿إِنِّىٓ﴾: ناصب واسمه، ﴿ءَامَنتُ﴾: فعل وفاعل، ﴿بِرَبِّكُمْ﴾: متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع خبر ﴿إنّ﴾، وجملة ﴿إن﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿فَٱسْمَعُونِ﴾: ﴿الفاء﴾: عاطفة ﴿اسمعوا﴾: فعل أمر وفاعل مبني على حذف النون، والنون نون الوقاية، وياء المتكلم المحذوفة اجتزاء عنها بكسر نون الوقاية في محل النصب مفعول به، والجملة معطوفة على جملة ﴿ءَامَنتُ﴾، ﴿قِيلَ﴾: فعل ماض مغيَّر الصيغة، ﴿ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾: نائب فاعل محكي لـ﴿قِيلَ﴾، والجملة الفعلية مستأنفة، وإن شئت قلت: ﴿ٱدْخُلِ﴾: فعل أمر وفاعل مستتر، ﴿ٱلْجَنَّةَ﴾: ظرف مكان متعلق به، والجملة الفعلية في محل الرفع نائب فاعل لـ﴿قِيلَ﴾، ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعل مستتر يعود على ﴿رَجُلٌ﴾، والجملة مستأنفة، ﴿يَٰلَيْتَ﴾ ﴿يا﴾: حرف تنبيه، أو حرف نداء، والمنادى محذوف تقديره: يا هؤلاء، ﴿ليت قومي﴾: ناصب

واسمه، وجملة ﴿يَعۡلَمُونَ﴾: خبره، وجملة ﴿ليت﴾ في محل النصب مقول ﴿قَالَ﴾، ﴿بِمَا﴾: متعلق بـ﴿يَعۡلَمُونَ﴾، ﴿ما﴾: مصدرية أو موصولة، ﴿غَفَرَ﴾: فعل ماض، ﴿لِي﴾: متعلق به، ﴿رَبِّي﴾: فاعل ﴿غَفَرَ﴾، والجملة صلة ﴿ما﴾ المصدرية؛ أي: بغفران ربي لي، أو بالسبب الذي غفر به ربي ذنوبي، وهو الإيمان، وقال الفراء: ويجوز جعلها استفهامية؛ يعني: بأي شيء غفر لي ربي؟ ورد عليه بأنها لو كانت استفهامية.. لحذفت ألفها، كما هو القاعدة عند دخول الجار عليها، وأجيب عنه: بأن حذفها أغلبي لا اطرادي، والمشهور أن إثبات الألف في ما الاستفهامية إذا دخل عليها حرف جر مختص بضرورة الشعر نحو قوله:

عَلَىٰ مَا قَامَ يَشْتُمُنِي لَئِيْمٌ ... كَخِنْزِيْرٍ تَمَرَّغَ فِيْ رَمَادِ

وحذفها هو المعروف في الكلام نحو قوله:

عَلَامَ يَقُوْلُ الرُّمْحُ يُثْقِلُ كَاهِلِيْ ... إِذَا أَنَا لَمْ أَطْعَنْ إِذَا ٱلْخَيْلُ كَرَّتِ

﴿وَجَعَلَنِي﴾: الواو: عاطفة، ﴿جعلني﴾: فعل وفاعل مستتر ونون وقاية ومفعول أول ﴿مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾: جار ومجرور متعلق بـ﴿جعلني﴾ على أنه مفعول ثانٍ لـ﴿جعل﴾، والجملة معطوفة على جملة ﴿غَفَرَ لِي﴾.

التصريف ومفردات اللغة

﴿يسٓ ①﴾ تقدم الكلام في نظائره من الحروف المقطعة في أوائل السور، وأن الرأي الراجح فيها أنها حروف تنبيه، نحو: ألا ويا، وينطق بأسمائها فيقال: ياسين. روي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال: يس؛ أي: يا إنسان بلغة طيء.

﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾؛ أي: ذو الحكمة، يقال: قصيدة حكيمة؛ أي: ذات حكمة، يقال: حكم الرجل من باب كرم؛ أي: صار حكيماً، ومنه قول النابغة:

وَٱحْكُمْ كَحُكْمِ فَتَاةِ ٱلْحَيِّ إِذْ نَظَرَتْ ... إِلَىٰ حَمَامٍ شِرَاعٍ وَارِدِ ٱلثَّمَدِ

وأحكمته التجارب: جعلته حكيماً، وقال آخر:

وَقَصِيْدَةٍ تَأْتِيْ ٱلْمُلُوْكَ حَكِيْمَةٍ ... قَدْ قُلْتُهَا، لِيُقَالَ: مَنْ ذَا قَالَهَا؟

وعبارة «الكرخي»: الحكيم: فعيل بمعنى: مفعل، كقولهم: عقدت العسل فهو

عقيد بمعنى: معقد، وليس بمعنى مفعول، كشيطان رجيم بمعنى: مرجوم، وليس هو في الآية كذلك؛ لأنه إنما يقال محكوم به ونحو ذلك، ولا بمعنى: فاعل؛ أي: حاكم؛ لأن الحاكم الحقيقي هو الله تعالى، فظهر بذلك أن القرآن محكوم فيه لا حاكم، وأن الحاكم المطلق هو الله تعالى، أو على معنى النسب؛ أي: ذي الحكم؛ لأنه دليل ناطق بالحكمة بطريق الاستعارة، أو المتصف بها على الإسناد المجازي.

﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣﴾ من الإرسال، والإرسال قد يكون للتسخير، كإرسال الريح والمطر، وقد يكون بمعنى بعث من له اختيار، نحو إرسال الرسل، كما في «المفردات».

﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾؛ أي: متصفون بالغفلة، والغفلة: ذهاب المعنى عن النفس، والنسيان: ذهابه عنها بعد حضوره. قال بعضهم: الغفلة: نوم القلب، فلا تعتبر حركة اللسان إذا كان القلب نائماً، ولا يضر سكوته إذا كان متيقظاً، ومعنى التيقظ: أن يشهده تعالى حافظاً له رقيباً عليه قائماً بمصالحه.

﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ﴾؛ أي: ثبت ووجب، والقول الحكم والقضاء الأزلي. ﴿أَغْلَٰلًا﴾: جمع غل بضم الغين، وهو القيد الذي يوضع في اليد، وقد تشد به اليد إلى العنق، وفي «المفردات»: أصل الغلل: تدرع الشيء وتوسُّطه، ومنه: الغلل للماء الجاري، مختص بما يقيد به، فيجعل الأعضاء وسطه، وغل فلان: قيد به، وقيل للبخيل: هو مغلول اليد.

﴿فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ جمع ذقن بفتح الذال والقاف وبكسر الذال وبفتح القاف ومجتمع اللحيين من أسفلهما.

﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ جمع: مقمح، والمقمح: الذي يرفع رأسه، ويغض بصره من الإقماح، يقال: قمح البعير فهو قامح إذا رفع رأسه بعد الشرب لارتوائه، أو لبرودة الماء، أو لكراهة طعمه، كما مرَّ، وفي «المختار» الإقماح: رفع الرأس، وغض البصر، يقال: أقمحه الغل إذا ترك رأسه مرفوعاً من ضيقه. اهـ. وفي «القاموس»: وأقمح الغل الأسير: إذا ترك رأسه مرفوعاً لضيقه.

﴿سَدًّا﴾ السد ـ بفتح السين وضمها ـ: الحاجز بين الشيئين والجبل، والجمع: أسداد. قال علي بن أبي طالب: وضرب على قلبه بالأسداد؛ أي: سدت

عليه الطرق، وعميت عليه المذاهب.

﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ﴾؛ أي: أغشينا أبصارهم؛ أي: غطيناهم، وجعلنا عليها غشاوة عن أن تطمح إلى مرئي. ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾؛ أي: عقابه، ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾؛ أي: قبل حلوله ومعاينة أهواله. ﴿نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ والإحياء: جعل الشيء حياً ذا حس وحركة، والميت: من أخرج روحه.

﴿مَا قَدَّمُوا۟﴾؛ أي: أسلفوا من الأعمال الصالحة والطالحة. ﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾؛ أي: ما أبقوه بعدهم من الحسنات، كعلم علموه، أو كتاب ألفوه أو بناء في سبيل الله بنوه، أو من السيئات، كغرس بذور الضلالات بين الناس.

﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾ قال ابن الشيخ: أصل الإحصاء: العد، ثم استعير للبيان والحفظ؛ لأن العد يكون لأجلهما، وفي «المفردات»: الإحصاء: التحصيل بالعدد، يقال: أحصيت كذا، وذلك من لفظ الحصي، واستعمال ذلك فيه؛ لأنهم كانوا يعتمدون عليه في العد اعتمادنا فيه على الأصابع.

﴿فِىٓ إِمَامٍ﴾؛ أي: أصلٍ يؤتم به، قال الراغب: الإمام المؤتم به إنساناً كان يقتدى بقوله وبفعله، أو كتاباً أو غير ذلك، محقاً كان أو مبطلاً، وجمعه: أئمة.

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ القرية - بفتح القاف وكسرها -: الضيعة، والمصر الجامع، وجمع الناس، والجمع: قرًى، وقرىء بضم القاف وكسرها، والنسبة إليها: قروي وقرييّ، والمراد بها هنا: أنطاكية كما سبق.

﴿فعززناهما﴾؛ أي: قويناهما وشددناهما، يقال: عزز المطر الأرض إذا لبدها وسددها، وأرض عزاز؛ أي: صلبة، وتعزز اللحم: اشتد وعز، كأنه حصل في عزاز يصعب الوصول إليه.

﴿إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾؛ أي: التبليغ الواضح الظاهر للرسالة. ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾؛ أي: تشاءمنا، والتطير: التشاؤم، وأصله: من الطير إذا طار إلى جهة اليسار تشاءموا به، وأصل التطير: التفاؤل بالطير، فإنهم يزعمون أن الطائر السانح - أي: الذي طار إلى جهة اليمين - سببٌ للخير، والبارح - أي: الذي طار إلى جهة اليسار - سبب للشر، ثم استعمل في كل ما يتشاءم به، طيراً كان أو غيره.

﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ وفي «المختار»: طائر الإنسان: عمله الذي قلّده، والطير

أيضاً الاسم من التطير، ومنه قولهم: لا طير إلا طير الله، كما يقال: لا أمر إلا أمر الله، وقال ابن السكيت يقال: طائر الله لا طائرك، ولا تقل: طير الله، وتطيَّر من الشيء وبالشيء، والاسم: الطيرة بوزن عنبة، وهي ما يتشاءم به من الفأل الرديء. ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ﴾ والضر: اسم لكل سوء ومكروه يتضرر به. ﴿وَلَا يُنقِذُونِ﴾ من الإنقاذ، وهو: التخليص من المخاوف والمكاره.

البلاغة

وقد تضمنت هذه الآيات ضروباً من البلاغة، وأنواعاً من الفصاحة والبيان والبديع:

فمنها: جمع المؤكدات في قوله: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣﴾ لردِّ إنكار الكفرة بقولهم في حقه ﷺ: لست مرسلاً، وما أرسل الله إلينا رسولاً، فإنه أكد بالقسم، وبإن، وباللام، وباسمية الجملة؛ لأن المقام مقام الإنكار.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ فإنه شبَّه حال الكفار في امتناعهم من الهدى والإيمان بمن غلت يده إلى عنقه بالسلاسل والأغلال، فأصبح رأسه مرفوعاً لا يستطيع خفضاً له ولا التفاتاً على طريقة الاستعارة التمثيلية.

ومنها: القلب في قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾؛ إذ حقيقة الكلام: جعلنا أعناقهم في الأغلال، وقال ثعلب: في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ۝٣٢﴾ إن المعنى: اسلكوا فيه سلسلة؛ أي: أدخلوا في عنقه سلسلة.

ومنها: التنكير في قوله: ﴿أَغْلَٰلًا﴾ مبالغة في تعظيمها وتهويل أمرها.

ومنها: الاستعارة التمثيلية في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾ الآية، فقد شبههم بمن أحاط بهم سدان هائلان، فغطيا أبصارهم بحيث لا يبصرون قدامهم ووراءهم في أنهم محبوسون في وهدة الجهالة، ممنوعون من النظر في الآيات والدلائل، أو كأنهم وقد حرموا نعمة التفكير في القرون الخالية والأمم الماضية، والتأمل في مغاب الآتية والعواقب المستقبلية، قد أحيطوا بسدٍّ من أمامهم، وسد من

ورائهم، فهم في ظلمة داكنة لا تختلج العين من جانبها بقبس، وتتوسم بصيصاً من أمل.

ومنها: تكرير الضمير في قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ لزيادة التأكيد.

ومنها: الاستعارة التصريحية التبعية في قوله: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ﴾؛ لأنه استعار الإحصاء بمعنى العد للإحصاء بمعنى البيان بجامع الضبط في كل، فاشتق من الإحصاء بمعنى البيان، أحصينا بمعنى: بينا على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية.

ومنها: الإيجاز بالحذف في قوله: ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ فقد حذف مفعول ﴿فَعَزَّزْنَا﴾، والتقدير: فعززهما بثالث.

ومنها: التأكيدات في قوله: ﴿إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ الآيات، ففي هذه الآيات يبدو التأكيد بأروع صورة للخبر، فقال أولاً: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا﴾ فأورد الكلام ابتدائي الخبر، ثم قال: ﴿إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾، فأكده بمؤكدين، وهو: إن، واسمية الجملة، فأورد الكلام طلبياً، ثم قال: ﴿إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾، فترقى في التأكيد بثلاثة، وهي: إن، واللام، واسمية الجملة، فأورد الكلام إنكاري الخبر جواباً عن إنكارهم، قيل: وفي قوله: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ﴾ تأكيد رابع، وهو إجراء الكلام مجرى القسم في التأكيد به، وفي أنه يجاب بما يجاب به القسم، وفي هذه الآية ائتلاف الفاصلة مع ما يدل عليه سائر الكلام، فإن ذكر الرسالة مهد لذكر البلاغ والبيان.

ومنها: قصر القلب في قوله: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ فالمخاطبون وهم الرسل لم يكونوا جاهلين بكونهم بشراً ولا منكرين لذلك، لكنهم نزّلوا منزلة المنكرين لاعتقاد الكفار أن الرسول لا يكون بشراً، فنزلوهم منزلة المنكرين للبشرية لما اعتقدوا التنافي بين الرسالة والبشرية، فقلبوا هذا الحكم وعكسوه وقالوا: ما أنتم إلا بشر مثلنا؛ أي: أنتم مقصورون على البشرية، ليس لكم وصف الرسالة التي تدعونها، فلا فضل لكم علينا يقتضي اختصاصكم بالرسالة دوننا، ولو أرسل الرحمن إلى البشر رسلاً لجعلهم من جنس أفضل منهم، وهم الملائكة على زعمهم.

ومنها: الطباق في قوله: ﴿مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾.

ومنها: طباق السلب في قوله: ﴿ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ﴾.

ومنها: الجناس الناقص في ﴿نَحۡنُ نُحۡيِ﴾ لتغير بعض الحروف.

ومنها: جناس الاشتقاق بين ﴿أَرۡسَلۡنَآ﴾ و﴿لَمُرۡسَلُونَ﴾، وبين ﴿تَطَيَّرۡنَا﴾ و﴿طَٰٓئِرُكُم﴾.

ومنها: الإطناب بتكرار الفعل في قوله: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ۝٢١﴾.

ومنها: الإيغال في قوله: ﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾، الإيغال عندهم: هو ختم الكلام بما يفيد نكتة يتم المعنى بدونها؛ لأن قوله: ﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ مما يتم المعنى بدونه؛ لأن الرسل مهتدون لا محالة، إلا أن فيه زيادة حث على اتباع الرسل وترغيب فيه.

ومنها: الالتفات في قوله: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾، وفائدته: أن في انتقاله من مخاطبتهم ومناصحتهم إلى التكلم تلطفاً بهم من جهة، ووعيداً لهم من جهة ثانية، فقد صرف الكلام أولاً إلى نفسه، وأراهم أنه لا يختار لهم إلا ما يختاره لنفسه، ثم التفت إلى مخاطبتهم ثانياً مقرعاً مهدداً بالعواقب التي تنتظرهم، ثم عاد أخيراً إلى التلطف في النصيحة؛ لأن ذلك أدخل في إمحاض النصح؛ حيث لا يريد لهم إلا ما يريد لنفسه، وقد وضع قوله: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ مكان قوله: وما لكم لا تعبدون الذي فطركم. ألا ترى إلى قوله: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾، ولولا أنه قصد ذلك لقال: الذي فطرني، وإليه أرجع.

ومنها: الاستفهام الإنكاري في قوله: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾.

ومنها: الحذف لدلالة السياق عليه في قوله: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَ﴾، والتقدير: فلما أشهر إيمانه.. قتلوه، فقيل له: ادخل الجنة.

ومنها: ائتلاف الفواصل في هذه الآي، وهو من خصائص القرآن لما فيه من روعة البيان، وحسن الوقع على السمع، وهو كثير في القرآن.

فائدة: من محاسن القرآن الكريم وبلاغته الخارقة الإيجاز في القصص والأنباء، والإشارة إلى روحها وسردها؛ لأن القصد من القصص التذكير والاعتبار،

ولهذا لم يذكر في القصة اسم البلدة، ولا اسم الشخص الذي دعاهم إلى الله تعالى، ولا أسماء الرسل الكرام؛ لأن كل ذلك ليس هو الهدف من القصة، وقس على هذا سائر قصص القرآن.

ومنها: الزيادة والحذف في عدة مواضع.

والله سبحانه وتعالى أجل وأعز وأكرم وأعلم، والحمد لله على إحسانه وإنعامه، وصلِّ وسلم ربنا على محمد وآله الطيبين الأخيار، وصحبه الكرام الأبرار، وأتباعهم إلى يوم العرض على الجبار[1].

* * *

---

(١) وإلى هنا وقفت الأقلام في تفسير هذا الجزء من الكتاب الكريم، وكان الفراغ منه بمكة المكرمة جوار المسجد الحرام في حي المسفلة في حارة الرشد في أوائل الليلة التاسعة من شهر صفر المبارك من شهور سنة ألف وأربع مئة وأربع عشرة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية، ٩/ ٢/ ١٤١٤هـ، وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين، آمين آمين يا رب آمين.
تم المجلد الثالث والعشرون، ويليه المجلد الرابع والعشرون، وأوله قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ...﴾ الآية.

شعرٌ

الْـعَـبْـدُ ذُوْ ضَـجَـرٍ وَٱلـرَّبُّ ذُوْ قَـدَرٍ وَٱلـدَّهْـرُ ذُوْ دُوَلٍ وَٱلـرِّزْقُ مَـقْـسُـوْمُ

وَٱلْـخَـيْـرُ أَجْـمَـعُ فِـيْـمَـا ٱخْـتَـارَ خَـالِـقُـنَـا وَفِـيْ ٱخْـتِـيَـارِ سِـوَاهُ ٱلـلَّـوْمُ وَٱلـشُّـوَمُ

آخرُ

أَلاَ إِنَّـمَـا ٱلـدُّنْـيَـا كَـظِـلٍّ سَـحَـابَـةٍ أَظَـلَّـتْـكَ يَـوْمـاً ثُـمَّ عَـنْـكَ ٱضْـمَـحَـلَّـتِ

فَـلاَ تَـكُ فَـرْحَـانـاً بِـهَـا حِـيْـنَ أَقْـبَـلَـتْ وَلاَ تَـكُ جَـزْعَـانـاً بِـهَـا حِـيْـنَ وَلَّـتِ

آخرُ

بِــلاَدُ ٱلــلَّــهُ وَاسِــعَــةٌ فَــضَــاءٌ وَرِزْقُ ٱلــلَّــهِ فِـيْ ٱلـدُّنْـيَـا فَـسِـيْـحُ

فَـقُـلْ لِـلْـقَـاعِـدِيْـنَ عَـلَـىٰ هَـوَانٍ إِذَا ضَـاقَـتْ بِـكُـمْ أَرْضٌ فَـسِـيْـحُـوْا

آخرُ

إِذَا رَأَيْــتَ لَــحِــيْــنَــا كُــنْ سَــاتِــراً وَحَــلِــيْــمَــا

يَــا مَــنْ يُــعَــيِّــبُ شَــرْحِــيْ لِــمْ لاَ تَــمُــرُّ كَــرِيْــمَــا

الفهرس